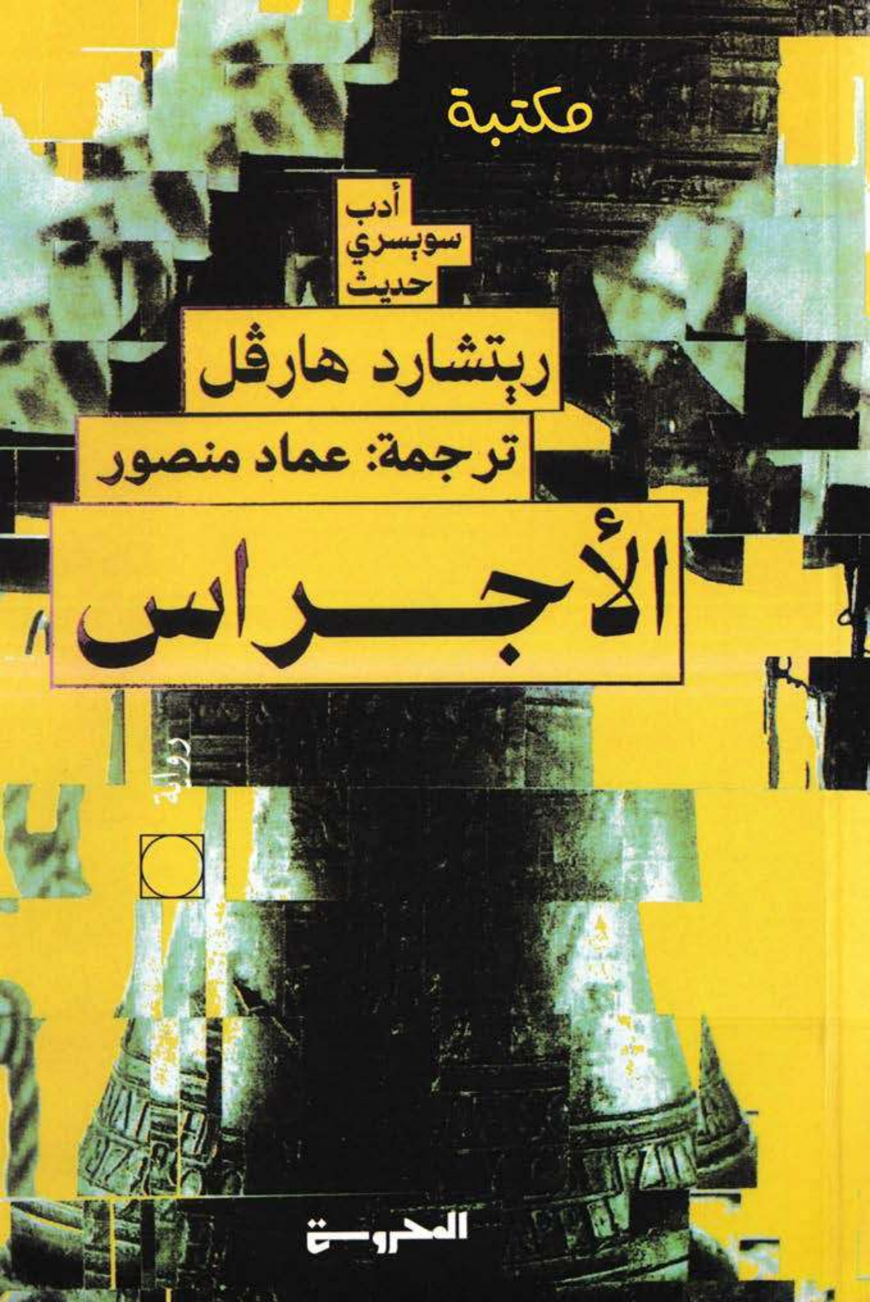

مكتبة
أدب
سويسري
حديث
ريتشارد هارڤل
ترجمة: عماد منصور
الأجراس
رواية
المحروسة

الأجراس

ريتشارد هارفل

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



عنوان الكتاب: الأجراس The Bells

المؤلف: ريتشارد هارڤل Richard Harvell

ترجمة: عماد منصور

مراجعة لغوية: محمود شرف

إخراج داخلي: رشا عبدالله



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 – المقطم – القاهرة

ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg

almahrosacenter

almahrosacenter

www.mahrousaeg.com

info@mahrousaeg.com

mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٢٥٤/ ٢٠٢٣

الترقيم الدولى: 978-977-313-984-1

المؤسسة الثقافية السويسرية

prohelvetia

"The translation of this work was supported by a grant from the Swiss Arts Council Pro Helvetia."

رواية

الأجراس

ريتشارد هارڤل

ترجمة

عماد منصور

الطبعة الأولى 2023



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هارفل، ريتشارد

الأجراس: رواية/ ريتشارد هارفل؛ ترجمة: عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023

543 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 1-984-313-977-978

1 - القصص السويسرية

أ-منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

849.43

رقم الإيداع 2023/16254

إلى دومينيك

تنويه إلى القارئ

ترعرعتُ ابنًا لرجلٍ لا يمكن بأيٍّ حال أن يكون أبي. ورغم أنه لم يوجد أيُّ شك بأن بِذرتي قد أتت من رجل آخر، إلّا أن موسى فروبن -(السويسري *Lo Svizzero*)- كان يدعوني "ابني" وأدعوه "أبي". في المرّات النادرة التي حاول فيها أحدهم السؤال عن إيضاحٍ، كان يضحك فحسب كما لو أن السائل إنسان أبله. "بالطبع إنه ليس ابني!" يجيبه. "لا تكن سخيفًا".

لكن متى حدثَ واستجمعتُ شجاعتي لسؤاله عن تفاصيل أكثر عن ماضينا، كان ينظر إليَّ فحسب بحزنٍ. "أرجوك، نيكولاي"، يقول بعد وهلة، كما لو كنّا عقدنا ميثاقًا ونسيته أنا. بمرور الوقت، أدركتُ أنني لن أعرف أبدًا أسرار ميلادي؛ ذلك أن أبي كان الإنسان الوحيد الذي يعرف تلك الأسرار، وكان عازمًا على حَمْلها معه إلى قبره.

ما عدا ذلك، لم يكن لأيِّ طفلٍ أن يتمنّى أكثر ممّا لديَّ. رافقتُه من فينيسيا إلى نابولي، وأخيرًا، هنا، إلى لندن. لم أترك جانبه إلّا نادرًا حتّى

التحقـتُ بأكسـفورد. وحتّـى بعـد ذلـك، عندمـا بـدأتُ حيـاتي العمليـة، البعيـدة عـن مجالـه، لم يكـن افتراقنـا عـن بعضنـا البعـض يزيـد لأكـثر مـن شـهرين قـطُّ. كنـتُ أسـمعه يغنّـي في أكـبر الأوبـرات في أوروبـا. أجلـس بجـواره في عربتـه فيـما حشـود المعجبـين تهـرع عـلى طـول الطريـق، وترجـوه أن يُحيِّيهـا بابتسـامةٍ. خـلال كل هـذا، أبـدًا لم أعـرف شـيئًا عـن مـوسى فروبـن البائـس؛ لم أعـرف سـوى (السـويسري *Lo Svizzero*) الشـهير، الـذي كان بمقـدوره إصابـة النسـاء بإغـماءات بمجـرد تلويحـة مـن يديـه، الـذي كان بمقـدوره اسـتدرار دمـوع الجمهـور بصوتـه فحسـب.

لـكَ أن تتخيّـل بالتـالي مـدى اندهـاشي عندمـا اكتشـفتُ هـذه الكَومـة مـن الأوراق، بعـد أسـبوعٍ مـن وفـاة أبي في الربيـع الفائـت، ووجـدتُ فيهـا كل مـا كنـتُ أتـوقُ إلى معرفتـه: عـن ميـلاد أبي وميـلادي؛ عـن أصل اسـمي؛ عـن أمـي؛ وعـن الجريمـة التـي طالمـا أبقـت أبي صامتًـا.

رغـم أنـه فيـما يبـدو كان يقصـدني أنـا كقـارئ لهـذه الأوراق؛ إلا أننـي لا أصـدق حتـمًا أنـه لم يرغـب في أن تقـع أعـينٌ أخـرى عليهـا أيضًـا. كان أبي مُغنِّيًـا، تذكَّـرْ، مـارسَ غنـاءه بجـوار النوافـذ المفتوحـة، حتّـى يحظـى أيُّ رجـل أو امـرأة تعـبر الشـارع بالفرصـة لسـماع مـلاكٍ يُغنّـي.

نيكولاي فروبن
لندن، *6* أكتوبر، *1806*

الفصل الأول

(1)

في البدء كانت الأجراس -ثلاثةٌ منها- مصبوبةً من مجارف ومعازق ومعاول مُلتوية، وقدورٍ مُتكسِّرة، ونصال محارث كابية، وموقد صَدِئ واحد، مصهورةً في بعضها البعض، وعملة ذهبية واحدة في كل منها. كانت أجراسًا خشنة وسوداء باستثناء على طول حوافّها الفضية، حيث ضَربَت مطارق أمّي مليون ضربةً. كانت أمّي ضئيلة بما يكفي لترقص تحتها في برج الأجراس. وفي تمايُلها، تتواثب قدماها من الألواح الخشبية المصقولة، ليقابل الجرسُ المطرقة، ويُجلجل من تاجه إلى أطراف نعل أمّي المُدبَّب.

كانت أعلى أجراس الأرض صوتًا، كل أبناء وادي أُوري قالوا بهذا، ورغم أنني أعرف الآن أجراسًا أقوى منها، إلّا أن موضعها على وادي أوري جعلها صادحةً بحقٍّ. كان بالإمكان سماعها صداها من مياه بحيرة لوتسرن وحتى ثلوج معبر جوتارد. كانت صلصلتها تُحيِّي التُّجار القادمين من إيطاليا، وتُجبِر الجنود السويسريون على الضغط

براحاتهم على آذانهم فيما يسيرون في أرتالٍ مُحتشدةٍ على طريق أوري. عندما تبدأ في القرع، ترفض جحافل الثيران التَّحرُّك، وحتَّى أكثر الرجال بدانةً يفقد الرغبة في الأكل من الرجفة في أمعائهم. سرعان ما أصيبت الأبقار التي ترعى في المروج بالصَّمَم، وصارَ الشباب من رعاة القطعان ذوي آذانٍ كابيةٍ كالعجائز رغم اختبائهم في أكواخهم صباحًا وظهيرةً وليلًا عندما تقرع أمِّي أجراسها.

وُلِدتُ في برج الأجراس ذاك، فوق الكنيسة الصغيرة. هناك أُرضِعتُ. وعندما يصير دافئًا بما يكفي، هناك كنّا ننام. إذا لم تكن تؤرجح مطارقها، كُنا نجثم معًا تحت الأجراس، بالحوائط الأربعة لبرج الكنيسة مفتوحةً على العالم. كانت أمِّي تحميني من الرياح وتُمسِّد على جبيني. ورغم أنها لم تنطق بكلمة لي، ولا أنا لها، إلَّا أنها كانت تراقب فمي فيما أهذر بأصواتِ الرُّضَّع. كانت تدغدغني حتَّى أضحك. عندما تعلَّمتُ الحبو، كانت تُمسك بقدمَيَّ حتى لا أسقط من الحافَّة وألقى حتفي على الصخور الناتئة في الأسفل. تساعدني على الوقوف. أمسك بإصبع في كل قبضة، وتقودني هي في دوائر، مارّين بالحافة مائة مرة في اليوم. من ناحية المساحة، كان بُرج أجراسنا عالمًا متناهي الصِّغر- الكثيرون ظنُّوه سجنًا لطفل. لكن من ناحية الصوت، كان أضخم بيت على الأرض. ذلك أن كل صوتٍ انبعثَ قطّ كان مسجونًا في معدن هذه الأجراس، وفي اللحظة التي تطرقها فيها أمِّي، كانت تُطلق جمالَها إلى العالم. بذلك كانت آذانٌ كثيرة تسمع الدويَّ الراعد بصداه يتردَّد عبر الجبال. كانوا يمقتونه؛ أو يُلهَمون بقدرته؛ أو ينتشون حتَّى يجدوا أنفسهم يحدِّقون في الفراغ؛ أو يصرخون فيما الاهتزازات تنزع عنهم أحزانهم. لكنهم لم يجدوه جميلًا. لم يكن بمقدورهم. كان جَمال ذلك الدَّويِّ محفوظًا لأمِّي، ولي، وحدنا.

* * *

أتمنّى لو كانت البداية هكذا حقًّا: أمّي وهذه الأجراس فحسب، حواء وآدم صوتي، وأفراحي، وأحزاني. لكن هذا لم يكن حقيقيًا بالطبع. لديَّ أب؛ أمّي أيضًا لديها أب. والأجراس أيضًا، لديها أب. أبوها هو ريتشارد كيلشمار؛ الذي ترنَّح ذات ليلة عام 1725 على منضدة، ثملًا للغاية، لحدِّ أنه رأى قمرين وليس واحدًا.

أغلق عينًا واعتصرَ الأخرى حتى امتزج القمران في مدار مُغبَّش واحد. تطلَّعَ من حوله: مائتا رجل يملؤون ميدان آلتدورف، في مدينةٍ كانت تفتخر لكونها في القلب من الكونفدرالية السويسرية. كان هؤلاء الرجال يحتفلون بالحصاد، وتتويج البابا الجديد، وليلة الصيف الدافئة. مائتا رجل غارقون حتّى أعقابهم في الطمي الممتزج بالبول. مائتا رجل بأقداح خمرة الشنابس اللاذعة المسفوعة من ثمار إجاص وادي أوري. مائتا رجل سكارى مثل ريتشارد كيلشمار.

"هدوء!" صرخَ في الليل، الذي بدا له دافئًا ورائقًا تمامًا كالأفكار الدائرة في رأسه. "سأتحدَّث".

"تحدَّث!" صرخوا بدورهم.

صاروا هادئين. وعاليًا فوقهم، التمَعَت ذُرى الألب في ضوء القمر كأسنان وسط لثةٍ سوداء، مُتعفِّنة.

"البروتستانت كلاب!" صرخَ، رافعًا قدحه، ومُوشكًا على التَّعثُّر والسقوط من المنضدة. هتفوا وصبُّوا اللعنات على الكلاب في زيورخ، تلك الكلاب الثَّريَّة. صبُّوا اللعنات على الكلاب في بِرن، وعلى الكلاب ذات البنادق وجيشها الذي بمقدوره تسلُّق الجبال وغَزو وادي أوري إذا شاء. صبُّوا اللعنات على الكلاب في الأراضي الألمانية في الشمال البعيد؛ الكلاب التي لم تُسمَع قَطُّ بوادي أوري. صبُّوا اللعنات على الكلاب لكُرهها الموسيقى، لتشويهها مريم العذراء، لرغبتها في إعادة كتابة الكتاب المُقدَّس.

اخترقت هذه اللعنات، راكدةً لمائتي عام في عواصم أوروبا، قلب كيلشمار. استدرّت الدموع في عينيه- هؤلاء الرجال أمامه هم إخوته! لكن بماذا يجيبهم؟ بماذا يستطيع أن يَعِدَهُم؟ القليل جدًّا. ليس في مقدوره أن يبني لهم قلعةً ذات مدافع. كان واحدًا من أغنى رجال وادي أوري، لكن لا يستطيع الإنفاق على جيشٍ. لا يستطيع مواساتهم بحكمته؛ ذلك أنه لم يكن رَجُلَ أدبٍ.

ثم سمعوها جميعًا، الإجابة على تضرُّعه الصامت. جلجلةٌ جعلتهم يرفعون أعينهم العمشاء نحو السماء. أحدهم تسلَّق برج الكنيسة وقرعَ الجرس. كان أجمل وأمضُّ صوتًا سمعه ريتشارد كيلشمار في حياته. تردَّد صداه عبر المنازل والجبال. نغزَ الدويُّ بطنَه المنتفخة. وعندما توقَّفت الجلجلة، كان الصمت دافئًا ورطبًا كالدموع التي فركها كيلشمار عن عينيه.

أومأ للحشد. أجابته مائتا رأس بمائتي إيماءة.

"سأمنحكم أجراسًا"، همسَ. أجالَ قدحه عبر سماء منتصف الليل. ارتفع صوته حتى تحوَّل إلى صياح. "سأبني كنيسة لإيواء تلك الأجراس، عاليًا في الجبال، حتى يصل صدى الجلجلة إلى كل إنشٍ من تراب أوري! ستكون أصدح وأجمل أجراسًا بُنيت قطُّ!".

ازداد هتافهم صخبًا عن ذي قبل. رفعَ ذراعيه في انتصار. غسلت خمرة شنابس جبينه. ثم غمسَ والباقون أعينهم في قاع أقداحهم واجترعوا ما فيها لآخر قطرة، مُصدِّقين على وعد كيلشمار.

فيما يحتسي القطرة الأخيرة، تعثَّرَ كيلشمار في خطوةٍ راجعة وسقط من على المنضدة. قضى بقية الليل مستلقيًا في الطمي، يَحلُمُ بأجراسه.

استيقظَ ليجد نفسه وسط دائرة من سماءٍ زرقاء مُشكَّلة من عشرين وجهًا غارقًا في التبجيل.

"أرشِدنا!" توسَّلوا إليه.

بدا تبجيلهم له وكأنه يرفعه لينهض واقفًا، وبعد ستٍّ أو ثماني رشفاتٍ نهمة من أقماعهم، ازداد شعوره بانعدام وزنه. سرعان ما وجد نفسه على ظهر حصانه يقود مسيرةً طويلة: خمسين حصانًا؛ عربات كثيرة ممتلئة بالنساء؛ وأطفال وكلاب تندفع عبر العُشب. إلى أين يقودهم، لم يعرف، ذلك أنه حتّى ذلك اليوم كان يجد الجبال عدائيةً وتهديدية. ولكنه الآن يقودهم صعودًا على طريق أوري نحو إيطاليا، نحو البابا، نحو حقول الجليد التي تلتمع في الشمس، وعندما استولى عليه الإلهام، انحرف بهم عن الطريق وبدؤوا في التَّسلُّق.

عاليًا وعاليًا صعدوا، حتّى المنحدرات والجليد تقريبًا. كيلشمار يقود الآن خمسمائة من أبناء أوري، وقد تَبِعوه حتى وصلوا إلى نتوء صخري ورأوا الوادي يمتدُّ أمامهم، ونهر ريوس كخيطٍ أبيض رفيع يضمُّ أطراف الوادي معًا.

"هنا"، همسَ. "هنا".

"هنا"، ردَّدوا. "هنا".

ثم استداروا لينظروا إلى القرية الصغيرة تحتهم مباشرةً، مجرد مجموعة عشوائية من المنازل البدائية. حدَّقَ أهل القرية وأبقارهم العجفاء برهبةٍ في هذا الاحتشاد عند التَّلِّ الصخري.

هذه القرية الصغيرة، الجائعة، التي أكتب عنها هي قرية نيبلمات. في هذه القرية ولدتُ (لتحترق حتّى تُسوَّى بالأرض ولتُغطِّيها انهيارات الجليد).

* * *

اكتمَلَت كنيسة كيلشمار في عام 1727، بعد أن شُيِّدَت بعَرَق أوري وبحجارة أوري فحسب، وبهذا ظلَّت الكنيسة في شهور الشتاء، مهما

أُحرق من أخشابٍ في الموقد، باردةً كالجبل التي شُيِّدت عليه. كانت كنيسة قصيرة وعريضة، بشكلٍ يشبه الحذاء. طُلبَ من الأسقف إرسال قسٍّ مناسبٍ للمنصب الذي يفرض الوحدة والوحشة. جاء ردُّه بعد أيامٍ قليلة في صورة قسٍّ شاب، كالح الوجه على باب كيلشمار- الأب المُتعلِّم كارل ڤيكتور فوندراخ. "الرجل المطلوب"، قالت رسالة الأسقف، "لوضعه في منصب على جبل ناءٍ، بارد. لا تُعِده إلينا مُجدَّدًا".

صار للكنيسة الآن سيِّدٌ، واثنتا عشرة أريكة بسيطة وسقفٌ يحميها من الأمطار، لكنها لا تحوي بَعدُ ما وعدَهم به كيلشمار: لم تحصل على أجراسها؛ ولهذا حزَم كيلشمار أغراضه في عَربَتِه، وقبّل زوجته، وقال إنه سينطلق في رحلة استكشافية إلى سانت غال ليبحث عن أعظم صانع أجراس في العالم الكاثوليكي. قرقعَ في اتجاه الشمال تدفعه صيحات الوطنية، ولم يره أحدٌ في أوري مُجدَّدًا قطُّ.

كان بناء الكنيسة قد قَضى عليه.

وهكذا، بعد عامٍ من وضع آخر لوحٍ على سقفها، لم تكن الكنيسة، المُشيَّدة لإيواء أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً، تحوي جرس بقرةٍ حتَّى في بُرجها.

* * *

كان أبناء أوري شعبًا ذا عزيمة وكبرياء. ماذا يتطلَّب الأمر لصنع جرس؟ فكروا. قوالب من الفخَّار، بعض المعدن الذائب، بعض العوارض لتعليق الأجراس المُنجزَة عليها- وليس أكثر من ذلك. ربما لم يُرسل لهم الرَّبُّ بكيلشمار إلَّا لوضعهم على بداية الطريق فحسب.

الرَّبُّ يحتاج إلى ذَهبِك، انطلق النداء. اجلب نحاسك وقِصديرك.

معاول صدئة، مجارف مُتكسِّرة، سكاكين متآكلة، قدور مُتشقِّقة- أُلقيَ كل هذا في كومة سرعان ما تحوَّلت إلى برجٍ سامق في ميدان

آلتدورف في نفس الموضع الذي قدَّم فيه كيلشمار وعده قبل ثلاثة أعوام. كانت الحشود تهتف مع كل عطيَّةٍ جديدة. قدَّمَ واحد من الرجال الموقدَ الذي كان يبقيه دافئًا ذلك الشتاء. ليُباركها الرب، كانت الغمغمات عندما طرحت أرملةٌ عجوز كل مجوهراتها. تدفَّقت الدموع عندما اتَّحدت أفضل ثلاث عائلات لتقديم ثلاث عملات ذهبية. احتاج الأمر إلى عشر عربات تجرُّها الثيران لنقل كل هذا إلى القرية.

لم يكن من الممكن تجاهل أهل قرية نيبلمات، رغم أنه لم يكن لديهم سوى قليل من المعدن لتقديمه. مع اعتنائهم بوعاء الصهر المؤقَّت طوال تسعة أيام وتسع ليالٍ، ساهموا أيضًا بأيٍّ ممَّا تبقى من خمرة شنابس في دوارقهم عند الفجر، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من أسنان ذئب، وقرن وعل منقور، وكسرة مُغبَّرة من الكوارتز.

اثنا عشر رجلًا أصيبوا بندوب إلى آخر حياتهم بسبب الحروق في اليوم الذي صبُّوا فيه الحساء المتوهِّج في القوالب. كان الجرس الأول مستديرًا كديك رومي بدين، والثاني كبيرًا بما يكفي لإخفاء ماعز صغير تحته، فيما كان الثالث، الجرس الثالث العجائبي، بارتفاع قامة رجل واحتاجَ إلى ستة عشر حصانًا لرفعه إلى البرج.

احتشد أهل أوري جميعهم على التَّلِّ أسفل الكنيسة لسماع الأجراس تُقرع للمرة الأولى. عندما هُيِّئ كل شيء، استدارَ المحتشدون بأعينهم التَّبجيلية إلى الأب كارل ڤيكتور فوندراخ. حدَّق فيهم بدوره كما لو كانوا مجرَّد قطيع من الأغنام.

"مُباركَة، أيُّها الأب؟" همست واحدة من النساء. "هلَّا باركتَ أجراسنا؟".

فركَ صدغيه ثم خطا أمام الحشد. أحنى رأسه، وفعل الجميع مثله. "أبانا الذي في السماء"، نعقَ من خلال اللعاب المتراكم في حلقه. "بارك هذه الأجراس التي منحتَها..."، تنشَّق وتطلَّعَ من حوله، ثم ألقى

نظرةً خاطفة على حذائه، الذي كان يستقرُّ في كعكة رطبة من البراز. "اللعنة عليهم جميعًا"، غمغم. خطا متراجعًا مُخترقًا الزحام. راقبوا شكله البشري حتى اختفى في منزله، الذي كان ذا نوافذ زجاجية، لكن دون ألواح بَعدُ على سقفه.

ثم استدارَ الحشد الصامت لمراقبة سبعة من أبناء عمومة كيلشَمار يسيرون بثباتٍ وعزم إلى داخل الكنيسة- أحدهم لقرع الجرس الأصغر، واثنان لقرع الأوسط، والبقيَّة لقرع الجرس الأكبر حجمًا. حبس كثيرون في الحشد أنفاسهم فيما بدأت الأجراس الثلاثة العظيمة، في برج الكنيسة، في الاهتزاز.

ثم بدأت أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً في الطنطنة.

ارتعشَ هواء الجبل. تدفقَّ الدّويُّ عبر الوادي. كان صارًّا كمِفصَل صدئ، وهادرًا كانهيارٍ جليدي، وحادًّا كصرخة، ولطيفًا كهمسة أُمٍّ. صرخَ كل إنسان وجفلَ وألقى بيديه على أذنيه. تعثَّروا في خطواتهم مُتراجعين. تشقَّقت نوافذ الأب كارل فيكتور. ضُمّت أسنانٌ بشدّة حتّى تشظّت. انفجرت طبلات آذان. شعرت بقرة، وعَنزتان، وامرأة، بوخزاتٍ مفاجئة من ألم المخاض.

عندما تلاشى الصدى من ذُرى الجبال البعيدة أخيراً، ساد الصمت. حدَّقَ الجميع في الكنيسة وكأنها ستنهار. ثم اندفع الباب مفتوحًا وظهرَ منه أبناء عمومة كيلشمار هارعين، راحاتهم تُمسك بآذانهم المعطوبة. واجهوا الحشد وكأنهم لصوص متلبِّسون بسرقة الكنز في سراويلهم.

ثم بدأ الهتاف. ارتفعت الأيادي نحو السماء. اهتزَّت القبضات. تدفَّقَت الدموع. لقد فعلوها! قُرِعَت أصخب الأجراس قاطبةً!

كانت مملكة الرَّبِّ على السماء في أمان!

تراجعَ الحشد ببطء هابطًا التَّلَّ. عندما صاح أحدهم: "اقرعوها مُجدَّدًا!"، كان هناك تذلُّل جماعي، وسرعان ما بدأ الاندفاع- ركضَ الرجال والنساء والأطفال، والكلاب والأبقار، وانزلقوا وتدحرجوا هابطين التَّلَّ الطيني واختبؤوا خلف المنازل المتهالكة كما لو أنهم يحاولون الهروب من سيلٍ ثَلجي. ثم كان هناك صمت. رؤوسٌ كثيرة أمعنت النظر حول المنازل ونحو الكنيسة. لم يروا أبناء عمومة كيلشمار في أيٍّ مكان. في الواقع، لم يَعُد هناك إنسان في محيط مائتي ياردة من تلك الكنيسة. لم يَعُد هناك إنسان شجاع بما يكفي ليقرع الأجراس مُجدَّدًا.

أم كان هناك؟ امتلأ الهواء بالهمسات. أشارَ الأطفال إلى لطخةٍ داكنة تتحرّك بخفَّة صاعدة التَّلَّ، كربطة تبن، تدفعها ريحٌ رقيقة. رجل؟ لا، ليس رجلًا. بل طفلة -فتاة صغيرة- في أسمال قذرة.

هكذا حدث أن كان لهذه القرية، من بين كنوزها، فتاة بلهاء صمَّاء. كانت معتادة على التحديق في أهل القرية بنظرة متوهِّجة متوعِّدة، كما لو أنها تعلم بالخطايا التي يجاهدون لإخفائها؛ ولهذا كانوا يبعدونها بجرادل مياه الغسل القذرة متى اقتربت منهم. كانت هذه الطفلة الصَّمَّاء تُحدِّق في برج الكنيسة فيما تتسلَّق التَّلَّ، وسمعت الأجراس أيضًا، ليس بأذنيها الخاويتَيْن، لكن كما تُسمَع القَداسة: بارتعاشةٍ في الأحشاء.

راقبوها جميعًا تتسلَّق التَّلَّ، مُدركين أن الرَّبَّ قد أرسل بهذه الفتاة البلهاء إليهم، تمامًا كما أرسل إليهم بكيلشمار من قبل، وكما أرسل إليهم بالأحجار لبناء هذه الكنيسة، وبالمعدن لصبِّ أجراسها.

رفعت بصرها إلى برج الكنيسة وكأنها تتمنَّى لو تستطيع الطيران.

"اصعدي"، همسوا. "اصعدي".

* * *

لم تسـمع حثّهـم لهـا. لكنهـا اندفعـت، بفعـل ذكـرى دويّ الأجـراس، نحـو أبـواب الكنيسـة التـي لم تطأهـا مـن قبـل قـطُّ. كانـت هنـاك شـظايا مـن الزجـاج عـلى الأرضيـة -مـن النوافـذ المتكسّرة- مـا جعلهـا تُخلّـف وراءهـا آثـار أقـدام داميـة فيـما تصعـد الـدَّرج الضيـق في ظهـر الكنيسـة. في الطابـق الأول مـن بـرج الأجـراس، كانـت الحبـال الثلاثـة تتـدلّى عـبر السـقف. لكنهـا كانـت تعلـم بأمـر الحبـال، وتعـرف أن هـذا السـحر لا يـأتي منهـا، أنهـا تُرشـدها إلى الأعـلى، فصعـدت السُّـلَّم ورفعـت الشـبكة الحاجـزة برأسـها. كانـت جوانـب بـرج الكنيسـة مفتوحـةً -بـلا حاجـز لمنـع السـقوط- ورأت أربعـة مشـاهد مختلفـة: عـلى اليسـار، الجُـرُف الخاويـة؛ في المقدمــة، الــوادي يلتــفُّ صاعــدًا نحــو إيطاليــا؛ إلى اليمــين، معــبر سوسـتين المُغطّـى بالثلـج؛ وعندمـا صعـدت عـبر بـاب الشـبكة، وراءهـا، كان جمهورهـا محتشـدًا حـول المنـازل كالديـدان حـول اللحـم المتعفّـن.

سـارت تحـت أكـبر الأجـراس وتمعَّنَـت في ظلالـه. جسـدٌ أسـود وخشـن. شـبَّت بقدميهـا وضربتـه بيدهـا. لم يتحـرك. لم تشـعر بصـوت. كانـت هنـاك مِطرقتـين نُحاسـيتَين تسـتندان عـلى الحائـط في الزاويـة. رفعـت واحـدة منهـما وأرجحتهـا ضاربـةً الجـرس الأكـبر.

في البدايـة، شـعرَت بـه في بطنهـا، كلمسـة يـدٍ دافئـة. انقَضَـت أعـوامٌ طويلـة منـذ لامسـها بـشر. أغلقـت عينيهـا وشـعرت بتلـك اللمسـة تتشـعَّب إلى فخذيَهـا، وتنطلـق عـبر ضلوعهـا. تنهَّـدَت. قرَعَـت الجـرس مُجـددًا بالمِطرقـة، بأقـوى مـا تسـتطيع، ومَضَـت اللمسـة أبعـد. التفَّـت حـول ظهرهـا وكتفَيْهـا. بـدت وكأنهـا تحملهـا؛ صـارت تطفـو في الصـوت. مـرَّةً تلـو الأخـرى ضربـت الجـرس، وازداد ذلـك الصـوت دفئًـا.

قرَعَـت الجـرس الأوسـط. سَـمِعَته في عنقهـا، في ذراعيهـا، في التقويـرات وراء ركبتيهـا. انغمـس فيهـا الصـوت، كأيـدٍ دافئـة تُباعـد بـين أطـراف

جسدها، صارت، في ذلك الجسد الضئيل، أطول وأعرض من أيٍّ وقتٍ مضى.

سَمِعَت الجرس الصغير في فكِّها، في لحم أذنيها، في تقوُّسات قدميها. طوَّحَت بالمِطرقة مُجدَّدًا ومُجدَّدًا. رفعت المِطرقة الثانية حتَّى تستخدم كلتا ذراعيها في ضرب الأجراس.

* * *

في القرية، في البداية، أطلقوا الهتافات والصياحات احتفالًا بالمعجزة. ترجَّعَ صدى الدَّويِّ إليهم عبر الوادي. أغلقوا أعينهم وأنصتوا إلى مَجدِهم.

قَرَعَت الأجراس. انقضت نصف ساعة. لم يستطيعوا سماع بعضهم البعض. صرخَ بعضهم حتى يُسمَع؛ وجلسَ أغلبهم على جذوع الأشجار أو استندوا على المنازل وضغطوا بأياديهم على آذانهم. كانت الخنازير قد شُوِيَت بالفعل، وبراميل البيرة قد ثُقِبَت، لكن كيف لهم أن يبدؤوا احتفال النَّصر دون مباركة؟

"توقَّفي!" صاح أحدهم.

"اصمتي!".

"يكفي!".

لوَّحوا بقبضاتهم في اتِّجاه الكنيسة.

"ليوقفها أحدكم!".

عند هذه الدعوة، تطلَّعَ كل واحدٍ منهم بخجلٍ إلى جاره. لم يخطُ أحدٌ إلى الأمام.

"أحضروا أباها!" صرخوا. "هذه هي وظيفة الأب".

دفعوا بإيـزو فروبـن العجـوز، راعـي الغنـم الـذي أنجبـت زوجتـه هـذه الفتـاة المشـوَّهة بعـد عشريـن عامًـا مـن الـزواج. لم يـزد عمـره عـن الخمسـين، لكـنَّ عينيـه كانتـا غائرتَـيْن وسـاعِدَاه عـلى شـكل عصيـان معروقـة شـائخة وكأنـه أبٌ لجـدٍّ. فـرَكَ ظَهْـر يـده بأنفـه الراشـحة وحـدَّقَ عاليًـا في الكنيسـة وكأنهـم أرسـلوه لقتـل تِنِّـين. تقدَّمَـت امـرأة، وسـدَّت أذنيـه بالصـوف، ثـم لفَّـت سروالًا قـذرًا حـول رأسـه، وربطتـه في مؤخـرة الـرأس كالعمامـة.

هتـفَ بـشيءٍ مـا للرجـل الواقـف بجـواره، الـذي اختفـى في الزحـام وعـاد بعـد لحظـات بسـوط بِغـال.

مـرَّاتٍ كثـيرة سأسـمع هـذه القصـة مُصادفـةً: إيـزو فروبـن يناضـل لصعـود التَّـلِّ، إحـدى يديـه تمسـك بالسروال لتمنعـه مـن الانـزلاق عـلى عينيـه، والأخـرى عـلى السـوط. كان المجـاز المُتحـدِّر قـد غـرقَ في الطمـي بفعـل آلاف الأقـدام المُتحمِّسـة لحـدِّ أنـه انزلـق مـرارًا وتكـرارًا؛ يتزحلـق خطوتـين عـلى ركبتيـه، ثـم ينتـزع نفسـه مـن الطمـي للوقـوف مُجـدَّدًا. عندمـا وصـلَ إلى الكنيسـة أخـيرًا، كان مُغطًّـى مـن رأسـه إلى أخمصـه بالطـين. نـثرَ السـوط لطخـاتٍ فيـما يتأرجـح في يـده. حتـى مـع الصـوف في أذنيـه والسروال حـول جبينـه، قبضـت الأجـراس عـلى رأسـه وهزَّتـه مـع كل قَرعَـة جديـدة.

ازداد الصـوت صخبًـا بطبيعـة الحـال مـع دخولـه إلى الكنيسـة وصعـوده الـدَّرج، الـذي بـدا وأنـه يرتعـش مـن تحتـه. ألصـق راحتَيْـه بأذنيـه المسـدودتَيْن، لكـن بـلا جـدوى. لعـن الـرب للمـرة الألـف لإرسـاله هـذه الطفلـة إليـه.

في الطابـق الأول مـن بـرج الكنيسـة، لاحـظَ أن الحبـال سـاكنة، ومـع ذلـك قُرِعَـت الأجـراس. رأى بُقعًـا سـوداء أمـام عينيـه. وفيـما يبـدأ العـالم في الـدوران مـن حولـه، أدرك بغتـةً: لم تكـن هـذه أجـراس الـرَّبِّ عـلى

الإطـلاق! لقـد خُدِعـوا جميعهـم. كانـت أجـراس الشـيطان! خدعهـم الشـيطان جميعًـا. لقـد شـيَّدوا لـه كنيسـة. صبُّـوا لـه أجراسًـا!

اسـتدارَ ليهـرع هابطًـا الـدَّرَج، لكـن حينهـا لمحَ مـن فوقـه، في الشـقوق بـين ألـواح السـقف، رقصـة أقـدام شـيطانية، صغـيرة.

مـا زال هنـاك أثـرٌ مـن الشـجاعة في ذلـك الجسـد الـذاوي، الهزيـل. قبـضَ عـلى السـوط وكأنـه سـيفه. ارتقـى السُّـلَّم إلى بـرج الكنيسـة وفتـح الشـبكة الحاجـزة بمـا يكفـي فحسـب لإلقـاء نظـرة.

كانـت تتقافـز وتُـدوِّم. تتمايـل وتتطـاول. تؤرجـح المطرقـة وتتـدلَّى هـي في الهـواء فيـما تخبـط بهـا. بـدت الأجـراس وكأنها تـدقُّ مـن داخلهـا، كـما لـو أن الأجـراس التـي تضربهـا مـا هـي إلَّا قلبهـا الأسـود ذاتـه. كانـت تتبخـتر عـلى الحافـة، يـدٌ غـير منظـورة ترشـدها لتعـود إلى الأمـان. تقـرع أكـبر الأجـراس: صـوتٌ كأظافـر تكشـط أذنيـه.

كانـت اللـذَّة المتوهِّجـة في عينيهـا آخـر دليـل يحتاجـه إيـزو فروبـن: أن ابنتـه مسَّـها الشـيطان. فتـحَ البـاب الشـبكي عـن آخـره وزحـف عـبره بصعوبـة. كان الرجـل العجـوز محاربًـا. جلـدَ الطفلة-الشـيطان حتَّـى اسـتلقت عـلى أرضيـة بـرج الكنيسـة بـلا حـراك. سرعـان مـا تحـوَّل دويُّ الأجـراس إلى مجـرد رنـين خافـت في الهـواء. تفجَّـرت الهتافـات مـن القريـة بعيـدًا مـن تحتـه. تأوَّهَـت ابنتـه.

أسـقطَ سـوطه بجوارهـا ثـم هبـطَ مـن الـبرج. مـرَّ عـبر المدينـة المُحتفلة بـلا توقُّـف، ولم يـره أحـد في يـوري مُجـدَّدًا، وهكـذا، بعـد كيلشـمار، صـارَ الضحيـة الثانيـة، لكـن ليسـت الأخـيرة، مـن ضحايـا الأجـراس.

* * *

في الكنيسـة، لم تتحـرَّك الفتـاة إلَّا بعـد حلـول الظـلام. رفعـت رأسـها للتأكـد أن أباهـا قـد غـادرَ، ثـم جلسـت مُعتدلـةً. كانـت ملابسـها داميـة.

لذعَتْها الحـروق في ظهرهـا. كانـت أذناهـا الميتتـان مصمتتَيْن عـلى العربدة التـي في القريـة في الأسـفل. تناولـت مطارقهـا وفتحـت البـاب الشـبكي.

غـدًا، قالـت لنفسـها فيـما ترفـع بصرهـا ناظـرةً إلى الأجـراس. غـدًا سـأقرعكم مُجـدَّدًا.

في اليـوم التـالي قرعـت الأجـراس، وكذلـك فعلـت في اليـوم الـذي يليـه، وفي كل صبـاح وظهـيرة ومسـاء، حتـى موتهـا.

كان اسم هذه الطفلة آديلهايد فروبن، وأنا، موسى فروبن، ابنها.

(2)

كان لــدى أمِّــي شَــعرٌ عبــارة عــن عــشٍّ قــذر، وعُقَــدٌ مــن عضــلات حديديــة في ذراعيهــا، ولي وحــدي، ابتســامةٌ دافئــة كشــمس أغســطس. بحلــول ميــلادي كانــت تعيــش منــذ بضعــة أعــوام في كــوخ صغــير عــلى جبــال الألــب مُحاذيًــا للكنيســة. لا، هــذا غــير صحيــح. كانــت أمّــي تعيــش في بــرج الكنيســة، ولا تــأتي إلى الكــوخ إلّا عندمــا يصــير الــبرج -مُعرَّضًــا لطقــس الجبــال القــارص- في غايــة البــاردة، أو عندمــا يمتلــئ بالثلــوج، أو عندمــا تجــوع لتــأكل قشــور الجــبن أو العصيــدة البــاردة التــي يتركهــا أهــل القريــة لهــا، أو عندمــا تكتســح عواصــف الــبرق الصيفيــة الــوادي وتــضرب بــرج كنيســتنا، وكثــيرًا مــا كانــت تفعــل، وحينهــا كانــت الأجــراس تُقــرع كــما لــو عــلى يــد الأشــباح. رغــم أنهــا كانــت قــذرة، ولم تســتحمّ قــطُّ طــوال حياتهــا، إلّا أنهــا كانــت تفركنــي مــن رأسي إلى أخمــص قدمــي في مــاء النبــع البــارد. كانــت تُطعمنــي مــن ملعقــة خشــبية حتّــى تمتلــئ بطنــي. لم أعــرف حينهــا شــيئًا عــن لَعــب وضحــك الأطفــال الآخريــن، وكيــف يتظاهــرون

بأنهـم ملـوك وجنـود، وكيـف يرقصـون وينشـدون الأغـاني معًـا. لم أرغـب في شيءٍ مـن الحيـاة أكـثر مـمَّا لـديَّ. لم أرغـب سـوى أن أجلـس هنـاك فحسـب، سـاقاي ذاتـا الأربعـة أعـوام تتدليَّـان عـلى حافـة بـرج الكنيسـة؛ أتطلَّـع إلى الجبـال، وأنصـت إلى جـمال الأجـراس.

ولهـذا لم تُدهشـني مراقبـة أهـل القريـة الدائمـة لي. صبـيٌّ ذاهـل فيـما يبـدو عـن الأجـراس التـي تُفجِّـر طبـول الآذان عـلى بعـد خمسـين يـاردة؟ صبـيٌّ لا يتحـدَّث أبـدًا، قدمـاه لا تبـدوان أنهـما تخشخشـان حتَّـى في العشـب، صبـيٌّ لا يُحـدث ضجيجًـا عـلى الإطـلاق؟ صبـيٌّ يتجاهـل حتَّـى الصيحـات الغاضبـة للقـسّ كارل ڤيكتـور فونـدراخ؟ لم يكـن هنـاك تفسـير آخـر. الصبـي أصـمٌّ. إنـه أبلـه كأمِّـه.

ومـع ذلـك، لنقـترب مـن هـذا الصبـي عـلى يجلـس عـلى حافَّـة عالَمـه، الـذي يحـدِّق بخـواء في مشـهدِ الـرَّبُّ وحـده قـادر عـلى خَلقـه. نحـن في بدايـات الصيـف، وجبـال الألـب غارقـة في خـضرةٍ وافـرة لحـدٍّ أن المـرء يحسـد الأبقـار بـين العُشـب، ويـودُّ لـو ينحنـي بجانبهـا ويلتهـم العشـب معهـا حتـى تتسـاقط قطـرات اللعـاب عـلى ذقنـه. في الأعـلى، تظـلُّ بُقَـع مـن الجليـد في التجاويـف وتحـت الجُرُف. الذُّرى البعيـدة، الأكـثر اخضرارًا، مُترعـةٌ بنقـاطٍ متناثـرة مـن الأغنـام التـي ترعـى العشـب وكأنهـا قمـلٌ عـلى رأس شـحَّاذ.

هـذا الصبـي يُنصـت. الأجـراس الثلاثـة جميعهـا تقـرع وراءه، ويسـمع النغـمات الناقـرة الطَّنَّانـة، ومـا بينهـا مـن النغـماتِ المُجتـزَأة الوافـرة. وكأن كل جـرس عبـارة عـن بُـرج مـن الجوقـات البشريـة المُنمنمـة، مُكدَّسـةً فـوق بعضهـا البعـض بخفَّـةٍ، وكلٌّ منهـا تقـرع نغمـةً مختلفـة، تمامًـا كـما يلتمـع ألـف ظـلٍّ مـن الطـلاء بدرجـات لونيـة متباينـة عـلى نحـوٍ واهٍ. في عقلـه، كان يفـرد أمامـه هـذه النغـمات كـما يفـرد الأطفـال الآخريـن قِطـع ألعابهـم. كان يضـع النغـمات المجتـزَأة معًـا بحيـث تجعلـه يبتسـم

أو يجزُّ على أسنانه. يجد فيها النغمات التي يستخدمها الصقر في صرخاته. يجد تلك التي تُشكِّل هزيم الرعد، وتلك التي تُشكِّل صفير السناجب. يسمع النغمات التي يستخدمها هو نفسه عندما يضحك. كانت الأجراس صاخبة، صاخبة للغاية، لكنها لا تؤذي أذنيه؛ ذلك أن أذنيه تشكَّلتا حول تلك الأصوات، وكل قَرعة هائلة تجعلهما أكثر طواعيةً بكثير.

كانت تلك صوت شهيق أمِّه فيما تسحب مطرقتها للخلف؛ صوت زفيرها فيما تدفعها للأمام؛ خشخشة ردائها المُهلهل على ساقها العارية؛ صرير الحوامل الصدئة للأجراس؛ صفير الريح الدافئة عبر الشقوق في السقف فوق رأسه؛ خُوار الأبقار في المرعى؛ صياح الصقر فوق الحقول؛ اندفاع الجليد الذائب هابطًا الجُرُف.

يسمع أيضًا ويُدرك أن الماء على الجرف هو في الحقيقة مياهٌ كثيرة: هو الأحجار تُجَرُّ وتتدحرج؛ هو قطرات تنفجر في قطرات؛ قهقهة البِركة الجيّاشة؛ ضحك الشَّلالات. كان بمقدوره التحديق في كلِّ هذا عبر التالي: انفراج شفتَيْ أمِّه، اندفاعة الأنفاس في أنفها، الهواء الذي يُصفِّر مارًّا بلسانها، حلقها يئنُّ، رئتاها تنعب مُنفتحةً. كطفلٍ يستكشف شيئًا بفمه ويتحسَّسه بيدَيْه، كان يمسك بكل صوت ويتنهَّد، نعم!

ليس هذا سحرًا، أؤكد لكم بصفتي شاهدكم الأمين، لم يستطع السماع عبر الجبال أو من الجانب الآخر من الأرض، بل الأمر مُجرَّد انتقاء واصطفاء، وإذا كان هذا الصبي، في عُمر الرابعة، بمقدوره فِعل القليل جدًّا -فهو لا يستطيع التَّحدُّث ولا الكتابة ولا القراءة- من انتقاء الأصوات، وتشريح الأصوات، فقد كان ذلك شيئًا لا يستطيع إنسان آخر فعله مِثله. هذا ما منحته له أمُّه وأجراسها.

وهكذا صار الصبي يجلس في عليائه ويُشرِّح العالَم. ينتقي من بين الأجراس الثلاثة، أو يسمعها ككُلٍّ واحد، يُشرِّح دويَّها، ثم يُنحِّيها

جانبًا، يقبض على صوت الرياح، يسمع في الرياح ما نراه في أمواج المياه: وفرة من التيّارات، فوضوية ومُرتَّبة في آنٍ بفعل قانون إلهي غامض. يحبُّ الإنصات إلى الرياح تمرُّ عبر الثقوب في السقف من فوقه، أو تنكسر حول ناصية البرج، أو تُرفرفُ عبر العُشب الطويل في المروج.

ورغم بهجته تجاه أيِّ صوتٍ جديد، سُرعان ما يدرك أن الأصوات ليست مجرّد شيءٍ جدير بحُبِّه. يتعلَّم أن الصفير عبر الشقوق يكون أضعفَ ما يمكن عندما يقترب المطر. يخشى الأقدام المتباطئة لأوائل المُصلِّين في صباحات الأحد، لأن هذا يعني أن أمَّه ستهرع للاختفاء في الكهوف أعلى الكنيسة حتَّى تُعاود الظهور، بعد ساعات. فقط عندما يختفي ظلُّ الأب كارل ڤيكتور عائدًا إلى القرية. يكره صوت سُعالها؛ لأن هذا يعني أنها ستسقم قريبًا -وهذا ما يحدث لها كل شتاء- وأن عينيها ستغرقان في الضباب، وأنها ستسير كالنائمين.

عندما يبلغ الخامسة سيبدأ في التطواف، أقل خجلًا وجفولًا من أمه. سيُشرِّح القرية: الرياح التي تصرُّ بين المنازل الخشبية؛ دندنة مياه الغسيل وبول الحيوانات خارجًا من الزرائب وهابطًا المُنحدر؛ فعقعة وجَرْش عجلات العربات على حجارة الطريق؛ نباح الكلاب؛ قوقأة الدُّيَكة، وفي الشتاء: جؤار البقر وأنين الماعز، كما لو أن هناك مجنونًا محبوس في كل زريبة.

تستولي عليه أصوات الرجال؛ أنفاسهم، تنهُّداتهم، تأوُّهاتهم، سِبابهم. يتزاجرون ويهتفون ويضحكون، وكل صوت منها له مليون شكل. لكن رفوف ذاكرته لا تعرف حدًّا. الآن صارت هناك كلمات ليتحدَّث بها، كلمات يحملها عائدًا بها إلى بُرج الكنيسة. وفيما تقرع أمُّه أجراسها، يهذر هو، ويصرخ بالمَسبَّات في اتِّجاه السماء، يتلفَّظ

بالصلـوات في قبضتـه حتـى يبـدو كمُـزارع القريـة الـذي قضـمَ نصـف لسـانه.

وهنـاك أصـواتٌ يمقتهـا، وعـلى الأخـصّ أصـوات الأب كارل ڤيكتـور فونـدراخ: مشـيته العرجـاء؛ أنفاسـه المُصفِّـرة؛ حفيـف وهـرس شـفتيه، كعجـلٍ صغـير يلتهـم ضَرْعًـا؛ الـدّويُّ عندمـا يفتـح الكتـاب المُقـدّس هائـل الحجـم بعنـفٍ عـلى المنبر؛ الطقطقـة المكتومـة لـدوران المفتـاح في صنـدوق الصدقـات؛ التّـأوُّه عندمـا ينحنـي ويقبـض عـلى ظهـره؛ التّنهُّـد عندمـا يتطلّـع إليّ.

كـم تفضحـك أصواتـك يـا كارل ڤيكتـور! عرفـتُ في سـتة أعـوام مـا يكفـي لإدانتـك بالنـار الأبديـة! أعـرف جحـوظ عينيـك عندمـا تُغلقهـما بقـوة، أعـرف قرقـرة البلغـم في حلقـك عندمـا تخطـب أيـام الآحـاد في كنيسـتنا. أسـمع غمغماتـك البغيضـة عندمـا تنظـرُ مـن عـلٍ إلى قطيعـك. وعندمـا تصعـد إلينـا التّـلّ أحيانًـا، عندمـا أسـمعك في صفـيرك الهائـج تقـول إنـك لسـت صبـيَّ مشـاوير الـرّبّ، عندمـا تنـادي عـلى أمّـي، وتصفـق بـاب كوخنـا في الليـل، أو حتّـى عندمـا تعجـز عـن كبـح جـماح نفسـك، في ضـوء النهـار- رغـم أنهـا لا تسـمعك، إلا أننـي أسـمعك. الهتافـات التـي تنهمـر مـن فمهـا الأمِـيّ، والتـي تبـدو لـك كهذيـان أبلـه؛ تلـك الهتافـات كانـت أنقـى التّوسّـلات قاطبـةً في نظـري.

(3)

كان أهـل القريـة يقولـون إن أمـي مُختلَّـة العقـل. كانـت فَزِعـة، خَجلى، ذات مظهـرٍ متوحِّـش؛ كانـت تبـكي وتضحـك بـلا سـبب. تختبـئ منهـم في الكهوف؛ أحيانًـا مـا تمـضي بـلا ملابـس؛ ترفـع ابنهـا في بـرج الكنيسـة؛ تـأكل بيديهـا؛ لا تهتـمُّ بـشيءٍ في الحيـاة سـوى بطفلهـا وقـرع أجراسـها.

مـرَّات كثـيرة راقبـت أمِّـي تتسـلَّق إلى عـوارض بـرج الكنيسـة حتَّـى تزحـف عـلى رأس الجـرس الأوسـط، ثـم تتـدلَّى وتلـفُّ سـاقيها حـول خصره، حاضنـةً التـاج بـذراعٍ فيـما تـضرب الجـرس الخامـل بمِطرقتها في الآخـر. ذات يـوم، كدَّسَـت برجًّـا مـن جـذوع الأخشـاب تحـت الجـرس الأكـبر ووقَفَـت داخلـه، حتَّـى تُزغـزغ الأمـواج المُتداخلـة كل نسـيجٍ في جسـدها. وفي يـومٍ آخـر، سرقـت لجـام حصـان مجـدول، ربَطَـت طرفًـا بعارضـة رأس الجـرس والآخـر بخصرهـا. تمايَلَـت وسـط الأجـراس، أغلقـت عينيهـا، وتوهَّمَـت، أعتقـد، أنهـا واحـدة مـن الأجـراس.

في مـرَّةٍ أخـرى، كَسَـت الأجـراس بالطمـي وقرعتهـا. أمسـكت بُشـعلة متوهِّجـة بـين شـفتيها وضرَبَـت بهـا الأجـراس. ضربتهـا بيدهـا. بجمجمتهـا. بعظمـة فخـذ بقـرة. بكريسـتالة وجدتهـا في كهـفٍ. بكتـابٍ مُقـدَّسٍ أخذتـه مـن منـبر كارل فيكتـور (ثـم ألقتـه في الطمـي عندمـا لم يعجبهـا الرنـين المكتـوم). أحيانًـا مـا كانـت تجلـس في زاويـة بعيـدة وتقـرع الأجـراس بسـحب حبـل الأجـراس بإيقـاع ثابـت بيـدٍ واحـدة. لكنهـا دائمًـا مـا تعـود، في النهايـة، إلى رقصهـا: تتقافـز وتتأرجـح المطـارق وتغلـق عينيهـا فيـما تمـضي الاهتـزازات عـبر جسـدها.

فيـما تقـرع أمـي أجراسـها، كانـت تُوالـف أنسـجة جسـدها كـما يوالـف عـازف الكـمان أوتـاره. في عُنقهـا، تقـرع بخفـوت نغمـةً مجتـزأة مـن الجـرس الأوسـط. في فَخذَيهـا، بأخـرى مجتـزأة. في أسـفل قدمَيْهـا، أسـمع الضربـة الناقـرة لأصغـر الأجـراس. كل نغمـةٍ، تصـدح في لحمهـا، كانـت في ذاتهـا الصـدى الأوهـى للتناغـم الأكـبر. لا أسـتطيع تذكُّـر وجـه أمِّـي، لكننـي أتذكَّـر هـذا المشـهد الطبيعـي لأصواتـه. ورغـم أننـي لا أحمـل تشـابهًا يمكننـي تذكُّرهـا بـه، إلَّا أننـي عندمـا أغلـق عينَـيَّ وأسـمع جسـدها يصـدح بتلـك الأجـراس، يصبـح الأمـر كـما لـو أننـي أحمـل بورتريهًـا لهـا بـين يـدَيَّ.

* * *

كانـوا ليسرقـون طفـلًا عاديًـا ويضعونـه للعمـل تحـت سـتار الصدقـة وعمـل الخـير، لكنهـم سـمحوا لي بالبقـاء مـع أمِّـي؛ لأنهـم اعتقـدوا أننـي أصـمُّ ومجنـون مثلهـا. أحيانًـا مـا كنـتُ أراقـب أطفـال القريـة يلعبـون وأتمنَّـى لـو انضممـتُ إليهـم، لكنهـم كانـوا يرموننـي بالأحجـار كلـما حاولـتُ الاقـتراب كثـيرًا. عشـنا لثـماني سـنوات في بـرج الكنيسـة والكـوخ، ولم نعمـل قـطُّ (سـوى في قَـرْع الأجـراس، الـذي كان مكافـأةً لنـا، وليـس

مَهمَّـة عمـل)، وأبـدًا لم نَطـهُ كثـيرًا، رغـم أننـا سرعـان مـا اسـتغنينا عـن وجبـات الصدقـة الهزيلـة التـي يقدِّمهـا أهـل القريـة.

كسيِّدٍ للأصـوات، لم يكـن مـن الصعـب علـيَّ أن أتسـلَّل إلى واحـد مـن منـازل، ثـم أنصـت حتَّـى أتأكَّـد مـن خلـو غرفـة المـؤن مـن البـشر، ثـم أختطـف قطعـة نقانـق مـن أفضـل الأنـواع، ثـم أركـض مـارًّا ببـابٍ (خلفـه يـستغرق زوجٌ وزوجتـه في حديـثٍ عـن أبقـار جارهـم)، لأسرق رغيـف خبـز طـازج يُـبرَّد بجـوار المَوقِـد، ثـم أرحـل بـلا إحـداث أيِّ صـوت. رغـم أننـي بَقيـتُ ضئيـل الجسـد، إلا أننـي اكتسـبت ذائقـة تجـاه سـيقان الحِمـلان، ولحـم الخنزيـر نصـف المطهـو، والبيـض الـذي أمتصُّـه مـن قِشرتـه. بحلـول يـوم ميـلادي الثامـن، كنـتُ سرقـت بيضًـا مـن تحـت الدجـاج، وقـدور يخنـة مـن عـلى المواقـد، وأقـراص كاملـة مـن الجـبن مـن السراديـب. أحيانًا مـا أنصِـت إلى الأمهـات الأخريـات يحكـين القصـص لأطفالهـن أمـام الموقـد، أو أراقـب ابنًـا شـقيًّا يتسـلَّق ذراع أبيـه. ذات مـرة، في المسـاء، مُتسـلِّلًا إلى واحـد مـن منـازل القريـة، صادفـت أمًّـا تُهـدِّئ مـن روع ابنهـا العاجـز عـن النـوم، لأن أصدقـاءه أخـبروه أن شـبح إيـزو فروبـين يهيـم في القريـة. كان الأب يجلـس مُنهَـكًا إلى المائـدة. "إنـه هـو مَـن سرق فخـذ الخنزيـر"، قـال الصبـي لأمـه. "والجُـبن مـن عِنـد إيجرسـيس والقِـدْر مـن...".

"شـشـش"، همَسَـت أمـه، "لا يوجـد شيء اسـمه أشـباح". ثـم غنَّـت بخفـوتٍ في أذنـه. وقفـتُ مأخـوذًا بغنائهـا، وبـدفء موقِدهـا، ناسـيًا لوهلـة أن هـؤلاء النـاس قـد يرونـني في أيِّ لحظـة. خَطَـت جيئـةً وذهابًـا واضعـةً رأس ابنهـا المُتـدلِّي عـلى عنقهـا. ثـم بغتـةً، لمَحَـت عينَـيَّ اللامعتـين. "آآج!" نعقَـت كـما لـو أنهـا رأت فـأرًا. انتفـض الأب الهُـمام مـن عـلى مقعـده الخشـبي الطويـل. طـارت فـردة حـذاء بجـوار رأسي؛ وأصابـت الثانيـة ظهـري فيـما أنطلـق مُسرعًـا خارجًـا مـن البـاب. تعـثَّرتُ وسـقطتُ في الطـين. فيـما ينطلـق الأب في إثـري ملوِّحًـا بلجـام كسـوطٍ، أسرعـتُ للدخـول في الظـلال. لبضـع دقائـق، بكيـتُ وراء زريبـة، لكـن سرعـان مـا

استولى عليَّ الجوع. انسللتُ إلى داخل الزريبة، ومُقعيًا على رُكبتَيَّ، جعلتُ حليب عنزة يتفجَّر في فمي. سرقتُ جرَّةً فخَّاريَّة وملأتها بالحليب، وحَمَلتُها إلى أمِّي.

دائمًا ما كُنَّا نحتفل في بُرج الكنيسة، ونلقي بالعظام والقدور والبصاق إلى الوهدة في الأسفل، حيث تتراكم تلك الأشياء كمُخلَّفات معركةٍ دامية. نأكل بأيدينا ونُمزِّق اللحم بأسناننا، ونمسح راحاتِنا في الأسمال التي نرتديها. كنا نتمتَّع بحرية البائسين الباذخة.

لكن كل هذا انتهى في اليوم الذي أدرك فيه الأب كارل ڤيكتور فوندراخ أنني لستُ عاجزًا كما أبدو.

* * *

كنَّا في أواخر الربيع، وشمس آخر النهار قد انبثقت لتَوِّها بعد أيَّامٍ من المطر. حوافر الأبقار مغروزة في الحقول الطينية. الماء ينحت الخنادق في الطين الطري، ثم يتسرَّب إلى الأرض، كرمال تتساقط عبر أصابع مُرتخية. السيول تُقعقع في الوهاد. ومن بعيد، تتناهى إلى سمعي خشخشة نهر ريوس يتدفَّق عبر الوادي.

ثم سمعتُ صوتًا غريبًا، بدا كالرعد، لكن أنعَم قليلًا، وأبدًا لم أسمع ضجيجًا كهذا من قبل. في نفس الوقت، سمعتُ صرخةً. رفعتُ بصري إلى أمي، كانت تطوِّح بمطارقها. نحيَّتُ الأجراس جانبًا، المياه الجارية، الأبقار، أمِّي، ولبضع ثوانٍ لم أسمع شيئًا.

ثم مُجدَّدًا... صرخة.

كان هذا الصوت بشريًّا، لكن ليس من نسيج صوتٍ أعرفه من القرية: خليطًا من الجوع والغضب والبهجة والاحتياج؛ كان ذلك صوت الألم.

أغلقـتُ عينَـيَّ ووضعتـه في ذاكـرتي. ارتفـعَ أربـع أو خمـس مـرَّات، ارتعـشَ إلى أعـلى نغمـة، ثـم اختنـقَ فيـما الهـواء ينفـد مـن رئـة الصـارخ. أفزعتنـي الصرخـة، لكـن مـع ذلـك هبطـتُ سُـلَّم بـرج الكنيسـة، مُتجمِّـدًا مـع كل صرخـة جديـدة، ثـم هارعًـا عندمـا تنتهـي، مُطـاردًا صداهـا. انطلقـتُ مـن البـاب الجانبـي للكنيسـة، تسـلَّقتُ سـورًا، وانزلقـتُ عـبر الحقـل الطينـي إلى الغابـة تحـت الكنيسـة.

لا يوجـد شيء أعـلى نيبلـمات سـوى المراعـي والصخـور والجليـد. تحـت القريـة، تنزلـق الجبـال إلى الغابـات والوهـاد، وليـس هنـاك سـوى فُسـحات قليلـة متناثـرة حتَّـى موضـع التقـاء غابـة أشـجار الصنوبـر مـع الـوادي. ركضـتُ بـأسرع مـا أسـتطيع عـلى طـول ممـشًى يـؤدِّي إلى تلـك الغابـة المُتحـدِّرة، قافـزًا مـن فـوق الصخـور الكبـيرة، وتـاركًا الميـلان يدفعنـي. في فسـحةٍ كانـت الحرائـق قـد التهمتهـا الصيـف الفائـت انتهـاء المسـار بغتـةً.

مـا يـزال بمقـدوري تصـوُّر وجههـا. العضـلات والأوتـار منتفخـة في خدَّيهـا، في عنقهـا، في ذراعَيْهـا، وفي يدَيْهـا اللتـين تتشـبَّثان بـالأرض أمامهـا. جلدهـا متـورِّد بلـون الـدم.

كان الطـين يحـاول التهامهـا. فـكَّاه ناشـبان في أمعائهـا ودوَّامـات مـن الدمـاء تتـسرَّب إلى خيـوط فسـتانها. لا يُـرى حولهـا سـوى أحجـار سـائبة وتـراب. سـلَّة مـن الثـوم الـبرِّي كانـت مُبعـثَرة عـلى الأرض أمامهـا، كبتـلات أزهـار في حفـل زفـاف.

كان الـصراخ قـد توقَّـف. اتَّخـذتُ بضـع خطـوات ناحيتهـا عـلى الأرض الرخـوة وغرقـت قدمـاي في تيـارات الطمـي والأحجـار.

كانـت هنـاك مَخمضـة مـن عُصـارة صفـراء ودمـاء في حلقهـا. سـمعتُ همهمـة العضـلات المشـدودة، والضربـات المُهتاجـة لقلبهـا. اسـتدارت ناحيتـي بهاتَـين العينـين الخاويتـين، وأردتُ إيقـاف ألمهـا. أردتُ أن أحملهـا كـما كانـت أمـي تحملنـي. اتَّخـذتُ خطـوةً أخـرى، متفاديًـا صخـرة بحجـم

جذعي. ثم قفزتُ عائدًا إلى الأرض الصلبة. كان هذا الطين المتوحِّش يُريدَني أيضًا.

ثم ركضتُ. تأخَّر الوقت حينها. كانت الأجراس صامتة ولا أحد في الحقول. ما زلتُ أشعر بأنفاسها، وبالتغيُّر الواهي، الراجي، في ضربات قلبها عندما رأتْني؛ ولذلك أسرعتُ في ركضي، مارًّا بالمنازل الأولى الهادئة، بالأطفال الذين يلعبون على المجاز الصخري، بمنزل كارل ڤيكتور، الذي كان بابه العالي السندياني مغلقًا. بعد بضع خطوات أخرى، كان بضعة رجال جالسين على منضدة خشبية ذات ألواح مخشوشنة. كانت وجوههم متورِّدة من الشُّرب، بظهورهم القوية بارتفاع حائطٍ فوق رأسي.

"يقول إيڤو إن لها عينين كالجواهر"، قال واحد من الرجال.

"رجاءً"، همست. لم ينكسر حائط الظهور.

"حتَّى وإن كانتا ماستَيْن، فسيكون عليه استئناسها على عادَاتِنا"، قال آخر. ضحك الجميع. "نساء المدينة حمقاوات".

"أسرعوا"، قلت بصوتٍ أعلى. "إنها تموت".

"لا بأس بالحماقة". قال ذلك الرجل الذي يعلوني، وفيما أضع يدي على ظهره شعرتُ بهزيم ضحكاته.

سمعتُها تصرخ مُجدَّدًا، هذه المرة من داخل رأسي، من مكتبة الأصوات التي لا أستطيع التَّخلُّص منها أبدًا. سمعتُ الجَيَشان في حلقها، سمعتها تنشب أظافرها في التراب أمامها. هل أوشكت أن تُدفَن؟ أمسكتُ بقميصه. أزاحت يدٌ يدي بعيدًا.

"أرجوكم!" صحتُ عاليًا.

كان خط الظهور عاليًا كالجُرْف.

صرختُ.

كان ذلـك صوتًـا حتّـى أنـا لم أسـمعه وهـو يقـترب، كان مثـل بـابٍ فُتـحَ في موضـعٍ كان حائطًـا ذات يـوم، كان كـما لـو أن أرواحًـا كثـيرة -روح أمّـي، وروح تلـك المـرأة المدفونـة، وروح الأب كارل ڤيكتـور- قـد خرجـت مُتطايـرةً مـن فمـي.

استمرّت الصرخـة فقـط للّحظـة التـي تسـتغرقها حصـاة للسـقوط مـن بـرج الكنيسـة والارتطـام بطمـي الحقـل. لكـن خلالهـا، كان حائـط الظهـور قـد اسـتدار؛ وجـوهٌ فائقـة، عيـونٌ جافـة حدّقـت إليّ مـن عـلٍ، تجمّـدَ الأطفـال الذيـن كان يلعبـون بالقـرب، احدودبـت الأمّهـات عـلى الرُّضَّـع في أذرعهـن أمـام عتبـات بيوتهـن.

وقفَ الأب كارل ڤيكتور فوندراخ عند بابه المفتوح.

"هناك امرأة تموت"، قلتُ للوجوه. "لا بُدَّ أن نذهب إليها".

مع هذا الأمر، نهضَ الرجال، وأسقطوا المقاعد الخشبية الطويلة.

هرعتُ هابطًا المجاز عبر الغابة، وجيشٌ من الأقدام يتبعني.

"انهيار أرضي!" سمعتُ أحدهم يصرخ، ثم تجاوزني.

داسـوا عـلى الأرض الرخـوة، انزلقـوا، دحرجـوا الجلاميـد، ناضلـوا عـبر الانهيـار الأرضي وكأنهـم يسـبحون لإنقـاذ امـرأةٍ مـن مُنحـدراتٍ نهريـة جارفـة. سريعًـا مـا أخـذوا يمسـحون الدمـاء والـتراب والدمـوع مـن أعينهم، فيـما يسـحبونها مـن الانهيـار الأرضي، برفـقٍ شـديد، كقابلـة تسـحب مولودًا مـن بطـن أمـه. وضعوهـا عـلى المجـاز أسـفل التـل حيـث اختبـأتُ وراء شـجيرة.

"هل هي ميْتة؟".

"إنها دافئة".

"هذا لا يعني شيئًا".

لطَّخت الدماء والأتربة فستانها. كان وجهها مُرتخيًا ومُبيضًا، بعروقٍ بُنية حيث كانت أصابع الرجال قد أمسكت عنقها ورأسها.

عرجَ رجل عجوز هابطًا المجاز.

"أبعِدوه. لا ينبغي لأبٍ رؤية هذا".

حاول رجلان إمساكه لكنه انطلق في طريقه. هوى عليها، مُمسكًا بوجهها في كلتا يديه.

"أرجوك يا إلهي!".

كان الرجال شاحبين، وسمعتُ شفقةً كالكُلَّابات، تُهدئ من خطواتهم، وأنفاسهم الهائجة، وقلوبهم المتسارعة.

خطوتُ من وراء الشجيرة ووقفت بجوار الرجل فيما يعانق ابنته وينتحب.

همستُ في أذنه: "إنها حيّة".

رفع نظره إليَّ. ابتلع ريقه. "كيف تعرف؟".

"أنصِت". أشرتُ إلى شفتيها. كانت أنفاسها موجات خافتة لكن ثابتة.

استمرَّ في النظر إليَّ لوهلة، ثم دفعتني مجموعة من النساء جانبًا. تسلَّقتُ عائدًا إلى الأجمة واختبأتُ مُجددًا.

فيما ينخزونها ويصفعونها ويقرصونها، فيما عيناها تُرفرف مُنفتحةً وتبتسم بضعفٍ لأبيها، ازدادت أصواتهم صخبًا. ضَحكوا حتَّى دَمعت أعينهم. صاحت النساء بالأوامر. وراء الشجيرة، كنتُ محجوبًا عن الجميع، باستثناء واحد.

كان الأب كارل ڤيكتور على بُعد ثلاث خطوات فحسب أعلى المجاز. لم يَبدُ أنه لاحظَ المرأة المصابة. تجاهل توسُّلاتهم من أجل صلاةٍ.

حـدّقَ وكأنـه يرغـب في إحراقـي بتحديقتـه. كان يُدمـدم مـع كل نفـسٍ يُطلقـه.

"بمقدورك أن تسمع"، همسَ من تحت أنفاسه.

تراجعتُ، وصعدت التَّلّ لأهرب.

"بمقدورك أن تتكلَّم".

(4)

في بُـرج الكنيسـة رأت أمـي الرعـب في عينَـيَّ، لكـن عندمـا حاوَلَـت تهدئتـي بـين ذارعيها، دفعتُها بعيـدًا. هـززتُ رأسي. أخـذتُ يدهـا وحاولت سـحبها لهبـوط السُّـلَّم. أشرتُ إلى جبـل بعيـد؛ في موضـعٍ مـا هنـاك قـد يمكننـا الاختبـاء.

في حُـزن عينيهـا، رأيـتُ أنهـا أدرَكَـت شـيئًا مـمًّا أعنيـه، رغبتـي في الهـروب منـه ومـن هـذه القريـة. لكنهـا هـزَّت رأسـها.

لا يمكنني الرحيل، بَدَت أنها تقول.

وهكـذا نِمنـا تلـك الليلـة في بـرج الكنيسـة، مُتكوِّمَـيْن تحـت الدثـار فيـما الليـل يقـترب حامـلًا معـه هَبّـاتٍ دافئـة مـن الـوادي. كانـت أمـي تضـم مطارقهـا إلى صدرهـا. لم أسـتطع النـوم؛ لم يكـن لدينـا سـوى أذنيَّ لحمايتنـا في الليـل. أرهفـتُ سـمعي لخُطـوةٍ تقـترب، ليـدٍ عـلى السُّـلَّم تحتنـا. لكـن بعـد منتصـف الليـل اشـتدَّت الريـاح وأضـاء الـبرق الـوادي

بوميضه. بدأ المطر في التساقط. بلّلنا عبر الحوائط المفتوحة. تشبّثت بي أمّي، وعندما ومض البرق، لمحتُ الرعب في عينيها. مرّتين على الأقل ضربت الصواعق الكنيسة ذلك الصيف. أدركتُ أنها كانت تفكّر: ينبغي أن نكون في كوخنا متكوِّمَين الآن. فيما تمضي العاصفة من فوقنا، شَدَتْ الأجراس بتحذيرٍ خافت. رفعت أمي بصرها؛ ذلك أنها سمعته في أحشائها. اهربا، قالت الأجراس.

أخذتني بين ذراعَيْها وهرعنا نازِلَيْن السُّلّم. قعقع البرق، وتردَّد صداه في الوادي. أنصتُّ لأصوات أقدامٍ تمشي في الطين بتثاقل، لكن في السيل المُنهمر سمعتُ لطخات ألف حذاء، انطباق ألف شَفَة. في هزيم الرعد سمعتُ مليون كارل ڤيكتور يطلقون لعناتهم. حمَلَتني عبر الحقل إلى كوخنا وأغلقت رتاج الباب.

جاء كارل ڤيكتور في ذروة العاصفة، طارقًا على بابِنا. حشرتني أمّي في زاوية، ورغم محاولتي شدَّها بجواري، إلّا أنها انسلّت مُبتعدةً ووقَفَت بين الباب المُتهالك وبيني. لم يستمرَّ الأمر سوى لثلاث طرقات. انقصفَ الخشب وظهرت يدٌ بيضاء عبر الفجوة وعبثت بالرِّتاج.

"اللعنة عليكما!" صاح القسُّ. كان يتمايل؛ ذلك أنه آذى أصابع قدميه فيما يركل الباب. التمعَ حذاءه الطويل وثوبه الكهنوتي فيما البرق يومض عليهما.

اندفعت أمِّي إليه. لكن في ومضة البرق التالية رأى قدومها؛ وبدون أجراسها لا تستطيع مُعاركَته. طوَّحَت بمطرقتها بيدٍ ونشبت الأخرى في وجهه. ضغطتُ بيدَيَّ على أذنَيَّ فيما تُسقطها صفعةٌ واحدةٌ منه على أرضنا الطينية. انكمشتُ خوفًا وصرختُ مع كل مرة يركلها فيها بحذائه الطويل. ثم ضربَ البرق كنيستنا بقعقعةٍ ودوَّت الأجراس. غطَّى كارل ڤيكتور أذنيه من الألم، لكنَّ الدَّويَّ لم يفعل سوى أن زادَ

مـن غضبـه. ركلهـا مـرارًا وتكـرارًا حتّـى توقَفَـت عـن الارتجـاف مـن الألم، وحينهـا فقـط توقّـفَ. ظلّـت هامـدة.

مـع انقضـاء العاصفـة، تباطـأ المطـر. مـا زالـت الأجـراس تُهمهـم بخفـوت. كانـت أمـي تطلـق أنفاسًـا لاهثـة. الأب ڤيكتـور يقـف سـاكنًا، مُنصتًـا، ينتظـر ضربـة الـبرق التاليـة حتـي يسـتطيع رؤيتـي. تكوّمـتُ في الزاويـة، مُلتصقًـا بالخشـب، لكـن حينهـا فـرّت جهشـةٌ مـن حلقـي وانفجـرت في الظـلام. خطـا كارل ڤيكتـور ناحيتـي وأخـذَ في ركل الحائـط حتـى وجـدني، ثـم ازدادت ركلاتـه سرعـة وقـوّة، مُركّـزًا عـلى أحشـائي، لحـدّ أننـي تأكّـدتُ أننـي لـن أتنفّـس مُجـددًا. قبـض عـليّ مـن عنقـي ورفعنـي قريبًـا مـن وجهـه.

"أنـت أيُّهـا الوغـد المُخـادع"، قـال. فاحـت منـه رائحـة البصـل النّيِّـئ المُنتنـة. صرخـتُ ومـدَدَتُ يـدي نحـو أمّـي، التـي كانـت تسـتلقي بـلا حـراك عـلى الأرض، تـئنُّ فيـما تُطلـق أنفاسـها. في ومضـة بـرقٍ بعيـدة رأيـتُ وجههـا الغـارق في الدمـاء. جـرّني كارل ڤيكتـور مـن قميـصي حتّـى تمـزّق، انتـزعَ حزامـه، ولفّـه حـول عنقـي كالطـوق. "جـرِّب أن تهـرب"، هسـهسَ في أذني كـما لـو أنـه يرغـب في قَضْمهـا. "انطلِـق وجـرِّب". وفيـما يرتفـع الفجـر الرمـادي، هبطنـا إلى الغابـة. مـزّقَ فـرع شـجرة صنوبـر وأخـذَ في جلـدي بـه كلـما تمايَلـتُ جانبًـا أبعـد مـن الـلازم، أو كلـما سرتُ أسرع أو أبطـأ مـن الـلازم، أو كلـما طفـحَ غضبـه عليـه فحسـب. غَشَـت الدمـوع عينـيّ. سـقطتُ وتعـثّرتُ واختنقـتُ في طوقـي.

قـادني إلى طريـق أوري، الممتلـئ بآثـار الحوافـر، وغرقـت قدمـاي الحافيتـان في الطـين حتـي ركبتَـيَّ تقريبًـا. أطلـقَ كارل ڤيكتـور سـبابًا. تطلّع عـبر الطريـق أمامـه وخلفـه، لكـن في الصبـاح الباكـر لم يـرَ أيّـة أحصنـة أو عربـات قـد يطلـب منهـا ركوبـةً. جـذب قميـصي بشـدّة، لكـن ذلـك لم يفعـل سـوى أن مزّقـه. أمسـكَ بذراعـي النحيـل وجذبـه بشـدّة حتـى

شـعرتُ أنني عـلى وشـك الانفـلاق نصفـين، لكـن الوغـد لم يُفلتنـي. ثـم بغتـةً كانـت هنـاك فرقعـة، ثـم انسـحاب للهـواء، وتعثّرنـا، أنـا أمامـه. انضغـطَ وجهـي عـلى الطـين البـارد، ثـم رُفـعَ بالحـزام الـذي يُطوِّقـه. جـرَّني عـبر الطريـق كشـوال مـن الشـوفان، بيـده تحـت ذراعـي. عندمـا تعـثّرَ، طرحَنـي تحتـه، ولوهلـة اسـودَّ العالَـم بالطـين. عندمـا رفعَنـي لهثـتُ طلبًـا للهـواء وخربشـتُ في أنشـوطتي.

شـققنا طريقنـا بجُهـدٍ عـلى هـذا الحـال لمـا بـدا أنـه سـاعات، قبـل أن نصـل إلى الأرض الصلبـة عنـد جـسرٍ خشـبي يقطـع نهـر ريـوس، حيـث أسـقطني عـلى ألـواح الجـسر المرشوشـة بالطـين. اسـتلقيتُ لاهثًـا، مسـتندًا بظهـري عـلى حاجـز الجـسر، وأزَّ هـو بأنفاسـه وسـعل وبصـق قطـرات مـن الطـين في وجهـي. انسـاب الفيـض في نهـر ريـوس تحـت الجـسر بغضـب أمطـار الربيـع والجليـد الذائـب، وحاولـتُ الهـروب إلى أصواتـه: حدَّقـتُ في تيَّـارٍ إثـر تيَّـار، سـمعتُ رعـد الميـاه المُزبـدة، سـمعتُ الصخـور تتدحـرج في القـاع. لكـنَّ أذنيَّ أجبرتـاني عـلى العـودة. شـحذَ كارل ڤيكتـور يديـه معًـا كحبـل مشـدود يُوشـك عـلى الانقطـاع. ضربـت قدمـاه الأرض. جـزّت أسـنانه عـلى شـفتيه. دمـدمَ بكلـماتٍ.

رفعـتُ بـصري عـبر الطـين والدمـوع. نظـرتُ إلى وجهـه، الـذي امتـلأ بنـدوبٍ مـن أثـر أظافـر أمّـي. تدفَّقـت الدمـاء مـن شـفته العضوضـة. كان رداؤه مُبتلًا بشـدَّة، لحـدِّ أنـه التصـق بسـاقيه.

جذبَ شعره بيديه كما لو كان لانتزاعه، وغمغمَ مُجدَّدًا في الرياح.

تمنَّيـتُ بشـدَّة لـو كان باسـتطاعتي سـماع مـا يـدور في رأس كارل ڤيكتور في تلـك اللحظـة. مـاذا كان ينـوي بالضبـط؟ أنـا ذكي بمـا يكفـي لأدرك أنـه يُخطِّـط لـشيءٍ في عقلـه: أن يأخـذني ربمـا إلى لوتـسرن ليضعنـي في دار أيتـام؛ أن يبيعنـي إلى مُـزارع في مقاطعـة شـفيت. لكـن هـذا الطـين -هـذا الوحـل الـذي يصـل إلى الرُّكبتـين، الـذي يتجشَّـأ ويتنشَّـق ويُطرطـش- قـد

صنع جزيرةً من ذلك الجسر. كانت العودة بي إلى نيبلمات مستحيلة؛ ذلك أنني سأنشر أسراره المُخزية هناك. فيما الاستمرار في جرِّي لمائة قدمٍ أخرى قد يقتلنا معًا.

تحوَّلت دمدمته المُتبرِّمة إلى زعيق، وركلَ حاجز الجسر كما فعل مع أمِّي، مرارًا وتكرارًا، لكنه كان متينًا ولم ينكسر تحت ضربات حذاءه. تطلَّعَ إليَّ بعينَيْن حمراوين، وعندما تحدَّث، بصقَ الدماء في وجهي.

"يُفترض أن تكون أصمَّ!".

في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لبذل وعدٍ ألّا أتحدَّث مُجدَّدًا أبدًا. كنتُ على استعداد لعضِّ لساني وقطعه، فقط لو سمَحَ لي بالعودة إلى أمي. أبدًا لن أغادر برج الكنيسة، حتَّى لو ضرَبَته الصواعق.

انحنى فوقي، وجهه قريب جدًّا، لحدٍّ أن تنشُّقه، وشفتيه المُحمرَّتين أصبحت صادحة كالنهار. رفعني بالحزام، وعصرني على الحاجز بخصره. ثم قبضَ على رأسي بكلتا يديه.

"إذا لم يشأ الرَّبُّ أن يجعلك أصمَّ، فسأجعلك أنا".

انغرست إصبعان في أذنَيَّ كالمسامير. عويتُ وتخبَّطتُ، لكنهما زادتا من انضغاطهما، مُخترقَتيْن أذنَيَّ حتَّى بَدَتَا أنهما ستلتقيان داخل رأسي. أدركتُ أخيرًا الألم الذي يشعر به الآخرون عندما يسمعون أجراس أمِّي. كان وجهه كل ما رأيته. تحوَّلت تقطيبه من الأبيض إلى الأحمر. زادَ من ضغط أصابعه، وصرختُ.

حاولَت يداي الصغيرتان إزاحة يديه، لكنني لم أستطع تحريكهما.

"أبتاه!" صرخت.

أسقطني كما لو كنتُ جمرةً تحترق.

ارتميتُ على الأرض وأمسكت برأسي، منتظرًا الهجمة التالية، لكنها لم تأتِ. وقفَ مُتجمِّدًا فحسب، عيناه هائجتان وذاهلتان.

لم أقصد بذلك اتِّهامًا. في نيبلمات الجميع ينادونه "أبتاه". لم أقصد أكثر من ذلك.

"لستُ أباك"، همسَ. لكنني لم أسمع الكلمات. سمعتُ ارتعاش صوته، تثاقل رئتيه، رجفة يديه وفكَّيه. وسمعتُ كيف أن تلك الكلمة الواحدة، التي أحرقته كالنار، كانت حقيقية.

"أب"؟ أعرف هذه الكلمة: الآباء يحملون أبناءهم عندما يتألَّمون، يجلدونهم عندما يتَشاقُون. يتركونهم يمشون بجوارهم فيما يقودون الأبقار صاعدين المرعى. أعرفها جيدًا، لكن أبدًا لم أتخيَّل أنني قد أستخدمها يومًا.

"لستُ أباك"، قال مُجدَّدًا.

رفعني أبي عاليًا. حَمَلني فوقه كما لو لتقديم قُربان للسماء. "ستكون أبكمَ"، قال.

ثم بهمهمةٍ، رماني من فوق الجسر إلى نهر ريوس الهادر.

(5)

هـل راقـبَ التيـارات الجاريـة تبتلعنـي؟ أم اسـتدار لإخفـاء عينيـه عـن خطيئتـه؟ كل مـا أعرفـه أنـه لم يجـرؤ عـلى التأكـد أن ابنـه قـد مـات حقًّـا. لم يمـشِ بمحـاذاة النهـر بمـا يكفـي لرؤيتـي أتجـرَّد مـن أسـمالي وأنشـوطتي، لرؤيتـي أتخبَّـط وألهـث، فيـما يسـحبني تيَّـارٌ للأسـفل ويدفعنـي آخـر لأعـلى. لم يُراقـب فيـما قـواي تتداعـى، فيـما أبيـض الأمـواج يتحـوَّل إلى الأسـود، وأوشـك عـلى الغـرق. لم يُراقـب جُثَّتـي تهبـط مـع امتـلاء رئتـاي بالمـاء. لم يشـعر بالنـدم ويحـاول إنقـاذي.

* * *

لكــنَّ عينيــه لم تكــن العينَــيْن الوحيدتَــيْن عــلى طريــق أوري ذلــك الصبــاح. عندمــا اســتيقظتُ، ســمعت أصواتهــم قبــل أن أفتــح عينَــيَّ.

"لا، تَراجَعْ. لن ألمسه مُجدَّدًا".

كان الصـوت الأول رفيعًـا ومكتومًـا، وكأنـه يتحـدَث عـبر شـفتَين مشـدودتين، فيـما كان الصـوت الثـاني عميقًـا ودافئًـا: "لا داعـي للقلـق. لقـد اسـتحمَّ لتـوِّه".

"يـا لـه مـن شيءٍ ضـاوٍ"، قـال الأول. "مجـرَّد عظـام. لا بُـدَّ أنـه مصـاب بمـرض مـا. اسـتمع إليـه وهـو يسـعل".

"لقـد شَرِبَ نصـف النهـر. والجلـد والعظـام، هـذا طبيعـي؛ لا شيء يمكن أكلـه في الجبـال. لا شيء سـوى العُشـب والتراب".

انغـرزت أحجـار حـادَّة في ظهـري العـاري. كانـت الشـمس دافئـة، لكـن الضَّفَّـة النَّديَّـة بـاردة كالثلـج. سـعلتُ مُجـدَّدًا، مُخرجًـا مـاءً وقـدرًا كبـيرًا مـن شيء آخـر، ثـم فتحـت عينَـيَّ ورأيـتُ رجلـين يظهـران مـن فوقـي. تطلَّعـتُ إلى أحدهـما ثـم الآخـر، ثـم الأول مُجـدَّدًا، وكان أول مـا فكَّـرتُ بـه أن الـرَّبَّ لم يخلـق قـطُّ رجلـين أكـثر اختلافًـا عـن بعضهـما مـن هذيـن.

أحدهـما كان عملاقًـا وسـيمًا، بهالـة مـن الشـعر الجميـل، ولحيـة رماديـة كثيفـة، وابتسـامة لا تنـزاح عـن وجهـه. فيـما الآخـر أصغـر حجـمًا، وشـاحب. كان يمضـغ شـفتيه، ويعتـصر يديـه المُشـحَّمتين. كلاهـما يرتـدي غلالـة أسـود، مضمومـة عـلى جسـديهما بأحزمـة جلديـة. كانـت غلالـة العمـلاق مُشـبَّعة بالمـاء؛ ذلـك أنـه كان أنقـذني مـن النهـر ثـم ضربَ عـلى صـدري حتَّـى أفقـت.

"إنـه مـوسى يسـبح في النيـل"، قـال العملاق، ابتسـامته دافئة كالشـمس. مـدَّ لي يـدًا هائلـة الحجـم. "تعـالَ وكُـن ملكَنا".

انكمشـتُ خوفًـا مـن اليـد، مُرتعبًـا مـن أيِّ لمسـة سـوى لمسـة أمِّـي. عـلى أيِّ حـال، سرعـان مـا أزاح الرجـل الصغـير يـد الرجـل الكبـير. "قلـتُ لـك ألَّا تلمسـه"، غمغـم.

"إنه مجرد صبي"، قال العملاق، ثم انحنى ووضع كلتا يديه حول أضلاعي، بإبهاميه يضغطان على قلبي. كانت يداه دافئتَيْن وناعمتَيْن، ومع ذلك توتَّرَت كل عضلة في جسدي. أوقفني وكأنه راعي ماعز يفحص طفلًا. كنتُ عاريًا بالكامل، وقد جرَّدني النهر من كل شيء. "ما اسمك؟".

لم أُجِب. في الحقيقة، لا أستطع الإجابة؛ دائمًا ما كان أهل القرية يدعونني فحسب "صبي فروبين ذاك" أو "الطفل الأبله". بقيتُ مُتخشِّبًا على أمل أن يُفلتني من يديه حتَّى أستطيع الهروب والبحث عن أمِّي. هزَّ كتفيه. "حسنًا، موسى اسم جميل مناسب للصبيان الذي يسبحون في الأنهار. اسمي نيكولاي. هذا الذئب العابس اسمه ريموس. نحن رهبان".

تطلَّعتُ إلى الأول ثم إلى الثاني، محاولًا استخلاص معنى من هذه الكلمة. (رهبان)؟ لم أجد شيئًا مشتركًا بين الاثنين سوى الغلالة التي يرتديانها.

"حسنًا"، قال ريموس ذلك، بنفاد صبر، ووجه قد انقبض كما لو أنه اشتمَّ رائحةً كريهة. "إنه حيٌّ. دعه يمضي في طريقه".

"لا!" هتف العملاق. "هل أنت قاسي القلب هكذا؟" أرجحني لأعلى بحيث أجلس على ساعده، بخدِّي مواجهًا الصوف النَّديَّ لغلالته حتَّى شعرتُ بالحكاك من أذني إلى خصري. اندفعت ضربات قلبه إلى أذني.

"أتممت واجبك. أنقذتَ حياته"، قال ريموس.

تراجع جسد نيكولاي مصدومًا. "ريموس، أحدهم ألقاه في ذلك النهر!".

"ليس بالضرورة. ربما سقطَ فحسب".

"هـل سـقطتَ في المياه؟" سـألني العمـلاق. لم أجـب، لم أسـمع مـا قالـه حتَّـى؛ ذلـك أننـي كنـتُ مأخـوذًا بضربـات قلبـه، الأبطـأ والأعمـق كثـيرًا مـن ضربـات قلـب أمِّـي. قلـبُ ثـورٍ.

"أجبني"، ألحَّ نيكولاي. "بمقدورك إخباري. مَن ألقاكَ في النهر؟".

أغلقـتُ عينَـيَّ. كان قلبـي يتباطـأ، ليتوافـق مـع الإيقـاع المـوزون لقلـب العمـلاق. ارتخـت عضـلاتي، وبـلا إرادةٍ منِّـي، ملـتُ إلى حضنـه.

"لا يهـم"، قـال ريمـوس. "ربمـا يكـذب علينـا في كل الأحـوال. انتبـه لكيـس نقـودك".

"ريموس!".

"لا بُدَّ أن تتركه هنا"، أشار ريموس إلى الضفة المعشوشبة.

"هنـا؟ عاريًـا عـلى العشـب؟ كيـف أمكنـكَ قـول هـذا؟ مـاذا لـو أن أولئـك الرهبـان الذيـن وجـدوني عـلى عتبـة بابهـم تركـوني هنـاك؟ أيـن كنـتَ لتوجـد الآن؟".

"أقرأ في صومعتي. في سلام".

"بالضبط. لكنك بدلًا من ذلك ترى العالَم".

"لا أريـد أن أرى العـالم. أخبرتـك بذلـك مـن قبـل. أرغـب في العـودة إلى الديـر. نحـن متأخِّرَيْـن لشـهرين".

"يومٌ آخر لن يصنع فارقًا".

"أنزِله".

أدار نيكـولاي ظهـره إلى ريمـوس. حَملنـي لبضـع خطـوات عـلى طـول الضفـة. فتحـتُ عينَـيَّ وتطلَّعـتُ إلى وجهـه. كان ينظـر للأسـفل بألطـف تحديقـة رأيتهـا في حيـاتي. كانـت أنفاسـه كسـحابة دافئـة تنسـاب عـلى جُـرفٍ. "ريمـوس مُحـقٌّ"، همـس لي. "دائمًـا مـا يكـون عـلى حـقٍّ؛ ولهـذا

لا يحبُّه أحد. لكنني لن أتركك هنا فحسب. أشِرْ إلى طريق منزلك، وسأساعدك لتجدَ أباك".

جفلت بعنفٍ شديد لحدٍّ أن نيكولاي أوشكَ على إسقاطي. تطلَّعتُ من حولي في رعب، خائفًا من أنني قد أرى كارل ڤيكتور رابضًا في العشب.

"يا إلهي"، قال نيكولاي. "هذا هو الأمر إذن! أليس كذلك؟ كان أباك! ريموس"، صاح نيكولاي، عائدًا بسرعة إلى الراهب الضئيل، المُتجهِّم. "أبوه هو مَن ألقاه في النهر!".

"لا يمكنك الجزم".

"حاولَ قتل ابنه الذي من صُلبه. هذا يعني أن الصبي يتيم. مثلي تمامًا".

غطَّى ريموس وجهه بيديه. "نيكولاي، لم تَعُد يتيمًا، منذ أربعين عامًا. أنت راهب، والرهبان لا يَقبَلون الأطفال".

تفكَّر نيكولاي في هذا. انتصب شعر لحيته فيما يبتسم. "يمكنه أن يصير راهبًا مبتدئًا".

"شتاوداخ لن يقبله".

"سأتحدث معه"، أومأ نيكولاي بثقة. "سأجعله يدرك ما هو جوهر المشكلة. حاولَ أبوه قتله".

"نيكولاي"، قال ريموس بهدوء، كما لو لشرح مسألة حسابية بسيطة، "لا يمكنك أخذ هذا الطفل".

"ريموس، كان يطفو هابطًا قاع النهر. يغرق. كان من الممكن أن يغرق بالفعل".

"وهـا أنــت قـد أنقذتَـه. لكـن أن نأخـذه معنـا فهـذه مسـؤولية لا يمكنـك تحمُّلهـا".

بـدَّلَ نيكـولاي وضعـي بحيـث وصرت أتطلَّـع إلى هالـة شـعره المُجعَّـد، والسـماء وراءه. ربَّـت عـلى خـدِّي بإصبـع سـميك كحبـال الأجـراس. "هـل ترغـب في المجـيء معنـا؟" قـال.

كيـف لي أن أدرك مـا يَعرضـه عـليَّ؟ ذلـك أن كل مـا أعرفـه أن العـالم ينتهـي عنـد تلـك الـذُّرى البعيـدة، وأن كل قريـة لهـا كارل ڤيكتـور خاصَّتها. إذا كان أخـبرني أحدهـم أنـه لا يوجـد سـوى ألـف رجـل في العـالم الواسـع، سـأفكِّر قائـلًا، يـا إلهـي! كثـير جـدًّا! لكننـي رأيـتُ في ذلـك الوجـه الـذي يعلـوني نظـرةَ أمـل. قُـل نعـم، قالـت عينـاه. أخـبرني أنـك في حاجـة إليَّ. لـن أخذلـك.

كنتُ أرغب في العودة إلى البيت إلى أمي.

"نيكولاي، أنصِتْ إليَّ، لقد نَذَرتَ نذرًا...".

"سأنذُر آخر".

"ليس هكذا تمضي الأمور. هذه النذور أبد...".

"أنذُر...".

"نيكـولاي، لا تفعـل. يمكنـك أخـذه حتَّـى نجـد مكانًـا آمِنًـا ونتركـه فيـه، لكـن لا...".

تطلَّـع نيكـولاي إلى عينَـيَّ. يـا لـه مـن حُنـوٍّ. لكـن أيـن أمـي؟ هـل مـا زالـت تسـتلقي عـلى أرضيـة كوخنـا؟

"أنذرُ"، قال، "أنه مهما حدث، سأحميك دومًا".

تـأوَّهَ ريمـوس. أوشـك عـلى قـول المزيـد، لكـن نيكـولاي لم يسـتطع سـماعه؛ لأنـه بغتـةً، كـما لـو أنهـا شـعرَت باشـتياقي، بـدأت أجـراس

نيبلمات في القَرع. انكمش نيكولاي وريموس فيما الدَّويُّ يرجُّهما حتَّى لُبِّ قلبيهما. أحنى ريموس كتفيه وغرز إصبعًا قذرًا في كل أذن. غطَّى نيكولاي أحد جانبَيْ رأسي براحةٍ ضخمة وضغطَ أذني الأخرى على صدره، لكنني جاهدتُ حتَّى أفلتني وأنزلني أرضًا. خطوتُ نازلًا إلى ضفة نهر ريوس ورفعت نظري إلى الجبال. كانت أمِّي حيَّة!

تجاهَلتُ الرجل المُحسن الذي كان أنقذني من النهر. حاول ريموس جذبه بعيدًا، لكن نيكولاي وقفَ فحسب وغطَّى أذنيه وراقبني: الصبي الصغير الذي لم يتأذَّ كما هو واضح بذلك الصوت الذي زلزل الأرض تحت أقدامهم.

كانت أمِّي بخير بما يكفي لتنهض عن الأرضية الطينية وتصعد إلى أجراسها! عَزَفَتها باهتياجٍ شديد، لحدٍّ أنه بدا كما لو أنها تعزف على الجبال ذاتها بمطارقها.

انقضت ربع ساعة، ثم تكرَّر الدَّويُّ. حشا ريموس أذنيه بقصاصات صوفية وأخرج كتابًا. لم يفعل نيكولاي سوى أن راقبَني -بأصابعه تسدُّ أذنيه- كما لو كنتُ بهيمةً متوحِّشة لم يرها في حياته من قبل. قَرَعَت أمي أجراسها أطول كثيرًا مما يُسمَح لها به. انقضت أعوامٌ منذ ضُرِبَت على تجاوزها ذلك الحدَّ. الآن، أعرف، أن أهل نيبلمات يجثمون وراء أبوابهم، بالمفاتيح في أيديهم، جاهزين لصعود الكنيسة فور أن يكون ذلك آمنًا.

وما زالت هي تعزف الأجراس. تضربها باهتياجٍ لم أسمعه من قبل قطُّ. بالكاد كان هناك توقُّف بين كل ضربةٍ وأخرى. ثم سمعتُ تغيُّرًا مفاجئًا: كانت قد شرخت حافَّة الجرس الأصغر. لكنها لم تتوقَّف.

سمعتُها تناديه. فيما يجاهد في عودته صاعدًا المجاز الصخري، غارقًا في الطين والعرق والخزي، سيسمع الدَّويَّ كحُكمٍ يتردد صداه عبر العالم. وسيمقتها عند كل قَرْع، كما مَقَتها عندما أغوته، سيمقتها

لفضح خطيئته مع طفلة، ولأنها جعلته قاتلًا. مع كل قَرْع، لا بُدَّ أنه أقسم على إسكاتها للأبد.

سَخِرَت منه على طول المجاز الطيني بوعدٍ أنها ستذيع ذنبه حتى يوقفها. كنتُ متيقِّنًا أنها لاحظت اقترابه، لكنه لم تُبطئ أو تُخفِّف من القَرْع. جَرَت الدموع عبر وجهي وصرختُ مناديًا أمي. "أنا هنا!" صحت. "أنا حي!" لكن حتَّى نيكولاي لم يستطع سماعي. ضَرَبَت تلك الأجراس أعلى وأعلى، مُتحدِّيةً أبي ليصعد إلى بُرجها ويوقفها. في هذه العاصفة، فعقعت الأرض وحطَّم النهر أمواجه حول أقدامنا، وأغلقتُ عينَيَّ وتوهَّمتُ وسط كل هذا، وأمِّي تطرق أجراسها، منادة أبي.

* * *

بعد ذلك بعشرين عامًا، عندما عدتُ إلى الوادي لأول مرَّة بعدها، كانت أسطورة القسِّ الذي أنقذ آذان نيبلمات ما تُزال تُحكى في كل حانة. ظنُّوني غريبًا وأخبروني عن القسِّ الخَيِّر والساحرة الشريرة التي كانت تُحاصر القرية من بُرجها، التي تقرع الأجراس ليلًا ونهارًا حتَّى أوشك أهل القرية على فقد عقولهم. أخبروني كيف صعدَ القسُّ المُبارَك المجاز إلى تلك الكنيسة واختفى داخلها، بعد أن منحه الرَّبُّ شجاعةً سماوية. ومن القرية، رأوا ظلَّه يَثِبُ عبر الباب الشبكي إلى بُرج الكنيسة. تراقَصَت هي من حوله، تضرب أجراسها حتَّى انفجرت أذناه وتَلفَتا بفعل الاصطخاب. ثم في عالَمه الصامت، انقضَّ عليها، تلك الشيطانة الرشيقة، فيما تندفع بين أجراس الشيطان. أمسك بردائها، وأوشك على السقوط، وتمايلَ على حافَّة بُرج الكنيسة، متشبِّثًا بآخر جذاذة من القماش في قبضته. صرخَ طالبًا نجدتها. وثَبَت ناحيته، كما لو أنها ستحتضنه. ثم شاهدت كل عينٍ في المدينة كيف سقطا معًا.

لم يُرسَل في طلب قسٍّ جديد قطُّ. أذيبت الأجراس وصُنِعَت منها مَعازِق.

* * *

لكن في ذلك اليوم، واقفًا بجوار ذلك النهر، فيما أصرخ لأمي أنني لم أمُت، ما تخيَّلتُه كان مُختلفًا تمامًا. كانت تضرب أجراسها بشدَّة لحدِّ أنني، في المركز من ذلك الضجيج، كنتُ واثقًا أن العالم قد بدأ يفقد ثباته، أن أمواج الصوت قد مزَّقت كل ذَرَّة في جسدَيْ والديَّ. وحيدًا، متساميًا فوق الدَّويِّ، سمعتُ صرخة أبي تتردَّد عبر الجبال. ربما كنت هي اللحظة التي انفجرت فيها طبلتَا أذنه. لكن ذلك الطفل كان متيقِّنًا أن أباه صرخَ لأن جسده تمزَّق بفِعل أمواج الصوت.

لم تُقرَع الأجراس مُجدَّدًا. هل رحلت أمِّي؟ بشكلٍ ما أدركتُ أنها رحلت. همهمَ الصدى حولي لبضعة دقائق. تمامًا كما كل قطرة من مياه المحيط كانت يومًا قطرةَ مطر، سمعتُ حينها وكأن كل صوتٍ في العالم كان ذات مرة في أجراس أمِّي: النهر الرَّنَّان، أزيز طيور السنونو تندفع في إثر الذباب، الأنفاس الدافئة للراهب المُحسِن الواقف بجواري. رحَلَت أمي وظلَّت في كل مكان.

سعلَ نيكولاي برفق. رفعني لأتكوَّم في ذراعيه. مع كل شهقةٍ وانتحابةٍ مِنِّي، كان يُحكم ضمَّته أكثر. عندما فتح ريموس فمه ليعترض، لم يفعل نيكولاي سوى أن استعرض أمامه راحة يده العملاقة. أغلق الراهب القبيح فمه وهزَّ رأسه. حمَلني نيكولاي إلى الطريق، حيث يقف أكبر حصانين رأيتهما في حياتي. انسلَّ ريموس في إثرنا. تطوَّح نيكولاي بكلينا على حصان المقدِّمة، ووضعني بين فخذيه الهائلتين.

"تمسَّك جيدًا"، قال. لم أر أيَّ شيء بمقدوري التَّمسُّك به، وفيما يتَّخذ الحصان خُطوتَه الأولى المُهتزَّة، صرختُ في رعبٍ وحاولت الوثوب إلى أمان الأرض. جذبني نيكولاي ليمنعني. أغلقتُ عينَيَّ وانسابت الدموع على خدَّيَّ، وحاولتُ تصوُّر وجه أمِّي، لكنني لم أستطع الاحتفاظ به في عقلي. بدلًا من ذلك، مُستلهمًا العزاء، أنصتُّ إلى الضربات المكتومة لركلات نيكولاي الخافتة على أضلاع الحصان، وغوص الحوافر الوحشية

في الطـين، وحفيـف عُـرف الحصـان. ثـم تطلَّعـتُ أمامـي، عـبر الطريـق المُغبّـش، وتسـاءلتُ إلى أيِّ حـدٍّ وصلـت أجـراس أمّـي.

انعطفنـا عـلى الطريـق عنـد جورتنيلـن، وفي تلـك المدينـة التـي تضـمُّ ثلاثمائـة روح، ظننـتُ أننـا وصلنـا إلى مركـز الكـون. كان الرجـال يرتـدون ملابـس رماديـة أو بيضـاء وليسـت بُنِّيَّـة. أحدهـم أخـرج سـاعةً مـن جيبـه، وظننـتُ تكتكتهـا هـي ضربـات قلـب حيـوان جيـب منمنـم مـا. سـيدة، مغـادِرةٌ منـزلًا مُشـيَّدًا مـن الحجـارة، فتَحَـت شمسـية -شـهقتُ- مـا جعلنـي أتشـبَّث بـذراع نيكـولاي العريـض في رعـب.

غمغـمَ ريمـوس لنيكـولاي أن صبيًّـا عاريًـا عـلى حجـر راهـب هو مشـهد سيتسـبَّب لنـا في متاعـب، وهكـذا، مـن خيّـاطٍ، اشـترى لي نيكـولاي ملابـس تحتانيـة مـن الكتـان وسروال لركـوب الخيـل مـن الصـوف. كان الكتـان ناعـمًا كالريـش، لكـن السروال لم يكـن مريحًـا، وكأنـه حـزام كارل ڤيكتـور حـول عنقـي. لاحقًـا، ذهبنـا إلى حانـة وأكلنـا أطباقًـا مـن اليخنـة السـاخنة واحتسـينا النبيـذ. بعـد ثمانيـة أو عـشرة أكـواب مـن ذلـك الـشيء الحامـض، وقـف نيكـولاي عـلى قـدمٍ واحـدة عـلى مقعـده. "يـا سـادة"، قـال للتُّجّـار والمزارعـين في الحانـة، "دعـوني أعلِّمكـم مـا تعلَّمتُـه في رومـا". صفَّـقَ بيديـه الضخمتـين معًـا، أسـقط ذقنـه، وبصـوت جهـوري مُـدَوٍّ، أنشـدَ أغنيـة عجيبـة بلغـة حسـبتُها رطانـة بـلا معنـى لحـدٍّ أننـي ابتسـمتُ لأول مـرة منـذ أيـامٍ كثـيرة. ابتهـج الرجـال الآخـرون وصفَّقـوا، لكـن ريمـوس استشـاط غضبًـا، وبعـد أغنيـة أخـرى، جرَّنـا لنمـضي في طريقنـا.

* * *

نمنـا في النُّـزُل عـلى طـول الطريق. كنـت ألتـفُّ بالدثار عـلى الأرض، فيما ينـام نيكـولاي وريمـوس عـلى الأسِرَّة. عندمـا أتنشَّـق في الليـل، كان نيكـولاي يسـتيقظ دائمًـا وينسـلُّ بجـواري عـلى الأرضيـة التـي تـصرُّ ألواحهـا تحتـه. "مـوسى الصغـير"، يهمـس في أذني، "هـذا عالَـم مهـول، يمتلـئ بالأفـراح، كل

فرحـة تقبـع في انتظـارك لتَقتنصَهـا. لا تقلـق، لم تَعُـد مُضطـرًّا للخـوف. نيكـولاي معـك الآن".

في اليـوم الثالـث، خرجنـا مـن مقاطعـة أوري ودخلنـا إلى مقاطعـة شـفيتس، وسرنـا بمحـاذاة بحـيرة لوتـسرن، التـي أعـرف أنهـا تمتلـئ حتـمًا بحيوانـات مخيفـة. لكـن حتّـى الوحـوش المتخيَّلـة في أعماقهـا كانـت معروفـةً لي أكـثر مـن الحضـارة التـي صادَفتنـا في طريقنـا. كان العـالم أكـثر اتّسـاعًا بكثـير مـمّا تصـوَّرت قـطُّ. ادّخـرتُ كل صـوت بالسرعـة المُهتاجـة لبخيـلٍ وجـد صنـدوق أمـوال مسـكوب في الشـارع: انثنـاءات الأمـواج، صريـر محبـس المجـداف، مسـيرة الجنـود الموزونـة، صفـير تَدرُّبهـم عـلى بنـادق المَسْـكيت، أزيـز محـراث في الطمـي، الريـاح عـبر حقـول شـوفان الربيـع. مـرَّ بنـا تُجّـارٌ وهـم يتحدَّثـون بألـف لغـة مختلفـة، وأخـبرني نيكـولاي كيـف كانـوا قـد عـبروا جبـال الألـب إلى إيطاليـا.

عـلى طـول الطريـق، تزاحـمَ متسـوِّلون حـول أحصنتنـا وتطاولـوا نحـو نيكـولاي وريمـوس بأصابـع ناحلـة، وهـم يثُغـون كالماعـز. ألقـى إليهـم نيكـولاي بعمـلات نحاسـية. وتظاهـر ريمـوس أنـه لم يسـمعهم يتصايحـون. بـدأتُ في إدراك أن هـذا العـالم يحـوي مليـون إنسـان بمليـون قَـدَر، معظمهـا أقـدار تعيسـة. وهـا أنـا مثـال عـلى ذلـك: بـلا أب، بـلا أم، بـلا بيـت بمقـدوري العـودة إليـه.

(6)

في الصباحـات، كان نيكـولاي يوقظنـا بإنشـاده لقُـدّاس الصبـاح. كان موسوسًـا في التزامـه بمهامـه المُقدَّسـة، مُتشـدِّدًا في إكمالـه لـدورة المزامـير الأسـبوعية. لم يحمـل أي كتـب في رحلتـه سـوى مُجلَّـد نحيـل مـن (قواعـد القديـس بينديكـت)، وهـو كتـاب لم يكـن في حاجـةٍ إليـه؛ ذلـك أنـه كان يحفظـه عـن ظهـر قلـب نتيجـة القـراءة اليوميـة لمـا يزيـد عـن أربعـين عامًـا تقريبًـا. كنَّـا أنـا وريمـوس نظـلُّ في الفـراش حتـى ينتهـي مـن صلواتـه. ثـم نتنـاول إفطارنـا مـن العصيـدة وألـواح الجُـبن الكبـيرة وبـيرة المِـزر.

في كل يـوم، فيـما نمتطـي أحصنتنـا، كنَّـا نصمـت للحظـة، بقلوبنـا مُثقَلة بمسـتقبلنا، لكـن سرعـان مـا يعفينـا نيكـولاي مـن هـذا العـبء. يبـدأ في التَّحـدُّث حتَّـى نُطفـئ الشـمعة في الليـل وننـام.

«هـل زُرتَ رومـا مـن قبـل؟» سـألني في واحـدٍ مـن أيامنـا الأولى معًـا. نخـرَ ريمـوس عنـد سـماعه السـؤال.

«يـا لهـا مـن مـكان! يومًـا سـنذهب إلى هنـاك معًـا يـا مـوسى... أنـت وأنـا والذئـب العابـس. رغـم أن قلبـه يتـوق إلى فراشـه دومًـا، إلّا أن ريمـوس يرغـب في العـودة إليهـا بالتأكيـد. تـرى، في رومـا لديهـم مكتبـات كاملـة تمتلـئ بكتـب لم يقرأهـا أحـد؛ ولهـذا سـمحَ لنـا رئيـس الديـر بالرحيـل. عاهـدَ ريمـوس نفسـه عـلى أن يقـرأ كل كتـاب في العـالم بأكملـه، مهـما كانـت مادتـه مملّـة أو عديمـة الفائـدة».

"هـذا مـن رجـلٍ يؤمـن أن المكتبـات ينبغـي أن تقـدِّم لمرتاديهـا النبيـذ"، غمغـمَ ريمـوس دون أن يرفـع بـصره.

"حسـنًا، هـذا صحيـح"، قـال نيكـولاي. "وحينهـا سيسـعدني التّوقُّـف عندهـا لأقـرأ صفحـة أو اثنتـين". بَسـطَ ذراعيـه عـلى اتّسـاعهما ومـالَ قليـلًا للـوراء حتّـى يسـتدفئ بالشـمس قليـلًا. أجفلـت ضحكتـه الحصـان. "لكـن لبضـع دقائـق فحسـب! هنـاك مـا يكفـي مـن الكتـب مـن أجـلي في سـانت غـال، أكـثر مـما يكفـي. رومـا يـا مـوسى! رومـا! غبـار الآلهـة يتخلّـف في كل ركـن! يـا لهـا مـن موسـيقى! الأوبـرا! كيـف لي أن أضيـع لحظـةً مـع كتـاب!".

أخـبرني أننـا كُنّـا في طريقنـا عائديـن إلى موطنهـم، سـانت غـال هـذه، التـي سُـمِّيَت هكـذا لأن رجـلًا يُدعـى غالـوس مـن مـكانٍ يُدعـى أيرلنـدا أصيـب بالحُمّـى ووجـدَ بالصدفـة غابـةً قبـل أكـثر مـن ألـف سـنة. ذلـك المـكان كان ديـرًا (كلمـة تكـرَّرت كثـيرًا بـين نيكـولاي وريمـوس؛ ولهـذا كنـت مُتلهِّفًـا لمعرفـة معناهـا). حقائـق أخـرى انتزعتهـا عـن ذلـك المـكان: كانـت أقبيتـه ممتلئـة عـن آخرهـا بأجـود أنـواع النبيـذ في العـالم؛ الفُرُش أطـرى مـن أيِّ فـراش في رومـا؛ تضـم أعظـم مكتبـة في الأرض[1]، وريمـوس كان قـرأ كل كتـاب فيهـا (فيـما قـرأ نيكـولاي ثلاثـة فحسـب)؛ تضـمُّ شـيئًا بشـعًا يُدعـى رئيـس الديـر، وهـو رجُـلٌ يُسـمَّى كويلسـتن فـون شـتاوداخ

(1) هي ثاني أقدم مكتبة في العالم بعد مكتبة دير سانت كاترين في مصر. (المترجم)

أو كولـيرك فـون شـتوكدوك، لسـتُ متأكـدًا أيّهـما. في أغلـب الأحيـان كان نيكـولاي يشـير إليـه باسـم شـتوكدوك فحسـب.

أخـبرني نيكـولاي أن أغلـب النـاس ينـادون ريمـوس بدومينيكـوس، لكـن أصدقـاءه (الذيـن لا يوجـد منهـم سـوى واحـد فقـط حاليًـا، لكـن بمقدوري أن أكـون الثـاني إذا شـئت) يعرفـون أن اسـمه الحقيقـي هـو ريمـوس وأنـه تـربّى وسـط الذئـاب العابسـين. لم يـراودني شـكٌّ في ذلـك: كان ريمـوس دائمًـا مـا يعبـس في وجهـي عـلى فـترات منتظمـة، رغـم أن معظـم وجـه كان يختفـي وراء كتابـه فيـما نمـضي عـلى الخيـول؛ بـدا حصانـه مُدرَّبًـا جيـدًا عـلى اتِّبـاع حصـان نيكـولاي. في مناسـبات كثـيرًا كان نيكـولاي يطلـب مـن ريمـوس القـراءة علينـا بصـوت عـالٍ، وحينهـا تبـدو الأصـوات التـي يتحـدَّث بهـا كتعاويـذ سـحرية بلغـة السَّـحرة. دائمًـا مـا كنـتُ أشـعر بالامتنـان عندمـا يقاطعـه نيكـولاي، بعـد دقيقـة أو اثنتـين، ويقـول: "ريمـوس، هـذا يكفـي. قتلنـا الملـل أنـا ومـوسى".

رغـم أن نيكـولاي تحـدَّث باعتـزاز شـديد عـن الديـر، إلا أنـه تألَّـم مـع انتهـاء أسـفارهما. في اليـوم الـذي تركنـا فيـه بحـيرة لوتـسرن وراءنـا وبدأنـا في صعـود التـلال، أوقـفَ نيكـولاي الأحصنـة بغتـةً. "ريمـوس"، قـال، "لقـد غـيَّرتُ رأيـي".

"لا تتوقَّـف بغتـةً هكـذا"، قـال ريمـوس، مُثبِّتًـا نظـره مـا يـزال عـلى كتابـه. "يُصيبنـي هـذا بالغثيـان".

عـاد نيكـولاي إلى تحديقتـه في الأفـق الجنـوبي، كـما لـو أنـه رأى شـيئًا أثـار قلقـه هنـاك. "لا بُـدَّ أن نقفـل راجعـين"، قـال. "أرغـب حقًّـا في زيـارة فينيسـيا".

رفعَ ريموس بصره بحدَّة. كان من الواضح أن اسم تلك المدينة أثار انزعاجه. "نيكولاي، تأخَّرنا جدًّا على ذلك. تأخَّرنا لشهور. حسمنا قرارنا بالاتِّجاه إلى الدير".

"لقد سلَّمتُ بسهولة. كان ينبغي أن أجعلك تعود بمفردك".

"نيكولاي، تابع طريقك". قال ريموس كما لو أنه يتحدّث إلى طفل.

"ريموس، لا بُدَّ أن أزور ڤينيسيا قبل أن أموت". ضربَ نيكولاي بقبضته على فخذه.

"مرّة أخرى". أخفضَ ريموس بصره بحذر إلى كتابه.

سحبَ نيكولاي حصاننا قريبًا جدًّا من حصان ريموس بحيث تلامست ركبته مع ركبته الراهب الآخر. لم يرفع الراهب القارئ بصره، رغم أنه أبعدَ ساقه. في نفس اللحظة، مدَّ نيكولاي يده واختطف الكتاب.

تطلَّعَ الراهبان في عينَيْ بعضهما البعض. "وماذا لو لم نغادر الدير أبدًا لبقيّة حياتنا؟" سأله نيكولاي.

لم يجبه ريموس. مدَّ يده الخاوية حتّى أعاد نيكولاي الكتاب إليه. فتحه مُجدَّدًا. "آمل ذلك"، قال، وعاد إلى قراءته. نخزَ حصانه وتهادى به مُتجاوزًا إيّانا.

نادى نيكولاي في إثره. "أنت في غاية الحماقة. أتحدَّث عن ڤينيسيا يا ريموس. أجمل مدينة في العالم بأكمله. وتركناها تمرُّ بنا غير عابئين بها".

تكلَّم ريموس ونظره في كتابه. "سيحلُّ الظلام قريبًا".

"أعتقد أنني سأجد السلام هناك"، همسَ نيكولاي، لنفسه تقريبًا. عندما رفعت بصري، كنتُ موقنًا تقريبًا أن العملاق على وشك البكاء. أخفضَ بصره إليَّ، وابتسمنا لبعضنا البعض. في وجهي أمَلتُ أنه رأى،

لكـن نيكـولاي، سـأذهب أنـا معـك! بـدا أننـي ألهمـت الرجـل الضخـم الشـجاعةَ؛ ذلـك أنـه ركل حصانـه وتحـاذى مـع ريمـوس مُجـدَّدًا.

"في ڤينيسيا كل شيء سيكون مختلفًا".

"لا تكُـن أبلـهَ". بفرقعـة، قَلَـبَ ريمـوس صفحـةً مـن الكتـاب. "أربعـون سـنة كراهـب ولم تتخلَّـص مـن ذلـك الهـوس. مجـرَّد ذريعـة أخـرى".

"إذن فخـذني إلى هنـاك؛ وحينهـا لـن أجـد أيَّـة ذرائـع أخـرى. سـأتوقَّف عـن إزعاجـك".

"ستجد سببًا آخر لضجرك واستيائك. الجميع يفعل هذا".

أوقـف نيكـولاي حصاننـا مُجـدَّدًا. هـزَّ رأسـه. "أنـت، عـلى الأقـل"، غمغـم، "لا عُـذرَ لديـك لتكـون تعيسًـا".

أغلـق ريمـوس كتابـه وتطلَّـع مـن فـوق كتفـه إلى نيكـولاي. ظننـتُ أننـي رأيـتُ ابتسـامة -ومضـة انفعـال- تكـسر ذلـك العبـوس، لكنهـا تلاشـت. "نيكـولاي، لا تُماطـل فيـما اتفقنـا عليـه قبـل زمـن طويـل".

تطلَّـع نيكـولاي إلى الـوراء للحظـةٍ أخـرى، كـما لـو كان بمقـدوره رؤيـة المُنعطـف المـؤدي إلى ڤينيسـيا، الـذي كان في الحقيقـة عـلى بُعـد مئـات الأميـال وراءنـا عـلى الجانـب الآخـر مـن جبـال الألـب، ثـم اسـتدار ناحيـة موطنـه ونخـسَ حصانـه.

* * *

"عزيـزي مـوسى"، قـال لي نيكـولاي ذات صبـاح بديـع عـلى نحـوٍ اسـتثنائيٍّ، بعـد أن امتطينـا الأحصنـة. "هنـاك رهبـان وهنـاك رهبـان. أنـا راهـب. ريمـوس هنـا راهـب. ورئيـس الديـر كولـيرك فـون شـتوكدوك راهـب. نُنْشِـد نفـس الأناشـيد، نُصـلِّي نفـس الصلـوات، ونحتـسي نفـس النبيـذ. نحـن مـن نفـس اللحـم، بمقـدور المـرء أن يقـول". كنَّـا نعـبر مـن الغابـة إلى المرعـى ثـم عائديـن إليهـا مُجـدَّدًا، صاعديـن ومُبتعديـن ببطء

عـن البحـر الشاسـعة التـي تتـلألأ وراءنـا. مـدَّ نيكـولاي يـده ومسـحَ بهـا عـلى الشـتائل عـلى طـول المجـاز. "أرواحنـا أيضًـا يـا مـوسى، لا بُـدَّ أنهـا نفـس الـروح، أليـس كذلـك؟ لكـن لا، فـروح رئيـس الديـر شـتوكدوك مُتيبِّسـة وذاويـة، وروحـي سـمينة كخنزيـر". ضربَ حـول بطنـه. "وأحدنـا حتـمًا عـلى الطريـق الخاطـئ، كـما يقـول الرجـل الضئيـل دائمًـا. لكـن مـا نـودُّ أن نعرفـه جميعًـا هـو مَـن عـلى حـقٍّ ومَـن عـلى خطـأ؟".

نكـزَ إصبعًـا ضخـمًا في ركبتـي. "إنـه قلبـي في مواجهـة عقلـه يـا مـوسى. سـيقول نفـس الـشيء لـو سـألتَه، رغـم أننـي لـن أفعـل لـو كنـت مكانـك".

لبضـع دقائـق لم يتحـدَّث أيٌّ منَّـا، ثـم أخـذَ نيكـولاي في الهمهمـة بلحـنٍ عسـكري إيطـالي. مـدَّ يـده إلى الأرض وانتـزعَ فـرع شـجرةٍ ميِّـت. أخـذَ في التلويـح بـه عـلى أجـمات العليـق الناميـة عـلى طـول المجـاز. "تَـرى يـا مـوسى"، تابـعَ بغتـةً، "لـديَّ الكثـير لأخـسره. أحـبُّ أشـياء كثـيرة جـدًّا. أكـثر مـن الـلازم، يقـول رئيـس الديـر. أكـثر مـن الـلازم. امنـح قليـلًا مـن الحـب فحسـب، يشـير إليَّ. عالـج نفسـك مـن تلـك الخطيئـة. هـذا بالضبـط مـا أخـشى منـه، ألا تـرى؟ هـذا بالضبـط أكـبر مخـاوفي، هـذا مـا يُبقينـي مُسـتيقظًا كل ليلـة. مـا أخافـه هـو: أن أسـتيقظ في الصبـاح التـالي وأجـد كل شيء كـما هـو، العالَـم هـو العالَـم، لكـن مـع كل الحـب الـذي أحملـه تجاهـه وقـد اختفـى، ثـم أدرك أن حبِّـي لم يكـن في الحقيقـة سـوى مـرض، مثـل حصبـةٍ في الـروح". تطلَّـع نيكـولاي إلى صديقـه يخبـب بجـواره. "هـل يمكـن أن يحـدث هـذا يـا ريمـوس؟" لم يجبـه ريمـوس، فاضطـر إلى نخسـه بالفـرع في أضلاعـه.

"نعم، من الممكن أن يحدث"، دَمدمَ ريموس. "قد يحدث غدًا".

رفـعَ نيكـولاي الفـرع، تـردَّد للحظـة، ثـم لـوَّحَ بـه في اتجـاه فخـذ الحصـان الآخـر. اندفـع الحصـان إلى الأمـام، شـدَّ ريمـوس عـلى مقبضـه وبالـكاد نجـحَ في البقـاء في سرجـه ومنـع كتابـه مـن السـقوط مـن الوحـل.

وضعتُ يدي أمام فمي لإخفاء ضحكتي. عندما استعاد ريموس ثباته، استدارَ بغضبٍ إلى نيكولاي، لكن نيكولاي رفع يدًا. "تحاول إيذائي فحسب يا ريموس. لا تصدِّق حتى ما تقوله". لوَّحَ بالفرع في الهواء وكأنه سيف. انكمشَ ريموس.

بدا لي ريموس حينها قبيحًا حقًّا، وتمنَّيتُ لو ابتعد بحصانه عنَّا. لم أفهم ما كان يعنيه نيكولاي، لكنني كنتُ أحبُّ الإنصات إليه وهو يتحدَّث. لا بُدَّ أن نيكولاي رآني أصالب بين ذراعيَّ متأفِّفًا، لأنه وضع يدًا على كتفي. "لا تدع تبرُّمَه يخدعك"، قال، "ليس لئيمًا كما يريدك أن تعتقد". ثم انحنى أكثر، وتحدَّث بصوت واطئٍ جدًّا، لحدٍّ أن الراهب القارئ لم يستطع سماعنا. "ذلك العابس يؤمن بالحب كما يؤمن أيُّ إنسان في العالم. قَدْر ما أؤمن أنا. كثيرًا ما سمعته يهمس بما يؤكد أنه يؤمن بالحب، تمامًا كما أهمس أنا، وتمامًا كما ستهمس أنت يومًا ما لأحدهم، عندما تشعر بتلك الومضة، أن نصفين صارا واحدًا".

انغلق كتاب ريموس بغتةً. حدَّقَ بغضب في نيكولاي. "احذر مَن تخبره أسرارك"، قال.

تورَّد وجه نيكولاي، لكنه هزَّ كتفه استهانةً ومَزَّق فَرعه في شجرة عابرة. "لا تقلق يا ريموس"، قال. "بمقدورنا ائتمان موسى على أسرارنا".

(7)

اتَّضحَ أن رئيس الدير كويلستن جوجر فون شتاوداخ ليس سوى رجل ضئيل كانت أبرز ملامحه جبينًا عريضًا، يحتلُّ ما يزيد عن نصف قماشة وجهه، ووراءها لا بُدَّ ينبض عقلٌ هائل. "راهب مُبتدئ قروي في هذا الدير؟" سألَ عندما أوضحَ له نيكولاي لماذا جلبَ هذا الطفل إلى مكتبه. "راهب مُبتدئ يتيم؟".

أومأ نيكولاي بحماس. تطلَّعَ ريموس إلى أرضية خشب البلُّوط المصقولة.

نهضَ رئيس الدير من وراء مكتبه العريض. مثل نيكولاي وريموس، كان يرتدي أيضًا غِلالة سوداء، لكن يتدلَّى فوقها رداءٌ أسود بقلنسوة، وصليبٌ ذهبي يلتمع على صدره، وفيما يقترب منِّي، حدَّقتُ في الحجر الأحمر المتلألئ على إصبعه. أوشكتُ على التراجع، لكنني كنت بالفعل لَصْق الحائط. نظرَ إلى قدميَّ العاريتَيْن، إلى ملابسي المُغبَّرة، إلى اللطخات التي لم يغسلها نيكولاي عن وجهي. تنشَّق.

"بالتأكيد لا"، قال.

"إنــه هــادئ"، قــال نيكــولاي. "إنــه... إنــه صغــير". باعــدَ نيكــولاي ذراعيــه كــما لــو لاســتعراض حجــم ســمكة بائســة.

حــدَّق إلى رئيــس الديــر مــن علٍ. كانــت أنفاســه ســطحية، تندفــع بشــكل ميكانيــكي كمنفــاخ عــلى مصهــر. داخلــةً، خارجــةً. داخلــةً، خارجــةً. حتَّــى الآن، كنــتُ متيقِّنًــا أن بمقــدوري إيجــاد جــذور لــكل صــوتٍ ســمعته في هــذا العــالم الهائــل -مــن فرقعــات بنــادق الجنــود إلى امــرأة تغنِّــي في نافذتهــا- في الأعــماق الــلا نهائيــة لأجــراس أمِّــي. لكننــي كنــتُ متيقِّنًــا أيضًــا أنــه في موضــع مــا في العــالم كانــت أصــوات أبي، ممزَّقــة ومتناثــرة في الفيضــان، محفوظــةً أيضًــا. في اللحظــة التــي ســمعت فيهــا هــذه الأنفــاس، أدركــتُ مــن أيــن جــاءت أصــوات هــذا الرجــل.

كنَّــا ســافرنا عــبر أراضي الديــر طــوال الأيــام الأربعــة الفائتــة مــن رحلتنــا؛ ذلــك أن ديــر ســانت غــال كان أغنــى وأوســع ديــر في ســويسرا بأكملهــا. لم يكــن رئيســه مســؤولًا أمــام أحــد، كان نيكــولاي قــد أوضــحَ لي فيــما يمســح بيــده ليشــير إلى التــلال الطاويــة، لا مَلــكًا في الأعــلى ولا جمهوريــة في الأســفل. شــهقتُ عندمــا دلفنــا عــبر بوابــات المدينــة البروتســتانتية، التــي كانــت تحيــط بالديــر كقــشرة بثمــرة جــوز[1]. وجــدتُ الشــوارع عريضــةً ومرصوفــة بأحجــار ملســاء مســتوية، والمنــازل العاليــة نصــف الخشــبية تتوهــج بالأبيــض. ورجــال ونســاء المدينــة طويــلي القامــة، ذوي جــمال وكبريــاء، بأزيــاء مــن الكتــان والصــوف، وزركشــات الموســلين الرقيــق. كانــت أصــوات الجِــدِّ والعمــل تنســاب مــن كل قبــوٍ، وكل زقــاق: صريــر وانــزلاق قصبــة المنــوال، خشخشــة عمــلات الذهــب والفضــة، فعقعــة العربــات المُحمَّلــة بأكــوام الكتــان الــذي بيَّضتــه الشــمس. فيــما نخــترق المدينــة،

---

(1) في سـانت غـال، يقـع الديـر الكاثوليـكي في المركـز، تحيـط بـه المدينة البروتسـتانتية، وتحيـط بالاثنـين أمـلاك وأراضي الديـر المتراميـة. - (المترجم)

ازدادت المنـازل ارتفاعًـا وفخامـةً: مبـاني حجريـة بيضـاء كالجُـرُف التـي تعلـو كنيسـة أمـي.

في النهايـة وصـل ثلاثتنـا أخـيرًا إلى بوابـة يحرسـها جنديَّـان، خطـوا جانبًـا عنـد مـرأى الراهبَـين العائدَيْـن، ومررنـا إلى ميـدان الديـر الشاسـع. مـدَّ نيكـولاي يـده لملامسـة ريمـوس برفـقٍ عـلى مِرفقـه، إصبعـان فحسـب وإبهامـه عـلى نسـيج غِلالتـه الكهنوتيـة. اسـتمرَّت اللمسـة للحظـة، فيـما ينظـر الرجـلان إلى بيتهـما للمـرة الأولى في سـنتين، ثـم اسـتدارَ ريمـوس لـيراني أراقبهـما.

أبعد ذراعه مُجفلًا.

كانـت مسـاحة الميـدان تكفـي عـشرة آلاف روح. تحـدُّه ثلاثـة أجنحـة هائلـة مـن أحجـار لبنيـة اللـون، كل منهـا عظيـم وكأنـه قـصر، بنوافـذ كثـيرة جـدًّا، كلهـا عاليـة كبـاب منـزل كارل ڤيكتـور. وفي وسـط الميـدان كانـت حفـرة هائلـة يقبـع فيهـا دزينتـان مـن الرجـال يرفعـون كُتَـلًا مهولـة مـن الحجـارة. لامـسَ نيكـولاي كتفـي وأشـارَ إلى الحفـرة.

"انظـر يـا مـوسى"، قـال. "لقـد بـدؤوا لتوِّهـم... في بضـع سـنين سـتكون هـذه أجمـل كنيسـة في أوروبـا".

أومـأتُ، رغـم أن التجويـف المهـول لم يشـبه الكنيسـة التـي أعرفهـا بـأيِّ شـكل. تنـاول نيكـولاي يـدي وقـادني إلى الميـدان الفسـيح. لا بُـدَّ أن كائنـات تبلـغ حـدَّ الكـمال تسـكن ذلـك القـصر، فكَّـرتُ، وتمنَّيـتُ أن يسـمحوا لي بالنـوم هنـا عـلى العشـب.

* * *

لكـن في حجـرة رئيـس الديـر، فيـما ينظـر إليَّ شـزرًا مـن عـلٍ، أدركـتُ أخـيرًا وضعـي. كان، حقًّـا، الكائـن الأسـمى، ولم أكـن سـوى لطخـة لا بُـدَّ مـن مسـحها.

"دار الأيتام في رورشاخ"،قال، وأومأ بنخرة.

"لا!" قال نيكولاي، بأعلى مما يقصد بالتأكيد. انكمش ريموس. خطا الراهب الكبير للأمام وصرَّت الأرضية الخشبية تحت قدميه الهائلتين. جذب ريموس كُمَّ نيكولاي لتحذيره، لكنه نفضه عنه.

"يمكنه البقاء معي"، تابع نيكولاي.

ارتفعت تحديقة رئيس الدير المُستاءة من وجهي إلى وجه نيكولاي.

"في صومعتي. بمقدوره أن يكون خادمي".

تصوَّرتُ نفسي أحمل نبيذ نيكولاي، أُلبسُه حذاءه، أدعك كتفيه عندما يكون متعبًا. مقابل بيتٍ في هذا القصر المنيف، كنتُ مستعدًا لفعل هذا وأكثر.

"الرهبان لا يملكون خَدَمًا".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي، وابتسم كما لو أن رئيس الدير قد قال مَزحةً. "أين قلبك؟".

ألقى رئيس الدير نظرةً توبيخيةً أخرى في اتِّجاهي. هذا خطؤكَ بالكامل، أدركتُ ما تريد عيناه أن تقول، الأمر بأكمله، أمك الميِّتة، أبوك الشرير، القذارة التي تخلِّفها قدمك مُتخشِّبةُ الجلد على أرضياتي الطاهرة. وشعرتُ بالأسف حقًّا... لو واتتني الشجاعة على التَّحدُّث، لطلبت صفحه وغفرانه على كل شيء، ثم سأتوسَّل إليه ألَّا يطردني؛ لأن نيكولاي هو الشخص الوحيد في العالم الآن الذي أثق به، ولا أرغب في انتزاعي منه كما انتُزِعتُ من أمِّي.

لكنني لم أقُل شيئًا من هذا بالطبع. كنت مرعوبًا بشدَّة على أن أقف مُنتصبًا حتى.

ثـم اقـترب رئيـس الديـر مـن نيكـولاي. لم يكـن عجـوزًا، لكنـه يتحـرَّك كـما لـو أن كل خطـوةٍ يأخذهـا بسـببنا عبئًـا عليـه. ترهَّـلَ نيكـولاي للقـاء تحديقتـه المتوهِّجـة.

"سـأقبل بعودتـك إلى هـذا الديـر، أخ نيكـولاي، لأنـه ينبغـي لي، رغـم أننـي أعـرف أنـك لا تشـاركنا طريقنـا. إنـه طريـقٌ صعـب. البعـض مُقـدَّرٌ لـه التطـواف. تمنَّيـتُ أنـك سـتطوِّف أبعـد. تمنَّيـتُ، في هاتـين السـنتين، ألَّا تعـود. لكـن هـا أنـت قـد عـدتَ. سـترى، في الفـترة التـي رحلـت فيهـا، أننـا أحرزنـا تقدُّمًـا في هـذا الديـر". أومـأ عـبر النافـذ إلى العُـمَّال في الحفـرة، ثـم اقـترب أكـثر مـن نيكـولاي، مُحدِّقًـا فيـه. أمـالَ نيكـولاي رأسـه كـما لـو سـماع سرٍّ. "أنصحـك بالبحـث عـن هـذا التَّقـدُّم، أخ نيكـولاي"، قـال رئيـس الديـر. "ابحـث عنـه في وجـوه إخوتـك، في أعمالهـم، في المواعـظ التـي نلقيهـا، في الأناشـيد التـي ننشـدها. ابحـث عنـه في الكنيسـة الجديـدة التـي نبنيهـا. ولا تنظـر فحسـب أخ نيكـولاي، لكـن تفكَّـر. هـل لديـك أيُّ شيء لتُسـهم بـه في هـذا الجَـمال؟ مـن أجـل تتويـج إرادة الـرَّبّ؟ أم هـل سـتمنع تحقُّقهـا؟ هـل سـتقف في الطريـق الـذي قـدَّره الـرَّبُّ لهـذا الديـر؟".

فتـحَ نيكـولاي فمـه ليتحـدَّث، وأغلقـه، ثـم نظـرَ إلى ريمـوس علَّـه يجـد إشـارةً، عـلى أيٍّ مـن هـذه الأسـئلة الكثـيرة يُفـترض أن يجيـب. هـزَّ رئيـس الديـر رأسـه ونخـرَ. اسـتدار مُبتعـدًا ولـوَّح بيـده فيـما يخطـو عائـدًا إلى مكتبـه. "يمكنـك البقـاء هنـا، إذا شـئتَ"، قـال. "يمكنـك الرحيـل... اخـتر هـذا، وسـأمنحك ذهبًـا لتأخـذه معـك". ثـم اسـتدارَ رئيـس الديـر مُجـدَّدًا. رفـع إصبعًـا في وجـه نيكـولاي. "لكـن إذا اخـترت البقـاء، فـلا تُعرقلنـا. واعلَـمْ أننـي أراقـب وأنتظـر حتَّـى أجـدد سـببًا يكفـي لطـردك مـن هـذا الديـر، ولإرسـال خطابـات إلى كل ديـر في محيـط خمسـمائة ميـل حتَّـى لا تتلقَّـى قطـرة واحـدة مـن نبيـذ الأديـرة".

بـدت الغرفـة وكأنهـا تـدور قليـلًا. أدركـتُ أنني نسـيتُ أن أتنفَّـس. أخـذتُ عـدة أنفـاس متأنِّيـة فيـما ظلَّـت عينـا رئيـس الديـر مُثبَّتتَيْن عـلى وجـه نيكـولاي. أجـال نيكـولاي نظـره مـن العينـين الباردتـين إلى إصبـع رئيـس الديـر المرفوعـة، ثـم إلى العينـين مُجـدَّدًا. بـدا الراهـب العمـلاق في غايـة الاسـتكانة واللُّطـف. لوهلـة، أوشـكتُ عـلى الاقتنـاع أنـه سـيأخذ رئيـس الديـر الضئيـل بـين ذراعيـه ويحتضنـه. هـل بمقـدوره إذابـة تلـك التحديقـة البـاردة؟ ألقـى نيكـولاي بنظـرةٍ خاطفـة إلى ريمـوس، كـما لـو لمنـحِ الراهـب الكُتُبـيِّ فرصـةً لحـلِّ سـوء التفاهـم البسـيط هـذا بـين الإخـوة. لكـن ريمـوس لم يَقُـل شـيئًا. لهـذا ابتلـع نيكـولاي ريقـه وومضـت نظـرةٌ مـن عـدم اليقـين عـبر وجهـه.

"أبــ.. بتاه رئيس الدير"، شرعَ في القول.

لكـن رئيـس الديـر رفـع يـده وقـال ببطء، وخفـوت، "خُـذ هـذا الصبـي إلى دار الأيتـام في رورشـاخ، أو ارحـل".

* * *

تقدَّمَنا ريموس في طابور واحد عائدين إلى ميدان الدير.

"كان مـن الممكـن أن يسـوء الأمـر أكـثر"، قـال بعدمـا أغلـق الحـارس البـاب الهائـل وراءنـا. حرَصـتُ عـلى البقـاء قريبًـا قَـدْر الإمـكان مـن سـاقَيْ نيكـولاي العملاقتـين حتَّـى لا ينتزعنـي أحـد. "لم يذكـر أننـا تأخَّرنـا في العـودة، أو أننـا أنفقنـا كل أموالـه واقترضنـا المزيـد باسـمه، أو أنـك أغضبـت كل راهـب في رومـا بحكمتـك ذات الطابـع الاسـكتلندي، أو أننـي فقـدت...".

"أخبرتـك مـن قبـل"، قـال ريمـوس، "'الأب رئيـس الديـر' زائـد عـن الحاجـة[1]. هـذا يعنـي أنـه 'أب أب'".

(1) الكنيسـة الزائـدة عـن الحاجـة هـي كنيسـة مغلقـة ولم تَعُـد مُسـتخدَمة للعبـادة المسـيحية؛

"يحبُّ هذا".

"يحبُّ أن تبدو أحمقَ".

نخرَ نيكولاي. "سيرى هذا بطريقة أو بأخرى".

حدَّقَ الراهبان في الحفرة -التي كانت ترتفع منها الكنيسة الجديدة، المثالية- وكأنها منبع كل متاعبنا. "حسنًا إذن يا سقراط، ماذا سنفعل؟" سأل نيكولاي. استدرتُ ناحية الراهب العابس، مُدركًا أن هذا الرجل المُنفِّر كان ثاني أفضل صديق لي في العالم.

"ماذا سنفعل؟" كرّر ريموس.

"لديك فكرة حتمًا".

"نيكولاي، دار أيتام".

"دار الأيتام"، صحَّح نيكولاي، "كانت فكرة شتوكودوك. لن أرسل موسى إلى إصلاحية". ابتسمَ وغمزَ لي، لكنني لم أستطع إجبار نفسي على الابتسام بدوري.

"نيكولاي، إنه الحلُّ الوحيد".

"علينا أن ننتظر فحسب إذن"، قال نيكولاي. هزَّ كتفيه وربَّتَ على رأسي. "امنح الرَّبَّ فرصة ليجد حلًّا آخر".

* * *

كانت صومعة نيكولاي، في الطابق الثاني من مهجع الرهبان، مكسوَّة بألواح من خشب البلوط. كان هناك مكتب، ومقعدان، وأريكة مُنجَّدة بمخمل بني، وعدة مناضد واطئة، موضوعة حول حوافِّ سجادة من الصوف دفَّأَت، فور أن خطوتُ عليها، قدمَيَّ العاريتين كأحجار مصفوفة حول نار. في أحد طرفَيْ الغرفة كان فراشٌ هائل وخزانة ملابس، وفي

لأسباب ذات علاقة بهجرة السكان أو دمج الأبرشيات أو تغيُّر الأنماط الاجتماعية. (المترجم)

الطـرف الآخـر، مدفـأة. حملنـي نيكـولاي حتّـى أسـتطيع رؤيـة وجهـي في المـرآة التـي تعلـو المدفـأة الرخاميـة- الأصفـى مـن أصفـى الـبِرك. عندمـا أمسـكني مُتلبِّسًـا بالانبهـار بالشـمعدانين الفضِّيَّيْن عـلى رفِّ المدفـأة، تنـاول واحـدًا وأعطـاه لي. "إنـه لـك"، قـال. "يكفينـي واحـد". شـكرته، لكـن عندمـا اسـتدار، وضعتـه بخجـل عـلى إحـدى المناضـد.

أخـرجَ نيكـولاي ببـطء الكنـوز التـي جناهـا أثنـاء سـفرياته ووضعهـا أمامـي لأتفحَّصهـا: صدفـة لؤلؤيـة، محفظـة جلديـة مُكدَّسـة بتذاكـر مـن أوبـرات كثـيرة شـاهدها، نـاي خشـبي أخـبرني أنـه سـيتعلَّم العـزف عليـه ذات يـوم، خصلـة مـن شـعرٍ أصفـر تجعـل عنقـه يحمـرُّ عندمـا تلتمـع أطرافـه الذهبيـة في الشـمس.

فـردَ لوحـةً مائيـة وسـألني إن لم تكـن أجمـل لوحـة رأيتهـا في حيـاتي. شـهقتُ عنـد رؤيـة صـورة لقنـال ڤينيسـيا الكبـير. لم أكـن أدرك أن أيَّ مـكان عـلى الأرض بمقـدوره أن يكـون زاهـي الألـوان هكـذا. أسَـنَدها نيكـولاي عـلى منضدتـه. حدَّقنـا فيهـا لبضـع ثـوانٍ، ثـم اسـتدارَ ناحيتـي، ووجهـه قـد اكتسـبَ الوقـار بغتـةً. "مـوسى"، قـال. "مـن المهـم للغايـة أن لا يـراك أحـدٌ سـوى ريمـوس. لـن يكـون هـذا للأبـد، لكـن علينـا أن نمنـح الـرَّبَّ وقتًـا ليخبرنـا بمـا علينـا فعلـه. إذا سـمعتَ طرقًـا عـلى البـاب، فعليـك أن تختبـئ هنـاك". أشـارَ إلى خزانـة الملابـس ثـم جعلنـي أتـدرَّب عـلى الاسـتلقاء بسـكون تـام داخلهـا.

تلـك الليلـة، نمـتُ عـلى الأريكـة. تعـالى شـخير نيكـولاي طـوال الليـل. في الصبـاح، سـمعتُ طَرقًـا عـلى البـاب في الرابعـة إلا ربـع، وزمجـرَ نيكـولاي ليوقـظ نفسـه كـما لـو لطـرد نـوم الشـيطان الـذي يُلصقـه بالفـراش. في الرابعـة كان في الكنيسـة الخشـبية المؤقتـة لصلـوات الصبـاح. سـمعتُ صوتـه يرتفـع عـن بقيـة الأصـوات. هكـذا اسـتمرَّ الأمـر لبضعـة أيـام. سـمعتُ أنـه وحـده أبـدًا لم يتأخَّـر مـن قبـل عـن أناشـيد الصبـاح هـذه،

أن صوتـه الرَّنَّـان أبـدًا لم يرتعـش. فيـما أسـتلقي عـلى الأريكـة أنصـتُ للمدينـة النائمـة خـارج النافـذة، سـمعتُ صـوت نيكـولاي الطافـح كـما لـو كانـت الأناشـيد خَلْقًـا متجـدِّدًا دومًـا مـن بنـات عقلـه، وليـس مجـرد إلقـاءً لأعـمالٍ عمرهـا قـرون.

الصـلاة الافتتاحيـة، ثـم القُـدَّاس دون جوقـة مرتِّلـين، ثـم صـلاة الترانيـم، ثـم القُـدَّاس كامـل المراسـيم، ثـم صـلاة السـاعة العـاشرة- كان كل هـذا يسـتمرُّ حتـى العـاشرة والنصـف في الصبـاح. ثـم يتناولـون وجبـة الظهـيرة، التـي يجلـب نيكـولاي لي منهـا مـا يعتـبره سَـقْطًا، لكـن بالنسـبة لي كانـت أعظـم وليمـة يمكـن تخيُّلها: ألـواح سـميكة مـن لحـم الأبقـار أو الحِمـلان الغضَّـة، لحـم خنزيـر مُدخَّـن، نقانـق داميـة، جـبن، عنـب، مشـمش، تفـاح، لـوز. كان يخفـي هـذه الكنـوز في جيوبـه ويضعهـا عـلى حجـري لألتهمهـا. فيـما أتنـاول طعامـي، كنـا نحتـسي رشـفات مـن جـرَّة نبيـذ، التـي كان يسـمح لـكل راهـب باثنتـين منهـا في اليـوم، لكـن نيكـولاي كان يأخـذ أكـثر مـن ذلـك. "مقـاس خـصري"، ضاربًـا عـلى بطنـه، "يحتـاج إلى هـذا. قاعـدة الجرَّتَـين تلائـم قـوام أنـاس مثـل شـتوكدوك". في الثالثـة، يغـادر نيكـولاي مـن أجـل صـلاة المسـاء، ومُجـدَّدًا يرتفـع إنشـاده فـوق المدينـة. ثـم يظهـر ثانيـة أمـام البـاب قبـل السـابعة بالضبـط، متـورِّد الوجـه مـن العشـاء والنبيـذ، ويـترك لي وليمـة أخـرى لأتعامـل معهـا وحـدي بينـما يشـدو هـو بصـلاة التَّضرُّعـات، التـي تصـل، تحـت تأثـير شَـبعه، إلى أعـلى نشـوةٍ لأيِّ طقـسٍ دينـي.

في الثامنـة يـأوي الرهبـان إلى صوامعهـم، وهـو مـا يعنـي عـودة نيكـولاي، مـع ريمـوس غالبًـا، أو بمفـرده لكـن بلسـان ثرثـار يتحـدَّث أو يغنِّـي حتَّـى يحـل الظـلام. أحيانًـا مـا يطـرق راهـب آخـر عـلى البـاب، توَّاقًـا ليعـرف مـع مَـن يتحـدَّث نيكـولاي. إذا كان احتـسى نصيبـه فحسـب، يصيـح بأنـه راهـب يشـعر بالوحـدة ويحـبُّ أن يتحـدَّث مـع الجُـدران أحيانًـا، لكـن

عندما يحتسي أكثر من ذلك، يزأر في اتِّجاه الباب، "انصرف! النبي موسى يتحدَّث معي على انفراد! ارحل، يا أحمق!".

كنت أفكِّر في أمِّي كل يوم، وأبكي كثيرًا، لحدِّ أنني لطَّختُ أريكة نيكولاي بدموعي المالحة، لكنني لم أجزع لاحتباسي، لأنه لم يكن يختلف كثيرًا عن حياتي السابقة في برج الكنيسة. ولهذا لم أشعر بالخطر الذي يتربَّص بي فيما أنصت إلى المدينة البعيدة، إلى الرهبان يتحادثون في مُعتزلِهم في الأسفل، أو إلى العُمَّال ينحتون في كتل الحجارة في جدران الكنيسة الجديدة. ظهرَ صوتٌ جديدٌ أيضًا، كان بمثابة لغز لأذنَيَّ. خطوتُ إلى النافذة المفتوحة، وكأنني كلب يتبع رائح لحم. عندما سَكَنَ الهواء، حجبتُ كل صوتٍ آخر وحاولت اقتناص الصوت الجديد، لكنه كان واهيًا جدًّا على أن أمسك به كبقيَّة الأصوات الأخرى. تراخت قبضتي على جزءٍ منه، واختفت الأجزاء الأخرى أيضًا. ومع الوقت بُنِيَت جدائل من هذا الصوت الجديد فوق بعضها البعض، كتجمُّع لزهور الخشاش على سفحِ تلٍّ يُشاهَد من على البُعد؛ بُرغم كل زهرة غير مرئي، لكنها في المجموع، تضيء مُنحدر التَّلِّ بالأحمر.

كنتُ أسمعه كل ظهيرة. ربما كان هذا الصوت هو الرَّبُّ الذي يتحدَّث عنه نيكولاي؟ ليس ربُّ كارل ڤيكتور المُرعب، بل ربًّا للجمال والفرحة. ربٌّ سيجد طريقةً من أجلي لأبقى في هذه المكان البديع، المُتَّسِم بالكمال.

ثم في واحدٍ في صباحات الأحد، في يومي السادس في غرفة نيكولاي، أصبح الصوت أعلى بغتةً، وبدلًا من مجيئه من السماء، بدا أنه يأتي من كل اتِّجاه: من الجُدران، من الأروقة، من ثقب المفتاح. كان الرَّبُّ يقترب، ولا يمكن أن أخطئه. وهكذا، بعد ستَّة أيام من وصولنا إلى الدير، خالفتُ تحذير نيكولاي. غادرتُ صومعته.

(8)

ألصقتُ أذني بثقب المفتاح حتى تأكَّدتُ أن الرواق خالي. ثم فتحت الباب. أغلقت عينَيَّ وأرهفت سمعي لالتقاط وقع أقدام أو أنفاس رئيس الدير الناشزة. ارتعشت ساقاي فيما أتَّخذ خطوةً إلى الأرضية الخشبية المصقولة للرواق الشاسع.

كان الصوت أعلى هنا. يتألَّف من أصواتٍ بشرية؛ صرتُ الآن متأكدًا. كانوا يغنُّون. حاولتُ عدَّهم. في لحظة كانوا اثنَيْن، ثم ثمانية، ثم سمعتُ أخيرًا... اثني عشر؟ ثم صوتين فحسب مجددًا. لوهلة، بقيَ صوتٌ واحد، واستولي عليَّ الشَّكُّ إن كنتُ سمعت أيَّة أصوات أخرى.

هبطتُ عبر بئر الدَّرج الواسعة. مقارنةً بحجرة نيكولاي، كانت هذه المساحات الجديدة مهولة. لم أصدر ضجيجًا، ولم تكن هناك أيُّ أصوات بشرية أخرى في الدير، باستثناء هذه الأصوات. كان العُمَّال قد توقَّفوا عن عملهم. ولا راهب يخطو في المعتزل. لم أسمع سوى الرياح. كان الأمر كما لو كل البشر في العالم قد اختفوا.

تسلَّلتُ إلى المعتزل. كان العشب الرطب باردًا على قدمَيَّ العاريتين. وراء حفرة الكنيسة الجديدة امتدَّ ميدان الدير الخاوي. توقَّفت. انطلق صوتٌ واحد من جديد، بمفرده، وبعدها بلحظات، نطقَ صوتٌ آخر بنفس العبارة، ثم صوت آخر وآخر، كلهم نفس الصوت تقريبًا، ليس تمامًا: بعضها أسرع أو أبطأ، أو تغنِّي بنغماتٍ مختلفة. أصابني الدوار من محاولتي تَبيُّنها. لا بُدَّ أنها الملائكة تغنِّي حتمًا.

اعتصرتُ عينَيَّ بشدَّة حتى آلمتاني. التفافات من الضوء الرمادي كانت ترقص مع الأصوات السحرية. وبغتةً أدركتُ كل شيء. إدراكًا انبثق داخلي. في قعقعة أجراس أمِّي، سمعتُ هذا الجمال من قبل- في ومضات من التناغم العشوائي. وهؤلاء الرجال والصبيان الذين يغنُّون، كان تعلَّموا حقًّا معنى الإعجاز السحري. كان بمقدورهم العَمَل على محيط الأصوات ذلك، الجارف واللا نهائي، وصبُّه وتحويله إلى شيء بديع. وأدركت، أنني، أيضًا، بمقدوري أن أعرف هذا السحر. ربما أعرفه بالفعل.

تجاوزتُ حافَّة حفرة الكنيسة الجديدة وسِرتُ عبر نفقٍ مصنوع من ألواح يؤدي عبر ميدان الدير إلى الكنيسة الخشبية المؤقتة. تتبَّعتُ الأصوات حتَّى وصلت إلى باب عالٍ من خشب البلوط. أزحته بصعوبة بكل قوَّتي لينفتح.

كان يُفترض أن أرى الكنيسة البسيطة ممتلئة بالرُّهبان والعامَّة، يفصل بين المجموعتين حاجز خشبي. كان يُفترض أن أرى جوقة سانت غال تغني أمام المذبح. كان يفترض أن أجفل بما يكفي للهروب. لكن انفتاح الباب أطلق فيضانًا من الصوت، ولوهلة لم أدرك شيئًا سوى هذه الموسيقى. صرتُ عبدًا لأذنيَّ.

آلمتني لحظاتٌ من التنافر بين الأصوات. لكن عندما اصطفَّت الأصوات في أثلاث، دفَّأت عنقي وظهري. أغلقتُ عينَيَّ واستمعتُ

للموسـيقى. شـعرتُ بطنـين غنائهـم في فـكّيَّ وأصداغـي. شـعرتُ بـه في صـدري الضئيـل، وعندمـا أطلقـت زفيري، تنهَّـدتُ، وهكـذا تداخـل الرنـين الواهـي لصـوتي مـع الموسـيقى. كانـت تنهيـدتي شرارة. انبثـق صـوتي إلى الحيـاة. تأوَّهـتُ، محـاولًا إيجـاد النغـمات التـي تُطابـق رنـين جسـدي الضئيـل مـع هـذا الجَـمال.

لم أكـن أعـرف الكلـمات، ولم أدرك حتَّـى أن مـا يغنّونـه كان كلـماتٍ؛ لهـذا أطلقـتُ الأصـوات كيفـما اتفـق مـن شـفتيَّ. في لحظة شـعرتُ بنشـوة التناغـم، وفي أخـرى، بوخـزةٍ بـاردة في ظهـري، فيـما ضجيجـي يتقـارع مـع أغنيَّتهـم. غنَّيـتُ كجـروٍ يركـض مـع كلابٍ كبـيرة -باهتيـاج، بنشـوة، بحماقـة- حتَّـى أدركـتُ بغتـةً أن الغنـاء قـد توقَّـف. كنـت تائهًـا وسـط صمـتٍ مصـدوم.

صفَعَـت يـدٌ رأسي بقـوة، لحـدٍّ أن النجـوم ومضـت أمـام عينَيَّ. سـقطتُ عـلى ركبتـيَّ. انفتـح البـاب الكبـير مُجـدَّدًا، ورفعتنـي اليـد مـن عنقـي، وألقتنـي خـارج الكنيسـة إلى الـتراب في الخـارج.

* * *

ركضـتُ. صعـدتُ الـدَّرج مسـعورًا. بـدا كل بـاب أمـرُّ بـه في ركـضي مُماثـلًا للـذي قبلـه، وجرَّبـتُ خمسـة أبـواب قبـل أن أجـد البـاب الـذي أبحـث عنـه. اختبـأتُ في خزانـة الملابـس ووضعـتُ واحـدة مـن غـلالات نيكـولاي الصوفيـة السـوداء فوقـي. شـعرتُ بحـرارة مريعـة، وسرعـان مـا انقطعـت أنفـاسي وبـدأت في التَّعـرُّق. لكننـي ظللـتُ هنـاك حتـى دخـل زوجـان مـن الأقـدام إلى الغرفـة. تعرَّفـتُ في أحدهـما عـلى وقـع أقـدام نيكـولاي المتثاقلـة. وفي الأخـرى- أعـرف تلـك الأنفـاس. مِنفـاخ عـلى مصهـر.

انغلقَ الباب بقوَّة.

"أبتاه رئيس الدير..." شرعَ نيكولاي في القول.

"ينبغـي لي أن أطـردك مـن الديـر"، زمجـرَ رئيـس الديـر كويلسـتين. "تخفـي طفـلًا في صومعتـك!".

"ليـس لديـه مـكان ليرحـل إليـه"، توسَّـلَ نيكـولاي. همَـسَ وكأنـه يرغـب في ألّا يُسـمَع. "فقـط لـو قبلتَـه كراهـب...".

"هـل تسـمعني؟" هتـف رئيـس الديـر. "الطـرد! مـاذا سـتفعل حينهـا؟ تُغنّـي مقابـل الطعـام؟".

"أبتاه رئيس الدير، أرجوك".

"أين هو؟".

كان هنـاك صمـت في الغرفـة. ببـطء شـديد، للغايـة، انحنيـت حتّـى أسـتطيع النظـر عـبر الشـقّ بـين بـابَيْ الخزانـة. حـدّق رئيـس الديـر باهتيـاج إلى نيكـولاي العمـلاق، وبـدا وكأنـه طفـل غاضـب.

هزّ نيكولاي كتفيه العملاقتين استهانةً. "ربما هرب".

استمرّت تحديقة رئيس الدير.

"أبتـاه رئيـس الديـر، أرجـوك. لا تعاقـب هـذا الصبـي عـلى مـا فعلتُـه". وضـع نيكـولاي يـدًا عـلى كتـف رئيـس الديـر.

دون أن يزحـزح عينَيـه، أمسـك رئيـس الديـر بمعصَـم نيكـولاي. أزاحـه مـن عـلى كتفـه. قطّـبَ نيكـولاي وجهـه فيـما رئيـس الديـر ينشـب أظافـره في لحمـه. تحـدّث رئيـس الديـر ببـطء، مُشـكِّلًا كل كلمـة بعنايـة. "ربمـا تظـن أن عمـل الخـير وفـير كالهـواء". طـوّح بـذراع نيكـولاي بعيـدًا.

فركَ نيكولاي مِعصمه. "صبي واحد لن يسبب أي ضرر".

بدا رئيس الدير وكأنه لم يسمعه.

ضـمّ نيكـولاي راحتَيْـه معًـا. "أبتـاه رئيـس الديـر"، قـال. "أرجـوك، أتوسّـل إليـك".

ذلك الوجه! هل وُجِدَ -قطُّ- وجه كبير هكذا، وبريء هكذا في آنٍ؟ مُحسنٌ هكذا؟ بدا وكأنه يقول لرئيس الدير، لكننا إخوة، أنا وأنت!

"تتوسَّل إليَّ؟" قال رئيس الدير، مُندهشًا من مجرد الفكرة. تطلَّعَ في أرجاء الغرفة. "تتوسَّل إليَّ من أجل ماذا؟ نيكولاي، منحتُك بالفعل كل ما يمكن منحه. منحتك غرفةً سيسعد أميرٌ بالعيش فيها. منحتُك الطعام. منحتُك نبيذًا أكثر ممَّا يمكن لأي رجل أن يحتسي. أشيَّد لك أعظم كنيسة في الكونفدرالية. وأنت؟ ماذا منحتَني؟ ماذا منحتَ لهذا الدير؟ تصلِّي. تأكل. تغنِّي. تشرب. تنام. ولا شيء آخر".

تحدَّث نيكولاي بضعف، "يقول القديس بيندكت...".

"القديس بيندكت؟" نخرَ رئيس الدير. رفعَ إبهامًا في اتِّجاه صدره. "تقتبس من القديس بيندكت لي أنا؟ انطلِقْ وكُنْ ناسكًا زاهدًا مثل القديس بيندكت يا نيكولاي. هناك كهوفٌ تكفيك أنت ودومينيكوس. وفيما تعيش، بعيدًا، مثل قدِّيسي الماضي، سنتسمرُّ نحنُ في المجاهدة لنصبح قدِّيسي المستقبل".

غَشيَ الصمت الحجرةَ فيما رئيس الدير يأخذ نفسًا مُهدِّئًا طويلًا ويخفض صوته. "هنا يا نيكولاي، لدينا أفواه لإطعامها. لدينا أرواح لإنقاذها. الفلَّاحون في أراضيَّ سيسألون يومًا عن معنى الجَمال، سيطلبون أن يروا ويسمعوا ويتذوَّقوا مجد الرَّبِّ لمرَّةٍ واحدة في حياتهم هنا على الأرض فيما تُضيِّع أنت كل يومٍ من حياتك في هذا الدير. ترى، بمقدوري التسامح مع الرهبان عديمي النفع يا نيكولاي، إذا اضطررت لذلك. إذا كان دومينيكوس يرغب في قراءة وترجمة الكتب التي لا يهتمُّ بها أحدٌ غيره، فلا بأس. إذا كنتَ مجرَّد راهب عديم النفع فسأتركك فحسب هنا في هذا الصومعة حتى تموت، وحينها سأشغلها براهب قد يكون مفيدًا للرَّبِّ".

"أبتاه رئيس الدير، لا تقصد ما...".

"بـل أقصـد". أومـأ رئيـس الديـر بـبرودٍ فيـما يتقـدَّم خطـوةً أخـرى. "وإذا خدعتنـي مجـدَّدًا أبـدًا يـا نيكـولاي، إذا أظهـرتَ لي أدنى علامـة أنـك أي شيء بخـلاف الراهـب المهجـور، عديـم النفـع الـذي بمقـدوري التسـامح بـه، فسـأعمل جاهـدًا ألّا يسـمح لـكَ كلُّ ديـر في أوروبـا بالدخـول عـبر بوّابتـه".

تـدلّى فـكُّ نيكـولاي مفتوحًـا. أبـدى إيمـاءةً خافتـة. "نعـم، يـا أبتـاه رئيـس الديـر"، همـس.

مسـحَ رئيـس الديـر مِرفقـه بمنديـلٍ مـن جيبـه. التقـط عـدة أنفـاس ثـم مـسَّ جبينـه العمـلاق وكأنـه يقـول إنـه راضٍ عـن نتيجـة النقـاش. تطلَّـعَ في أرجـاء الغرفـة. سـقطت عينـاه عـلى لوحـة ڤينيسـيا مُسـتندةً عـلى المنضـدة. دون تفحُّصهـا، رفعهـا، أحـدثَ تجعيـدة في منتصفهـا بأظافـره، ثم مزَّقهـا إلى نصفـين. لم يفعـل نيكـولاي سـوى أن انكمـش خوفًـا مـن صـوت المَـزْق. وضـع رئيـس الديـر القصاصـات عـلى المنضـدة مُجـدَّدًا ونظـرَ إلى نيكـولاي. "والآن، أحضِر لي ذلـك الصبـي"، قـال.

عمَّ الصمت. ثم تحدَّثَ نيكولاي بهمسٍ خفيض: "لا أستطيع".

تمنيَّتُ حينها لو تلاشيتُ إلى صوتٍ.

"إذن فسأحضره بنفسي".

اقـتربَ وقـع أقـدامٍ مـن خزانـة الملابـس. انفتـح البـاب، وشـعرت بالغِلالـة ترتفـع مـن فوقـي. أبقيـتُ عينَـيَّ مُغلقتَـيْن، لكننـي سـمعتُ أنفاسـه فوقـي. أمسـكت بي أصابـع مـن شـعري وصرخـتُ مـن الألم، لكنـه جـذبَ بقـوّة أكـبر حتـى صرتُ عـلى قدمَـيَّ بجـوار فـراش نيكـولاي.

كان نيكـولاي يقـف في منتصـف الغرفـة. مُطأطـئًا وكأنـه يحمـل شـوالًا مـن البطاطـس عـلى كتفيـه. "أنـا آسـف جـدًّا"، قـال لي.

"غفرت لك"، قال رئيس الدير. "الآن على الأقل".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي. خطا للأمام ومدَّ يدًا وكأنه سيمسكُ بي. "دعني أجد مكانًا له، سأجد مُزارعًا. ربما أستطيع...".

غرزَ رئيس الدير إصبعًا في وجه نيكولاي لإيقافه. "ستؤدي طقوسك الدينية". وخزَ بإصبعه مجددًا. "ستُفكِّر في الخطايا التي ارتكبتَها في حقِّ هذا الدير. ستنسى الصبي. وسآخذه بنفسي إلى واحدة من ملاجئنا للأيتام وسأرعاه فيه، تمامًا كما أرعى مئات الألوف من الأرواح الأخرى التي تقع ضمن مسؤوليتي. لن ينال عقوبةً ولا ميزةً للضرر الذي تسبَّبَ فيه اليوم".

أطبقَ رئيس الدير على عنقي بإصبعين مُتخشِّبَتَيْن وسحبني إلى خارج الغرفة. بدأتُ في البكاء.

جرَّني عبر الدَّرج، رافعًا إيَّاي بما يكفي بكمَّاشته بحيث كانت قدماي بالكاد تلمسان كل سُلَّمة. "إذا قاطعتَ قُدَّاسي مُجدَّدًا"، همس في أذني، "سأقطع لسانك وأُطعمه للـ...".

"توقَّف!".

استدارَ. كان نيكولاي يقف أعلى الدَّرج. كان شوال البطاطس قد اختفى. عيناه مغرورقتان بالدموع.

"لا يمكنك فعل هذا"، قال.

"هل تدرك ما تقوله؟" سأله رئيس الدير.

"أبتاه رئيس الدير، نَذرتُ نَذرًا بحماية هذا الطفل".

لوهلة، كان رئيس الدير عاجزًا عن الكلام. سمعتُ أنفاسه تَعلَق في حلقه. شعرتُ بيده المُطبِقة على عنقي ترتعش من الغضب، وكذلك صوته عندما تحدَّث أخيرًا. "لديكَ نَذرٌ واحد، أيُّها الأخ نيكولاي، وهو هذا الدير. إذن، فلأكن واضحًا: أمامك خيار. بمقدورك العودة إلى نَذْرِكَ الأول والأبدي، وحينها آخذ الطفل هذا إلى حيث أشاء. أو

تحنث بذلك النَّذر، وحينها يمكنك أن ترحل أنت وهذا الطفل من الدير معًا، على الفور. أفضِّل الخيار الثاني".

احمرَّ وجه نيكولاي، كما يحدث عندما يَسْكَر."أبتاه، أتوسَّل غفرانك، اخترتُ...".

لم يكشف عن اختياره قطُّ، لأنه في تلك اللحظة سمعنا شخصًا رابعًا يصعد الدَّرج مُتعثِّرًا. "الحمد لله"، قال هذا الصوت الجديد. "أبتاه رئيس الدير، لقد وجدتَه".

(9)

"أولرتــش فــون جوتيجــن"، لهــثَ الرجــل مُصفــرُّ الجلــد ومــدَّ يــدًا مُتعرِّقــة ناحيتــي. "أنــا رئيــس الجوقــة في الديــر". انكمشــتُ خوفًــا مــن اليـد وكأنهـا تنـوي أيضًـا جـرِّي عـبر الـدَّرج. تعرَّفـت عـلى هـذا الرجـل مـن الكنيســة. كان هــو مَــن يقــف أمــام المُنشــدين الذيــن حاولــت الانضــمام إليهــم.

"نعـم، لقـد وجدتُـه"، قـال رئيـس الديـر. دفعنـي درجـةً أخـرى للأسـفل بحيـث صرتُ واقفًـا بـين الرَّجُلَـين. "والآن سـيرحل إلى رورشـاخ. لـن يزعجنـا مُجدَّدًا".

"لا!" قال قائد الجوقة. قبضَ على ذراعي.

شــدَّد رئيــس الديــر مــن قبضــة أصابعــه عــلى عنقــي. "مــاذا تعنــي؟" ســأله.

تطلَّع أولرتش من رئيس الدير إلى نيكولاي ثم إلى رئيس الدير مُجدَّدًا. حاولت إفلات ذراعي، لكن قبضة قائد الجوقة كانت مُتصلِّبة.

"من أجل الجوقة، بالطبع".

"الجوقة؟".

"نعم".

في الصمت الذي تلا ذلك، تخلَّيتُ عن التَّلوِّي وتمعَّنتُ في هذا المدعو أولرتش فون جوتيجن. كان جلده الأصفر مشدودًا وشفافًا، كجلد دجاجة غُمِسَت لثوانٍ في ماء مغلي. شعره الأبيض، أيضًا، وكأنه ريشٌ نُتِفَ بالغلي، كان مُلتصقًا وراء أذنيه وعلى قمة رأسه فحسب في ذؤابات صغيرة.

لكن منظره لم يدهشني كثيرًا بقَدْر ما أدهشني صوته. رغم أنه كان يلهث من أجل الهواء، إلَّا أن أنفاسه كانت مُجرَّد همسٍ، كنسيمٍ يعبر من تحت باب. قلبه أيضًا كان يضرب بهدوء شديد على أن أسمعه، ورغم أنني اعتصرتُ أذنيَّ للبحث عن أيِّ علامات يمكنني معرفته بها -فَرْكٌ في يديه أو التواء في ساقيه أو طقطقة في ركبتيه- إلَّا أنني لم أسمع شيئًا.

"نريد أن نسمعه يغنِّي"، قال أولرتش. سحبني ناحيته وعضَّ شفتيه في حماس.

"سمعناه يغني، ولم نَنَل سوى الإزعاج".

"نغمات قليلة، أبتاه رئيس الدير. مجرَّد ومضة، ربما، من شيءٍ خارق للعادة".

"اسمعه"، قاطعهما نيكولاي.

استدارَ رئيس الدير وأولرتش إلى الراهب الضخم، الذي كان ما يزال يقف أعلى الدَّرج.

"لا شأن لك بهذا"، قال رئيس الدير. لكنه استدارَ إلى قائد الجوقة وغمغم، "حسنًا، سنسمع الصبي".

* * *

هبطَ أربعتنا الدَّرج وانعطفنا عبر سلسلة من الأروقة غير المألوفة. لم يُفلِت أولرتش ذراعي حتى دلفنا إلى غرفة كبيرة بمرايا على طول حائط واحد. كانت هناك خشبة مسرح صغيرة تقطع الجانب الآخر من الغرفة. وفي منتصف الغرفة ينتصب جهازٌ بدا لي كنعشٍ بثلاثة صفوف من المفاتيح عند أحد طرفيه. خشَيتُ أنهم ينوون دفني حيًّا. وضع أولرتش مقعدًا مرتفعًا بجوار هذا التابوت ورفعني عليه. لاحظَ عينَيَّ المُرتعبتَيْن تُحدِّقان في الصندوق الخشبي وقال بألطف ما يسمح به صوته العُصابي، «لكنك لم ترَ بيانو قيثاري من قبل؟» ضغط على واحد من المفاتيح، وملأ رنينٌ جميل، صافٍ، الغرفة. «يمكنك غناء هذه النغمة، أليس كذلك يا بُنيَّ؟».

فيما الرجال الثلاثة يراقبونني بتلهُّف، شعرتُ بالمقعد العالي وكأنه سيهوي من تحتي. لعقَ أولرتش شفتيه وضربَ المفتاح ثانيةً. «هذه النغمة؟» جفَّ حلقي وتثاقلَ لساني بالخوف.

«غنِّ»، قال رئيس الدير. صفَع ظَهْر يده. «لا وقت لديَّ للألعاب». ضُربَ المفتاح مُجدَّدًا. غنَّى أولرتش النغمة، كان صوته رائقًا وباردًا.

«هيا يا موسى»، قال نيكولاي. أومأ وابتسم، ورفع حاجبيه الكثَّين لأعلى ما يستطيع. «يريدان فحسب سماعك تغنِّي».

تطلَّع رئيس الدير إلى ابتسامة نيكولاي وقال بفتور: «يا صبي، غنِّ الآن وإلَّا لن ترى نيكولاي مُجدَّدًا أبدًا».

ضربَ أولرتش المفتاح مجددًا، مُنحنيًا بخفَّة.

«هـذه النغمـة فحسـب»، حثَّنـي نيكـولاي، وكأنـه لم يسـمع كلـمات رئيـس الديـر. «مـرة واحـدة فقـط».

أشـكُّ أن مـلاكًا حتَّـى كان بمقـدوره حينهـا مداهنتـي لأغنِّـي. لم أرَ في رنَّـة وتـر البيانـو القيثـاري إلَّا نبحـة كلـبٍ مطلـوب منـي أن أقلِّدهـا. كنـت عـلى اسـتعداد للجلـوس هنـاك حتـى ينزلـوني مـن المقعـد.

«لقـد نـال فرصتـه»، قـال رئيـس الديـر. قبَـضَ عـليَّ مـن ذراعـيَّ وكان عـلى وشـك جـذبي مـن مقعـدي، لكـن أولرتـش قاطعـه.

«بمفردنـا»، قـال، ثـم وضـع يـده الشـاحبة عـلى يـد رئيـس الديـر. «اتركونـا بمفردنـا. حينهـا سـيغنِّي».

«وكيـف لـه أن يغنـي وأنتـما بمفردكـما فيـما يرفـض الغنـاء ومسـتقبله كلـه عـلى المحـكِّ؟».

«لا بُدَّ أن أتحدَّث معه».

أبعد رئيس الدير ذراعيه. «تحدَّث إذن!».

«بمفردنا».

"بمفردكـما!" زمجـرَ رئيـس الديـر. "لا وقـت لـديَّ لهـذا. أمامـك عـشر دقائـق. ثـم سـيكون عـلى العربـة إلى رورشـاخ".

غـادرَ رئيـس الديـر فيـما راقبـه نيكـولاي فحسـب، لكنـه لم يتحـرَّك ليتبعـه.

"رجاءً، أخ نيكولاي". أومأ أولرتش ناحية الباب.

بـدا الراهـب الضخـم مصدومًـا مـن فكـرة مغـادرتي. "ليـس خائفًـا منِّـي".

أومأتُ موافقًا. صليتُ ألَّا يتركني حاميَّ بمفردي مع هذا الرجل.

لكـن أولرتـش خطـا ناحيـة نيكـولاي وبـدأ في دفعـه للخـارج. "لا بُـدَّ أن أتحـدَّث معـه بمفـردي"، همـس بجدِّيَّـة. "أرجـوك".

تحـدَّثَ أولرتــش بخفــوت وحــزم. "تَركُنــا بمفردنــا هــو أفضــل شيء يمكنـك فعلـه مـن أجلـه. قـف خـارج البـاب إذا أحببـت".

تطلَّـع نيكـولاي إليَّ. لا بـدَّ أنـه لاحـظ عينَـيَّ المُتَّسـعتين، وفمـي المفتوح. أحكمـتُ يـدَيَّ إلى قبضتـين. "مـوسى"، قـال. "لـن يؤذيـك. أعـدك. افعـل مـا يقولـه لـك". لكنـه بـدا شـاحبًا ومضطربًـا فيـما يسـتدير ويخطـو إلى خـارج الباب.

ثـم صرتُ بمفـردي مـع هـذا الرجـل الأصفـر ذي الأصـوات القليلـة للغايـة. وقـف قريبًـا منِّـي بشـدَّة لحـدِّ أنـه يُفـترض بي أن أسـمع المزيـد: صـوتَ سـحقٍ عندمـا يديـر عنقـه، لسـانه وراء أسـنانه، قدمـاه تزحفـان عـلى الأرض الخشـبية، بلـلٌ في حلقـه فيـما يُخـرج أنفاسـه. لكـن كل مـا سـمعته كان اندفاعـة هـواء رقيقـة مـن فمـه. تمعَّـن في وجهـي، ثـم انحنـى تجاهـي.

"لقــد ســمعتُك"، همــسَ، وكأنــه يخــشى أن يســمعه نيكــولاي. "ربمــا ســمع الآخــرون صوتــك. إنــه غــير مكتمــل. ليــس مُدرَّبًــا بعــد. لكنهــم حمقـى. لقـد سـمعتُك. سـمعت رثتيـك. سـمعتك هنـا". مـدَّ يـده، وبإصبـعٍ بـاردة، لامـس برفـق خـطَّ حلقـي. "لم تسـتطع منـع نفسـك، أليـس كذلـك؟ كنـتَ سـتنفجر لـو بقيـتَ صامتًـا ثانيـةً واحـدة أخـرى؟".

كانــت رائحــة قائــد الجوقــة تشــبه التِّــبن المُتعفِّــن. أنفــه في مســتوى أنفـي. كـدتُ أتمنَّـى أن يعـود رئيـس الديـر ويرسـلني بعيـدًا.

"أعتقـد أنـك سـمعتَني أيضًـا. لا أسـتطيع أن أغنِّـي مثلـك يـا مـوسى. لدينـا مَلـكَات مختلفـة. لكننـا نُكمِّـل بعضنـا البعـض". شـابك أولرتـش أصابعـه أمـام وجهـي.

أغلقتُ عينَيّ، مرعوبًا من النظر إليه عن قُرب هكذا، متمنّيًا أن يختفي.

"لن يستطيع رئيس الدير أن يأخذك منّي يا موسى. لقد سمعتكَ وسمعتَني. شاء الرَّبُّ أن نلتقي".

لامسَ حلقي مُجددًا، بيده كلّها هذه المرة، وكأنه يريد خنقي. لكن لمسته الباردة كانت رقيقة. ابتعلت ريقي بصعوبة.

"بإمكاني فتح صوتك يا موسى. سأفعل. يمكننا الرحيل عن هذا الدير إذا شئتَ. يمكننا العودة إلى المكان الذي جئتَ منه. لكن يا موسى، أنصت إليّ: سيمنحك رئيس الدير، المُستعدُّ لإرسالك إلى إصلاحية قذرة، أعظمَ رفاهية يمكن لصبي في مثل عمرك أن يحلم بها، فقط لو قلتُ ذلك. يحتاجون لأناسٍ مثلي ومثلك يا موسى".

فيما يهمس في أذني، شعرتُ بدفء وجهه على جلدي. "يحتاجون إلينا لأنهم يحتاجون إلى ذَهَبِهم وكنائسهم الجميلة ومكتباتهم. هل تريد أن ترى نيكولاي مُجددًا؟ هل تريد أن تبقى هنا؟ أم تريد الرحيل؟ لا يهم بالنسبة لي. سأتشارك معك في حظيرة خيول، إذا كان ذلك اختيارك. لكن إذا أردتَ البقاء، فعليك أن تغنّي".

ثم بدأ أولرتش ڤون جوتيجن في الهمس باللحن الذي كنت سمعته في الكنيسة ذلك الصباح. لم يكن صوته دافئًا مثل الأصوات التي حاولتُ مرافقتها، لكنه كان ينتقل بخفّة ودقّة من نغمةٍ إلى أخرى. عندما يغنّي نيكولاي، كان جسده بالكامل يرجّع صدى الصوت. على النقيض، كان أولرتش ڤون جوتيجن مثل آلة كمان رديئة التكوين؛ تهتزُّ أوتاره بشكل متقن، لكن جسده يرنُّ بضعفٍ وكأنه برميل من النبيذ.

هل كان هذا ما يعنيه نيكولاي؟ هل كان هذا صنيعة الرب؟ كنتُ أحلم بشيءٍ مُختلف، شيءٍ أقل بشاعةً من هذا الرجل عديم الصوت

واستجداءاته. لكن ربما لم يكن الرَّبُّ، خطرَ لي، بارعًا وكاملًا كما يزعم رئيس الدير، وربما كان هذا الرجل كل ما يستطيع الرَّبُّ تقديمه إليَّ.

وهكذا غنَّيت.

اخترتُ صوتًا أتذكَّره من الكنيسة. في البداية كانت نغماتي خافتة وغير واضحة، لكنني شعرتُ بالصوت ينتشر إلى الخارج من حلقي، كما ينتشر رنين جرسٍ بسرعة في أرجاء المعدن. انتقل الصوت من فكِّي، إلى التجويف تحت أذنيَّ. شعرتُ به في عنقه، ونازلًا حتَّى صرَّتي. لم أشدُ بكلمات، لكن بأصوات فحسب.

تراجعَ صوت أولرتش الضعيف فيما يزداد صوتي علوًّا. كان ما يزال يمسك بعنقي، ثم بدأت يده في التحسُّس لأسفل. ربَّتَت عليَّ من ذقني إلى صدري، كأداة طبيب باردة، وفي تلك اللحظة شعرتُ أنه على حقٍّ؛ بدت يده وأنها تفتحني. جعَلَت لَمستُها أصواتي أكثر امتلاءً، كأجراس أمي المُجلجِلة. انضمَّت يده الأخرى إلى الأولى. احتضن وجهي، صدري. وصَلَت اليدان إلى ما حول عنقي وقبَضَت عليه بشدَّة، وكأنه يريد للصوت أن ينساب إلى ذراعيه الناحلين، المصفرَّين، إلى صدره الخاوي. أفلتت جهشةٌ من فمه، رغم أنه لم تكن هناك دموع في عينيه. ثم خطا متراجعًا، ولوهلة، شبَّ على أصابع قدميه، وأغلق عينيه، وأمالَ رأسه بشدَّة، وكأنه ضُربَ بصاعقة ألم مفاجئة.

توقَّفتُ عن الغناء.

تعثَّر للوراء وانحنى على البيانو القيثاري وكأن ساقيه قد عجزتا عن تحمُّله. كانت عيناه مُثبَّتتَين على وجهي. رأيتُ الخوف في عينيه. "يا إلهي"، قال. "أنا ملعون".

(10)

وهكـذا بـدأت حيـاتي الغنائيـة. اسـتلقيتُ لليلـة واحـدة أخـيرة عـلى أريكـة نيكـولاي، وتحـدَّث مطـوَّلًا في صبـاحٍ يمتلـئ بحظِّـي الطيـب. «لـن يكـون عليـك مشـاركة غرفـة مـع راهـب عجـوز، يُشـخِّر في نومـه»، قـال، وابتسـم ابتسـامةً في غايـة الحـزن، لحـدٍّ أنني ظننـت أننـي سـأبتعد عنـه لأكـثر مـن طابقـين. «سـيكون لديـك أصدقـاء مـن عمـرك لتلعـب معهـم. سـتضحك وتركـض. في الليـل، ستهمسـون بـالأسرار لبعضكـم البعـض».

حتَّـى بعـد أن بـدأ نيكـولاي في شـخيره، اسـتلقيتُ مسـتيقظًا. كان أملـه قـد أصابنـي بالعـدوى. أبـدًا لم أتمـنَّ المزيـد عندمـا كنـتُ أعيـش مـع أمـي، لكننـي الآن أدرك أنـه قـد يكـون لي أصدقـاء. هـل سـنمرح؟ هـل سـنلعب معًـا كـما كان يلعـب الأطفـال في القريـة؟ هـل سـأبادرهم بالحديـث؟

في الصبـاح التـالي، حـزمَ نيكـولاي صرَّةً تحـوي تفَّاحتـين، وبعـض المكسَّرات ومِسـبحة، ووضعهـا في يـدي. فتـح بابـه وأشـارَ لي بـأن أسـبقه في

الخروج. تردَّدتُ لوهلة، ثم مددتُ يدي نحو راحته العملاق. تطلَّعتُ إلى وجهه. "شكرًا نيكولاي"، قلت.

اندفعت الدموع إلى عينيه وأخذني بين ذراعيه.

حمَلني عبر الدَّرج إلى الأسفل ثم عبر رواقٍ إلى حيث ينتظر أولرتش خارج غرفة التدريبات. عندما أمره أولرتش بمغادرتنا، احتضنني نيكولاي بقوةٍ أكبر، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأنزلني. عضَّ شفته، أومأ، وحاول أن يبتسم، ثم استدار وابتعد مُسرعًا، ولم يلتفت للخلف أبدًا.

لم يجدوا وقتًا ليجلبوا لي ملابس جديدة، وهكذا كنت ما أزال أرتدي الملابس المتواضعة التي كان نيكولاي قد اشتراها لي قبل عدة أسابيع في أوري. ما زلتُ لا أملك حذاءً. عندما فتح أولرتش الباب، استدارَ اثنا عشر زوجًا من الأعين في طور البلوغ ناحيتي.

أخبرَ أولرتش هؤلاء الصبيان بالقليل الذي يعرفه عني: أنني من قرية جبلية بدائية؛ أنني أتمتَّع بصوتٍ غير مُدرَّب، استثنائي، لحدٍّ أنه قد يكون أجمل صوت عرفته جوقتهم قطُّ. قال كل هذا وكأنني قنينة من النبيذ الفاخر على وشك أن تُخزَّن في قبو الدير.

"إنه أخوكم الآن"، قال أولرتش لهم، "ما دمتم أنتم وهو في هذه الجوقة، ساعدوه على فهم هذا العالم، الغريب عليه تمامًا".

أومأَ الصبيان لسيِّدهم. راقبت هذا الرجل الذي كان أثار اشمئزازي، والآن أشعر بامتنان حقيقي. أبدًا لم أكن سعيد هكذا منذ فقدتُ أمِّي.

بعد ذلك، أمرَ أولرتش صبيًّا يُدعى فيدر بقيادتنا في تمرينات الإحماء. دفعني برفق ناحية الصبيان، ثم غادرَ الغرفة. احتشد الصبيان حول فيدر. "مرحبًا"، قال. بدا في مِثل عمري، لكن أطول قليلًا. ابتسم.

أومـأتُ وابتسـمت بـدوري، أدفـأ وأنقـى ابتسـامة عرفهـا العـالم قـطّ. فكَّرتُ في قـول شيءٍ مـا، لكـن فمـي لم يسـتجب لي. كنـتُ خائفًـا بشـدَّة أن أبـدو أحمـقَ في أعـين أصدقـائي الجـدد.

خطـا فيـدر ناحيتـي، مُبتسـمًا مـا يـزال، حتَّـى وقـف قبالتـي يعلـوني في الطـول. كنـتُ أصـل إلى كتفيـه فحسـب. ثـم اختفـت الابتسـامة مـن وجهـه بغتـةً، لحـدِّ أنني انكمشـتُ مـن المفاجـأة. تضاحـك الصبيـان وراءه.

"ربمـا تغنِّـي معنـا... إذا اسـتطعت"، قـال. كانـت عينـاه باردتـين كصوتـه. "لكنـك لسـتَ واحـدًا منَّـا". تطلَّـع إليَّ مـن عـلٍ وكأنـه يبحـث عـن إشـارة أننـي فهمـت، ولم أخيِّـب أملـه. انسـابت الدمـوع في عينَـيَّ. جاهـدتُ لـكي لا أطْـرف، لكننـي فعلـت، وحينهـا تسـاقطت قطرتـان عـلى خـدِّي. قرقـرَ الصبيـان وصاحـوا فيـه حتَّـى يُسـقطني أرضًـا، لكنـه لم يفعـل. فيـما تتدفَّـق دموعـي بـلا قيـد، تشـمَّمَ الهـواء وقـال، "هـل يوجـد أحـدٌ في عائلتـك رائحتـه كالماعـز؟".

وهكـذا تـلاشى حلمـي القصـير بأصدقـاءٍ في مثـل عمـري فـورَ أن راودني تقريبًـا. لكننـي لم أشـكُ إلى نيكـولاي أو إلى أيِّ أحـدٍ آخـر؛ ذلـك أنـه مـاذا كنـتُ أتوقَّـع، كيتيـمٍ، غـير هـذا؟ في الظهـيرة تَبعـتُ زُمـرة الصبيـان إلى قاعـة الطعـام. أخـذتُ طبـق الطعـام، وفي اليـد الأخـرى أضخـم وأكـثر تفَّاحـة حُمـرَةً رأيتهـا في حيـاتي. لكـن حينهـا ظهـر فيـدر ورائي، شـدَّ عـلى ذراعـي وقـادني إلى مقعـد يواجـه الحائـط. "هـذا مقعـدك"، همـس في أذني. "وهـذا الطعـام هديـة منـي. هديـة منِّـي. ذلـك الفـلاح الـذي يقـوم بغـرف الطعـام- ابـن عمِّـه يعمـل في ضيعتنـا". أشـار فيـدر إلى الحائـط الخـاوي. "سـتنظر إلى ذلـك الحائـط. إذا جـرؤتَ واسـتدرتَ لتتطلَّـع إلينـا، سـأنزع هديتـي منـك. إذا نطقـت بكلمـةٍ لأصدقـائي، سـأنتزع هديَّتـي. مفهـوم؟"، قـرصَ ذراعـي بشـدَّة، لحـدِّ أننـي أوشـكتُ عـلى إسـقاط طبقـي. "وهـذه"، قـال، مُنتزعًـا التُّفَّاحـة مـن اليـد الأخـرى، "ليسـت لأمثالـك".

كان فـراشي ناعـمًا ودافئًـا كحِضـن أمّـي، وكنـتُ لأنـام أعمـق نـومٍ عليـه فقـط لـو كان سُـمحَ لي. خمسـة صبيـان آخريـن تشـاركوا معـي غرفتـي، ورغـم أن فيـدر لم يكـن واحـدًا منهـم، إلّا أن أوامـره أُبلِغَـت لهـم. "مـاذا تفعـل؟" سـألني تومـاس البديـن عندمـا وجـدني أسـتلقي عـلى فـراشي تلـك الليلـة الأولى. "الـكلاب تنـام عـلى الأرض". ركلنـي في قصبـة سـاقي ومُجـدِّدًا عـلى مؤخـرتي فيـما أسـقط مـن عـلى الفـراش. لم يتذمّـر أحـدٌ عندمـا تسـلّلت يـدي لاختطـاف دثـارٍ. تكوّمـتُ تحـت فـراشي، واسـتغرقتُ في النـوم عـلى صـوت الصبيـان يتمازحـون بشـأن الـكلاب ذات الرائحـة الكريهـة.

في اليـوم التـالي مبـاشرةً هـرعَ نيكـولاي إلى غرفـة التدريبـات حامـلًا حـذاءً وملابـس جديـدة مـن أجـلي. احمـرَّ وجهـي وضحـك الصبيـان ضحـكات مكتومـة فيـما يعرِّينـي مـن ملابـسي في الزاويـة. لكـن في النهايـة، بـدا لي أننـي صرتُ أبـدو مثلهـم. رغـم ذلـك، سرعـان مـا أدركـتُ أنـه كانـت هنـاك إشـارات أخـرى عـلى تفوُّقهـم، لكنهـا كانـت خافتـة جـدًّا عـلى أن أقرأهـا. أبنـاء المسـؤولين، وكبـار النسّـاجين، أو ورثـة مالـكي أراضي هـؤلاء، كان لهـم آبـاءٌ وأعـمام وأبنـاء عمومـة بأسـماءٍ تجعـل الآخريـن يلحسـون شـفاههم. وضعهـم آباؤهـم هنـا في الجوقـة فحسـب لبضـع سـنوات، عـلى أمـل أن يُهيئهـم تكـرار الاتصـال مـع الـرَّبِّ -والكثـير جـدًّا مـن الذهـب- لمصائرهـم كأرسـتقراطيين أصحـاب أراضٍ. وهكـذا كان جهادهـم مُسـتمرًّا لتسـلُّق سُـلّم، كنـت أنـا واقفًـا في أول درجـةٍ فيـه. انتـصرَ بلتـازار عـلى مصطلـح تومـاس "الكلـب" بمصطلـح "الخنزيـر". تظاهـر جـيرارد المغـرور بأنـه لا يـراني، لكنـه هـرسَ عَقبَـه في قدمـي فيـما يمـرُّ بي، رآني يوهانـس، الأشـقر ذو الوجـه الملائـكي، أبـدي إعجـابي بالمسـبحة التـي أهـداني إيّاهـا نيكـولاي. تأكّـدَ مـن احتشـاد الآخريـن حولـه قبـل أن ينتزعهـا مـن يـدي، ويمـزِّق الخيـط ويبعـثر الحبّـات عـلى الأرض. كان هوبـرت (طفـل مهـزول ومُصفـرٌّ بعينـين غائرتَـيْن، يقـال إنـه لا يسـتطيع الغنـاء، لكنـه أغنـى صبـي

في العصابـة) ذا تَـوقٍ شـيطاني للسـخرية. "انظـروا، إنهـا لعبـة الراهـب العمـلاق"، قـال ذات ليلـة فيـما أدلـف إلى الغرفـة المكتظَّـة. ثـم لي: "أراهـن أنـك كنـت تحـبُّ النـوم في غرفتـه". احمـرَّ وجهـي رغـم أنني لم أدرك حينهـا التلميـح. صرتُ أخـشى المـرور بنيكـولاي عندمـا أكـون بصحبـة الصبيـان. "لمـاذا يبتسـم لـك دائمًـا؟" يسـألني فيـدر دائمًـا، بـبراءة شـديدة. "ربمـا يتوجَّـب عليـك الليلـة، مُتأخِّـرًا في الليـل، زيارتـه في غرفتـه".

وعندمـا بـدأتُ في الغنـاء بتبتُّـل واسـتمتاع، همـس فيـدر للصبيـان، "انظـروا، يريـد أن يكـون مُغنِّيًـا إذن! بالطبـع! لكـن مـاذا غـير ذلـك متـاح لأمثالـه؟" ثـم اسـتدارَ إليَّ. "قلـتَ مَـن كان والـداك؟ هـل كانـا يحتفظـان بخنازيـر؟" للمـرة الأولى في حيـاتي شـعرتُ بالخجـل مـن أمِّـي. أدركـتُ أن راعـي خنازيـر كان لينظـر إليهـا بتعـالٍ. خشـيتُ أن فيـدر بشـكلٍ مـا كان يعـرف أكـثر مـمَّا يقولـه؛ تلـك الابتسـامة الوحشـية قالـت لي ذلـك. خطـا ناحيتـي، ورغـم أنني تراجعـتُ، وضعَ ذراعًـا حـول عنقـي وجذبنـي بشـدَّة تزايَـدَت مـع كل كلمـة. "لا تقلـق يـا بنـيَّ"، جـأرَ. "بعـد خمسـة أعـوام، عندمـا يخشوشـن صوتـك الناعـم هـذا، ولا يعـود ذلـك الراهـب القمـيء راغبًـا فيـكَ وكأنـك لعبتـه، سـيظلُّ هنـاك مـا يكفيـك مـن خنازيـر لترعاهـا".

كنَّـا نسـتيقظ في السادسـة، بعـد الرهبـان بكثـير. بعـد الإفطـار نتمـرَّن حتَّـى وقـت القُـدَّاس، ثـم نـدرس نطـق النصـوص اللاتينيـة، ونتـدرَّب عـلى الحـروف، ونـؤدي التماريـن حتَّـى الغـداء. بعـد اسـتراحة الظهـيرة، يُجلِسـنا أولرتـش عـلى الأرض حـول البيانـو القيثـاري ويعطينـا أوراقًـا وأعقـاب أقـلام رصـاص. يـضرب عـلى المفاتيـح، ويحـدِّق الصبيـان فيـه بانشـداهٍ يـشرح الفـرق بـين المقامـين الموسـيقيَّيْن: الهيبوفريجيـا والأيـوني، أو يخطـو جيئـةً وذهابًـا مُعنِّفًـا مَجمَـع ترينـت[1]. في كل يـوم تقريبًـا كان ينغـز إصبعًـا

(1) مجمـع ترنت بـين عامـي 1545 و1563 في ترنـت في إيطاليـا، المجمـع المسـكوني التاسـع عـشر للكنيسـة الكاثوليكيـة. كان انعقـاده مدفوعًـا بالإصـلاح البروتسـتانتي، وأصـدر مراسـيم بشـأن الموسـيقى المقدسـة والفـن الدينـي، انتهـت إلى أشـكال عديـدة مـن فنـون عـصر النهضـة. (المترجـم)

واحـدةً في المفاتيـح. "هكـذا هـم الرهبـان"، كان يقـول. "لألـف عـامٍ عـلى نفـس الـشيء: نغمـة أحاديـة تقريبًـا، بفواصـل مـن التبجُّـح تظهـر عَرَضًـا عـلى يـد العباقـرة". ثـم يـضرب بعـض التوليفـات الموسـيقية. "الوضـع مختلـف تمامًـا الآن. مـا يجـب أن تتعلَّمـوه هـو الغنـاء: أصـوات متعـدد. جهـارة ثقيلـة، تبايُنـات. حتَّـى لـو لم تسـتطيعوا تعلُّـم سـماعها هنـا"، نقـرَ عـلى رأسـه، "ومعظمنـا لا يفعـل، فـلا بُـدَّ أن تسـتوعبوها عـلى الأقـل، وإلَّا سـتظلُّون أدوات بـلا عقـل، غبيَّـة كهـذا البيانـو القيثـاري". ثـم يعـزف بعض المقطوعـات لڤيالڤـدي، ويطلـب منَّـا تدوينهـا، وهـو مـا كان بمقـدوري فعلـه بنفـس السـهولة التـي يرسـم بهـا الأطفـال الآخـرون منـزلًا بنافذتـين وبـاب. كان الصبيـان الآخـرون يسـترقون النظـر مـن فـوق كتفـي وينسـخون مـا أكتبـه بالضبـط. عندمـا ينفـد صبر أولرتـش، كان يعتِقنـا حتـى موعـد تدرُّبنـا مـع المُغنِّـين البالغـين بمصاحبـة الآلات، وهـو تـدرُّب كان يسـتمر حتَّـى العشـاء. طـوال كل تلـك السـنوات، لم أتعلَّـم الرياضيـات أو اللغـة الفرنسـية، ومـا أعرفـه عـن الإنجيـل وعـن الـرَّبِّ تعلَّمتـه مـن العِظـات اليوميـة فحسـب.

في الأشـهر السـتة الأولى بعـد التحاقـي بجوقتـه، بعـد أن يملـك نهـاراتي، كان أولرتـش يتركنـي بمفـردي مـن العشـاء حتـى الإفطـار. لكـن مـع تعلُّمي كيفيـة السـيطرة عـلى صـوتي، ازداد اهتياجًـا في انتباهـه لي. عندمـا نصطـفُّ أمـام مرايـا تدرُّبنـا، كنـتُ أنـا دائمًـا مَـن يـراه في مرآتـه، خلفـي مبـاشرةً، عينـاه مُغلقتـان، وكأنـه يحـاول اقتنـاص رائحـة شَـعري. وسرعـان مـا نَـدُرَ أن تمـرَّ أمسـيةٌ لا يتلـكَّأ فيهـا خـارج بـاب قاعـة الطعـام. كان يضـع يـدًا صلبـة عـلى كتفـي. "مـوسى"، يقـول، "هنـاك شيء واحـد أخـير أتمنَّـى أن أُريـكَ إيَّـاه"، ثـم يقـودني إلى غرفـة التدريبـات، ويـده لا تـشرد أبـدًا عـن كتفـي. كنـتُ أمقـت البقـاء معـه وحيـدًا؛ رائحتـه العفنـة، صوتـه البـارد، افتقـاده للأصـوات البشريـة. أحيانًـا مـا أقـول لنفـسي إنـه مـن الأفضـل أن

أقضي الوقت مع جثة؛ ذلك أنها لن تمدَّ يدها وتحاول لمسي على الأقل.

رغم ذلك، تمامًا كما كنتُ تعلّمتُ السّمع في برج الكنيسة، كان هناك، وحيدًا مع أولرتش في المُحتَرَف، أن تعلّمت التّمكُّن من سوطي. كان بمقدور ماعز أن يتعلّم الغناء لو نال اهتمام ذلك الرجل! ولِمَن يقول إنني عبقري ظهرَ من العدم، وأن موهبتي لا تحتاج وقتًا لتنضج- أقول لهم، تمرَّن، تمرَّن! لا يوجد طريق آخر نحو العَظَمة.

في هذه الساعات الطويلة مع أولرتش، تعلّمتُ الاتِّزان السَّلِس، التشكيل الموسيقي المضبوط، النطق الدقيق لِلّاتينية. كان يلامسني دومًا. يده الباردة كالثلج تنساب على ظهري أو تُمسِّد صدري، وأحيانًا ما تصل إلى ما وراء ركبتيَّ أو إلى أعلى: إلى أصداغي. كانت لمسةً تشبه التي يستخدمها المرء في مداعبة بتلات زهرة. اكتشَفَت يد أولرتش تلك الأجزاء منِّي التي ما تزال خاملة، وصلَ إلى الحدود المتخشِّبة العنيدة في جلجلتي. وهكذا تراءت لي لمسته كالسحر؛ ذلك أن الصوت الذي خرج أولًا من حلقي فحسب انتشر في ثوانٍ إلى فكِّي، وبيديه الصفراوين على صدري وظهري، سرعان ما صدحت الأغنيات عبر جسدي وكأنني جرس. بحثت اليدان عميقًا. اكتشفتا مزيدًا من الأغنيات المحتجبة في الفخذين المشدودتين، في القبضتين المضمومتين، في قوسَيْ قدمَيَّ المرتخيين. كان جسدًا ضئيلًا، لكنه جعله ضخمًا بالأغنيات.

* * *

في المرّة الأولى التي جاءَ فيها ليلًا، دلفَ إلى غرفتي باضطراب، وتعثَّر في فراش، وغرزَ ركبتيه ومرفقيه في بطون الصبيان النائمين. زحفتُ من تحت فراشي واختلستُ النظر عبر الغرفة- كخلدٍ يُطلُّ من جُحره. هزَّ أولرتش توماس. "أين موسى؟" سأل الصبي، الذي تخيَّلت عيناه

المُتَسعتان قائلًا. "هناك شيءٌ... لا بُدَّ أن...". رفعَ توماس إصبعًا مُرتعشة وأشار إلى عينَيّ المتوهِّجتين.

طرحني أولرتش على كتفه وحمَلني من الغرفة. كانت الأروقة مظلمة؛ والدير نائم. ألصقني بالحائط، أنفاسه الدافئة ذات رائحة التبن المُتعفِّن تهبُّ على وجهي. أنفه يحتكُّ بأنفي. "لقد نسيتُه!"، همس، وكنت لأظنُّ حينها أنه سكران، لكن الجميع كان يعرف أن النبيذ لم يلامس شفتيه قطُّ. "اختفى مُجدَّدًا!".

وضعني على الأرض، تناولَ مِعصمي وجرَّني عبر الأروقة، خطواتنا صامتة كخطوات الأشباح.

كانت غرفة التدريبات مُظلمة، لكنه رفعني مُجدَّدًا ووجدت المقعد العالي تحت قدمَيّ. أنصتُّ إليه، ولم أسمع صوتًا. صلَّيتُ فحسب أن يختفي. عندما تحدَّث مُجدَّدًا شعرتُ برجفة.

"هناك مُلحِّنون صمٌّ"، همسَ في الظلام، "يسمعون الموسيقى في رؤوسهم. جميلةً في الصَّمَم كما هي في الحياة، يزعمون!".

مددتُ يدًا لتحديد موقع الصوت. وقبل أن أتمكَّن من فرد مِرفقي، احتكَّت يدي بوجهه. شهقَ على وقع لمستي، وانسحبت في رعب. لكنه أمسك بذراعي وقبض على مِعصمي بشدَّة، لحد أنني تأوَّهت. "أنا على استعداد للتَّخلِّي عن أذنيَّ مقابل ذلك!" هتف. "اقطعهما بحيث لا أسمعك تغني مُجدَّدًا، فقط لو استطعتُ سماع غِنائك هنا!"، نقر على رأسي بقوة بإصبعه، وأوشكتُ على السقوط، لكنه جذبني ناحيته من مِعصمي حتى صرتُ ملتصقًا به. مُجدَّدًا، شعرتُ بأنفاسه على خدِّي. همسَ في أذني. "أستلقي مستيقظًا يا موسى. كل ليلة منذ مجيئك. كما لو أنك خارج نافذتي، لكن هناك رياح تهبُّ. أعتصر ذاتي لأسمعك، لكن لا أستطيع".

ضغطَ بجبينه على جبيني، بخدِّه البارد مقابل أنفاسي الدافئة. "كان من الأفضل لو لم تجئ"، همسَ.

أفلتَ ذراعي ودفعني للخلف بحيث أستطيع الانتصاب في جلستي. تراجعت خطواته. عبَثَت أصابعه على البيانو القيثاري. عزفَ نغمةً.

"غنِّ"، قال. غنيتُ تلك النغمة الواحدة. جعلها الرعب ضئيلة.

"لا!" صاح. "غنِّ!"، خبطَ بإصبعه على المفتاح بقوة.

أخذتُ نفسًا، وفيما أطلقه مُجددًا سمعتُ أنفاسي في صدري. لم أفتحه عنوةً، لكن كما كان أولرتش قد علَّمني، شعرتُ بشهيقي يتدفَّق إلى تلك الأماكن المُغلقة، بحيث انفتحت هي أيضًا. تراجعَ خوفي. ومع زفيري التالي ظهرت النغمة، ليست عالية هذه المرة، لكن رائقة. غنَّيتُ، مالئًا الغرفة بصوتي، حتى نضبَ نفسي. حلَّ الصمت.

"ستغنِّي قانون الإيمان اليوم"، قال وعزف لحن السوبرانو الصادح من الحركة الثالثة. غنَّيت.

صارت يداه بغتةً عليَّ مُجددًا: اليد التي تُلاطف الزهرة. على صدري، تحت ذراعي، أسفل ظهري، حتَّى صارت كل هذه الأجزاء تهتزُّ مع الأغنية. ثم اندفعت يداه على ظهري وضغطَ بصدري على أذنه.

"غنِّ!" أمرني. شعرتُ بالأغنية تفيض داخلي. هززتُ ركبتَيَّ.

"نعم!" قال لاهثًا. شعرتُ أنه على حق، أن صوتي لم يرنّ مُشرقًا هكذا قَطُّ. فيما أقف وأغنِّي لدقائق طويلة، أبقى رأسه على صدري، كطفلٍ على صدر أمه.



(11)

علينـا أن نلـوم القدِّيـس بولـس عـلى وجـود مُرتِّـل القُـدَّاس. بـدون تحريمـه (فلتـدع النسـاء تظـلُّ صامتـة في الكنيسـة *Mulier taceat in ecclesia*)، لم يكـن العـالم ليحتـاج لهـؤلاء الصبيـان الأشـقياء. ذلـك أن القديـس بولـس، في أمـره للنسـاء أن يصمـتن في كنائسـه، لا يسـتطيع إسـكات الصـوت الأنثـوي. لشـهور قبـل ولادتنـا، تتوالـف آذاننـا عـلى أصـوات أُمَّهاتنـا (في حالتـي كانـت هـذه الأصـوات هـي أجـراس أمِّـي)، وبالتـالي، في سـعيها نحـو الجـمال المُطلـق، احتاجـت الكنيسـة إلى بديـل. في جوقـة سـانت غـال، كنـتُ أفضـل بديـل عرفـوه قـطّ.

بغتـةً صـار رئيـس الديـر يُقـدِّرني كـما يقـدِّر الجوهـرة التـي في خاتمِـه، أو الحجـارة البيضـاء النقيـة لبُرجَـيْ كنيسـته الجديـدة، التـي بـدأت في الارتفـاع مثـل سُـلَّمَيْن غـير مُكتملَـيْن نحـو السـماء. عندمـا يسـمعني أغنِّـي، أو يتوقَّـف قليـلًا لمشـاهدة تدريباتنـا، كان يبتسـم بنهـمٍ وكأنهـا وليمـة يجـري تحضيرهـا ليأكلهـا. كان تكتُّمـي ميـزةً. أتحـدَّث مـع نيكـولاي فقـط،

الـذي كنـت أختبـئ في غرفتـه كلَّـما اسـتطعت الهـروب مـن أولرتـش والجوقـة، لكـن حتّـى حينهـا لم أكـن أقـدِّم مـا يزيـد قليـلًا عـن الهمهـمات. عندمـا يسـألني نيكـولاي عمَّـن كان أبي، كنـت أهـزُّ كتفَـيَّ بـلا مبـالاة. وعندمـا يسـألني عـن اسـمي الحقيقـي، أجيبـه، "مـوسى".

في صلـوات السـاعات الاعتياديـة، ومعظـم القُدّاسـات، كان غنـاء رهبـان الجوقـة أمثـال نيكـولاي كافيًـا لرفـع قطيـع شـتاوداخ نحـو السـماء. لكـن في الأيـام المُقدَّسـة، أو للاحتفـال بوصـول المُتحجِّـرات المُقدَّسـة، أو للقُدّاسـات في ذكـرى وصيـة بمـيراث كريـم، كان رئيـس الديـر يسـتدعي جوقـة أولرتـش لنسـتغرق نحـن في سـبب وجودنـا الطقـوسي. في المُجمـل، كنَّـا نغنـي عشريـن قُدّاسًـا كل عـام كجوقـة موحـدة، فيـما يرسـل بأجـزاء مـن مجموعتنـا في مناسـبات عديـدة آخريـن لتشريـف الأبرشـيات الأصغـر في أراضي الديـر الشاسـعة. كان ذوق أولرتـش الراقـي ينتقـي مـن ذخـيرة مؤلفاتنـا الموسـيقية، التـي تضـم قُدّاسـات أثيريَّـة مـن كافـالي، تشـاربنتيير، مونتيڤـيردي، ڤيڤالـدي، ودوفـاي. في تدريباتنـا المُختلَسـة في منتصـف الليـل، كان الرجـل المثـير للاشـمئزاز يسـحب مقطوعـات موسـيقية مُهرَّبـة مـن لايبتسـج، وسرًّا كنـتُ أنـا ألـوِّثُ الديـر بأغـاني بـاخ البروتسـتانتية.

تمامًـا كـما كان أثريـاء سـانت غـال مـن الكاثوليكيـين يتوقـون إلى القطـن مـن أمريـكا، والشـاي مـن الهنـد، والقهـوة مـن تركيـا، فلـم تكـن جنـازة ولا موكـب أو عيـد في الأبرشـيات يمـرُّ دون مصاحبـة موسـيقية مـا مـن جوقـة سـانت غـال. في ذاكـرتي، كانـت هـذه الأماكـن مجـرد بقعـة مـن الموسـلين ذي الزخرفـة المُتكلِّفـة في الكنائـس الصغـيرة شـديدة الرطوبـة، صمـتٌ مكـوَّن مـن شـخير النـوم وأزيـز الأنفـاس.

كلُّها، أعني، باستثناء مكان واحد.

* * *

عـادةً مـا كُنّـا نسـافر في عربـات تجرُّهـا الثـيران إلى حفلاتنـا؛ ذلـك أن غالبيـة كاثوليكيِّـي سـانت غـال كان يعيشـون خـارج أسـوار المدينـة. في أمسـية بعينهـا، رغـم ذلـك، خرجنـا في مسـيرةٍ مـن طابـور واحـد مـن بوابـة الديـر الغربيـة مُتَّجهـين إلى المدينـة البروتسـتانتية. قـاد أولرتـش الطريـق، يتبعـه عازفـا الكـمان ذوا الوجـه الرمـادي، والشـعر الرمـادي؛ ثـم هايـنرش عـازف البيانـو القيثـاري بديـن العنـق، أندريـاس مـؤدي (البـاص) الجهوري، مؤدِّيَـا تينـور بالغـان تمامًـا ومؤدِّيَـا كونترالتـو عـلى وشـك البلـوغ؛ فيـدر السـوبرانو؛ أويـلي، مُرتِّـل قُـدَّاس سـابق كانـت عمليـة بلوغـه القاسـية قـد أحالتـه إلى حامـل حقائـب ومقلِّـب صفحـات؛ وأخـيرًا أنـا، متباطئًـا في أحيـان كثـيرة لألتقـط كل صـوت يتـسرَّب مـن نوافـذ المدينـة المفتوحـة.

غابـت مؤخِّـرة أويـلي عـن نظـري مـرَّاتٍ كثـيرة فيـما نعـبر المدينـة، لكـن لم يكـن مـن الصعـب اللحـاق بـه. أغلقـتُ عينَـيَّ ووالفـت أذنيَّ عـلى عقبَيْـه يجـترّان الشـارع. بعـد عـشر دقائـق مـن المـشي، وجـدتُ الآخريـن ينتظـرون عنـد منـزلٍ يشـبه القـصر، مُشـيَّد مـن الحجـر الرمـادي. كان هـذا منـزل آل دوفـت، أخبرنـا أولرتـش، بيـت (دوفـت وأبنـاؤه للمنسـوجات). "بيـت كاثوليـكي"، قـال، "رغـم أننـا داخـل أسـوار المدينـة (البروتسـتانتية)". ثـم همـسَ فيـدر بصـوتٍ عـالٍ بعـض الـشيء أن عائلتـه لا يمكـن أبـدًا أن تعيـش وسـط الفـئران. "ليكـن هـذا درسًـا لـك"، أجابـه أولرتـش بقسـوة. "هـؤلاء الذيـن يضعـون الجهـد والعمـل قبـل الديـن يسـتفيدون مـن قـوة صبرهـم. حقًّـا، إن آل دوفـت هـم أغنـى أبنـاء المقاطعـة، كاثوليـك كانـوا أو إصلاحيـين. الليلـة علينـا أن نـؤدي بأفضـل مـا في وسـعنا".

دلفنـا عـبر بـاب جانبـي، وكأننـا طهـاة مُعجَّنـات. كان ممـر القبـو المـؤدي إلى الكنيسـة الصغـيرة رطبًـا وحالـك الظُّلمـة. تَبعـتُ ذيـل معطـف أويـلي لبضعـة خطـوات، لكننـي توقَّفـتُ بعدهـا. سـمعتُ قعقعـة قـدورٍ معدنيـة بوضـوح عـلى يسـاري، لكـن عندمـا اسـتدرتُ لأنظـر إليهـا، لم أرَ سـوى حجـارة الحائـط الرماديـة. اتَّخـذتُ خطـوةً للأمـام؛ تلاشـت القعقعـة،

لكـن الآن تحدَّثـت امـرأة. بعـد خطوتـين أخريَـيْن للأمـام سـمعتُ ثرثـرة: مجموعـة مـن الرجـال، دزينـة عـلى الأقـل.

تباطـأتُ في مشـيتي. انسـابَ الصـوت وكأننـي مـررت بثـلاث نوافـذ مفتوحـة، عـلى ثـلاث غـرف مختلفـة، لكـن الحائـط كان مجـرد حجـارة مُصمتـة. تمعَّنـتُ فيـه عـن قـرب. لم أجـد أي ثقـوب، وحينهـا ارتجفـت، مسـتنتجًا أن الأشـباح تعيـش في هـذا الممـر حتـمًا. رغـم ذلـك، بمقـدوري الآن إدراك أن الأمـر لم يكـن معجـزة أو شـيطنة عـلى الإطـلاق، كان مجـرد ظاهـرة (phénomène). قـرأتُ بعـد ذلـك أن الحجـر الجـيري يتألـف مـن أصـداف قديمـة، ولا بُـدَّ أن أصـداف آل دوفـت جـاءت مـن الكهـوف بالتحديـد؛ لأنهـا، مثـل أصـداف قوقعاتنـا، تحبـس كل الأصـوات المُنبعثـة مـن ذلـك المنـزل العمـلاق، وتحملهـا بعيـدًا. تمامًـا كأزيـز شـفتَي عـازف بـوق، ينتقـل مـن المبسـم إلى مخـرج البـوق عـبر انحنـاءات والتفافـات النحـاس، كانـت أصـوات منـزل آل دوفـت تتراكـم، ثـم تنتقـل مـن صَدفـةٍ إلى أخـرى، وتنطلـق خارجـةً عـبر جُـدران غرفـة أخـرى تمامًـا.

فيـما أتابـع طريقـي عـبر ذلـك الدهليـز الـكابي في إثـر رفقـائي، سـمعتُ زجاجًـا يتشـظَّى عـلى الأرض، يـدًا تخبـط بقـوة عـلى مكتـب، رجـلًا يغنِّـي أغنيـة غريبـة، طفـلًا يبـكي، وامـرأةً تحـاول تهدئتـه. (إذا سـألتَني كيـف تيقَّنـت مـن الجنـس مـن سـماع الهسـيس فحسـبُ فـلا بُـدّ أن تُحـرَم مـن دخـول قاعـات الحفـلات. منحـكَ الـرَّبُّ أذنَـيْن لتُنصـت بهـما). وراء تلـك الأصـوات القابلـة للتحديـد، تُرفـرفُ داخلـةً وخارجـةً، سـمعتُ عـددًا هائـلًا مـن الخشخشـات والدَّقَّـات، وكأن جيشًـا أخـرس يُنقِّـب عـن الفضـة داخـل الجُـدران.

اسـتغرقَ الأمـر منِّـي دقائـق طويلـة لاجتيـاز ذلـك الممـر القصـير. توقَّفـتُ عنـد كل صـوت وحاولـت بـلا جـدوى التَّلصُّـص عـبر ثُقـبٍ في الحجـارة. عندمـا وصلـتُ إلى النهايـة أخـيرًا، حيـث يتشـعَّب الممـر يسـارًا

ويمينًا، كنتُ وحيدًا. أنصتُّ إلى عقبَيْ أويلي، حدّدتُ اتجاههما، سرتُ خطوتين إلى اليسار، أدركتُ أنني كنتُ مخطئًا، عدتُ إلى موضع التّشعُّب، سمعتُ العقبَيْن يجتزّان الأرض إلى اليسار وإلى اليمين في نفس الوقت، ثم سمعتهما فوق رأسي.

لقد تُهت.

أنا إنسان عديم النفع دون أذني. كانت حواسي الأخرى مُعطّلة نتيجة قِلّة استعمالها. مع كل خطوة في أيِّ اتِّجاه، كانت جُدران منزل دوفت تنطق بأصوات جديدة أحاول استكشاف ماهيَّتها، لكن بلا طائل. رغم أن الردهات الطويلة والزوايا القائمة لمنزل دوفت ربما بدت للآخرين بسيطة كحقل مفتوح، إلّا أنها بدت لي كمتاهة.

أخيرًا، اخترتُ واحدًا من الاتّجاهات وسرتُ إلى نهاية الممر. على يساري كان باب، وعلى يميني يستمرُّ الممرُّ حتى يُظلم. كنتُ على وشك اختيار الباب عندما سمعتُ صوتًا ودودًا ينادي من بين الظلال.

"اقترب"، قال الصوت. "اقترب الآن. أنا صديقك. لا تخجل".

خطوتُ ببطء عبر الممرِّ المظلم نحو الصوت. انفتح بابٌ على ما يشبه مخزنًا مُعتمًا كانت فيه مئات من الجِرار الزجاجية تملأ صفوفًا من الأرفف الخشبية.

"لا بأس"، قال الصوت الخيِّر. "لن أؤذيك. أريد أن أساعدك".

شاعرًا بالاطمئنان، خطوتُ إلى الغرفة.

كان تركيزي مُنصبًّا على الأصوات، لحدِّ أنني لم ألمح العين المُحدِّقة إلّا بعد خطوات كثيرة داخل الغرفة. تجمَّدتُ مكاني. ثم رأيتُ عينًا أخرى، ثم اثنتين أخريَيْن، ثم ألف رأس مقطوعة تحملق فيَّ. رأيتُ رؤوس دجاجات، رؤوس دزينات من الطيور البرية، رأس خنزير، رأس ماعز بقرون مُنمنمة. في أحواض زجاجية خضراء على طول الرَّفِّ

العلـوي كانـت تطفـو رؤوس حيوانـات برِّيَّـة: أيـل، ذئـب، رأس عملاقـة لـدبٍّ، ثـلاث قطـط ضخمـة، ورؤوس أصغـر حجـمًا لسـناجب كثيرة. أعـينٌ ضبابيـة، فاغـرة كانـت تحـدِّق عـبر السـائل الشـفاف. اهـرب! بـدا أنهـا تقـول. سـيأخذون رأسـك أيضًـا.

لكـن فـورَ أن اسـتدرتُ لأفـرَّ، تحـدَّث الصـوت الهـادئ مُجـدَّدًا. "لا بـأس"، قـال الصـوت، "لا تَخَـفْ".

لكننـي أدركـت حينهـا أن التطمـين في صوتـه لم يكـن موجَّهًـا لي عـلى الإطـلاق؛ ذلـك أن هـذه (الإنسـانة) كانـت تولينـي ظهرهـا. رأيـتُ حـذاءً أسـود وجـوارب بيضـاء، والظهـر الأخـضر لفسـتانٍ مخمـليٍّ بتقوُّسـين أبيضَـيْن عـلى كتفيـه، مـع ضفيرتـين شـقراوين. كنـتُ أنظـر إلى فتـاة، نـوعٌ مـن المخلوقـات كنـتُ رأيتـه كثيراً في الكنيسـة، لكـن باسـتثناء شـقيقتين معروفتَـيْن كانتـا تشـبهان الفـئران أكـثر مـن النسـاء، لم أقـترب هكـذا مـن فتـاة قـطُّ.

كانـت تنحنـي عـلى قفـص خشـبي كبـير، تغطـس بكتفيهـا وترفـع سـاقًا لتُـوازن نفسـها، مانحـةً إيَّـاي فرصـة لرؤيـة جواربهـا البيضـاء مـن كاحلهـا النحيـل إلى انحنـاءة مؤخرتهـا الهزيلـة. باهتـمام مباغـت، أدركـتُ أن لغـزًا يكمـن في تلـك البقعـة الناعمـة حيـث تلتقـي خيـوط جواربهـا الدقيقـة. غطَسَـت أكـثر في القفـص، وارتفـع فسـتانها أكـثر، كمِظلّـة تنفتـح، سـاقاها تتلويَّـان ناحيـة السـقف. تُقـتُ إلى لمسـهما. هـل كانتـا دافئتَـيْن أم باردتَـيْن؟ خشـنتَيْن أم ناعمتَـيْن؟

"أمسكت بك!" قالت لاهثةً. ركلت قدمها بانتصار.

هبَطَـت السـاقان. عـاد الفسـتان إلى موضعـه. خرجـت كتـفٌ بتقـوُّسٍ أبيـض مُتَّسِـخ، ثـم أخـرى بتقـوُّسٍ مفقـود، ثـم الضفيرتـان الذهبيتـان بحفنـات تـبن تتعلَّـق بهـما، وجـهٌ أحمـر مُلطَّـخ بالـتراب، ذراعـان عاريـان، وأخـيرًا يـدان قذرتـان وثعبـان.

كان بطول ساقي ويلتمع بأسود زيتيٍّ في وميض المصباح. طوَّحَت الفتاة بضفيرةٍ من على وجهها، جذبت الثعبان المتلوِّي نحو شفتيها، قبَّلَته، ثم قالت، "لا بأس، چان-چاك. أنت حرٌّ".

يمكنني تذكُّر كل تفصيلة في ذلك المشهد: نَمَشِها، كل بقعة تراب على وجهها، الابتسامة المُحِبّة، المزهوّة التي منحتها للثعبان. ربما ما أراه الآن في عين عقلي ليس سوى ذكرى لذكرى بعيدة أخرى، كساعةٍ قديمة أُصلِحَت مرّات كثيرة بحيث لم يتبقَّ فيه ترسٌ أصلي واحد. كثيرًا ما استدعيتُ المشهد إلى عقلي: تلك الفتاة ذات الشعر المُشعَّث، اليدان القذرتان، وثعبان عشب مرعوب محمول أمام فمها.

بشفتَيْها على بعد نَفَسٍ من الثعبان، رأتني.

في رعشة المصباح، راقبتُ شعورها بالإحراج يرتفع إلى خدَّيها. حاولَت إخفاء الثعبان وراء ظهرها، لكن تَلوِّيه كان كثيرًا جدًّا على يد بمفردها، فهربَ منها على الأرض. تردَّدَت لوهلة وتفكَّرَت، ثم هوَتْ على ركبتَيْها ومِرفقَيْها، يداها تُمسكان بچان-چاك فيما ضفيرتاها تتدلَّيان كآذانٍ طويلة على الأرض. رفَعَت بصرها إليَّ.

"مَن أنت؟" قالت. "ماذا تفعل هنا؟".

أُخِذتُ على الفور بالثقة في صوتها، بالنطق الواضح في كلماتها. بلا أثرٍ للَهجةٍ قروية. أدركتُ على الفور أن هذه الفتاة كانت من طبقةٍ أعلى حتَّى من صبيان الجوقة الذين يسخرون منّي. لا يهمُّ كم تقف قريبةً منّي الآن؛ ذلك أنه حتمًا لا يوجد مَن هو أبعد عنّي الآن في العالم بأكمله.

أحكمت قبضتها على چان-چاك ورفعت ركبتَيْها عن الأرض ثم نهضت واقفةً، مُمسِكةً بالثعبان أمامها وكأنها قسٌّ يقبض على كأسٍ مملوءةٍ بالنبيذ. كانت أطول منّي بمقدار رأسها، ولها وجه عجيب، وكأنه لوحة قماشية لعرض المشاعر: الفضول في تضامُّ جبينها، الحذر

في تطـاول عينيهـا، الحَـرج في ثنيّـة ذقنهـا، لمسـة مـن البهجـة في اتّسـاع فمهـا. تمعَّنَـت في رداء الجوقـة الـذي أرتديـه.

"هل أنت راهب؟" أوحَت نبرتها بأنها تفضِّل الثعابين على الرهبان.

مُجدَّدًا، لم أقل شيئًا.

"عندمـا أكـبر"، قـال، مقتربـةً منـي ببـطء شـديد ومُتحدِّثـةً بسرعـة مـع ذلـك، "لـن يعـود هنـاك رهبـان، لكـن فلاسـفة (*philosophes*) فحسـب، وهـو مـا يمكـن للنسـاء أن تكونـه، حتّـى وإن كانـت النسـاء لا يسـتطعن إدارة المصانـع". عندمـا انتهـت مـن حديثهـا، كان چان-چـاك، قريبًـا مـن وجهـي. قـد توقَّـفَ عـن التَّلـوِّي وأخـذَ في التحديـق باسـترخاء في الظـلام. تطلَّعَـت الفتـاة إلى عينَـيّ. تراجعـتُ خطـوةً. تقدَّمَـت.

حفحـفَ فسـتانها فيـما تتحـرَّك. صرَّ حذاؤهـا الأسـود المُتيبِّـس. نقَـرَت بأسـنانها مرَّتـين. "إذا أخـبرتَ أيَّ إنسـان بمـا رأيتَـه، سأسـحق وجهـك"، قالـت.

ثم خَطَت بجواري مباشرةً.

اسـتدرتُ لمراقبتهـا وهـي ترحـل، وحينهـا فحسـب أدركـت أنهـا تعـرج. كانـت قدمهـا اليمنـى مُسـتديرة للداخـل وركبتهـا لا تنحنـي. ألقَـت بنظـرة خاطفـةٍ للـوراء فيـما تغـادر الغرفـة وأمسَـكَت بي مُتلبِّسًـا بالنظـر إلى سـاقها. انضمَّـت ومضـة ألمٍ إلى المعركـة عـلى وجههـا. "مـن الموجـع أن تُحـدِّق"، قالـت.

ثـم رحَلَـت. راقبـتُ مدخـل البـاب، ثـم أغلقـت عينَـيَّ حتـى أسـتطيع اسـترجاع أصواتهـا، المُخزَّنـة الآن في ذاكـرتي. حفيـف فسـتانها، الصـوت الرقيـق مُغـوي الثعابـين وقـد أيقـظ حـواسّي الأخـرى. هـل هـذه هـي رائحـة صابونهـا وليمونهـا مـا زالـت عالقـةً في هـواء الغرفـة؟

عـدتُ إلى الدهليـز الرئيـسي واسـتندتُ عـلى الحائـط حتّـى سـمعتُ أويـلي يجـرُّ قدميـه عـلى الأرض، ذلـك أنهـم أرسـلوا بـه للبحـث عنـي.

* * *

كنَّـا هنـاك لغنـاء صلـوات مسـاء الأحـد. غنّينـا (قـال الـرَّبُّ *Dixit Dominus*) لڤيڤالـدي، مقطوعـةٌ تعـرض البراعـة والتناغـم والتقـوى كـما ينبغـي لخلـق تأثـيرٍ عـلى العباقـرة والبلهـاء الأثريـاء، وبالتـالي إلهامهـم للنظـر مُجـدَّدًا في الوصايـا الأخـيرة بطُـرق أكـثر كرمًـا لمصلحـة الديـر. كانـت الكنيسـة الملحقـة بمنـزل آل دوفـت كتلـة رطبـة مـن الحجـير الجـيري ممتلئـة بوفـرةٍ مـن الأيقونـات ونحـو ثلاثـين مـن المُصلّـين. وقفنـا -فيـدر وأنـا- كَتِفًـا بكتـف في مقدمـة الجوقـة. في تلـك الليلـة لم يُخـفِ إبـرةً في قبضتـه وينخزهـا في ذراعـي، أو يهمـس بـأن رئيـس الديـر طـردَ نيكـولاي بسـبب جرائمـه المخزيـة. كان الأمـرَان مزحـةً معتـادة عندمـا نتـدرَّب. الآن، في الكنيسـة الصغـيرة، ممتلئـةً بأفضـل دمـاء سـانت غـال، كان يبتسـم كمـلاكٍ، ولم يُبـدِ أيَّ علامـةٍ عـلى أنـه يزدرينـي.

فيـما نوشـك عـلى أن نبـدأ، انفتحـت الأبـواب في مؤخـرة الكنيسـة وخطـا داخـلًا سـيد المنـزل. ڤيليبالـد دوفـت. لم يكـن رئيـس إمبراطوريـة (دوفـت وأبنـاؤه للمنسـوجات) نحيـلًا فحسـب، بـل كان قصـيرًا كذلـك، وبـين الرجـال البدينـين الآخريـن في الكنيسـة، كان لـه مظهـرٌ صبيـانيٌّ. لم يتوقَّـف لرسـم الصليـب بيـده، لكـن غمـسَ إصبعـه فحسـب في جُـرن المـاء المقـدس ورسـم دائـرةً في الهـواء، ناثـرًا المـاء المقـدس عـلى الأرض. كانـت يـده اليسرى تمسـك الآن باليـد النظيفـة لطفلتـه الوحيـدة، أماليـا دوفـت، مُقبِّلةِ-الثعابـين. سـارت عارجـةً بجـواره.

جلسـا بجـوار امـرأةٍ في الصـف الأول كان لهـا ذلـك المزيـج المُنفِّـر مـن خدَّيْـن غائرَيـن، وكتفـين نحيلتـين وفخذيـن عريضتـين؛ مـمَّا جعلهـا تبـدو كهَـرَمٍ لحيـم، مرتـخٍ، يسـتقرُّ عـلى المقعـد الكنسي. جلَسَـت أماليـا بينهـما.

تصـوَّرتُ مخطئـًا أن المـرأة ذات شـكل الإجاصـة هـي أمُّ أماليـا وزوجـة ڤيليبالـد؛ واكتشـفتُ لاحقًـا أنهـا شـقيقة دوفـت العزبـاء، كارولـين دوفـت، المصـدر الرئيـسي للتقـوى في المنـزل، وصاحبـة فكـرة هـذا الطقـس الكنـسي الخـاص.

أثنـاء أول حركتَـيْن في المقطوعـة الموسـيقية، راقبـتُ هـؤلاء الثلاثـة. كان فريـق مؤدِّيـي التينـور والألتـو يتعاركـون مـع بعضهـم البعـض ومـع آلات الكـمان والبيانـو القيثـاري للسـيطرة عـلى الكنيسـة، مُسـتخدمين درجـاتٍ مبالَـغ فيهـا مـن الصـوت وتوسـيع محسـوس بالـكاد لنغماتهـم كأسـلحة. لكـن الجمهـور لم يفهـم هـذه الحـرب؛ لم يفعـل الصخـب سـوى أن أخمـدَ انتباههـم. ابتسـمَ بعضهـم بـلا معنـى. آخـرون حمَلـوا نظـرةً حمقـاء مـن الرضـا الزائـف عـلى وجوههـم. سـقط كثيرٌ مـن المُصلِّين فريسـةً للنـوم. كان دوفـت يحـدِّقُ في حذائـه. بجـواره، تؤرجـح أماليـا قدمهـا بفتـورٍ، ولا تبـذل جَهـدًا لإخفـاء الملـل عـلى وجههـا. وبـدا أن كارولـين دوفـت لـن تكـون أسـعد لـو أن ڤيڤالـدي نفسـه قـامَ مـن موتـه وتنـاول كمانـه وعـزف عليـه. أغلقـت عينيهـا وتمايَلَـت عـلى إيقـاعٍ مـا لا علاقـة لـه بالموسـيقى الحـاضرة. تسـاءلتُ، "هـل هـي صـمَّاء؟".

الحركـة الثالثـة مـن مقطوعـة (*Dixit Dominus*) هـي دقيقتـان مـن أجمـل تنويعـة كتبهـا ڤيڤالـدي ليُغنِّيهـا مؤدِّيـا سـوبرانو. كانـت ملائمـةً إلى حـدِّ الكـمال لصـوت فيـدر وصـوتي، وهـما صوتـان لم يكونـا متألِّقَـيْن ومكتملَـيْن بعـدُ، لكنهـما خفيفـان وسريعـان. أحببـت مراقبـة ردِّ فعـل الجمهـور عندمـا بـدأ فيـدر في غنـاء (عصـا سـلطانك *Virgam virtutis tuae*)، وبعدهـا بثـوانٍ، كـرَّرتُ العبـارة. تطلَّـبَ الأمـر هـذه اللحظـة فحسـب لإخـراج الجمهـور مـن سُـباتِه.

غنَّينـا عبـارةً أخـرى معًـا في تناغـمٍ قبـل أن يُفرِّقنـا ڤيڤالـدي. ثـم صرنـا مثـل عصفورَيْـن راقصَـيْن: نرتقـي في تناغـم. نتباعـد متفرِّقَـيْن، لكـن بعدهـا

نَعـزِم عـلى الاتِّحـاد، ثـم نرتقـي مُجـدَّدًا. كان صـوت فيـدر رشـيقًا للغايـة، لحدِ أنـه كان يبـدو أحيانًـا وكأنـه سـيفرُّ مبتعـدًا عـن صـوتي. لكـن لوهلـة كنَّـا إخـوةً، وأوشـكتُ عـلى مـدِّ ذراعـي واحتضانـه فيـما نُغنِّـي.

مـالَ الحـاضرون في الكنيسـة للأمـام في جلسـتهم وارتفعـوا قليـلًا عـن مقاعدهـم؛ صرَّت الأرائـك الكنسـية مـن تحتهـم. لكـن دوفـت لم يفعـل سـوى أن مـدَّ قدمًـا لنَفْـض لطخـة غبـار عـن الأخـرى ثـم تثـاءبَ، وكأنـه لم يسـمع الموسـيقى. لكـن أماليـا كانـت تُنصـت. حدَّقَـتْ إليَّ، وفي بطنهـا كان رنـين صغـير.

انتهـت الحركـة الموسـيقية، وللمـرة الأولى منـذ دخولنـا الكنيسـة، كان هنـاك صمـتٌ مطلـق. لا اعتـدال في جلسـة ولا سـعال. لا همـسٌ ولا تقريع. أنـاسٌ كثـيرون تنفَّسـوا بصفـيرٍ رقيـق فيـما يطلقـون زفيرهـم، وفكوكهـم تتـدلَّى مرتخيـةً.

اسـتمرَّت الموسـيقى. احتـوت الحركتـان التاليتـان عـلى اشـتباكٍ بـين مؤدِّيـي التينـور والبـاص، وآلات الكـمان والبيانـو القيثـاري، كل الآلات وقـد جـدَّدت إلهامهـا. ثـم البـوق وقـرار الأرغـن، وقـد أُعيـدت كتابتهـما بشـكل مُرهِـق ليلائمـا البيانـو القيثـاري وآلات الكـمان. بـدأت الحركـة الثامنـة القصـيرة بـآلات الكـمات المتثاقلـة التـي اسـتخدمها ڤيڤالـدي بشـكل مُتقَـن لتهيئـة الآذان. هـدَّأت الحركـةُ الجمهـورَ، وُمنحـت آلتـا الكـمان الرماديتـان في فرقتنـا الفرصـة للاشـتراك في الموسـيقى. ثـم بـدأتُ غنـاء السـوبرانو منفـردًا، (السـيل *De Torrente*).

كنـتُ صبيًّـا ضئيـلًا، بالـكاد بنصـف طـول الرَّجُـل الـذي أنـا عليـه الآن. وقفـت الجوقـة خلفـي مُنصاعـةً لقيـادتي. لم يكـن صـوتي عاليًـا، لكنـه مـلأ كل ركـنٍ في تلـك القاعـة. ارتجـف ذقنـي فيـما أمـدُّ كل مقطـع ليسـتمرَّ لعشريـن نغمـةً أو أكـثر. بالنسـبة للجمهـور بـدا ذلـك عفويًّـا وهيِّنًـا -أبـدًا لم تتشـنَّج عينـاي، لم ترتفـع كتفـاي- لكـن بالنسـبة لي، تطلَّـب الأمـر أعمـق

تركيـز ممكـن. اتَّجهـت ذراعـاي للأسـفل وللأمـام قليـلًا، وشـعرتُ بأغنيتـي في كل إصبـع ممـدودة. هُـصِرَت رئتـاي، ورغـم أن صوتي كان مكتمـلًا بمقدار العُـشر فقـط مـمًا سـيكون عليـه يومًـا مـا، إلَّا أنـه كان رائقًـا مثـل هـواء الجبـال حـول كنيسـة أمِّـي. في كنيسـة آل دوفـت، تخضَّبَـت عينـاي. كانـت أماليـا، في الصـف الأول، قـد تغضَّـنَ جبينهـا؛ أصابعهـا البيضـاء قابضـة عـلى المقعـد الخشـبي. تغلغلـت أغنيتـي في كل نسـيجٍ فيهـا.

عندمـا انتهيـت، كان هنـاك صمـتٌ. كان فيـدر تمثـالًا مُتخشِّـبًا بجـواري. فغـرَ أولرتـش فـاه. رآني، مُجـدَّدًا، للمـرة الأولى. ودوفـت مـا يـزال يتأمَّـل حـذاءه.

جلَسَـت أماليـا في سـكون، مُنتشـيةً وذاهلـةً، وكأن ثعبانهـا قـد أنبـتَ أجنحـة بهيّـة وشرعَ في الطـيران أمـام عينيهـا.

(12)

بعدهـا، جلسـنا في بهـوٍ ضيـق وأَوْلَمنـا. كان الطعـام والـشراب هـو الوسـيلة الوحيـدة لدفـع أتعـاب غنائنـا (يتلقَّـى رئيـس الديـر كويلسـتين أتعابـه بحسـب ترتيباتـه الخاصـة بالطبـع). بـدا وكأن الجميـع قـد نسـيَني، الجميـع باسـتثناء أولرتـش، الـذي كنـت أضبطـه مـن وقـتٍ آخـر يُحـدِّق في وجهـي، مُحـاولًا بـلا طائـل أن يسـتحضر مـن صورتـه ذكـرى صـوتي. أمسـكتُ بسـاق لحـم حَمَـل في يـدٍ، وجنـاح دجاجـة في الأخـرى، وشرعـتُ في انتـزاع اللحـم وكأننـي أنـوي أن أكـبر إلى حجمـي الكامـل قبـل انبـلاج الصبـح.

«بسسـت!» سـمعتُ أحدهـم يهمـس. لم يبـدُ أن أحـدًا غـيري سـمعَ الصـوت. اسـتدرتُ نحـو البـاب. تلصَّصَـت عينـي عـبره. أبـدًا لم يرغـب أحـد في التَّحـدُّث معـي مـن قبـل، باسـتثناء أولرتـش ونيكـولاي؛ لهـذا تجاهلـت الصـوت واسـتدرتُ عائـدًا إلى وليمتـي.

«بسسست! أيُّها الراهب!» استدرتُ مجدَّدًا، وهذه المرة رأيت رأس أماليا دوفت يبرز من الباب. «تعال!».

أطعتُ الأمر، لكن بحذر، مدركًا جيدًا الآن أن وراء المفاتحات الودودة بالكلام غالبًا ما تكمن مكائد قاسية. عندما وصلتُ إلى الباب، جذبتني أماليا عبره وأغلقته وراءنا. كانت ترتدي فستانًا أبيض وحدَّقَت في وجهي بنزق.

«أنت مثير للاشمئزاز»، قالت.

فكَّرتُ، لماذا يبحث الناس عنِّي فقط من أجل إهانتي؟

لكن حينها شعرتُ بوخز عصارة الحَمل ودهن الدجاج على النصف السفلي من وجهي. نظَّفتُه برداء الجوقة. تأوَّهَت أماليا وقبضت على مِعصمي. سحبتني إلى آخر الرواق. في مُغتسَلٍ، مسحت وجهي ويدَيَّ بفوطة ناعمة وألقتها على الأرض.

«بسرعة»، قال، جاذبةً كُمِّي. «يفترض أن أكون في الفراش».

ارتفعت خشخشات وتقطيرات وثرثرات آل دوفت وخفتت فيما تقودني أماليا عبر رَدَهاتٍ لم يكن لي أبدًا أن أجول فيها بمفردي. سِرنا بما يقترب من الركض، فيما تتمايل هي من جانبٍ إلى آخر بعرَجِها. أدارت بصرها إليَّ.

«كثيرٌ من الناس يسقطون من الأسطح»، قالت. «سقط ماتياس فون جروب من نفس السطح الذي سقطتُ منه، لكنه هبط على كومةٍ من السِّباخ فيما هبطتُ أنا على محراثٍ. تقول كارولين إنه الرَّبُّ فعل ذلك ليبطئ سقوطي، لكنه لم يبطئ سقوطي، وعلى أيِّ حال لا يوجد ربٌّ».

جعلتني هذه الجملة الأخيرة أتراجع مصدومًا، لكنها جذبتي بشدَّة أكبر. عندما لم أقل شيئًا رغم ذلك، هزَّت رأسها. «لماذا لا تتحدَّث؟».

لأنني لا أعرف ماذا أقول، كنتُ سأقول، لو واتتني الشجاعة.

هـزَّت كتفيهـا بـلا مبـالاة وتابعـت الحديـث. «هـذا يناسـبني. أمقـت الإنصـات إلى النـاس. مـاري لا تصمـت أبـدًا. حاولـتُ سـدَّ أذنيَّ بالشـمع، لكنهـا دائمًـا مـا تـصرخ حتَّـى أسـمعها. أنـت، بالطبـع، لا يمكنـك أن تبقـى هادئًـا، لكنـك لسـتَ مُضطـرًا لأن تتحـدَّث».

أبـدًا لم يتحـدَّث إنسـان معـي بـكل هـذه الكلـمات، باسـتثناء نيكـولاي وأولرتـش. بـدا كل هـذا مثـيرًا للشـكوك. لـن أجـد طريـق العـودة أبـدًا لـو تركَتنـي، أو ربمـا يحـدث الأسـوأ وتقـودني إلى عُصبـة أصدقائهـا الأشرار. لم نكـن مررنـا بنافـذةٍ حتَّـى الآن، وازدادت الأصـوات القادمـة مـن الجُـدران خفوتًـا أكـثر وأكـثر. قـدَّرتُ أننـا دلفنـا إلى جنـاحٍ غـير مسـكون في منـزل آل دوفـت.

أبطـأَت أخـيرًا. في نهايـة ممـر طويـل كانـت هنـاك منضـدة، وخلفهـا بـاب مـزدوج مُغلـق. رجـل عجـوز يجلـس عـلى المنضـدة بعينـين نصـف مُغلقَتـين. وشـمعة وريشـة وورقـة وسـاعة فضِّيَّـة موضوعـة بنظـام عـلى المنضـدة أمامـه.

«آنسـة دوفـت»، قـال فيـما نقـترب. كتـبَ شـيئًا مـا عـلى ورقتـه. اختلسـتُ نظـرة ورأيـتُ أنـه خربـش اسـمها.

"إذا لم تخبر أبي أننا جئنا يا بيتر"، قالت، "سأجلب لك سيجارًا".

استمرَّ في الكتابة.

"سيجارَيْن؟".

هزَّ رأسه. "بيانات دقيقة".

نظـرتُ إلى الورقـة أمامـه. كان فيهـا جـدول مُنسَّـق يشـطرها إلى عموديـن.

الحدث	الوقت
سعال (جاف)	20:02 (المدة: 45)
سعال (تسليك الحلق)	20:08 (المدة: ثانيتين)
الممرِّضة بلات تدخل	2:14
نافذة تُفتَح (الممرِّضة بلات)	2:15
نافذة تُغلَق (الممرِّضة بلات)	20:18
مثانة تُفرَّغ حسب الطلب	
اللون: مصفرّ؛ الحجم: 1/6 من الطبيعي	20:20
سعال (جاف)	20:22 (المدة: 31 ثانية)
الممرِّضة بلات تغادر	20:25
زائر (الآنسة دوفت)	20:32

فيما أقرأ هذه القائمة، سمعتُ سعالًا جافًّا من خلف الباب المزدوج. نظرَ بيتر في ساعته. تأوَّهَت أماليا وأمسكت بمقبض الباب.

"لا تقاطعوني!" أصدر أمرًا وأمال أذنيه. عندما توقَّف السعال، تفحَّصَ ساعته. كتبَ: "سعال (جاف): 20:34 (المدة: 24 ثانية)".

"سندخل"، قالت أماليا. انتزَعَت قصاصتين من الحرير الأسود من كومةٍ على المنضدة.

بغتةً اختفى بيتر الخامل. بدا وأن فارسًا مغوارًا قد حلَّ محله فيما ينهض بسرعة ويقبض على ذراعي. "لا!"، قالَ في صدمة. "ليس هو!".

"لكنني أقبله"، قالت أماليا.

تطلَّع إليها بيتر في اندهاش. جذبني قريبًا منه وشممتُ رائحة أنفاسه، الغارقة في النبيذ الحامض المُنتن. "لا يمكنها قبول أحد"، همسَ لي.

خطتَ أماليا على قدمها السليمة. "سندخل"، كرَّرت.

جذبني الرجل العجوز إليه أكثر. حاولتُ أن أتملَّص، لكن قبضته كانت في غاية القوة. "لا تدخل"، همس في أذني كالفحيح.

قبَضَت أماليا على مِعصمي الآخر. "لا تنصت إليه. سيبتهج أبي".

"سيبتهج!" قال بيتر. "سيبتهج بتدميرِك لعملية التجريب؟ كيف ستستعيد السيدة دوفت صحتها يومًا ما إذن؟ أخبريني، آنسة دوفت!".

فيما الاثنان يعتصران ذراعيَّ، تطلَّعتُ إلى وجهه العابس ثم إلى وجهها الغاضب.

"اركله"، همَسَت.

وهكذا فعلتُ. ركلتُه في كاحله، فصرخَ عاويًا وأفلت مِعصمي. تواثبَ وأخذَ في دعك قدمه. أغرقني الندم، ووددتُ لو ساعدته في دعك كاحله، لكن أماليا كانت قد دفعت الباب لفتحه ودفعتني عبره.

"سأجلب السيد دوفت!" صرخ بيتر. لكن أماليا أغلقت الباب، وصرنا بمفردنا في الغرفة المظلمة.

ليس بمفردنا تمامًا: أحدهما كان معنا. كانت امرأة، سرعان ما تبيَّنتُ. كانت تسعل قبل دخولنا، والآن تلتقط أنفاسها في شهقات جشَّة وافرة، حتى بدأ الهواء في التَّسرُّب من رئتيها، وكأن جسدها مثقوب. كانت هناك شمعة هزيلة تستقرُّ على منضدة، لكن عيناي لم تستطيعا رؤية أيِّ شيء خارج هالَتِها. كانت أصوات منزل آل دوفت صامتة هنا. لم أسمع قعقعات ولا همسات الجُدران، ولا المدينة ولا رياح الليل في الخارج.

جفلتُ فيما تَربِط أماليا قصاصة من الحرير على وجهي. كانت لها رائحة الفحم.

"لا بـأس"، قالـت. "علينـا أن نرتديهـا حتَّـى لا نصـاب بالمـرض. تمـرَض عندمـا تتشـارك الأنفـاس مـع أنـاسٍ مـرضى. أمِّـي مريضـة".

إذن فتلـك المـرأة في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة هـي السـيدة دوفـت. أرعبنـي هـذا، وابتهجـتُ عندمـا أخَـذَت أماليـا يـدي في يدهـا. كانـت أنعـم مـن أيِّ يـدٍ لمَسـتُها في حيـاتي.

تكيَّفَـت عينـاي مـع الغرفـة المظلمـة. رأيـتُ فراشًـا عملاقًـا. كان مُثقـلًا بدُثُـر ووسـائد لم يكـن لي، دون أصـوات تنفُّـس، أن أتيقَّـن إن كان شـخص واحـد أو خمسـة أشـخاص يسـتلقون تحتهـا. بالشـمعة وراءنـا، ألقينـا أنـا وأماليـا بظـلٍّ هائـل عـلى الحائـط. شـددتُ عـلى يدهـا بقـوَّة.

"أمِّـي!" همسـت أماليـا. "أمِّـي، اسـتيقظي!" شرَعَـت في إرشـادي عـبر الفـراش. قاومـتُ، لكنهـا كانـت أقـوى وأكـثر تصميـمًا.

ظهـر شـقٌّ في الدُّثُـر عـلى الفـراش. انسـلَّت يـدٌ معروقـةٌ إلى الخـارج. كانـت الأصابـع نحيلـة وبيضـاء. أخَـذَت أماليـا اليـد في يدهـا بحيـث صـارت حلقـة وصـل بيننـا.

"أماليـا"، قـال همـسٌ مبحـوح. "مـاذا تفعلـين هنـا؟ الوقـت متأخـر". مـن تجويـفٍ مظلـم في الدُّثُـر، تبيَّنـتُ بريـق عينيهـا.

"أحـضرتُ لـك أحـدًا لرؤيتـه يـا أمِّـي. مُغـنٍّ". جذبتنـي أماليـا لتُقرِّبنـي خطـوةً. راقبتهـا، غـير واثـقٍ مـما يتوجَّـب فعلـه. اعتـصَرَت يـدي وأومـأت. "حسـنًا"، همَسَـت. "غـنِّ".

كنـتُ تدرَّبـتُ في جوقـة كنيسـة. نغنِّـي الموسـيقى المقدَّسـة في أماكـن مقدَّسـة. رغـم أنـه كان مـن الممكـن اسـتئجارنا لأداء صلـوات خاصـة، إلا أننـا لم نفتـح أفواهنـا قـطُّ بالغنـاء مـا لم يكـن هنـاك مذبـح قريـب بمـا يكفـي لوضـع الكتـاب المقـدس عليـه. لم أكـن موسـيقيًا ولا رجـل طِـبٍّ يعـرف أناشـيدَ تعالـج المـرضى.

لذلك لم أغنِّ.

"أرجوك"، قالت أماليا. اعتصرت يدي وضغَطَت بها على قلبها الخافق. "ليس لدينا الكثير من الوقت. أبي قادم".

بدا هذا سببًا منطقيًا للهروب، وليس سببًا للغناء. شعرتُ بغتةً بالرعب من هذه الفتاة التي تُقبِّل الثعابين وتقول إن الرَّبَّ غير موجود. حاولتُ الإفلات من قبضة يدها. أوشكتُ على التَّحرُّر -كانت تمسك إصبعي السبابة فحسب في قبضتها- عندما تحرَّكَت الدُّثُر.

رأيتُ وجه السيدة دوفت في الضوء.

ربما بدا ذلك بعيد الاحتمال، لكنني رأيتُ أمِّي. لوهلة كنت متيقِّنًا أنها هي مَن كانت تختبئ تحت تلك الأغطية، وأوشكت على الصراخ مُبتهجًا. لكنني تذكَّرتُ أن وجه أمي كان قذرًا، بينما هذا الوجه، وجه السيدة دوفت، نظيف وشاحب. جلد أمي قاسٍ، كجلدٍ مدبوغ، وجلد السيدة دوفت كالموسلين الممطوط الهشّ. شَعر أمي أشعث وفائر، وشَعر السيدة دوفت مغسول بعناية ومربوط وراء رأسها. أمِّي قوية. السيدة دوفت ضعيفة. لكن في هاتين العينَيْن الغائرتَيْن، في الشَّفة السفلى المشدودة التي ترتعش بالجَهْد، كان هناك صدى للدفء الذي لا أجده سوى في ذكرياتي عن برج الكنيسة. في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لأبذل للرَّبِّ وعدًا بإغلاق فمي للأبد فقط لو استطاعت أمِّي سماعي أغنِّي ولو لمرَّة واحدة.

وهكذا غنَّيتُ للسيدة دوفت. غنَّيتُ لحن (المجد *Gloria*) من سباعية (قُدَّاس التتويج الباباوي *Missa Papae Marcelli*) لباليسترينا، المقطوعة التي كانت أغوتني من غرفة نيكولاي قبل عامين تقريبًا من الآن. أبدًا لم أُغنِّ من قبل في حجرة صغيرة كهذه؛ الأثاث والدُّثُر والستائر غَرِقَت في اتِّساع صوتي. تماوَجَت أنفاسي مُخترقةً قناع الفحم، ومَدغدِغةً أنفي. أنصتُّ لذلك الارتداد الخافت لصوتي في هذين الجسدين. في

شكل السيدة دوفت العَظْمي لم أسمع سوى أوهى الهمسات. لكن أماليا، التي ما تزال تعتصر يدي، كانت تتمتَّع بموهبة هؤلاء الذين بمقدورهم السَّمْع دون آذان. افترقت شفتاها قليلًا. انغلقت عيناها. شدَّتْ كتفيها للوراء. مثل كأسٍ كريستالي بإصبع مبتلَّة تمسَّد على حافَّته، تصاعد الرنين الخافت فيها شيئًا فشيئًا- اهتزَّ صوتي في عضلات عنقها وأعلى ظهرها. أهكذا كانت أمِّي لتسمع صوتي؟

فيما تُوالف أماليا نفسها على غنائي، ضبطتُ درجة نغماتي عليها، وصرتُ وكأنني أمسك بعنقها بيدَيَّ الدافئتين. شعرتُ، للمرة الأولى، بذلك التوق لمعرفة صوتي فيها، كما يقع الرَّسَّام في حبِّ مَن يرسمه بسبب طاقة فرشاته ذاتها.

كُتبَ لحن (Gloria) من أجل الجوقة الكنسية، وفي غياب أصواتٍ أخرى، كرَّرتُ نفسي، وغصتُ إلى أعذب نغمات الكونترالتو، واخترعتُ انتقالات لم توجد. في اللحظات التي أصمتُ فيها، لم نسمع سوى أنفاسنا: أنفاس أماليا خفيفة ومتحرِّرة، وأنفاسي متعطِّشة للهواء، وأنفاس السيدة دوفت تنبعث في ألمٍ.

لم أتوقَّف إلا عندما سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب.

(13)

"لا أحـد يتحـرك!" صـاح ڤيليبالـد دوفـت فيـما يهـرع داخـلًا الغرفـة، وهـو يربـط باهتيـاج واحـدًا مـن أقنعـة الفحـم حـول رأسـه. توقَّـفَ، بـدا خائـب الأمـل بعـض الـشيء عندمـا اكتشـفَ أن المُعتـدي عـلى منزلـه لا يزيـد طولـه عـن أربـع أقـدام. قرَصَـت أماليـا مِرفقـي، وشـاكرًا انسـللت وراءهـا. تحـوَّلَ وجـه دوفـت بالتدريـج مـن البنفسـجي إلى الأحمـر، وعـبَّ الهـواء في شـهقاتٍ عـبر القنـاع. تطلَّـع بغضـب إليَّ واقفًـا وراء ابنتـه، ثـم خطـا إلى جانـب زوجتـه، بحـذرٍ شـديد، لحـدٍّ أنـك تظـنُّ أنـه يخـشى إيـذاء الهـواء مـن حولهـا.

لامسَ خدَّها بظَهْر يده. "هل أنتِ على ما يرام يا عزيزتي؟".

"أنا بخير، ڤيليبالد".

بعـد أن اطـمأنَّ عليهـا، اسـتدار ناحيتـي. ضيَّـقَ عينيـه. "هـل تـدرك مـاذا فعلـت؟".

هززتُ رأسي. تمنَّيتُ ألَّا يضربني.

"لقد تدخَّلت في طريق العِلم"، قال. وتطلَّعتُ حولي في الغرفة، محاولًا إيجاد هذا (العِلم) رابضًا في الظلال.

كان هناك مزيدٌ من وقع الخطوات تفرك الأرض قادمةً عبر الردهة. راقَبْنا بيتر المتكاسل يدلف عبر الباب بصعوبة، وجهه لا يقلُّ حُمرةً عن وجه دوفت.

"توقَّف!" صاح دوفت.

توقَّف بيتر قبل عبور عتبة الباب، متفاديًا بالكاد التداخل مع طريق (العِلم) هو أيضًا.

"أبي"، قالت أماليا، "لم نفعل أيَّ شيء...".

"لم تفعلا أيَّ شيء؟" هتفَ دوفت. ثم ألقى بنظرةٍ سريعةٍ على زوجته وأخفض صوته. "ليس بمقدوركِ ألَّا تفعلي أيَّ شيء! في اللحظة الذي تأخذين فيها أنفاسك هنا فإنك تفعلين شيئًا ما! شيئًا غير معروف. لا سبيل إلى معرفته ربما!" لوَّحَ بيديه، ثم تجمَّدَ وصالب بينهما بخنوعٍ على صدره، وكأنه فَزِع بغتةً من العواقب الغامضة لتلويحته.

تطلَّعت أماليا بكبرياء إلى ما وراء أبيها. حتى من وراء القناع، كان بمقدوري رؤية بروز شفتها السفلى وقد تغضَّنت للخارج في عبوسٍ حَرون.

"أماليا، أنصتي إليَّ"، قال دوفت بوهن. تناولَ يد زوجته. ما زالت ابنته ترفض تحديقته. ومَضَت الشمعة في عينيه، ورأيت باندهاش أنهما تمتلآن بالدموع. "أحاول أن أفهم هذا يا أماليا".

"ڤيليبالد"، قال صوتٌ باعث على الاطمئنان، "إنها تحاول فحسب...".

"سيدي"، صاح بيتر من الردهة، "ماذا بشأن البيانات؟".

تطلّع ڤيليبالد إلى الباب. أومأ. "حسنًا، بيتر"، قال من فوق الرأس. "البيانات لها الأولوية حتمًا".

"الصبي كان يغنّي"، قالت السيدة دوفت. انفجرت في نوبة سعال. نظرَ دوفت إليها في رعب.

ورائي، سمعتُ بيتر يغمغم، "... ثمانية... تسعة... عشرة"، ثم خربشة ريشة كتابة على رقّ عندما توقّفَت عن السعال.

"غناء!" قال ڤيليبالد منقطع الأنفاس، بعد أن سُجّلَت نوبة السعال بأمان. تطلّع إليّ. كنت أعرف من فيدر والصبيان أن الغناء قد يكون شيئًا رقيعًا أو مُخزيًا حتّى. لكن للمرة الأولى في حياتي، خطرَ لي أن الغناء، كالحديث، قد يكون خطيرًا. "أبدًا لم نعرف الغناء. ماذا لو أفزعتَ قلبها؟" نظرَ دوفت إليّ بغضب.

"لم يفزعني"، قال السيدة دوفت بأعلى ما تستطيع. "كان غناؤه بديعًا".

أردتُ أن أتسلّق الفراش وأدعها تحتويني في ذراعيها.

«أكتب الآن 'إزعاج (غناء: صدمة قلبية محتملة)'»، جاء التقرير من الردهة.

أطلقت أماليا زفيرًا بصوتٍ عالٍ عبر أنفها.

«هل تكرّم أحدكم وأغلق الباب؟» قالت السيدة دوفت.

تكرّمَت أماليا بسرعة. وددتُ لو أتبعها؛ ذلك أنها تركتني مكشوفًا. لكن ڤيليبالد لم يهاجمني؛ خطا إلى زوجته. «عزيزتي، علينا أن نستبعد الحوادث العارضة. وحينها نستطيع أن نجد السبب، ومن ثمّ العلاج».

«قلتَ ذلك من قبل»، قالت بضجر. «مرّات كثيرة جدًّا».

«لكن شيئًا ما يربكنا دائمًا»، قال. «فور أن نكون مستعدِّين لبدء التحليل الحقيقي».

«ربما هذا مصيري. ربما لا يفترض لي أن أشفى».

«لكن العِلم، يا عزيزتي».

"ربما". قالتها بيأسٍ شديد، لحدٍّ أن كلمةً واحدة مَحتْ كل أملٍ من وجه دوفت. هزَّ رأسه، لكنني لم أكن متأكدًا إن كان يعني بذلك مناقضتها أو مغالبة دموعه. تعجَّبتُ أنه الآن في غاية التداعي، بينما قبل ساعات، كان غنائي قد أثَّرَ على الكنيسة بأكملها ولم يمسَّه بأيِّ شكل. تلكَّأت أماليا بالقرب من الباب وحدَّقت في الأرض.

مسحَ دوفت عينيه بظهر يده، وحاول أن يتكلَّم. "هذه المرة"، قال، "سأتأكَّد ألَّا يزعج عزلتكِ أحدٌ".

"لا مزيد من العزلة!" هذه المرة، كان صوت المرأة السقيمة أقوى عشر مرَّات من صوت زوجها. حتَّى أماليا رفعت بصرها في اندهاش، لكن حينها بدأت نوبة جديدة من السعال. أحنَيْنا رؤوسنا في صمتٍ تبجيلي حتَّى توقَّفَ السعال. في اللحظة التي استعادت فيها السيدة دوفت أنفاسها مجدَّدًا، تحدَّثت. "عندما سمعتُ هذا الصبي يغني، تذكَّرتُ أن هذا العالَم كان جميلًا ذات يوم".

أوشكتُ على أن أبدأ في الغناء مُجدَّدًا على الفور.

"سيكون جميلًا ثانيةً يا عزيزي، عندما تُشفَيْن".

هزَّت رأسها.

تحرَّكت أماليا بغتةً من سكونها. عَرَجَت نحو الفراش وأمسكت بيدي. "لكن ربما يشفيها هذا!" قالت.

بدا دوفت مرتبكًا. "ما الذي سيشفيها؟".

"هو، بغنائه". هزَّت ذِراعي المرتخي.

اشـتعلَ الأمـل، ذلـك الوحـش ذو الألـف حيـاة، في عينَـيْ دوفـت. تطلَّـع إليَّ بفضـولٍ جديـد. "فكـرة شـائقة. لم أفكِّـر في التجريـب باسـتخدام الصـوت. سـيكون هـذا مسـار أبحاثنـا القـادم إذن. لكـن ينبغـي أن نبـدأ ببسـاطة أكـبر. غـدًا سـنقرع جرسًـا إيقاعيًّـا واحـدًا".

"لا أريد أن أسمع أجراسًا يا ڤيليبالد".

"لا يتعلَّق الأمر بما تريدينه يا عزيزي، بل بالخواص الصوتية".

"ڤيليبالد". كان صوتها مُرهقًا.

خطـا دوفـت جيئـةً وذهابًـا بخطـوات منتظمـة قصـيرة. "إنهـا مجـرَّد بدايـة"، قـال. "لجمـع البيانـات فحسـب. ثـم سـنضيف جرسًـا ثانيًـا، ونجـرِّب بحـدَّة الصـوت ودرجتـه، وهكـذا".

أسـقطت أماليـا يـدي. نخـرت بخفـوت، ثـم في يـأس، أغلقـت عينيهـا وغطـت أذنيهـا بيديهـا.

"هـل يفـترض أن أضيـع حيـاتي مـع الأجـراس في حـين يمكـن لصبـيٍّ الغنـاء بهـذا الشـكل؟"، كان صـوت السـيدة دوفـت قويًّـا مُجـدَّدًا، لحـدِّ أنـه أوقـفَ خطـوات دوفـت. "دعـه يـأتي ويُغنِّـي لي. أجـرِ كل التجـارب التـي تريدهـا، لكنـه دعـه يُغنِّـي".

تجهَّـمَ دوفـت. "لكـن..."، تفكَّـرَ في كلماتهـا لوهلـة، ثـم هـزَّ رأسـه. "يسـتحيل احتـواء الصبـي يـا عزيـزتي. الجـرس جـرس؛ شيءٌ ثابـت. الصبيـان تتبـدَّل؛ ولهـذا فصوتـه لـن يكـون نفسـه بـين كل لحظـة وأخـرى. يقـول ڤولتـير...".

"أريد أن أسمع الموسيقى يا ڤيليبالد".

شرعَ دوفت في الخطو المنتظم مُجددًا، ببطء أكثر من ذي قبل، وكأنه يخشى أن يُسقطه اهتزازٌ مفاجئٌ للمنزل. "ربما بمقدور بيتر تعلُّم العزف على البوق". تطلَّع ناحية الباب المُغلق.

"أنا أحتضر يا ڤيليبالد!".

جفلتُ عند الكلمة. كانت أسوأ كلمة في العالَم. تجمَّدَ دوفت. أدار وجهه ببطء إلى زوجته. تناولت أماليا يدي، اعتصَرَتها، وبشكل ما أدركتُ أنها تريدني أن أعتصر يدها بدوري. فعلتُ.

"أرجوك دعه يأتي"، قالت السيدة دوفت. "سيجعلني هذا سعيدة".

رفع ڤيليبالد قناعه ومسح أنفه بظهر يده. "ربما... وقت منظَّم... مُدَد معيَّنة".

"إنه صبي هادئ جدًّا. أهدأ من بيتر بكثير".

"سيكون علينا البدء ببطء".

"بالطبع".

"في حالة حدوث آثار سلبية".

"وسأكون أنا النَّسَّاخة"، قالت أماليا، وبدأ الضوء في هاتين العينين الزرقاوين في التوهُّج مُجددًا. "يمكنني فعل ذلك أفضل من بيتر".

تطلَّعَ ڤيليبالد إلى ابنته. "أنتِ؟".

أومَأت أماليا. تطلَّعت إليّ، لكن ليس بحميمية- كان تحدِّيًا، وكأنها تقول، أترى ما فعلتَه أنت وصوتك؟ هل أنت مستعد؟

تطلَّعتُ من حولي ورأيت أن الجميع الآن يحدِّق إليَّ. كيف حدث هذا؟ بالطبع كنت أرغب في الغناء لهذه المرأة السقيمة، العطوف. ومع ذلك فهناك هذا الرجل القاسي والمرتعش، هذه المنزل الفخيم،

هـذه الفتـاة التـي أفقدتنـي إحسـاسي عندمـا أمسَـكَت بيـدي... لا، لا أنتمـي إلى هنـا.

"سوٌ الأمر إذن"، قال دوفت. "سأرى رئيس الدير غدًا".

قبَّل جبين زوجته عبر القناع. ثم دفعني وأماليا نحو الباب.

"انتظر"، قالت السيدة دوفت. استدرنا.

"مـا اسـمك؟" قالـت لي. كانـت أمـي لتملـك هـذا الصـوت الرقيـق أيضًـا لـو كانـت تتكلَّـم.

"لا يستطيع التَّكلُّم"، قالت أماليا.

لكـن كان بمقـدوري التَّكلُّـم. "مـوسى"، قلـتُ، بصـوتٍ كالفـأر. اتَّسَـعَت عينـا أماليـا. "ليلـة طيبـة، سـيدة دوفـت".

(14)

"موسى"، كان كل ما قاله رئيس الدير عندما ظهر عند باب غرفة التدريبات أواخر الصباح التالي. بصقَ اسمي وكأنه شيءٌ كريه ملتصق بلسانه، وظلَّ الاشمئزاز على وجهه حتَّى بعدما لفظه. استدارَ أولرتش والصبيان إليَّ. أعتقد أنني حتَّى لمحتُ نظرة شفقة على وجوههم. تهادت قدماي بصمت عبر الأرضية وانسللتُ عبر الباب دون أن أدير ظهري إلى رئيس الدير.

كنتُ على يقين أنهم أخبروه بغنائي في غرفة نوم السيدة دوفت. أغلقَ الباب وتطلَّع إليَّ مُنحنيًا لأسفل. اختلجت أنفه.

"الموسيقى"، قالَ، ومع كل جملة كانت عيناه الباردتان تقتربان أكثر من وجهي، "ليست عَقَارًا شافيًا. ليست شراب طبيب. أُشيِّد كنيسة وليس مستشفى! ذلك الرجل أحمق".

انتفضَ مُعتدلًا واستدارَ للنظر عبر نافذةٍ إلى الجُدران البيضاء البِكر لكنيسته. أجفله بريقها.

رفع إصبعًا ووضعها في وجهي. "لو لم يكن هناك سوى قلَّة قليلة من الحجَّارين الملاعين في هذه المدينة، كان المسألة لتنتهي تمامًا. لكنه يقول إنهم بحوزته- نصف دزينة بمقدوره إقراضهم لي. لماذا يساوي صوتك الكثير جدًّا له؟".

اضيقَّت عيناه فيما يطرح هذا السؤال، وشعرتُ أنه يحاول قراءة الإجابة في التقاطيع الناعمة لوجهي.

مرَّ بنا راهبٌ مُبتدئ في الرواق. انحنى لرئيس الدير وحاول أن يمضي في طريقه، لكن الرئيس رفع يدًا أمامه. "اجلب لي الراهب نيكولاي"، قال. وانطلق الراهب المُبتدئ مُسرعًا. عادت تحديقة رئيس الدير المُستنكِرة إليَّ، وظلَّت عِندي حتى سمعنا وقع خطوات نيكولاي المُتثاقِلة تُسرع عبر الرواق.

"أبتاه رئيس الدير"، قال، بتعبيرٍ جَزِع. انحنى مع خطوته الأخيرة. "هل توجد مشكلة؟".

رفعَ رئيس الدير جبينه الطويل لنيكولاي، وكأنه يقول، بوجود أمثالك في هذا الدير، هل تحتاج إلى السؤال حتَّى؟

لكنه بدلًا من ذلك قال، ببطء شديد، وكأنه يُصدر أمرًا لخادم فلاح: "مساء كل خميس سيُغنِّي هذا الصبي صلوات المساء في منزل آل دوفت. تأكَّد من نظافته وارتدائه ما يليق بتمثيل الدير لدى أرقى عائلة في هذه المدينة".

"بالطبع"، قال نيكولاي. ابتسم إليَّ وشعَّث شعري. "في منزل آل دوفت! يا له من شرف!". ابتسمتُ له بخفوت. "أبتاه رئيس الدير"، وضع نيكولاي يدًا على ذراع رئيس الدير، "سآخذه إلى هناك بنفسي".

تراجعَ رئيس الدير وكأن نيكولاي قد أحرقه. "لن تفعل!".

"ليس بعيدًا، مجرَّد..." لوَّحَ نيكولاي بيده وكأنها سمكة تسمح في اتِّجاه النافذة. هزَّ كتفيه استهانةً. "بمقدوري إيجاده".

كانت تحديقة رئيس الدير قاسية. أشار بإصبع نحو الإنشاءات في الميدان. "أنا على استعداد لمنح هذه الكنيسة إلى الإصلاحيِّين (البروتستانت) في أقرب فرصة، على أن أجعلك تسير مُستعرضًا نفسك في هذه المدينة في المساء. وكأنك تجلس في بهوهم!" ارتجف رئيس الدير.

كان من الواضح أن نيكولاي أصيب بخيبة أمل كبيرة، لكنه وضع يدًا على كتفي. "إذن فسأرسم خريطةً لموسى".

تطلَّع رئيس الدير إليَّ مجدَّدًا. "لا، أنت على حق. إنه في حاجة إلى مُرافق". أخذَ في لعقِ شفتيه وكأنه تناول قرصًا سكريًّا حامضًا. أومأ. "الأخ دومينيكوس سيأخذه".

* * *

في تلك الليلة أبلغَ نيكولاي ريموس بالأخبار فيما نحن جالسون في صومعة نيكولاي.

«سأفعل ماذا؟» أمسك العابس بنصفَيْ كتابه المفتوح وكأنه يريد تمزيقه. خطا نيكولاي جيئةً وذهابًا أمامه. جلستُ أنا على الفراش.

«اصحبه حتَّى يجتاز بأمانٍ أخطارَ العالم»، قال نيكولاي، فيما يداه تُفرِّقان كَرْمات غابةٍ وهمية. أشارَ. «إلى منزل آل دوفت».

«لماذا أنا؟».

«أنت الوحيد الذي يتمتَّع بالشجاعة».

«ماذا يظنني شتاوداخ؟ بغل؟».

غمزَ نيكولاي لي. «لا أتصوَّر أنه يُقدِّرك عاليًا هكذا».

«لن أفعل هذا. لديَّ أشياء أخرى لأفعلها». تراجع ريموس في مقعده. ضغطَ بكتابه على صدره.

بدا نيكولاي مُتشكِّكًا. "أشياء أخرى؟" أجابَ ريموس تحديقته بالصمت. "أوه، ريموس، افعلها من أجل موسى".

"من أجل موسى؟" قال ريموس باستهزاء. "ماذا سيستفيد موسى من هذا؟".

تطلَّع كلانا إلى نيكولاي. رغم أنني كنتُ أتوق للعودة إلى ذلك المنزل الغامض، الباذخ، إلَّا أنني كنت مرعوبًا. أنا أيضًا كنت أودُّ لو أعرف لماذا ينبغي أن أذهب. لوَّح نيكولاي بيده في اتِّجاه النافذة. "سيرى العالَم".

"العالم الواقع بين هنا ومنزل آل دوفت؟".

وقفَ نيكولاي أمام النافذة ونظرَ من خلالها وكأنه يتفحَّص في الطريق المؤدي إلى المنزل. هزَّ كتفيه استهانةً. "جزءٌ منه، نعم".

"جزء صغير جدًّا".

أجالَ نيكولاي يده في الهواء، مُبدِّدًا ضباب ارتباك ريموس. "ريموس، لا بُدَّ أن يبدأ من مكانٍ ما. لا تريده أن يَكبُر ليصبح راهبًا مثلك بالتأكيد؟".

كان نيكولاي أقربَ مَن لعبَ دور الأب في حياتي طوال هذه السنين، وفاجأتني كلماته. كانت المرَّة الأولى التي أفكِّر فيها في أيِّ مستقبل بخلاف الحياة في الدير كراهب. مثل ريموس. مثل نيكولاي.

تطلَّع ريموس إليَّ بتجهُّم. "ولماذا أهتمُّ بما قد يصير إليه؟" لكنه عندما قالها، نظرَ إلى الأرض في خجلٍ مُقنَّع بشكل بائس، ورأينا جميعًا أنه، أيضًا، كان مُتورِّطًا في حياتي.

ابتسمَ نيكولاي. "موسى"، قال، "ألا ترى؟ ريموس خائف".

تنشَّقَ ريموس.

"ترى، هناك نساء في ذلك المنزل". غمزَ نيكولاي. "لا تقلق، سأتحدَّث معه. هذا خوفٌ لا بُدَّ له أن يتجاوزه".

* * *

وبالفعل، في الثلاثاء التالي، بعد أن أحضرني نيكولاي من التدريبات وغَسلَ وجهي ومشَّطَ شعري، وقف ريموس هناك، مرتديًا قُبّعة وعباءة، ويحمل حقيبةً ممتلئة بالكتب وكأننا سنسافر لأيامٍ طويلة، وكأن نفاد الكتب يعادل نفاد الهواء. في اليوم الأول، أمسكَ بخريطةٍ في يده، وعند كل ناصية شارع كان يديرها مرارًا وتكرارًا وكأنه يحاول فكَّ شفرتها. "هذه الشوارع اللعينة"، يغمغم. "يبدو أنها تمضي في دوائر. لماذا لا يجعلونها تبدو كما هي على الخريطة؟ كنتُ أتبعه بخطوةٍ وراءه وأُنصت بانتباه. في الأسابيع التالية، عقدنا ميثاقًا. يمسك بكتابٍ أمام عينيه ويسير. عندما أسمع سكّين الجزّار، أدفعه إلى اليمين؛ وإلى اليسار عندما أسمع مطرقة الحدّاد. عندما أسمع الباعة يصيحون في السوق، أقوده إلى التلِّ المنبسط.

دلفنا إلى منزل آل دوفت من نفس الدهليز الذي ضلَّلني في المرَّة الأولى. تخيّل منزلًا تُقشَّر حوائطه ويُعادُ طلاؤها كل يوم، تُعلَّق لوحاته وتُنزَع مرارًا وتكرارًا، تضاف أو تزال سلالمه وأبوابه حسب المزاج. هكذا كان الحال معي في هذه المنازل ذي الأصوات المُتبدِّلة دومًا. من بقعةٍ في الجدار حيث أسمع يومًا يدًا تضرب منضدة، أسمع في الأسبوع التالي قعقعة قدور، ومن بقعة أخرى حيث أسمع يومًا الهمس الخافت لخادمة، أسمع في الأسبوع التالي الصوت الأجش لكارولين دوفت.

في كل أسبوع كنتُ أقاد إلى البهو، حيث كانت أماليا تجلس دائمًا على مكتبٍ بجوار أبيها؛ ذلك أن زيارتي كانت تتزامن دائمًا مع دروسها في الفلسفة، المادة الوحيدة التي لم يَعهَد بها أبوها إلى الممرِّضة الفرنسية البضَّة ماري. يا له من ارتياحٍ ذلك الذي كان يجتاح وجه صديقتي الشابة عندما أظهر! في ثوانٍ، تتلاشى الفلسفة ويحمرُّ هذان الخدَّان. تنهض عن عملها وتُحيِّي راموس، الذي يمدُّ كتبه إليها كدرعٍ واقٍ. يأخذ مقعدًا بعيدًا عنِ كارولين قدر الإمكان. ثم تومئ أماليا إليّ، كمُضيِّفة وقورة حقيقية، وتقودني عبر رواق. فور أن نبتعد عن مجال سمع أبيها وكارولين، تتناول يدي وتُبطئ من خطوتها حتَّى تطيل المسافة إلى غرفة أمِّها؛ ذلك أنها تكون المرَّة الوحيدة طوال الأسبوع بأكمله التي يكون كلانا بمفرده، مع شابٍّ آخر من عمره له أن يدعوه صديقًا. كانت تتولَّى معظم الحديث، مُقلِّدةً تقريعات كارولين القاسية، "هذا لا يحدث، أماليا دوفت، في هذا المنزل"، أو حاكيةً لي كيف ستهرب- إلى سفينة قراصنة أو قبيلة من الإسكيمو، أو تتخفَّى كصبيٍ وتدرس الفلسفة في جامعة (*collège*) في باريس. أحيانًا ما كانت تُوقفني في طريقنا؛ ذلك أنه حتَّى خطواتنا المتباطئة كانت سريعة جدًّا على عقلها المُتفجِّر. ذات أسبوع، أرَتْني جمجمةً قالت إنها لإنسان (لكنها بدت كجمجمةٍ لواحد من الخنازير التي يحتفظ بها أبوها). في الأسبوع التالي عرَضَت عليَّ لوحةً رسَمَتها لملكٍ أفريقي. في زيارةٍ أخرى، ترجَمَت مشهدًا داميًا من ملحمة إغريقية كان أبوها قد قرأها عليها بالفرنسية.

شيئًا فشيئًا بدأتُ في إدراك أن السقطة التي شوَّهت جسدها قلَّصت من حريتها أيضًا. مثلًا، ذات أمسية دافئة، بعد أن انتهيتُ من الغناء، أشارت أماليا بخجلٍ على أبيها أنها تودُّ رؤية تَقدُّم العمل في الكنيسة: ستمشي مع ريموس ومعي إلى الدير وتعود قبل الظلام. "أعرف الطريق"، قالت.

كان أبوهـا منغمسًـا في الأعـمال وغمغـمَ فحسـب، "حسـنًا عزيـزتي، هـذا جميـل".

لكـن كارولـين لم تتجاهـل الأمـر. أمسـكت بنـا عنـد البـاب. "أماليـا!" هتفـت. "مـاذا تظنِّـين؟".

أخبرتها أماليا أنها ترغب في رؤية الكنيسة.

"الأحـد"، قالـت كارولـين، متناولـةً يـد أماليـا ومُعيـدةً إيَّاهـا إلى داخـل المنـزل. "الأحـد بمقـدورك الذهـاب معـي".

"لكننـي لا أريـد الذهـاب معـكِ!" أجابتهـا أماليـا بسرعـة، وانتزَعَـت يدهـا.

"أماليـا"، عاتَبَتهـا كارولـين هامسـةً، "هـل نسـيتِ مـاذا حـدثَ لـكِ في آخـر مـرَّة خرجـتِ فيهـا بمفـردك؟" نظَـرَت إلى ركبـة أماليـا وكأن الإصابـة تتوهَّـج عـبر نسـيج فسـتانها. "هـل تريديـن ندبـةً أخـرى؟".

استدارت أماليا وقد احمرَّ وجهها بهوانٍ غاضب.

قـادت كارولـين ابنـةَ شـقيقها بعيـدًا. "غـدًا"، قالـت فيـما تختفيـان في غرفـةٍ أخـرى، "سـتأخذكِ مـاري في العربـة. لا تريديـن أن يحـدِّق الجميـع في عَرجِـك، أليـس كذلـك؟".

* * *

في لقائنـا الثـاني، قادتنـي أماليـا عـبر الأروقـة وهـي صامتـة، مُتجهِّمـة الوجـه. تزمجـر بـشيءٍ مـا فيـما تطلـق أنفاسـها. تَبعتُهـا بعصبيـة وهـي تعـرج أمامـي- حتَّـى توقَّفَـت بغتـةً في ممـرٍّ هـادئ. "لـن أمـضي خطـوةً واحـدة أخـرى"، قالـت بسرعـة، "حتَّـى تقـول لي سـت كلـمات عـلى الأقـل".

لا بُـدَّ أننـي بـدوتُ مرتبـكًا. نغزَتنـي في صـدري وتحدَّثَـت ببـطء وكأنني طفـل صغـير. "وهـذا يعنـي كلمـة واحـدة أكـثر مـمَّا تحدَّثـتَ إلى أمِّي".

حاولتُ أن أتحدَّث حينها، حاولتُ حقًّا -سمعتُ في مُناشدتِها نفس الوحدة التي كانت تسيطر على وجودي- لكنني لم أستطع. استغلق عليَّ الكلام. حدَّقتُ بخواء في الجدار خلفها، وكأن السِّرَّ المقدَّس لخلق الصداقة كان مكتوبًا هناك، لكنه مُسجَّل بلغةٍ أجنبية. انتظَرَتْ بالكاد ثلاثين ثانية قبل أن تُغمغم، "الصبيان أغبياء جدًّا"، وجذبتني قُدمًا.

في زيارتي الثالثة أو الرابعة، أدركتُ أن السِّرَّ لا يكمن بالضرورة في الكلام لكن في الصمت. صرتُ أبتسم للقصص التي تختلقها، وأضحك عندما تُقلِّد عمَّتها ساخرة. كانت تُمسك بيدي دائمًا، وكثيرًا ما تدفعني إلى الجدار فيما نمشي، وبالتالي أضطر للالتصاق بها. سرعان ما وجدنا في دفء يدَيْ بعضنا البعض، في احتكاك أكتافنا، بل وحتَّى في العِناقات العابرة- بعض الإشباع لحاجة الطفل للمسةٍ، وهو ما كان يفتقده كلانا: أنا لأنني يتيم، وهي، بأمِّها المريضة، وأبيها الذي لا يستطيع العناق دون تحليل حبِّه بالأوزان والقياسات.

عندما نصل أخيرًا إلى باب أمِّها، كان بيتر دائمًا ما يقدِّم لأماليا قناعَين من الفحم، وورقة فارغة، وريشة كتابة، ومحبرة، ويطلب منَّا التَّمعُّن في بيانات اليوم الثمينة. كان سلوكه تجاهي قد تغيَّر بالكامل منذُ بدأت العمل حسب العِلم، وليس ضدَّه. "تضرَّرتَ من المَطر؟" كان يسأل، ثم يتفحَّص خدَّيَّ وكأنه يلاحظ تورُّمًا. "لم تتناول أي بطاطس، أليس كذلك؟"، كان يقول عن النبتة العجيبة. "تصيبك بالجُذام، آمل أن تدرك ذلك". ثم يصرُّ على أن أصعد على ميزان، ويسجِّل وزني في دفاتره. في النهاية، دائمًا ما يتمعَّن في حلقي قبل إبداء الإيماء الأخيرة أن بمقدورنا المُضيَّ عبر الباب.

في الداخل، بمصباح السقف مُضاءً، وشموع كثيرة موضوعة في أرجاء الغرفة، كان بمقدوري رؤية أن وجه السيدة دوفت كان جميلًا ذات يومٍ كوجه أمِّي، قبل أن يتراخى الجلد على العظم وتغور العينان.

كانت ابتسامتها ما تزال دافئة رغم ذلك، وصوتها، باستثناء نوبات السعال الشديدة، كان يُهدِّئني تمامًا لحدِّ أن غرفتها صارت المكان الوحيد في العالم، بعد برج الكنيسة وصومعة نيكولاي، الذي أشعر فيه بالأمان حقًّا.

تضع أماليا الريشة والورقة على منضدة (تختلق البيانات لاحقًا) وتجلس بجوار أمِّها. أحيانًا ما كانت تميل على الفراش برأسها على حِجر أمِّها بحيث تستطيع السيدة دوفت تمسيد شعرها. لوهلةٍ، على الأقل، تكونان كما أتخيَّل دائمًا لأمٍّ وطفلها أن يكونا، وليستا حياتين وحيدتَيْن دمَّرهما المرض وباعدَ بينهم العِلم.

في غرفة النوم تلك غنَّيتُ بعضًا من أسوأ أداءات حياتي وبعضًا من أفضلها. ذلك أن الموسيقى التي نُغنِّيها في الكنائس، رغم جمالها في كثيرٍ من الأحيان، لم تُكتب لسوبرانو في العاشرة من عمره يغنِّي منفردًا في غرفة نوم. لأن أولرتش لم يكن مُهتمًّا بمساعدتي على التحضير لهذه الحفلات الخاصة التي لن يسمعها بنفسه، كنتُ أنشدُ أغنياتي مُتسلِّحًا فحسب بالموهبة الساذجة التي كانت أمِّي تطوِّح بها مطارقها. كثيرًا ما تعثَّرتُ، مُدركًا بالغريزة فحسب كيف أبدِّل المقام أو أنتقل من نشيدٍ جريجوريٍّ هادئ إلى مقطوعة مُبهرجة لڤيڤالدي. يا له من فسوق ذلك التي ارتكبته في غرفة النوم تلك! كنتُ أمزِّق الابتهالات ثم أعيد ترميمها، أقطع المزامير إلى نصفين، أخلط اللاتينية بالألمانية، وأشوِّه اللغتين، وكل هذا خارج الكنيسة أو كنيسة المنزل، كل هذا في غرفة نوم صغيرة، معتمة.

في سنواتي اللاحقة، أدركتُ أنه في غرفة السيدة دوفت كان أن اكتسبتُ الأدوات الضرورية التي افتقدتها في تدريبي في سانت غال. ذلك أنه في نابولي المشمسة، حيث يتدرَّب الصبيان أمثالي في الكونسرڤاتوار النابوليونيِّ العظيم، حيث يتعلَّمون إنشاد ألحان الآريا

في سان كارلو أو تياترو دوكال، فإنهم لا يتعلّمون فقط إتقان التنفُّس ووضعية الوقوف والنَّغَم -كان أولرتش أعظم مُعلِّم بينهم جميعًا في هذه الناحية- لكن أيضًا اختراع الموهبة. بعد عشرين عامًا، في سان كارلو الصاخبة، سأستطيل بلحن آريا من ستِّ جُملٍ فقط إلى خمسة وعشرين دقيقة؛ ثم بعد عشر دقائق من التصفيق، أفعلها ثانيةً بلا تكرار. لكن في غرفة نوم السيدة دوفت، كنتُ فحسب أبدأ بالشعور كيف تُكتَب الأغاني، وكيف يمكن بالتالي محوها، وتحسينها، وإنارتها وإظلامها، وتمديدها وتخفيفها- أو قَلْبها بحيث تسخر من نفسها. باستخدام نفس النغمة، جعلتُ السيدة دوفت تبكي حينًا، وتبتسم حينًا آخر. إذا تقتُ للغناء عاليًا، بتكرارات وتسجيعات سريعة، فلا بأس. إذا كنتُ في مِزاج قاتم، أبدأ بأناشيد نيكولاي من صلوات المساء والاستطالة بها حتى تغرورق عيون السيدة دوفت وأماليا، تلك العيون التي تحلم الاثنتان وراءها بعالَمٍ مثالي.

عندما أغنِّي بهدوء كانتا تصمتان، باستثناء صفير أنفاس السيدة دوفت. ثم مع ارتفاع صوتي، أسمع أعلى نغماتي في المصباح فوق رأسي، وفور أن يبدأ ذلك الزجاج بالرنين، أُنحِّي أصوات فمي، باحثًا عن نغمة مميَّزة مختلفة بعض الشيء. كان كل شيء يعتمد على الأغنية، أو على الطقس، أو على المزاج المُتقلِّب لتلك الفتاة الصغيرة. أحيانًا ما كان صوتها ينضمُّ لصوتي كقوس كمان ينسحب برفقٍ على وتر، وحينها أجاهد لدفعه قُدمًا، ناحتًا أُغنيتي بحسب شكلها البشري. لم تكن واعية بذلك- لم تستطع سماع نفسها؛ ذلك أن صوتي كان أعلى من الرنين الخافت لجسدها. لم تشعر بالأمر سوى كدفء. كان تحتضن نفسها عندما يصدح صوتي. تتعلَّم معي، تُدرِّب كلَّ نسيجٍ -من خدَّيها المستديرَيْن وحتَّى تَقوُّس قدميها- على سماع الدرجات المختلفة لأغنيَّتي. وفي أيَّامٍ نادرة، عندما تكون السيدة دوفت في أعلى درجات وعيها، كنتُ أسمع في الأم، أيضًا، صدى بعيدًا للابنة.

(15)

كان أولرتش حانقًا بشدَّة. بالطبع، لو كان مريضًا في الفراش، فإن الدواء الوحيد الذي كان ليتمنّاه هو أن أغنّي له أغاني باخ المُهرطِقة، لكن هذا لم يمنعه من الاحتجاج في المرَّة التالية التي جاء فيها شتاوداخ لإلقاء نظرة على تدريباتنا. "أبتاه رئيس الدير"، همس أولرتش حتَّى لا يسمعه الصبيان، "إنه مهمٌّ جدًّا للجوقة. لقد اخترت المقطوعات خصِّيصًا لصوته. لا يمكنني إنجاز شيء بدونه، حتَّى ولو لظهيرة واحدة".

"هذا من أجل الكنيسة"، قال رئيس الدير. "من أجل الكنيسة". أدارَ خاتم الياقوت على إصبعه.

"أرسِلْ صبيًّا آخر إذن يا أبتاه. أيَّ صبي عداه".

"ما شأن هذا الصبي؟" قال رئيس الدير عبر أسنانٍ مُطبَقة. كوَّرَ قبضتَيْه وكأنه يريد اقتناصي بمخالبه. "آل دوفت لا يريدون صبيًّا

آخر. حاولت بالطبع إرسال رجل حقيقي. والآن تقول إنك لا تستطيع الاستغناء عنه. لماذا لا يمكنك تعليم الصبيان الآخرين الغناء مثله؟".

بفمٍ فاغر، هزَّ أولرتش رأسه، تاه منه ما ينبغي قوله. "أبتاه رئيس الدير"، غمغم أخيراً، بتوسُّلٍ كالأطفال على وجهه، "أرجو أن تعيد التفكير".

"من أجل الكنيسة"، قال رئيس الدير بحسم. "ذلك أنها ينبغي أن تسبق الآن كل أفكارنا".

* * *

وكيف لها ألّا تسبق أفكارنا؟ كانت التماثُل المُتقَن لبُرجَيْ الكنيسة يحوم مهيمنًا على ميدان الدير. في الأيام المشمسة، كان وهج الحجارة البيضاء يدفعني لحَجْب عينَيَّ. "نصف مليون غولدن"، هسَهسَ ريموس ذات ليلةٍ لنيكولاي. "هل لديك أي فكرة أيُّ مبلغ هذا؟".

"هي محاولة لهدم كنيسة عمرها ثمانمائة عام وتشييد أخرى مثالية"، أجابَ نيكولاي واحتسى رشفة نبيذ. جثمَ على مقعده وارتفع مِرفقه، لوهلة كان راقيًا كأمير. "كنت لتُنفق أكثر لو شيَّدتَها أنت. ربما يُجبر شتاوداخ هؤلاء البنَّائين على العمل مقابل أمان أرواحهم فحسب. في العادة يطلبون من الأوغاد أمثالك أن يدفعوا لهم الضعف".

"ليست مسألة كيف أفعلها"، قال ريموس. "أنت لا تنصت لما أقوله. لا أحد من الرهبان يُنصت".

"أتساءل لماذا؟" غمزَ لي نيكولاي. كتمتُ ضحكةً.

"كل غولدن جاء من جيب مُزارع أو نسَّاج"، تابعَ ريموس. "بعضهم لم يتبقَّ له شيئ ليأكل به بعد دفع ضرائبه. ماذا سيمنحهم في المقابل؟".

كان نيكولاي في حاجة للتفكير لوهلةٍ فقط. "الجَمال"، قال بإيماءة، وكأنها إجابة لا جدال فيها.

"الجَمال؟" قال ريموس. تطلّع إليّ. "الجَمال؟".

استدار كلانا إلى نيكولاي. لم أمسك قطُّ بغولدن واحد في حياتي. أردتُ أن أعرف، وريموس كذلك، كيف يمكن للجَمال أن يساوي نصف مليون غولدن.

أخذَ نيكولاي نَفَسًا عميقًا وأنزلَ عويناته. "ريموس"، قال. "موسى. لا تظنَّ أنني أحبُّ ذلك الرجل. لا أحبُّه. يثير اشمئزازي. إنه كالنبيذ الذي يُحتَسَى بعد فوات أوانه بعشرة أعوام. لكنه أصابَ في شأن هذه الكنيسة. ألم تَرَوها؟" أشارَ نيكولاي إلى خارج النافذة، حيث حتّى في ضوء القمر الكابي كانت الكنيسة البيضاء تسطع وكأن شموعًا تحترق داخل أحجارها. "ما يُنجزه هو عمل الرب، ورغم أن شتاوداخ قد يكون أحمق في تعامله مع أقرانه من بني البشر، إلّا أنه يفهم الرَّبَّ كما ينبغي". كان وجه نيكولاي منبسطًا ومبتهجًا وكأنه لمح ملاكًا يحوم فوق على الكنيسة. "الرَّبُّ جميل. إنه مثالي. ويُلهمنا أن نكون جميلين ومثاليِّين بدورنا. لسنا كذلك بالطبع؛ ولهذا بالضبط نحتاج إلى الجمال في حياتنا: لتذكيرنا كم نستطيع أن نكون أخيارًا. لهذا ننشد. لهذا يغنِّي موسى. ولهذا يشيِّد شتاوداخ كنيسة مثاليةً من أجلنا؛ ذلك أنه إذا أدركنا الجَمال المثالي، بأعيننا وآذاننا، ولو لثانية واحدة، فسنقترب بمقدار تلك الثانية من أن نكون جميلين ومثاليِّين". فيما يُنهي نيكولاي كلامه وضع يدًا على قلبه، وأبدى إيماءةً نهائية للتأكيد على موعظته. وجدتُ نفسي أجيبه بإيماءةٍ؛ ذلك أنني لم أكن أرغب في شيءٍ أكثر من أصير مثل هذه الموسيقى الجميلة التي أغنِّيها، مثل هذه الكنيسة المثالية التي ترتفع من أحجارٍ صمَّاء.

"يا له من عفن غبي"، قال ريموس. نظر إلى كلينا بتجهُّم وتناول كتابه مُجددًا. "نصف مليون غولدن".

* * *

لكن نيكولاي أصابني بالعدوى. هل ستجعلني هذه الكنيسة نقيًا؟ راقبتها تنمو بتوقٍ عُصابي، شهرًا بعد شهر: أُنجِزَ البرجان، ووُضِعَت الألواح الحمراء على السقف. اكتمل تشييدها تقريبًا حينها، وتسرَّبت أخبار الافتتاح إلى الدير كوعدٍ بمعجزة. سيأتي الآلاف ليَشهدوا الحدث العظيم، من الكونفدرالية السويسرية ومن النمسا. سيباركنا شتاوداخ بقُدّاسٍ صباحي. ثم سنخرج في مسيرة عبر أراضي الدير، قبل العودة من أجل الإكمال الرمزي للكنيسة: نقل آثار الكنيسة المُقدَّسة إلى مكانها في القبو. وبعدها، عندما يُوضع رأس أوتمار المُقدَّس، شَعْر القديس إراسموس، وأضلاع القديس هياسينثو وجُذاذات أخرى كثيرة من الشعر والعَظْم في مُستقرِّها، سيُتوَّج اليوم بأغنية المجد (أيَّتها الآلهة *Te Deum*) البديعة لشاربنتييه. كان أولرتش قد أرسلَ إلى إنسبروك في طلب أربعة مؤدِّيي صولو معروفين لغناء الأجزاء الصعبة. كان مُقررًا لي أن أُغنِّي في الجوقة.

لكن حينها قرأ شتاوداخ رسالة أولرتش إلى إنسبروك كابلمايستر واكتشفَ أن أولرتش ينوي وضع مؤدٍّ ذكر ذي صوت عالي الطبقة في السوبرانو المعتدل ومؤدي موزيكو (*musico*) في السوبرانو. اقتحم شتاوداخ غرفة التدريبات ذات مساء فيما أتدرَّب منفردًا مع أولرتش. كان قائد الجوقة يحتويني في عناقٍ، برأسه على صدري، ويداه تداعب التجاويف وراء أذني. عندما دخل شتاوداخ، فاتحًا الباب بعنف، تراجعَ، وتطوَّحتُ أنا من على مقعدي.

"لا تقصد طواشيًّا؟ ليس نصفَ رجل!" جأرَ شتاوداخ كالثور، ملوِّحًا برسالة أولرتش كأمر إعدام.

تنهَّد أولرتش، لكن من الواضح أنه كان مُستعدًّا لهذا الجدال. "نعم، أبتاه رئيس الدير. هذا هو الموزيكو. طواشي (*evirato*)". أومأ أولرتش لي وكأنه يفترض بي أن أوافقه، لكن عيناي اتَّسعتا فيما أحاول تخيُّل هذا الكائن العجيب الذي وصفه لتوِّه.

"في كنيستي؟" تلعثمَ رئيس الدير. "في افتتاحها؟".

"إنهم يغنُّون في كنيسة سيستين الصغيرة، أبتاه رئيس الدير".

كان وجه شتاوداخ قد تحوَّل إلى الأحمر الداكن. "هذه الكنيسة"، قال ببطء، "هي كنيستي وليست كنيسة سيستين، أخ أولرتش".

تطلَّع أولرتش إليَّ وكأنه يطلب رأيي في هذه المسألة. انكمشت خوفًا من نظرات رئيس الدير.

"بمقدوري الوعظ أمام نصف مذبح"، قال شتاوداخ، "ملوِّحًا بالرسالة مُجدَّدًا. "إنهاء نصف السقف. نزع نصف المقاعد في الكنيسة. لكن نصف رجل لن يغنِّي في كنيستي!".

"أصواتهم جميلة...".

"الكَمال جميل"، قال رئيس الدير. حدَّق بازدراءٍ في أولرتش المُحتجِّ، وكأن كلماته وحدها بمقدورها أن تُفني الطواشيِّين من كل كنائس العالم. تطلَّع إليَّ أخيراً بجوار مقعدي وتعمَّقَ نخيره. "اجلب رجلًا كاملًا لغناء ذلك الجزء".

"مؤدُّو الطبقة العالية لا يلائمون السوبرانو الأول في مقطوعة شاربنتييه"، قال أولرتش، محاولًا مُجدَّدًا. "الموسيقى عالية جدًّا. لا بُدَّ أن يكون المغنِّي... ملائكيًّا. ربما نفكِّر... في... امرأة ربما؟".

برزت عينا شتاوداخ. سرعان ما لوَّح أولرتش بيده مُستبعدًا هذا الاقتراح.

"إذن فلنحذف هذا الجزء".

انحبست أنفاسي في حلقي عند سماع هذه الكلمات. كان بمقدوري رؤية أولرتش يحاول إخفاء ردٍّ فعلٍ مشابِهٍ. "نحذف السوبرانو الأول؟" قال مُتلعثمًا.

"أو لنُغنّه بطبقة منخفضة".

كان أولرتش صامتًا. هزَّ رأسه.

مزَّقَ شتاوداخ رسالة أولرتش إلى جُذاذات، باصقًا كلماته مع كل تمزيقة. "لن أسمح. بدخول. طواشيٍّ إلى كنيستي!".

"أبتاه رئيس الدير، لا أرى...".

تطلَّع شتاوداخ إليَّ. "يمكنه غناء ذلك الجزء". قال تلك الكلمات وكأنها اتِّهام.

عند هذا، فقدَ أولرتش ثباته بالكامل. حدَّق إليَّ فاغرًا فاه، ثم في شتاوداخ. "الصبي؟" قال باندهاش.

"تقول إنه جيد".

"نعم. إنه عظيم. لكن...".

أومأ شتاوداخ. "حسن. إذن فقد حُسِمَ الأمر".

"لكنه غير جاهز للغناء مع محترفين"، قال أولرتش. "إنه في العاشرة من عمره".

كان شتاوداخ حاسمًا. أشارَ إليَّ مجددًا. "إمَّا هو، أخ أولرتش، أو لتُعِد كتابة ذلك الجزء ليُعزف بالبوق"، قال واندفع خارجًا.

* * *

وهكذا تحدَّدَ ظهوري الأول على مسرح: سأغني سوبرانو (*Te Deum*) لشاربنتييه في افتتاح الكنيسة. هرعتُ لإخبار نيكولاي. "شاربنتييه!" قال. رفع بصره عبر سقف صومعته وكأنه هذه الأخبار

قد منحته القدرة على النظر مباشرةً إلى السماء. "ريموس! هل تتذكّر؟ في روما!".

هزَّ ريموس كتفيه استهانةً، وقال إنه ليس متأكدًا. لكنه ابتسمَ لي، وهو ما كان نادرًا للغاية لحدٍّ أنه دغدغني بالخجل. "هذا شرف كبير يا موسى"، قال. "ينبغي أن تكون فخورًا جدًّا".

"سيكون عظيمًا"، أضاف نيكولاي وعبثَ بشعري.

حينها، للمرة الأولى في حياتي، بهذين الوجهين المُبتسمَيْن يحدِّقان إليَّ، شعرتُ بذلك الخوف الموسوس يتصاعد داخلي مع إدراكي أنه إذا كان بمقدوري أن أكون عظيمًا، فقد أكون كارثةً أيضًا. قد يكون في هذا خَلقي، أو فنائي.

كان تفكير أولرتش مشابهًا لحدٍّ كبير. لم ننشغل بشيءٍ آخر في الأشهر التالية. أستيقظ في منتصف الليل بسوبرانو الحركة السادسة منفردةً في رأسي، يملؤني القلق كيف سيملأ صوتي تلك الكنيسة المهولة. كان أولرتش يخشى من تضرُّر حلقي الرقيق بسبب الغناء بجانب رجال بالغين، وهم رجال برئاتٍ أكبر أربع أو ستّ مرات من رئتي. لكن أبدًا لم يوجد رجل مثل أولرتش يعرف جيدًا كيف يجعل الجسد يُجلجل بالصوت. في الأسابيع السابقة على ظهوري الأول، كانت يداه تخلط تشجيعها باستماتةٍ متزايدة، فيما يصل أعمق داخل جسدي ويعلِّمني كيف أغني كرجل بالغ.

من أجل الافتتاح، كان شتاوداخ على ترقُّب لثمانية عشر رئيس دير سويسري، إلى جانب أساقفة من كونستانس وبيتيرا. "وعدوني بجلب موسوعة (Encyclopédie) ديدرو"، قال ريموس، كان يتحدَّث عند وفد جنيف.

"ماوسوعة (encyclopody)؟" سأله نيكولاي، مُشوّهًا الكلمة الفرنسية. "هل هو نوع من الحشرات؟ أرجوك، لا تحضرها إلى هذه الغرفة".

وذات ليلة، نجحَ أولرتش في إرعابي أكثر. "موسى"، همسَ، وكأنه يخشى أن أحدهم يتنصَّت عند الباب. "لقد كتبتُ إلى شتوتجارت. أريدهم أن يعرفوا بك. لا يوجد مكانٌ أفضل للموسيقى من شمال جبال الألب، سيرسلون برجل، إيطالي، لا بُدَّ أنه يعرف شيئًا عن الموسيقى وإلَّا ما كان اختاروه". مدَّ يده ولامسَ خدِّي بإصبعه. توتَّرتُ بفعل اللمسة الباردة والميتة. "موسى، هل تودُّ أن تسافر يومًا إلى تلك المدينة معي؟ هل تودُّ أن تغني أمام الدوق كارل إيوچين؟" أنهى حديثه بشفتيه ليستا بعيدتَيْن عن شفتيَّ. ارتجفتُ من فكرة الذهاب معه إلى أيِّ مكان.

ثم ذات نهار ظهرَ نيكولاي عند عتبة غرفة مهجعنا فيما الصبيان يتهيَّؤون للنوم. بدا غاضبًا للغاية. "موسى، تعالَ معي"، قال بصوتٍ غليظ وجاد. "أوامر رئيس الدير. ستُحضر كل شيء لديك". لم أتحرك لبضع ثوانٍ، لكنه غمزَ لي وابتسم. "لكنني جاد بشأن إحضار كل أشيائك"، قال. "لديَّ مفاجأةٌ لك". جمعتُ حفنة ملابسي القليلة بين ذراعيَّ- لم يكن لديَّ أيُّ شيء آخر نجا من تدمير الصبيان الآخرين.

"استمتع بوقتك"، همسَ توماس بشكل لاذع فيما أغادر، وكان آخر صوتٍ سمعته كان ضحكات مكبوتة متناثرة. تَبعتُ نيكولاي صاعدًا الدَّرج، ثم مررنا بطابقه وتابعنا طريقنا إلى العلِّيَّة. فتح الباب على غرفة صغيرة جدًّا بفراش تحت نافذة مربَّعة ولا شيء آخر سوى مرآة على الحائط.

"يقـول أولرتـش إن الفنـان يحتـاج إلى الهـدوء"، قـال نيكـولاي، "وتمكَّـن مـن إقنـاع رئيـس الديـر. هـذه غرفتك! لا يُسـمح لأحـدٍ بدخولهـا إلَّا بإذنك- ولا حتَّـى أنـا". ثـم قبَّلنـي عـلى جبينـي وانـصرف. أغلـقَ البـاب.

وقفـتُ هنـاك مذهـولًا، بـصُرَّة الملابـس عـلى ذراعـيَّ. حدَّقـتُ في البـاب المُغلـق وأنصـتُّ للصمـت. بمفـردي، فكَّـرت، عـليَّ أن أعيـش بمفـردي؟ هـل هـذا مـا يعنيـه أن تكـون فنَّانًـا؟

أسـقطتُ ملابـسي عـلى الأرض وبـدا صـوت سـقوطها كقصـف رعـد. صعـدتُ إلى الفـراش وضغطـتُ بأنفـي عـلى النافـذة. التمعـت الكنيسـة الجديـدة في ضـوء القمـر المتناثـر. تطهَّـرتُ بفعـل مظهرهـا. كان مثاليًّـا، وبمقـدوري أن أكـون كذلـك أيضًـا. تخيَّلـتُ صـوتي يُجلجـل بـين جدرانهـا العاليـة. رأيـتُ نيكـولاي وريمـوس يبتسـمان. بـل ورأيـتُ الصبيـان الآخريـن يحدِّقـون إليَّ بإعجـاب. ثـم اسـتلقيتُ عـلى فـراشي. للمـرة الأولى في حيـاتي، فيـما أخطـو إلى النـوم، كانــت أنفـاسي هــي الأنفـاس الوحيـدة التــي أسـمعها.

(16)

مـا زال ذلـك الحـدث، حتّـى اليـوم، يحمـل حضـورًا شرِّيـرًا، متوعِّـدًا، في عقـلي، رغـم أنـه كان منـذ نصـف قـرنٍ. لـو أن زلازلًا كان هـدمَ كنيسـة شـتاوداخ وسـوّاها بـالأرض في اليـوم السـابق عـلى ذلـك الافتتـاح، لاختلـف كل شيء. لكننـي لا أسـتطيع خداعـك. إنهـا المثاليـة متجسِّـدةً في حجـارة. التناسـق يَحكـم هندسـتها. البُرجـان، نقيّـان وأبيضَـان، يشرفـان على أسـقف بيـوت المدينـة. البنـاء المُسـتدير المقبَّـب يقبـع في المنتصـف بالضبـط، وتحتهـا، شـبيكة بوريقـات ذهبيـة تفصـل الكنيسـة إلى نصفـين متماثلـين، تمامًـا كـما ينقسـم العالَـم: في المذبـح السـامق، الرعـاة؛ في الجانـب الآخـر، القطيـع. نوافـذ هائلـة مـن الزجـاج مُطّعمـة بالأخـضر الشـاحب، بحيـث تلتمـع الشـمس السـاطعة عبرهـا وكأنهـا تنفـذ مـن نبـعٍ جبـلي. ثمانيـة عـشر عمـودًا أبيـض تمسـك بالسـماوات عاليًـا.

في الليلـة السـابقة عـلى الافتتـاح، أزيلـت السـقالات. عُلِّقَـت السـتائر المخمليـة الحمـراء عـلى كـراسي الاعـتراف، وصُقِلَـت الأرضيـة الحجريـة

حتَّى تلألأت. فتح شتاوداخ باب غرفة المقدَّسات المؤدية إلى مهجع الرهبان، وتوافدَ الرهبان والمبتدئون ومُنشدو الجوقة كفيضانٍ أسود. وبدأتُ في إدراك أن العمارة تُصنع من الصوت كما تُصنع من الصورة. عندما ترنَّم الرهبان أمام الآباء المُقدَّسين المرسومين على السقف المقوَّس، أجابنا القديسون بترنيماتهم أيضًا. بارك صدى أقدامنا على الحجارة كل خطوة من خطواتنا. لم تصرَّ مقصورات الجوقة من خشب البلوط تحت وطأة وزن نيكولاي الهائل حتَّى. وعندما لامست مفاصل أصابعنا الشبيكة الذهبية فيما نمضي بجوار صحن الكنيسة المُخصَّص للعامة، جعلنا طنين المعدن نشعر بصلابة ذلك الحاجز الذي يفصلنا عنهم. وعندما غنَّى نيكولاي لأول مرة في السماوات البِكر، جعلتنا جلجلة صوته في الأركان البعيدة نشعر أن الرَّبَّ وكنيسته وموسيقاه كانوا حقًّا أعظم مما قد ندرك.

* * *

استيقظتُ مُتحمِّسًا للتَّغيُّرات التي ستحدث أخيرًا عندما يشدو صوتي بأجمل موسيقى في اليوم. أفضل ما هذه التغيّرات، أن صديقتي الوحيدة من نفس عمري، أماليا، ستكون هناك لسماعي أغنِّي. عندما أوشكتُ على الانتهاء من ارتداء ملابسي، وقُرِعَت أجراس الدير الجديدة مُعلنةً بدء القُدَّاس، تذكَّرتُ الإنسان الوحيد الذي لن يكون هناك لسماع اكتمالي. أحنيتُ رأسي وتساقطَت بضع قطرات دموع على الأرض من أجل أمِّي.

أنصتُّ إلى القُدَّاس من نافذتي، كان أولرتش قد أمرني بالبقاء في غرفتي وإراحة صوتي. فيما كل روح كاثوليكية على مدى فراسخ كثيرة تنضمُّ إلى المسيرة، كنتُ أخطو وحيدًا جيئةً وذهابًا عبر أروقة الدير وأختلس النظرات إلى صوامع الرهبان. سرقتُ طعامًا من المطبخ الخاوي. أخيرًا، في المساء، بعد أن سمعتُ الحشود تعود، دفآنين

بالطعام والشراب، جلستُ على فراشي وأخذتُ في مراقبة الباب. ثم سمعتُ وقع خطوات نيكولاي الخابطة تهرع صاعدةً الدَّرج. اندفع إلى الغرفة. "حان الوقت!" هتفَ. لعق أصابعه وملَّسَ شعري، وقرص خدَّيَّ، ثم رفعني وقلبني وأدارني للبحث عن أية أوساخ. ثم حملني خارجًا من الباب. توقَّفَ عند أعلى الدَّرج وتطلَّع في عينَيَّ. "موسى"، قال بصوتٍ مُخضَّب بالفرحة، "أشكر الرَّبَّ كل يوم على أنه اختارني لإنقاذك من النهر". ثم حملني إلى الكنيسة.

مع ذلك، وجدتُ، هذه المرة، أن الاتِّساع المثالي كان أقلَّ هدوءًا مما كان عليه الليلة الفائتة. كان يغصُّ بوجوهٍ جديد ويئزُّ بثرثراتٍ حماسية، وكنتُ لأُدهَس طويلًا قبل أن أتمكَّن من الغناء، لو لم يكن نيكولاي يحميني. لففتُ ذراعيَّ حول عنقه فيما يحملني من غرفة المُقدَّسات إلى حشد الأسود الرهباني. كان كل وجه تقريبًا نمرُّ به مجهولًا لي؛ ذلك أنني دائمًا ما كنتُ أحدِّقُ في الرُّكَب، والآن، متطلِّعًا من علٍ إليها فيما يحملني نيكولاي، لم أستطع تبيُّن أيٍّ من الرهبان يقيم في الدير وأيِّهم سافر أميالًا كثيرة ليكون هنا من أجل الافتتاح. اقشعرَّ عمودي الفقري من مشهد الوجوه المرتخية لثمانية عشر رئيس دير: صفٌّ من التيجان الأسقفية في المقصورات الكنسية. لا بُدَّ أنه كان هناك ما مجموعة خمسمائة راهب، وبينهم أيضًا لمحتُ أردية قساوسة كثيرين. لوهلة، تخيَّلتُ أنني سمعتُ أجراس أمِّي تدوِّي بتحذيرٍ، وبحثتُ برعبٍ عن وجه أبي. لم يكن هناك.

في جانبنا من الشبيكة الذهبية كان هناك أيضًا كثيرٌ من الضيوف لا يرتدون الزِّيَّ الكنسيَّ. بينهم كان سفير أولرتش من شتوتجارت، دكتور رابوتشي. في اليوم السابق، كان مُعلِّمي قد قادني في حفلة موسيقية خاصة للرجل. كانت يد قائد الجوقة ترتعش في يدي فيما يرشدني عبر الباب، وعندما اقترب منِّي الدكتور الشاحب، بكل شَعرَة على عنقي وقد انتصبت بفعل ابتسامته الضاوية، شعرتُ بأولرتش يُبعدني

للـوراء برفـق، وكأنـه لا يرغـب أن يلمسـني الرجـل. "عليـكَ أن تغنّـي لـه"، قـال أولرتـش، بعصبيـة، "لكـن لدقائـق وجيـزة. بخفـوت. لا تُجهـد صوتك". حـدّق أولرتـش في المقامـات الموسـيقية فيـما يُرافقنـي في الغنـاء، وفـور أن انتهيـت، قبـضَ عـلى يـدي واصطحبنـي إلى الخـارج وكأنـه يخـشى عـليَّ البقـاء لدقيقـة واحـدة أخـرى مـع هـذا الرجـل. الآن، في الكنيسـة، منحنـي رابوتـشي ابتسـامة عارفـة، وكأنـه وأنـا نتشـارك سرًّا. ثـم اختفـى في الزحـام.

بعـد أن حمَلنـي نيكـولاي بعيـدًا بمـا يكفـي إلى داخـل الجوقـة، أدركـتُ أن هـذا البحـر الُمزبِـد الُمقـدَّس، الأسـود، لم يكـن سـوى نصـف الحشـد. عـبر الشـبيكة الذهبيـة، كان النصـف الآخـر مـن صحـن الكنيسـة مغمـورًا بالبضاعـة المبهرجـة لتجّـار النسـيج في سـانت غـال، بشـكلٍ أصابنـي بالغثيـان. في أرديتهـم الورديـة والخـضراء والبنفسـجية، بـدت صفـوة أرواح سـانت غـال وكأنهـا دُمًـى محشـوة ألبَسَـتها فتيـات صغـيرة أرديتهـا، تثرثـرُ بصخَـب. انحنـى كل عنـق للـوراء وأشـارت كل إصبـع إلى اللوحـات الحيَّـة عـلى السـقف.

اسـتدرتُ وصادفـتُ وجـه أولرتـش الباهـت، الـذي منحنـي عـلى الفـور العـزاء الُمعتـاد. جلسـت الجوقـة الثلاثيـة، التـي انتقيـت مـن بـين كل صـوت مقبـول في محيـط مائـة ميـل، في نصـف دائـرة أمـام المقصـورات. حولهـا كانـت الأبـواق والوتريـات والطبلتَـيْن الهائلتـين، التـي ظننهـا في البدايـة براميـل مـن النبيـذ الُمقـدَّس. في المركـز مـن كل هـذا، كان المـؤدون الثلاثـة المنفـردون الآخـرون مسـتعدِّين في أماكنهـم. حـدَّق جيريـن جلومسـر، مـؤدي البـاص، بخـواء عـبر صحـن الكنيسـة، وكأن هـذه الكنيسـة المثاليـة كانـت مكانًـا زراه مـرَّاتٍ كثـيرة مـن قبـل. كان چوزيـف شـوك، مـؤدي التينـور صغـير الـرأس، عريـض الكتفـين، لطيفًـا معـي في التدريبـات، لكـن بـدا أنـه لا يـراني الآن؛ ذلـك أنـه كان بـدأ في التَّعـرُّق والتحديـق في يديـه المرتعشـتين.

لكـن المـؤدي المنفـرد الثالـث، السـوبرانو المعتـدل أنتونيـو بوجـاتي، ابتسـم لي بدماثـة. قبـل يومـين، بعـد أن غنَّيـتُ معـه للمـرة الأولى، هرعـتُ إلى صومعـة نيكـولاي لأخـبر صديقـي عـن المعجـزة التـي شـهدتها: رجـل يُغنِّـي بالطبقـات العاليـة لطفـل، لكـن بوضـوح وقـوَّةٍ يضاهيـان صـوت أيِّ رجـل سـمعته مـن قبـل. في المـرة الأولى التـي سـمعتُ فيهـا بوجـاتي يغنّـي، أصـاب صوتـه جسـدي بأكملـه بخَـدَر، ونسـيتُ أن أغنِّـي فقـرتي. شـعرتُ بالدمـوع في عينَـيَّ فيـما أحـكي لنيكـولاي عـن هـذا الجَـمال.

لكـن صديقـي ابتسـمَ فحسـب بتشـكُّك. "أريـد أن أرى هـذا المـؤدي ذا الصـوت عـالي الطبقـة الـذي أتى بـه أولرتـش بنفسـي"، قـال. "ربمـا يكـون رئيـس الديـر قـد خُـدع، لكننـي بمقـدوري أن أعـرف المـلاك فـور رؤيتـه". عندمـا سـألته عـمَّا يعنـي، رفـض الإيضـاح، لكنـه وعـدني بحمـلي إلى موقعـي في يـوم الافتتـاح حتّـى أسـتطيع أن أرى الرجـل عـن قُـرب.

والآن، في الكنيسـة، بعـد أن اكتملـت مَهمَّتـه، ابتسـم نيكـولاي فيـما يركـع بجـواري، متظاهـرًا بتمسـيد شـعري. "مـوسى"، همـسَ في أذني، "كنـتُ عـلى حـقٍّ. المـؤدي عـالي الطبقـة الـذي جلبـه شـتاوداخ هـو موزيكـو. يمكننـي رؤيـة ذلـك".

رفعـت بـصري إلى بوجـاتي مـؤدي السـوبرانو المعتـدل، كان وسـيمًا كأي رجـل رأيتـه مـن قبـل: رقيـق العظـام، مُرهـفٌ في حركاتـه كـما في غنائـه. تذكَّـرتُ أن شـتاوداخ قـد منـع أي موزيكـو مـن الغنـاء في كنيسـته.

"نيكولاي"، همستُ، "ما هو الموزيكو؟".

"الموزيكـو رجـلٌ"، أجابنـي نيكـولاي، "ليـس رجـلًا؛ ذلـك أنهـم جعلـوا منـه مَـلاكًا".

* * *

لم أرَ الآثار تُحمَل إلى القبو. لم أتمكَّن من رؤية شتاوداخ على منبره. لم أُنصت فيما يعلن للحشود أن هذه الكنيسة هي تجسيد لإرادة الرب على الأرض، وأننا ينبغي أنا نرى فيها ما في مقدورنا أن نصيره. تجاهَلتُ الهمسات والأنفاس القصيرة والحفيف المتطاير نحوي من كل الاتِّجاهات؛ ذلك أنني كنتُ منشغلًا بالتَّحديق في أصابع بوجاتي الطويلة مُستقرَّةً على ركبتيه. هل لديه أجنحة يخفيها تحت ردائه؟ عندما بدأت الطبول في قَرْع الافتتاحية، ابتسم لي مُجدَّدًا، ولم يكن هناك مكانٌ باستطاعتي أن أكون فيه سوى بجواره. بدأت الأبواق في العزف، واستدفأ كلُّ وجه في الكنيسة، بما في ذلك وجهي، بصوت المجد.

غنَّى جلومسر الباص. أطلق أصواتًا بقوَّةٍ بدت من المستحيل أن تصدر عن جسدٍ واحد. ملأ صوت الرجل كل ركنٍ في الكنيسة وأسكت كل همسة. سمعتُ صوته يُجلجل في أمعائي. جعلَ الصدى المُرتجع من القُبَّة الشاهقة صوتَه يملك الكنيسة بأكملها، أعتقد أن كثيرين ظنُّوا أن الرب كلِّيَّ القدرة قد انضمَّ إليه في غنائه.

في هذه الحركات الأولى، المُسترشدة بصوت جلومسر، مُتخَمين بولائم النهار التي لم تنقطع، ومستدفئين بنبيذ الموكب، ملأنا جميعًا الكنيسة بأصواتنا حتى رنَّت نوافذها. كان أولرتش قد وجدَ فُرجةً في جسدي الضئيل؛ لم أعانِ كثيرًا حتَّى أُسمَع بين هؤلاء الرجال. اختلط صوتي بأصوات المؤدِّين المنفردين الآخرين كدوَّامات من الأصباغ الفاخرة في الماء، وأدركتُ أن صوتي كان بديعًا كأيِّ صوت آخر صدحَ في تلك الكنيسة، حتى وإن كانت القوة المحضة لصوت بوجاتي قد سحرتنا جميعًا. عندما أتوقَّف عن الغناء، كنتُ أغلق عينَيَّ وأسمع صوته يرنُّ في صدري. عندما يصمت، كنتُ أفتح عينَيَّ وأختلس النظر عبر الشبيكة الذهبية، باحثًا بلا طائل عن وجه أماليا، الوجه الوحيد

الـذي كنـتُ أتـوق لرؤيتـه في ذلـك الزحـام. لكنهـا كانـت مُحتجبـةً عنِّـي قـدْر احتجـابي عنهـا بالتأكيـد.

مـع انتهـاء الحركـة الخامسـة، توقَّـف أولرتـش. كان هنـاك هـدوء مفاجئ، حـادٌ، في الكنيسـة. أوقفـت يـداه المرفوعتـان الموسـيقى، ولوهلـة، أجبرنـا جميعًـا عـلى التأمُّـل في الخـواء، والشـعور بالتَّـوق الـذي كان لعنـة أولرتـش: رغبتـه في الجَـمَال الـذي تـلاشى لتَـوِّه، وأضحـى بعيـد المنـال.

* * *

ثـم جـاء دوري، كانـت الحركـة السادسـة غنـائي المُنفـرد. وغنَّيـتُ. بالسَّـمع المثـالي الـذي كان موهبـةَ أمِّـي، بالرئتـين الصغيرتـين اللتـين علَّمتهـما يـدا أولرتـش التَّنفُّـس، بجسـدٍ بمقـدوره أن يـرنَّ بالأغـاني. غنَّيـتُ لنيكـولاي، لأماليـا؛ وغنَّيـتُ لأمِّـي الميِّتـة وللسـيدة دوفـت. مـلأ صـوتي تلـك الكنيسـة المثالية فيـما يرفـرفُ مـن نغمـةٍ إلى أخـرى. عندمـا توقفـتُ لالتقـاط أنفـاسي، سـمعتُ انسـحاب ألـف نَفَـسٍ مـع نَفَـسي. ثـم فيـما أبـدأ مجـدَّدًا، حبسـوا أنفاسـهم مـن أجـلي. بـدت نغـماتي الأعـلى طبقـةً وكأنهـا ترفعنـي عـن الأرض. بجـواري، عندمـا أمسـكتُ بنظـرةٍ مختلسـة، كانـت عينـا بوجـاتي مُغلقتَـيْن، بابتسـامةٍ عـلى وجهـه. ترجَّـع صـدى جسـدي الضئيـل في القبـة الهائلـة ومـن أعمـق مُختليـات صحـن الكنيسـة، وهكـذا، للمـرة الأولى في حيـاتي، شـعرتُ أننـي ضخـم، ضخـمٌ ككنيسـة شـتاوداخ.

ثـم توقَّـف غنـائي، ولم يسـتمرَّ مائـة ثانيـة حتـى. لم يتحـرَّك أحـد. كانـت أعـين كل راهـب وكل مُغـنٍّ مثبَّتـة عـليَّ، لكننـي أدركـت أنهـم لم يكونـوا يحدِّقـون في هـذا الصبـي الهزيـل، بـل في الصـوت داخلـه، الـذي كانـوا يتوقـون لسـماعه مُجـدَّدًا. عـبر الشـبيكة، بـين زحـام المُتعبِّديـن، رأيـتُ رأسًـا يجاهـد للارتفـاع فـوق البقيـة. ولمحـتُ، للحظـة واحـدة، أماليـا تقـف بتلهُّـفٍ عـلى مقعدهـا، حتَّـى جذبتهـا عمَّتهـا لأسـفل مُجـدَّدًا.

ثـم تطلَّعـتُ إلى أولرتـش. كان وجهـه منطفئًـا. عينـاه مُتَّسـعتَيْن، كان توقَّـفَ عـن التنفـس، وكأن سـكينًا قـد غُـرزَ في صـدره.

* * *

أولمَنـا مُجـدَّدًا طـوال ذلـك المسـاء وحتَّـى الليـل. كنـتُ أمـضي مـن مائـدة إلى مائـدة وأمـلأ فمـي وجيـوبي بطعـامٍ يَسـيل لـه لعـاب الملـوك والأمـراء. لا بُـدَّ أنني اسـتهلكتُ وزن جسـمي مـن لحـم الحَمـل المشـوي ذلـك، ولم أعـرف أيـن اختفـى، فهـذا الجسـد الصغـير لم يَكْـبُر بعـد.

كانـت أقبيـة نبيـذ الديـر مفتوحـة للرهبـان المقيمـين والزائريـن عـلى السـواء. حـلَّ منتصـف الليـل عـليَّ في نافـذة عِلِّيَّتـي أنصـتُ لجماعـات مـن الرُّهبـان السـكارى في المُعتـزل في الأسـفل، فيـما يحتفلـون بالديـر المثـالي المكتمـل. مـن نافـذة واحـدة، مضـاءة كخشـبة مـسرح، كان نيكـولاي يغنِّـي الأناشـيد الشـعبية لحشـدٍ يهتـف كلـما اختتـم قافيـةً. كان جمهـوره يرقـص في دائـرة حتَّـى تداعـى في كومـةٍ مـن السـكارى. وراء أبنيـة الديـر، كان ميـدان الديـر هادئًـا، بعـد أن أُرسـلَ شـعب الكنيسـة مـن العامـة إلى بيوتهـم بـلا طعـام أو نبيـذ. في المُسـتراح البعيـد في المُعتـزل، سـمعتُ صـوت أولرتـش يهمـس بالتـماسٍ مُلـحٍّ للتنغيـم الأنفـي الهـادئ لطبيـب شـتوتجارت. قُبالتهـم، كان ريمـوس يغمغـم تحـت الواجهـة البيضـاء للكنيسـة الجديـدة، حيـث يبـدو أنـه منغمـس في جـدال مـع رجـل فرنـسي، لكـن عندمـا أمعنـتُ النظـر في الظِّـلِّ، لم أرَ أحـدًا بجـواره، مجـرَّد كتـاب يقبـض عليـه أمـام عينيـه. مـن الظـلال الأخـرى، سـمعتُ همسـاتٍ مُغويـة. في ليلـةٍ كهـذه، بإخـوةٍ زائريـن كثيريـن لـن يـروا بعضهـم البعـض مُجـدَّدًا أبـدًا، وبالنبيـذ الـذي يُخمِـد الوعـي، انطلـق رهبـانٌ كثـيرون لتـذوُّق رحيـق العالَـم.

سـمعتُ صـلاةً مهتاجـة عـلى ألسـنةٍ متداخلـة. سـمعتُ رجـلًا يُغنّـي أدائي المنفـرد بصريـرٍ هامـس. سـمعتُ برميـل نبيـذ يتدحـرج عـبر المُعتـزَل. سـمعتُ أقداحًـا تـضرب الجـدران.

أتذكَّر أفكاري جيدًا: كم أنا محظوظ. أريد أن أكون راهبًا.

للمـرَّة الأولى منـذ جئـتُ الديـر، شـعرتُ أننـي أنتمـي إليـه. كأحجـار كنيسـة شـتاوداخ، كنـتُ ذات مـرة خشـنًا ورخيصًـا، لكننـي الآن تشـكَّلتُ إلى شيءٍ ناعـم وبديـع ومُقـدَّس.

كم كنتُ مخطئًا.

(17)

عندما جاءَ إليَّ، كان المُعتزَل هادئًا. احتواني بين ذراعيه، ولوهلة ظننتُ أنه حضرَ ليحتويني فحسب. لم تعجبني لمسَته؛ لذلك تصنَّعتُ النوم. لم أسمع سوى أنفاسه الخفيفة (حتَّى مع أذني ملتصقةً بكتفه، لم أستطع سماع قلبه). شعرتُ بتحديقته فوقي. ثم سقطَ شيءٌ دافئ ورطب على وجهي. سمعتُ نشجةً.

وبعزمٍ مباغت، طوَّحني إلى الهواء. حمَلني خارج غرفتي ونزل بي الدَّرج، الذي كان مُضاءً في كل طابق بضوء القمر الخافت عبر النوافذ الكبيرة المُطلَّة على المُعتزَل. استلقيتُ في ذراعيه وكأنني نائم، وسمعتُ الشخير الذي كان يعني أننا نمرُّ بصومعة نيكولاي. على بسطة الدَّرج الأولى، توقَّفَ، وكان تردُّده مفاجئًا لي لحدِّ أنني فتحتُ عينَيَّ وتطلَّعتُ إليه. في ضوء القمر الكابي، بدا وجهه الشاحب وقد انسحَبَت منه الدماء. تلألأت عيناه بالدموع.

«أولرتش»، قلتُ. «أفلتنِي».

«لا أستطيع»، همسَ.

تلوَّيتُ في قبضته. «أفلتني»، كرَّرتُ. لكنه هزَّ رأسه.

«صوتك»، همسَ. «علينا أن نحفَظ صوتك».

الحِفظ كان ما يفعله دوفت مع السحالي ورؤوس الدببة. هل كان يعني انتزاع صوتي وعَرضَه في جرَّة؟ أم تركيبه على حائط؟ جاهدتُ للتحرُّر، لكنه أحكم قبضته.

«أنا آسف»، همسَ. «أنا آسف».

اقترب وجهه المُلتاع من وجهي لحدٍّ أنني ظننتُ أنه سيُقبِّلني.

صرخت.

لكن يده امتدت بمجرّد أن صرخت، غطَّى فمي وأحكم قبضته على أنفي. لم أستطع التَّنفُّس إلَّا عبر الصراخ فيما يتحرَّك بسرعة هابطًا الدَّرج وعلى طول الأروقة الخاوية، مارًّا براهب سكران يفترش الأرض.

لكن فور أن أوشكت على الإغماء، أزال يديه. تنشَّقتُ الهواء لاهثًا. همسَ، «ابقَ هادئًا. لا يوجد أحد في هذا الجزء من الدير ليسمعك. ستحتاج إلى قوَّتك». تلوَّيتُ وجاهدتُ للإفلات، لكنه شدَّني إليه أكثر، وكأنني رضيع عليه أن يكتم صوته قبل أن يسرقه.

وصلَ بي إلى حجرة التدريبات، المضاءة بسطوع في هذه الساعة بمصابيح وشموع مُرتَّبة في أنحاء الغرفة. كان البيانو القيثاري ينتصب وحيدًا في المنتصف، وكأنه مذبح. كان مُغطًّى بكتَّانٍ أبيض. فيما يقف دكتور رابوتشي، تعلوه وجهه تلك الابتسامة المميَّزة المثيرة للقشعريرة، بجانب البيانو القيثاري. صبَّ النبيذ في قدح زجاجي وأمسكه أمامه، وكأنه كأس مُقدَّس.

اتَّخذ خطوتين إلى الأمام نحوي فيما أجاهد للمرة الأخيرة للإفلات من قبضة أولرتش المستميتة. جرَّبتُ الركل، لكن قدماي تطوَّحتا في هواءٍ خاوٍ.

"لا تَخَف"، قال الطبيب. تحدَّثَ بلكنةٍ إيطالية. "لن أؤذيك".

اقتربَ أكثر، لكن عندما تلوَّيتُ مجدَّدًا توقَّف. هزَّ رأسه وابتسم، وكأنني أحمق لأنني لا أثق به. ارتفع حاجباه الرفيعان، مُتصنِّعًا الحنوَّ. "هل تعرف أين تقع شتوتجارت يا موسى؟".

على ظهر يديه البيضاوين، كانت كتلة من العروق تطابق لون النبيذ.

"ليست بعيدة من هنا... سفر لبضعة أيام فحسب. آمل أن تأتي إلى هناك يومًا وتزورني. هذا الدير جميل، لكنه لا يُقارَن بشتوتجارت. هل قابلتَ دوقًا من قبل؟ الدوق كارل إيوجين هو ربُّ عملي. إذا أخبرته عن صوتك، سيدعك تنام في قصره. ألا تحب أن تنام في قصر؟".

لم أكن أحب، لكنني لم أتحدَّث.

"الدوق يرعى الموسيقى الجميلة أكثر من أيِّ إنسان في أوروبا يا موسى. أكثر من رئيس ديركم حتَّى؛ ولهذا استقدمني إلى شتوتجارت، من إيطاليا نفسها. أنا طبيب، طبيب للموسيقى".

ثم خطا للأمام. تملَّصتُ، لكن قبضة أولرتش كانت كالحديد.

"لديك صوت بديع جدًّا يا موسى. صوت من أجمل الأصوات التي سمعتُها في حياتي. علَّمكَ أولرتش جيدًا. لكنني بمقدوري أن أجعلك أفضل. هل تريد أن تغنِّي أفضل يا موسى؟".

صوتي مِلكي! كنتُ لأصرخ لو لم أكن مرعوبًا. مِلكي! كان على بُعد خطوة واحدة الآن. خشيتُ أن يُسلِّمني أولرتش إليه.

لكـن أولرتـش لم يُفلتنـي. أحكـم قبضتـه. رفـعَ رابوتـشي القـدح. بيـده الأخـرى قـرصَ ذقنـي.

"افتح فمك يا موسى. اشرب بعض النبيذ".

كانت أصابعه باردة جدًا. هززت رأسي، ثم أفلتني.

أطلق سبابًا.

همـسَ أولرتـش بأنـه يجـب أن أشرب النبيـذ، سـيجعلني هـذا راغبًـا في النـوم. تلوَّيـتُ بـكل مـا لـديَّ مـن قـوة.

"ضعـه عـلى الأرض إذن"، قـال رابوتـشي. رفسـتُ وقاومـت حتَّـى جلـس أولرتـش متباعـد السـاقَيْن فوقـي وثبَّـت ذراعـيَّ عـلى الأرض. ركـعَ دكتـور رابوتـشي بجـواري. "افتـح فمـك"، أمـرني بحـدَّة.

عندمـا رفضـتُ مُجـدَّدًا، هـازًّا رأسي مـن جانـب لآخـر، مُطبِقًـا عـلى فـكِّيَّ بقـوة، أطلـقَ سـبابًا مُجـدَّدًا. أقحـم أصابعـه المُعرَّقـة في فـكِّيَّ حتـى انفتحـت فُرجـةٌ، صـبَّ فيهـا بعـض النبيـذ. اختنقـت. فـاضَ وانسـابَ عـبر عنقـي. أطبـقَ عـلى فمـي وضغـط عـلى حلقـي حتَّـى ابتلعتـه.

"يكفي هذا"، قال لأولرتش. أفلتني الرجل. سعلتُ وبصقت.

مـع ذلـك كانـت حسـابات رابوتـشي خاطئـة. كان معظـم النبيـذ المُطَّعَم بالأفيـون قـد انسـاب مـن فمـي واسـتقرَّ في بركـةٍ عـلى الأرض. ورغـم أنـه سرعـان مـا تكوَّنـت غمامـة عـلى عقـلي، وفقـدت القـدرة عـلى مقاومتهـما، إلَّا أننـي لم أسـقط فريسـةً للنـوم. بمقـدوري تذكُّـر كل لمسـة وكل صـوت لمـا تـلا ذلـك وكأنـه مسرحيـة مثَّلتُهـا ألـف مـرة.

جـرَّداني مـن ملابـسي، ولوهلـة شـعرتُ بـبرودة الأرض الحجريـة عـلى جسـدي العـاري. أُخِـذتُ بالسـقف. هـدَّأَ مـن خـوفي؛ هنـاك شيءٌ نعيمـي في أشـكال العـوارض الخشـبية. ينبغـي أن أغطِّـي نفـسي، لكـن ملابـسي اختفـت وأنـا مُنهـك جـدًّا عـلى أن أبحـث عنهـا.

رُفعتُ ووضعتُ في حوضٍ ممتلئ بماء دافئ. أستلقي هناك، غاطسًا حتَّى صُرَّتي. أُغلق عينَيَّ وأستمتع بالدفء. يبدو الحوض وكأنه كبير كمحيطٍ دافئ. والحافة الخشبية، القاسية، وسادةٌ وثيرة تستند رأسي عليها.

تتحدّث أصواتٌ عن تفاصيل.

سكاكين.

إبَر.

أعتقد أنني سأنام.

أُرفَعُ كرضيع، أُجفَّف برفق، وأُوضع بوجهي لأسفل على البيانو القيثاري. رأسي في اتِّجاه المفاتيح. عندما يتحدَّث هذان الرجلان، ترنُّ الأوتار بصوتيهما. أريد أن أغنِّي أيضًا، لكن هذا مستحيل. يبدو الآن جَهدًا رهيبًا. لا أستطيع تخيُّل أنني نجحتُ أبدًا في فتح فمي وإخراج صوتٍ في حياتي.

في كل مرَّة أُوشك على السقوط في النوم على الملاءة الناعمة، توقظني لمسة يدٍ باردة. يخطر لي أن هذين الرجلين، حتَّى وإن كان أحدهما أولرتش، لا ينبغي أن يلمساني. ليس بهذه الطريقة. هذه ليست اللمسة التي طالما عرفتها جيدًا: يدا أولرتش تستثيران صوتي.

أفكِّر، نادِ نيكولاي. أفكِّر، نيكولاي سيجعلهما يكفَّان أيديهما عنِّي. لكنه ليس هنا. الأيدي الباردة ترفعني وتضع المناشف تحت خاصرتي بحيث تبرز مؤخِّرتي العارية في الهواء. يُباعدان بين ساقيَّ حتَّى أظن أنهما ستنفسخان. هذه الأيدي تؤذيني، لكنني لا أستطيع تشكيل الكلمات. أتأوَّه. يربطان كاحليَّ حتَّى لا أستطيع إغلاق ساقيَّ. أشعرُ بهما يلمسانني في موضعٍ لم يجرؤ أولرتش قطُّ على التفكير في لمسي فيه.

يداي حرّتان، أضمهما في قبضتين. أبدأ في النحيب.

سأسقم.

هناك رائحة في الهواء، وكأنه شيءٌ في غاية... البرودة؟ الحموضة؟ لا أستطيع أن أحدِّد. شيءٌ بارد ورطب يمسِّد على فخذيَّ، بين ساقي. يفرك خِصيتَيَّ ويُصيبني بالغثيان. لا أريد أن أُلمَس هنا! أوتار البيانو القيثاري ترنُّ من تحتي، لكن لا يوجد منطق في صوتها. أحتاج إلى صوتي، أتوق لأقول. لا تأخذوه. إنه الشيء الوحيد الذي يجعلني نقيًّا. لكن كل ما يفلت مني، "لا، لاااا-ااا"، وكأنني أنوح.

ربّتَت يدٌ على رأسي. صوت أولرتش في أذني، "لا بأس يا موسى. عُد إلى النوم".

النوم! نعم، أريد أن أنام، لكن اليد تلمسني مُجدَّدًا! أولرتش! حاولت أن أصرخ. لا تأخذ صوتي! لكنني لم أستطع سوى النطق باسمه؛ البقية تأوُّهات.

"لا تخف"، يقول. "أنا هنا".

أشعر بغثيان وتثاقل. لا أستطيع التحرُّك، لكن لا بُدَّ أن أتحرَّك، وإلا اختفى صوتي.

"ثبِّته!" يهتف رابوتشي. "ضع ثقلك عليه!".

لا أستطيع النهوض. أحدهم يستند عليَّ. صدري ينسحق. لا أستطيع التنفُّس.

"ثبِّته جيدًا! لا بُدَّ أن يكون في غاية السكون".

أشعر بدفقة ألم بين ساقيَّ. أتأوَّه وأتلوَّى وأبكي، والبيانو القيثاري يبكي معي.

"عليك أن تثبِّته!".

أصرخ.

"من أجل الرَّبِّ يا رابوتشي، ماذا...".

"ثبِّته!".

شيءٌ يوجد داخلي. يدٌ. تنخس وتبحث عن صوتي! أسعلُ مُخرجًا النبيذ وجُذاذات لحم الحَمل. أصابع أولرتش تُمسِّد خدِّي. يسحقني. أقاوم، ورغم ذلك لا أستطيع التحرُّك.

"الآن عليه أن يظلَّ ساكنًا وإلَّا سيموت ممَّا نفعله!" يهتف رابوتشي، وتدندن الأوتار الخفيضة للبيانو القيثاري.

هناك شدٌّ داخل جسدي ووخزةُ ألم حادَّة للغاية لدرجة أنني أشعر بها في أصابع أقدامي.

لم يعد هناك هواء لأتنفَّسه. "لم يكن لديَّ اختيار"، همسَ أولرتش، بخفوت شديد لحدٍّ أنني أشك أنه رابوتشي نفسه قد سمع. "صوتك"، يغمغم. "صوتك". نخزة لاذعة، مزقٌ بين ساقيَّ، لكن بغتةً يبدو كل شيء وكأنه ينزاح. أنا مكدود. أستغرق في النوم، وفكرتي الأخيرة، فيما رابوتشي ينخر وأولرتش ينتحب بهدوء، هي أنني سأستردُّ يومًا ما مُجدَّدًا، ما انتزعه هذا الرجلان البشعان.

الفصل الثاني

(1)

استيقظتُ في فراشي. كان الدير المُنهك هادئًا. النافورة تُبقبق في المُعتزل.

هل كان ذلك حُلمًا؟

تقلَّبتُ تحت أغطية الفراش وشعرتُ بمزقٍ بين ساقيَّ، كخطاطيف مُثبَّتة بإحكام في أمعائي. تغبَّشت رؤيتي بالدموع. استلقيت هادئًا حتَّى تراجعَ الألم، ثم أزحتُ الغطاء. ما زلتُ عاريًا. عضوي الذكري الطفولي ينتصب عاليًا. كان أرجوانيًّا، ووراءه، كانت خصيتاي قرمزيَّتان وبدتا أكبر من حجمهما بمرتين. خربشات بالأحمر والأزرق تمتدُّ على داخل فخذَيَّ. لكن لم أستطع رؤية شيء ناقص. لم يؤخذ شيء.

بحذر، مددتُ إصبعًا ولامستُ خصيتي اليمنى. كان الجلد رقيقًا، لكن فيما عدا ذلك كان كل شيء مُخدَّرًا.

"علينـا أن نحفَـظ صوتـك"، قالهـا أولرتـش حينهـا. تخيَّلـتُ نفـسي داخل واحـدة مـن جِـرار دوفـت الزجاجيـة، أغنِّـي ولا أحد يـسـمعني.

سمعتُ طرقًا على الباب. غطّيتُ جسدي العاري.

لم ينتظر نيكولاي ردًّا. احتلَّ نصف مساحة غرفتي في العليَّة.

"علينـا أن نبنـي كنيسـة جديـدة كل أسـبوع"، قـال. كانت عينـاه داميتَيْن وبـدا أنـه كَـبُرَ خمسـة أعـوام. "ليبـارك الـرَّبُّ شـتوكدوك وافتتاحاتـه". ابتسـم ابتسـامة عريضـة، لكـن ابتسـامته تلاشـت ببـطء. تمعَّـن فيَّ. "مـا الأمـر؟ هـل أنـت مريـض؟".

أومأت.

"لا عجـب. تحتـاج إلى إجـازة. سـأخبر أولرتـش أن يـتركك بمفـردك هـذا الصبـاح".

أومأت.

خطـا ناحيتـي. تجهَّـمَ وانحنـى للتَّفـرُّس في وجهـي. "أوه، مـوسى. تبـدو أسـوأ حـالًا مـن راهـب ديـر اينسـيديلن الـذي كان ينـام في النافـورة. تحتـاج بعـض الطعـام؟".

هززتُ رأسي.

"هل توجد مشكلة؟".

هـززتُ رأسي. كنـتُ أرغـب في إخبـار نيكـولاي، لكننـي الآن ممـتنٌّ أننـي لا أسـتطيع إيجـاد الكلـمات.

اعتـدل. "حسـنًا. عليـك أن تسـتريح، وسـأعود لاحقًـا"، قـال. "وسـأجلب بعـض شرائـح اللحـم الغارقـة في العصـارة".

عندمـا لم أردَّ لـه الابتسـامة، منحنـي نظـرةً أخـيرة، مُتشـكِّكة، وغـادر الغرفـة. عندمـا أُغلـقَ البـاب، التففـتُ بحيـث تدلَّـت قدمـاي عـلى حافـة

الفـراش. مـع كل حركـة تهتـاج أنفـاسي، والخطاطيـف في حقـوي تُمـزِّق أعمـق. نهضـتُ، محدودبًـا كرجـل عجـوز. جـرَت الدمـوع عـلى خـدَّيَّ. سرتُ متثاقـلًا عـلى الأرض وأقفلـت البـاب بالرتـاج، شيءٌ لم أفعلـه مـن قبـل قـطُّ. وقفـتُ عاريًـا أمـام مـرآتي.

غنَّيــتُ النغــمات الثــلاث الأولى مــن الســوبرانو المنفــرد مــن اليــوم الفائـت. كان غنـائي ضعيفًـا ومضطربًـا، لكنـه كان صـوتي. لم يُنتـزع منِّـي. نشـيجٌ خانـق قطـعَ الأغنيـة.

بشكلٍ ما جررتُ نفسي عائدًا إلى فراشي واستغرقتُ في النوم.

* * *

ســمعتُ خبطـاتٍ قويَّـة، وصرخـات في نومـي. أحدهـم كان يطـاردني عبر أروقـة الديـر؛ كانـت الأبـواب جميعهـا موصـدة؛ وبهـذا لم أسـتطع الاختبـاء. ثـم كان هنـاك تحطُّـم مُشَـظٍّ، واسـتيقظت لأرى بـابي يسـقط إلى الداخـل، مشـقوقًا مـن المنتصـف. اندفـع نيكـولاي إلى الداخـل. وراءه كان ريمـوس، بعينـين قلقتـين، ضيِّقتَـيْن، ووراءه، الطبيـب رابوتـشي، يحمـل مصباحًـا أمـام وجهـه المُصفـرِّ، المُتجهِّـم. اندفـعَ الطبيـب بـين صديقَـيَّ وخطـا ناحيتـي. انكمشـتُ مـن الخـوف فيـما يضـع راحـةً بـاردةً عـلى جبينـي ثـم يغمـس إصبعـين في عينـي.

"سـيكون بخـير"، قـال لنيكـولاي، الـذي كان يقـف وكأنـه مسـتعدٌّ لأخـذي بـين ذراعيـه في أيِّ لحظـة. دفعـه رابوتـشي للخلـف. "لا بُـدَّ أن تتركـه بمفـرده. إنهـا مجـرَّد حمَّـى".

كان جفناي في غاية الثِّقل لحدِّ أنني تركتهما ينغلقان.

"لكنه لم يَفِق"، استجداه نيكولاي، بصوته يرتعش. "ظننتُ أنه...".

"إنــه شــاب وقــوي. دعــه ينــام"، أجبــه الدكتــور رابوتــشي بصرامــة. "سأســهر عليــه".

"سأسهر عليه أنا"، قال نيكولاي.

"أنا طبيب".

فتحتُ عينَيّ. بدت الغرفة وكأنها تتمايل. كان ريموس يقف صامتًا على عتبة الباب المُحطَّم، مُتجاهلًا الكتاب في ذراعيه. راقب الرجلَيْن يتجادلان بشأني، الشَّكُّ على وجهه. أردتُ أن أخبر نيكولاي -وريموس حتَّى- ألّا يتركاني بمفردي مع هذا الطبيب، لكن في ضبابيّتي لم أستطع تشكيل الكلمات. كنتُ خائفًا بشدَّة، وراقبتُ حُماتي يخطوان فوق الُجذاذات الخشبية، بوجهيهما يتوسَّلان إليَّ أن أناديهما ليعودا.

عندما صرنا وحدنا، انحنى دكتور رابوتشي مقتربًا منِّي. ابتسم عندما رأي أنني مستيقظ. وضع إصبعًا على شفتيه النحيلتين. "عليك ألّا تخبر مخلوقًا بما حدث ليلة أمس"، قال. "إذا أخبرت أحدًا، لم يسمحوا لك بالبقاء هنا. سيجبرونك على مغادرة الدير، وستكون وحيدًا. لا تثق بأحد سوى بصديقك أولرتش".

لم أستوعب هذا التحذير بالكامل، لكنني أدركت بالغريزة أنه كان على حقٍّ.

"هل تستوعب ما فعلتُه يا موسى؟".

لم أتجاوب. في ضوء المصباح الخافت رأيت أن نفس الأوردة القرمزية في يده تتشابك في وجهه الشاحب.

"لقد جعلتُ منكَ موزيكو".

أنا، موزيكو؟ تلك اليد تلتفُّ وتحفر داخل جعَلَتني مثل بوجاتي؟ الموزيكو رجلٌ، قالها نيكولاي، ليس رجلًا. ذلك أنهم جعلوا منه مَلاكًا.

"موسى!" كان الدكتور رابوتشي ما يزال يتحدَّث لي. حاولت التركيز عبر الحمَّى. "ستلاحظ بعض التغيّرات في جسدك في الأسابيع القليل القادمة"، قال. "لا تجزع".

اعتـدلَ رابوتـشي ونفـخَ في المصبـاح لإطفائـه. تـسرَّب الضـوء الخافـت مـن الـرواق إلى الغرفـة.

"يومًـا مـا"، قـالَ مـن الظـلام، "سـيكون لديـك واحـد مـن أعظـم الأصـوات في أوروبـا. لا تنسَـني يـا مـوسى. لا تنـسَ مَـن جعلـكَ مـا تكونـه".

أغلقتُ عينَيَّ.

وأبـدًا لم أنـسَ. بعـد سـنوات كثـيرة، عندمـا انتهـت بي مسـيرتي أخـيرًا إلى مدينـة كارل إيوجـين، أخفيـتُ خنجـرًا في عبـاءتي وأخـبرتُ راعـي الحفـل الموسـيقي أننـي أودُّ مقابلـة رابوتـشي، (طبيـب الموسـيقى) الأشـهر في شـتوتجارت. لكـن الرجـل احتقـنَ فحسـب وهـزَّ رأسـه. "أرجوك يا سـيدي"، قـال، "لا نتحـدث عنـه". في النهايـة أنهكـتُ عامـل مـسرح عجـوزًا بالنبيـذ حتَّـى أخبرني مـا حـدث حقًّـا: كان رابوتـشي قـد عـاد حقًّـا إلى شـتوتجارت بعـد إخصـائي، لكـن بعـد سـنتين في بـلاط كارل إيوجـين، قضاهـما في إخصـاء الصبيـان حتَّـى يتمتَّـع الـدوق بعزبـة الطواشـيين الموزيكـو الوحيـدة في شـمال الألـب، شُـنقَ رابوتـشي لمغازلتـه واحـدة مـن الدوقـات.

(2)

مـع تـلاشي الألم والحُمَّـى، تلاشـت خصيتـاي أيضًـا. بعـد أسـبوع صارتـا حبّتَـيْن صلبتـيْن. وبعـد بضعـة أيـام، اسـتيقظت وأجريـت فحصتـي المعتـاد تحـت الأغطيـة... ثـم اعتدلـت بسرعـة. صرتُ خاويًـا.

كانـت عمليـة بسـيطة، ومـا زالـت تُجـرى كل عـام عـلى يـد الجرّاحـين والحلّاقـين عـلى السـواء لآلاف مـن الصبيـان في الأراضي الإيطاليـة. كان دكتـور رابوتـشي قـد قطـعَ التّشـعُّب المـزدوج لشريـاني المنـوي الداخـلي. ومحرومتَـيْن مـمّا يحتاجانـه للحيـاة، ماتـت خصيتـاي، وذابتـا في دمـائي. لم ألاحـظ أيَّ تغـيُّر آخـر، سـواءً في جسـدي أو في عقـلي. كان صـوتي جميـلًا ومُشرقًـا كـما كان عنـد الافتتـاح، وهكـذا، فيـما أغنّـي، كل مـا كنـتُ ألاحظـه هـو الغيـاب المفاجـئ لهاتـين الكُرتـين الصغيرتَـيْن بـين سـاقيّ.

لم يتبـدّل شـعوري. لم تَنـمُ لي أجنحـة. لم أزدد طـولًا وعرضًـا مثـل الموزيكـو بوجـاتي. مـع ذلـك أدركـتُ أن عمليـة رابوتـشي لم تفشـل... أخبرتنـي نظـرات أولرتـش المُشـفِقة بذلـك. لا تقصـد طواشـيًّا؟ ليـس نصـفَ

رجـل! كان شـتاوداخ قـد قـال عندمـا طلـب أولرتـش طواشـيًّا للغنـاء في كنيسـته. لم أسـتطع فهـم مـاذا أنـا، ولا إلى مـاذا سـأصير، لكننـي أدركـتُ أنـه شيءٌ عـليَّ إخفـاؤه. كنـت لا أسـتحمُّ إلّا في منتصـف الليـل، بمنشـفةٍ قريبـةٍ مـن يـدي. أوصـد البـاب عندمـا أبـدِّل ملابـسي. أبـدًا لم أسـأل نيكـولاي عـن فائـدة الأعضـاء التـي فقدتهـا. أبقيـتُ سِرِّي لنفـسي، عـلى أمـل أن أنـسى فحسـب تلـك الليلـة الشـنيعة وآثارهـا. لسـنوات طويلـة تـراءى لي أن بمقـدوري ذلـك.

* * *

بعـد قُرابـة عامـين مـن إنجـاز الكنيسـة، سـاءت حالـة السـيدة دوفـت بشـكل ملحـوظ. بـدا لي أن عظامهـا تنمـو. صـار جلدهـا مشـدودًا، وازداد ذقنهـا ومحجـرَا عينيهـا بـروزًا: صـار كل نَفَـس وكأنـه يخـرج بمسـاعدةٍ مـن يـدٍ خفيَّـة تعتـصر الهـواء لإخراجـه مـن رئتيهـا. كان صوتهـا همسًـا، وذلـك الـدفء الـذي طالمـا نَشَرَتـه صـارَ يُكلِّفهـا الآن الكثـير مـن الألم.

غَـرِقَ السـيد دوفـت، المعـروف بنشـاطه، في الكآبـة والوجـوم. تعامَلَـت أماليـا -التـي أحبَّـت تلـك الأم السـقيمة أكـثر مـمَّا تحـبُّ أغلـبُ الفتيـات أمهاتهـن القـادرات عـلى الرقـص والثرثـرة بالهـراء طـوال اليـوم- مـع قلـق والدهـا بالفكاهـة ومرافقتـه دائمًـا. "لكـن لمـاذا فعـل الإسـكندر كل شيء طلبـه منـه أرسـطو؟" تقـول. أو،"يقـول مـوسى إنـه يـودُّ رؤيـة الـرؤوس"، ثـم تنغـزني حتـى أُومـئ، حتَّـى لـو كانـت تلـك الجِـرار تُرعبنـي في الحقيقة. كان السـيد دوفـت يُسـتثار فقـط عندمـا يتحـدث عـن الـثروات التـي جناهـا بسـهولة، أو عندمـا ينـاقـش خططـه للتوسُّـع شرقًـا، عـبر مراسـلاته مـع وجيـهٍ يعمـل في النسـيج مـن ڤيينـا، ينـوي أن يغـزو معـه العالَـم الـذي يرتـدي القـماش المنسـوج.

ذات ليلـة مـع وصـولي أنـا وريمـوس إلى البهـو، كان دوفـت يُحـدِّق إلى خـارج النافـذة، بوجـهٍ رمـادي (وهـو مـا كان غريبًـا عـلى رجـلٍ لونـه

المعتـاد يشـبه اللحـم غـير المطهـو). فيـما أماليـا تُحـدِّق بخـواء في كتـاب أمـام عينيهـا ولم تحـاول إيقاظـه مـن غفوتـه، بـل لم تُحيِّنـا حتَّـى.

اندفعـت كارولـين إلى الغرفـة بغتـةً، وكأنهـا كانـت تحـوم خـارج البـاب، تنتظـر حتَّـى ندخـل. "ليـس الليلـة!" قالـت بعفويـة، وكأنهـا تتحـدَّث إلى طفلـين شـقيِّيْن. "السـيدة في حـال سـيئة للغايـة. يخـشى الطبيـب أنهـا قـد تمـوت". تقافـزت السـيدة الثقيلـة مـن قـدمٍ إلى قـدمٍ، كراقصـة خرقـاء لكـن مُبتهجـة. في عينهـا كان بمقـدوري رؤيـة أنهـا بـدأتْ بالفعـل في تخيُّـل السـيدة دوفـت الجديـدة: أكـثر نقـاءً، أكـثر خصوبـةً مـن القديمـة. هشَّـتنا للخـروج مـن البـاب ببضـع رفرفـات مـن مِعصمهـا. تراجعـتُ، لكننـي اصطدمـت بريمـوس. في العـادة كان يندفـع خارجًـا مـن المنـزل ككلـب صيـدٍ مـن قفصـه، لكـن عندمـا رفعـت نظـري، رأيـتُ غضبًـا عنيـدًا عـلى وجهـه.

"أيَّتها الحقيرة"، غمغمَ، عاليًا بما يكفي فحسب ليسمع الجميع.

"معـذرةً؟" تسـاءلت كارولـين دوفـت. لكـن ريمـوس كان قـد اسـتدار بتحديقتـه لإبـداء الإعجـاب بالجـدار الفـارغ. تطلَّعـت إليَّ المـرأة المُتزمِّتـة بـازدراء، وكأنهـا تنتظـر منِّـي تقديـم اعتـذار.

حدَّقت أماليا في ريموس بإعجاب.

تحـرَّك دوفـت بغتـةً. بـدا وكأنـه يـراني للمـرة الأولى. "تعـالَ الأسـبوع القـادم"، قـال بضعـف. "سـتكون حالتهـا أفضـل حينهـا. بـلا شـكٍّ".

أومأتُ.

حـدَّق إليَّ الرجـل بإمعـان، وكأنـه لا يوجـد سـوانا في الغرفـة. "مـوسى، نحتـاج مزيـدًا مـن الوقـت فحسـب".

وضعَ ريموس يدًا على كتفي. بدأنا في التراجع نحو الباب.

"أصيب ڤولتير بالجُدَريّ ذات مرة"، قال دوفت بغتةً. نهضَ واتَّخذَ خطوات بطيئة ومدَّ يده، وتَبعني بهدوء. "كاد أن يقتله الجدري. هل تعرف ماذا فعل؟ احتسى ستِّين لترًا من الليمونادة. كانت سببًا في شفائه". تطلَّعَ دوفت إلى السقف وفركَ شفتيه. خشيتُ أنه سيبدأ في البكاء. ازداد صوته ضعفًا، مُتصدِّعًا من حينٍ لآخر. "جعلتُها تجرِّب ذلك أيضًا. لكنها لم تكن مصابة بالجدري، والأمر لا ينجح إلَّا إذا كنت مُصابًا بالجُدَري. فقط لو كانت مصابةً به. حينها سنعرف على الأقل كيف نعالجه. لكن هذا هو الوضع. ألا ترى؟ كل مرضٍ له علاج يناسبه وحده. لكن الأمراض والعلاجات مُختلطة ببعضها تمامًا". حرَّك الهواء عاليًا أمام صدره بيديه. "أمراض لا نهائية. علاجات لا نهائية. جميعها مختلطة ببعض. حتى لو اجتمعَ أكثر من أرسطو معًا، سيحتاج الأمر إلى الأبد". أنهى حديثه وقد اقترب مني بشدَّة، لحدٍّ أنني سمعت أصابع قدميه تنعصر في حذائه، الذي كادَ يُلامسني. أومأتُ إليه موافقًا.

"لماذا يفعل الرَّبُّ هذا؟" همس لي. "لماذا؟ لماذا يقدِّم لنا أحجية يستعصي حلُّها؟".

تمنَّيتُ لو كان نيكولاي هنا؛ كان حتمًا سيجد إجابة. أبدًا لم يفقد حسَّه بجَمال العالم، مهما أظلمت أحجية الرَّبِّ الكبرى. لكن نيكولاي لم يكن معنا، ولهذا وضع ريموس يدًا على ذراع دوفت، وكأنه يقول، نعم، أنت على الحقِّ. الحياة ليست مُنصفةً. ثم جذَبني ريموس للخلف، ومضينا عبر الرواق. راقبتُ ظلَّ دوفت، بلا حراك، واقفًا على العتبة، وكأنه ينوي انتظاري هناك حتَّى أعود.

* * *

لم تَعُد أماليا تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تُمسك بيدي في الأروقة المُظلمة. ازدادت طولًا؛ صار بمقدور الناظر أن يلحظ المرأة القادمة في وجهها. لكن بالنسبة لي كانت حنونًا كما هي دومًا، ذلك

أنـه رغـم حفـلات الحدائـق وتنـاول الغـداء مـع أفضـل فتيـات سـانت غـال الكاثوليكيـات الأخريـات، إلّا أننـي كنـتُ الصديـق الحقيقـي الوحيـد لهـا في تلـك السـنوات. كنّـا مـا زلنـا نتسـكّع في الأروقـة كل خميـس تسـمح لنـا صِحّـةُ أمِّهـا بزيارتهـا. قالـت لي ذات يـوم بحـزن، "مـوسى، أنـت محظـوظ جـدًّا أنـك لسـت فتـاة. أمقتهـن. كل فتـاة قابلتُهـا". عضّـت شـفتها السُـفلى وجذبـت خيطًـا مفكـوكًا في كُمّـي. "لا أريـد أن أراهُـنَّ أبـدًا، لكـن كارولـين تجـبرني عـلى ذلـك. في الأمـس ذهبـتُ حتـى رورشـاخ، فقـط مـن أجـل أن يتطاولـن عـليّ". أبـرزت شـفتها السـفلى وقلّـدت صوتًـا صـارًا، "أشـعر بالأسـف مـن أجلـك يـا أماليـا. لا بُـدَّ أنـه مـن المريـع أن تكـوني عرجـاء. ومـع ذلـك هـا أنـتِ واقفـة؟ لـو كنـتُ مكانـك لاختبـأتُ في غرفتـي طـوال اليـوم". احمـرَّ خدّاهـا؛ كانـت مـا تـزال تشـعر بالمهانـة مـن الذكـرى. "إنـه خطـأ الصبيـان. ليـس الأمـر أنـه يوجـد القليـل منهـم، لكـن هـؤلاء الفتيـات يتصرّفـن وكأن هنـاك ألـفٌ منّـا، وثلاثـة شُـبّان فقـط جديـرون بنـا في العـالم. لا يمكننـا الـزواج بعـدُ حتّـى، لكـن كل مـا يفكّـرن فيـه هـو الـزواج".

أخذنا بضعت خطوات وحكّت ذراعها بذراعي بذهنٍ شارد.

تطلّعتُ إليها. غامرتُ بالقول: "هل ستتزوّجين؟".

ضحكـت أماليـا مـن وجهـي الجـادّ. "بالطبـع سـأتزوج يـا أحمـق. هـل تظـنُّ أننـي سـأعيش للأبـد مـع تلـك العجـوز الشـمطاء؟ سـأتزوّج". أومأت، وحدّقـت حالمـةً إلى آخـر الـرواق. "لكنـه سـيكون غنـي. وأبلـه. سـيمضي وهـو يمتطـي حصانـه ويصطـاد أو يفعـل أيًّـا مـا يفعلـه الرجـال البالغـون"، قالـت. "سـيفعل كل شيءٍ أقولـه".

* * *

كانـت تحلـم بالهـروب مـن سـجنها. ذات يـوم سـحَبَت ورقـةً مطويّـة. فردتهـا لتكشـف عـن رسـمٍ مُتقـن للديـر. "لقـد نسـختُه"، قالـت بفخـر. "كل نافـذة، كل بـاب. سـيكون خريطتـي، عندمـا أزورك".

"متى ستزورينني؟" سألتها.

"أوه"، قالت، "في الأسبوع القادم على الأغلب. قبل انقضاء الشهر بالتأكيد. ارسم X على غرفتك حتَّى أتمكَّن من إيجادك".

"لكنهم لن يسمحوا لكِ بالدخول".

"أنا من آل دوفت"، قالت بكبرياء.

درستُ مهاجع الرهبان، وجدتُ النوافذ الصغيرة في السقف، وعددتها بعناية من نهاية السقف.

"هذه نافذتي"، قلت، وبقلمِها الرصاص رسمتُ علامة X.

في الأسبوع التالي سألتُها لماذا لم تأتِ. "كنتُ منشغلة"، أجابت. "في الأسبوع القادم سأتدبَّر الأمر. انتظرني في المساء".

وهذا ما فعلته... كل مساء لأشهر كثيرة، لكنها أبدًا لم تأتِ.

* * *

حلَّ وقت في الصيف التالي كان للهواء الرائق، الجاف، الوفير، تأثيرٌ جيِّد على حالة السيدة دوفت، وغنَّيتُ لها كل أسبوع. ثم جاءَ الخريف بأمطاره، وحينها ساءت حالتها مُجدَّدًا. لشهرين لم أغنِّ لها على الإطلاق. صرتُ مُجدَّدًا صبيَّ جوقة فحسب، رغم أنني كنتُ أفضِّل الحفلات السرية مع هاتين المرأتين من آل دوفت على أيِّ مسرح في أوروبا.

ثم ذات صباح، ظهر واحد من الجنود الذين يحرسون بوابة الدير في غرفة التدريبات أمامنا.

"على موسى صبي الجوقة أن يحضر معي"، قال لأولرتش. "رئيس الدير يأمر بذلك".

ارتعبتُ. لكن أولرتش صرفَني لأذهب مع الجندي، وبدلًا من رئيس الدير، وجدتُ كارولين دوفت تنتظرني عند البوابة.

"تعال"، قالت، واستدارت على عقبَيْها. سرتُ وراء مخروط المرأة ذاك عبر السوق المزدحم، الذي كان ينفتح لها كانشقاق البحر. لم تَقُل شيئًا حتى غادرنا الشوارع المكتظّة.

"يقول الطبيب إنها ستموت"، قالت، وكأنها تتحدّث عن فرَسٍ عجوز حانَ أجلها. "طلَبَت حضورك، ولم يمانع (السيد دوفت). اعترضتُ، لكنه فقدَ عقله". زادت من سرعة مشيها، واضطررتُ للركض تقريبًا. "واحد من آل دوفت بدون عقله لا يُعدُّ واحدًا من آل دوفت. ظلَّت تلك المرأة في الفراش لسبع سنوات. لم تفعل سوى تعطيل تقدُّمِنا واستنزاف ثروتنا. والآن تريد حفلةً موسيقية". توقَّفَت بغتةٍ واصطدم رأسي بمؤخرتها الناعمة. تطلَّعَت إليَّ باستهانة. تنشَّقت. "أعتقد أنك تريد أتعابك".

لم تكن لديَّ أي فكرة أن المغنِّين قد يتلقون أجرًا على غنائهم.

"وستحصل عليها، أنا متأكدة. رئيس دير مُبارك واحد، وأرواح كثيرة تُثقل عليه. لا أعرف كيف يتحمَّل هذا، لا أعرف!".

كنتُ معتادًا للغاية على إرشاد ريموس عبر الشوارع لحدِّ أنني عندما سمعتُ ضربات ساطور الجزَّار، وضعتُ يدي على خاصرة كارولين الواسعة ودفعتها.

عَوَت وصفعت أذني براحتها. "أنت أيُّها الطفل المُقزِّز!".

فركتُ أذني فيما ننعطف حول الناصية. دلَّكَت هي خاصرتَها وكأن لَمْستي قد أحرقتها. "من المؤسف أن هذه المدينة تمتلئ بأتباع المذهب البروتستانتي. حتَّى الأطفال الآن يتحرَّشون بالنساء. كيف

يمكـن لڤيليبالـد أن يجـد زوجـةً هنـا؟ سـيكون عليـه أن يذهـب بعيـدًا. إلى إنسـبروك. أو سـالزبرج. لا بُـدَّ أن أكتـب خطابًـا الليلـة".

استدارت لتهزّ إصبعًا أمام وجهي.

"أنـت صبـي جوقـة. ينبغـي أن تكـون أفضلهـم جميعًـا، وانظـر إلى نفسـك. في سـنتين سـتتطلّع إلى أماليـا مـن رأسـها إلى قدميهـا، حتّـى مـع تشـوُّهها. وربمـا تـردُّ لـك الابتسـامة، بمعرفتـي لهـا". هـزَّتْ كارولـين رأسـها في امتعـاض. "طفـل واحـد! وفتـاة!".

* * *

وصلنـا إلى منـزل آل دوفـت، ودلفـتُ للمـرة الأولى عـبر الأبـواب الرئيسـية إلى بهـو الاسـتقبال الـذي يشـبه القصـور. كان عبـارة عـن قاعـة بارتفـاع طابقـين، بـدَرَج مـزدوجٍ عريـض، وحوائـط هائلـة مُجصَّصـة، حتـمًا تخفـي أكوامًـا مـن الحجـر الجـيري المُرجِّـع للصـدى، لأن بهـو الاسـتقبال هـذا بـدا وكأنـه مـسرح في منـزل آل دوفـت؛ قنـوات صوتيـة لا تُحـصَى تتلاقـى في هـذه البهـو. وبَّخَـت المُربِّيـة مـاري ضحيـةً مـا بالفرنسـية. صرَّ خنزيـرٌ صغـير. انغمسـت ممسـحة في دلـو. شـقَّ سـاطورٌ عظمـةً. ثرثـرت خادمتـان في حجـرة غسـل الصحـون. أنَّـتْ الريـح عـلى طـول السـقف.

صعَـدَت كارولـين دوفـت حتـى مُنتصـف الـدَّرَج، تاركـةً إيَّـاي مذهـولًا في مـكاني، غارقًـا في الأصـوات مـن حـولي. اسـتدارت وقالـت بعصبيـة: "أغلـق فمـك. تبـدو كالأبلـه. ألم تَـرَ ثـراءً كهـذا مـن قبـل؟".

أعتقـد أنهـا كانـت تعنـي السـجاجيد السـميكة، وأثـاث خشـب البلـوط، والبورتريهـات الرديئـة لآل دوفـت عـلى الجـدار. بالنسـبة لصبـي جوقـة مـن كنيسـة سـانت غـال، كان كل هـذا لا شيء.

تَبعتها عبر أروقةٍ ملتوية، حتّى ظهرَ بيتر المُطيع، قابعًا في موضعه.

"موسى!" نهض كحارس يُحيِّي جنرالًا، ثم أدرك أنه نسيَ تسجيل وصولي، راجعَ ساعته، ودوَّن اسمي قبل العودة إلى وضع الانتباه. قدَّم لي قناعًا من الفحم.

"إذن لم يستسلم العِلم بعدُ!" قال. "كنت أعرف أنك ستعود مُجدَّدًا. في الوقت المناسب بالكاد أيضًا. يقول الطبيب إن كل ما في مقدورنا فعله هو الصلاة، لكننا للأسف لا نصلِّي هنا في منزل آل دوفت".

"بالتأكيد نصلِّي!" قاطعته كارولين.

"أعني"، قال الكاتب المخلص، وكأنه يلاحظ الإجاصة البشعة للمرة الأولى، "العِلم هو طريقتنا في الصلاة".

"لو كانت هناك صلواتٌ أكثر وعِلمٌ أقل في هذا المنزل"، قالت كارولين، "لم نكن لنواجه كل هذه المتاعب".

"نعم يا سيدتي"، قال بيتر. بدا منزعجًا بشكل بشع، ولهذا خربش هوامشه، وكأن لديه مبلغ هام جدًّا عليه حسابه.

"حسنًا، ادخل"، قالت لي. "لا تنتظرني؛ لن أخاطر بصحتي الفيَّاضة".

منحني بيتر نظرة خاطفة أخيرة، غارقة في الأمل، وكأنها هتاف للعِلم. أو للموسيقى. أو لكليهما.

* * *

كانت أماليا جالسةً على أحد جانبي فراش أمِّها، والسيد دوفت على الجانب الآخر. كانت عيناه ممتلئتين بالدموع، لكنه مسحهما على الفور، ناهضًا من مقعده فيما أدلف. خطا ناحيتي مُسرعًا وشعَّثَ شعري. بعدها، ظلَّت يده على رأسي وكأنه نسيَ أين وضعها. وقفنا في هذا الوضع لدقيقة فيما يحدِّق بعينيه اللامعتين في الباب ورائي. أماليا تجلس في مقعدها ولا تنظر إلى أيِّنا.

"لقـد أخفقنـا يـا مـوسى"، قـال دوفـت أخـيرًا. "حاولنـا، لكننـا أخفقنـا. لم نَنـل مـا يكفـي مـن الفُـرَص، هـذه هـي المشـكلة. ليـس مُنصفًـا، كيـف تمـضي الأمـور. المـرض ينـال كل الفـرص التـي يريدهـا، ولا ننـال نحـن سـوى القليـل جـدًا. لـو كان الأمـر معكوسًـا لكُنّـا عثرنـا عـلى الحـلّ بطريقـةٍ أو بأخـرى. رغـم ذلـك، أشـكرك عـلى محاولتـك. أنجـزتَ شـيئًا نبيـلًا".

تطلّعـت أماليـا إلى جسـدِ أمِّهـا الخامـد في الفـراش. لم تسـتطع أنفـاس المـرأة السـقيمة أن تجعـل الغطـاء يرتفـع وينخفـض حتـى.

تابـعَ دوفـت. "طلَبَـت حضـورك باكـرًا، لكـن انتهـى الأمـر الآن. يقـول الطبيـب إنـه لم تَعُـد هنـاك فائـدة مـن الأمـل. أحضرنـاك إلى هنـا مـن أجـل لا شيء. يمكنـكَ..." اختنقـت كلماتـه بغتـةً. غطّـى فمـه، ورأيـت أن استـغناءه عـن خدمـاتي كان العلامـة عـلى استسـلامه، للمـرة الأولى ربمـا في سـبع سـنوات بعـد مـا لم يعـد الأمـل يُوهمـه بأفعـالٍ لا طائـل منهـا.

أنصـتُّ لأنفـاس السـيدة دوفـت: هادئـة وقصـيرة. ثـم تطلّعـتُ إلى صديقتـي مجـدَّدًا. بـدت أماليـا المنطلقـة التـي أعرفهـا خاويـة وهشّـة، وأدركـتُ أنـه عندمـا ترحـل هـذه المـرأة في نهايـة المطـاف، سـتكتمل وحـدة الفتـاة. لـن تجـد أحـدًا بعـد الآن ليُمسـك بيدهـا ويُمسِّـد شـعرها، لـن تجـد صديقًـا تتباهـى بـه وتَحلُـم معـه؛ ذلـك أن وظيفتـي في منـزل آل دوفـت سـتتلاشى مـع تـلاشي أمِّهـا.

أنـا، أيضًـا، بـدأت في البـكاء، مـن أجـل الأم والابنـة... لكـن أيضًـا مـن أجـل نفـسي. أومـأَ دوفـت، بالدمـوع في عينيـه ليُجـاري دموعـي، مُتبـصِّرًا وكأنـه صـارَ مُهيَّـأً أخـيرًا للاعـتراف بوجـود الحـزن في العـالم. قـادني إلى البـاب.

"غنِّ أرجوك"، قالت أماليا، ذاهلةً، دون أن ترفع بصرها.

"عزيزتي"، قال دوفت، "لا فائدة من ذلك. إنها ليست مستيقظة".

"أرجـوك"، قالـت. تصـدّع صوتهـا، لكنهـا لم تبـكِ. لم أكـن قـد رأيـتُ الدمـوع قـطُّ عـلى ذلـك الوجـه.

وهكـذا، بالتعـارض مـع الحـسّ العلمـي، بـدأتُ في الغنـاء. مـن تلـك المكتبـة الموسـيقية الصغيرة في رأسي، اخترتُ أجـزاءً مـن (قُـدّاس للقديـس أنتـوني) لدوفـاي، مقطوعـة كُتِبَـت عندمـا كانـت الموسيقى مـا تـزال نقيّـةً ورائقـة،ب وكأنهـا نبـع جبـلي غـير عميـق مقارنـةً بالمحيطـات الموسـيقية السـحيقة لزماننـا. كانـت السـيدة دوفـت قـد سـمعتها مـرّات كثـيرة، وأعـرف أنهـا أحبّـت (المجـد للـه في الأعـالي).

غنّيـت. حـدّقَ دوفـت في جسـد زوجتـه النائـم. غطّـت أماليـا وجهـه بيديهـا وأطلقـت أخـيراً كل الدمـوع التـي حبَسَـتها داخـل روحهـا طـوال سـنين الزيـارات العصيبـة هـذه. غنّيـتُ بصـوتٍ أعـلى. بـدأ المصبـاح فـوق رأسي في الرنـين. لم يُصـدر جسـد دوفـت أيَّ صـوت. السـيدة دوفـت، أيضًا، لم تسـتقبل صـوتي. لكـن أماليـا بَكـت بنشـيجٍ أقـوى، انفتـح جسـدها لصـوتي، وصـار يـرنُّ بخفـوتٍ كالمصبـاح فوقنـا، صـوتٌ لم تسـتطع سـماعه، لكننـي أملـتُ أنهـا شـعرت بذراعـيَّ الدافئتـين وكأنهـما تلتفّـان حـول عنقهـا.

وضَعَت رأسها على حافة فراش أمِّها وانتحبت.

ثـم بغتـةً، رفـرفَ جفنـا السـيدة دوفـت. نظـرتُ، وكـما في اليـوم الأول الـذي غنّيـتُ فيـه لهـا، رأيـتُ مجـدّدًا صـدى أمـي في هاتـين العينـين.

مـدّت يـدًا ناحلـة، مرتعشـة، لتلمـس رأس ابنتهـا البـاكي. جفلـت أماليـا، اعتدلـت، وحاولـت إيقـاف دموعهـا، لكنهـا كانـت غزيـرة، وقـد انتظَـرَت وقتًـا طويـلًا جـدًّا لتتسـاقط. ولم تسـتطع هـي هـذه المـرة كبحهـا. تناوَلَـت يـد أمّهـا وبكـت فيهـا، مُمسـكةً بالعظـم والجلـد عـلى خدّهـا المبتـل. لم تسـتطع السـيدة دوفـت احتضانهـا؛ حتّـى جفناهـا كانـا ثقيلَـيْن.

تابعـتُ الغنـاء. كان صـوتي قويًـا، قويًـا بمـا يكفـي لاحتضـان أماليـا فيـما تبـكي، قويًا بما يكفـي لمحاربـة المـوت. غنّيـتُ بصـوتٍ أعـلى. كانـت

ذراعـاي بـلا وزن برنينهـما؛ بـدت قدمـاي وكأنهـا ترتفعـان عـن الأرض، حتـى صرتُ مثـل جـرسٍ يتـدلَّى مـن السـماء. لم يـرنَّ صـوتي في المصبـاح فحسـب، لكنـه كان يـرنُّ أعـلى في أماليـا الآن، ويطنطـن في ألـواح الأرضيـة، في السـقف، وفي حـوافِّ النوافـذ وراء الفـراش.

التهَمَـت جُـدران ذلـك المنـزل صـوتي ورجَّعـت صـداه. امتـلأت كل واحـدة مـن المليـون مليـون صَدَفـة الصغـيرة تلـك بصـوتي وتناقلتـه في سلسـلةٍ مـن الأغنيَّـات، حتـى اندمـج المنـزل بأكملـه في الغنـاء. ثـم تمـادى صـوتي أكـثر: إلى الأرض تحـت المنـزل وفي الخـارج إلى السـماء، وسرعـان مـا أدركـتُ أننـي أجعـل العـالم بأكملـه يهتـزُّ، تمامًـا كـما كانـت أمِّـي تُجلجـل العالَـم بأجراسـها. كان الاهتـزاز سـاكنًا، لم يسـمعه أحـد سـواي، لكـن كل إنسـان في آل دوفـت كان بمقـدوره الشـعور بـه كـدفءٍ يجعلهم يبتسـمون.

غنّيـتُ أعـلى وأعـلى، ونفـضَ صـوتي الغبـار والقـذارة التـي تُثقـل علينـا. طـردَ الحـزن والمـرض. طـرد الخـوف والكمـد. هـزَّ الخنـوع وحوَّلـه إلى شـجاعة. نهـضَ المـرضى مـن فُرُشِـهم. زعـزعَ صـوتي اليـأس في أعينهـم. نفضَ الوَهَـن مـن أجسـادهم، والمـرض مـن رئاتهـم. نِلنـا مُجـدَّدًا مـا كنَّـا فقدنـاه.

(3)

لم تَمُت السيدة دوفت في ذلك اليوم، لكنها كانت المرة الأخيرة التي سمعَت فيها صوتي. بعدها بأسبوع، غنَّينا (ترتيلة جنائزية *Trauermusik*) في جنازتها.

أبدًا لم أُدعَ مُجدَّدًا إلى منزل آل دوفت. انتهت صداقتي مع أماليا، أو هكذا بدا لي في الأسابيع التي أعقبت الجنازة. رأيتُها كثيرًا، رغم ذلك، لأنه مع ازدياد تأثير عمَّتها على المنزل، كانت أماليا تُؤخذ إلى القُدَّاس كل يوم تقريبًا. عندما أجلس بين صبيان الجوقة غير المؤذِّين الآخرين قُرب المذبح العالي، لم تكن تتوفَّر لي فرصةٌ للاقتراب من الشبيكة التي تفصل صحن الكنيسة إلى نصفين؛ لكن في المرَّات التي أغنِّي فيها، كنت أتسلَّلُ إلى بوابة الشبيكة قُرب جدار الكنيسة. كانت تلك البوابة موصدة دائمًا ولم تُستخدَم أبدًا. كان بمقدوري الاختباء إذا التصقتُ بالعمود الحجري المُثبَّتة عليه مفصَّلاتها. عبر الزخارف

المعدنيـة للبوابـة اقتنصـتُ نظـراتٍ إليهـا وهـي خلـف عمَّتهـا مبـاشرةً، بـين حشـد المُصلِّـين الخارجـين مـن بـاب الكنيسـة.

لأشـهرٍ كثـيرة لم أفعـل سـوى اختـلاس النظـر إليهـا مـن بـين وريقـات الشـجر الذهبيـة، لكـن ذات يـوم أحـد، لم أسـتطع المقاومـة؛ شـدوتُ باسـمها بخفـوتٍ. نظَـرَت إلى يسـارها، إلى يمينهـا، إلى ورائهـا. كثـيرٌ مـن المُصلِّـين الآخريـن أداروا أنظارهـم أيضًـا -حمـدًا للـرَّبِّ أن عمَّتهـا صـمَّاء تقريبًـا- ثـم مـرَّت خارجـةً مـن البـاب. فعلـتُ نفـس الـشيء في القُـدَّاس التـالي الـذي غنَّيـتُ فيـه، ومُجـدَّدًا في الـذي يليـه. في تلـك المـرة الثالثـة، لاحظـتُ أنهـا تسـير ببطـء، تنتظـر أن تسـمع اسـمها، وعندمـا همسـتُ بـه، اسـتدارت لتنظـر إليَّ مبـاشرةً في عينـيَّ عـبر بوابـة الشـبيكة.

في المـرة التاليـة التـي غنَّيـتُ فيهـا، بعدهـا بأسـبوعين، لم أضطـرَّ لمناداتِهـا. سـمعتُ تقـول لعمَّتهـا إنهـا ترغـب في رؤيـة التمثـال الجـصِّي للقديـس غالـوس، الـذي يزيِّـن الجـدار بجـوار الشـبيكة مبـاشرةً. رفعـت كَارولـين بصرهـا إلى التمثـال وكأنهـا تشـكُّ أن هنـاك خدعـة مـا في الأمـر، لكـن فيـما تسـتقرُّ عيناهـا عـلى القديـس راعـي الكنيسـة، أومـأت بموافقـة وخَطَـت خارجـةً عـبر بـاب الكنيسـة. خَطَـت أماليـا إلى المُجسَّـم، ولـولا الزخـارف المنسـوجة بكثافـة للبوابـة، لـكان بمقـدوري مـدُّ يـدي وملامسـة كتفهـا. أحنَـت رأسـها. لوهلـة شـككتُ أنهـا أدركـت أننـي هنـاك.

تجهَّمَ وجهها التَّقيُّ. "ستقع في المتاعب"، قالت.

"وكذلك أنتِ".

"لكنني لا أبالي"، قالت بكبرياء. "لا أخاف منها".

"لا أخاف منها أيضًا"، كذبتُ.

تجهَّمَت مجدَّدًا، ثم قاومت التجهُّم. بدت أنها عادت إلى صلواتها.

"سآتي كل أحد"، قالت بغتةً بصوتٍ عال.

"فقط عندما أغنِّي. الأحد القادم هو عيد العنصرة".

"أعرف متى تغنِّي. يمكنني سماعك".

"حقًّا؟".

"نعم. حتَّى وإن كان هناك عشرون صوتًا آخر يغنِّي".

"كيف تعرفين أنه أنا؟" سألتها.

"لا تكن أحمقَ. أعرف". نظَرَت إلى عينَيَّ. ابتسَمَت بدفء. "عليَّ أن أذهب". خطت مُبتعدة والتحمت بتيَّار المُصلِّين الخارجين من الباب الشمالي.

في عيد العنصرة، تمامًا كما وعدتني، عندما ضغطتُ بعينَيَّ على البوابة، مُستكينًا وراء العمود الكبير حتَّى لا يراني أيُّ راهب، كانت هناك، تُخبر عمَّتها مجدَّدًا أنها تريد الصلاة أمام القديس. إيماءة موافِقة من كارولين.

"قلتُ لكَ سآتي"، قالت.

تحادثنا لمدة ثلاثين ثانية، ثم رحلت. حدَثَ نفس الشيء في المرة التالية التي غنَّيتُ فيها، وفي كل يوم أحد بعد ذلك لشهورٍ طويلة. أبدًا لم نتحادث طويلًا؛ خشية أن يمسكوا بنا، ورغم أنني كنتُ أرى كل ما يمكن رؤيته منها، إلَّا أنها لم ترَ منِّي أكثر من تلك العين الواحدة وكَسرات ردائي الكنسي الأسود.

"يا لها من حيزبون"، تلفَّظَت أماليا في ظهر عمَّتها المُنسحبة ذات يوم أحد. "الآن تقول إنني لا أستطيع المشي إلى الكنيسة".

"لماذا؟" سألتها.

"'الفتيات من سنِّك لا يجدر بهنَّ السير في الشوارع، حتَّى مع مُرافقة'. هل سأقضي حياتي في ذلك المنزل أو في عربة تجرُّها الأحصنة؟

معها؟، 'سأجعل منك سيدة حقيقية'، تقول، 'حتّى لو كلّفني ذلك حياتي'. أتمنّى أن يحدث هذا. فقط لو تَسرِقُ كلُّ لطخةِ غُبارٍ على فستاني ساعةً من عمرها. إنها غاضبة فحسب لأنها عانس، لكن هذا لا يعني أن تجعل منّي السَّيِّدة التي تتمنّى لو كانَتْها". تورّد وجهها بالغضب.

"أعتقد أنك سيدة بالفعل"، قلتُ.

ضمَّت أسنانها بقوة، لكن الضحك انفجر من أنفها. كَبحت شعورها بالحرج.

"وما أدراك؟".

لم أجبها حينها، لكنني كنتُ أرى كل أسبوع أن ما قلته كان حقيقيًا: أنها في طريقها لُتصبح سيدة. الذَّهبيُّ في شعرها ازدادَ دُكنةً قليلًا. وازدادت هي طولًا. لم يَعُد رأسي يصل إلى كتفها؛ ذلك أنني كنتُ مُتقزِّمًا. لم أكتسب سوى إنشٍ واحدٍ كل عام منذ ألقاني كارل ڤيكتور في النهر. كان لديَّ القليل جدًّا لإخبارها به في زياراتنا، فيما كان لديها الكثير. "تحاول لسنواتٍ استثارته برفق"، قالت ذات أحدٍ في صوم الأربعين، "لكن بالأمس غَضِبَت بشدّة أخيرًا لحدِّ أنها قالتْها بصراحة: 'آنَ الأوان يا ڤيليبالد. حان وقت إيجاد زوجة'. صُدمَ أبي! وكأنه اكتشفَ لصًّا يعبث في خزانته. تطلّعَ عبر المائدة، إليَّ ثم إليها. 'زوجة؟'، قال. 'زوجة؟ لا يا كارولين. لن أتزوج ثانيةً. أبدًا'. وعندما عاتبتْه، صرخَ -كما لم يصرخ من قبل قطُّ- 'لن أتزوج ثانيةً أبدًا. لا تتحدَّثي إليَّ في هذا الموضوع مُجدَّدًا'".

أخبرتني أماليا كيف أن أباها قد ازداد ثراءً فحسب. "بل إن رئيس ديركم الرهيب قد زاره في منزلنا! أردتُ الاختباء في غرفتي، لكن كارولين أجبرتني على الجلوس بخنوع بجانبها".

ثـمَّ عندمـا حـلَّ عيـد العنـصرة التـالي وانقـضى: "لم يَعُـد بمقـدوري احتـمال الأمـر يـا مـوسى. أمقُـتُ ذلـك المنـزل. إنـه كالسـجن. سـألتُ أبي إن كان بمقدورنـا السـفر. إلى مـكانٍ مـا، أيِّ مـكان. كنـتُ على اسـتعداد للسـفر بصحبـة كارولـين حتَّـى، لكـن الحيزيـون رفضـت التفكـير في الأمـر أصـلًا. 'سـتتزوَّجين قريبًـا'، قالـت، 'وحينهـا يمكنـكِ السـفر إلى منـزل زوجـك'".

* * *

عـلى النقيـض، لم تتغـيَّر حيـاتي إطلاقًـا، حتَّـى مـع تغـيُّر العـالم مـن حولي. في الجوقـة، وصـلَ صبيـان جُـدد ليحلُّـوا مـكان الذيـن بَلَغَـت أصواتهـم. كان فيـدر واحـدًا ممَّـن رحلـوا عـن الجوقـة بعـد وفـاة السـيدة دوفـت بفـترة قصـيرة. ذات يـوم، فيـما نتـدرَّب عـلى ثنائيـة جديـدة، وبينـما ينظـر إلينـا الصبيـان الآخـرون برعـبٍ، ارتقينـا أنـا وفيـدر معًـا في اسـتداراتٍ مُعقَّـدة، ومـرَّةً تلـو الأخـرى، تعـثَّرَ صـوت فيـدر ولم يسـتطع اللحـاق بصـوتي.

"إنـه يـؤدي بشـكل خاطـئ"، قـال زاعقًـا لأولرتـش، وأومـأ كل صبـي جالـس عـلى الأرض بعينـين مُتَّسـعتَيْن، رافضـين قبـول مـا لا سـبيل إلى تفاديـه.

"مـوسى يـؤدي بشـكل مُتقَـن". قـال أولرتـش مُؤنِّبًـا. "دائمًـا مـا يفعـل". ابتسـمَ لي، وانكمشـتُ خوفًـا؛ ذلـك أنـني كنـتُ أدرك أن هـذا النـوع مـن الإطـراء سـيزيد مـن كراهيـة الصبيـان لي.

"هذه المرة يؤدي بشكل خاطئ"، أصرَّ فيدر.

"إذن فغـنِّ المقطوعـة بمفـردك"، عـرضَ عليـه أولرتـش. اسـتدرنا جميعًـا لننظـر إلى فيـدر، كان الاحمـرار يزحـف إلى عنقـه، فيـما يَـشرَع في الغنـاء. ضـمَّ الصبيـان قبضاتهـم وهـزُّوا رؤوسـهم بحـماس، وكأنهـم يهتفـون لحصـان. ارتقـى في الغنـاء، ولسـانه الرشـيق يشـطر كل نغمـة، ثـم مجـدَّدًا، تعـثَّرَ؛ لم يسـتطع الوصـول إلى النغمـة. تحامـلَ عـلى صوتـه، وتراجـع كل

صبيٌّ فيما صوته يتشقَّق إلى نشازٍ صارٍّ. غَشِيَنا الصمت. استدارَ فيدر إليَّ ورفعَ إصبعًا، ورغم أنني تراجعت، إلَّا أنه لم يجد إهانة مناسبة. انسحبَ خارجًا من الغرفة.

ظلَّ معنا لبضعة أيَّام، يغنِّي بهدوء في الخلفية، ملقيًا نظرات غاضبةً عليَّ كل ثانية. في يوم تدريب فيدر الأخير، طلبَ مني أولرتش قيادة الصبيان في السلالم الموسيقية، التي كانت تلقائيَّةً وجليَّةً لي كما الألوان للرسَّام. لدقيقتين، أنصتَ قائد الجوقة لي فيما أغنِّي ويُكرِّر الصبيان الآخرون ورائي في تناغُم. لم يغنِّ فيدر حينها. "استَمِرَّ حتى أعود"، قال أولرتش وغادر الغرفة.

كالمُعتاد، تداعت هَرَميَّة الموهبة في اللحظة التي اختفى فيها. لسُلَّمَين أو ثلاثة، استمرَّ الصبيان في تقليد نغماتي، لكن بحماسٍ أقلَّ، ثم بدؤوا في التململ وخفض أصواتهم، حتى صرتُ أغنِّي بمفردي في نهاية المطاف.

ترنَّحَ صوتي، ووقفتُ صامتًا أمامهم كملكٍ خُلعَ عن عرشه. لم ينظروا إليَّ، لكنني شعرتُ بازدرائهم لي. فيما يحتشد الصبيان حول فيدر، عاودتني فكرة أن صوتي، بكل كمَالِه ومثاليَّته، لا يعني شيئًا في العالم الواسع في الخارج، عالمٌ سيعود إليه قريبًا فيدر عالي النَّسَب، وإليه سألقى أنا أيضًا ذات يوم، عاجزًا وبائسًا.

ثم أدارَ فيدر ظهره إليَّ وسحبَ شيئًا من تحت قميصه، كان من الواضح أنه يريد إخفاءه عنِّي. اقترب حشد الصبيان منه أكثر، وصمتوا على الفور عند مرأى ما يحمله. نظرَ واحدٌ أو اثنان منهم بعصبية إلى الباب، الذي سيعود عبره أولرتش بعد قليل، لكنهم سرعان ما أشاحوا بنظرهم عن كنز فيدر الغامض. لم أجرؤ على الاقتراب من المجموعة، رغم أنني كنتُ أحترق بالفضول بالطبع. كنت على يقين أن ما يحمله كان دليلًا ضدي.

بعـد بضـع دقائـق، كان الصبيـان أثناءهـا يتدافعـون كالخنازيـر عـلى حـوض مـاء، اسـتدارَ فيـدر ناحيتـي. كان يضـمُّ ورقـة صغـيرة عـلى صـدره.

"هـل تحـبُّ أن تـرى يـا مـوسى؟" سـألني، وتحـت سـتار تلطُّفـهٍ، كإيقـاعٍ راعـد يتصاعـد ببـطء عـلى غشـاء طبلـة، سـمعتُ تهديـدًا. لكـن فيـما يخطـو للأمـام، تمنَّيـتُ أن يكـون هـذا فصـلًا أخـيرًا يملـؤه السـلام. اقتربـتُ منـه. ابتسـمَ ومـدَّ الورقـة إليَّ.

كانـت رسَـمةً بالقلـم الرصـاص، بشـحم عـلى حـوافِ الورقـة نتيجـة تمريرهـا عـبر أيـادٍ شـابَّة كثـيرة، تُصوِّر امـرأةً تسـتلقي عاريـةً عـلى فـراش، سـاقاها منفرجتـان، مـع كهـفٍ مُظلـم في موضـع التقائهـما. كانـت عيناهـا كبيرتَـيْن عـلى نحـو مسـتحيل. تُحدِّقـان بلهفـةٍ في رجـلٍ يقـف فـوق رأسـها، مـن بطنـه يمتـد عضـوٌ عمـلاق، منتفـخ. خصيتـان تتدلَّيـان عـل جانبيـه، كشـمَّامتين في شِـوال.

زحـفَ الفـوران عـلى عنقـي وأحـرقَ خـدَّيَّ. تضاحـكَ الصبيـان مـن الصدمـة عـلى وجهـي. تمايلـوا عـلى بعضهـم البعـض لمنـع أنفسـهم مـن السـقوط فيـما يسـتغرقون في الضحـك. بالطبـع، كنـتُ سـمعتهم يتحدَّثـون عـن مشـهدٍ كهـذا مـن قبـل، لكننـي لم أتخيَّلـه بهـذه الوضـوح في عقـلي قـطُّ. رفـعَ فيـدر الصـورة أمامـي لمـا بـدا أنـه سـاعات، لكننـي لم أسـتطع انتـزاع عينَـيَّ عـن الرجـل، عـن عضـوه، عـن الثُّقـب الأسـود بـين سـاقَيْ المـرأة. أبعـدتُ عينَـيَّ أخـيرًا واتَّجهـتُ بهـما إلى الأرض.

"ألا تريد أن تنظر إليها أكثر؟" همس فيدر بوحشية.

أردتُ ذلـك. بالطبـع أردت، لكننـي أدركـتُ أنـه لا ينبغـي أن أجعلهـم يـرون تلهُّفِـي.

"هـل رأيـتَ امـرأةً عاريـةً في حياتـك مـن قبـل؟ هـل تعـرف أصـلًا مـا يعنيـه هـذا؟" قـال فيـدر ببـطء شـديد، وكأنـه يتحـدَّث إلى معتـوه. أشـارَ إلى مـا بـين سـاقَيْ المـرأة، وانفجـر الصبيـان وراءه في ضحـكٍ مُهتـاج.

تحامَلْتُ على نفسي لأنظر إلى الأرض مُجدَّدًا. شعرتُ بتحديقاتهم عليَّ كهِرَاواتٍ ناخزة. "أو ربما"، قال، وقد استدار الآن ليتحدَّث إلى الصبيان، "لا تثير هذه المرأة اهتمامه على الإطلاق. ربما تُفضِّل الرجل".

توقَّف الضحك الآن، ولم يبقَ سوى الصمت.

عندما طَرَفتُ بعيني، بدا دَفق الدموع عاليًا لحدٍّ أنني تيقَّنتُ أن كل صبي كان بمقدوره سماع خِزيي.

"سأرحل اليوم"، قال فيدر أخيرًا، بخفوتٍ يكفي ليبدو أنه يتحدَّث إليَّ أنا وحدي الآن. "أنا سعيد جدًّا لأنني لن أضطرَّ أبدًا لمشاركة الجوقة مع واحدٍ من أمثالك مُجدَّدًا. كنتُ أتمنَّى، رغم ذلك، لو استطعتُ البقاء لفترة أطول قليلًا، حتى ترحل أنت في النهاية. وددتُ أن أرى هذا الدير وقد عادَ إلى ما كان عليه مُجدَّدًا. بدونك. بدون الراهبَيْن القذرَيْن، صديقَيْك الوحيدَيْن".

أدركتُ حينها أن سرَّ نيكولاي وريموس كان قد انتشرَ منذ زمن طويل في الدير. طالما همسَ الصبيان بشأنهما، لكن هذه كانت أول مرة ينطق أيُّ أحدٍ بالسِّرِّ بصراحةٍ هكذا. انفجرَ خجلي من هذه الصورة، وحبِّي لصديقَيَّ، وتحوَّلَ إلى غضب. اختطفتُ الصورة من يد فيدر ومزَّقتُها إلى نصفين. مزَّقتها مُجدَّدًا فيما يُسقطني أرضًا، لكنني فقدتُ القصاصات فيما يركلني بقدمه.

انكسرَ الصمت. تجمَّع الصبيان حولنا، وكان بمقدوري سماع الكراهية في أصواتهم وهم يهتفون في فيدر "اركل الكلب". أطلقَ العنان لأفضل ما لديه. انسابت الدماء من فمي حتَّى تيقَّنت أنني لن أتنفَّس ثانيةً أبدًا. وطوال كل هذا، فيما غضبه يزداد اهتياجًا بشكل غير مفهوم، ما زلتُ أسمعهم يهتفون ساخرين، "اركله يا فيدر! حان الوقت لكي يفهم! اجعله يدفع الثمن!".

ثمن ماذا؟ حاولت أن أصرخ. أدفع ثمن ماذا؟

في اليـوم التـالي رحـلَ. بقيـت في الديـر، كأكـبر صبيـان الجوقـة سـنًّا وأكثرهـم موهبـةً وأقلُّهـم نيـلًا للاحـترام. تـراءى لي حينهـا أن حيـاتي لـن تتغـيَّر أبـدًا.

(4)

بعد عامٍ من وفاة السيدة دوفت، بدأتُ في النُّموّ.

كان الأمـر وكأن كل غنائـم نيبلـمات تلـك، كل سـيقان جِمـلان سـانت غـال تلـك، كل لحـم الخنزيـر ذلـك، ولحـوم الضـأن، والأجبـان، وثمـار اللـوز، والحليـب، وخمـر التفـاح، والنبيـذ، كانـت تخزَّنـت وتراكمـت في جسـدي الضئيـل، ثـم اكتشـفتُ، بغتـةً، كل ذلـك الوقـود المُختبـئ واسـتخدمته للانبثـاق أخـيرًا مـن صَدَفتـي.

بـدأ الأمـر، ذات يـومٍ أثنـاء تدريبـات الجوقـة، كألمٍ خامـد في يـدَيَّ وقدمَـيَّ. اسـتمرَّ الوجَـع لبضعـة أسـابيع، ثـم اسـتيقظتُ ذات صبـاح لأكتشـف أنـه انتـشرَ إلى ركبتـيَّ وخـصري، ومرفقـيَّ، ثـم إلى كل مفاصـلي. صـار يؤلمنـي بشـدَّة لدرجـة أننـي لم أسـتطع النـوم. امتـدَّ الألم إلى مِحجـرَيْ عينـيَّ، وظننـتُ أن جمجمتـي ستنشـقُّ. في سـتة أشـهر تضاعـف حجـم يـديَّ وقدمـيَّ؛ في سـنة صرتُ أطـول بمقـدار رأس.

في الديـر أثـار نُمُـوِّي القلـق، كاحتشـاد سـحبٍ داكنـة. "سـنرى أوقاتًـا عصيبـة"، قـال لي نيكـولاي ذات ليلـةٍ في صومعتـه. أخـبرني أن صـوتي سيتشـقّق قريبًـا، وأنني لـن أعُـد مـؤدّي سـوبرانو.

"لا أحـد يعـرف مـاذا سـيحدث"، قـال. "ربمـا تصبـح تينـور، أو ربمـا بـاص". كان يأمـل أن يكـون أولرتـش خـيّرًا بمـا يكفـي ليجـد لي طريقـة للبقـاء في الديـر. شـتاوداخ، أخـبرني نيكـولاي، ربمـا لـن يوافـق عـلى جَعـلي راهبًـا مُبتدئًـا، دون أبٍ ثَـريٍّ يتـبرّع للديـر مـن أجـلي، لكـن ربمـا يجعلنـي أُلمّع الفضّـة حتـى يسـتقرّ صـوتي في وضعـه النهـائي. "حينهـا"، قـال نيكـولاي، "نسـتطيع أن نجـد أفضـل مـكان متـاح لتبـدأ فيـه مهنتـك". أومـأ وكأنـه عـالم ببواطـن الأمـور. "ڤينيسـيا، عـلى الأغلـب".

"مهنتي؟" سألته.

"تريد أن تكون موسيقيًا، أليس كذلك؟".

فكّرتُ في هذا. "مثل بوجاتي؟".

"حسـنًا"، قـال نيكـولاي، وألقـى بنظـرةٍ خاطفـة عـلى ريمـوس، المُسـتغرق في كتابـه، "تقريبًـا. ربمـا يسـمح لي شـتاوداخ بأخـذِكَ في رحلـة. بمقدورنـا أن نغنّـي في أعظـم كاتدرائيـات أوروبـا". لـوّح نيكـولاي بذراعـه وكأنـه تلـك الأبنيـة المهيبـة تصطـفُّ عـلى جـدار صومعتـه.

أخبرته أنني أحبُّ ذلك.

"بالطبـع"، قـال، "في المـرة القادمـة التـي أغـادر فيهـا هـذا المـكان، أشـكُّ أن شـتاوداخ سيسـمح لي بالعـودة مـرّةً أخـرى. لكـن حينهـا سيكون بمقدورنـا تشـييد ديرنـا الخـاص- أنـت وأنـا وريمـوس". عنـد هـذا، رفـع ريمـوس بـصره عـن كتابـه. نخـرَ، ثـم عـادَ إلى صفحاتـه. تجاهَلَـه نيكـولاي. "أمـر واحـد مؤكّـد: إذا سُـمحَ لـك بالانطـلاق في جولـةٍ حـول العـالم وصرتَ ثريًّـا ومشـهورًا، فلـن تتركنـي وراءك!".

ابتسمتُ.

عـادَ للاسـتلقاء عـلى فراشـه وأغلـق عينيـه في ارتيـاحٍ ورضـا. "الآن ليـس علينـا سـوى أن ننتظـر صوتـك. كُـن صبـورًا".

* * *

ليـالي كثـيرة كنـتُ أقـف فيهـا عاريًـا أمـام المـرأة الصغـيرة في غرفتـي في العِلِّيَّـة وأتفحَّـص جسـدي الـذي كان يبـدو وكأنـه يتغـيَّر كل ليلـة. لقـد جعلـتُ منـك موزيكـو، قـال رابوتـشي حينهـا، والآن لم يَعُـد هنـاك شـكٌّ. كانـت هنـاك أصابـع بوجـاتي الطويلـة، الرقيقـة، صـدره المسـتدير، المُتكـوِّر، وكأنـه صـدر طائـر. صـار رأسي يحتـكُّ بالسـقف المائـل. كان بوجـاتي يبـدو لي طويـلًا قبـل سـنوات، لكننـي الآن صرتُ أطـول منـه، أطـول حتَّـى مـن كل الرهبـان باسـتثناء نيكـولاي. كان للرهبـان المبتدئـين مـن سِـنِّي شـعرٌ أحمـر فـوق شـفاههم، لم يكـن لـديَّ. كانـت تفاحـة آدم عندهـم تـبرز مـن أعناقهـم؛ فيـما كانـت عنـدي ناعمـة كأعنـاق النسـاء. كان جلـدي أبيـض ونقيًـا، مـع لمسـات خفيفـة حمـراء عـلى خـدَّيَّ، لكـن بـلا شـائبة واحـدة، بـلا أيٍّ مـن البـثرات التـي تمـلأ وجـوه الصبيـان الآخريـن. كانـت شـفتاي ممتلئتَيْن، لا تختلفـان كثـيرًا عـن شـفاه النسـاء، لكـنَّ أحـدًا لم يكـن ليُخطـئ هـذا الوجـه ويظنـه وجـه امـرأة. كانـت هاتـان العينـان نافذتَيْن للغايـة لحـدٍّ أننـي كنـت أجفـل في كل مـرَّة ألمحهـما في المـرآة. ومـع ذلـك كنـتُ أنظـر كل ليلـة؛ ذلـك أن مـا أراه في المـرآة لم يكـن رجـلًا، ولا امـرأة، بـل كان مَـلاكًا.

نَمـوَتُ حتَّـى فـاق حجمـي تلـك الكنيسـة. عَصفـتُ بالجوقـة، لأنـه حتَّـى عندمـا أغنِّـي بأخفـض درجـة كان صـوتي يجعـل صـوت الصبيـان الآخريـن مختنقًـا وبـاردًا. في لقاءاتنـا القصـيرة عنـد بوابـة الشـبيكة، حيـث مـا تـزال أماليـا تَحنـي رأسـها وتبـدو كأنهـا في صـلاةٍ لأيٍّ ممَّـن قـد يراهـا، كنـتُ أتـوق لأسـمع إطراءهـا عـلى غنـائي. "أوه، مـوسى"، قالـت ذات أحـدٍ،

"قلبـي يُرفـرف عندمـا تُغنّـي. مجـرّد التفكـير أنـك كنـتَ لنـا وحدنـا أنـا وأمّـي". صرتُ أختلـس النظـر عـبر فُرجـةٍ أعـلى الآن، لأتطلّـع مـن علٍ إلى جمالها. مـن وقـت لآخـر، تُلقـي هـي بنظـراتٍ خاطفـة لأعـلى، وأراهـا أنـا تحـاول تبـيُّن شـكلي البـشري عـبر تشـابُكات أوراق الشـجر الذهبيـة، لكنهـا أبـدًا لا تـرى هيئتـي الملائكيـة. "المـس يـدي"، قالـت لي ذات يـوم، بتهـوُّرٍ، متجاهلـةً انحناءاتهـا التَّقيّـة لوهلـةٍ حتـى تتطـاول وتُلامـس البوابـة. أُمـرِّر إصبعـين نحيلتَـيْن طويلتَـيْن عـبر فرجـةٍ وأفـركُ جلـد يدهـا الناعـم للحظـة. يحمـرُّ خدّاهـا فيـما تسـتدير مُسرعـةً للقـاء عمّتهـا.

كان الجميـع يتـوق إلى سـماعي. حتّـى البروتسـتانت كانـوا يجيئـون مـن المدينـة لسـماع قُدّاسـنا. في نهايـة المطـاف، صـارت الكنيسـة العملاقـة صغـيرة جـدًّا عـلى اسـتيعاب الحشـود. قسّـمَ شـتاوداخ المدخـل بحيـث يضمـن المصلُّـون الأكـثر ثـراءً، هـؤلاء الذيـن يحتـاج إلى رعايتهـم، مكانًـا للجلـوس في مقاعـد الكنيسـة، فيـما يتزاحـمَ الآخـرون للوقـوف في المؤخـرة. كان الجَمـع يتهامـس وينـام ويـأكل فيـما شـتاوداخ يَعِـظُ بكـمال الـرَّبِّ ومِثاليتـه، لكنهـم يصمتـون فيـما أغنّـي.

ثمّ، في ليلةٍ واحدة، تغيّرَ كل هذا، وأكثر بكثير.

* * *

كنّـا في غرفـة نيكـولاي، ريمـوس يقـرأ عابسًـا، ونيكـولاي يُبهجنـي بتصوُّراتـه عـن مسـتقبلنا: سنسـافر عـبر أوروبـا معًـا كمُغـنٍّ ووكيـل أعـمال. كان قـد تآمـرَ بشـكلٍ مـا للتّسـلُّل مـن حجـرة الطعـام تلـك الليلـة بثلاثـة أباريـق مـن نبيـذ الديـر، وبعـد أن احتسى اثنـين منهـا بالفعـل، دَمَعـت عينـاه، وصـارَ في أفضـل مـزاج. الآن كانـت خطّتـه مـن أجـلي قـد تشـكّلَت: قـصرٌ في ڤينيسـيا سـيكون بيتنـا، ومـن هنـاك سنسـافر إلى أعظـم مسـارح أوروبـا. سـنصطحب ريمـوس معنـا ليحمـل حقائبنـا، فـسَّرَ لي، ضاحـكًا

وصاخبًا بصوتٍ عالٍ جدًّا، لحدِّ أنني تيقَّنتُ أن كل راهب في الرواق بمقدوره سماعنا.

كان نيكولاي قد قرَّر، بما أن صوتي كان بطيئًا على نحوٍ مُدهش في تغيُّره، أنني سأصير بالتأكيد مؤدي تينور. "مؤدُّو التينور هم الأخبث"، قال. "يرتدون أزياءً مثل الأمراء، يمشون مُتبخترين وكأن حركتهم وحدها قادرة على تدويخ النساء، وهو ما يحدث في الحقيقة. في كل مكان يذهبون إليه يتركون وراءهم قافلة من النساء فاقدات الوعي. لا يمكنك دعوتهم إلى حفلات العشاء في منزلك؛ لأنك ستجد كومةً من الضيوف على الأرض في نهاية الليلة". بدا جَزِعًا بغتةً. "لكنك لن تصير مثلهم، أليس كذلك يا موسى؟".

هززتُ رأسي.

"لا؟" هتف، بعد اجتراع كأس آخر من النبيذ. "ولِمَ لا؟ ما المشكلة في تدويخ بضع نساء؟ هذا ما يُرِدنه. كل امرأة ترغب في أن تدوخ من الحب مرَّةً واحدة في حياتها على الأقل. الرجال يرغبون في ذلك أيضًا، لكن حجمهم يجعل من الصعب عليهم أن يفقدوا وعيهم. فقدتُ وعيي ذات مرَّة بسبب الحب".

"لم يكن ذلك حقيقيًا"، قال ريموس، رافعًا بصره. "في تياترو دوكاله كنتَ تتظاهر بذلك".

"لم أكن أتظاهر".

لمحتُ ابتسامةً مكبوتة على وجهه. "إذا فقدتَ وعيك حقًّا"، قال، "سيعلم العالَم أجمع بذلك. فالأرضيات ليست مُصمَّمة لتحمُّل أوزان كوزنك".

هزَّ نيكولاي كتفيه استهانةً. "إنه على حقٍّ. لا يُسمح لي بالإغماء. ماذا أُقدِّم لأصبح سيدةً نحيلة! حينها سأرتمي ساقطًا متى استولى

علـيَّ الـشراب! سـأفعل ذلـك طـوال الوقـت حينهـا". نهـضَ وتصنَّـع التَّأنُّـق بأفضـل مـا لديـه، يـداه العملاقتـان ممدودتـان أمـام صـدره كمخالـب أرنـب. "سـأوالف أذنيَّ وعينـيَّ بدقـة شـديدة عـلى الجَـمال بـكل صـوره لحـدٍّ أننـي سـأتمايل عـلى الحافـة. لـن أحتـاج سـوى إلى نظـرة خاطفـة ليُرفـرف قلبـي، ثـم أسـقط". تطلَّـع إليَّ، مُتظاهـرًا بالوقـوع في الحـب، ووضـع يـدًا عـلى جبينـه، ثـم فقـدَ وعيـه، بحـذَر، برفـق، واسـتلقى عـلى الفـراش. حتَّـى مـع ذلـك، انبعـث الأنـين مـن هيـكل الفـراش. صفَّقـتُ تحيَّـةً لأدائـه. نخـرَ ريمـوس.

"والحـال هكـذا"، قـال نيكـولاي، مُتَّكئًـا عـلى الحشـيَّة ومُحدِّقًـا في السـقف، "بهـذا التكويـن الجسـماني عـليَّ أن أُخمـد أذنَيَّ وأُعتِّـم عينَـيَّ حتى لا أُجـري المخاطـر عـلى نفـسي وعـلى البشريـة. هـذا الجسـد مسـؤولية جسـيمة". ثـم فـركَ بطنـه المهـول بيديـن عملاقتـين.

هزَّ ريموس رأسه.

"لا تَخَـف يـا مـوسى"، قـال نيكـولاي، مانحًـا بطنـه تربيتـةً مُحِبَّـة، أخيرة. "ريمـوس يُقـدِّس هـذا التكويـن الجسـماني بشـكل أو بآخر".

رفـع ريمـوس بـصره بغضـب عـن كتابـه، اختفـت الابتسـامة عـن وجهـه الآن. "انتبـه لمـا تقولـه. هـذا النبيـذ يُرخـي لسـانك حقًّـا".

"أوه، عزيـزي ريمـوس، ليـس لدينـا أسرار هنـا. ليـس مـع مـوسى. إنـه لا يخفـي شـيئًا عنَّـا، ولا نخفـي شـيئًا عنـه".

"بعض الأمور من الأفضل أن تظلَّ طيَّ الكتمان".

أومـأ نيكـولاي في اتِّجـاه السـقف. "أنـت عـلى حـقٍّ يـا ريمـوس. هنـاك مـن الحُـبِّ مـا لا يجـدر الحديـث عنـه".

قطَّـب ريمـوس جبينـه. "شـكرًا". هــزَّ كتفيـه بحـرَجٍ ناحيتـي وكأنـه يطلـب معـذرتي.

"أحيانًا ما يحتاج الأمر لأغنية فحسب". اعتدلَ نيكولاي. ابتسمتُ. بدا ريموس مُتألِّمًا. سمعَ كلانا العزيمة في صوته: احتشاد عاصفة.

"لا يا نيكولاي. ليس الآن". مكتبة سُر مَن قرأ

"موسى؟".

"نعم؟" اعتدلتُ ووضعتُ يديَّ على ركبتيَّ، كمُستمعٍ توّاق.

صبَّ كأسًا آخر واجترعه كالماء، ثم وقفَ في منتصف الغرفة. تمايلَ من جانبٍ إلى آخر. كانت عيناه متأرجحتَيْن، لكن برّاقتَيْن ومبتهجتَيْن للغاية. "حان وقت الغناء!".

أغلق ريموس كتابه. "نيكولاي، الوقت متأخِّر جدًّا"، قال. انتصب واقفًا. "أنا وموسى سنغادر".

"أبدًا لا يتأخر الوقت لأغنية حبٍّ".

"تأخَّرَ الوقت الليلة". أشار ريموس بكتابه إلى نيكولاي. "لا تمنحهم سببًا آخر لكُرهكَ يا نيكولاي".

"كُرهي؟ كيف لأيِّ إنسان أن يكرهني بسبب حبِّي؟".

"سنتحدَّث عن ذلك في الصباح".

"عندما لا أكون ثملًا بالحبِّ؟".

"وبسوائل أخرى"، أومأ ريموس إليَّ وأشارَ إلى الباب.

"لا!" هتف نيكولاي، وكأننا على وشك خيانته. وضعَ إصبعًا لإبقائي في مقعدي، مُتمايلًا برفقٍ ورائي. "المُحبُّ المخلص لا يتراجع أبدًا عن إعلان حبِّه. الآن عليَّ أن أغنِّي، وإلَّا لن تُصدِّق الآلهة حبِّي".

"أرجوك"، قال ريموس بجدِّيَّة. "ليس الليلة".

تطلَّعَ نيكولاي إليَّ. "هل ترى المشكلة؟ إذا غنَّيتُ سيبغضونني؛ وإذا لم أغنِّ، سأبغض نفسي". هزَّ كتفيه استهانةً. "ليس خيارًا صعبًا".

عادَ إلى نبيذه، صبَّ كأسًا مُجدَّدًا، اجترعَ رشفةً، ثم خطا إلى خشبة مسرحه الارتجالي. جذبَ ريموس كُمِّي. انحنيتُ وكأنني سأنهض لمغادرته، لكنني لم أفعل. لم أستطع.

بدأ نيكولاي بهدوءٍ شديد:

!" O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir"

"أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

استدارَ ناحيتي وهمس: ألا ترى يا موسى؟ أنا مُعذَّب بالحبِّ!".

"هذه الأنوار الجاحدة *Luc' ingrate, dispietate*". تمايلَ باهتياج، ذراعاه كأغصانٍ في الريح. ازداد غناءه صخبًا الآن، صخبًا يكفي لأن يسمعه الرهبان الآخرون عبر الجُدران حتمًا:

"Più del gelo e più dei marmi fredde e sordi ai miei martir, fredde e sorde ai miei martir."

"عديم الرحمة، عديم الرحمة، صامت، بارد، تجاه استشهادي، وكأنه الجليد، وكأنه المرمر".

وضعَ نيكولاي يديه على عينيه وكأنه يريد انتزاعهما.

"حسنًا يا نيكولاي"، قال ريموس. جذَب قميصي بشدَّةٍ أكبر. "هذا يكفي. أوضحتَ وجهة نظرك".

كرَّر نيكولاي: "أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

"مـوسى"، قـال ريمـوس. هـزَّ ذراعـي. "علينـا أن نذهـب. سـيتوقَّف إذا غادرنـا".

"هـذا مـا يفعلونـه دائمًـا"، قـال نيكـولاي لي، وكأن ريمـوس ليـس معنـا. "يكـرُّون نفـس الـشيء مـرارًا وتكـرارًا، مـرارًا وتكـرارًا. يجعلـه هـذا أقـوى. وإلى ذلـك، ليسـت الكلـمات مـا يهـم. بـل الغنـاء".

"أوه، اعتقنـي مـن هـذا العـذاب، أوه، دعنـي أمـوت، دعنـي أمـوت!" غنَّاهـا بصخـبٍ أكـبر الآن، ووضـعَ يـدًا عـلى قلبـه وكأنـه عـلى وشـك الانفجـار. صـدَح رنينـه البـاص المرتعـش في معـدتي. كنـتُ عـلى يقـين أن الجنـاح بأكملـه قـد سـمعَ أغنيـة حُبِّـه. لم أسـتطع كتـمان الضحكـة المتنامية عـلى وجهـي. ضحكـتُ بابتهـاج. لم يكـن نيكـولاي يتمتَّـع بنفـس سـيطرتي المُطلقـة عـلى النغـمات، لكنـه اقتنـص عَظَمـة الموسـيقى.

"أنت أيضًا يا موسى". مدَّ يدًا للترحيب بي على خشبة مسرحه.

"موسى، أرجوك"، قال ريموس.

نظـرتُ إلى أحدهـم ثـم إلى الآخـر، ريمـوس بقلـقٍ كبـير عـلى وجهـه، ونيكـولاي ببهجـةٍ عارمـة. لم يكـن خيـارًا صعبًـا.

أبـدًا لم أغـنِّ بالإيطاليـة مـن قبـل، لكننـي بذلـتُ مـا في وسـعي لتقليـد نيكـولاي، بمقـدار أوكتافَـيْن أعـلى.

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"أعلى!" هتف بي، وكأنه قسٌّ وثنيٌّ. "السماء تحتاج لأن تسمعنا!".

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"معًا!" أغلق عينيه ولوَّح بذراعيه.

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

فيما أكرِّرُ الكلمات بمفردي مُجدَّدًا، ارتجلَ نيكولاي، ثم غنَّى سطر باص بسيطًا فيما ارتجلتُ أنا. غنَّينا نفس الكلمات مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة نبتعد أكثر وأكثر عن الأصل حتَّى لم يتبقَّ من الأغنية سوى الكلمات. لم تَعُد الأغنية حول الحُبِّ؛ صارت الآن حول الموسيقى، حول قوَّة الموسيقى. قوَّة كصواعق زيوس.

غنَّى نيكولاي بمفرده.

غنَّينا معًا.

غنَّيتُ بمفردي.

ضحكَ نيكولاي فيما أجول وأدورُ. كنتُ أمطُّ كل كلمة لتصل إلى عشر نغمات، عشرين نغمة، ولتستمرَّ كل جملة واحدة لدقيقة كاملة. هزَّ نيكولاي رأسه بإعجاب. رغم أن ريموس كان مُقعيًا وكأنه ينوي الهروب من الغرفة، كانت عيناه مُثبَّتَتيْن على وجهي، وفمه فاغر بعض الشيء. أدركتُ في تلك اللحظة أن لا أحد، باستثناء أولرتش، كان يدرك القوة الحقيقية لصوتي. في الكنيسة، كنتُ مُقيَّدًا بتلك الأغاني المقدَّسة، المروَّضة. والآن أشعر بقوة هذه الموسيقى الإيطالية، الأكثر إعجازًا بكثير من موسيقى باخ حتَّى. أخذتُ نَفَسًا في رئتَيَّ الواسعتَيْن وغنَّيتُ. انتفخَ صوتي فيما يرتقي. صدحت مرآة نيكولاي بارتعاشات صوتي. غنَّيتُ بصوتٍ أعلى. أردتُ أن أحطِّم كل نافذة في الدير بجمال غنائي. تنفَّستُ مُجدَّدًا، وانحسرَ صوتي، ثم تصاعدَ مُجدَّدًا أكثر، حتَّى وجدتُ نغمةً عاليةً ورائقةً لم أُغنِّها من قبل قطُّ. أمسكتُ بها، بصوتي يرتعش بموجات صغيرة من الصوت داخل الموجة الأكبر، حتَّى تلاشى ذلك النَّفَس الهائل.

توقَّفتُ لاهثًا. استغرقَ الأمر بضع ثوانٍ حتَّى تبدَّدَ صوتي أخيراً في الليل. حينها، وسط الصمت، رأيتُ على وجهَيْ صديقَيْ أن حياتي كانت قد تغيَّرت في لحظة واحدة.

لم يَعُد نيكولاي يبتسم. وضع يده أمام أنفه. كان وجهه شاحبًا، وكأنه رأى شبحًا. "ليسامحنا الرَّبُّ"، قال.

حدَّقَ ريموس في الأرض.

"ماذا؟" سألت. "ما الأمر؟" لكنني أدرك بالفعل ما الأمر، أدركتُه رغم أنني لم أستوعبه بالكامل.

اغرورقت عينا نيكولاي بالدموع. "كيف كنتُ بهذه الحماقة؟" قال.

رفع ريموس بصره إليّ، وبدت عيناه وكأنها تقول، موسى، حان الوقت لنتوقَّف عن التظاهر. ثم عاد ببصره إلى الأرض.

حدَّقَ نيكولاي إليَّ وكأن جسدي كان يتحلَّل إلى ضباب. اتَّخذَ خطوةً للأمام ومدَّ يده.

تراجعتُ عنه. شعرتُ أنني حيوان مُحاصَر، وكأنني أشعر بالفعل بفكَّيْن حول عنقي.

انقضَّ نيكولاي. ضغطَ بجسده العملاق عليَّ قبالة الجدار. فاحت منه رائحة النبيذ.

«لا!» صرختُ. هززتُ رأسي باهتياج.

«أنا آسف يا موسى»، قال. «عليَّ أن أتأكَّد». جذبَ ردائي لأعلى.

حاولتُ أن أدفعه بعيدًا، لكنه كان في غاية القوة. شعرتُ بيديه على ملابسي التحتانية، وفيما أتلوَّى في قبضته، انتزعها عن جسدي، وبغتةً صرتُ واقفًا أمامهما عاريًا. لم يتحرَّك أيٌّ من الراهبين لوهلة

طويلة؛ ثم أفلتني نيكولاي. مدَّ يدًا مُرتعشة، وكأنه يرجو العفو عن الاعتداء. كانت أنفاسه مُهلهلة. ضمَّ قبضتيه وطرفَ بعينيه الداميتين المكدودتَيْن وكأنه يناضل حتَّى تنصاع له رؤيته المُغبَّشة، الثَّمِلة.

وقفَ ريموس وراء نيكولاي. وضع يدًا على كتف الرجل الأضخم منه. "نيكولاي"، قال. "عليكَ أن...".

أزاحَ نيكولاي اليد بعيدًا. أخذَ بضعة أنفاس بطيئة. ثم نظرَ عميقًا في عينَيَّ. رغم أنني أدركتُ أن الغضب الكامن فيهما لم يكن موجَّهًا لي، إلَّا أنني وجدتهُ مُرعِبًا. "مَن فعلها؟" همسَ.

"لا يا نيكولاي"، قال ريموس، بأهدأ ما يستطيع.

"موسى، لا بُدَّ أن تخبرني. أخبرني الآن".

قبضَ ريموس على ذراع نيكولاي بكلتا يديه. في زماننا معًا بأكمله، أبدًا لم أره يُمسك بنيكولاي هكذا. "أرجوك يا نيكولاي"، قال. هزَّ ذراعه. "نيكولاي! أرجوك!".

أمسك نيكولاي بكتفَيَّ بغتة. "أولرتش؟ هل هو أولرتش؟".

"نيكولاي، لا تفعل"، ترجَّاه ريموس. "ليس الآن. غدًا. لا تتسرَّع".

أخذَ نيكولاي في هزِّي وكأنني عديم الوزن. "أخبِرني يا موسى!" زمجرَ.

اغرورقت عينا ريموس بالدموع. "أرجوك يا موسى"، قال. "لا تُجِبه".

"أقسمتُ على حمايته"، صاحَ نيكولاي في ريموس.

"فات الأوان"، قال ريموس لي.

"أخبِرني"، قال نيكولاي. في عينيه كان غضب لم أدركَ قَطُّ أنه قد يوجد في هذا الرجل المُحسِن.

تحوَّلـتُ ببـصري عـن وجـه ريمـوس المتوسِّـل إلى نيكـولاي. أرجـوك، كانـت أعينهـم تقـول. أرجـوك.

"أولرتش"، قلت.

أومـأ نيكـولاي فيـما يخطـو متراجعًـا. تشـبَّثَ ريمـوس بكـم قميصـه وتوسَّـلَ إليـه أن يتوقـف. اسـتدارَ نيكـولاي، وبدفعـةٍ واحـدة، عفويـة، أسـقطَ صديقـه عـلى الأرض. فتـح نيكـولاي البـاب، تعـثَّر قليـلًا عـلى حافَّة البـاب، ثـم اختفـى.

* * *

هرعنـا في إثـره، لكـن رغـم أنـه كان ثمِـلًا للغايـة، إلَّا أنـه ركـضَ بسرعـة عـبر الظـلام. تعـثَّرَ وسـقط عنـد أعـلى الـدَّرج، لكنـه سرعـان مـا نهـض. تـردَّدَ صـدى خطواتـه عـبر أروقـة الديـر، لكـن مـع وصولنـا إلى الطابـق الأول، كان الرهبـان الآخـرون يتلصَّـون بأنظارهـم بالفعـل عـبر أبوابهـم.

"لا شيء"، قـال ريمـوس، ملوِّحًـا لهـم ليعـودوا أدراجهـم، لكـن هـذا لم يفعـل سـوى أقنعهـم في السـير في إثرنـا. جاءنـا صـوت خبطـات قويـة مـن الطابـق الأرضي. وصلنـا لـنرى نيكـولاي ينـدفـع إلى بـاب أولرتـش. خلَّخلـه مـن موضعـه بصـوتِ تحطُّـم، أخـذ ثـلاث خطـوات للـوراء، ونَفَسًـا عميقًـا، ثـم زمجـر فيـما ينـدفع ناحيتـه مُجـدَّدًا. حطَّمـه بكتفِـه، مُنتزِعًـا مفصَّلاتـه. خطـا إلى الغرفـة، التـي كانـت مُضـاءةً بشـمعة وحيـدة.

كان أولرتـش يتوقَّـع هـذا. كان ينتظـره لخمسـة أعـوام، ويحـاول الهـروب بالفعـل. كان الرجـل العجـوز بجـوار نافذتـه، يرتقـي بحَـذَرٍ عتبـة النافـذة حتَّـى يسـتطيع القفـز إلى المُعتـزَل المظلـم. لكـن نيكـولاي كان وصـلَ إليـه بالفعـل، وبـدلًا مـن جـذب قائـد الجوقـة عائـدًا بـه إلى الغرفـة، أمسـك بـه -بيـدٍ عـلى ردائـه الكهنـوتي ويـدٍ عـلى الشـعيرات المتناثـرة عـلى مؤخـرة رأسـه- ثـم طـوَّحَ بـه عـبر النافـذة المفتوحـة.

صرخَ أولرتش فيما يطير في الهواء، كانت صرخةً خاوية، عديمة الروح. اصطدمَ بالأرض وسمعتُ تكسُّر ضلوعه، كتشظِّي آلة كَمان. صفَّرَت رئتاه فيما يلهث طلبًا للهواء.

تَبعه نيكولاي بجسده العملاق عبر النافذة. ففزَ من على عتبة النافذة ووصل إلى الأرض بقدمٍ واحدة، لكنه سرعان ما وقفَ على قدميه معًا مُجدَّدًا. تعثَّر بالرجل المَحطَّم وشَرعَ في ركله. حاولَ أولرتش الهروب زاحفًا، لكن ركلة نيكولاي الأولى كَسرت ذراعه اليسرى. سقطَ على وجهه. انضغطَ وجهه على العُشب. تأوَّهَ مع كل ضربة.

كان هناك رُهبانٌ يحدِّقون من كل نافذة. تسرَّبَت الدماء من فم أولرتش. بصقَ فيما يحاول التَّنفُّس.

راقبتُ من نافذة أولرتش. لم أحوِّل عينَيَّ. لم تمنحني الركلات والصرخات أيَّ بهجةٍ... كان العار يتصاعد عميقًا داخلي، العار الذي كان يمورُ كامنًا منذ أخبرني رابوتشي بما فعله بي. العار، لأنني رغم أنني لم أفهم بالكامل ما صرتُ إليه بعدها، إلَّا أنني أدركتُ أنه كان شيئًا مريعًا، مريعًا لحدِّ أن هذا الرجل يستحق الموت جزاءً له.

بجواري، كان ريموس خارج النافذة بنصف جسده، يرجو نيكولاي أن يتوقَّف، لكن العملاق لم يكن يتوقَّف إلَّا لمسح دموعه. دفنَ نيكولاي وجهه في يديه وزأر. "مجرَّد صبي!" صرخ. "إنه مجرَّد صبي!" ثم ركلَ أولرتش الزاحف، الباكي، مُجدَّدًا: ارتجاجاتُ ألمٍ عن كل بهجةٍ مستقبلية سَرقها هذا الرجل مِنِّي. غرغَرَت الدماء من فم أولرتش فيما يتوسَّل الغفران، لكن نيكولاي لم يكن لديه أيُّ غفرانٍ ليمنحه.

هرعَ أربعة جنود عبر المُعتزَل. رفعَ اثنان المصابيح، واستلَّ الآخران سيوفهما. لكن عندما رأوا أنه لم يكن لصًّا، بل نيكولاي فحسب، أكثر الرُّهبان إحسانًا، تجمَّدوا، غير مُتيقِّنين ممَّا عليهم فعله.

هتفوا فيه ليتوقَّف، لوَّحوا بسيوفهم، لكنه لم يُلقِ لهم بالًا؛ لم يستطع. خطا واحدٌ من الجنود إلى الأمام ورفع سيفه، لكنه أسقطه مُجدَّدًا. ثم وضع الرجلان المُسلَّحان نصالهما أرضًا وأمسك الأربعة بذراعَيْ الراهب العملاق. اشتبكوا معه، فيما أولرتش الدامي يحاول مُجدَّدا الهروب زاحفًا. زعقَ الرهبان جميعهم في نيكولاي ليتوقَّف. "من أجل محبَّة الرب، ستقتله!" الآن كان رئيس الدير قد ظهرَ أيضًا. وقفَ عند نافذة مفتوحة، وصرخَ في الجنود في الأسفل، "أوقفوه! استخدموا سيوفكم إذا اضطررتم! أوقفوه!".

لكن نيكولاي لم ينتهِ بعد. قاومَ الحُرَّاسَ، جائرًا كالمجنون. حرَّر ذراعًا، وبدلًا من استخدامها لدفعهم بعيدًا، تناولَ واحدًا من مصابيح الجنود ورفعه فوق العِراك، عاليًا فوق وجهه. كانت عيناه مضاءتَيْن كقطرتين من النار. أدركتُ أن هذا الغضب كان من أجلي، من أجل عاري، العار الذي أبقيته سرًّا طوال تلك السنين. ورغم أن الجميع -ريموس، الرهبان، رئيس الدير- كانوا يصرخون من حولي، إلَّا أنني كنتُ صامتًا. لم أطلب من نيكولاي التَّوقُّف.

طوَّحَ بالمصباح في اتِّجاه أولرتش المُنسحِق، الذي كان قد تخلَّى عن محاولات الهروب. تحطَّم المصباح على الأرض، ولوهلة كان وجه أولرتش مُبتلًّا بالزيت. حدَّقَت عيناه إليَّ برعب. وقبل أن يتمكَّن من إبعاد اللهب، احمرَّ وجهه، ثم احترق مُعلِّمي، وسط صرخاته.

(5)

"إنه ينشد العفو".

تحدَّث ريموس بالنيابة عن نيكولاي الصامت فور أن صرنا بمفردنا مع رئيس الدير. كان منتصف الليل قد حلَّ، ولم يكن ناسخه المرتاع قد أشعل سوى شمعةٍ واحدة قبل هروبه من المشهد. موضوعة على مكتب شتاوداخ، أضفى لهب الشمعة على رئيس الدير الضئيل طولًا خارقًا للطبيعة. كان ظلُّ رأسه مُتعملِقًا على السقف والجدار وراء مكتبه.

«العفو؟».

أومأ ريموس.

هزَّ شتاوداخ رأسه بعصبية. "ليس مِنِّي".

سمعتُ رهبانًا يُنشدِون في الكنيسة، يُصلُّون من أجل روح أولرتش، ومن أجل روح نيكولاي. لم يَنَم أحدٌ تلك الليلة. بقينا جميعًا نراقب

أولرتش يضرب وجهه بيدين، مَحاولًا إخماد اللهيب الذي أذاب عينيه وجلده. لم يساعده أيٌّ منّا. ظللنا نراقبه فحسب في صمت الصدمة حتّى انطفأت النيران واستلقى ساكنًا على الأرض. ثم حملَ أربعة رهبان جسده الذي ينبعث منه الدخان إلى النافورة وغمَروه فيها حتّى احمرَّ الماء بالدماء.

"إذا مات، ستُشنَق"، قال شتاوداخ.

ورغم أن نيكولاي كان يقف بكبرياء وتحدٍّ أمام رئيس الدير، إلّا أن أنفاسه كنت ضحلةً، والخوف يسري في ارتعاشاتها.

"بالتأكيد، أبتاه رئيس الدير"، قال ريموس، "حتّى وإن لم يكن هناك مجال للعفو، فحتمًا هناك رحمة". كان ريموس يقف أمامنا عند المكتب، بعينيه النديَّتَيْن تلتمعان في ضوء الشمعة.

"الرحمة؟" هزَّ شتاوداخ رأسه، وتكرَّرت تلك الحركة عشر مرَّات بصورة أكبر في الظلال وراءه. "لا لا أستطيع منح الرحمة لمَن يرغب في تدمير هذا الدير".

"لا تقتل رجلًا مُحسنًا باسمنا"، ارتعشَ صوت ريموس، فيما يداه ترتفعان قليلًا في تضرُّع.

"رجل مُحسن؟" انحنى رئيس الدير للأمام وتضاعفَ ظلُّ رأسه على الجدار. "دومينيكوس، الرجل المُحسن لا يوسع أخاه ضربًا. الرجل المُحسن لا يُضرم النار في أخيه".

"يستحق كل ذلك وأكثر"، قال نيكولاي من بين الظلال. كان صوته هادئًا، لكن واثقًا.

أدار شتاوداخ عينيه إلى نيكولاي وتفحَّصه في الضوء الخافت. تحدَّث بحدَّة. "أيُّ جريمة قد تستحقُّ ما فعلتَه به؟".

نظرَ نيكولاي بخواء إلى رئيس الدير، لكنه لم يُجب.

"تحدَّث!" أمره شتاوداخ.

"نَذرتُ نذرًا".

"لديكَ نـذرٌ آخـر، وهـو نَـذرٌ بذلتـه لي!" زأرَ شـتاوداخ وخبـطَ عـلى مكتبـه براحتـه. انكمشـتُ خوفًـا. تطلَّـع رئيـس الديـر إلى ريمـوس ثـم إلى نيكـولاي. "الآن، أيُّكـما سـيدافع عـن هـذه الجريمـة؟".

"لقد أقسمت بالفعل على قتلي"، أجابه نيكولاي. "لن أقول".

تحوَّلَـت العينـان الباردتـان إلى الراهـب الضئيـل. "تحـدَّث أنـت إذن يـا دومينيكوس".

"كلا، يا أبتاه رئيس الدير".

"وأنت"، قال أخيرًا لي. "لماذا أنتَ هنا؟ ماذا لديك لتقوله؟".

رغـم أننـي كنـتُ أطـول مـن رئيـس الديـر بكثـير، إلَّا أننـي شـعرت وكأننـي مـا أزال ذلـك الطفـل الضئيـل الـذي وقـفَ في هـذا المكتـب منـذ سـنوات، الطفـل الضعيـف الـذي كان رئيـس الديـر يـودُّ طـرده مـن هـذه الغرفـة ذاتهـا.

"تحدَّث!".

اسـتغرقنا في الصمـت. أزَّت الشـمعة. تنفَّـس شـتاوداخ. تطلَّـع إلى نيكـولاي. "لم تـترك لي خيـارًا إذن"، قـال.

كانت يدا نيكولاي ترتعشان.

"لقد أخصاني"، قلتُ.

شـعرتُ بعينيـه تنزلقـان ببـطء عـلى كل تفصيلـة في وجهـي. عـلى وجهـه، في البدايـة كان عـدم التصديـق، ثـم الرعـب. أدركَ أخـيرًا لمـاذا كان صـوتي قـد قـاوم طويـلًا هكـذا.

"أخصاك؟" همس. حدَّق صديقاي في الشمعة المُحترقة على المكتب.

"أين؟".

لم يجيباه.

استدارَ إليَّ. كان حَلْقه مشدودًا؛ قاومَ ليطلق أنفاسه. سعلَ بالكلمات. "تحدَّث! أين! هل كان ذلك في هذا الدير؟".

أردتُ بشدَّة أن أكون قويًّا، لكن ركبتاي ارتجفتا وكأن الأرض نفسها قد انتفضت تحتهما.

نهضَ رئيس الدير وانحنى فوق الشمعة. "إذن فأنت مخصيٌّ؟ طواشي؟".

أومأتُ. كان وجه رئيس الدير أبيضَ كحجارة كنيسته. التمع صليبه على صدره في وهج الشمعة.

"منذ متى؟".

"منذ تدشين الكنيسة".

"لكن هذا كان منذ خمسة أعوام"، قال شتاوداخ، وقد تزايدَ الرعب في صوته.

أومأتُ.

"ليرحمنا الرب"، همسَ. لبضع ثوانٍ لم يتحرك على الإطلاق. حدَّق فيماَ وراءنا. "الموت للخاصي"، تلا رئيس الدير. "الحرمان الكَنَسي لكلِّ مَن يساعده. هذا هو القانون. قانوني. قانون البابا. إنه قانون الربِّ". وكأنه أدرك أن صوته يتصاعد، سعلَ بخفَّةٍ وهمس مُجدَّدًا، "صبيٌّ يُخصَى. في دَيْري!" عادَ اللون إلى وجهه. حدَّق في نيكولاي باهتياجٍ. "أبدًا لم أُرِدْه هنا. حاولتُ إبعاده، لكنكَ لم تدعني".

تابعَ، "والسفير الباباوي نائم هنا؟ وثمانية عشر رئيس دير! سمعوكَ تغنّي! سيظنُّون أنني أمرتُ بذلك. أنني حملتُ السِّكّين. سيطردونني من الكنيسة. أنا!"، أمسك رئيس الدير بالصليب المُتدلّي على صدره.

"لن يكون عليهم أن يعرفوا أبدًا، أبتاه رئيس الدير. سنرحل"، قال ريموس، وخطا للأمام. "الليلة".

"نعم"، قال شتاوداخ، مومئًا، مُتطلّعًا عبر ريموس إلى ظلٍّ بعيد ناءٍ ما. "نعم، لا بُدَّ أن ترحلوا. أنت ونيكولاي معًا".

"والصبي".

"لا!" قال شتاوداخ. مدَّ يده وكأنه سيقبض عليّ. أمسكَ نيكولاي بكُمِّ قميصي وجذبني للخلف. "لا، لا بُدَّ أن يبقى هنا"، تابعَ رئيس الدير، مُشيرًا بإصبع مُرتعشة إلى نيكولاي ثم إلى ريموس. "أنتما، عليكما أن ترحلا. أنتما منفيَّان. إذا وضعتما قدمًا على أراضي هذا الدَّير مُجدَّدًا سأشنقك لارتكابك القتل والإخصاء".

"هذا جنون"، قال ريموس.

أومأ رئيس الدير، وإصبعه الآن موجَّهة إلى صدر ريموس. "على هاتين الجريمتين ستموتان كلاكما، إذا عُدتما أبدًا إلى هنا أو إلى أي دير في سويسرا بأكملها".

نطقَ نيكولاي. "لن أترك موسى هنا".

"ستفعل!" تطاولَ رئيس الدير عبر مكتبه.

"أفضِّل أن أموت". اقترب نيكولاي ببطء من المكتب، واعتقدتُ أنه سيقْلبه. تراجع شتاوداخ خائفًا وسقطَ في مقعده. تأوَّهَ ورفع يدًا وكأنه يحمي وجهه. أمسك نيكولاي بحافَّة المكتب.

"لا"، قلت. استداروا جميعًا في دهشة. "لا يا نيكولاي. لا بُدَّ أن ترحل".

هزَّ نيكولاي رأسه. "لا يا موسى. لن أرحل. ليس بدونك".

"لقد أمرتك بذلك!" هتفَ رئيس الدير.

بالشمعة وراءه، لم أستطع تبيُّن وجه نيكولاي، ولا وجه ريموس الواقف بجواره، رغم أنني رأيت من بينهما تقطيبة رئيس الدير بوضوح. لسنوات طويلة، هكذا سأتذكَّر المشهد: خيال ظلِّهما يقف ببسالة بيني وبين رئيس الدير، مُستعدًّا للموت على أن يهجرني.

"نيكولاي"، قلت.

خطا نحوي وأمسكَ بكتفَيَّ. "لن أتركك معه"، قال، كان صوته الآن عميقًا ورنَّانًا، جسورًا كأناشيده.

"لا بُدَّ أن ترحل"، همستُ، صوتي أضعف ألف مرَّةً من صوته. "لا خيار أمامك".

"أفضِّل الموت"، قال نيكولاي.

"وحينها سأكون وحيدًا بحقٍّ".

هزَّ نيكولاي رأسه. كان قريبًا بما يكفي الآن لأرى الدموع تملأ عينيه. "موسى، أقسمتُ على حمايتك".

"يومًا ما سألحقُ بك"، قلتُ. "أعِدُكَ".

كان ريموس عند مِرفقي الآن. "سنذهب إلى مِيلك"، همسَ في أذني حتَّى لا يسمعه رئيس الدير. "في النمسا. دومًا سيكون لديك صديقان ما دُمنا حيَّيْن. سننتظرك. الحَقْ بنا".

أومأتُ له، عاضًّا شفتيَّ. تناول ريموس ذراع نيكولاي، لكن الرجل الأضخم لم يكترث له. هزَّ رأسه، اتَّسعت عيناه.

"نيكولاي"، قلتُ. بدا أنه سينهار، لكن بغتةً صرنا في عناق. الآن، بعد ثمانية أعوام من انتشاله لي من النهر، كان رأسي يصل إلى ما فوق كتفه، وعندما ضمّني، شعرتُ بدموعه الدافئة على جبيني.

"أنا في غاية الأسف".

"سآ... سآتي وأجدك"، همستُ بدوري. أمسكتُ بنسيج ردائه الكنسيّ في قبضتيّ. احتضنني وأدركتُ أنه لن يفلتني أبدًا ما لم أُفلتْه أولًا، ولهذا أزحته بعيدًا برفق. ثم قاده ريموس إلى الباب، ورحلا، دون أن ينظرا مُجدَّدًا إلى الرئيس. لاحقًا، عندما مررتُ بصومعتيهما، اكتشفتُ أنهما لم يتوقّفا لجَمع أغراضهما حتّى. لم يؤدِّ نيكولاي صلاة واحدة أخيرة في تلك الكنيسة. لم يأخذ ريموس كتابًا واحدًا.

لم يَعُد أيٌّ من الرَّجُلين قطُّ إلى سانت غالن، أو إلى سويسرا.

* * *

بقيتُ بمفردي مع رئيس الدير كويلستين جوجر فون شتاوداخ. حدَّقَ في الشمعة على المكتب، لهبها يتوهّج بمثالية تمامًا كالعالَم الذي طالما تاق إلى تحقيقه في هذا الدير. بعد بضعة دقائق، رفعَ بصره إليّ. كانت عيناه قد فقدتها برودتهما، كراهيتهما.

"تعال يا بُنيّ"، قال. أومأ بحنوٍّ، وكأنه يقول، انتهى الأمر الآن.

تردَّدتُ للحظة فحسب. فرغم أنني وجدته مقيتًا وبشعًا، إلّا أنه لم يَعُد لي أحدٌ في العالم الآن. خطوتُ حول المكتب ووقفتُ بجواره في ضوء شمعته. أحنيتُ رأسي. جالت عيناه عبر وجهي، عبْر جسدي النحيل، الطويل.

"تتمنّى أن ترحل معهما، أليس كذلك؟".

"نعم"، أجبته.

نظَرَت عيناه عميقًا في عينيَّ. "موسى، هل تدرك ما أنتَ عليه؟".

لم أجب.

نظـرَ إليَّ بتمعُّـن في ضـوء الشـمعة المُرتعـش، تحديقتـه تنزلـق عـلى كل تفصيلـةٍ في وجهـي، ثـم أومـأ ببطـء، وكأنـه رسـولٌ يحمـل أخبـارًا مريعـة. كان صوتـه هادئًـا وموزونًـا مُجـدَّدًا. "بنـيَّ، أنـت طـواشيٌّ. لسـتَ رجـلًا. ولا امـرأة. أنـت مخلـوق لم يقصـد اللـه قـطُّ أن يخلقـه، مُقـدَّرٌ عليـك أن تظـل خـارج خطـط الـرَّبِّ. يقـول قانونـه إنـه لا يمكنـك أن تتـزوج؛ ولا بمقـدورك أن تكـون قسًّـا. هـذه ليسـت قسـوةً. أعتقـد أنـه إذا كُنـتَ صادقًـا مـع نفسـك، سـترى لمـاذا ينبغـي أن يكـون الأمـر كذلـك. مـوسى، جسـدك لـن يسـمح لـك أن تكـون أبًـا. أنـت ضعيـف: عضـلات امـرأة عـلى هيـكل رجـل ثقيـل. لا يمكنـك العمـل في الحقـول. عقلـك أيضًـا ضعيـف. أبـدًا لـن تعـرف التفكـير الذكـوري. هـل أخـبرك صديقـاك بهـذا يـا مـوسى؟".

هـززتُ رأسي. رغـم أننـي لم أسـمع هـذه الأشـياء تقـال مـن قبـل قـطُّ، إلَّا أنهـا دائمًـا مـا أثـارت خـوفي.

"يريـدان أن يسـاعداك، لكنهـما لا يسـتطيعان. ليـس لديهـما سـقفٌ ليناما تحتـه". لـوَّح بيـده بـازدراء. "لـن يقبـل بهـما أيُّ دَيـرٍ؛ ذلـك أنهـما لوطيَّـان. بمقـدور أي رئيـس ديـر أن يقـرأ الخطيئـة عـلى وجهيهـما بسـهولة، كـما فعلـتُ أنـا، وحينهـا سيُعرِض عنهـما. بمقـدورك اللحـاق بهـما، لكنكـم سـتموتون مـن الجـوع معًـا. لكنهـما رجـلان يـا مـوسى، وأنـت لسـتَ كذلك. سـيتضاحك النـاس عليـك خـارج هـذه الجُـدران. هنـا خُدعنـا بالتَّقـدُّم البطـيء لحالتـك. الآن فقـط أراهـا بوضـوح في جسـدك. أنـتَ صُدفـةٌ طبيعيـة، نِتـاج للخطيئـة وليـس للنعمـة الرَّبَّانيَّـة".

تطلَّـعَ رئيـس الديـر إلى مـا ورائي، باحثًـا عـن تفسـير لوجـودي في غرفتـه المُظلمـة. هـزَّ رأسـه. "هـذا مؤسـف حقًّـا يـا مـوسى"، قـال. "مؤسـف حقًّـا. هـذا العـالم، ببسـاطة، لم يُخلـق مـن أجـل أمثالـك".

شـعرتُ بضعـفٍ شـديد يتفـشَّى مـن قلبـي، بارتجـافٍ يوشـك عـلى إسـقاطي عـلى ركبتـيَّ. كل شيء قالـه كان حقيقيًـا. كيـف لي أن أنكـر؟ في وجـه رئيـس الديـر المهمـوم، للمـرة الأولى، رأيـتُ أنـه ربمـا لم يكـن بـاردًا وميِّـتَ القلـب كـما ظننـتُ. كان رجـلًا طالما عَمِـل بشـدَّةٍ ليخلـق نظامًـا مـن عـالمٍ فوضـويٍّ. مائـة ألـف إنسـان يعتمـدون عـلى إرشـاده، والآن، هـا هـو، قبـل الفجـر بسـاعات، يحنـو عـلى روحٍ واحـدة فحسـب.

تفحَّصتنـي عينـاه. "مـوسى، لا أسـتطيع إبقـاءك هنـا ضـد إرادتـك. لـن أفعـل. الديـر ليـس سـجنًا. مـا قُلتـه منـذ قليـل -أن بمقدورهـما أخـذك معهـما- قلتـه لمصلحتهـما ومصلحتـك. لكننـا الآن بمفردنـا، عليـكَ أن تختـار. ارحـل، إذا شـئت؛ قـد تسـتطيع اللحـاق بهـما. اذهـب وأخبرهـما أن عليهـما الاعتنـاء بـك، أن عليهـما أن يأخـذاك معهـما. أنهـما لـن يتبرآن منـك، أنهـما سـيجدان طريقـةً لإطعامـك، أنهـما سـيجدان وسـيلةً للاعتنـاء بـك، حتَّـى وإن كان ذلـك يعنـي أنهـما سـيعانيان مـن أجـل ذلـك".

كان رئيس الدير صامتًا. نظرَ إليَّ بتمعُّن.

أرحـل؟ لم أرغـب في شيءٍ أكـثر مـن هـذا. مـع رحيـل صديقـيَّ، كنـتُ أشـعر بالفعـل بخـواء ووحـدة الديـر تتـسرَّب إلى كل غرفـة. وهنـاك خارجـه، يوجـد صديقـان منحـاني الحـبَّ.

مـا زال رئيـس الديـر صامتًـا. أنفاسـه الموزونـة تنسـاب داخلـةً وخارجـةً، داخلـةً وخارجةً.

"سأسـمح لـك بالبقـاء هنـا يـا مـوسى"، قـال أخـيرًا. "مَـن في الديـر أوقعـوا بـك ظُلـمًا رهيبًـا؛ ولهـذا سـأفعل مـا في وسـعي لتصحيحـه. إذا اخـترتَ البقـاء، سـأمنحك مـا حرمتُـك منـه قبـل أعـوام: الفرصـة لتصبـح راهبًـا مُبتدئًـا لتصبـح ذات يـوم، ربمـا، راهبًـا حقيقيًـا. سـتحتفظ بصومعتك. سنسـتمرُّ في إعاشـتك. سـأعمل عـلى ألَّا تـضرَّ أحـدًا بضعفـك. لا بُـدَّ ألَّا

يعـرف أحـدٌ بنقيصتـك. لـن يعـرف أحـدٌ سـواي. مـوسى، أتمنَّى أن تـدرك أنـه لا يوجـد شيء أكـثر مـن ذلـك يمكـن لي أو لغـيري منحـه لـك".

تخيَّلـتُ نيكـولاي وريمـوس، ليـس كـما قابلتهـما أول مـرَّة -عـلى أفخـم الأحصنـة، ونيكـولاي بعمـلات معدنيـة مـن الديـر في جيوبـه لإلقائهـا عـلى المتسـوِّلين عـلى الطريـق- لكـن كـما هـما الآن: يتسـلَّلان عـبر المدينـة، عـلى أقدامهـما، بجيـوبٍ فارغـة، بـلا كتـاب واحـد مـع ريمـوس يقـرؤه. إلى متـى ستسـتمرُّ عزيمـة نيكـولاي الشـديدة؟ يـوم؟ أسـبوع؟ أبـدًا لم يمـشِ ميـلًا في حياتـه. هـل سـيصيران متسـوِّلَيْن الآن؟ بالتأكيـد لديهـما مـا يكفـي مـن الأحـمال ولا حاجـة بهـما، كـما قـال رئيـس الديـر، إلى حِمـلٍ آخـر عـلى شـكل صُدفـةٍ مـن صُـدَف الطبيعـة. كان نيكـولاي قـد فعـل الكثـير مـن أجـلي بالفعـل: مـن أجـلي نُفـيَ مـن وطنـه.

"موسى"، قال رئيس الدير. "عليك أنا تختار".

كانت إيماءتي واهية، لكن كافية.

"حَسنًا. إذن فعليكَ أن تعدني بشيءٍ ما أيضًا يا موسى".

نظرتُ إلى عينيه الضيِّقَتَيْن، اللامعتين.

"عليك أن تعدني بأنك لن تُغنِّي ثانيةً أبدًا".

(6)

بذلتُ قَسَمي له. جعلني أركع أمامه وتلا صلاةً ثم أومأ بحنوٍّ في اتجاه الباب. لكن بالنسبة لي، بَدَت صلاته وكأنها تعويذة، لأن كل شيء سمعته حينها كان مُتغيِّرًا: صرير الباب، هسيس خطواتي الخافتة عبر مدخل الدير الخاوي؛ للمرة الأولى في حياتي لم أجد أيَّ عزاء في هذه الأصوات، أو في أيِّ أصوات أخرى. في الخارج، تدلَّى ضبابٌ صباحي فوق العُشب في تدويماتٍ عديمة الحياة أخمَدَت ارتعاشات ضوء الشموع المُنبعث من نوافذ الكنيسة. سقطتُ على ركبتيَّ على العشب وأصابني السَّقَم، هائج الأنفاس حتى لم يتبقَّ شيء داخلي. بكيتُ حتى استهلكتُ الدموع أيضًا.

لكن حتى فيما أنتحب في يدَيَّ، فيما أقول لنفسي إنني لا بُدَّ أن أكون ممتنًّا لهدية رئيس الدير، انتصبت أذناي لتُرهفا السمع: الرهبان يُنشدون في الليل، انقضاضة خُفَّاشٍ يُطاردُ طائرًا في بدايات الصباح.

قاومتُ الأصوات. تشبَّثتُ بالعشب الندي، البارد، حتَّى انتزعته في كُتلٍ متداخلة. نشبتُ أظافري في التراب حتى دَمِيَت أصابعي.

لا! هذه الأصوات ليست لك. هذا العالَم ليس لك. لا تسمح لها بإغوائك! لن تفعل هذه الأصوات سوى أن تجعلني أتوقُ إلى المزيد، أتوق إلى الألغاز خارج تلك الجُدران، إلى الأصدقاء، إلى الحبِّ، إلى أجراس أمِّي، إلى نيكولاي وريموس، والأسوأ من كل هذا أنها تجعلني أتوق إلى الغناء مُجدَّدًا.

* * *

وهكذا بدَأَت الفترةُ الأكثر بؤسًا في حياتي. كنتُ ممنوعًا من مغادرة الدَّير، بل ومن التجاسُر على الدخول إلى ميدان الدَّير، حيث قد يُلقي واحدٌ هائم من العامَّة نظرةً خاطفة على وجهي الملائكي، المعيوب. خلال الصلوات اليومية والقُدَّاس، كنت أجلس على مقاعد الرهبان المبتدئين، بعمودٍ هائل يفصل بيني وبين صحن الكنيسة الأضخم. أبدًا لم أرفع صوتي في نشيدٍ أو غناء، ولم يُسمح قطُّ لصلواتي الصامتة حتَّى أن تتصاعد داخل رأسي في ذكرى لما كان يومًا صوتي. مرَّةً أو مرتين أتذكَّر ما قالته لي صديقتي أماليا: «بمقدوري سماع صوتك. حتَّى من بين عشرين صوتًا آخر يُغنِّي». أحلم أنني أناديها، وسط غناء الآخرين؛ كنتُ على يقين أن شتاوداخ لن يسمعني. لكن حتَّى في لحظات كهذه يُبقيني العار صامتًا. لم أجرؤ حتَّى على الاقتراب من بوابة الشبيكة الذهبية مُجدَّدًا قطُّ.

منحني شتاوداخ ذات يومٍ الفرصة لأقسم قَسَمَ الرَّهبنة، وهكذا صرتُ أرتدي رداء الرُّهبان المبتدئين، الذي لا يختلف كثيرًا عن رداء الرهبان، لكن تنقصه القلنسوة. (أوه، كم رغبتُ في قلنسوةٍ لإخفاء وجهي!) كان هذا يعني في العادة الدراسة مع المبتدئين الآخرين كل يوم تحت إشراف كبير الرهبان المبتدئين، الأخ ليوديجار، لكن ربما كان

رئيس الدير يخشى أن ألوِّث بِركَة المبتدئين النقية، ذلك أنه فكَّرَ أنه يجب أن أصير راهبًا عَلمانيًا، جاهلًا. لا يحتاج إلى تعلُّم فيرچيل أو القديس توما الأكويني، لكن الطاعة والخضوع فحسب.

أبدًا لم يُنشَّأ راهب مبتدئ بهذه الطريقة في الدير لسنوات طويلة، لكن شتاوداخ يزعم أنني لن أستطيع أبدًا أن أكون راهبًا عصريًّا يمكنه، عبر التعلُّم والتقوى، أن يردَّ الجميل للعالَم. في أحسن الأحوال، سأكون مثل القديس غال نفسه: ناسك وحيد، بائس.

طوال هذا الفترة، كنتُ أحارب الأصوات، تمامًا كأيِّ راهب يتصارع مع رغباته. عندما أسمع البقبقة المُبتهجة لنافورة المُعتزَل، أقمعُها بالصلاة. عندما أسمع طشيش اللحم في حجرة الطعام، أصوم. عندما تتصاعد الصرخات المرحة للأطفال خارج جدران الدير، ويصبح بمقدوري الشعور بدفء بهجتهم، أبتعد إلى صومعةٍ خالية ما وأتلو الصلوات على المسبحة. عندما تبدأ أذناي في الشرود إلى تعاويذ الرياح على طوال ألواح السقف فوق غرفتي، أغرز أظافري في جلد رأسي، أو أنتزع الشعر الأزغب على مؤخرة عنقي. أجدُ قميصًا من الشَّعر يتعفَّن في دولابٍ، وأرتديه حتَّى يُشتِّتني نسيجه الحاكُّ أثناء الصلوات اليومية عن جَمال الأناشيد. أُنصتُ إلى اعترافات الرجال الآخرين، أسمعُ رغباتٍ تتحرَّك في أحقائهم وعندما يحين دوري، أكرِّر ما سمعتُه، على أمل أن أتحرَّر بشكلٍ ما عبر هذا الخداع من خطايا الصوت التي تملؤني.

على هذه المنوال انقضى عامٌ، ثم آخر. وكما وعدني شتاوداخ، ظلَّت حالتي سرًّا. كان صوت حديثي حادًّا وخافتًا، فيما كان الرجال الآخرون يزعقون ويتأفَّفون؛ لذلك لم أنفضح. ولم يكن مظهري، رغم غرائبيته، كافيًا لإثارة شكوك الرهبان الذي يعرفونني لسنوات.

حلَّ رئيس جوقة جديد، متواضع المستوى، محلَّ أولرتش ذي البراعة الفائقة. أبدًا لم يتحدَّث هذا الأخ المدعو ماكسميليان معي. ولم يجرؤ أحدٌ على ذِكر قائد الجوقة السابق صراحةً، لكنني سمعتُ همساتٍ. "أرسله رئيس الدير إلى مستشفى في زيورخ. لن يغادر فراشه أبدًا مُجدَّدًا"، قال واحد من الرهبان. "سمعتُ أنه ميِّت"، همسَ آخر. لكن عندما رأى الراهبان أن عينَيَّ مُثبتَّتان عليهما، نظرا بخجل إلى أقدامهما. في البداية لم أفهم ما كان يعنيه هذا الصمت المفاجئ الغارق في الخِزي، لكن ذات يوم، فيما أمضي بهدوء عبر واحد من الأروقة، سمعتُ محادثةً بين ثلاثة رهبان جعلتني أدرك أنهم ظنُّوا سرِّي المُخزي سرًّا آخر لا يَقِلُّ خِزيًا. "صبي يجلب عارًا كهذا إلى نفسه"، كرَّر واحد من الرهبان للآخرين. "الأخ أولرتش سمحَ لنفسه بالوقوع فريسة للإغواء، وارتكاب خطيئة عظيمة، لا أحد منَّا يُنكر هذا. لكن هذا الصبي لم يكن ينبغي أن يخطو إلى هذا الدير من البداية. إنه أفعى في وسطنا. أعتقد أنه يرغب في أن... في أن يُلَاعَب". "يومًا بعد آخر، ليلةً بعد أخرى"، وافقه واحد من الراهبَيْن الآخرَين، "كان أولرتش مضطرًّا لقضاء وقت طويل جدًّا مع الصبي؛ لقد وقع فريسةً للغواية، هذا هو الأمر بكل بساطة".

لم يكن هناك شيءٌ يميِّز يومًا عن الذي يليه. عندما أقدر على تهدئة شغفي تجاه الأصوات، كانت المأساة تتخدَّر؛ ولا يعود شيء يؤلمني حينها سوى الوحدة. كنت أفكِّر كثيرًا في نيكولاي وريموس، مُتمنِّيًا لو أن هناك طريقةً ما لمعرفة كيف كان ارتحالهما.

لم يكن الرهبان المبتدئين الآخرين متوحِّشين كما كان صبيان الجوقة، لكنهم كانوا مُترفِّعين. تجاهلوني تمامًا. كان آباؤهم يدفعون مبالغ ثابتة حتَّى يصيروا ما صرتُه أنا مقابل الشَّفقة. ظَنُّوا أنني مُجرَّد معتوه؛ رأيٌ لم أفعل ما ينفيه. عوضًا عنهم، صرتُ أترك نافذة صومعتي

مفتوحـة حتَّـى تجثـم الحمامـات عـلى سـقفي وتمنحنـي الصُّحبـة، لكنهـا أبـدًا لم تـأتِ.

كـبرتُ حتـى وصلـتُ إلى مُنتهـى طـولي، أطـول مـن الرهبـان الآخريـن بمقـدار رأس. نَمَـت أضلاعـي أكـثر وأكـثر. تحتهـا، اتَّسَـعَت رئتـاي أكـثر: "أكبر رئتـان في أوروبـا"، سـيتفاخر ناقِـدٌ مـن لنـدن بعدهـا بسـنواتٍ طويلـة. لكــنَّ أحــدًا في الديــر لم ينظــر إلى هيئتــي الضخمــة وصــدري المنتفــخ باعتبارهـما شـيئًا مهيبًـا أو عظيـمًا؛ ذلـك أننـي كنـتُ متراخيًـا في مشـيتي، وشـاحبًا وسـقيمًا. كانـت هنـاك كدمـات حـول عينَـيَّ بسـبب نقـص النـوم؛ ذلـك أننـي كنـت أخـشى إغلاقهـما. عندمـا أفعـل، كنـتُ أحلـم بأجـراس أمـي، بغنـاء نيكـولاي، أو بصـوتي ذاتـه، يـرنُّ في أصابعـي، وحينهـا يكـون الاسـتيقاظ في غايـة الألم.

* * *

هنـاك واقعـةٌ بعينهـا مـن تلـك السـنة الأولى بعـد نفـي صديقـيَّ لا بُـدَّ أن أرويهـا. كان يـوم أحـد في الشـتاء. انتهـى القُـدَّاس، وعـلى جانبـي الشـبيكة التـي تفصـل صحـن الكنيسـة إلى جزأيـن، كان الرهبـان والعامَّـة يتدفقـون خارجـين مـن الكنيسـة. بقيـتُ في مـكاني في مقاعـد المبتدئـين، مختبئًـا عـن المُصلِّـين وراء واحـد مـن الأعمـدة البيضـاء الهائلـة.

"موسى!".

بـدا الصـوت المألـوف وكأنـه يناديني داخـل رأسي. مـلأني بـدفءٍ مُباغـت، دفء لم أشـعر بـه مؤخـرًا سـوى في أحلامـي. قبـل أن أعاقـب نفـسي عـلى الاسـتمتاع بهـذا الصـوت...

"موسى!".

كان الصوت حقيقيًا؛ لأن الرهبان الآخرين استداروا نحو الشبيكة.

أجلتُ نظري حول العمود. كانت تقف أمام الشبيكة، بيديها قابضتَين على القضبان الحديدية والكَرْمات الذهبية وكأنها تنوي تحطيم الشبيكة. لم تكن الزخرفات مشغولة بتعقيدٍ كبير في هذا الجزء من الشبيكة، ولهذا رأيتُ وجهها فيما تُحرِّكه من فُرجةٍ إلى أخرى، مُكرِّرَةً اسمي بين حشد الرهبان، الذين حدَّقوا فيها باندهاش. تجاهَلَت وجوههم المصدومة. كانت وكأنها تبحث عنّي وسط غابةٍ من الأشجار الثابتة.

"موسى؟ هل أنت هنا؟" صاحت مُجدَّدًا، حتّى تستطيع كل أذن في الكنيسة سماعها. وراءها، سمعتُ صوت كارولين دوفت يقترب، تُزاحم الحشد، في محاولة لإنقاذ اسم دوفت من الخزي الأبدي.

"أرجوك يا موسى"، زعقت أماليا. "هل أنت هنا؟".

لم تكن نَسِيَتني. شعرتُ بالأمل يستيقظ من سباته. أردتُ أن أهرع إلى تلك الشبيكة. أردتُ أن ألامس يد صديقتي.

تملَّصَت أماليا على طول الشبيكة بعيدًا عن عمَّتها. بحَثَت بعينيها في كل وجهٍ حملقَ فيها، مُحاولَةً إيجاد الصبي الذي تعرفه من بين هؤلاء الرجال المُقلنَسين. بدأتُ في التَّحرُّك حول العمود.

بغتةً، كان هناك، بيده على كتفي. استدرتُ نحوه. رفع المُعلِّم الديريُّ رأسه عاليًا في مستوى رأسي.

"تذكَّر ماذا تكون يا موسى"، همسَ. "لن تفعل سوى أن تجلب العار عليها وعلى الدير".

أحنيتُ رأسي. راقبني لوهلة أخرى، ثم انسلَّ بعيدًا. عندما تطلَّعتُ ورائي مُجدَّدًا، كانت كارولين دوفت قد اختطفت أماليا عائدةً بها إلى الزحام.

* * *

ضاعفتُ جهودي، لم أعُد عازمًا على تدمير توقي تجاه أصوات العالم مثل مُجرّد شجرةٍ تموت ببطء طلبًا للماء- الآن، سأضرب الشجرة بصاعقة، سأحرقها لتتحوّل إلى رماد. صلّيتُ للربّ ليخلط كل صوتٍ بالألم، ليجعلني أشمئزُّ من كل نغمةٍ أسمعها. احتسيتُ شَرْباتٍ من مياه القار في الأيام المُقدّسة حتّى أتقيأ عندما تُغنّى أعذب الأغاني. لم آكل. كنتُ أخطو جيئةً وذهابًا في غرفتي حتى لا أنام الليل وأحلم. ثم، باكرًا ذات صباح، عندما لم أعُد قادرًا على السيطرة على توقي، ووجدتُ ذاكرتي تُغويني بسيمفونيات بديعة من أصواتٍ نصف مَنسية، حطّمتُ مرآتي في فورة غضبي. ثم استخدمتُ الجذاذات الباردة لإحداث جروح غائرة في ذراعيّ. سرعان ما صارت يداي غارقتَيْن في الدماء لحدٍّ أنني لم أعُد قادرًا على الإمساك بالشظايا، وللحظة، لحظة واحدة مباركة، أوشكتُ على الشعور بالبهجة والرضا.

لكنني لم أستطع هزيمة أذنيّ، ليس أكثر من قدرتي على كتم أنفاسي حتى أموت. ما زال قلبي يخفق كطبلة، واضعًا العلامات على ثواني حياتي. في الليل، أستيقظ، ونصف واعٍ، أتحرّر وأحتضن خشخشة النافذة وكأنها صوت معشوقة. أو الأسوأ، أستيقظ مباشرةً من حُلم بأجراس أمي أو بجهير نيكولاي المُدوّي وأجد غطاء فراشي مبتلًّا بالعرق، وصدى أحلامي ما يزال يرنُّ في أذنيّ. في لحظاتٍ كهذه، أغلق عينَيّ وأفتح مكتبة ذكرياتي، ليتذوّق خيالي لذائذ كل صوتٍ سمعته في حياتي. يُرفرف قلبي عاليًا. ويبدأ الأمل -أنه بمقدوري أن أكون سعيدًا في هذا العالَم الجميل- في الاستيقاظ داخلي من جديد.

حتّى أفتح عينَيّ وأجد نفسي في صومعتي، في سِجني، في هذا الجسد المعيب، ومُجدّدًا أزدري نفسي لأنني حَلُمت.

* * *

قـرَّرتُ ذات ليلـةٍ أن أتَّخـذ الخطـوة الأخـيرة. سرقـتُ ريشـة كتابـة مـن راهـب. جلسـتُ عـلى فـراشي، بـلا ضـوءٍ في غرفتـي سـوى كتلـة ضـوء القمر السـاقطة عـلى الأرضيـة. أقلِّـب الريشـة مـرارًا وتكـرارًا وأتخيَّـل طرفهـا الذهبـي يمـرُّ عـبر طبلتَـيْ أذنيَّ. جلسـتُ هنـاك لزمـن طويـل، منتظـرًا سـببًا مـا لـكي لا أفعـل مـا انتويـت فعلـه، لكـن بـدلًا مـن التمـرُّد، بَـدَت الأصـوات في ذاكـرتي وكأنهـا تتـلاشى ببـطء، مُذعِنـةً لأول مـرة منـذ بـدأت في محاربتهـا. ازداد الديـر والمدينـة هـدوءًا في السـاعات الأولى مـن الصبـاح، ثـم تـراءى لي أن هسـيس تلـك العصـا الخشـبية التـي تنزلـق عـبر يـدي كان الصـوت الوحيـد في العـالم.

بعـد أن تنازلـت أذنـاي عـن آخـر أثـر للمقاومـة، رفعـت الريشـة إلى أذني اليمنـى وتهيَّـأتُ لطعـن نفـسي بالصمـت الأبـدي.

* * *

ثـلاث مـرَّات في حيـاتي نادتنـي أمِّـي الميتـة عـبر الأجـراس. في هـذه الليلـة كانـت المـرة الأولى: قُـرِعَ جـرس الديـر مرَّتـين. دويٌّ مـزدوج رنَّـان تمامًـا في اللحظـة التـي أوشـكت فيهـا عـلى اسـتئصال أكـثر حـواسي بهـاءً. اسـتمرَّت القرعتـان في الرنـين المتـلاشي لعـشر ثـوانٍ، عشريـن ثانيـة، حتَّـى لم أعُـد أسـمع سـوى الصـدى الخافـت القـادم مـن المدينـة البعيـدة.

أصمَّ مثلكِ، يا أمِّي، كنتُ لأصير.

سـمعتُ همـس أقدامهـا الراقصـة على تلـك الأرضية الخشـبية. سـمعتُ جسـدَها يصـدح مـع أجراسـها. أوه، كان سِـجْنها أبشـع مـن سـجني! أبي الملعـون يتربَّـص بالقـرب منهـا ليـلًا ونهـارًا. تنتـشي هـي مـع ذلـك في كل صـوتٍ بمقدورهـا استنشـاقه بـكل ذرَّة في جسـدها. وكنـتُ أنـا -المُنعَّـم بأذنَـيْن مثاليَّتَـيْن- عـلى وشـك تدميرهـما.

سـقطت الريشـة عـلى الأرض مُقعقعـةً، وحدَّقـتُ فيهـا وكأنهـا سِـكِّين مُلطَّخ بالدمـاء. شـعرتُ بغتـةً بالهـواء خانقًـا للغايـة في غرفتـي الضيِّقـة؛ لم أسـتطع التَّنفُّـس. فتحـتُ البـاب عـلى مصراعيـه، لكـن حتَّـى الـرواق بـدا أكـثر اختناقًـا. الجـدران والسـقف تنغلـق وتقـترب مـن بعضهـا. اسـتدرتُ واندفعـتُ عـبر غرفتـي، ووثبـتُ مـن نافـذتي. بالـكاد اسـتطعتُ حـشر كتفـيَّ عبرهـا. كان هـواء الليـل في غايـة العذوبـة، والسـماء بعيـدة جـدًّا. ارتشـفتُ مـلء رئتـيَّ ليـلَ الصيـف البـارد، لكـن لا بُـدَّ أن أهـرب مـع ذلـك. وهكـذا ارتقيـتُ النافـذة بصعوبـة، فرفصـتُ عـلى العتبـة، وأمسـكتُ بالإطـار الخشـبي حتـى لا أسـقط عـلى المُعتـزَل البعيـد في الأسـفل. جذَبنـي الفضـاء الـلا نهـائي فوقـي بعيـدًا عـن سـجني. لا بُـدَّ أن أتحـرَّر! أفلـتُّ قبضتـي وانزلقـتُ عـبر ألـواح السـقف المُنحـدر حتَّـى وصلـت الحافـة لاهثًـا.

سـطعَ الديـر الأبيـض في ضـوء القمـر. كانـت شـوارع المدينـة كالشـقوق السـوداء بـين صفـوف مـن الأسـقف الرماديـة. أنصَـتُّ إلى العـالم.

في مـكانٍ مـا، انفتـح شـباكٌ مُخلَخـلٌ، متأرجحًـا، واصطـدمَ بجـدار المنزل. نبـحَ كلـبٌ. أسرعَ فـأرٌ عـلى طـول الشـارع وتوقَّـف ليمضـغ نتفـة طعـام مُتعفِّنـة. تـسرَّب سـائلٌ بـين بـلاط الشـارع وتسـاقط مُحدثًـا رنينًـا معدنيًّـا في المجاريـر. طقطقـت خطـواتُ أقـدامٍ في منـزل. همهَمَـت الريـاح الخفيفة فيـما تلتـفُّ عـبر الأزقَّـة. في مـكانٍ مـا انفتـح بـابٌ، وأنَّـت مفصَّلاتـه. فـئران وقطـط وكلاب تحكـم الليـل الدافـئ، تبحـث في القمامـة، وتُشـاكس بعضهـا البعـض. سـمعتُ المدينـة نائمـةً. سـمعتُ الأنفـاس الثقيلـة لرجـال بدينـين، وتنهُّـدات نسـاء. سـمعتُ شـخيراً. سـمعتُ بـشرًا يهـذرون بالأمنيـاتِ في نومهـم.

صار العالَم ضخمًا مُجدَّدًا، وصارت لي أذنان لكل صوتٍ فيه.

(7)

كان بمقدوري أن أصير لصّ منازل عظيم لو كان الرّبُّ منحني حُبَّ الفضّة بدلًا من حبِّ الأصوات.

بكل ليلة، كنتُ أهرب من سجني، وسرعان ما اكتشفتُ أنني لستُ أول من يفعل هذا. انطَلِقْ وألقِ نظرةً على واحدٍ ممّا تُسمَّى أديرة أوروبا العظيمة. ستجد الأرض مجوَّفة قليلًا تحت البوابة، والقِفل ملتويًا على نافذة واطئة. إلى ذلك، في الأقبية هناك توجد أنفاقٌ سرية وأبواب مختفية، يفترض ألّا يعرفها سوى رئيس الدير، لكنها تُكتَشف من قِبَل أيِّ راهب تستثيره الشهوة أو الفضول، وجميعنا كنّا مستثارين، جميعنا باستثناء مَن يحمل روحًا ضامرة.

في الطقس السيئ، كنتُ أخاطر بالمرور في واحد من الممرّات التي يسلكها الرهبان الآخرون. كنت أُفضِّل نفقًا في الأساسات التي بُنيَت في العصور الوسطى تحت الاصطبلات، حفرته قرونٌ من صبيان الاصطبلات الكسولين جدًّا على أن يدوروا من حولها وصولًا إلى بوابة

الديـر. لكـن عندمـا تكـون الأرض جافـة مـن الأمطـار والجليـد، والريـح لا تهـبُّ بعنـف، أتسـلَّق السـقف بصعوبـة. في البدايـة أتَّخـذ خطـوات قصـيرة، مـترددة عـلى طـول الألـواح المتكـوِّرة عـلى الحافـة العليـا؛ وأقفـز. ثـم أزحـف عـلى سـقف جنـاح الديـر لأسـقط عـلى قمـة البُرج القروسـطي، الـذي كان آخـر مـا تبقَّـى مـن الديـر القديـم، المعيـب. هنـاك أمـرُّ تحـت نوافـذ المسـاكن الديريـة، التـي تتوهَّـج فيهـا المصابيـح مـن الغَسَـق حتـى الفجـر. حمـدًا للـرَّبِّ أن رئيـس الديـر لا يخطـو أبـدًا إلى نافذتـه للتأمـل في أحـوال العالَـم المعيـب.

أندفـع بمحـاذاة الجـدار الـذي يفصـل الديـر عـن المدينـة البروتسـتانتية. كانـت المنـزل مبنيَّـةً أمامـه مبـاشرةً؛ لذلـك أنزلـق عـلى أسـطحها غـير المسـتوية، ثـم أثـبُ عـلى الأرض في الأسـفل.

وحينها أصير حرًّا.

حـرًّا في الاختبـاء فحسـب بالطبـع، لكـن في أيِّ ظـلٍّ أشـاؤبه. أسرق قلنسـوة وأبقيهـا فـوق جبينـي، حتـى لا يـرى أحـد وجهـي الشـاحب يسـطع مـن أعماقهـا. أوجِّـهُ أذنيَّ إلى خطـواتٍ تقـترب، إلى اسـتدارة مفتـاح، إلى تنهيـدةٍ أرِقـة تنبعـث مـن نافـذة مفتوحـة. كان قَـرع جـرس الكنيسـة بوصلتـي، وفي كل سـاعة أدقِّـق في حجمـه ونغمتـه لتحديـد موقعـي. بدونه، كنـتُ لأتـوه وسـط الشـوارع المتداخلـة، محرومًـا مـن أصـوات النهـار التـي أرشـدتني ذات يـومٍ أنـا وريمـوس إلى منـزل آل دوفـت.

مشـاهد طبيعيـة مـن الأصـوات، وكأنهـا لوحـات مرسـومة، تتألـف مـن طبقـات. الريـاح هـي الأسـاس، وهـي ليسـت صوتًـا، بالمعنـى الحـرفي، لكنهـا تخلـق الصـوت فيـما تتلاعـب بالمدينـة: تـضرب نافـذةً مُخلخَلـة، تُهمهـم في ثقـب مفتـاح، تصنـع صفـيرًا في شـعار النبالـة القصديـري المُعلَّـق أعـلى متجـر الجـزَّار: مـع الريـاح تـأتي أصـوات الطقـس الأخـرى: المطـر ينقـر عـلى بـلاط الشـارع، يتسـاقط مـن الإفريـز، ويندفـع إلى المجاريـر.

نـدَف المطـر يهسـهس. الجليـد يكتـم الأصـوات الأخـرى. الأرض تتبـدَّل. المنـازل تَـصرُّ.

عـلى قمـة هـذه الأصـوات كانـت الأصـوات الـذي تتغـذَّى عـلى صمـت المـوت والتَّفسُّـخ: أفـكاك الفـئران، الـكلاب؛ الديـدان؛ التيـارات المُخرخـرة لمـاء الغسـيل والبـول المتدفـق في المجاريـر؛ أكـوام فضـلات الطعـام المُتعفِّنة التـي تقوقـئ في انتظـار مُسـتمعٍ صبـور؛ رُكام الـرَّوث الدافـئ الـذي يئـزُّ في عمليـة تعفُّنـه؛ رفرفـة الأوراق الساقطة؛ اسـتقرار الغبـار عـلى قـبرٍ جديـد. في ضـوء الشـفق، البهائـم المُجنَّحـة تُولِـم عـلى المـوتى والمحتضريـن: رفرفـة خُفَّـاش، الصَّفْـق الوقـح لأجنحـة يمامـة هابطـة، التينـور الصـادح لبعوضـة، الهمهمـة المنتشـية لذبابـة بدينـة تتقافـز مـن الـبراز إلى البـول. مـا مـن صـوتٍ قبيـح. أضـعُ أذني عـلى القبـور. أجثـم عـلى أكـوام الـرَّوَث. أتتبَّـعُ البـول في جريانـه عـبر الميازيـب.

«في الأوبـرا يـا مـوسى، يوجـد نوعـان مـن الأغنيَّـات»، قـال لي نيكـولاي ذات ليلـةٍ قبـل أعـوام، وهـو يخطـو جيئـةً وذهابًـا في صومعتـه، وكأس النبيـذ يتـماوج في يـده، سـاكبًا قطـراتٍ قرمزيـة عـلى البُسـاط القشـديِّ الـذي لا يُقـدَّر بثمـن. «أصـغِ إليَّ يـا مـوسى، سـتحتاج إلى هـذا في مسـتقبلك. أولًا، فالغنـاء بإيقاعـات الحديـث اليومـي (المرويـات *Recitatives*) يدفـع القصـة قُدمًـا. أحيانًـا مـا تبـدأ الموسـيقى في أثنـاء الغنـاء بإيقـاع الحيـاة اليوميـة وتتدفَّـق كالحديـث. ثـم نسـمع معلومـات يـرى المؤلف الموسـيقي أننـا نحتاجهـا". رفـعَ إصبعًـا. "في تلـك الإيقاعـات، أحيانًـا مـا يغلبنـي النعـاس. لكـن لا بـأس في ذلـك. لا شيء لأخجـل منـه. فـلا أحـد يذهـب إلى الأوبـرا لسـماع تلـك المرويَّـات يـا صديقـي. بـل يذهبـون إلى الأوبـرا مـن أجـل أنغـام الآريـا. الآريـا تَلـوي أعيننـا وتفتحهـا عـلى اتِّسـاعها. انفعـال محـض، موسـيقى محضـة، بـلا أيِّ اعتبـار آخـر".

كنتُ قد احتفظت بهذه التعاليم بعيدًا عن متناول يدي؛ ذلك أنني لم أتصوَّر قطُّ أنني قد أحتاجها، خارج أيِّ مسرح على الأقل. لكن في تجوالاتي الليلية سُرعان ما أدركتُ أن بمقدوري تقسيم أصوات الليل البشرية إلى النوعين اللذين ذكرهما نيكولاي من أغاني الأوبرا. على مسرح الحياة، يمكنك سماع المرويّات من الشارع في ليلةٍ دافئة، وفي الشتاء لا تحتاج سوى إلى تسلُّق نافذة أو معالجة قُفل والدخول إلى ردهة استقبال. هذه الأصوات، كأبناء عمومتها في عالم الأوبرا، هي الأصوات التي تدفع حياتنا. هي الشخير، الأنفاس المنتظمة، الاهتياجات، تأوُّهات التَّقلُّب على الفراش، هذيانات الأحلام. إنها الهسيس في إناء التَّبوُّل، بوق أنفٍ مُحتقن. إنها تقطيع الأخشاب وإيقاد النار في الشتاء، عَجْن العجين في ساعات الصباح المُظلمة. مرويّات ليالينا هي تقليب الصفحة بيدٍ ساهدة، وَقْع خطوات الأقدام الأرِقة. هي أصوات مثيرة للاشمئزاز. أصوات كئيبة، مُكرَّرة، مُهمَلة، غير مسموعة. هي أصواتٌ لا غنى عنها.

لأسابيع طويلة كنتُ أسمع هذه الأصوات. أجلس على دَرَج خاوٍ، آكل بقايا الطعام في مطابخ خالية فيما القاطنون نائمين في الأعلى. أنسلُّ إلى غرف أطفال، أنحني على أسرّتهم وأهيم في أنفاسهم الناعمة، المريحة. وكلما أنصتُّ إلى هذه الأصوات كلما صرتُ أصغر؛ وصار العالَم كبيرًا؛ ويا له من عزاء كان هذا لي. لم أرغب إلَّا في الصوت. أنسلُّ عبر النوافذ أو أتسلَّل عبر الأروقة، ولا أشعر بأيِّ ذنب، تمامًا كالملائكة التي تنظر إلينا في أحلامنا.

استغرقَ الأمر عدة أسابيع قبل أن أكتشف مستوى آخر: معزوفة الليل. لا بُدَّ أن تكون محظوظًا لتسمعها، أو أن تكون في غاية الشجاعة؛ ذلك أن البشر يخفون هذه الأصوات كما يُخفون الرُّقَع الأكثر حميميةً من أجسادهم. لتسمع معزوفة الآريا في ليلة حارَّة؛ عليك أن تدفع بنفسك إلى نافذة مفتوحة، أو أن تجد بابًا غير موصد في ليلةٍ باردة،

أو تتعلّـم معالجـة القُفـل عـبر الأصـوات التـي يُصدِرهـا عندمـا يُنكَـز بالدبابيـس. لا تتوقّـف عنـد رَدهـة المدخـل، بـل ارتـقِ الـدَّرج، وتقـدَّم ببـطء حتـى تجـد بابًـا يمكنـك وضـع أذنـك عليـه. أو ربمـا مـن الأفضـل أن تجـد سـاكنين مشـغولين بالاغتسـال، ثـم تختبـئ تحـت فراشـهم أو في خزانة ملابسـهم. وإن لم يكـن هـذا، فلتتسـلَّق إلى سـقفٍ وتتحسَّـس الألـواح حتَّـى تجـد فُرجـةً يمكنـك مـن خلالهـا حَصـد الأصـوات في الأسـفل. وحدهـم الأشـباح والملائكـة واللصـوص لهـم الحـق في سـماع معزوفـات الآريـا.

للبـكاء ألـف صـورة: رضيـعٌ يعـوي في احتيـاج، تـأوُّه سـقيم، انتحـاب وحيـد. البعـض يبـكي في الوسـادة الكاتمـة أو يضغـط بقبضـةٍ عـلى أسـنانه حتـى يتنشَّـق حُزنـه. بعـض الأحـزان مـا هـي إلا فيضانـات مـن الدمـوع والمُخـاط المبصـوق. بعضهـا مخلوقـات جافـة، لاهثـة، تُيبِّـس القلـب. قـد يبـدو الحـزن كـولادة طفـل غـير مرغـوب فيـه. وهـي مخلوقـات تحـلُّ عـلى الإنسـان بـلا دعـوة أو تحيُّـز؛ قـد يَهـذي الرجـل الرصـين، المُتغضِّـن، ويـضرب جبينـه، فيـما حُـزن حفيدتـه الهَشَّـة يجعلهـا تختلـج فحسـب.

وأصـوات الكراهيـة -التـي تمثِّـل جـزءًا مـن أيِّ ليـلٍ- مـا هـي، في أبهـى صورهـا، إلَّا الصيحـات والسـيوف المتقارعـة التي يحاكيها المـسرح النابوليونيُّ بأفضـل شـكل. منهـا أيضًـا الصفعـات الغاضبـة والقبضـات الثَّمِلـة، الأكـثر شـيوعًا بكثـير، والإهانـات والتقريعـات، التـي لا تخلـو منهـا غرفـة نـوم وإن خلَـتْ مـن الفـراش. سـمعتُ عظامًـا تنفلـق، ودمـاءً تتقاطَـر عـلى الأرض، وثيابًـا تُمـزَّق. رغـم أنـه بمقـدوري الإنصـات للنحيـب لسـاعات -ذلـك أننـي دائمًـا مـا أشـعر برهبـةٍ مـن عُمـق الأحـزان في هـذا العـالم- إلَّا أنـه عندمـا تنسـاب الصفعـات والسِّـباب، أعـضُّ قبضتـي لأحتملهـا.

بالطبـع، إنـه الحـبُّ مـا تعيـش الأوبـرا مـن أجلـه، ولـه تُبنـى المعابـد في كل مدينـة. وسرعـان مـا صرتُ مثـل تلـك الجحافـل مـن الرجـال الإيطاليـين الذيـن يقضـون الأسـبوع دون عشـاء حتَّـى يسـتطيعوا توفـير ثمـن تذكـرة

واحدة. أُضني نفسي بحثًا عن أسمى الأصوات جميعًا: معزوفات الحبِّ. أتسلَّل إلى غُرَف النوم، أختبئ في الخزائن (ولا أتسلَّل خارجًا إلَّا عندما يأتي النوم الحقيقي). الضحكة الخجلى. الهمهمة المُشجِّعة. همسُ يدٍ على جِلد عارٍ. تناغُم الأنفاس. دفء الاهتياجات حتَّى يبدو وكأنهم يهمسون حارٌ! حارٌ! القبلة التي تتزايد حِدَّتها فيما تنتقل من الشفاه إلى العنق إلى الصَّدر.

ينبغي أن أتوقَّف هنا. أغلقوا الستائر. ذلك أنه لا يُسمح بالحُبِّ على مسارح أوروبا إلَّا لأن أكثر الأصوات بذاءةً قد تُرجِمَت إلى الإيطالية. رغم أن البابا يكافئ أغنية المخصيِّ المُوجِعة عن الحب بالذهب، إلَّا أن المرأة التي تضع يدها بين ساقيها وتتأوَّه في حضور الكرسي الباباوي ستجد نفسها في السجن. لكن لا بُدَّ أن أخبركم عن الأصوات المُحرَّمة؛ ذلك أن الإنصات إلى الحب قد ساعدني أخيرًا على استدراك ما كُنته، وما ينقصني. عندما تتحوَّل القُبلات إلى تحسيسات، وعندما تلتحم بالأنفاس إيقاعات ثابتة أخرى (دقَّات لوح الفراش، صفير الأغطية، التنهُّدات المُتزامنة)، فلا أطلب الإذن بالانصراف. بل تتتبَّع أذناي أصوات تلك الأجساد كواحد من ميكروسكوبات السيد دوفت يُركِّز على عين برغوث. أسمع فرقعة أصابع الأقدام المضمومة، الأيادي التي تهرس في الصدر والمؤخرة بصوتٍ يشبه شدَّ حزامٍ من الجليد. الصدر على الصدر وانزلاق الجلد الجاف وانسياب العَرَق، تلاطم الأحضان، تطاحن الضلع على الضلع.

ممارسة الحب تشبه الغناء. عند النَّفَس الأول -الاندفاعة الأولى- يكون الجسد خادرًا غافلًا عن الصوت. تموت التَّنهُّدات والتَّأوُّهات في الحلق. لكن الإيقاع يتسارع، واللَّذَّة تتوهَّج، والجسد يتوالف ليستقبلها. سرعان ما تندفع التَّنهُّدات إلى الصدر، ورغم أنها قد لا تكون أكثر صخبًا، إلَّا أنها تنهُّدات أكثر امتلاءً؛ يتأوَّه المُتأوِّه على أنامل أصابع المعشوقة.

لم أكـن أدرك حينهـا أنـه في ممارسـة الحـب يشـعر المـرء بلمسـةٍ سـحرية، لكـن كان بمقـدوري أن أسـتوعب بسـهولة تماوجـات جناحَـيْ صقـر في تحليقـه الصاعـد؛ لذلـك اعتقـدتُ في البدايـة أن هـذه الأنشـودة هـي مـا يبحـث عنـه العاشـقان. يتحـرّكان معًـا، يتأوّهـان معًـا، يلهثـان معًـا. يهمسـان نعـم! نعـم! في أذنَيْ بعضهـما البعـض، ويرتجفـان مـن الـرأس حتـى أصابـع أقدامهـما في أغنيتهـما المتوحِّـدة. أسـمعها عندمـا يخلـدان إلى الراحـة -صامتَيْن، باسـتثناء أنفاسـهما ودقـات قلبيهما المُتسـارعة- نشـوتهما نفـس نشـوتي في الغنـاء، جسـدٌ مُتَّحـدٌ مـن أجـل غايـة واحـدة: أن يَـرِنَّ مـع جـمال الأنشـودة.

كان في أصـوات معزوفـات العُشّـاق هـذه أن استوعبتُ أخـيرًا مـا قالـه لي نيكـولاي منـذ سـنوات طويلـة، وأنـا جالـس معـه عـلى حصانـه: اتحـاد نصفـين في الحـب. اسـتوعبتُ هـذا عندمـا سـمعت الصرخـات المُنتشـية للاتحـاد في تلـك المنـازل، لكننـي أيضًـا لأننـي سـمعت روحـي ذاتهـا تهتـف، أرجـوك! أرجـوك! أنـا، أيضًـا، أتمنّـى أن أُحَـبُّ! أتمنـى أن أكتمـل! لكـن مـع هـذا أدركـت مأسـاتي: أنـه بسـبب نقيصتـي، كان الحـبُّ مُسـتحيلًا بالنسـبة لي. بغتـةً، صـارت صفقـة الطـواشيّ مفهومـة: لقـد تخلّينـا عـن أغنيـة الاتحـاد هـذه مـن أجـل أغنيـة علينـا أن نغنيهـا بمفردنـا.

(8)

أثنـاء تجـوالاتي الليليـة كان هنـاك منـزل واحـد كثـيرًا مـا مـررتُ بـه، توّاقًـا لاستكشـافه، لكننـي أبـدًا لم أدلـف إليـه: منـزل آل دوفـت. حتّـى مـن الخـارج كنـتُ أسـمع أصـداء تلـك الأصـوات الخادعـة وأدركُ أننـي كنـت لأتـوه في أروقتـه التـي تشـبه المتاهـة، أو الأسـوأ: أن أنخـدع وأتوهّـم أن إحـدى غرفـه خاويـة، لأكتشـف أن العَمّـة كارولـين المقيتـة رابضـةٌ وراء البـاب.

لكـن أحيانًـا مـا كنـتُ أحـوم في الظـلال وأراقـب نافـذةً مضـاءة لبعـض الوقـت، عـلى أمـل اقتنـاص نظـرة عـلى أماليـا. لكـن مـاذا لـو ظهَـرَت؟ مـاذا لـو حدّقَـت إلى الخـارج في الليـل؟ لا شيء غـير هـذا: سـأتراجع أعمـق في الظـلام الـذي يخفينـي.

كان خـارج منـزل آل دوفـت ذات ليلـة أن اكتشـفتُ أننـي لسـتُ شـبح المدينـة الوحيـد.

كنتُ في الظلال أراقب نافذةً مضاءة، على أمل أن أتبيَّن لمحةً عابرةً من ذلك الشعر الطويل ذي لون التِّبن، أو من ظلٍّ يعرج. كانت أذناي تنتقل مُرفرفةٍ من فأرٍ ينزلق برشاقة، إلى أوراق شجر تتساقط متناثرةً، إلى دجاجةٍ هرَبَت من حظيرتها وصارت تهيم ذاهلةً خرساء في الشوارع.

بغتةً، في زاوية عيني، رأيتُ شكلًا بشريًّا يندفع إلى أحد الأبواب. ما بدا مستحيلًا هو أن هذا الشكل البشري لم يُحدِث أيَّ صوت. تراجعتُ إلى ظِلالي وانتظرت. لم أسمع شيئًا. افترضتُ أنني توهَّمتُ الرؤية، وخطوتُ مبتعدًا عبر الشارع، جاهزًا للتراجع إلى الدير. قبل أن أستدير حول أحد النواصي على الفور، تطلَّعتُ إلى ورائي. هيئةٌ بشرية قاتمة كانت تتحرَّك بخفوتٍ بين المنازل المُظلمة. لم تُبدِ أيَّ صوت على الإطلاق بمقدوري سماعه. كان الأمر مُرعبًا لي وكأنني رأيت رَجُلًا يخطو مخترقًا جدارًا صَلبًا.

فررتُ هاربًا.

ركضتُ عبر زقاقٍ، ثم انعطفتُ مرَّةً تلو الأخرى، حتى تأكدتُ أنني أفلتُّ من الشبح عديم الصوت. كنَّا في الخريف، والنوافذ المُغلقة تحجب أنفاس المدينة النائمة. لم أسمع سوى أصوات التَّعفُّن المتوارية وراء الرياح الباردة، المُصَفِّرة، المُتنهِّدة. بعيدًا في الزقاق الذي خرجتُ منه لتوِّي، أُضيئت نافذة. كان لها أن تكشف أي شيء يقترب منِّي. لم يكن سوى متشرِّد، قلتُ لنفسي. مُتشرِّد سرقت الريح أصواته. فأنا شبح المدينة الوحيد.

ثم سمعتُ النقر الخشن لخشبٍ على حجارة الزقاق قبل النافذة. أرهفت سمعي بحثًا عن وَقْع أقدام أو أنفاس. لم أسمع شيئًا سوى الدَّقِّ. كان يُكرِّر نفسه بانتظام مُتقَن، كدقات تروس الساعة في برج شتاوداخ الشمالي.

رأيتُ ظلًّا لرجل. احدودبَ على جانب واحد وعرّج مُسرعًا عبر الزُّقاق. كان يرتدي عباءةً سوداء طويلة، بقلنسوةٍ تخفي وجهه. من الطريقة التي يدقّ بها الشارع بعصاه، أدركتُ أنه أعمى. ثم توقّف أمام النافذة المضاءة. اعتدلَ وأدارَ رأسه جيئةً وذهابًا، مُنصِتًا.

كان هناك شيء مألوف في هذه الإيماءات؛ أعرف هذا الرجل. كان شبحًا حقًّا.

ركضتُ. انعطفتُ عبر أزقّة ضيقة دون أن أعرف إلى أين تؤدي. لم أبالِ إن كان رآني أو سمعني أحد. في كل مرّة أتوقّف، كنتُ أسمع الدَّقّ ورائي، يبدو أنه يخترق جمجمتي ذاتها. ركضتُ كبغلٍ مذعور، مصطدمًا بالجدران، مُتعثِّرًا في الزقاق غير المستوى، ومُدميًا يدَيَّ على أحجاره.

انتهى بي الأمر إلى زقاقٍ مسدود. تحسّستُ الجدار العالي بحثًا عن مَخرَج ولم أجد، ثم استدرتُ وأنصتُّ. دقّة. دقّة. أقعيتُ وراء بعض البراميل المُتعفِّنة وأرغمتُ أصواتي على الاختفاء. كانت أنفاسي بأدنى همسٍ، لكن قلبي ما يزال ينبض كالطَّبْل. دقّة. دقّة. دقّة. اجتاز الصوت مدخل الزقاق. توقّف الشبح هناك. احتشَدَت الريح في نهاية الزِقاق، عاويةً حول البراميل.

كان العُكّاز قد استدارَ الآن وأخذَ في الدَّقّ عبر الزقاق ناحيتي. كان أقلَّ إلحاحًا. دقّة. نقرَ مرةً واحدة فيما ألتقط أنفاسي في رعب.

دقّة. مرّةً فيما أُخرج أنفاسي.

دقّة.

عندما اقترب الشكل البشري، تبيّنتُ وقع خطوات خافتة، هادئة كخطواتي عندما أعبر الأسقف وأتسلّل من غرف النوم. لم يكن شبحًا، لكن رَجُلًا تلامِس قدماه الأرض حقًّا. لم يمنحني هذا العزاء.

توقَّف العُكَّاز والخطوات. رفرَفَت الريح عباءته. كانت أنفاسه أكثر خفوتًا من أنفاسي. نهضتُ واقفًا. تعثَّرتُ بين البراميل. انفلَقَت، ناثرةً الخشب المُتعفِّن عبر الزقاق. اقتربَ منّي، مؤرجحًا عُكّازه عند قدمَيّ. تراجعتُ ملتصقًا بالجدار. عندما تأرجحَ عُكّازه مجدّدا نحو قدمَيّ، اندفعتُ مُتجاوزًا إيّاه، لكن أذنه كانت أسرع. أمسكت يدٌ بكُمٍّ ردائي وهزَّتني بقوَّةٍ لحدٍّ أنني فقدتُ توازني. جرَّني نحوه. حاوَلتُ أن أتملَّصَ من قبضته، لكنه أسقطَ عُكَّازه -قعقعَ على الأرض- وقبضَ عليَّ بكلتا يديه.

"أفلِتني!" صرختُ. كان عجوزًا ومعاقًا، لكن بالنسبة له لم أكن أقوى من طفلٍ يصرخ. أزاحت يدٌ قلنسوته. إنشات كانت تفصل بين وجهينا. حتّى في الضوء الخافت، كان بمقدوري تبيُّن كل تفصيلة غَريبة في وجهه. لم يتبقَّ فيه شَعرٌ على الإطلاق. كان جلده أحمر مُرقَّطًا، بلُطخٍ من البياض كغضاريف حَمَلٍ نيئ. كان خدُّه الأيسر مشدودًا وناعمًا، كنسيجٍ رقيق عرضةً للمزق عند لمسة إبرة. فيما خدُّه الأيمن مُلطَّخ بالفقاقيع والندوب. مِحجرَا عينيه خاويَيْن؛ وجفناه سدائل مُجعَّدة من الجلد.

"وجدتُك"، قال أولرتش.

* * *

"مَن هناك؟" صاح أحدهم من نافذةٍ في الزقاق.

"تعالَ معي"، همسَ أولرتش. "منزلي قريب".

حاولتُ التَّحرُّر.

"لن أتركك مُجدَّدًا"، قال. ثم أحكم قبضته عليَّ بكلتا لديه. "لا أبالي إن أمسكوا بنا، رغم أننا سُنعاقب كلانا".

"من هناك؟ نحن مسلَّحون!" هتفَ الصوت.

"تعالَ!" قال أولرتش مُتعجِّلًا. أمسكني من كُمِّي وجذبني. كنتُ مُستسلمًا تمامًا كما كنتُ ذات يومٍ عندما حمَلني إلى الأسفل عبر أروقة منتصف الليل. رغم أنني الآن أكثر طولًا منه، لم أستطع استجماع شجاعتي لضرب الرجل المُعاق.

دقَّ بعُكّازه عبر الزقاق. تلوَّى بنا بخبرة الشوارع، وهكذا أدركتُ أن ذاكرة الأشكال لديه كانت أفضل كثيرًا من ذاكرة الأصوات. وصلنا إلى ميدانٍ بنافورة ثلاثية الميازيب، ودفعني نحو باب لمنزل ضيِّق. فتحَ رتاج الباب ودفعني إلى الداخل.

كان للمنزل غرفةٌ واحدة في الطابق الأرضي. كانت مُرتَّبةً بشكل مُدهش، بمقعدٍ واحد مع منضدة صغيرة، وفراشٍ مُلتصق بالزاوية. لم تكن هناك أيُّ زينةٍ على الجُدران، ولا أيَّة قطع أثاث أخرى، ولا مصابيح ولا شموع من أيِّ نوع. كان الضوء الوحيد قادمًا من توهُّج الفحم في موقد. دَرَجٌ مائل بحدَّة كان يؤدي إلى الطابق الأعلى المُظلم. الفراش مُرتَّب بعناية، والمقعد يتوسَّط المنضدة. لم يكن هناك أيُّ رماد متطاير حول الموقد، ولا بقايا طعام على الأرض. التمعت الأرضية الحجرية.

أوصدَ الباب ووضع المفتاح في جيبه.

"افتح الباب"، قلت.

ارتفعَ رأسه وكأن بمقدوره أن يراني بعينيه المجوَّفتين. "صوتك ما يزال كما هو"، قال. "لكن أقوى".

"افتحه"، قلتُ.

"إذا فتحته، هل سترحل؟".

"إذا شئتُ".

تفكَّر لوهلة، ثم فتحَ قُفل الباب. خطا ناحيتي، مدَّ يده حتى وجد صدري، ثم دسَّ المفتاح في جيبي.

"هذا مفتاحك"، قال. "هذا منزلك. إذا شئتَ".

"لا أريده".

لم يَقُل شيئًا. طَقطَق الجَمْر في الموقد كالجليد.

خطوتُ متجاوزًا إيَّاه نحو الباب. كان ظَهْرانا قُبالة بعضهما البعض عندما تحدَّث.

"عندما استعدتُ قدرتي على المشي، منحني رئيس الدير كويلستين زكيبةً من الذهب. قال إنه سيشنقني على إخصائكَ إذا عدتُ أبدًا إلى هذه المدينة. ثم أرسلني إلى زيورخ. ألقوا بي من العربة وتركوني بجوار البحيرة. لم تكن لديَّ عصا حتَّى. أنصتُّ إلى العربة تختفي. إلى الأمواج في البحيرة. الخيول العابرة. الباعة في سوقٍ قريبٍ. أبدًا لم أسمع في حياتي عالَمًا خاويًا كهذا. لو كان بحوزتي مُسدَّس لوضعتُه في رأسي وأطلقته".

سمعتُ التَّوسُّل في صوته، لكن مع ذلك مددتُ يدي نحو مقبض الباب.

تابع أولرتش: "'عربة'، صحتُ حينها. 'أحضروا لي عربة!'".

ارتعشَ ظهري عندما سمعتُ صوت مُعلِّمي الفاتر، المُتلهِّف. اتَّخذَ خطوتين ناحيتي. ارتعبتُ من لمسته الرقيقة الآن تمامًا كما كنتُ أشمئزُّ منها عندما كنتُ طفلًا.

"موسى، كان ينبغي لنيكولاي أن يأخذ أذنيَّ! كان بمقدوره بَتْرهما، وكنتُ لأشكره فيما أصرخ. لكن العمى هو لعنة الشيطان! لا أفعل شيئًا سوى السَّمْع. أسمع النمل يزحف على الأرض. أسمع الطين ينساب تحت قدمَيَّ. أسمع ندوبي تتقرَّح فيما أحاول النوم. أسمعك

يـا مـوسى. أنـا أيضًـا أهيـم في الليـل؛ ذلـك أننـي أيضًـا عـليَّ أن أبقـى مختبئًـا. طالمـا تَبعتُـكَ. طالمـا سـمعتُ خطواتـك وأنفاسـك. تلـك الأنفـاس التـي علَّمتُهـا كيـف تنطلـق".

استدرتُ إليـه ورأيـت الدمـوع تنسـاب مـن حيـث كانـت عينـاه يومًـا. مـدَّ يـدًا وكأنـه يتـوق إلى لمـسِ ذراعـي. جَفلـتُ متراجعًـا.

"لكـن مـاذا هنـاك لأسـمعه؟ سـمعتُ الجَـمال في هـذا العـالم ذات مـرة، لكـن ضجيـج هـذا المدينـة المريعـة يذكِّـرني كل لحظـةٍ بمـا فقدتُـه. مـوسى، كل مـا أريـده أن أسـمعك تغنِّـي مُجـدَّدًا. أرجـوك".

توقَّـفَ. لم أسـتطع انتـزاع عينَـيَّ عـن رأسـه المحـترق، الـذي كان يلتمـع قرمزيًّـا في ضـوء الفحـم المتوهِّـج. مسـحَ وجهـه الغـارق في الدمـوع.

"موسى، أرجوك...".

"لم أعُد أغنِّي"، قلتُ بغتةً. "رئيس الدير يحظر عليَّ ذلك".

"رئيس الدير أحمق".

"طالمـا كان رئيـس الديـر عطوفًـا عـليَّ"، قلـت، بغضـبٍ في صـوتي. "جعلَ منـي راهبًـا مبتدئًـا. يومًـا مـا سـأصير راهبًـا حقيقيًّـا".

فتحَ أولرتش فمه لكن توقَّف. اختلجَ وجهه فيما يتأمَّل ما قلتُه لتوِّي.

"هـذا... مـن حُسـن... حظِّـك"، قـال، لكننـي سـمعتُ في تـردُّده أنـه كان يُخفـي مـا يعتقـده حقًّـا. "تنـوي البقـاء هنـا إذن؟ للأبـد، في هـذه المدينـة؟".

"إلى أين غيرها يمكنني الذهاب؟".

رأيـتُ الدهشـة عـلى وجـه الرجـل الأعمـى، لكنـه سرعـان مـا خَنقَهـا. "رئيـس الديـر في غايـة الكَـرَم"، قـال. "هـذا عالَـمٌ قـاسٍ عـلى أمثالـك. بمقـدور الديـر أن يوفِّـر لـك الكثـير مـن الـتَّرف".

"لا أريد الترَّف. أرغب أن أُترك وشأني فحسب".

"حسَنًا"، قال. أومأ. مدَّ يدًا مرتعشة وعثرَ على كُمِّي، لكن بخفَّةٍ شديدة لحدٍّ أنه كان بمقدوري الابتعاد. بيده الأخرى ربَّتَ على ذراعي، وكأنه عمٌّ غير معتاد على الأطفال. "موسى"، تابع. "دعني إذن أعرض عليك الشيء الوحيد الذي لا يستطيع رئيس الدير تقديمه. حينها ستنال كل ما تريده. ستكون سعيدًا للأبد".

"ماذا بمقدورك أن تعرض عليَّ؟".

"أن تُغنِّي"، قال بهدوءٍ شديد.

انتزعتُ ذراعي وتراجعتُ بضع خطوات.

"أرجوك أنصِتْ"، قال بهدوء، مُجاهدًا ليسيطر على حماسته المتَّقدة. جرَّ قدميه ناحيتي، محاولًا استعادة قبضته. "أرجوك غَنِّ هنا. في هذا المنزل. في الليل، بدلًا من التطواف في الشوارع. لن أقول لك ماذا تغنِّي. لن أتحدَّث. سأجلس فحسب وأنصت".

فتحتُ الباب.

"أرجوك يا موسى، غنِّ"، همسَ وكأنه يصلي.

استدرتُ لألقي عليه ما كنتُ آمل أنه النظرة الأخيرة. ثم قلت. "كيف لك أن تطلب مني ذلك؟".

"موسى!".

"لقد دمَّرتَني".

"لم... لم... يكن لديَّ..." لم يستطع إنهاء جملته.

"لن أُغنِّي مجدَّدًا أبدًا"، قلت. "لا لكَ. ولا لأيِّ إنسان".

(9)

كنـتُ شـبحَ المدينـة الصامـت، أتلبّـس الشـوارع والمنـازل، أجمـع كل صـوتٍ مـا عـدا صـوتي؛ ذلـك أننـي لا أُبـدي أيّـة أصـوات. كنـتُ مغتبطًـا أكـثر مـن أيِّ وقـتٍ منـذ نفـي صديقَـيَّ. نجحـتُ في التصالـح مـع بـلاويَّ، وتقبُّـل أن الـرَّبَّ لم ينـوِ في الأصـل أن يمنـح هبـة الفرحـة لمَـن يحملـون نقيصتـي. في التاسـعة عـشرة مـن عمـري فحسـب، كنـتُ تخلَّيـتُ عـن العالَـم. وكنـتُ سـأظل هكـذا حتـى اليـوم -شـبحًا عجـوزًا، صامتًـا- لـو لم يُعِـدني مـلاكٌ إلى الحيـاة.

حـدثَ انبعـاثي بغتـةً. باكـرًا ذات صبـاح، انزلقـتُ عـلى سـقف الديـر عائـدًا إلى نافـذتي، مُنتبهًـا حتَّـى لا أُحـدِث صوتًـا. بهـدوء وضعـتُ قدمـي عـلى حافـة نافـذتي وأقعيـت، مُسـتعدًّا للسـقوط عـلى فـراشي. كنـتُ أحجـب ضـوء النجـوم عـن الغرفـة.

فيـما أُلقـي بهـذا الظِّـلِّ عـلى أرض غرفتـي، سـمعتُ تنهيـدةً. كانـت في غايـة الخفـوت لحـدٍّ أن معظـم النـاس لـن يسـمعوها، لكـن بالنسـبة

لي كانـت ذات دلالـة وكأنها بورتريـه. تعرَّفـتُ عـلى الرئتـين اللتـين دفعتـا الهـواء، والحلـق الـذي صاغ شـكله.

لم أتحرَّك. لم أكن لأرتعب أكثر لو سمعتُ أسدًا يقف هناك.

"موسى"، قالت. "هل هذا أنت؟".

لم أُجِـب. أقعيـتُ عـلى حافـة نافـذتي وحاولـتُ الامتـزاج بالليـل. خَطَـت عـبر غرفتـي. كانـت ترتـدي عبـاءة سـوداء بقلنسـوة، مثـل عبـاءتي. لكـن قلنسـوتها كانـت مخفوضـةً. في الظـلام، كان بمقـدوري رؤيـة حـدود وجهها، ووهـج شـعرها الذهبـي.

هبطـتُ إلى الفـراش ثـم نزلـت إلى الأرض. كانـت قمـة رأسـها تصـل إلى ذقني.

"موسى؟".

أنصتُّ إلى أنفاسها. كان زفراتها رطبة ودافئة.

"ألا تريد التَّحدُّث إليَّ؟".

سمعتُها تعضُّ شفتها.

"يا لي من حمقاء"، قالت. "يقتلني الخزي".

اسـتدارت لتنـصرف. أنصـتُّ إلى حذائهـا عـلى الأرض. سـمعتُ نسـيج ردائهـا يُحفحـف عـلى ظهرهـا.

"انتظري"، همستُ، بنعومةٍ كنعومة ذلك الصبي الضئيل.

اسـتدارت. انتظَـرَت. لم أتحـدَّث. حاولـتُ أن أسـمع قلبهـا. كان خافتًـا للغاية عـلى أن أسـمعه مـن نهايـة الغرفـة، لكننـي كنـتُ مرتعبًـا عـلى أن أخطـو خطـوةً واحـدة.

"انتظري"، قلتُ مُجدَّدًا. "لا ترحلي".

لبضع ثوانٍ وقفنا هناك فحسب في الظلام.

"هل لديك شمعة؟" سألَت أخيراً. "مصباح؟".

"كلّا".

"كيف تستطيع الرؤية؟".

"لا حاجة بي إلى الرؤية".

"أريـد أن أرى وجهـك"، قالـت. "لخمـس سـنوات لم أكـن أرى شـيئًا سوى عينيك وبضع أصابع عبر تلك البوابة اللعينة. ازداد طولك كثيراً منذ ذلك الحين".

أغلقتُ عينيَّ وتمنَّيتُ لو تجمَّد العالَم وأبقى لي أصواتها فحسب.

"ألا تريد أن تراني؟" سألَت.

"رأيتـكِ"، أجبتها. "في كل مرَّة تحدَّثنا فيها. وفي العام الفائت أيضًا. في الكنيسـة".

سمعتُ الهوان يستولي على صوتها. بعد بضع ثوانٍ تحدَّثَت. "إذا كنتَ هناك حقًّا، لماذا لم تُجبني؟".

لم أجبها، لأنني لم أستطع إخبارها بالحقيقة.

"أردتُ أن أراك"، قالت. "أريد أن أراك الآن. مضى زمنٌ طويل. طالما ظننتُ أنك صديقي. صديقي الوحيد. هل نسيتَني؟".

"كلّا"، همستُ. "لم أنسَكِ على الإطلاق".

خطَت بخفّةٍ عبر الغرفة. انكمشتُ في قلنسوتي، حتّى لا ترى وجهي، حتى لا تقرأ نقيصتي في انحناءاته الناعمة. كانت على بُعد إنشات الآن. أستطيع سماع قلبها الآن، كالطَّبل. كل خفقة تهزُّ جزءًا ذاويًا داخلي وتُعيده إلى الحياة. لاحظتُ بغتةً كم هي صغيرة غرفتي في العِلِّيَّة، وكيف يوشك رأسي على ملامسة السقف المائل. لو

فـردتُ ذراعـيَّ سـيكون بمقـدوري ملامسـة كلا الحائطـين. صـارت غلالتـي الكهنوتيـة ضيِّقـة بغتـةً، لحـدِّ أننـي لم أسـتطع التَّنفُّـس.

"هـل يمكننـي رؤيـة وجهـك؟" مـدَّت يـدًا ولامَسَـت القلنسـوة. تناولـتُ يدهـا في يـدي حتَّـى لا تكشـف عـن وجهـي.

«أرجـوكِ لا تفعـلي»، قلـتُ. عندمـا تركـتُ يدهـا، أفلَتَـت قـماش ردائي، لكنهـا أبقـت يدهـا قريبـةً مـن وجهـي.

«لم يكن ينبغي أن آتي».

كانــت أنفاســها قــد تبدَّلَــت. صـارت أكـثر دفئًـا الآن؛ وحلقهـا أكـثر توتُّـرًا. ابتلَعَــت ريقهـا.

«قبـل شـهورٍ سرقـتُ هـذا الرداء مـن مصنـع أبي. فكَّـرتُ، سـأتنكَّر فيـه. فكَّـرتُ، سـأذهب لرؤيـة مـوسى. وجـدتُ هـذه. هـل تتذكَّرهـا؟» خشخشـة ورقـة تنفتـح. اسـتطعتُ رؤيـة القليـل منهـا في الظـلام؛ كان عليهـا مـا يشـبه رَسـمةً. «علامـة X مـا تـزال تشـير إلى غرفتـك".

اسـتحضرتُ ذكـرى طفلـين سـاذجَيْن يثرثـران في الـرواق. كـم تمنَّيـتُ لـو كنـتُ هنـاك مُجـدَّدًا.

"مـوسى"، تابَعَـت، "عندمـا أسـتلقي في الفـراش وأحـاول التفكـير في شيءٍ سـعيد واحـد في حيـاتي، أفكِّـرُ فيـك. مـرَّةً في الأسـبوع، كل خميـس. تـزور كارولـين خالتَهـا في بروجـن. يصـير المنـزل خاويًـا للغايـة- يمكننـي فِعـل مـا يحلـو لي حينهـا. أفكِّـر دائمًـا: لكـن مـاذا يحلـو لي؟ مرَّتَـين، وصلـتُ إلى حـدود الكنيسـة قبـل أن أسـتدير عـلى أعقـابي، بهـذا الـرداء تحـت ذراعـي. الليلـة لم أسـتطع التَّوقُّـف. تسـلَّقتُ تلـك الشـبيكة الذهبيـة. لا أعتقـد أن أحـدًا رآني، لكننــي لا أبـالي عـلى أيِّ حـال. مـوسى، كيـف لي ألَّا آتي؟".

وقفنـا هكـذا لبضـع ثـوانٍ، يدهـا مـا تـزال مرفوعـةً أمامـي، وكأنهـا تمنحنـي البَرَكـة. ثـم بأنفـاسٍ مُتقطِّعـة، وكأنهـا لم تسـتطع مقاومـة الرغبـة،

مـدَّت يدهـا ولامســت ذقنــي بإصبعهـا. تتبَّعــت إصبعهـا حافَّـة فـكِّي. وضعـت راحتهـا عـلى خـدِّي، ثـم حرَّكـت أصابعهـا عـبر شـفتيَّ، وحينهـا شـعرتُ بأنفـاسي الحـارَّة ترتـدُّ مـن عـلى أصابعهـا.

"يا إلهي"، همَسَت. "يا لي من حمقاء".

تسـارعَ قلبانـا معًـا. سـمعتُ ابتـلال فمهـا فيـما تبتلـع ريقهـا مُجـدَّدًا. مـدَّت يدهـا وراء أذني. أجـرَت أصابعهـا عـبر شـعري، ثـم بـدأت في جـذب وجهـي ناحيـة وجههـا، وشـعرتُ بشـفتيها تلامسـان شـفتيَّ. لم تسـتجب شـفتاي لشـفتيها، لكـنَّ أذنيَّ سـمعتا كل نغمـةٍ في القُبلـة: افـتراش شـفتَيْها، شـدَّهما الناعـم عـلى شـفتَيَّ، تحرُّرهـما.

خَطَـت متراجعـةً للـوراء في خجـل. لكـن فيما توشـك عـلى اتِّخـاذ خطوة أخـرى -للهـروب للأبـد ربَّمـا- ارتفعــت ذراعــي. أمسَـكَت يـدٌ بكتفِهـا، والأخـرى بخاصرتهـا. لم أعناقهـا، أو أجذبهـا ناحيتـي حتَّـى، لكنـي أمسـكتُ بهـا فحسـب، وكأننـي أمسـك بكنـزٍ ثمـين سـهل الانكسـار في يـدَيَّ.

أطلَقَـت زفـيرًا، ثـم تنفَّسَـت مُجـدَّدًا. كانـت كل نبضـةٍ مـن قلبهـا، متماثلـة تقريبًـا لسـابِقتها، صوتًـا جديـدًا وجميـلًا لي، ووجـدتُ نفـسي أقـترب منهـا ببطء، بذراعـيَّ يتسـلَّلان حـول ظهرهـا لتقريـب أصواتهـا إليَّ.

تنهَّـدَت، وأرسـلت الهمهمـة الرقيقـة في رئتيهـا برعشـة انتشـاء عـبر ظهـري. قرَّبُتهـا أكـثر. انضغـطَ نهداهـا الناعـمان عـلى صـدري، وأسـفل منهـما، لامَسَـت أضلاعهـا أضلاعـي. عندمـا تنهَّـدَت مُجـدَّدًا، انتقـلَ الاهتـزاز مـن جسـدها إلى جسـدي، وشـعرتُ بـه في رئتَـيَّ. ضغَطَـت بخدِّهـا عـلى كتفـي، برأسـها تحـت فـكِّي. صـارت كل زفـرةٍ عَذْبـة الآن سـجينةً في عُنقـي.

لم أعُـد أحتمـل الأمـر. شرعــتُ في غنــاء نغمــةٍ أحاديـة، بخفـوتٍ في البدايـة، ثـم بالـكاد استطعتُ مقاومـة استخدام كل قـوة هاتـين الرئتـين. كان قـد مـضى وقـتٌ طويـل جـدًّا، أكـثر مـن ثلاثـة أعـوام، منـذ غنَّيـتُ آخـر مـرَّة. انتـشَرَت الوخـزة المألوفـة للنغمـة خارجـةً مـن عنقـي، إلى صـدري

وفكِّي، حتَّى صرتُ أرنُّ من جديد. انطلقت الأغنية مباشرةً مني صدري إلى صدرها. كان صوتي ما يزال همسًا، لكن سمعتُ صداه في عنقها، في عضلات ظهرها، وكأنه جرسٌ طَرَقتُه برفقٍ بِمِدقَّةٍ من اللُّبَّاد الناعم.

رفعتُ صوتي بالغناء وضممتُها إليَّ أكثر. وضعتُ إصبعًا على كل ضلعٍ في ظهرها، حتَّى أشعر بصوتي فيما يمرُّ عبرها.

ثم سمعتُ وقع خطواتٍ في الرواق. قطعتُ صوتي، وكأن يدًا قبَضَت على حلقي. كان أحدهم قد سمعني أغنِّي فيما يقف في الرواق، خارج غرفتي مباشرة.

"ما الأمر؟" همَسَت.

"أحدهم هناك"، قلت.

اتَّخذَ أيٌّ مَن كان ذلك خطوتين نحو بابي وانتظر. وضعتُ إصبعي على شفتيها.

بعد بضع ثوانٍ، تراجعَ وقع الخطوات عبر الرواق.

"تعالَيْ معي". قُدتها نحو النافذة.

"إلى الأعلى؟".

"سأمسك بيدكِ".

ارتقينا النافذة، ثم حملتُها حتَّى وقفت بقدميها على حافة النافذة، وصار بمقدورها النظر إلى المُعتزَل في الأسفل. أحكَمَت يدها حول يدي. كان ليلًا بلا قمر، وبالتالي ظلَّ وجهي آمِنًا في الظِّلِّ. كانت المدينة سوادًا محضًا وراء الدير الأبيض. بقبقت النافورة في المُعتزَل. حَفحَفَت الريح كحريرٍ رقيق على السقف. ناحت حمامةٌ. قعقَعَت عربة عبر شارع بعيد.

ساعدتُها لتتسلّق إلى الطُّنُف، ثم وقفنا، يدًا بيدًا، وسرتُ في الخلف وهي في المُقدِّمة، بساقها العرجاء تتخبّط. انزلقنا عبر البُرج، متجاوزين نوافذ رئيس الدير، ثم زحفنا على طول الجدار لنهبط إلى المدينة. كان منزل آل دوفت المكانَ الوحيد الذي بمقدوري إيجاده بكل ثقة؛ ذلك أنني كنتُ أزوره في كل ليلة طوال العام الفائت، رغم أنني لم أدخل إليه. قدتُها عبر الشوارع المظلمة، مُسترشدًا في طريقي بنغمة أقدامي على أحجار الشارع، وحفيف الرياح. لم نتهامس حتّى، ليس لأننا خشينا أن يسمعنا أحد، لكن لأن كلينا شعرَ بأننا كنّا في حُلمٍ، وأن أيَّ ضجيج قد يُفزعنا ويوقظنا. تشبَّثَت بذراعي برفقٍ حتى وصلنا إلى منزل آل دوفت، ظلًا أسود في الليل.

خطوتُ وراءها، أمسكتُ بذراعَيْها أسفل كتفَيْها، وهمستُ في أذنها. "في هذه البقعة"، قلت. "بعد أسبوع. سأكون هنا". وبدفعةٍ رقيقة، قُدتُها إلى بوابة حديقة المنزل وأفلتُّها.

استدارت ناحيتي، لكنني كنتُ رحلت. اختفيت كشبح.

(10)

في الليلة التي تلت زيارة أماليا، تسلَّلتُ إلى منزل أولرتش. استخدمتُ المفتاح الذي كان وضعه في جيبي. لم أطرق الباب. في البداية، بسبب الغياب المُطلق للأصوات البشرية، كنتُ متأكِّدًا أن الرجل العجوز قد مات بسبب لحم جسده المُتعفِّن، لكن عندما دلفتُ إلى الغرفة، أبانَ الفحم المتوهِّج في الموقد قائد الجوقة السابق جالسًا على المنضدة. كان مِحجرَا عينيه الخاويان يشيران إلى يديه متصالِبَتَيْن أمامه. كانت جمجمته المتقيِّحة جرداء.

لم يُبدِ ردَّة فِعلٍ على دخولي، لكنني كنتُ متأكدًا أنه سمعني. لم يصدر عنه صوت أكثر مما تُصدِر جثَّة. كنت جلبت معي شمعةً، أشعلتها من الفحم. ثم تسلَّقت الدَّرج. لم يحرِّك رأسه.

أبانت طبقةٌ من الغبار على السُّلَّمة الرابعة أبعدَ نطاق وصلَ إليه اهتمام أولرتش المهووس بالنظافة. لم يكن أحدٌ قد ارتقى الدَّرَج حتَّى هذه السُّلَّمة في عامٍ أو يزيد. في الطابق التالي، كان هناك رواق طويل

تتناثـر فيـه مقاعـد، وسـجاجيد ملفوفـة، وإطـارات لوحـات مكسـورة، وزهريَّـات مُحطَّمـة، وكومـة مـن الأواني الفضيـة القـذرة، وكل هـذا يسـدُّ الأبـواب الأربعـة الخارجـة عـن الـرواق. عنـد النظـر عـن قـرب اكتشـفت أن المقاعـد والسـجاجيد والأُطُـر كانـت ملطَّخـة أيضًـا ببقـع كثـيرة. غبـار؟ دمـاء؟ وضعـتُ يـدي عـلى أنفـي وتراجعـتُ بسرعـة عـن هـذه الفـوضى المُغثِيـة، مُتابعًـا طريقـي عـلى الـدَّرَج المُغبَرّ حتـى الطابـق الأخـير، حيـث انتهـى الـدَّرَج ببسـطة ذات بـاب، فتحتـه ودلفـت عـبره.

كانـت هـذه المسـاحة تحـت سـقف المنـزل عبـارة عـن غرفـة طويلـة واحـدة. سـقفها ينحنـي لحـدٍّ أن رأسي احتكَّـت بالعـوارض فيـما أخطـو نحـو النافـذة العريضـة في الناحيـة الأخـرى. كان الغبـار يغطـي كل شيء.

بجـوار البـاب ينتصـب موقـدٌ غـير مُشـعَل، وفـراش قديـم يقبـع بجـوار النافـذة تتناثـر عليـه أوراق وكتـب صفـراء. في منتصـف الغرفـة تنتصـب منضـدة مسـتطيلة، بمقـدور عـشرة أفـراد تنـاول عشـائهم عليهـا بـكل أريحيـة، لـو لم تكـن مكسـوَّة بطبقـة مـن السـخام وتعلوهـا جِـرار ومخلَّفـات أخـرى. بالتَّمعُّـن فيهـا عـن قـرب، اكتشـفت سـكاكين وفُرَشًـا متنوِّعـة مبعثرة عـلى المنضـدة، ورأيـت أن الجِـرار الزجاجيـة كانـت ممتلئة بأطليـة، مفتوحـة للهـواء في معظمهـا، وقـد جفَّـت تمامًـا، لكـن بعضهـا مـا يـزال مغلقًـا، وفي هـذه الجِـرار، كانـت الأطليـة قـد اسـتقرَّت في طبقـات وكأنهـا عيِّنـات مـن الرمـال. عـلى الجُـدران، كانـت أقمشـة الرسـم غـير المؤطـرة تغطـي كل إنـش مربَّـع. مزيـدٌ مـن اللوحـات كانـت مرصوصـة في الزوايـا، مئـات منهـا ربمـا، بعضهـا كبـير كبورتريـه شـتاوداخ المُعلَّـق في مكتبـة الديـر، وبعضهـا صغـير كأيقونـة مريـم المنمنمـة التـي طالمـا كانـت مُعلَّقـة فـوق فـراش نيكـولاي.

كانـت بورتريهـات. كلٌّ منهـا يصـوِّر وجهًـا منفـردًا، وكان بمقـدوري عـلى الفـور تبيُّن أنهـا رُسـمت جميعًـا بنفـس اليـد. كانـت الخطـوط غـير مُتقَنة،

ومع ذلك فيما ألوِّح بالشمعة أمام أقمشة الرسم، شعرتُ على الفور بألفةٍ مع هذه اللوحات، أكثر ممّا منحتني الوجوه الحقيقية قطُّ.

وجدتُ وجهًا لامرأة مكرَّرًا بكثرة: كبير أحيانًا ومنمنم أحيانًا، ترتدي فستان حفلات في بورتريه، وهناك، في بورتريه آخر في نهاية الغرفة بجوار الفراش، لا ترتدي شيئًا سوى جلدها الشاحب. على قماشة الرسم الأخيرة هذه كانت تجلس على مقعد، في وضعية وقورة لا تلائم العُريَ. حدَّقتُ في جسدها العاري. هذا المرأة -لا، هذه اللوحة لهذه المرأة- أوقفت أنفاسي. سمعتُها. هل كان صوتها أم أنفاسها أم انزلاق فخذٍ ناعمة على الأخرى؟ سمعتُ كل هذه الأصوات في اندفاعة صاخبة مرَّت من خلالي كريحٍ عاصفة.

نظرتُ من فوق كتفي. هل كانت معي في الغرفة؟

لكنني كنتُ بمفردي.

سرعان ما بدت الغرفة صاخبة. مع كل نظرة خاطفة، كانت كل لوحة تهمس لي. أزلتُ الكثير منها وقلَبتُها حتى يواجه مَن فيها الحائط، لكنني تركتُ ثلاثة بورتريهات لوجه هذه المرأة الساحرة، والبورتريه التي تجلس فيه عاريةً.

ألقيتُ بالجِرار والفُرَش في الشارع في الأسفل. انفجَرَت في طرشطات متعددة الألوان. ظهرَ ضوء الشموع في المنازل على الناحية الأخرى من الشارع، وسمعتُ امرأة تصرخ، "يا إلهي! الشبح!" تُربِسَت نوافذ وسُلسِلَت أبوابٌ. صوَّبتُ بالجِرار على النوافذ، مُخلِّفًا خطوطًا خضراء وزرقاء على المنازل المواجهة لمنزل أولرتش. لطَّخت جرَّةٌ حمراء شاردة النافورة وأغرقتها بالدماء.

سرعان ما أفرغتُ الغرفة من كل شيءٍ ما عدا اللوحات، والمنضدة الطويلة والفراش. ضربتُ على حشيَّة الفراش حتّى امتلأت الغرفة بضبابٍ غُباريٍّ.

كنتُ أنوي تجاهل أولرتش، لكن عندما عدتُ إلى الأسفل لاحظتُ الكمال التشريحي لأذنيه، البارزتَين للغاية وسط حطام وجهه. رفعَ رأسه بغتةً. وجدتُ نفسي أحدِّقُ في عينيه الخاويتين.

"كان خيَّاطًا مثل أبيه"، قال أولرتش. "أبدًا لم يخبرهم أنه كان يرسم وجوههم. لم يعرف بالأمر سوى زوجته. لكنها ماتت حينها".

ميِّتة؟ فكَّرتُ، مدركًا بالغريزة أن أولرتش يتحدَّث عن المرأة في اللوحات. كيف لها أن تكون ميِّتة؟

"ماتت وهي تلد طفلها، وأخذت الطفل معها إلى القبر. قيل لي إنه لم يبكِ في الجنازة. ظنُّوا جميعًا أنه مُتحجِّر القلب". اختلجت عينا أولرتش الخاويتان فيما يتحدَّث. "بعد الجنازة، عاد إلى المنزل، هنا، وجرحَ وريدًا. تناول واحدة من فُرَشه، ورسمَ لوحتها بدمائه. ليس على قماشة رسم، بل هنا، في هذه الغرفة. على الحوائط، على الأرضية، على النوافذ". أدارَ أولرتش وجهه وكأن بمقدوره رؤية بقايا الدماء. "وجدوه على الأرض غارقًا في الدماء من رأسه إلى قدميه، والفرشاة ما تزال في يده. قالوا إن شَبَحها أجبره على فعل ذلك... غاضبًا لأنه لم يبكِ عليها. لم يَقبل أحدٌ تنظيف الدماء". بحثتُ عن آثار دماء الرَّسَّام على الأرضية والحوائط، لكن كل إنش من الغرفة كان مفروكًا بنظافة شديدة. "يظنُّون أن الشبح ما يزال يعيش هنا. عندما استخبرتُ عن المنزل، ترجَّاني وكيل أبيه ألَّا أشتريه. قال إنه من الأفضل أن يُحرق. لم يكلفني شيئًا تقريبًا".

اتَّجهَت عينا أولرتش الخاويتان ناحيتي. "ظننتُ أنني لن أواجه أيَّة متاعب. كان لديَّ وقت للتنظيف؛ كل الوقت الذي في العالم. ما لا أستطيع رؤيته لا يمكن أن يصيبني بالاشمئزاز. لكن الدماء كانت كثيرة جدًّا. مهما نظَّفتُ، ما أزال أشمُّ رائحة تعفُّنها. أشعرُ بها كامنة

في ثنايا أصابعـي". مـدَّ يديـه الجافتـين، المُتشـقِّقتَيْن ناحيـة شـمعتي. كانتـا بيضاويـن كاللُّطـخ عـلى وجهـه.

"هل رأيتَ لوحاته؟" سألني.

"نعم".

"هل كانت المرأة جميلة؟".

"نعم".

أومـأ أولرتـش ببـطء، مسـتغرقًا في أفـكاره. "هـل تعـرف لمـاذا فعـل ذلـك؟".

"كان يُحبُّها"، قلتُ.

نمَّـت عنـه ضحكـةٌ خاويـة دون ابتسـام. "أنـت مثـل رئيـس الديـر"، قـال. "يريدنـا أن نحـبَّ الـرَّبَّ، لكنـه شـيَّدَ كنيسـةً جميلـة لنقـع في حبِّهـا. تـركَكَ تغنِّـي، وأحببنـا غنـاءك. مـوسى، نحـن نحـبُّ مـا نـراه، مـا نسـمعه، مـا نلمسـه. مثـل جسـد امـرأة جميلـة في ضـوء الشـموع. مثـل رنـين صوتـك".

"لكـن هـذه الأشـياء تختفـي"، تابـعَ، "ونصـير نحـن أكـثر خـواءً مـما قبـل. إذا كان هـذا هـو الحـبُّ، فالحـبُّ هـو لعنتنـا. الحـبُّ كالدمـاء التـي تقاطَـرَت مـن وريـد ذلـك الرَّسَّـام يـا مـوسى. نحـن العُشَّـاق حمقـى. مـن الأفضـل لنـا جميعًـا أن نبحـث عـن ذلـك الـشيء الـذي نحبُّـه وندمِّـره، قبـل أن يفـوت الأوان".

(11)

مـن خزانـة المكانـس في الطابـق الثـاني مـن الديـر، سرقـتُ كل الأدوات التـي أحتاجهـا لنفـض وكنـس وتنظيـف غرفـة العلِّيَّـة تلـك حتـى صـارت بقـع الطـلاء، التـي كانـت تُلطِّـخ ألـواح الأرضيـة كنـدوب مـرضٍ لا شـفاء منـه، تلتمـع كوريقـات شـتاوداخ الذهبيـة. سرقـتُ مـلاءات، وفُرُشًـا مـن الريـش، ووسـائد، وأغطيـة موائـد مـن الديـر. سريعًـا مـا أصبحـت غرفـة العلِّيَّـة تلـك مناسـبة للعُشَّـاق مـن جديـد.

مرَّتـين دلفـتُ في الليـل لأجـد أولرتـش مُقعيًـا عـلى ركبتيـه، يفـرك في بقعـة تخيَّلَهـا عـلى الأرضيـة التـي لا تشـوبها شـائبة. خطـوتُ مـن فوقـه فحسـب. لم أقاطـع عملـه.

* * *

بعـد أسـبوع، كانـت ليلـة موعدنـا بـاردة وممطـرة؛ أسـوأ ليـالي أكتوبـر. تسـلَّلتُ عـبر النفـق في الاصطبـلات فـور أن سَـكَنَت المدينـة بمـا يكفـي

لأنسلَّ مُتخفِّيًا من ظلٍّ إلى آخر، ثم دلفتُ إلى منزل أولرتش وأوقدتُ الفحم في الموقد. ثم عُدتُ إلى الليل النَّديّ، وشرعتُ في الدوران طوال ساعتين حول منزل آل دوفت، مراقبًا فيما تخبو المصابيح في النوافذ شيئًا فشيئًا، حتَّى قرَعَت ساعة الدير مُعلنةً منتصف الليل، وصار منزل آل دوفت بناءً مسودًّا، مُصمتًا من كل جانب.

شرعتُ في مطاردة خادمة في ملحق المطبخ، مُتلصِّصًا على مَهمَّتها العاطفية، لكنني سرعان ما أدركتُ من استواء وقع خطواتها أنها لم تكن أماليا(تي). في الساعة الواحدة تكاثفَ المطر، ورغم أنني جثمتُ في الظلال التي منحتني بعض الحماية، إلَّا أن رداء الرَّهبَنة سُرعان ما أطلق رائحةً كقطيعٍ من أغنام نيبلمات.

* * *

في ذاكرتي، تدلف هي كقعقعة جرس؛ وكل نغمات جسدها تملأ الليل بدفءٍ مباغت. تتوقَّف أسناني عن الاصطكاك. لا تعود أصابع قدمَيَّ تتألَّم من البرد. لكن ذاكرتي تكذب حتمًا، فليس هذا ما سمعتُه في الحقيقة. لا بُدَّ أنها كانت تلميحات فحسب: جرجرة ساقها العرجاء، باستدارة المفتاح في بوابة تلك الحديقة، ربما الهمس باسمي يُحفحف في الليل.

لم أهرع إليها، ولم أنادِها. كنتُ مرتعبًا. لكن من ماذا؟ يُفترض أن هذا هو الفصل الثاني والأخير من المسرحية: ينجح العاشقان في الهروب من سجنهما، فيما ينتظرهما عشُّ الحب. لهما أن يتعانقا حتَّى تزحف أصابع الصباح الورديَّة عبر السماء! ليس هذا وقت الخوف!

لا تُصدِّق ما تعلَّمتَه في الأوبرا. الحبُّ ليس مجرد فتح أبواب روحَيْن. ولا هو ترياقٌ للقلب الحزين؛ إنه مُهيِّج. تحت تأثيره، يتعاظم ذلك القلب حتى تتوهَّج كل نقيصة متناهية الصِّغر ببرهانٍ أليم.

ونقيصة المخصيّ ليست متناهية الصِّغَر. كنت أعرف ما يكفي من تجوالاتي الليلية لأدرك أنني متورِّط في أفظع أنواع الخداع. في هذا العالم التعيس، حيث جميعنا غير مُكتملين، كنتُ فقدتُ الهِبَة التي بمقدورها جعلنا مُكتملَيْن مُجدَّدًا.

وبغتةً، هناك كان نصفي الآخر، جميلًا، يعرج تحت المطر.

جزءٌ شريفٌ من روحي -جزءٌ طالما حاولتُ تجويعه وحرمانه من النور- تحدَّثَ حينها، فيما أختبئ منها في الظِّلّ. قالَ لي أن أعود إلى الدير وأبحث هناك عن العزاء الذي تُقتُ إليه في حياتي، أيًّا ما كان. اقتبسَ ذلك الجزء من كلمات رئيس الدير وقرأه عليَّ مُجدَّدًا. أنت صُدفَة الطبيعة، نتاج الخطيئة وليس الفضيلة. لا تُثقل على الآخرين بمأساتك، قال هذا الصوت داخلي. اتركها في هذا المطر. لا تشاركها محنتك؛ لن تستعيد ما فقدتَه أبدًا.

لكنَّ جزءًا آخر -ذلكَ الجزء المتَّقد الذي يحبُّ ويصبو- قال: هيَ! هيَ! نسيَ المطر، والبرد. ومع اقترابها إلى هذا الحدّ، وجدَ العالم في غاية الدفء.

وهكذا، وكأنني لصّ، فيما تنادي على اسمي وتبحث عني بعينيها، اختبأتُ من أذنَيْها. لم تُبدِ قدماي أيَّ صوتٍ فيما تنسلَّان على حجارة الطريق المُبتلَّة. لم أنادِ عليها. ثم انتزعتُ من داخل رداء الرهبنة -حيث كنتُ أخفي من المطر، على صدري- راية خداعي.

كانت شريطًا من الحرير الأحمر الناعم، مسروقًا من مخزن رئيس الدير الخاص، وهو حريرٌ كان يومًا جزءًا من أندر الملابس. حملتُه في كلتا يدَيَّ فيما أتلصَّص وراءها -مُطابقًا خطواتها بخطواتٍ أطول- حتى اقتربت بما يكفي لأسمع قطرات المطر تُطقطق على كتفها. كان لأيِّ رجُل يرانا من نافذته أن يفترض أنني على وشك خنقها.

رفعتُ الحرير عاليًا ثم شددتُه، فورَ أن وصل إلى مستوى عينيها.

صرخـت بالطبـع. مـع ذلـك كنـتُ خائفًـا أن تنتـزع العِصابـة وتـرى وجهـي، لتقـرأ في تقاطيعـه الناعمـة عـاري وخزيـي؛ لهـذا شـددتُ الحريـر أكـثر، وجذبتهـا ناحيتـي، عـلى أمـل أن تهـدأ بفعـل ملامسـة جسـدي، الـذي كان مبتـلًّا وبـاردًا، وعفنًـا كالأغنـام.

لم يحدث ذلك. صرخت مُجدَّدًا.

«أماليـا»، قلـت. «هـذا أنـا، مـوسى. لا تخـافي». كان هـذا، عـلى الأقـل، اسـتراتيجية أفضـل. لم تـصرخ، لكـنَّ يديهـا لم تتوقفـا عـن محاولـة انتـزاع الحريـر، الـذي كان لا بُـدَّ يضغـط عـلى عينيهـا بشـكل مـؤلم.

«هذا أنا، موسى»، قلتُ مجدَّدًا.

توقَّفت عن جذب العِصابة بعض الشيء، وأرخيتُ قبضتي.

«موسى؟» سألَت.

«نعم»، قلت. «إنه أنا».

«ماذا تفعل؟».

فضَّلـتُ الصمـت. ومـضَ ضـوءٌ في أقـرب منـزل إلينـا، أيقـظ صراخهـا قاطنيـه.

«موسى، أفلتني رجاءً».

«لا يمكنك انتزاع العصابة»، قلتُ باندفاع.

«لماذا؟».

«لا يمكنـكِ رؤيتـي». توهَّـج الضـوء أكـثر ثـم انكمـشَ حتـى صار شـمعة واحـدة في إحـدى النوافذ.

«لماذا لا يمكنني رؤيتك؟».

«بسرعة»، قلت. «أحدهم هناك». بدأت نافذة في الانفتاح بصرير. ربطتُ العصابة وراء رأسها. لم تحاول انتزاعها مُجدَّدًا لحسن حظي. تناولتُ يدها وقدتها عبر الشارع. سارت بيدها الأخرى ممدودة لتفادي العوائق. استدرنا نحو الأزِقَّة الضيقة في حيِّ أولرتش.

"موسى"، قالت. "هذا سخيف".

لم يكن سخيفًا، لكن كيف لي أن أقنعها؟

اعتصرت يدي، تمامًا كما اعتصرت تلك الفتاة يدي منذ سنوات خلت قبل أن تقودني إلى عالَمٍ عجيب.

"لا بُدَّ أن هناك سببًا".

لماذا تحتاج إلى سبب؟ كنتُ لأدعها تعصب عينَيَّ للأبد دون كلمة واحدة. لم أستطع أن أقول: إذا رأيتِ وجهي، سترينَ في تقاطيعه أنني لستُ نصفَكِ الآخر المثالي الذي انتوى الرَّبُّ أن أكونه. سترينَ أنني مكسور، ولن تقعي في حبي. لم أستطع أن أقول: ذلك الرجل الذي ترينه الآن، في عقلك، ذلك الرجل المثالي؛ هو أنا الحقيقي.

وبالتالي قلتُ، "إذا رأيتِني، سأختفي". لم تكن ذلك كذبة.

"لكن هذا مستحيل"، قالت.

"أرجوك، أماليا، صدِّقيني".

وضعَت يدها على كتفي، وشعرتُ في اللمسة بتحسُّسٍ، كما لو أنها تحاول رؤيتي بها، لمعرفتي عبر ارتفاعات وانخفاضات عظام كتفي. تلوَّيتُ تحت وقع لمستها.

"هل سنسير تحت المطر طوال الليل؟" سألت.

"لا"، قلتُ. "سنذهب إلى مكانٍ ما".

"بإمكاني إذن انتزاع العِصابة؟".

"لا".

"متى يمكنني انتزاعها؟" تحرَّكت يدها على طول كتفي.

"لا يمكنك انتزاعها".

"أبدًا؟".

"ليس وأنتِ بصحبتي".

"وإلا ستختفي؟" جسَّت بأصابعها على طول العضلات إلى عنقي.

"نعم".

"لكنني اعتقدتُ أنك أورفيوس".

"ماذا؟".

"لقد أسأتَ فهم القصة يا موسى".

"أيَّة قصة؟".

"أورفيوس ويوريديس".

"مَن هما؟".

"هل تتعلَّم أيَّ شيء في ذلك الدير؟ أورفيوس هو ابنٌ لملكٍ وكاليوب مُلهِمة الشِّعر"، كانت تتكلم كما لو أنها تقرأ من كتاب، بيدها تستكشف نتوءات عمودي الفقري. "رجلٌ لا مثيل له: جميلٌ وقوي. لكن أكثر من ذلك، كان أعظم موسيقيٍّ عاشَ على الأرض. يوريديس كانت زوجته"، قالت. أوقفَت سيرنا. استدارت ناحيتي حتَّى تتمكَّن من استكشاف عنقي بكلتا يديها. "تموت يوريديس، ومع ذلك يروِّض أورفيوس ربَّات الانتقام في العالم السفلي بأغانيه ويستعيدها، لكن على شَرطٍ واحد: لا يمكنه النَّظر إليها حتَّى يغادرا العالم السُّفلي. وإذا فعلَ، ستموت مُجدَّدًا، وسيفقدها إلى الأبد. هل هذا هو الأمر؟".

"نعـم"، قلـتُ، وكلماتهـا (رجـلٌ لا مثيـل لـه) يـتردَّد صداهـا في رأسي. اكتمـلَ الخـداع.

"إذن فأنت من تحتاج إلى عصابة العينين، يا أورفيوس".

"لا تريدين أن أنظر إليكِ؟" سألتُ، مُستشعرًا مساومةً.

"بالطبـع أُريـد. أريـدك أن تنظـر إليَّ"، قالـت. أمالـت رأسـها إلى الأمـام، بلمحـة مـن ابتسـامةٍ تتلاعـب عـلى شـفتيها. "حسـنًا"، تابَعَـت. أمسـكت رأسي بقـوَّةٍ بكلتـا يديهـا. "سـأرتدي العصابـة. لكـن عليـك أن تدعنـي ألامسـك. توقَّـف عـن التلـوِّي".

شرَعَـت يداهـا في استكشـاف أيـن يَكمُـن عـارِي: في الاسـتدارة الخفيفـة لخـدَّيَّ، في أنفـي الدقيـق، في جبينـي الضَّيِّـق، في جلـدي الناعـم عديـم الشَّـعر كجلـد رضيـع. لامَسَـت يداهـا كل هـذا، ثـم لامسـته مُجـدَّدًا فيـما يصيـب المطـر وجهـي ويديهـا بالـبرد والبلـل. توقَّفَـت يدهـا اليـسرى عـلى عنقـي -حيـث ينبغـي أن تكـون تفَّاحـة آدم- واسـتقرَّت هنـاك.

"لماذا أنت خائف؟" سألَت.

"خائف؟".

"قلبك ينبض كما لو أنك خائف منِّي".

أنصـتُّ إلى قلبـي وحاولـت إبطـاءه. لكنـه لم يكـن ليطيعنـي الآن. أبعـدتُ يديهـا المُتحسِّـستَيْن برفـقٍ ونكزتهـا لتتقـدَّم إلى الليـل.

سرعـان مـا سـمعتُ النافـورة ذات الميازيـب الثلاثـة واطمأنَّـت نفـسي أننـا نمـضي في الاتِّجـاه الصحيـح. عندمـا أوقفتهـا أمـام بـاب أولرتـش، أدارت رأسـها وكأنهـا تحـاول الرؤيـة عـبر العِصابـة. حللـتُ مـزلاج البـاب وقدتُهـا إلى غرفـة أولرتـش. كان يجلـس عـلى منضدتـه، برأسـه مُنحـنٍ كالمعتـاد، لكـن عندمـا دلفنـا، ارتفـع رأسـه بغتـةً. خشـيتُ أن تـسمعه، لكنـه لم يُبـدِ أيَّ صـوت أعـلى مـن صـوت الدخـان الـذي يـدوِّم حـول بـاب الموقـد.

"تعـالي معـي"، قلـت، فيـما عينـا أولرتـش الخاويتـان تتبعاننـا عـبر الغرفـة.

ارتقينـا إلى العِلِّيَّـة في الظـلام، وعـمائي لا يقـلُّ عـن عمائهـا. أمسَـكَت يـدي اليمنـى بيدهـا اليمنـى، فيـما يـسراي تدعـم أسـفل ظهرهـا حتَّـى لا تسـقط. كان الـدَّرَج المائـل بحـدَّةٍ يشـقُّ عـلى ركبتهـا العرجـاء، التـي لا تنثنـي.

عـلى بسـطة الـدَّرج، تحسَّسـتُ بحثًـا عـن البـاب -وجدتـه في اندفاعتـي الثالثـة- وفتحتـه. جفَّـفَ الهـواء الدافـئ وجهينـا المُبتلَّـيْن. كان الوهـج القـادم مـن الموقـد كافيًـا لأرى سـواد المنضـدة الكبـيرة، وبيـاض الفـراش، والمسـتطيلات القاتمـة لبورتريهـات المـرأة عـلى الحائـط.

"موسى؟".

بيـدي عـلى أسـفل ظهرهـا، دفعـتُ أماليـا إلى الغرفـة وأغلقـتُ البـاب وراءنـا.

وراء البـاب، في البدايـة، كان الصمـت فحسـب. واجهنـا الموقـد، تسـاقَطَت القطـرات مـن أكمامـي المُشـبَّعة بالمـاء وصنعـت بِـرَكًا صغـيرة عـلى الأرضيـة. اسـتدرتُ وتطلَّعـت إليهـا؛ تدلَّـت عصابـة الحريـر الأحمـر، مُلطَّخـةً بالقرمـزي بفعـل المطـر، عـلى ظهرهـا واشـتبكت مـع شـعرها. بـدت مأخـوذةً بالحـرارة، وكأن الفحـم الملتهـب يجذبهـا نحـوه.

هـل تُنصِـتُ الآن إلى نبـوءات عمَّتهـا كارولـين عـن الفضيحـة والعـار تنعـب في رأسـها؟ مَـنْ هـذا الرجـل؟ لا بُـدَّ أنهـا تتسـاءل. مَـن يختبـئ وراء هـذه العصابـة؟ هـل هـذه هـي إجابـة القَـدر عـلى وحـدتي؟ مـاذا حـدثَ لتلـك الفتـاة التـي كانـت تجلـس صابـرةً لسـاعات طويلـة جـدًّا بجـوار فـراش أمهـا؟ هـل أسـعى إلى إحيـاء تلـك الفتـاة الليلـة؟ أم أننـي عـلى وشـك فَقدِهـا؟

وفي رأسي: جسـدي مأسـاتي. لا يسـتطيع أن يُحِـبَّ أو يُحَـبّ. كيـف أجـرؤ علـى الكـذب عليهـا؟ كيـف أجـرؤ عـلى إحضارهـا إلى هـذه المنـزل المريـع؟ لا بُـدَّ أن أنـزع تلـك العِصابـة عـن عينيهـا، قبـل أن تقـع في الحـبّ حقًـا. أوشـكتُ عـلى فعـل هـذا.

أسـمع صريـر ألـواح الأرضيـة عندمـا تُبـدِّل مـن وزنهـا، الخشخشـة المنتظمـة للمطـر عـلى السـقف فـوق رأسـينا. في واحـدة مـن زوايـا الغرفـة، تتـسرَّب الميـاه عـبر ثقـبٍ في السـقف وتتقاطـر في بركـةٍ عـلى الأرضيـة. ولا أنـزع عِصابتهـا.

مـا ينقـذني مـن فَضْـح نفـسي أمامهـا -مـا ينقـذني مـن شـفقتها- ليـس سـوى قطـرةٍ مـن ميـاه المطـر. تتجمَّـع عـلى خصـلات الشـعر المُبتلَّـة بجـوار أذنهـا وتنسـاب عـلى خدِّهـا، عـلى طـول الفـك. لا بـدَّ أنهـا تُدغدغهـا، لأنهـا ترفـع إصبعًـا، وأسـمع تلـك الإصبـع تمسـح عـلى جلدهـا الناعـم، المُبتـلّ، حتَّـى تتـوازن قطـرة المطـر عـلى مفصـل إصبعهـا. ثـمَّ كصـوتٍ مـن الجنَّـة، تُقبِّـل قطـرة المطـر تلـك.

شـفتاها تحتـوي إصبعهـا. أخطـو مُقتربًـا. أنفاسـها، عميقـةً مـا تـزال من أثـر صعـود الـدَّرج، تؤلمنـي، لأنهـا في غايـة الجـمال. أمـدُّ يـدي وأربِّـت عـلى ذقنهـا، حيـث أنقـذَت إصبعهـا قطـرة المطـر تلـك قبـل لحظـات، وأسـمع جلدهـا كريـحٍ دافئـة تمـضي عـبر العُشـب. أدركُ أنـه صـوت جلـدي، أيضًـا، يلامـس جلدهـا.

تتثاقل أنفاسها إلى تنهيدة.

تجـد أصابعهـا البـاردة طريقهـا إلى الجلـد الرطـب لعنقـي. أرتعـش فيـما تتسـلَّل إلى شـعري. تجذبـه هـي بشـدَّة حتـى يؤلمنـي، ويتوتَّـر فمهـا وكأنهـا تشـعر بنفـس الألم. لكـن حينهـا ترتخـي شـفتاها وتجـذب وجهـي ناحيتهـا. إنهـا قبلـة محمومـة، سـاذجة، تخلـط بـين أصواتنـا. أشـعر باهتزازِ تأوُّههـا عـلى طـرف لسـاني.

تنشب أظافرها في قلنسوتي وكأنها تريد انتزاعها. أرفعها من على رأسي وأسقطها أرضًا. ثم تُمسك بردائي. فيما أساعدها لترفع فستانها، أضع رأسي على صدرها. خفقاتُ قلب، خفقاتُ قلب. يداها ترتجفان فيما تحلّ الكورسيه وتركل آخر جذاذات من النسيج الأبيض الأنيق. ثم صارت لا ترتدي شيئًا سوى العصابة الحمراء. جلدها الشاحب، الرطب يرتجف، لكنني أستغرق لحظةً أخرى قبل أن أعانقها.

أضغط برأسي على صدرها لأقترب من ذلك القلب قَدْر المستطاع، ثم أسمع أنفاسها في رئتيها. تتأوّهان كريحٍ في كهفٍ رطب، هائل، وفي كل شهيق تعلو لتقترب من التنهيدات.

اللمسة الباردة الأولى لفراش الدير الأملس تجعل أنفاسنا ترتعش، لكنه دافئ الآن، نطفو فوقه، ونتحسّس بحثًا عن بعضنا البعض. تنكتُ في صدري وكأنها لم تدرك قطُّ من قبل كم هي كبيرةٌ الأجساد. تمدُّ يدها نحو آخر قطعة ملابس أرتديها -قماشة ملفوفة بإحكام حول منتصفي، كضمادة- لكنني أُبعد يدها؛ ذلك أنني لن أسمح لها بملامسة ما هناك.

تشهق عندما تهيم يدي تحت سُرّتها. تَزفر عندما أُقبّل كتفها. تبدو أصواتها وكأنها تأتي من داخل رأسي. تشهق مُجدّدًا. يداي تلامسان صدرها، تتحسّسان الانحناء الغضّ لبطنها. تعتصران العظام الناتئة لخَاصرتها. تبدو أنفاسها وكأنها نحيبٌ فيما أصابعي تتتبّع أثر الندبة التي تمضي من منتصف سَمّانتها إلى أعلى ركبتها ثم إلى الداخل الناعم لفخذها. يداها تجذبان يدَيَّ، لكنني لا أحتاج إلى دليلٍ؛ لأن أنفاسها، وشهقاتها، وتأوُّهاتها- تُرشدني. تلاعبني بأصواتها، وألاعبها بلمساتي. وفيما تبدأ في الارتجاف تحت يدَيَّ، أضغط بأذني على تأوُّهها الحار حتى لا تفوتني قطرةٌ من صوتها.

(12)

ليلةً واحدة كل أسبوع أصير حيًّا.

صلَّيتُ ألا تموت خالة كارولين المريضة، ولسنةٍ نعيمية واحدة، على الأقل، أُجيبَت صلواتي. كل خميس، فور أن يحلَّ الظلام، كنَّا أنا وأماليا نهرب من سجنَيْنا. كنتُ هناك أُمسك بيدها وأقودها إلى غرفتنا فور أن أثبِّت العصابة حول رأسها. دائمًا ما كان أولرتش على المنضدة، رأسه منحنٍ وكأنه نائم. أدرك أنه ليس نائمًا، وأنه يسمع ضجيجنا كله. لكن سرعان ما نسيته، لم يَعُد بالنسبة لي سوى تمثال في ذلك المنزل.

في ليالي الخميس تلك التي تضطر فيها كارولين للتَّخلِّي عن رحلتها الأسبوعية بسبب الجليد أو لأي مانع آخر، كانت أماليا تترك لي رسالةً على عتبة نافذة. كانت تركت لي مفتاحًا، يمكنني به التسلُّل إلى حديقة آل دوفت ومنها صعودًا إلى المنزل. كنتُ أرتعب وأنا أمدُّ يدي إلى النافذة الحجرية الباردة؛ يئنُّ قلبي إذا وجدتُ قصاصةً من

الورق على عتبتها. فحينها أهيم في الشوارع وحيدًا، أتصيَّد الأصوات التي تُذكِّرني بها.

في غرفة العِلِّيَّة، أستلقي بجوارها على الفراش، فيما تُمسك هي بأذني أو شعري، أو تضع يدًا على خدِّي أو على صدري، وكأنني سأطفو مبتعدًا لو لم تفعل. «غنِّ يا موسى»، سألتني، ورغم أنني كنتُ أقسمتُ لأولرتش في هذا المنزل ذاته أنني لن أفعل أبدًا، أجد نفسي أغنِّي مُجدَّدًا. أيَّما خطرَ لي: القُدَّاسات التي علَّمني إياها أولرتش والتي طالما غنَّيتها للسيدة دوفت، أو أناشيد الرهبان، أو رعويات نيكولاي (تضحك أماليا من نطقي الاعتباطي للفرنسية)، أو أغاني باخ، أو ارتجالات من كل هذا. أحيانًا ما كنت أغنِّي نغمات فحسب تبدو بلا معنى لأيِّ إنسان باستثنائي أنا وأماليا.

أراقبها تستلقي مُتكاسلةً، وعند نغماتي الأولى ترفع ذقنها برفق وتُقوِّس أصابع قدميها، وتُدير قدمها إلى الخارج قليلًا، ثم إلى الداخل ثم إلى الخارج مُجدَّدًا، كعازف كمان يلوي عصا عَزْفه. لم تكن تدرك أنها تفعل ذلك حتَّى أخبرها، لكنها لم تتوقَّف عن فِعله. كان يبهجها.

حينها أغلق عينَيَّ دائمًا. كان كلانا يَعمى عندما أضغط بأذني على كل إنش من جلدها حتَّى أسمع ما يرنُّ تحته. كان جسدها جَرسي.

حاوَلت مرَّاتٍ كثيرة أن تزيل قطعة القماش التي تشبه الضمادة والتي تحمي سِرِّي. لكنني أوقفها دومًا. ظننْت أنني أحمي عفَّتها (التي لم تُبدِ أي دفاع عنها). بالتأكيد لم يكن في بالي شيء من ذلك، وأيُّ تمنُّع كان عائدًا لمسألة إخصائي فحسب. هناك شائعات عن مخصيِّين ما زالوا قادرين على ممارسة فعل الحب. لا تصدِّقهم. لقد قُطِعنا مبكِّرًا جدًّا.

كانت أماليا أول شخص في حياتي أحكي له عن أمِّي. "كنا ننام على القش"، قلتُ ذات الليلة، وراقبتُ وجهها بحثًا عن اشمئزاز. لم أجد أيًّا

منـه. "كنَّـا نـأكل بأيدينـا. تُحمِّمنـي في نبـعٍ. أرتـدي قصاصـات مـن قـماشٍ كان فيـما مـضى الملابـس الداخليـة لمـزارعٍ مـا". مـع ذلـك، لم تُشِـح في خجـل عنِّـي. استـلقت بجـواري وأجـرت إصبعًـا جيئـةً وذهابًـا عـلى ذراعـي، التـي كانـت تنغـرزني عنـد المِرفـق. "أماليـا"، قلـتُ. "ألا يفاجئـكِ هـذا؟".

"يفاجئنـي؟" قالـت. وضعـت أذنهـا عـلى ذراعـي، وكأنهـا تريـد الإنصات إلى ارتعاشـة عضلاتي. "لا".

توهَّجَ عنقي. إذن فقد كانت تظنُّ دائمًا أنني فلَّاح قذر؟

"تـرى"، قالـت، وهـي تُقبِّـل رسـغي وتتذوَّقـه، "اعتقـدتُ في البدايـة أنـك مُجـرَّد واحـد مـن أولئـك الصبيـان الذيـن يطمحـون لأن يكونـوا رهبانًـا. اعتقـدتُ أن لديـك أبًـا غنيًّـا يحـبُّ الـرَّبَّ ويرغـب أن تصير مثـل رئيـس الديـر. ما تخبرني بـه الآن يُفسِّر لماذا أحببتـك بتلك الطريقـة. لـو كنـتَ أخبرتنـي مـن قبـل أنـك يتيـم فـلاح ربمـا لم أكـن لأتـصرَّف معـك بخبـث. كنـت سأسـاعدك أكـثر. لكننـي اعتقـدتُ أنـك أحمـق فحسـب".

غرزت أسنانها في ساعدي.

تجمَّـدَت حيـاتي خـارج تلـك الغرفـة. لم يـرَ شـتاوداخ عَجلـةً في أن أترهَّـب؛ لذلـك بقيـتُ راهبًـا مبتدئًـا لا يفعـل سـوى حضـور مـا يكفـي مـن صلـوات السـاعات حتَّـى أتجنَّـب لفـت الأنظـار. إذا كان لحيـاتي في الديـر أن تتغـيَّر، فعـليَّ أن أبـادر وأفعـل شـيئًا، لكننـي لم أرغـب في التغيـير. كنـتُ عـلى اسـتعداد الآن لأشـيخ في تلـك الغرفـة.

لكـن مـع أماليـا، الابنـة الوحيـدة لأغنـى رجـل عرفَتـه سـانت غـال، كان العـالم مُهيَّـأ للعمـل. كان الخُطَّـاب هـمًّا مقيـمًا. كانـت تنسـج هـي أبـرع الإدانـات لعيوبهـم، وهـو مـا أقنـعَ كارولـين، لبعـض الوقـت، أن أماليـا تبحـث بإخـلاص عـن الرجـل المثـالي.

"لم تفعل كارولين سوى أن كثَّفَت من بحثها"، أخبرتني أماليا ذات ليلة خميس. "الورق الذي بدّدَته في إرسالها في طلب 'المُتقدِّمين'! 'سنة أخرى'، تقول، 'على أقصى تقدير. إذا لم تُقرِّري، فعلى أبيكِ أن يفعل!' نخرَ أبي عند هذا. 'الصبر يا كارولين'، قال لها. 'سنجد زوجًا مناسبًا؛ هناك دائمًا شخص مناسب مثالي'".

ضحك كلانا على كل هذا، مُدرِكَيْن أنه أبدًا لن يظهر رجل مثالي.

* * *

لكن بعدها:

"تزوَّجني"، قالت ذات ليلة.

بغتةً، لم أستطع التَّنفُّس. لم أتحرك. لم أقُل شيئًا. شعرتُ وكأن أيَّ صوت سيفضح خديعتي وعاري.

"موسى؟" سألت.

"نعم؟".

"سألتكَ أن تتزوَّجني".

"لا أستطيع".

"ولِمَ لا؟" سألت، وضحكت. "لأنك راهب؟ موسى، أنت لا تعرف الإنجيل حتَّى. تقضي كل ليلة بصحبة امرأة. أنت...".

"ليس لهذا يا أماليا".

"لماذا إذن؟".

شكرتُ الرَّبَّ على العِصابة حينها؛ ذلك أنها لم تستطع رؤيتي أرتعش خشية أن أفقد كل ما لديَّ.

"لا أستطيع".

"لكن لماذا؟" سألَت، لم تَعُد وقحة.

"أرجوكِ، لا تسأليني".

لا بُدَّ أنها سمعَت إخلاصي؛ ذلك أنها لم تُلِحَّ.

"أرى"، قالت. "حسنًا، لا أحتاج إلى الزواج منك. لنهرب بعيدًا. أنا متعبة من أيامي بعيدةً عنك. يمكننا الذهاب إلى زيورخ، أو إلى شتوتجارت. أورفيوس، بمقدورك أن تُغنِّي".

"أرجوكِ، لا تناديني بهذا الاسم".

"لم لا؟ بالنسبة لي أنت أورفيوس. أورفيوس(ي)".

هززتُ رأسي، رغم أنها لم ترَ ذلك. كان هذا الاسم رمزًا لمدى بشاعة خداعي لها، ومدى خداعي لنفسي. فما تاقت إليه كنتُ أتوق إليه: أن أهرب بعيدًا، أن أفِرَّ من شتاوداخ وأولرتش وسِجني النهاري أنا وأماليا. أن نكون واحدًا كرجل وزوجة. أردتُ ذلك بشدَّة تمامًا كما أرادت، بل وأكثر ربما.

"أرجوكِ لا تسأليني الهروب بعيدًا"، قلتُ. "هذا غير ممكن".

"لا أمانع أن أكون فقيرة"، قالت.

"لا تسأليني ذلك مُجدَّدًا أبدًا". قلتُ ذلك بشدَّة لم أتحدَّث بها من قبل قطُّ. حبستُ دموعي واختنقت بها.

لدقائق كثيرة كان كلانا هادئًا. ثم بدأت يدها في تحسُّس صدري، وعنقي، وذقني. لامست شفتاي، ثم بلَّلت إصبعها على لساني.

"أريد أن أراك يا موسى"، قالت. "أريد أن أراك بعينَيَّ".

"لا يمكنك"، قلت. ما دمتِ تُحبِّينني، لا يمكنك".

(13)

سُرعـان مـا بـدأ المسـتقبل في الإثقـال علينـا بحِمِلـه كأكـوامٍ مـن الكتـب عـل بيانـو قيثـاري. عندمـا أغنّـي، كنـتُ أضطـرُّ إلى إخـراج الهـواء عنـوةً مـن رئتَـيّ لأشـعر بالصـوت يـرنُّ في ركبتَـيّ ومرفقَـيّ. كانـت يـداي وقدمـاي تنضـمُّ بشـدَّة لحـدٍّ أنهـا لـن تُـردِّد الصـدى إذا وُضِعَـت بجـوار جـرس. أضغـط بـأذني عـلى صـدر أماليـا حتّـى أسـمع صوتهـا.

فقـط في ذُرى نشـوتنا كان هـذا الحِمْـل يبـدو وكأنـه يتـلاشى، ولهـذا تحوّلَـت حاجتنـا إلى لمسـاتٍ وأصـوات جَسـدَي بعضنـا البعـض إلى جـوعٍ محمـوم. عنـد افتراقنـا، كنـت أتـوق إليهـا وأبغض نفـسي، وأقرِّر في الأسـبوع التـالي أن أنتـزع تلـك العصابـة. لكـن مـن اللحظـة التـي ندلـف فيهـا إلى الغرفـة، كانـت تضغـط بيديهـا وتأخـذ في تحسُّـس جسـدي وكأنهـا تبحـث عـن منفـذٍ في لحمـي، وأسـمعُ أنـا التآلُـف التدريجـي لأنسـجة جسـدها الـذي سرعـان مـا يصير صادحًـا كجـرسٍ مُـدلًّى مـن السـماء. حينهـا فحسـب

أستغرق في النعيم وأتيقَّن أن هذا الحب الذي نشعر به كان حقيقيًّا. ويتلاشى حينها كل شكٍّ.

لكن بحلول صيف 1761، بعد اثني عشر عامًا من وصولي إلى الدير، وتسعة أعوام من إخصائي، وأربعة أعوام من نفي نيكولاي، وعامٍ كامل من إغارة أماليا على غرفتي في العلّيّة، أدركتُ أن هذا لا يمكن أن يستمرّ. أصابني الكَرْب.

* * *

"اسمه أنطون ريشر"، قالت ذات ليلة فيما نستلقي في الفراش. تمطَّعَت بتكاسل، بيدها اليسرى تقبض على رسغي. كان ظهري ملتصقًا بالحائط. "أنطون چوزيف ريشر"، تقول كارولين، وكأنَّ اسمًا ثالثًا سيُحدِث فرقًا. "الابن الأكبر للكونت سباستيان ريشر. رغم أن الرجل قد اشترى اللقب منذ بضع سنوات. هل سمعت به؟" اعتصرت رسغي.

باستثناء المؤلفين الموسيقيين الذي كان أولرتش يجلب لي موسيقاهم، أبدًا لم أسمع بأي شخص حيٍّ سوى القاطنين في سانت غال. «كلّا»، قلت.

«كان أبي يراسله لعدة سنوات. يُمثِّل لڤيينا ما يمثِّله أبي لسانت غال: الإمبراطورة ترتدي أقمشة سباستيان ريشر، وكذلك فلّاحو النمسا. أعتقد أنه أغنى من أبي حتّى، الكونت ريشر ذلك. ڤيينا كبيرة بشكل فظيع». كانت هناك مسحة من التشامخ، من معرفة أناس مُهمِّين أكثر مما أعرف، وهو الأمر الذي كان، في ليالينا كلِّها، غائبًا حتّى الآن. لوَّحَت بيدها بعفوية في الهواء. «أتساءل كيف يتصرَّف ابن رجلٍ بهذا الثراء»، تابعت. «كأميرٍ بالتأكيد. على أيِّ حال، سنعرف قريبًا. سيسافر كل تلك المسافة ليراني. يُفترض أن يصل بعد بضعة أيَّام».

تصوَّرت أنطون ريشر وسيمًا مثل نيكولاي، مزهوًّا بنفسه مثل شتاوداخ، وثريًّا مثل ڤيليبالد دوفت. وفيما أجمعُ معًا صورته العظيمة، تركَّزَ اهتمامي على مركزه، الذي يحمل مزيَّته الأكبر عليَّ.

«قرَّر أبي وكارولين أن أتزوَّجه»، قالت أماليا. «يقول أبي إن الأمر يعود إليَّ بالطبع، لكن لا يوجد شيء أكثر نفعًا من ذلك لتجارته، فيما تقول كارولين إنه زواج متكافئ بشكل استثنائي. تقول إنني مخطوبة، رغم أنني لم أقابله بعدُ حتَّى. أخبروه بشأن... بشأن ساقي، وكتبَ لهم أن اختيار زوجة له لا شأن له بتفاهات كهذه».

استلقيتُ ساكنًا، وكأنني سمعتُ عاصفةً قادمة ولم أجد خطةً أفضل من الاستلقاء ملتصقًا بالأرض وتغطية رأسي.

«موسى؟» قالت. «هل تسمعني؟».

«نعم»، قلت.

«سيرث كامل ثروة ريشر عندما يموت أبوه، تمامًا كما سأرث أنا كامل شركة 'دوفت وأبنائه'، رغم أنني لا أستطيع إدارتها. ترى أن الأمر منطقي إذن؟ بمقدورنا أن نكون أكبر عائلة منسوجات في العالم- أو خارج إنجلترا على الأقل، وبعض الأماكن الأخرى ربما. سنذهب إلى ڤيينا، حيث تعيش الإمبراطورة ماريا تيريزا. سأتحرَّر من هذه المدينة، من ذلك السجن الذي على شكل منزل. لن أرى كارولين اللعينة مُجدَّدًا. سيكون بمقدوري فعل ما أريده».

في استدارة هلالية حول صُرَّتها، انتصبت الشعيرات الذهبية الضئيلة وتوهَّجت في ضوء الشمعة، وكأن ريحًا باردة قد أيقظتها.

«سيكون أطفالنا من آل ريشر، لأنه لا يمكنهم أن يكونوا من آل دوفت».

حاولتُ تهدئة أنفاسي.

«موسى، هل تنصت؟» اعتدلَت ووجَّهت عينيها المعصوبتَيْن ناحيتي.

«أنا مُنصت».

«لماذا لا تقول شيئًا إذن؟».

شعرتُ وكأن الزمن قد تباطأ، وأن أمامي الأبدية لأمنحها إجابةً.

«موسى، ماذا أفعل؟» سألت.

«تزوَّجيه»، قلتُ. أبدًا لم يكن طعم الكلمات مريرًا هكذا.

لم تقُل شيئًا لزمن طويل. أمسَكَت يدها بالحرير الأحمر وبدا أنها على وشك انتزاعها. لم أخبرها أن تتوقَّف. ربما شعرَت بضعفي؛ ذلك أنها سحبت يدها.

بدَأَت في الانتحاب، وتفتَّحت لُطخٌ قرمزية على الحرير. أنصتُّ إلى حزنها: النشجات، الشهقات الخافتة، البلل في أنفها وفمها. لوهلة، تمنَّيتُ أن تَنزع تلك العصابة لترى نصف الرجل الواهن الذي كنتُه. استلقيت هناك، نشجاتها تُوخزني كمئاتٍ من الخناجر المُنمنمة.

«أنت ضعيف يا موسى»، قالت. أدارت ظهرها إليَّ، وتقتُ بشدَّة إلى الضغط بأذني على المسار المُجوَّف في عمودها الفقري، لكنني شعرتُ أن هذا مُحرَّمٌ عليَّ الآن. بقدميها العاريتَيْن، تحسَّسَت بحثًا عن الأرضية. وقَفَت، عاريةً، بيديها تكنس الهواء أمامها. تعثَّرت للأمام واصطدمت بواحد من مقاعد المنضدة الصغيرة مُتقشِّرة الطلاء. قبَضَت على حافة المنضدة ودارت حولها بمشقَّة، وعضلات ظهرها ومؤخرتها تختلج فيما تناضل لموازنة نفسها. كان عليها فحسب أن تَنزع العصابة ليصير كل شيء في غاية السهولة. لكنها لم تكن لتَّتخذ الخيار نيابةً عني.

استدارت ناحيتي مُجدَّدًا: «أنت واقعٌ في حبِّي حقًّا»، قالت. «وهذا يجعلك أضعف فحسب. لا أعرف ممَّا تخاف يا موسى، لكن لا ينبغي لأحد أن يكون خائفًا من أيِّ شيء هكذا». حاوَلَت مُجدَّدًا أن تجد

موضعًا لتخطو فيه، لكنها لم تستطع، وأوشكت على السقوط. «هل تعرف لماذا أحتاج دائمًا لألمسك؟» قالت فور أن استعادت توازنها. «لأنني إذا أفلتُّك فلن أرى سوى ذلك الصبي الضئيل الذي لا يصل إلى كتفي. ربما أنا واقعة في حبِّ شبح». راقبتُها تُجاهد في خطواتها، وأبدًا لم أتمنَّ أن أكون قويًّا، أن أكون رجلًا حقيقيًّا، كما تمنَّيتُ الآن. لكنني كنتُ مشلولًا بالحزن. والخوف. تعثَّرت وسقطت على ركبتَيْها وزحفت على طول الأرضية حتَّى وصلت إلى الحائط.

«قُل أيَّ شيء»، صرخت. فيما تنهض مُجدَّدًا، اصطدمتَ يداها بلوحة زوجة الرسَّام العارية. لاحظتُ للمرة الأولى كم كانتا متشابهتين، وكأنهما شقيقتان، أو نفس الملاك وقد أُرسِل إلى رجُلَيْن مختلفين.

«قل أيَّ شيء!» صرخت مُجدَّدًا.

أنا آسف، حرَّكتُ شفتَيَّ، لكنني لم أنطقها.

«قُل شيئًا!» لكن الأمر تلاشى إلى انتحاباتٍ. ارتجفت الدواخل الناعمة لفخذيها العاريين فيما تبكي، وتوتَّرت بغتةً من عَقبَيْها إلى عنقها. مزَّقت اللوحة عن الحائط. ألقتها نحو الفراش. تشظَّى الإطار عندما اصطدم بالأرضية أمامي، واندفعتُ ناهضًا. استنَدَت على الحائط وانتحبت في شهقات مهتاجة، ثم انزلقت هابطةً حتى جلست على الأرضية واحتضنت ركبتَيْها. مع كل هذا، لم تنزع تلك العصابة، تمامًا كما لم تجرؤ يداها على فكِّ الضمادة حول وسطي.

جلبتُ لها ملابسها وساعدتها على ارتدائها في صمتٍ. فيما أقودها إلى المنزل ذلك الصباح، سمعتُ أن شيئًا داخلها كان قد انكسر. تقتُ للعودة إلى غرفتنا في العلِّيَّة لأضغط بأذني على كل إنشٍ من لحمها، علِّي أستطيع إصلاح ما انكسر.

فيما نقترب من منزل آل دوفت، أوقفتنا أماليا قبل البوابة. أقلقني هذا التَّغيُّر في عاداتنا، فدفعتها برفقٍ إلى الأمام، لكنها قاوَمَت. لبضع

لحظات وقفنا بلا حراك. صاح ديكٌ في فناء قريب. رفعتُ بصري إلى المنزل. ظننتُ أنني لمحتُ حركةً عند أحد نوافذه.

"قد يرانا أحدهم"، همستُ. "السماء تتحوَّل إلى الرمادي".

بغتةً، استدارت ناحيتي. "انتهى"، قالت. "لن أفعل ذلك بعد الآن". مدَّت يدها ودسَّت يدها تحت العصابة، رافعةً إيَّاها. توتَّرت كل عضلة في جسدي.

أزالت العصابة. لم أستطع التَّحرُّك. لم أستطع التنفس.

كانت عيناها مُغلقتَيْن.

أبعدت العصابة وأسقطتها. ببطء شديد؛ رفرفت حتى وصلت إلى الأرض.

لكنها لم تفتح عينَيْها بعدُ. "موسى، لن أرتديها مُجدَّدًا"، قالت. "أبدًا. في الأسبوع القادم سأراك بعينَيَّ. إذا جئتَ".

تحسَّسَت يدها ذراعي، وصولًا إلى كتفي وعنقي حتى عثرت على خدِّي، واستقرَّ إبهامها على شفتي السفلى. تباطأت راحتها.

"ليلة طيبة يا أورفيوس"، همَسَت.

لم أستطع إيجاد صوتي حتَّى أجيب.

استدارت إلى البوابة، وأدركتُ أن عينيها كانتا مفتوحتَيْن؛ ذلك أنها سارت بخطواتٍ واثقة. لم تنظر وراءها، ورغم أنه كان بإمكاني مناداتها حينها، إلَّا أنني تركتها ترحل.

(14)

لا تظنَّ بي الجُبْن لدرجة أن أستردَّ تلك العِصابة، وأنظِّفها من التراب، ثم أجعلها ترتديها مُجدَّدًا. تركتُها في الشارع حتَّى تطأها الأحصنة.

فيما ينقضي أسبوع "صلوات الساعات" بتثاقُل، أدركتُ أن خديعتي قد انتهت. ستعرف أنني مخصيٌّ، حتَّى وإن لم تقرأ ذلك بشكلٍ ما في نعومة وجهي، سأخبرها. رغم أنني قاوَمتُ تصوُّرات ضحكاتها القاسية كسخريات فيدر والصبيان الآخرين، إلَّا أنني أدركتُ في قلبي أنها لن تكون ناقمة.

ربما تصرُّ أن الأمر لا يُحدث فارقًا. أنها تحبُّني كما كانت دومًا. ربما تُصدِّق هذا حقًّا. لكنني أعرف ما هو الفرق. كان أورفيوس رجلًا، ولم أكن أنا. إذا أعدتُها إلى تلك العليَّة، سيتورَّد كلانا. سنحدِّق في لُطخِ الطِّلاء على المنضدة ولن نعرف ماذا نقول. إذا تلاقت أعيننا، سنبتسم في خجل. هل ستعانقني كشقيقة؟

آلمنـي النـدم فيـما أجلـس في مقاعـد المُرتِّلـين، غافـلًا عـن الغنـاء مـن حـولي. لم أسـمع سـوى تلـك الأصـوات في ذاكـرتي، الأحـبُّ إليَّ، والتي سـأفقد قريبًـا الحـقَّ في سـماعها. مـع ذلـك، فيـما يمـضي الأسـبوع، شـعرتُ بحماسـةٍ تتنامـى مـن حـولي. قريبًـا سـيُفشي أحدهـم سرِّي.

عندمـا غربـت الشـمس أخـيرًا في ذلـك اليـوم الأخـير مـن الانتظـار، أوقـدتُ شـمعة ووقفـتُ أمـام آخـر شـظايا المـرآة عـلى حائـط غرفتـي. كنــتُ اســتحممتُ، وفركــتُ كل لطخــة مــن القــذارة. منــذ آخــر مــرّة شـاهدت فيهـا انعـكاسي، كان محجـرا عينَـيَّ قـد فقـدا دوائرهـما المُظلمـة. ازداد خـدّاي امتـلاءً واكتسـبا لحـمًا مُعـافى.

خرجـتُ إلى المدينـة، وطفـتُ حـول منـزل آل دوفـت مرّتـين، في انتظـار أن تنطفـئ المصابيـح. حاولـتُ اسـتخراج الأصـوات مـن داخـلي، لكنهـا راوغتنـي كعادتهـا. سـمعتُ صلصـلات المطابـخ قادمـةً مـن الأحيـاء النائمـة، وحديثًـا مُسـتثارًا في غرفـةٍ ذات نافـذة مُظلمـة.

انطفـأ المصبـاح الأخـير فـور أن قَـرعَ جـرس الديـر الثانيـة عـشرة. اختبـأتُ خـارج حديقـة البوابـة، مُنصتًـا لصريـر المفصـلات. لم تـأتِ. في الواحـدة، نفـدَ صـبري وقـرّرتُ معرفـة مـا إذا تركـت لي رسـالة. أخرجـتُ المفتـاح الـذي كانـت منحتنـي إيّـاه وفتحـتُ البوابـة، ثـم تسـلّقتُ إلى نافـذة الحديقـة.

يـا لهـا مـن خيبـة أمـل أشـعرُ بهـا عندمـا أجـد قصاصـة مـن الـورق عـلى تلـك العتبـة! فضضتُهـا وأملتهـا ناحيـة نـور القمـر. أوشـكتُ عـلى ملامســتها بأنفـي لقراءتهـا.

موسى العزيز،

كـم سأسـعد في الصبـاح عندمـا لا أجـد رسـالةً عـلى عتبـة النافـذة هـذه وأعـرف أنـك أتيـت. أتـوق بشـدَّة لرؤيتـك بعينَـيَّ! لا أسـتطيع التفكـير في شيءٍ آخـر. لكـن هـذا لـن يكـون الليلـة. هنـاك شيءٌ مـا يـدور. كارولـين

ساحرة داهية- غادَرَت إلى بروجين، لكنني سمعتها في القبو. لا أجرؤ على المجيء. لكنها سترحل في الأسبوع القادم مُجدَّدًا، وسأخرج إلى الليل، لأتملَّى في أورفيوس(ي).

أ.

ضممتُ الرسالة إلى صدري، وكأن صوتها سيخرج من الحِبر ويعانقني. أسبوع آخر بطولِه! كيف لي أن أحارب شكوكي لزمن طويل كهذا؟

ثم سمعتُ بابًا ينفتح على الحديقة.

جاءت في نهاية المطاف! تقافزتُ تقريبًا لرؤيتها، لكنني لم أُرِد إخافتها، ليس في هذه الليلة التي تحمل الكثير على المحكّ.

"أماليا"، همست.

ثم كان هناك شهقة، وأدركتُ في لحظة أنني ارتكبتُ خطأً مريعًا. تلك الأنفاس المتثاقلة لم تكن أنفاس أماليا.

"هل سمعت هذا!" قالت كارولين دوفت. "أخبرتك أنني رأيتُ شيئًا عبر البوابة. لديَّ عين قطّة. سنُمسك بهذا الوغد حتمًا".

لم أكن رأيتها لسنواتٍ طويلة، لكنني تعرَّفتُ على الفور على ذلك الظِّلّ الذي يخبط بأقدامه في الحديقة، رغم أن وركَيْها قد اتَّسعتا الآن، لحدٍّ أن المرء قد يصدِّق أنها تخفي ثروة شقيقها في ملابسها التحتانية. دوَّمت برأسها الضيق من جانب آخر وكأنها تريد زحزحة شيء داخله.

بخبط أحذية طويلة، خطا رجلان -كلاهما من حرس الدير- إلى الحديقة وراءها. كانوا يتحرَّكون ببطء.

"إنه هنا"، قالت. "في هذه الحديقة. اعثروا عليه".

نظـروا بـتراخٍ وراء الأجـمات فيـما رفعـت هـي جونلتهـا وشرعـت في الصيـد. كانـت أَصـدَح قطّـة عرفتهـا الطبيعـة، تنتـزع أذرع الشـجيرات، تنفـخ مـن الجَهـد، وتُطلـق سـبابها بمـا يتبقّـى مـن هـواءٍ داخلهـا.

لم أتحـرّك. صلّيـتُ أن يبحثـوا في الاتجـاه الآخـر أولًا، حتّـى أسـتطيع الانطلاق عـبر الحديقـة وأخـرج مـن البوابـة، لكـن الجنـود نكـزوا الأسـيجة عـلى طـول سـياج الحديقـة بهراواتهـم، واقتربـت كارولـين منّـي أكـثر. ثـم صـارت فوقـي، بوركَيْهـا تحجبـان الليـل.

"اخرج!" أمرتني. "أنت رهن الاعتقال!".

خرجـتُ حقًّـا. وثبـتُّ مـن حولهـا بصمـتٍ وسرعـة لحـدٍّ أنهـا زعقـت وسـقطت عـلى مؤخرتهـا الناعمـة. اندفعـتُ نحـو البوابـة. لكـن كان في انتظـاري جنـديٌّ هنـاك، وفيـما أمـرُّ بـه، رفـع سـاعده وأصـاب عنقـي. سـقطتُ عـلى الأرض. اختنقـتُ ولهثـت، وتيقّنـت أننـي لـن أتنفّـس مُجـدَّدًا. ثبّـتَ حـذاءٌ ثقيـل صـدري عـلى الأرض.

سـمعتُ وَقْـع خطواتهـم الثقيلـة عـلى الأرض. ثـم ظهـرَ وجههـا الأبيـض فوقـي، محجوبًـا بعـض الـشيء بِرسـغها الهائـل.

"راهب!" هتَفَت.

"لا يـا سـيدتي"، قـال الجنـدي الثـاني، الـذي انضـمَّ وجهـه المُرهَـق إلى الوجـوه الأخـرى في التحديـق فيَّ. "مُجـرد راهـب مُبتـدئ".

"يـا للفسـوق!" قالـت، وهـزّت إصبعهـا وكأنهـا سـتطرد الفسـوق مـن روحـي القـذرة. "لكنـك لـن تلـوِّث هـذا المنـزل! ليـس وأنـا حيّـة! هاتـان العينـان تُراقبـان دائمًـا. رأيـتُ الذنـب في عينيهـا! يـا للفسـوق! يـا للـشر! راهـب! انتظـر حتـى يسـمع رئيـس الديـر بهـذا!".

"سـيفعل"، قـال الجنـدي ذو الحـذاء الـذي يهـرس في صـدري. "أول شيء في الصبـاح".

"في الصباح!" قالت كارولين. "خذني إليه الآن!".

"سيدتي، رئيس الدير نائم".

في ضوء القمر، رأيتُ كارولين تنظر إلى الجندي بنفس الازدراء الذي تنظر به إليَّ. "هذا ليست مُجرَّد نجاسة مع خادمة منزل"، قالت ببطء. "إنه يهدِّد شمعة منزل ذي أهمية قصوى لرئيس الدير. هذا الصبي يهدِّد خطوبة ذات أهمية قصوى لهذه المدينة. خذني إلى رئيس الدير الآن".

تنهَّدَ الجندي، ببطءٍ شديد لحدِّ أنني تيقَّنتُ أن أحدًا لم يسمعه سواي. قبضَ على مِرفقي ورفعني وكأنني مصنوع من القش. "أيَّة مشاكسة وسأنتزع ذراعك"، قال، ولواه مرَّةً لتأكيد كفاءته في تلك الإجراءات. دفعني نحو البوابة.

"أعطِني هذا"، انتزعت كارولين الخطاب الذي ما زلتُ أحمله في يدي. لم أفكِّر في إخفائه.

قرأته.

"لا أفهم ما يعنيه هذا الهراء الداعر"، قالت، "لكن يبدو من الأفضل أن نترك الخطاب حيث وجدتَه. لا ينبغي لها أن تعرف أنَّكَ كنتَ هنا على الإطلاق. قليلٌ من خيبة الأمل سيفيدها".

دهسَت كارولين الأجمة الواطئة تحت النافذة ووضعت الرسالة مُجدَّدًا على عتبة النافذة. فكَّرتُ أن أنادي على حبِّي، أن أصيح أنني جئتُ لإظهار وجهي، وأنني على استعداد للمجيء مرَّةً تلو الأخرى، حتَّى لو كان هذا يعني موتي. استدرتُ وفتحتي فمي لأغنِّي، "أماا...".

وضعَ ذلك الجندي يدًا مكسوَّة بقفازٍ على فمي. "ابقَ هادئًا. قضضت مضجع ما يكفي من النائمين لليلة واحدة".

جرَّني بصمتٍ عبر الشوارع، فيما الجندي الآخر يهرع إلى رئيس الدير.

(15)

في قبوٍ بلا نوافذ في دير سانت غال، كانت هناك صومعةٌ يمكن فيها للرهبان، بعد أن اكتفوا من تقلُّبات الدهر، أن ينصرفوا إلى أنفسهم. كان الباب ذا فراغٍ على طول الأرضية حتَّى يُدَسّ الطعام عبره دون تعكير خلوة الراهب. وفي واحد من طرفَيْ الغرفة الصغيرة كان ثقبٌ يُصرِّفُ مُخلَّفات شاغل الصومعة إلى النهر. بمقدور هذا الراهب أن يُغنِّي أو يُصلِّي أو يصيح بأعمق أحزانه دون أدنى خوف أن يسمعه أحد؛ ذلك أن جدرانًا من الحجارة وأبوابًا من البلوط السميك كانت تفصله على المهاجع في الأعلى.

في تلك الأيام، مع التقدير الشحيح للتُّصوُّف العبثي، نادرًا ما كانوا يستخدمون هذه الصومعة. تفشَّى العفن على طول الأرضية الباردة، الرطبة. تصوَّرتُ أنني أول قاطن لها منذ عشر سنوات أو أكثر.

كان رئيس الدير خيِّرًا بما يكفي ليزورني بعد بضعة أيَّام. لم تتطلَّب هذه الزيارة قَطْع التَّأمُّل أو الصلوات المقدَّسة؛ ذلك أنني استفدتُ

مـن سـاعات عُزلتـي بطـرقٍ أخـرى. تكوَّمـتُ عـلى شـكل كـرةٍ وانغمسـت في البـكاء. انفجـرتُ في نوبـات مـن الغضـب وضربـتُ بيـدَيَّ البـاب حتَّـى أدميـت راحتَـاي. ومسـتخدمًا أكـبر رئتَـيْن في أوربـا، صرخـتُ طلبًـا في أن يطلقـوا سراحـي. وعندمـا وصلـت وجبتـي الأولى، بعـد سـاعات كثـيرة -شـحيحة وبـاردة، بحسـب احتياجـات الاسـتبطان الرهبـاني- ألقيـتُ بهـا عـلى الحائـط في اهتيـاج، ثـم نمـتُ نومًـا مكـدودًا ومضطربًـا وسـط مـا تبقَّـى منهـا. حَلُمـتُ بأماليـا تَقـرع أجـراس أمِّـي بجنـون.

عندمـا جـاء رئيـس الديـر أخـيرًا، كانـت قـوَّتي قـد تضاءلـت كثـيرًا. يُخجلنـي القـول أننـي قَبِلـتُ الـكأس الـذي رفعـه إلى شـفتَيَّ، وأبـدًا لم أسـتطعم مـاءً بهـذه العذوبـة. أسـندني عـلى الحائـط، وجلـبَ واحـدٌ مـن الجنـود مقعـدًا حتَّـى يجلـس رئيـس الديـر بجـواري. أطعمنـي ثمـرة تـين شـعرتُ وكأنهـا غارقـة في الدمـاء. التهمتهـا بجشـع.

«لا بُـدَّ أن تسـتفيد مـن هـذا الوقـت يـا بنـيَّ»، قـال، «في التَّأمُّـل. يؤسـفني أن أخـبرك أنـك سـتبقى هنـا لبضعـة أيـام أخـرى».

لا بُـدَّ أنـه رأى الرعـب في عينـيَّ؛ ذلـك أنـه ابتسـم ابتسـامة الخـال تلـك. «هـذا لمصلحتـك. رغـم أنـك هـدَّدتَ سـمعة الديـر وسـمعة أرقـى عائلـة في هـذا المدينـة، لا تظـنَّ أننـي لا أبـالي بسـعادتك».

وضـعَ ثمـرة تـين أخـرى في فمـي، داسًّـا إيَّاهـا بالقـوة بـين شـفتَيَّ. «لمصلحتـك فحسـب أنـا هنـا اليـوم. تـرى، إذا كنـتَ أيَّ راهـب مُبتـدئٍ آخـر يـا مـوسى، كنـتُ سـأتحدَّث معـك الآن حقًّـا، لكـن محادثتنـا كانـت لتختلـف كثـيرًا. لـو كنـتُ أتحـدَّثُ إلى صبـيٍّ سـيصير رجـلًا يومًـا، لطلبـتُ منـه أن يبحـث داخـل روحـه ويسـأل نفسـه إذا كان مسـتعدًّا لقَسـم الرهبنـة التـي تنتظـره. إذا كان مُسـتعدًّا للتَّخـلِّي عـن الحـب الدنيـوي مـن أجـل حـبٍّ أسـمى. ربمـا يخـبرني أنـه ليـس مسـتعدًّا، وحينهـا، في تلـك الحالـة، سـأقترح عليـه أن يبحـث عـن حرفـةٍ أخـرى».

«لكن، موسى»، استمرَّ بخفوت، «بالنسبة لك، الأمر كله مختلف. لا توجد حرفةٌ أخرى. ليس لديكَ سوى ما عرضتُه عليك وإلّا فلن تجد سوى البؤس. بالنسبة لك، فالحب الدنيوي ليس خداعًا. ولا يمكنني أن أعرض عليك الاختيار الذي يُعرض على الرهبان المبتدئين في هذا الدير لألف عام. اتُّخِذَ الاختيار بالفعل بالنسبة لك».

عرضَ عليَّ تينةً أخرى، لكنني زممتُ شفتَيَّ الآن. أخبرتُ نفسي أنه لا ينبغي أن أقبل إحساناً آخر من هذا الرجل المريع الذي حرمني من حبِّي. رغم ذلك، أمسكَ بالتينة أمام شفتَيَّ، مُنتظرًا بصبر أن أفتحهما.

«تحدَّثتُ مطوَّلًا مع كارولين دوفت. مطوَّلًا. ربما تهدأ إذا علمتَ أنني لم أخبرها بشيءٍ عن...» هنا توقَّفَ مُتهيِّبًا، وانكمشتُ أنا من الخوف، «... حالتك. إنها قلقة جدًّا بشأن شرف عائلتها المحترمة، وترغب، كما أرغب أنا، في أكبر تكتُّم ممكن في هذا الموضوع. وهي قلقة أيضًا بشكل مُضاعَف بشأن الزواج المُرتقب لابنة أخيها، الفتاة التي يبدو أنك خدعتها. تقول إن الفتاة تقاوم رغبات أبيها بلا أسباب واضحة، وهو ما أيقظ شكوك كارولين في بداية الأمر. تظنُّ أنها أدركت أخيرًا لماذا ترفض الفتاة الزواج: لأنها مفتونة برجل آخر».

أبعدَ التينة عن شفتيَّ، وفيما أفتح عينَيَّ، شعرتُ بالدماء تسري مُجدَّدًا في عروقي. إنها لي، أردتُ أن أصرخ فيه، رغم أنني أدركت أن سأبدو كأكبر أحمق في العالم. لي!

في النهاية، أعادَ التينة إلى القصعة. أخذَ نفسًا عميقًا، ثم تحدَّثَ مُجدَّدًا، كانت صوته مشوبًا بالغضب قليلًا.

"كيف أمكنك أن تكون بهذه القسوة يا موسى؟ إنها فتاة راقية، من أفضل عائلة في أراضي الدير. وهو رجل نبيل من أعلى طبقة في واحدة من أفضل مدن أوربا. بُنيَّ، سيكونان سعداء معًا".

تنهَّدَ، منتظرًا إجابتي. كنتُ صامتًا. هزَّ رأسه في ارتياع.

"هـل كانـت الغـيرة؟ هـل تزدريهـا لأنهـا ثريَّـة ومُتعلِّمـة؟ هـل لديـك أسـباب خفيَّـة لفسـوقك هـذا؟ في البدايـة، عندمـا أبلغـوني أن راهبًـا مبتدئًـا متـورِّطٌ في بـذاءة كهـذه، لم أتصـوَّر لوهلـة أنـه قـد يكـون أنـت. أنـتَ مـن بـين كل الرهبـان المُبتدئـين. لكننـي أعـدتُ التفكـير. أيًّـا كان الأمـر، فهـم يحبُّـون صوتـك في أكـثر مُـدن أوربـا تفسُّـخًا. هـل غنَّيـتَ لهـا؟ لا بُـدَّ أن الأمـر كذلـك. تلـك الفتـاة السـاذجة مسـحورة بصوتـك. أشـكر الـرَّبَّ لأننـي منعتـك مـن الغنـاء في كنيسـتي منـذ سـنوات خلـت".

نهـضَ رئيـس الديـر. خطـا ناحيـة البـاب ثـم اسـتدار ناحيتـي مُجـدَّدًا. حفحفـت أطـراف عباءتـه عـلى الأرض. كل كلمـة قالهـا كانـت حقيقيـة، ومـع ذلـك بـدأ الغضـب في الخفقـان داخـلي. كيـف يجـرؤ عـلى التحقـير مـن ذلـك الصـوت الـذي هـو أغـلى مـا عنـدي؟ "البـؤس، لـك ولـكل مَـن تخدعَـه"، تابـع. "آمـل أن تـرى ذلـك الآن. مـن حسـن الحـظ أنـه لم يحـدث ضرر دائـم كـما يبـدو. بالطبـع، السـيدة دوفـت متخوِّفـة للغايـة أن تكـون أتلفـتَ الفتـاة قبـل زواجهـا. سـألتني مـا إذا كان هنـاك عـلاجٌ مـا بمقـدور أطبّـاء الديـر توفـيره". شـدَّ رئيـس الديـر شـفتيه لكبـت ضحكتـه. "أخبرتهـا أنـه لا داعـي لهـذا، لكنهـا مـا تـزال غـير راضيـة. لا بُـدَّ أن تكـون كذلـك. لكننـي أثـق أن الـزوج لـن يشـعر بخيبـة الأمـل".

تورَّدَ وجهي في خجل، وصلَّيتُ ألا يرى رئيس الدير ذلك في وجهي.

"لكنهـا قلقـة أكـثر أن ترفـض الفتـاة الارتبـاط بدافـع مـن" -لـوَّح بيـده في الهـواء، باحثًـا بـازدراء عـن الكلمـة المناسـبة- "التَّشـبُّث المتطـاول بـك، وفي هـذا، يُسـعدني القـول، كنـت قـادرًا عـلى طمأنتهـا. سُـوِّيَت المسـألة بسـهولة".

اعتدلتُ في جلستي.

"ترى، الفتاة لا تعرف شيئًا عمّا حدَث؛ ولهذا كتبتُ خطابًا إلى السيد ڤيليبالد دوفت، أخبره بموت مُرتِّل القُدّاس الذي غنّى لزوجته المريضة قبل سنوات. فسَّرتُ له أنك سقطت من على السقف. لم أفهم ما الذي دفعك للصعود إلى هناك في منتصف الليل. أثق أنه سيُشارك هذه الأخبار الحزينة مع ابنته؛ ستتأكَّد كارولين دوفت من هذا على أيِّ حال". أحنى رأسه بخشوع. "ربما ما أبلغتُه به ليس سوى نصف الحقيقة، وفي هذا بعض الخزي". ارتفعَ رأسه بغتةً. "لكنه يصحِّح خداعك الأسوأ بكثير. هذا أفضل لك، ولها، ولبقيَّتنا...".

"أرجوك"، توسَّلتُ. جثمتُ على يدَيَّ وركبتَيَّ، مُحاولًا النهوض. شعرتُ بضعفٍ شديد. "لا بُدَّ أن تدعني أتحدَّث...".

تجاهلني رئيس الدير. "يبدو أن الفتاة لا ترغب في شيءٍ الآن سوى الهروب من هذه المدينة. الزفاف غدًا. هنا، في كنيستنا. سأعقد زواجهما بنفسي".

حاولتُ النهوض. راقبني رئيس الدير أجاهد. هزَّ رأسه وكأن الشفقة قد غمرته. ثم رفع قدمه ووضعَ حذاءه على كتفي. دفعةً خفيفةً كانت كل ما يحتاجه ليطرحني أرضًا.

غادرَ الصومعة، ثم تحدَّثَ عبر آخر شقٍّ قبل إغلاق الباب. "الحقيقة، مهما كانت بائسة، مُفضَّلة دائمًا على الخداع يا موسى. سأطلق سراحك عندما يكون الوضع آمِنًا لك... ولها".

في الظلام، حاولتُ الصياح طلبًا للعون، لكنني لم أستطع سوى النواح. بعد بضعة ساعات دسَّ أحدهم الطعام من تحت الباب. جاهدتُ لأزحف عبر الأرض وأحشو فمي به. كان عليَّ أن أكون قويًّا مُجدَّدًا. في سواد الصومعة، فقدتُ شعوري بالزمن؛ تباطأ وتسارع. بعد ساعات أو أيام، سمعتُ ثرثراتٍ وأقدامًا خابطة لألف إنسان، وأدركتُ أنهم كانوا يتوافدون من أجل الزفاف. جاهدتُ للوقوف على قدمَيَّ.

وصرخـتُ أن هنـاك حريقًـا، فيضانًـا، أنني مريـض، أننـي أتـوق للاعـتراف بخطايـاي، لكـنّ أحـدًا لم يـأتِ إلّا لجلـب الطعـام. صرخـتُ مناديًـا أماليـا. كنـتُ أخبرتهـا أن عليهـا أن تتـزوّج، لكـن الآن تفـشّى داخـلي السَّـقَم. لا! كنـتُ لأقـول لهـا، فقـط لـو كان بمقدورهـا سـماعي. تخـبرني أذنـاي أننـا ارتكبنـا خطـأً فظيعًـا! نحـبُّ بعضنـا البعـض، أنـتِ وأنـا! توقّفـي! لسـتُ ميّتًـا!

فقـدتُ أثـرَ الدقائـق والسـاعات. ثـارت أذنـاي عـلى حـواسي الأخـرى. أيُّهـا الأحمـق! قالتـا. أيُّهـا الأحمـق! تسرَّبَـت أصـوات الاحتفـالات إلى صومعتـي. غطَّيـتُ أذنَيَّ وصرخـت، لكـن هـذا لم يفعـل سـوى أن زادَ مـن صخـب الأصـوات؛ ذلـك أنهـا لم تَعُـد تـأتي مـن الكنيسـة فوقـي، بـل عميقًـا مـن داخـل رأسي. كانـت هنـاك عندمـا أخطـوُ عـبر الصومعـة مسـتيقظًا؛ كانـت هنـاك عندمـا أنطـرح عـلى الأرض تهـذُي الكوابيـس. كارل ڤيكتـور عـلى المنـبر. بوجـاتي يغنّـي للعشّـاق. نيكـولاي وريمـوس في الزحـام المُبتسـم. أجـراس طفولتـي هـذه تصـدح عـبر العـالم. أماليـا بـين ذراعـي زوجهـا. الجميـع قـد نسـيني.

* * *

في النهايـة، انفتـحَ البـاب. "يمكنـك العـودة إلى صومعتـك"، قـال رئيـس الديـر. انفرجـت شـفتاه قليـلًا اشـمئزازًا مـمّا رأى. كان هنـاك جنديّـان يقفـان وراءه، لكننـي كنـتُ مُسـتعدًّا لهزيمـة الثلاثـة. لا أحتـاج سـوى إلى إجابـة أولًا.

"هـل تـمَّ الزفـاف؟" سـألت. كان صـوتي مُتصدِّعًـا وأجـشّ. "هـل فـات الأوان؟".

هـزَّ رئيـس الديـر رأسـه بحـزن. "لكـن بُنـيَّ العزيـز"، قـال، "كان هـذا منـذ ثلاثـة أسـابيع".

(16)

رفعنـــي الجنديّـان مــن ركبتَــيّ وجـرّاني وراء رئيـــس الديــر إلى خــارج القبـو. عندمـا وصلنـا إلى الطابـق الأرضي مـن المهاجـع، توقّـف رئيـس الديـر واسـتدار. أسـقطني الجنديّـان عـلى الأرضيـة الخشـبية. ركعـتُ ورفعـت بـصري إلى رئيـس الديـر.

"لا بُـدّ أن تسـتحم"، قـال. "اسـتبدِلْ ملابسـك. في حـال رغبـتَ في الاعـتراف بخطايـاك، يمكنـك المجـيء إليّ".

لم تَعُـد هنـاك ابتسـامة أبويـة الآن، لا شيء سـوى الاشـمئزاز مـمّا رآه في الضـوء: ملابـسي القـذرة، جلـدي المُصفـرّ، ونواقـصي الأخـرى.

اندفعـتُ ناحيتـه. لم يتوقّـع هـذا، ولهـذا أسـقطه انقضـاضي إلى الـوراء. أصـوات قليلـة اسـتمتعتُ بهـا في حيـاتي مثـل صـوت ارتطـام جمجمتـه المُبهِـج عـلى الأرض الخشـبية. صرخَ. أطلـق سـبابًا. رفـع يدَيْـه أمـام عينيـه خشـية أن أحـاول تقويرهـما. لكـن هـذا كان عليـه أن ينتظـر ليـومٍ آخـر.

أمسكَ بي الجنديان لمنعي من الانطلاق. كانت ساقاي طويلتان، وجسدي خفيف، فيما هما مُسلّحان بعضلات صُلبة. لكنَّ الحُبَّ كان ضربني على ظهري بقوّة. لم يجد الجنديان فرصةً للإمساك بي فيما أندفع ناحية المُعتزَل. عبرتُ البوابة وخرجتُ إلى ميدان الدير قبل أن يتمكّنا من تحذير الجنود الآخرين.

كان الوقت منتصف الصباح في أوائل الخريف. المائة إنسان الذين يعبرون إلى قصر رئيس الدير، يتسكّعون في الشمس، أو يتّجهون إلى الكنيسة المثالية، استداروا جميعًا لينظروا إلى هذا الراهب القذر -ساقاه النحيلتان بالكاد تُلامسان الأرض، كساقَيْ طائر هابط- يهرع عبر الميدان. صار ثلاثة جنود يطاردونني الآن، لكنني خلّفتهم بعيدًا ورائي.

صاحوا مُنادين على جندي رابع كان يقف حاجبًا البوابة المؤدية إلى المدينة.

"أسقِطه أرضًا"، صرخَ أحدهم.

"حاول اغتيال رئيس الدير"، صاح آخر.

كان الجندي عند البوابة شابًا، بعينين كابيتين، وجسدٍ كالدُّبّ، وكتفَيْن عريضَتيْن ضِعف كتفَيّ، رغم أنه لم يكن بنفس طولي. ابتسمَ وكشفَ عن أنيابه.

على بُعد عشر خطوات من هذا الشاب المنفرد الضخم، استنشقت أعمق نفس بمقدوري، وعندما زفرتُ، غنيّتُ أبشع صرخة صارّة شيطانية. لويتُ وجهي لأعلى. فردتُ ذراعيَّ الطويلتين كأجنحة تنين. كانت صرختي عالية وحادّة لدرجة أن كل إنسان في الميدان غطّى أذنيه. تعثّر الحلّوف عند البوابة ساقطًا للوراء في رعب، مُتيقّنًا أنني شيطانٌ هربَ لتوّه من الجحيم. رفع يدَيه أمام وجهه. لامستُه

فحسب بخفَّة على ذراعه فيما أمرُّ به، لكنه تراجعَ وكأنَّ لمستي قد أحرقته.

كان هناك بشرٌ في الشوارع!

لم يكن تفاعلي تجاه دخول المدينة تحت ضوء النهار لأول مرة منذ سنوات يختلف كثيراً عن رجلٍ يصل منزله ليجده يغصُّ بالفئران. طالما كانت هذه الشوارع لي ولها وحدنا! كم تمنَّيتُ أن ينسحب هؤلاء البشر مُجدَّدًا إلى منازلهم. كانوا يقودون عربات الأحصنة والثيران الممتلئة بحِزَمِ الكتان الأبيض. ملابسهم أنيقة ونظيفة. حدَّقوا في الوحش القذر. أشارَ الأطفال بأصابعهم الوردية.

عندما وصلتُ إلى منزل آل دوفت، كان الجنود قد فقدوا أثري، أو أنهم تخلَّوا عن المطاردة. خبطتُ بقبضتَيَّ على الباب الأمامي الفخيم حتى فتحه البوَّاب العجوز. أمسكتُ بتلابيب معطفه المخملي بيدٍ وجذبتُ ربطة عنقه العجيبة بالأخرى.

"استدعِ أماليا"، قلتُ. "لا بُدَّ أن أتحدَّث معها على الفور".

لاحظتُ أنه لن يستطيع استيعاب كلماتي ما دام يختنق، لهذا أفلتُّه وسوَّيتُ ملابسه. حملقَ فيَّ وكأنني ذئب، وأذهلته رائحتي ووجهي القَذر.

"الآنسة أماليا دوفت"، قلتُ، بهدوء وصبر كناظر مدرسة.

"الآنسة دوفت"، كرَّرَ بتردُّد. ثم أشرقت عيناه. "السيدة ريشر الآن"، قال. هزَّ رأسه. "لكنها غادرت إلى فيينا منذ عشرة أيام".

تراجعتُ، ولم يفوِّت هو الفرصة: صفقَ الباب في وجهي.

* * *

مضيتُ عبر المدينة بخطواتٍ مضطربة. لم يتبقَّ لي سوى مكان واحد في العالم لأذهب إليه.

فور أن حللتُ مزلاج الباب، سمعتُ مقعدًا ينقلب. كان الرجل العجوز ذو الندوب قد جفلَ من المفاجأة. «أين كنت؟» صرخَ أولرتش. قبضَ على المنضدة وكأن الأرض تهتزُّ من حوله. «أين هي؟ ماذا حدث؟».

خطوتُ عبر الغرفة وبدأت في ارتقاء الدَّرج.

«موسى!» صاحَ في إثري. «أخبرني أن كل شيء على ما يرام! أين هي؟».

في غرفتنا، حيث طالما قضينا ليالينا، ضغطتُ وجهي الدامع على غطاء الفراش. بكيتُ حتى انجرفتُ إلى أحلامٍ بها.

عندما فتحتُ عينَيّ مُجدَّدًا أخيرا، كان الظلام قد حلَّ تقريبًا، ورائحتها قد تلاشت بفعل رائحتي المُنتنة. بحثتُ في الغرفة عن آثارٍ أخرى، لكن لم يكن هناك شيء. كنتُ وجدتُ وأضعتُ أعظم كنوز العالم: أصوات الحب.

في آخر أضواء المساء الوردية، رأيتُ زوجة الرَّسَّام في البورتريه. كان يستلقي ساكنًا على الأرض حيث كانت أماليا ألقته في غضبها. احتضنتُ قماشة الرسم إلى صدري وتذكَّرت حينها أن الرَّسَّام، في حزنه، قد رسمَ بورتريهًا لها بدمائه. فقط لو أستطيع سكب دمائي بأغنية!

خطوتُ إلى النافذة وحطَّمتُ زجاجها بقبضتي. خشخشَ الزجاج المكسور في الشارع في الأسفل كجليد متساقط. انتزعتُ شظيَّة كبيرة وجلستُ على الفراش، بالبورتريه بين قدمَيّ. سأشقُّ أوردتي وأموت هنا على هذا الفراش.

لكن بغتةً وجدتُ أولرتش واقفًا عن الباب.

«ماذا تفعل هنا!» جأرتُ، مُهتاجًا أنه جرؤ على تلويث حرمي المُقدّس.

«أرجوك»، قال. «انتظرتُ كل ليلة طوال شهر. لا بُدّ أن أعرف. هل هي... هل هي ميّتة؟».

"لا يعنيك الأمر في شيء!" صرخت. "اخرج وإلّا سأجندلك على الدّرج!".

لكنه اتّخذ خطوةً زَلِقة أخرى إلى داخل الغرفة، بيديه ممدودتَيْن وراءه. "كنت أتسمّعكما"، قال. "كل ليلة. أسمعك تُغنّي. أسمعها تَصدح بصوتك".

أبدًا لم تَبدُ كلماتٌ مثيرة للاشمئزاز هكذا في أذنيّ. نهضتُ واقفًا. رفعتُ مقعدًا من المنضدة وقذفته عبر الغرفة. سمعَ أزيز الهواء ورفعَ ذراعه. كشطَ المقعد ذراعه، ودفعه إلى الخلف، لكنه لم يسقط.

"فقط أخبرني وسأغادر"، قال. "هل هي ميّتة؟".

"ماتت بالنسبة لي"، صرختُ. "تزوّجت ورحلت إلى ڤيينا. والآن ارحل".

لكنه لم يتحرّك. مدّ يدًا وكأنه يبحث عن شيء ليستند عليه، لكنه لم يجد شيئًا.

"ليست ميّتة؟" قال، لنفسه تقريبًا.

"اخرج!" صرختُ مُجدّدًا.

"لكن إذن"، قال فيما أضع يدَيّ على مقعد آخر. "لماذا أنت هنا؟".

طوّحتُ بالمقعد فوق المنضدة. هذه المرّة، أوشكَ على إصابة رأسه. تعثّرَ للخلف وسقط، دون كثير من التأوُّه. جلسَ بجوار الباب. عيناه المُختومتان تحدّقان إليّ.

"موسى. لماذا لم تذهب في إثرها؟" غمغم.

زاد غضبي اهتياجًا بسؤاله الأحمق هذا.

"دَعَتْك أورفيوس(ها)".

لم يجلب هذا سوى الشعور اللاذع بذنب خديعتي. "وهذا"، قلتُ، رافعًا مقعدًا آخر، "بالضبط ما لن أكُنه أبدًا".

فكَّرتُ حينها كيف أن هذا الرجل المتكوِّم على الأرض الآن هو مهندس مأساتي، ومع ذلك فإن قتل أولرتش المهيض، المثير للشفقة، لن يكون سوى تعويضٍ بخسٍ عن كل ما فقدتُه. أسقطتُ المقعد، ولم يجفل هو حتى من الضجيج.

"اتركني وشأني"، قلتُ. استدرتُ وأخفيتُ وجهي في يدَيّ.

غَشِيَنا صمتٌ جعلني أخشى أنني ربما أقتله في نهاية المطاف. لكن عندما استدرتُ مُجددًا، كان ما يزال يجلس هناك، برأسه يرتجف قليلًا. "لقد جنيتُ عليك"، قال.

"نعم"، أجبته.

"لا"، قال. "ليس ذلك. بالطبع هناك ذلك الأمر أيضًا، وقد كان منذ زمن طويلًا جدًّا، ولم أنقطع عن سؤال الرَّبّ كلَّ أيوم أن يغفره له. ما أتحدَّثُ عنه هي جنايةٌ أخرى، جنايةٌ ما زالت مُستمرَّة حتّى يومنا هذا".

كان يحاول النهوض. تسرَّبَ الدم في خطٍّ من صدغه إلى ذقنه. مدَّ يدًا بحثًا عن شيء يستند عليه.

"موسى، عندما وجدتُكَ أخيرًا مُجددًا، خشيتُ بشدَّة أن ترحل عن هذه الدينة، أنني لن أسمع صوتك ثانيةً أبدًا. كنتُ أدرك أنني لن أجدك أبدًا إذا رَحلتَ؛ ولهذا، عندما أخبرتني بالخزي الذي استغلَّه

رئيـس الديـر لإبقائـك هنـا، لم أناقضـه. يخـشى أنـك سـتخبر الآخريـن بمـا حـدثَ في ديـره؛ ولهـذا، كـذبَ عليـك. أنـا أيضًـا، بصمتـي، كذبـتَ عليـك".

راقبتُه، ذاهلًا. مدَّ يده وخطا نحو المنضدة مُتخبِّطًا.

"نعـم، العالَـم مـكان صعـب حقًّـا لأمثالـك. إذا كان رئيـس الديـر قـد أخـبرك أنـك لا تسـتطيع الـزواج، أنـك لا تسـتطيع أن تكـون قسًّـا، في هـذا لم يكـذب عليـك. وإذا كان أخـبرك أن الرجـال البُسـطاء سـيضحكون عندمـا يسـمعون أنَـك لسـت رجـلًا، أنهـم لـن يدعـوك تعيـش بينهم دون سـخرية، فهـذا أيضًـا حقيقـي".

وضعَ يدًا على المنضدة الآن. شعرتُ بوخزٍ دافئ على طول عنقي.

اسـتمرَّ في تحرُّكـه فيـما يتحـدّث. "لكـن هنـاك شيءٌ آخـر لم يُخـبركَ بـه. شيءٌ كنـتُ لأخـبرك بـه إن لم أخـشَ أننـي لـن أسـمعك تُغنِّـي مُجـدَّدًا. مـوسى، فيـما وراء هـذه القـرى التـي لـن تجـد فيهـا أيَّ أصدقـاء، هنـاك مُـدنٌ لا يسـتطيع رئيـس الديـر ذاتـه تَصوُّرهـا".

لاحظـتُ أن يديـه ترتجفـان فيـما تنزلقـان عـلى حافـة المنضـدة. "في هــذه المــدن بإمكانهــم أن يكونــوا قســاةً أيضًــا، لكــن هنــاك، ســتُغنِّي. ستروِّضهم بصوتـك. سـيمنحونك الذهـب ويجعلونـك ثريًّـا. مـوسى، لا بُـدَّ أن تعلـم أن ڤيينـا هــي مـكانٌ كهـذا!".

وصـلَ إلى نهايـة المنضـدة. أفلتَها. مدَّ يـدًا إلى وجهي. "دَعتْـك أورفيوس!" قـال مُجـدَّدًا، وكأن هـذا سـببٌ كافٍ للارتحـال عـبر العـوالم. اتَّخـذَ خطـوةً زلقـةً نحـوي؛ اليـد البيضـاء المعطوبـة تتوتَّـر بحثًـا عـن وجهـي. "سـمعتُ كل شيء، كل نغمـة في كل ليلـة. امقُتْنـي مـن أجـل ذلـك! اقتُلنـي! لم أعُـد أبـالي. لكـن، مـوسى، أنـت أيضًـا، سـمعتَ كل شيء! عندمـا جئـتَ الليلـة وحيـدًا، ظننـتُ أنهـا ماتـت. المـوت وحـده كان ليفسِّر لي ذلـك، لكـن حتَّـى المـوت لا يكفـي لإيقـاف أورفيـوس! مـوسى! يوريديس(تـك) حيّـة!".

عندمـا وصلــت يــده إلى خــدِّي، لم أجفــل مــن لمســته. لهــثَ، وكأن ملمــس جلــدي قــد أيقــظ داخلــه مليــون ذكــرى خافتــه عــن صــوتي.

"لكنني لستُ أورفيوس"، قلتُ بضعف.

تحسَّسَــت يــداه عــلى طــول فــكِّي. أجراهــما عــبر عنقــي الطويــل، الأغــر. توقَّفــت يــدٌ واحــدة للحظــات للإمســاك بالموضــع الــذي يســتقرُّ فيــه كنــز صــوتي في حلقــي. ثــم تحسَّــسَ ثنايــا صــدري المُقبَّــب، الــذي تحتــه كان تتنفَّــس رئــةٌ أكــبر عشريــن مــرَّة مــن تلــك التــي لامسَــها قبــل أعــوام.

"نعم"، قال. "نعم، أنت أورفيوس".

لمــرَّةٍ أخــيرة وضــع يــدًا عــلى حلقــي، بلمســةٍ خفيفــة كالحريــر. "اذهــب!" همــسَ. "اذهب!".

الفصل الثالث

(1)

لم أتوقَّف حتى لأغسل وجهي من كلاحة السجن. غادرتُ ذلك الرجل الأعمى في العِلِّيَّة. سقطَ على ركبتيه وناداني من أجل الغناء لمرّة واحدة أخيرة. لم أفعل.

خطوتُ خارجًا من المدينة عند الغسق، ثم سألت أول مُزارِعٍ قابلته عن اتِّجاه النمسا. نظرَ إليَّ مليًّا؛ ذلك أنه حتمًا لم يرَ قطُّ رجلًا ضخمًا هكذا بوجهٍ صبياني هكذا، وشعرتُ بظلِّ العار القديم. لكنه فركَ ذقنه، واستدار كلانا مرَّتين حول بعضنا البعض. أشارَ أخيرًا ناحية نهر الراين البعيد. «هذا الاتِّجاه»، قال. ثم هزَّ كتفه استهانةً واستدارَ إلى محراثه.

وهكذا سرتُ حتى وصلتُ إلى النهر العظيم في الفجر. لم أكن سمعتُ أبدًا مياهه الفيَّاضة تُجلجل على طول الضفاف الساكنة، رغم أنني قضيتُ اثني عشر عامًا على بُعدٍ لا يزيد عن خمسة فراسخ. تتبَّعتُ عكس تياره؛ ذلك أنه كان من المنطقي بالنسبة لي أن ڤيينا الساحرة

هـذا تقـع حتـمًا حيـث تنبـع المياه البلُّوريَّـة لهـذا النهـر. تابعـتُ طريقـي بهـذه الشـكل لعـدة أيـام، مراقبًـا الأفـق بحثًـا عنـد مدينـةٍ متلألئـة.

بالطبـع، بسـبب جهـلي المُطبـق بالجغرافيـا، لم ألاحـظ أن الرايـن قـد انحنـى عـلى نفسـه مُرتـدًّا وقـادني إلى الجنـوب الغـربي[1]. وهكـذا، لأيـام كثـيرًا، تسـلَّقتُ الجبـال، وجهـي يتوهَّـج بالأمـل، مُولِّيًـا ظهـري إلى غايـة قلبـي. كنـت أسرق الطعـام في الليـل مـن أرقـى المنـازل التـي أمـرُّ بهـا -مـع سرقـة أصواتهـا أيضًـا- ثـم أشـاركه مـع أي فلّاحـين فقـراء، عطوفـين أقابلهـم.

لكـنَّ واحـدًا مـن هـؤلاء الأكـثر فقـرًا وعطفًـا، رجـلٌ عجـوز كان جنديًّـا فيـما مـضى، قـال لي أخـيرًا، «بُنـيّ، أنـت أحمـق». هـزَّ رأسـه. «الاتِّجـاه غربًـا طـوال حياتـك لـن يقـترب بـك مـن ڤيينـا. شرقًـا يـا بُنـيّ. الـشرق هـو مـا تريـده!»، أمسـكني مـن كتفَـيَّ وأدارني حـول نفـسي وكأنـني دُميـة.

«كل يـوم، اتَّجِـه ناحيـة شـمس الصبـاح»، همـس في أذني مـن خلفـي. «اسـترِح في الظهـيرة، ثـم اتبـع ظلَّـك مـع اقـتراب المسـاء». دفعنـي، وتقدَّمـتُ مُتعـثِّرًا عـبر نفـس الطريـق الـذي كنـتُ تسـلَّقته. بالتـالي نهبـتُ نفـس المنـازل الراقيـة مُجـدَّدًا، وهتـفَ لي نفـس الأصدقـاء الفلّاحـين مُجـدَّدًا. التزمـتُ نصيحـة حكيمـي وسـألتُ كل وجـهٍ ودود كيـف أصـل إلى الإمبراطوريـة الرومانيـة المُقدَّسـة.

شـكرًا للـرَّبّ أننـي كنـتُ أحمـقَ! وإلّا فلـم أكـن أبـدًا لأملـك القـوة عـلى بـدء رحلـة كهـذه مُجـدَّدًا. اسـتحضرت ذاكـرتي أصـوات أماليـا عنـد كل انحنـاءة، وبهـذا لم أستسـلم حتَّـى عندمـا بـدأت قدمـاي العاريتـان في النَّـزف، عندمـا اشـتدَّ الـبرد حتـى آلمتنـي أصابعـي، عندمـا طرحنـي رتـلٌ مـن الجنـود النمسـاويين في الطمـي.

---

(1) منبع الراين يقع في جنوب سويسرا في بحيرة توما. (المترجم)

كان ممرُّ آرلبيرج مُغلقًا بفعل الثلوج، وأبقاني ذلك في بولدينز طوال الشتاء. عملتُ في نفض الغبار وتلميع الأرضيات لأرملة سمعتني أغطُّ في النوم في قبوها، وسمعت في صوتي ما أثار شفقتها. جلَبَت لي حذاءً وملابس وصنعت مني ما يشبه رجلًا. اجتزتُ الممرَّ فورَ أن ذابت الثلوج، وامتطيتُ عربة تاجر نزولًا إلى إنزبروك. في أوائل الصيف، بدا الزمن وأنه يسبقني فيما أهبط الجبال إلى الأراضي المنبسطة، لحدِّ أن قرونًا قد انقضت قبل أن أترك المجازات الوعرة ورائي مُتَّجهًا إلى الطُّرق المحاذية للقنوات. ثم صادفتُ أوسع نهر بمقدور الرَّبِّ أن يخلقه.

سألتُ رجلًا عابرًا عن اسم هذا النهر العجيب، وإذا ما كان يقودني إلى بُغيتي.

«إنه الدانوب»، أجابني. «إذا كنتَ سمكةً، فربما تصل إلى ڤيينا قبل الخريف». جلستُ على ضفافه وراقبت التيار الهادئ. مضغتُ الجذاذات الأخيرة من لحم خنزير مملَّح مسروق. آلمتني قدامي. قرَّرتُ ألَّا أمشي مُجدَّدًا، وأن أجد طريقةً للطفو عبر هذا النهر المهيب؛ ذلك أن حبِّي كان فيَّاضًا كمياهه.

أخذتُ في التلويح لكل قاربٍ عابر، كبيرًا كان أم صغيرًا. كنتُ أصرخ، «هل تمضي مع التيار؟» وكأنَّ اتِّجاه قيدومه ليس دليلًا كافيًا. البعض هزَّ رؤوسه؛ آخرون تظاهروا بأنهم لم يسمعوني. لم يتوقَّف أحد ليُقلَّني كمُسافر. نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة، وأذهلني ما رأيتُه. لم أكن استحممتُ منذ منزل الأرملة في الشتاء، قبل أربعة أشهر تقريبًا. حاولتُ إزالة كتل التراب بالماء المُعكَّر، لكن ذلك لم يفعل سوى أن صنعَ خطوطًا من الطمي على خدَّيَّ، كخطوط طلاء الحرب على وجوه المتوحِّشين.

أخيرًا، عند الغسق، انجرفَ قارب صغير مُثقَل بأشولة الحبوب بتراخٍ على مجرى التيار. كان مشهدًا مؤسفًا. أظهر بدن القارب رُقعات

كثيرة تمامًا كملابس قبطانه، الذي كان يقف عند الكوثل يدفع عصا مُربَّعة بتراخٍ في المياه الضحلة. فيما صبيٌّ أعجف، لا شيء سوى عظام وبثور، يجلس أخرسَ عند القيدوم. شعرتُ في أصابع قدمَيَّ المُنهكة أن هذه السفينة لي. نهضتُ مسرعًا وخطوت بجوارها على الضفَّة.

غنَّيتُ أغنيةً بسيطة.

غرزَ القبطان العصا المُربَّعة بقوَّة في طمي الضفة، وكأنه يلوي خنجرًا في جرح. تمايل القارب على هذا الارتكاز. تدلَّى فكُّ الرجل مفتوحًا، كفَكِّ ابنه. لم يتحرَّكا، أنصتا فحسب، مذهولَيْن.

انتهيتُ من غنائي، لكنها لم يُغلقا فكَّيْهما؛ ولهذا شرعتُ في أغنية جديدة. فيما يُنصتان في ذهولٍ أحمق، خطوتُ إلى النهر المُتعكِّر، وخُضته إلى القارب، ثم تسلَّقتُ صاعدًا.

من اللحظة التي خطوتُ فيها على القارب المتمايل، أدركتُ أن القوارب لم تُخلق من أجلي؛ كان أول ما شعرتُ به اضطرابًا مُزعجًا في بطني، وكأنني احتسيتُ شرابًا فوَّارًا. توقَّفتُ عن الغناء وأطبقت فمي خشية أن أفقد عشائي مع أغنيَتي. فيما البحَّار يستأنف تقليبه المُتراخي في حساء النهر، أصابني شلل السَّقَم، وانهرتُ على الأشولة. فكَّرتُ أن أصيح فيهما ليطرحاني على الضِّفَّة، لكنني أوقفت نفسي؛ ذلك أنها حينها بدأنا في الانجراف ببطء عبر التَّيَّار، وفي ضباب الغثيان، صاح قلبي في بهجة، أماليا، أنا قادم!

(2)

نمتُ بين أشولة القمح لعدة أيام في ضبابٍ مُغثٍ، حتَّى أيقظتني أمي ذات صباح. أو هكذا تراءى لي. انهض! صاحت في غيبوبتي. انهض! حان الوقت! حان الوقت! كانت صيحتها رنينًا مدوِّيًا، هائلًا. في اللحظة التي سمعتُه فيها، أدركتُ أنني المقصود به؛ كانت تصيح فيَّ لمرَّةٍ ثانية.

نهضتُ فزعًا كجنرال أيقظه نداء بوق الحرب. جاهدتُ للخروج من عناق القمح ووقفتُ على قدمَيَّ. ضربني الدُّوار كركلة حصان، وانهرتُ مُجدَّدًا.

دوَّت السماء مُجدَّدًا، وهكذا، من أجل أمي، نهضتُ مُتعثِّرًا وأوشكتُ على السقوط في المياه المُنتنة، لكن ابن البخَّار احتضنني بذراعين عظميَّتين. ناولني سطلًا، وأخذته منه، ظانًّا أنه أداة للوصول إلى الشاطئ البعيد، لكنني لاحظتُ الإشفاق في عينيه. «هيَّا»، قال،

فيـما يسـاعدني عـلى رفـع السـطل ذي رائحـة الزنـخ إلى فمـي، «أخرجـه. ستشـعر بتحسُّـن كبـير بعدهـا».

«لا!» هتفت، وأشرتُ إلى السماء. «أنصِت!».

نظرَ الصبي إلى أبيه، الذي هزَّ كتفيه لا مُباليًا.

«أرجوك»، قلت. «خذني إلى الشاطئ!».

كان النهـر مزدحـمًا للغايـة هنـا، بصنـادل وقـوارب أصغـر، وكان أضيـق كثـيرًا. كنّـا في مركـز مدينـةٍ مـا. عـلى الجانبـين كانـت الضفـاف الطينيـة قـد اسـتُبدِلَت برصيـف حجـري يغـصُّ بالحركـة. جلجـلَ الـدَّويُّ مُجـدَّدًا، بـل وأعـلى وأكـثر اسـتمرار، وبـدأت النوبـة التاليـة قبـل أن تـتلاشى الأولى. صـارَ الآن وكأنـه وقْـع خطـوات عمـلاق يركـض عـبر السـماء.

«أسرعوا! صحتُ في قبطاني.

كان ذلــك الأحمــق متباطئًــا كتيّــار النهــر. اندفعــتُ إلى القيــدوم وانحنيـت حتّـى أسـتطيع التجديـف بالسـطل. كنـتُ نسـيتُ دُواري تقريبًـا. وقــفَ الصبــي ذو البثــور بجــواري.

«هل أنت»، سألَ، ونقرَ بإصبع على صدغي، «مريض؟».

طوَّحــتُ بيــدَيَّ عاليًـا. إذا كانــت أذنــاه الغبيَّتــان عاجزتــان عــن فهــم المغــزى مــن الصــوت، فـلا يمكننـي شرحـه لـه في لحظـة. أخـيرًا، اقتربنـا مــن الرصيــف العــالي، الــذي كان مزدحــمًا ببــشر أكــثر مــمّا رأيــتُ قــطُّ، وكأن سـانت غـال بأكملهـا قـد احتشـدت في سـاحة ضيِّقـة واحـدة. رجـال وأحصنـة وعربـات تتدافـع فيـما بينهـا لتتجنَّـب السـقوط في الميـاه الكريهة. انطلـقَ ذلـك الـدَّويُّ مُجـدَّدًا عـبر العالَـم. تمـاوجَ سـطح النهـر، غطَّـى بعض الرجـال آذانهـم، لكـن أحـدًا منهـم لم يرفـع بـصره (رغـم أن واحـدًا مـن البغـال المُحمَّلـة نهـقَ نحـو السـماء بحـماس، وكأنـه يرجوهـا ألَّا تسـقط).

بـدا أننـا اقتربنـا بمـا يكفـي مـن الحافـة الحجريـة؛ لذلـك وثبـتُ، لكـن أحـدًا لم يـشرح لي قَـطُّ قوانـين نيوتـن للحركـة. فيـما أقفـز، أوقـف عَزْمـي عَـزْمَ القـارب؛ وبالتـالي كانـت قفـزتي للأعـلى أكـثر منهـا للأمـام. لم أسـتطع سـوى ملامسـة الرصيـف بشـكلٍ خاطـف فيـما أسـقط قبلـه وتَنغمـس سـاقيَّ حتـى رُكبتـيَّ في المزيـج العَفِـن. لم أسـتطع إيجـاد شيء لأمسـك بـه، وكنـتُ لأنزلـق وأغـرق لـو لم يعتـصر الصبـي المبثـور قميـصي ويسـاعدني عـلى التَّسـلُّق عائـدًا إلى سـطح المركـب.

بـدأ في تعنيفـي وتعريفـي بمخاطـر السـباحة في قنـاة الدانـوب، لكـن لم يكـن لـديَّ وقـت لهـذا؛ بحسـاباتي كنـتُ أضعـتُ سـنوات كثـيرة ولم يَعُـد أمامـي سـوى دقائـق قبـل أن يختفـي الصـوت! لهـذا قفـزتُ مُجـدَّدًا، هـذه المـرة هابطًـا وسـط الزحـام.

اصطـدمَ جبينـي برجُـلٍ وحـشيٍّ يقبـض عـلى دجاجـة حيَّـة في كل يـدٍ مـن يديـه المُنتفختـين، وطـوَّحَ بواحـدةٍ منهـا ناحيتـي فيـما أندفـع قُدمًـا. ركضـتُ عـلى طـول الرصيـف المُزدحـم، الـذي كان مسـوَّرًا بأعـلى جـدار رأيتـه في حيـاتي، أعـلى مـن قـصر شـتاوداخ، وبـلا نافـذة واحـدة. جـاء الـدَّويُّ مـن الجانـب الآخـر مـن هـذه الاسـتحكامات؛ ولهـذا قفـزتُ بـين حصـان وعَرَبتـه المتحرِّكـة إلى نفـقٍ في السـور يغـصُّ بالبـشر.

أصـواتٌ كثـيرة جـدًّا! مخبـول بعـينٍ واحـدة يعـوي، صلصلـة عمـلات نحاسـية في قـدرٍ خشـبية أمـام مجـذوم، قعقعـة عجلـة عربـةٍ ملتويـة، هسـيس قـطٍّ أسـود تسـاقطَ نصـف فـروهِ بفعـل مـرضٍ مـا. فيـما أندفـع عـبر النفـق، سـمعتُ أصواتًـا أكـثر تنوُّعًـا مـما تخيَّلـتُ وجـوده في عالَـمٍ واحـد، الجميـع يتصايـح ليُسـمَع وسـط الصخـب: غرغـرة الهنجاريـة، أزيـز التشـيكية، اختنـاق الهولنديـة، الفرنسـية السـاحرة، الإيطاليـة وكأن أحدهـم يـضرب بكـرةٍ عـلى رأسي. كان النفـق مُظلـمًا، لكننـي كنـتُ الأطـول في الحشـد، وأرى حتَّـى سـوق اللحـم في الجانـب الآخـر. أبـدًا لم أسـمع

مذبحـةً كهـذه: السـواطير تشـقُّ السـيقان الثخينـة للأبقـار؛ الشـفرات تسـحج قشـور السـمك؛ ماعـز يثغـو بحـدَّة ويُقـاوم حبـلًا يجـرُّه إلى مقتلِـه؛ امـرأة بـأذرعٍ عريضـة كالصواري تُخـلِّي خروفًـا مـن عظامـه وتلطـم بكُتَـلِ اللحـم عـلى منضـدة غارقـة في الدمـاء؛ طفـلٌ يشـقُّ أمعـاءً بسـكين صدئـة؛ رجـل بسـاق واحـدة يتمـدَّد أمـام كومـةٍ مـن السَّـقْط ويلـوِّح بعـكَّازه في الطيـور التـي تحـاول اختطـاف الأعـين والحوافـر.

وما زال ذلك الدَّويُّ يُجلجل.

كان أقـوى في هـذا الجانـب مـن السـور. شـعرتُ بـه في أصابـع قدمَـيَّ، عـلى طـول ظهـري. ركضـتُ عـبر شـارع واسـع تحيـط القصـور بجانبَيْـه، كل قـصر منهـا فخيـم وسـامق كديـر شـتاوداخ. سـمعتُ بيانـو قيثـاري يصـدح خارجًـا مـن النوافـذ، صليـل كريسـتال وقعقعـة فضَّـة. كان الشـارع مرصوفًـا بأحجـار مسـتوية. زامنـتُ خطـواتي مـع وَقْـع الـدَّويّ، واثبًـا كل أربـع خطـوات حتَّـى يضربنـي الصـوت فيـما أنـا مُعلَّـق في الهـواء. شرَّحتُـه إلى مليـون نغمـة. سـمعتُ النغـمات المُرتفعـة في العضـلات المشـدودة لرَبلتَـيَّ، والنغـمات الواطئـة في ذراعـيَّ، اللتـين كانتـا تتطوَّحـان بخَـرْقٍ عـلى جانبـيَّ كجناحـين مهيضـين.

فيـما أركـض، كانـت القصـور تـزداد حجـمًا وزخرفـةً، وأحجـار الطريـق تـزداد انتظامًـا، والروائـح تغـدو أقـل بشـاعةً. ضـاق الشـارع، ثـم اتَّسـع، ورأيـتُ ميدانًـا فسـيحًا في نهايتـه. كان كل إنسـان هنـا يسـدُّ أذنيـه عـن الجلجلـة، راكضًـا إلى وجهتـه، وكأنـه يحـاول أن يَسـبق عاصفـةً. اندفعـتُ إلى أكـبر ميـدان رأيـتُ في حيـاتي، ونظـرتُ إلى بنـاءٍ كان مـن الضخامـة لحـدٍّ أننـي ظننتـه جبـلًا. رفعـتُ بـصري إلى الشـمس، إلى ذلـك الصـوت الـذي هـزَّ قلبـي، ولمحـتُ عمـودًا هائـلًا ظليـلًا أدركـتُ أن عـليَّ أن أتسـلَّقه. هرعـتُ إلى داخـل الجبـل الأسـود. أزحـتُ جانبًـا جـدَّاتٍ مُتغضِّنـات وأرامل نائحـات. جندلـتُ جـنرالًا عـلى ركبتيـه، سـكبتُ ميـاهًا مُقدَّسـة عـلى الأرض.

ألقى زجاج نوافذ أحمر كالدم بظلالٍ ورديَّة على الوجوه الشاحبة. باستثناء الدَّويّ الذي لم ينقطع، كان وَقع خطواتي على الأرض المتلاونة بالأبيض والأسود هو أعلى صوتٍ داخل ما أدركتُ أنه كنيسة هائلة. توقَّفتُ في منتصف صحن الكنيسة ورفعت بصري إلى السقف. كان وكأنه سقفُ لغابة: أعمدة رمادية سامقة مشقوقةٌ إلى أفرع متداخلة من الأحجار كان بمقدورها أن تُمسك السماء أن تسقط.

كنتُ على وشك تسلُّق الأعمدة والتَّدلّي من على فروعها، لكنني رأيتُ حينها رجلًا ضئيلًا، ووراءه باب ضيِّق. ذكَّرتني النظرة الكليلة، الكابية على وجه الرجل، ببيتر الوفيّ يقفُ حارسًا أمام غرفة السيدة دوفت المريضة قبل سنوات طويلة.

عبر الباب المفتوح رأيتُ دَرَجًا. ركضتُ، مستُجمعًا سرعتي فيما أعبر الكنيسة. رآني الرجل الضئيل قادمًا؛ ذلك أن عينيه اتَّسعتا من اندفاعتي وبدأ لسانه في التَّحرُّك بعصبية داخل فمه. رفع يديه: دبٌّ يحمي كهفه. لكنه مع ذلك دبٌّ ضئيل، صغيرُ دبٌّ، ليس بنصف حجمي، وهكذا في اللحظة الأخيرة، فيما أحمل عليه لأسويه بالدَّرج، نظرَ بشرود نحو المذبح وخطا جانبًا. انحنيتُ لأنقذ رأسي واندفعتُ صاعدًا الدَّرج المُلتفَّ.

«سيدي»، صاح في إثري، «لا يمكنك الذهاب هناك. أذناك...».

دوَّمتُ صاعدًا أعلى وأعلى، برأسي يدور، لكن كان عليَّ أن أسرع. اندفعتُ إلى غرفةٍ مُربَّعة ورأيتُ ستة عشر رجلًا، ظهورهم ناحيتي، وآذانهم محشوة ومربوطة بقماش، يجذبون ستة عشر حبلًا يتدلَّى من السقف. كانوا يشدُّون حتى يجلسوا على الأرض. صدحَ الدَّويُّ، هازًّا كل أعضائي الداخلية. ثم شُدَّت الحبال عن آخرها وتوتَّر الستة عشر رجلًا، وبتناغم مُطلق، كراقصات روسيَّات، قفزوا عشر أقدام فوق الأرض. وعندما وصلوا إلى الطُّنف في الأعلى، صدحَ الدَّويُّ مُجدَّدًا.

لكنني لم ألقِ على هذا المشهد سوى نظرة خاطفة. اندفعتُ صاعدًا دَرَجًا أضيق، مائلًا بشدّة، لحدّ أنني تسلّقته مُستخدمًا يدَيَّ وقدمَيَّ.

ثم وصلتُ أخيرًا إلى القمة، إلى غرفةٍ ذات أربعة جوانب مفتوحة على السماء، هناك كان هو: البوميرين (Pummerin)، أعظم أجراس الإمبراطورية، مسبوك من 208 مدفع تركي. كان بارتفاع ضعفَيْ طولي. له مِدقّة طويلة وعريضة كجذع شجرة. كانت حبال الستة عشر رجلًا هؤلاء ملفوفة هنا في جديلةٍ واحدة تُدير عجلةً بعرض عشرين قدمًا. فيما تدور، يهتزُّ الجرس، ويشقُّ الهواء كقيدوم سفينة مندفعة. وفي ذروة كل تطويحة، يصطدم الداخل السميك لشفته بالمِدقّة وتدوي نغمته المضروبة -نغمة رِي مثالية، طنّانة- عبر المدينة.

خطوتُ تحت الجرس. كانت المِدقّة تتدلّى على بُعد إنشات أمام وجهي. رأيتُ أنها مُلتفّة ببطانة من الجلد لإخماد قَرْع الجرس الهائل. وددتُ لو شققتُ البطانة حتى أسمع صوته الذي خُلقَ من أجله، لكن المِدقّة في اصطدامها، كانت تتقافز وتتلّوى، وأدركتُ أنني إذا لمستُها سأفقد أصابعي. لكنني وعدتها أن أعود ذات يومٍ لتحريرها. أزّت شفتا الجرس فوق شعري تمامًا. إذا قفزتُ، كان لينتزع رأسي من مكانها.

أغلقتُ عينَيّ. جعلتني قوة رياحه أتمايل من جانبٍ إلى آخر. تدلّى فكّي مُرتخيًا، تهدّلت ذراعاي، انفتحتَ يداي. لامس صوته كل موضعٍ في جسدي. دغدغَ دواخل فخذيّ وأرعشَ أجفاني. أزّت أصابعي. تفكّكت عضلاتي -المشدودة من طول السير، والنوم تحت الأجمات، والوحدة- وهُيِّئت للرنين مُجدّدًا. في كل موضع مُتخشّب في جسدي، جعلني الجرس ليّنًا مُجدّدًا. أذهلتني نغماته الكثيرة مثل لا نهائية

مسـحات ألـوان غـروب الشـمس. هنـاك كانـت أجـراس أمّـي، كأمـواجٍ في هـذا المحيـط الهائـل.

تخفَّفَ دويُّه.

فتحـتُ عينَـيَّ لأرى أن أرجحتـه تناقصـت كثـيرًا، كان الرجـال السـتة عـشر قـد أفلتـوا حبالهـم. لدقائـق كثـيرة كان اندفاعـه الـذاتي يـضرب مـا يـزال المِدقَّـة. ثـم عندمـا توقَّـف عـن ملامسـة المِدقَّـة، تهـادى رنـينٌ في جسـده لبضـع دقائـق أخـرى، ولم يتبـقَّ سـوى صـوت أزيـز الهـواء أمامـه فيـما يتأرجـح برفـقٍ، حتَّـى توقَّـف ذلـك أيضًـا، وصـارت أنفـاسي وجَلبـة المدينـة في الأسـفل، هـي الأصـوات الوحيـدة التـي تتحـرك في الهـواء.

ثم سمعتُ وقع خطوات، قبَضَت يدٌ على كتفي وأدارتْني برفق.

كان الحـارس. حدَّقـتُ في رأسـه الأصلـع، الـذي كانـت قطـرات العـرق تحتشـد عليـه. مـرَّت بضعـة دقائـق قبـل أن تسـمح لـه أنفاسـه اللاهثـة بالتحـدُّث.

"لا يُسـمح بالتواجـد في الأعـلى هنـا"، صرخَ وحـرَّك شـفتيه بحـذرٍ حتـى أقرأهـما، مُفترضًـا أننـي أصـمُّ. لكـنَّ شـفتيه كانتـا عـلى حافَّـة مجـال رؤيتـي؛ لأن عينـيَّ كانتـا مُثبَّتتَـين عـلى المشـهد وراءه. وضعـتُ يـدًا عـلى كتفـه حتَّـى لا أسـقط. قـادني إلى الحافـة.

بذراعَيْنـا حـول كتفَـيْ بعضنـا البعـض، حملقنـا إلى الأسـفل، إلى مدينـةٍ أكـثر بهـاءً مـن أجمـح خيـالاتي. شـوارع عريضـة، تزدحـم بالأحصنـة والعربـات والبـشر كنمـلٍ ضئيـل، تـؤدي إلى كل اتِّجـاه مـن الميـدان. قصـورٌ مسـتطيلة الشـكل بأفنيـة ممتلئـة بالزهـور كانـت متناثـرةً بـين هـذه الشرايـين. عـلى البُعـد، كانـت الأسـوار تضـمُّ كل هـذا جميعًـا في نجمـةٍ ذات نقـاط كثـيرة. وراء تلـك الأسـوار، تمتـدُّ المدينـة أكـثر، وصـولًا إلى التـلال الخـضراء عـلى البُعـد.

"يا إلهي"، قلتُ للرجل الذي أستند عليه. "ما هذا المكان؟".

"هـذه سـيدي"، قـال وكأنـه يتحـدَّث إلى أحمـق"، "هـذه مدينـة جلالتهـا. هـذه ڤيينـا".

* * *

وهكـذا، أخـيرًا، بعـد عـامٍ تقريبًـا مـن الأسـفار، وصلـتُ إلى نفـس المدينـة التـي وصَلَـت إليهـا محبوبتـي. لكـن حينهـا همـسَ صوتٌ شـيطانيٌّ، كان صامتًـا طـوال هـذه الشـهور، في أذني بغتـةً، "لكـن لمـاذا تتصـوَّر أنهـا تُحبُّـك؟ لقـد تزوَّجَـت، رجـلًا!".

علـيَّ أن أعـترف، لم أتوقَّـع أن تكـون ڤيينـا ضخمـة هكـذا، تغـصُّ بالبـشر الذيـن ينظـرون، عندمـا أصطـدم بهـم، إلى أسـمالي ووجهـي القـذر وكأننـي حيـوان فـرَّ مـن الغابـة. لكننـي أغلـق عينـيَّ وأدع أصـوات المدينـة تنسـاب عـبر جسـدي، لأسـتدعي كل أصـوات حبِّنـا الكامنـة، وحينهـا أسـتعيد إيماني.

هِمـتُ طـوال النهـار عـبر المدينـة باحثًـا عـن أيِّ أثـرٍ لأصواتهـا، وجامعًـا بسـعادة أصواتًـا أخـرى فيـما أتسـكَّع. كنـتُ أسـتدير عـلى عقبَـيَّ عندمـا أصـل إلى نهايـة مسـدودة، أو إلى واحـدة مـن تلـك البوابـات التـي تقـود إلى خـارج هـذا المـكان السـاحر. مـرَّةً واحـدة فحسـب جـرؤتُ عـلى إلقـاء نظـرة خاطفـة عـلى مـا يقـع خـارج الجُـدران؛ خرجـتُ بخطـوات مُتعـثِّرة مـن شـتوبينتور عـبر جسـر المشـاة إلى المنحـدر الأخـضر، ذلـك الحقـل الذي يشـبه الحدائـق ويحيـط بسـور المدينـة بحيـث تسـتطيع قـوَّات جلالتهـا القضـاء عـلى أيِّ غـزاة ببنادقهـم. وجـدتُ الصَّمـتَ غـير محتَمَـلٍ: طيـور تُزقـزق وحصانـان يمضغـان الشـوفان.

بعـد العـودة إلى داخـل البوابـات، أخـذتُ في تأمـل الاندفـاع العجيـب للبـشر: قضـاة وموظفـين وكَتَبـة في عرباتهـم أو عـلى أحصنتهـم الضخمـة، فيـما المسـاعدون والخـدَم عـلى أقدامهـم. أرتـالٌ مـن الجنـود يزحفـون

جيئةً وذهابًا عبر الشوارع، بالمهزولين والمنهوكين منهم، في غاية الابتهاج لعودتهم أحياءً من الحرب مع روسيا، ومن حلَّ محلَّهم من الجنود المتوثِّبين حزانى لما ينتظرهم من شتاءٍ قارص. وقفتُ في ميدان صغير بعض الشيء وبنظرة خاطفة واحدة استوعبتُ شحَّاذًا يستجدي العملات النحاسية، رجلًا بلحية رمادية وساق واحدة يتمايل على عكَّازه، وقسًّا في غاية البدانة لحدٍّ أن ظَهْر حصانه تهدَّل للأسفل. سيدة تسترق النظر من عربةٍ بأنفٍ كمنقار صقر. سرعان ما أدركتُ أن لا أحد، شريطة أن أبقى بعيدًا عن طريق الناس -مَهمَّة صعبة بالتأكيد- كان يُضيِّع لحظةً لاقتناص نظرة عليَّ، لا على قذارتي ولا على الوجه الملائكي الذي يختفي تحتها.

وقفتُ خارج بعضٍ من أفخم القصور وحاولت استخلاص الأصوات من داخلها. سمعتُ همسات لفتاة تُغنِّي، لدرسٍ عن اللغة الفرنسية، لكدِّ خادمات وطهاة وحمَّالين. في معظمها جميعًا، لاحظتُ الهدوء المُدهش لهذه الأبنية المُذهلة. مفصَّلاتها لم تكن تئنُّ. عجلات العربات التي تتدحرج خارجةً من بوَّابتها لا تصرُّ. أقدام خادماتها تبدو وكأنها لا تُلامس الأرض. عندما أسمع أصواتًا من نافذة مفتوحة، لم تكن مُتعجِّلةً أو غاضبة قطُّ.

لم أفهم شيئًا عن المدينة سوى أنها كانت محاطة بأسوار من جميع جوانبها، أنها تميل قليلًا للأسفل ناحية نَتَن الأسواق والنهر، وعاليًا ناحية أكثر القصور بهاءً، وأنه في مركزها تنتصب هذه الكاتدرائية السوداء العملاقة (سان ستيفن St. Stephansdom)، التي في بُرجها السامق الجنوبي يتدلَّى ذلك الجرس العظيم، الذي كان رنينه أضخم صوت سمعته في حياتي، أكبر حتَّى من رنين جرس أمِّي الأكبر.

كنتُ إذا وجدتُ بابًا مواربًا، أخطو عبره. طاردتني امرأة مُتغضِّنة عبر واحدٍ منها بساطورٍ في يدها، لكن وراء الأبواب الأخرى كان حظِّي

أفضل. تسلَّلتُ إلى غُرف مؤن، كانت غنائمي رغيف خبز، نصف ديك رومي بارد، قطعتي سجق، ثلاث جَزرات مسلوقة، ونصف كعكة. ثم مضيتُ أبعد، صاعدًا أدراجًا ملتوية عريضة؛ إلى غرف نوم خاوية بوسائد منتفخة؛ وأعلى، إلى غرف علّيّات ضئيلة (في أحدها وجدتُ طالبًا شابًّا نائمًا، غطيطه برائحة كحوليات عَفِنة). أخرجتُ برأسي من كل نافذة عالية صادفتني، واسترقتُ النظر عبر أسطح الأسقف، آملًا من ناحية أن ألمح محبوبتي محبوسةً في بُرجٍ ما، ومن ناحية أن أسمع، موسى! موسى! تحملها همسات الرياح.

لكنني سرعان ما أدركتُ أن أساليبي الاعتباطية لن تفيد بالتأكيد في مَهمَّة إيجاد فتاة جميلة في حاضرة مزدحمة بالبشر. مع اقتراب المساء، بدأت في سؤال المارَّة عن كيفية الوصول إلى المدعو أنطون ريشر ذاك.

ربما كنتُ لأجد فرصةً للاستحمام قبل أن أبدأ بحثي المحموم، رغم أن تخطيطًا مُتمهِّلًا كهذا كان ليقتل الكثير مما حدثَ لاحقًا في تلك الليلة الإعجازية الأولى في ڤيينا. كنتُ ما زلت أحمل خطوط الطين على وجهي، بأظافري طويلة وقذرة، وشعري كأذرع نباتات المستنقعات. كان بنطالي ممزَّقًا من الركبة إلى الكاحل، ونعل فردة من حذائي يرفرف كلسان كلب مُرتخٍ في كل خطوة أخطوها؛ لذلك لم تَجِد تحرِّياتي سوى تحديقات مُشمئزَّة. أخيرًا، وقع اختياري على خادم بدا في عجلةٍ شديدة من أمره، لحدِّ أنني اضطررتُ لقطع طريقه بذراعيَّ الطويلتين. طوَّح بقُفَّازه ناحيتي، لكنه خشيَ حتمًا أن يلوِّثه بوجهي.

"ساعدني أرجوك، وسأمضي بعيدًا"، توسَّلت. أخبرته بما أبحث عنه. "إنها مَهمَّة حبٍّ"، أضفت.

أجالَ فيَّ نظرَه. ثم سمَّى شارعين وأخبرني أن أبحث عن موضع تقاطعهما.

"لكن في أيِّ جزء من المدينة عليَّ أن أبدأ بحثي؟" سألته.

نظـرَ إليَّ وكأنـني أبلـه بحـقٍّ. "اذهـب إلى كاتدرائيـة القديـس سـتيفن"، قـال، مُشـيرًا إلى الـبرج الأسـود في السـماء، "وانظـر مـا إذا كنـت سـتجد فائـدة أكـبر داخـل جدرانهـا. إذا كنـتَ مـا تـزال ترغـب في العثـور عـلى قـصر ريـشر، فلـن تضطـرَّ إلى السـفر بعيـدًا".

كان ينبغـي أن أعـرف! هِمـتُ عـبر المدينـة لنهـارٍ كامـل، في حـين كانـت (هـي) تمامًـا حيـث بـدأتُ. كانـت أمِّـي وذلـك الجـرس قـد دعيـاني إليهـا! فقـط لـو كانـت عينـاي مثـل أذنـاي، لكنـتُ تجسَّسَـتُ عليهـا مـن الـبرج. بعـد نصـف سـاعة، عـثرتُ عـلى التقاطُـع الـذي ذكـره لي الخـادم، وحينهـا، رافعًـا بـصري، رأيـت قـصر ريـشر، جليـلًا ومثاليًـا ككنيسـة شـتاوداخ.

(3)

كان الظلام قد حلَّ تمامًا. رأيتُ قصر ريشر محصورًا بين واجهتَيْن أكبر، لكن أقل عراقةً؛ لذلك لم أرَ من البناء العظيم سوى وجهه، بنافذتَيْن مضاءتين في الطابق الثاني كعينَيْن متوهِّجتَيْن، وبابة سوداء مغلقة كفمٍ مُخيف.

كانت البوابة الكبيرة، المُصمَّمة لاستيعاب أكبر عربات في الإمبراطورية، ذات باب صغير في منتصفها مُخصَّص للبائسين أمثالي. فيما أقترب من البوابة، لم أفكِّر فيما أفعله. طرقتُ الباب.

لم تأتِ إجابة. ثم لاحظتُ حبلًا يتدلَّى بجوار البوابة، لا يختلف عن حبال الأجراس كثيرًا. جذبته. في موضع ما عميقٍ داخلي سمعتُ رنينًا. مسحورًا كالعادة بأيِّ شيء يرنُّ، جذبتُه مُجدَّدًا، وحاولتُ تقدير حجم وشكل ومعدن الجرس؛ ثم جذبته مُجدَّدًا، وخمَّنتُ قُرب القَرع. طَنْ، طَنْ، طَنْ-طَنْ. طَنْ، طَنْ، طَنْ-طَنْ.

«لا تفعل هذا» كان أول درس تعلَّمتُه عندما أطلَّ رجلٌ على شكل غول من الباب الصغير. لم يحتَج إلى الشرح بالكلمات؛ كان الاتِّقاد في عينيه يكفي. أفلتُّ الحبل وابتسمت ببراءة. خطوتُ ناحيته. لم يبتسم بدوره.

«مساؤك طيب يا سيدي»، قلت.

«انصرف»، أجابني.

«ترى»، قلت. «أريد التَّحدُّث مع أماليا دوفت، امم، ريشر. تعيش في الداخل». أشرتُ إلى المنزل.

«إذا جذبتَ ذلك الحبل مُجدَّدًا»، قال، وقد بدا أنه لم يفهم طلبي، «سألفُّه حول عنقك». كان رأسه كبيراً بشكل مُفزع. استرقتُ نظرةً إلى ظلِّ الكتفَين الهائلتين، بلا عنق بينهما.

«للحظات قليلة فحسب»، قلتُ، «فقط لأقول لها...» توقَّفت، لأنني في واقع الأمر لم أكن أعرف ماذا أودُّ أن أقول لها. في شهور ترحالي الطويلة، كنتُ تصوَّرتُ الأمر بشكل مختلف بعض الشيء. «لنَطِر ونهرب»، كنتُ لأقول لها، وكنَّا سنهرب. ببساطة؛ لا حاجة إلى فصاحة اللسان. لكن الآن، بذلك الغول يسدُّ طريقي، أيَّة رسالة بمقدوري إرسالها إليها؟ رسالة مثل «أخبرها أن الرجل الذي تحبُّه ليس ميتًا» لن تكفي. كنت أعرف ما يكفي لأدرك أن أفعال الحب المُحرَّم من الأفضل أن تتم وجهًا لوجه.

لكن لم أستطع الاستسلام بسهولة هكذا.

"هل بمقدوري أن أريك شيئًا؟" سألتُ الغول. أشرتُ إلى نهاية الشارع. "شيئًا سيثير اهتمامك. كثيراً جدًّا".

عندما خطا عبر الباب، اضطرَّ إلى إدارة كتفَيه ليتمكَّن من المرور. عندما اعتدلَ منتصبًا، تطلَّعَت رأسه إلى رأسي من علٍ. سرعان ما

أدركتُ أنه لم يأتِ ليستكشف التسلية المُثيرة التي وعدتُه بها. بل كان يرغب في منحي رسالة. أشار إليَّ أن أقترب. عندما فعلت، قبضَ على شعري وزمجرَ في أذني، "لا يعجبني وجهك. إذا رأيتُ هنا مُجدَّدًا، سأغيِّر أبعاده حتَّى يُعجبني".

لكن شعري كان زَلِقًا للغاية، لم يستطع إحكام قبضته. تلوّيتُ وأفلتُّ من قبضته، وكراقصٍ ماهر، اندفعتُ عبر الباب. كنت على وشك إغلاقه وحبس الغول في الخارج عندما أمسك بكاحلي، وجرَّني للخلف ورفعني لأعلى كسمكة عملاقة اصطادها من النهر. ثم طوَّح بي إلى الشارع وأغلق الباب ورائي.

نهضتُ واقفًا. كان الوحش قد سلخَ مِرفقي على أرض الشارع. صارت البوابة مُغلقة بإحكام الآن. لم أستطع قرع الجرس مُجدَّدًا وإلَّا سيجعلني قبيحًا، وحتَّى إن صادفني الحظ وتمكَّنتُ من تجاوز هذا الرجل، كنتُ أعرف أنني سأقابل أيًّا مَن يحرس الدائرة التالية من هذا المنزل الفخيم: خادمًا، أو ربما ذكرًا آخر من آل ريشر سيرغب في معرفة بُغيتي. لو أخبرتهم بسبب وجودي هنا، فسيرمونني خارجًا في أفضل الأحوال؛ وفي أسوئها، سيحبسونني ويرسلون بأماليا إلى مكان ناءٍ بعيد حيث لا أستطيع العثور عليها أبدًا.

لا، قرَّرت، كنتُ تصرَّفتُ برعونة. عليَّ أن أدخل إلى المنزل بطريقةٍ أخرى.

كانت نوافذ الطابق الأرضي مسدودة بقضبان حديدية مُزخرفة؛ بينما تلك في الطوابق الأعلى ليس كذلك، لكنها كانت مُغلقة بإحكام، وعلى أيِّ حال، لم تكن لديَّ وسيلة للوصول إليها. أدركتُ أن قصر ريشر كان سجنًا، وأن محبوبتي محبوسة فيه.

استدرتُ مبتعدًا، غارقًا في الإحباط، لكن حينها فكَّرت: ماذا كان نيكولاي الشجاع ليفعل؟ أطلقَ هذا اللجام خيالي. نسجتُ الفانتازيَّات:

ارتـداء زيٍّ مُنظِّـف مداخـن، أو سرقـة خنزيـر مـن السـوق وتسـليمه إلى المطبـخ ثـم الاختبـاء في خزانـة، أو إطـلاق سـهم مسـموم الـرأس عـلى الغـول ليسـتغرق في النـوم. لكـن كل هـذه الأفـكار جعلتنـي أهـزُّ رأسي؛ جميعهـا تحتـوي نفـس الخطـأ. أيْ، لفعلهـا، تنقصنـي المـوارد. لم يكـن لـديَّ سروال نظيـف حتَّـى، ولم أكتشـف مكانًـا حتَّـى لسرقـة واحـد.

لم أشـكّ كثـيرًا حينهـا أننـي سـأتوفَّر عـلى وسـيلة لدخـول قـصر ريـشر ذات يـومٍ، ليـس عـن طريـق حيلـةٍ مـا، بـل بدعـوة مـن سـيدة المنـزل ذاتهـا.

* * *

اتبعنـي في تلـك الأمسـية الإعجازيـة فيـما أنعطـفُ عنـد شـوتينتور عائـدًا إلى شوتينغاسـه ثـم إلى قلـب المدينـة. تمشـيَّتُ عـلى عـمائي، مُنصتًـا إلى قعقعـة الفضـة عـلى أرقـى أسـنان في ڤيينـا فيـما تنبعـث خارجـةً مـن المسـاكن الفخيمـة عـلى طـول الشـارع، عندمـا باغتتنـي عربـة أحصنـة، ثـم توقَّفـت عـلى بعـد عشريـن خطـوة تقريبًـا أمامـي. لم أُعرهـا اهتمامًـا، حتَّـى عندمـا هبـط منهـا رجـلٌ، وأكملـت العربـة طريقهـا، وبقيـت في مسـاري فيـما أقـترب منـه.

كنـتُ عـلى بُعـد خطـوات قليلـة عندمـا بـدأ في الضحـك، ناخـرًا في البدايـة مـن أنفـه بطريقـة مُتشـكِّكَة، ثـم أخـذَ في القهقهـة، مـع اقـترابي أكـثر، بكامـل بطنـه لدرجـة أرعبتنـي بعـض الـشيء. مـن أنفاسـه الرشـيقة، العميقـة، أدركـتُ أنـه لا بُـدَّ إمَّـا موسـيقيٌّ أو راقـص، لكنـه كان بدينًـا للغايـة عـلى أن يكـون راقصًـا. في الظـلام كان بمقـدوري رؤيـة وجهـه المسـتدير، المتـورِّد؛ إمَّـا بالنوايـا الحسـنة أو بالنبيـذ.

"أورفيوس"، قال الرجل. "لقد انتصرتَ على نفسك".

(4)

تطلَّعَ إليَّ الرجل متُجهِّمًا لكنه لم يستطع الإبقاء على عبوسه طويلًا، وانفجر مُجدَّدًا في قهقهاته فيما يقترب. انحنى عليَّ واشتمَّ ياقتي؛ ابتعد بفعل النفور. لكن حينها، لدهشتي الكبيرة، دفن وجهه في كتفي واستنشقَ رائحتي العفنة وكأنني وردة.

«فقط واحد من آل جاريك»، قال بصفيرٍ وكأن رئتيه لن تستنشقا نَفَسًا آخر أبدًا، «يجرؤ على أن تكون رائحته كريهة هكذا. ماذا فعلت؟ قضيتَ ليلةً في واحدٍ من مواخير سبيتلبرج؟ دعني أرى يديك».

رفعتُ يدَيَّ القذرتَيْن وبسطتُ أصابعي ليرى القَذَر المتراكم بينها.

«يا إلهي»، قال. «هاتان اليدان لا تقلّان قيمةً عن هاتين الأذنين». جذبَ شحمتَيْ أذنه. ثم قرصَ عنقي. «وهذا الحلق، الذي يبدو أنه أُصيب بالطفح الجلدي بسبب هذا القميص الذي وجدته في النهر،

يساوي أكثر عشر مرات. دوراتسو سيغضب بشدَّة. تكنيك الخِداع فعَّال حقًّا، لكن لنقل وداعًا له!».

ضيَّقَ الرجل عينيه في الظلام ليراني، وكأنه اندهش أن أنفي كان كبيرًا هكذا. حمدًا للرب أنني لم أنطق بكلمة. كلمة واحدة، «مرحبًا» أو حتَّى «ماذا؟» كانت لتقطع هذا التواصل الإنساني بغتةً كما بدأ. لكن لحُسن الحظ كان الصمت ما يزال حالتي الطبيعية.

نفضَ الرجل الشكَّ عن نفسه وقال: "دعنا، إذن، ندلف إلى منزلك، ليس كسيِّدٍ وصديق، لكن كفنَّان ورفيقه الفنَّان". وضعَ يدًا على أسمالي القذرة ودفعني نحو منزل فخيم مُشيَّد من الحجارة، محشور بين قصرَيْن آخرين. قرعَ الجرس. فتحَ الباب خادمٌ طويل وعريض للغاية، من النوع الذي لا يترعرع سوى في مزارع بوهيميا.

"أوه!" هتفَ الخادم.

"أوه؟" قال مُرافقي مُعاتبًا. "أوه؟ أهكذا تتحدَّث إلى عبقرية؟" تراجع الخادم بضع خطوات واصطدمَ بجدارٍ، وبجَهدٍ انحنى انحناءة طفيفة.

"الفا-الفارس جلوك"، غمغم بصعوبة. "إنهم ينتظرون... ينتظرونكما".

"ولن نُخيِّب أملهم!" هتفَ هذا المدعو جلوك، ونغزَ مِرفقًا في أضلاعي. سيطر الخادم على نفسه وبدأ في قيادتنا عميقًا داخل المنزل الباذخ، الذي لم تستطع رائحة اللاڤندر فيه هزيمة رائحتي.

ضحكَ جلوك بخفوت في أذني. "بوريس نفسه يظنُّ أنك صعلوك"، همس.

اتَّفقتُ بعض الشيء مع بوريس المُتبصِّر ذاك، لكنه لم يستدر حتَّى ليُحدِّق فينا بينما يقودنا عبر الدَّرج العريض المُغطَّى بالسجاد، حيث كان صوت ضحكات مرحة يرتفع من وقتٍ لآخر، بذلك الصياح

الخفيض لمحادثة جادَّة. أدخلنا عبر بابٍ مزدوج، ووجدتُ نفسي وسط حفلتي الساهرة الأولى.

كان هناك ما يقرب من عشرين رجلًا في قاعة الرقص، وثرثرة نساء أيضًا. حتَّى أصغر الرجال سنًّا كان لديهم شعر أبيض منساب، وكل أنف في الغرفة بدا مُستدقًّا، رغم أنني سرعان ما أدركتُ أن لهذا علاقة بالرَّفْع العام للذقون. كان هؤلاء الرجال والنساء يثرثرون في دوائر مُزدحمة، ويتحدَّثون في همسات حادة للغاية، لدرجة أنني تيقَّنتُ أنني قاطعتُ مؤتمرًا دبلوماسيًّا ذا أهمية قصوى. كانت هناك مجموعة من أربعة رجال تقف بالقرب من بيانو قيثاري، وبدوا وكأنهم وزراء أو قادة؛ ذلك أنهم عندما يُبدُون أيَّة آهة تعجُّب، كانت الأعين في القاعة تتطلَّع، وبأمل تقريبًا، في اتِّجاههم.

لكن دخولنا أفسدَ هذا التوازن. فيما جلوك يخطو ناحية مجموعة الأربعة، من أرجاء القاعة جاءت "أووه!" و "آآه" وكأن طاووسًا قد نفشَ ذيله لتوِّه. رُفعت الكؤوس، كل كأس أعلى من سابقه.

ثم انصبَّت عليَّ كل عين أيضًا. أُنزلت الكؤوس. صمتَتْ القاعة.

أخيرًا، خطا واحد من الرجال الأربعة إلى الأمام. "*Chevalier Gluck,* *qui est-til?*، الفارس جلوك، مَن هذا؟".

لم أكن تعلَّمتُ أيَّ فرنسية، لكن كان من الواضح لي أن القاعة بأكملها ترغب في معرفة ماذا يفعل هذا المُتشرِّد وسطهم. ابتسمَ جلوك بخبث. أجالَ بصره في الحاضرين، متوقِّفًا أولًا قليلًا عند كل واحد من الرجال الأربعة المهمِّين، "سنيور كالزابيجي، سنيور أنجيوليني، سنيور كواليو، الناظر دوراتسو، السيدات والسادة". أشارَ بإصبعٍ إليَّ. "هذا هو مستقبل فنِّنا".

أمهلَ الحاضرين قليلًا ليستوعبوا أثر عبارته، فيما يخطو ببطء حولي، مُتأمِّلًا في أسمالي المُمزَّقة وكأنها أفخم ملابس وقعت عليها

عينـاه. "لا ريـش نعـام، لا صدريَّـات مُرصَّعـة بالمـاس، بـلا تجمُّـل عـلى وجهـه. لا يبـدو كمُهـرِّج. امنحـوه نظـرةً واحـدة، واسـتوعبوا رسـالته". رفـعَ إصبعًـا إلى السـقف. "الخِـداع ليـس فنًّـا".

أومـأ جلـوك ببـطء وخطـا إلى الأمـام ثـم عـادَ إليَّ فيـما يُحـدِّق في كل ضيـفٍ كأبٍ يـؤدِّب أطفالـه. "مـن أجـل هـذه الأوبـرا، لـن نعيـد إحيـاء أورفيـوس الـذي سـمعه الجمهـور مائـة مـرة. ليـس أورفيـوس نابـولي، ولا ڤينيسـيا. لا. لـن أفعـل هـذا. بموسـيقاي، مـع نـص سـنيور كالزابيجـي الأوبـرالي المُدهـش، سنسـتحضر بـدلًا مـن ذلـك أورفيـوس الـذي عـاش قبـل زمـن طويـل، الـذي لم يرتـدِ الريـش في رأسـه، الـذي شـدا بأجمـل موسـيقى قاطبـةً، والأهـم مـن كل هـذا، الـذي شُـغِفَ بعاطفـةٍ صادقـة وحقيقيـة". تطلّـع جلـوك إلى السـقف وفـردَ ذراعيـه في تـضرُّع. "أورفيـوس!" هتـفَ. "تعـالَ وغـنِّ لنـا! نتـوقُ لأن نعـرف الحـبَّ! لأن نعـرف أعظـم حـزن وأعظـم فرحـة! بموسـيقاك، امـلأ قلوبنـا!".

لبضـع ثـوانٍ تـركَ جلـوك الصمـت يسـود، ثم عـادت العـين العابسـة إلى الجمهـور. "في أكتوبـر، سـيقوم أورفيـوس كـما لم يسـمعه أحـدٌ منكـم قـطُّ؛ ذلـك أننـا سـنوقظ روحـه، ليـس بالنَّـصِّ الأوبـرالي والموسـيقى فحسـب، لكـن لدينـا أيضًـا المُغنِّـي الـذي سـيحمل صوتـه. في هـذه الليلـة يختفـي وراء حجـاب الوضاعـة، لكنكـم تعرفونـه جميعًـا. آنسـاتي سـاداتي، مُضيِّفكُم، أورفيوس(نـا)، أعظـم أصـوات أوروبـا، جايتانـو جـواداني".

بتلويحـةٍ مـن يـده قدَّمنـي إلى الحشـد، الـذي ذابـت وجوهـه المصدومة في الابتهـاج فيـما يتعرَّفـون عـلى جايتانـو جـواداني الشـهير ذاك، أيًّـا مَن كان، تحـت طبقـات السُّـخام عـلى وجهـي. أخـذوا في التصفيـق، وفيـما يفعلـون، أدركـتُ برعـبٍ مُباغـت أن القاعـة صـارت مُنتفخـة بالتوقُّعـات والآمـال، كفقّاعـة عـلى وشـك الانفجـار بصـوتٍ صاخـب! لم أبتسـم فيـما يصفِّقـون، وزادوا مـن حـدَّة تصفيقهـم ردًّا عـلى ذلـك؛ ولهـذا قـرَّرتُ الهـروب. اتَّخـذتُ

خطوتين للوراء، لكن حينها أدركتُ أن هروبي قد أُعيق بفعل خطواتٍ تقترب. استدرتُ لأرى رجلًا يدخل. فسَّرَ منظره كل شيء، بالنسبة لي على الأقل.

كان جايتانو جوادانى يكبُرني بخمسة عشر عامًا، لكننا كنَّا نتشارك نفس الوجه الذي لا يشيخ. كان طوله يصل إلى أذني فحسب، لكنَّ كلينا يتشارك في ذلك القُوام الملائكي الذي يجعل الحشود تظنُّ أن طوله ست أقدام، وتظنُّ أن طولي سبع أقدام. مثلي، كان له صدر الطيور ذاك الذي يُميِّز الطواشيِّين ورهافة الجسد الذي لا تثقله العضلات الرجولية. لم نكن توأمًا، بل شقيقين ربما. في تلك الليلة كان شبابي مشوبًا بالسخام، وفي معطفه الطويل المُوشَّى ظهرَ هو كملكٍ.

بدا وأنه يدلف إلى القاعة طافيًا. إذا كان الجميع قد سكتَ عندما رأوني، فالآن عندما رأوا جوادانى -وأنا بجواره- لم يتنفَّسوا حتَّى. لم يجفل الطواشيُّ الشهير من رؤية هذا المتشرِّد في منزله، للحظة تطلَّع إلى الحاضرين بابتسامةٍ كريمة، عليمة. ثم نظرَ إليَّ بتمعُّن من رأسي إلى قدمي.

"أيُّها الفارس"، قال بألمانية قويَّة اللكنة، "هل وجدتَ لي بديلًا؟".

تحوَّل وجه جلوك المتورِّد إلى القرمزي. "أيُّها المحتال!" قال لي بكلمات لاهثة. هزَّ قبضةً ورفعَ الأخرى أمام صدره وكأن قلبه سينفجر من الحَرَج. خطوتُ إلى الوراء مُجدَّدًا وكنت لأصطدم بالطواشي لم لو يتحاشاني بمهارة راقص. رفع يدًا لتهدئة غضب المؤلف الموسيقي.

"ظننتَه أنا؟" سأله جوادانى فيما يستدير ناحيتي واضعًا نفسه بيني وبين جلوك. شرعتُ في الاقتراب ببطء من الباب.

"كان يتصعلك خارج بابك. خدعني".

"تنكُّر مُتقن"، قال جوادانِي، وزمَّ شفتيه حتَّى يدرك ضيوفه أن بمقدورهم الضحك.

"سأرميه إلى الخارج بنفسي"، قال جلوك، ومدَّ يده ناحيتي.

"لا!" هتفَ جوادانِي. تجمَّد جلوك. لم يستَدِر جوادانِي حتَّى ليتأكد أن المؤلف الموسيقي قد أطاعَ أمره. وضعَ المُغنِّي راحته فحسب على صدره، وكأنه يستشعر نبضه، بالرؤوس الحمراء لأظافره المطلية تتلألأ. "أبدًا لا أتخلَّى عن شقيق السِّكِّين"، قال بهدوء.

أحنى رأسه وظلَّت يده على قلبه. تعجَّبَت كلُّ عينٍ في القاعة من حنوِّه هذا.

"بوريس!" نادى بصوته الرَّنَّان الناعم. ظهرَ بوريس من حيث كان يتوارى خارج الباب المفتوح.

"امنحه استحمامةً وبعض الملابس، وطعامًا. أعتقد أن ملابسك وحدها ستلائمه".

لم يُبدِ بوريس شيئًا سوى ازدرادة مُرتعبة. لم يلتفت إليَّ فيما يقودني إلى خارج القاعة ثم عبر ردهة. "انتظر هنا"، أمرني. طوال عشرين دقيقة، جثمتُ هناك كتمثال، خائفًا أن يلوِّث سُخامي الحوائط البيضاء إن أبديت أيَّ حركة. أيَّ اتِّجاه كان الباب؟ أخيرًا، عاد بوريس بكومةٍ من الملابس على ذراعه.

"اتبعني"، قال، بصوتٍ يخلو من الاحترام والازدراء على السواء. قادني عبر دَرجٍ خشبي ضيق يهبط إلى غرفة اغتسال للخدم في القبو. كان هناك حوض اغتسال خشبي ممتلئ حتى منتصف بالماء، كان بمقدور بوريس أن يُسخِّنه أكثر بالتأكيد، لكن بما أنه كان أول ماء دافئ يُلامس جلدي منذ شهور، فلم أجرؤ على التَّشكِّي. أغلقتُ الباب

ووضعـت وراءه صندوقًـا خشـبيًّا لتريسـه قبـل أن أتجـرَّد مـن أسـمالي القـذرة وأغطـس في المـاء.

ظهـرَ الجلـد الرائـق تحـت طبقـات مـن القـذارة. فركـتُ الصابـون في يـدي حتّـى تغضَّنـت حشـيَّات أصابعـي بأشـكال بيضاويـة ورديَّـة. فقـدَ شَـعري وزن سـنةٍ مـن الدهـن، وعندمـا جـفَّ، انتفـشَ إلى هالـةٍ مـن الزغـب الرقيـق كريـش صغـير الفـراخ.

عندمـا تأكَّـدتُ أننـي فركـتُ كل إنـشٍ مـن جلـدي، خطـوتُ خارجًـا من حـوض الاسـتحمام ووقفـتُ أمـام المـرآة. تفحَّصـتُ كامـل جسـدي العـاري. لا يوجـد مخـصيٌّ بعضـلات رجوليـة، لكـن بعـد عـام مـن الترحـال عـلى طـول جبـال الألـب، اكتسـبَ جسـدي عديـم الشَّـعر رشـاقة الحوريَّـات. رأيـتُ في فخـذيَّ لمحـةً مـن تلـك السيقان العاريـة التـي كنـتُ ألصـقُ أذنيَّ بهـا في تلـك السـنة في عِلِّيَّـة أولرتـش. كانـت العظـام البـارزة في صـدري وحـوضي عظـام رجـل، لكـن الطَّبْـع الحليبـي، اللحيـم، لجلـدي كان شـبيهًا بذلـك الـذي كثـيراً مـا قبَّلتُـه.

كنـتُ عديـم الشعـر، ومـع ذلـك، الآن وقـد تطهَّـرتُ مـن القَـذَر، سـطعَ زغـبٌ ذهبـي تحـت ذراعـيَّ، فـوق شـفتيَّ، وفي سـهم يشـير إلى الأسـفل مـن صُرَّتي. عندمـا رفعـتُ ذراعـي، تماوَجَـت الحركـة عـلى صـدري المسـتدير، عـبر معـدتي الطويلـة، وتلاشـت في فخـذيَّ. كان عـامٌ مـن المشي قـد عـزَّز القـوام الـذي طالمـا عَمـلَ أولرتـش عـلى تمرينـه. لم يبـدُ الطـواشيُّ الـذي في المـرآة هشًّـا. كانـت قدمـاه راسـيتَيْن عـلى الأرض، وكتفـاه تبـدوان مُعلَّقتـين مـن خيـطٍ غـير مـرئي مربـوطٍ في السـماء. كان جسـدًا نبيـلًا، مثاليًّـا، بنقيصة واحـدة فقـط في مركـزه.

شـقيق السِّـكِّين، كان جـواداني قـد دعـاني؛ الاعـتراف الـذي طالمـا خشـيته. لم يحتَـجْ إلى سـماعي أُغنِّـي حتَّـى. رأيـتُ ذلـك فيـه أيضًـا. رأيـتُ ظـلًّا لذلـك الموزيكـو الآخـر. أنتونيـو بوجـاتي. وجهَاهـما الملائكيـان، الرائقَـان،

رونقهما، أصواتهما البديعة- كلها كانت علامات تَسِم جسدي أيضًا. أورفيوس. ما زال صدى الاسم يتردَّد في أذنيَّ. أورفيوس. ومُتأمِّلًا هذا الملاك العاري في الزجاج، فكَّرتُ مزهوًّا أنه إذا كان بمقدور جوادانى أن يكون أورفيوس من أجل إمبراطورية بأكملها، فحتمًا بمقدوري أن أكون أورفيوس من أجل امرأة واحدة.

كان سروال بوريس طويلًا بما يكفي بالكاد، لكنني لم أستطع تزرير الصدريَّة على صدري. برزَ رسغاي من المعطف، واضطررتُ لترك الحذاء المؤلم دون رباط. تمعَّنتُ في نفسي في المرآة. أبدًا لم أبدُ وسيمًا هكذا.

في الردهة، كان في انتظاري صَحَفةٌ كبيرة تحمل طبقًا من الخبز وجُذاذات لحم؛ وجبة زهيدة لشخص مثلي اعتاد على سرقة الولائم. تواثبتُ صاعدًا الدَّرَج. لم أعُد الصعلوك الدخيل، كان بمقدوري إيجاد طريقي إلى الخارج.

كان المنزل الذي يقطنه جوادانى مفروشًا بسجاجيد على أرضيَّات خشبية بلوحات مُؤطَّرة بالذهب على الجُدران. عمَّ الهدوء المكان، وكأن الضيوف قد غادروا جميعًا أثناء استحمامي وأُرسِلَ بالخدَم إلى الفراش. وجدتُ الباب الأمامي، قبضتُ على المقبض النحاسي المُوشَّى، وتهيأتُ للانسلال إلى الخارج دون أن يراني أحد. لكنني سمعتُ صوتًا جعلني أحبس أنفاسي.

بدأ بيانو فيثاري في العزف. سمعتُ على الفور أن سيِّدًا يجلس على لوحة المفاتيح. انسَقتُ ناحية الصوت، بعيدًا عن الباب، صاعدًا الدَّرج، مُسرعًا، صامتًا، خائفًا أن تتوقَّف تلك الموسيقى بفعل أيِّ صوت أُبديه.

فيما أقترب من الباب المفتوح الذي كانت تنضح منه الموسيقى -أدركتُ أنها تلك القاعة التي كنتُ فيها من قبل- وجدتُ بوريس

والخدَم الآخرين جاثمِين على جانبَي الباب، مختبئين عمَّن يوجد داخل القاعة. لم يُبدوا أيَّ ردِّ فِعل عندما انضممتُ إليهم؛ ذلك أن أجسادهم كانت مشدودة لتُنصت. عبر مدخل الباب ذاك، سمعتُ مقاعد تصرُّ وأقدامًا تتبدَّل تحت النغمات الرائقة للبيانو القيثاري.

كنت أريد أن أعرف مَن يجلس على البيانو. ربما كان لي أن أدلف عبر الباب وأفسد الأمسية -للمرة الثانية- لو لم أسمع صوتًا زادَ من ذهولي أكثر: شرعَ جايتانو جواداني في الغناء.

Che puro ciel! Che chiaro sol! Che nuova serena luce è questa mai!

يا للسماء الخالصة! يا للشمس الرائقة! يا له من ضوءٍ مُتجدِّد أصيل!

يا له من دفء! أغلقتُ عينَيَّ واستنشقتُ آخر قطرة من الهواء في ثنايا رئتَيَّ. احتشدتُ مع كل الخَدَم حتى انضغطنا على بعضنا البعض كحفنة من صغار الخنازير تتسابق على ضَرْع أمِّها. في كتلةٍ واحدة، اقتربنا من مدخل الباب زاحفين. نظرتُ في الأنحاء لأرى جواداني يقف أمام الحشد المُنتشي، ووراءه يجلس جلوك على البيانو القيثاري.

كان جواداني يلوِّح بيديه فيما يغنِّي، أصابعه الطويلة تصف الانحسارات والتصاعدات التي يخلقها صوته. في لحظات صوته الرهيفة، كان يجعلني أتخشَّب فيما أعتصر نفسي لأنصت، ثم في لحظاته العاتية، أشعر وكأنني على وشك الانسحاق تحت قوَّة بهاء صوته. حدَّقَ جواداني ناحية واحدة من زوايا القاعة، ورأيتُ في عينيه أن هناك كانت يوريديس(ته)، التي سريعًا سيمتلكها مُجدَّدًا. اعثر عليها! قالت لي الموسيقى. اعثر عليها! أزاحَ ذلك أيَّ خوف كان يتلكَّأ في ظلال روحي. دموعٌ دافئة لوَّثت وجهي النظيف الآن.

فيـما يُنهـي جـواداني آهتـه الأخـيرة -(يوريديـس، أيـن أنـتِ *Euridice dov'è!*)- كان اجـترار صوتـه عنيفًـا، ووحدهـا قـوّة بوريـس منعتنـا مـن السـقوط إلى قاعـة الرقـص. بـدأ الضيـوف في التصفيـق؛ نفـضَ الخـدَم الذهـول عـن أنفسـهم وفـرُّوا هاربـين. لم يكـن ردُّ فِعـلي في غايـة التَّمـرُّس: مـن اللحظـة التـي توقّـف فيهـا جـواداني عـن الغنـاء، شـعرتُ بتراجـع الـدفء. زحـفَ الخـوف خارجًـا مـن الظـلال. مـع كل لحظـة تمـرُّ، تراجـعَ يقينـي أكـثر وأكـثر أننـي سـأفوز بمـا أتـوق إليـه. شـعرتُ بحاجـة إلى سـماع هـذه الموسـيقى مُجـدَّدًا، بالحاجـة إلى تعلُّـم غنائهـا بنفسـي، وهنـا كان أسـتاذان بمقدورهـما تعليمـي.

شـعرتُ بيـد بوريـس عـلى ذراعـي تحـاول جـذبي بعيـدًا عـن البـاب، وأدركـتُ أنـه كان يهمـس بـشيءٍ مـا في أذني، ويسـألني إن كنـتُ بهـذه الحماقـة حتّـى أقاطـع الأمسـية للمـرة الثانيـة. كنـتُ كذلـك. اعتـصرتُ نفـسي للإفـلات مـن قبضتـه.

لكـن بوريـس لم يكـن يسـمح بمقاطعـة أخـرى، عـلى الأقـل ليس بسـبب أحمـق يرتـدي ملابسـه؛ ولهـذا جـذبَ كتفـي بعنـف. تلوَّيـتُ وقاومـت حتّـى أفلـتَ قبضتـه أخـيرًا. سـقطَ للـوراء وأسـقط زهريـةً مـن مكانهـا. خطـوتُ مُضطربًـا إلى قاعـة الرقـص.

بملابـس خـادمٍ، ودمـوعٍ تجـري عـلى خـدَّيّ، هبطـتُ عـلى احتفالهـم وكأننـي سـقطت عـبر درجٍ لتَـوِّي. توقّـفَ التصفيـق. حدَّقـوا فيَّ، لكـن هـذه المـرَّة كانـت تحديقتهـم مختلفـة. لم يتـلاشَ اندهاشـهم إلى اشـمئزاز، بـل إلى إعجـابٍ؛ إعجـاب بجـمالي.

اتَّخـذتُ بضـع خطـوات نحـو جـواداني، ورأى الجميـع الطواشـيَّيْن يقفـان جـوار بعضهـما البعـض: أنـا مـرآةٌ أكـثر شـبابًا وطـولًا لجـواداني. وجهـه الملائـكي الرائـق، عظامـه الرهيفـة، وعينـاه الخـضراوان الوديعتـان، كان كل مـا أزدريـه في نفـسي.

حاولـتُ استجماع الكلـمات، لكـن كل مـا اسـتطعتُه كان ضـمَّ قبضتَـيَّ وإرخاءهـما أمـام وجهـي، وكأننـي أجاهـد لاقتنـاص ذرَّة مُراوغـة مـن غبـارٍ سـحريٍّ يسـبح في الهـواء.

"هـا هـو أورفيـوس(كَ) قـد عـاد، أيُّهـا الفـارس جلـوك"، قـال جـواداني وضحـك. ضحـكَ الجمهـور أيضًـا.

حـدَّقَ المؤلـف الموسـيقي إليَّ مـن البيانـو القيثـاري. عـادَ بوريـس ونشـبَ يـدًا في ذراعـي.

"انتظـر"، قـال جـواداني لخادمـه، دون أن يتحـرك مـن موضعـه عـلى المنصـة الخشـبية. "ربمـا هـذه هـي فرصتنـا، أيُّهـا الفـارس، في غيـاب مدموازيـل بيانـشي، لنُسـمِع جمهورنـا دويتـو مـن الفصـل الثالـث".

"معه هو؟" قال، نافثًا رذاذ لعابه. "يوريديس؟".

"هل تستطيع غناء السوبرانو؟" سألني.

أومـأتُ. أثـارَ جلـوك اعتراضـات أخـرى، لكـن عبـارة إيطاليـة أوقفـت حديثـه، وأقنعـه لغـطٌ في القاعـة أن الضيـوف يسـعدهم أن ينصتـوا إلى جـواداني يغنّـي مـع رفيـقٍ شـاب. انتـزع جـواداني بعـض الأوراق وناولنـي نوتـة موسـيقي. تفحَّصتُهـا بحـماس وغمرتنـي عـلى الفـور خيبـة الأمـل.

"لكن هذا... لا أستطيع..." تلعثمتُ.

"طبقـةُ صـوتٍ عاليـة جـدًّا عليـه". صرَّ مقعـد جلـوك عـلى الأرض فيـما ينهـض واقفًـا، ارتفعـت راحتـاه وكأنـه يريـد دفعـي وإخراجـي مـن القاعـة.

"لا"، قلت. "ليست عالية عليَّ".

"ما المشكلة إذن؟" سألني جواداني.

"إنها الكلمات"، قلت. "ليست باللاتينية".

زمَّ جواداني شفتيه، ورأى الجميع أنه يكتم ضحكته.

"هل هي الإيطالية؟" سألته.

أومأ جواداني. "إنها كذلك".

"لا أتحـدَّث الإيطاليـة". سرى صمـتٌ عـبر القاعـة. "لا أعـرف كيـف أنطـق الكلـمات".

تنـاولَ جـواداني الأوراق مـن يـديَّ برفـق، وكأنهـا كنـز يسـتعيده مـن قبضـة طفـل. "لا تتحـدَّث الإيطاليـة؟" سـألَ بهـدوء، لكـن عاليًا بما يكفـي لتسـمع كل أذن تُجاهـد لتسـمع. "لكنـك طـواشيٌّ".

أومأت. احمرَّ وجهي رغم هدوء جواداني.

"هذا مستحيل"، قال. "في أيِّ دور أوبرا غنَّيتَ؟".

"دور أوبرا؟".

"مسارح!".

"لم أغنِّ قطُّ في مسارح".

"أين إذن تعلَّمت الغناء؟".

"في الدير"، قلت. "دير سانت غال".

استدار جواداني إلى جلوك. "أين هذا؟".

"في سويسرا"، قال جلوك. أومأ.

"لكـن ليـس لديهـم أي موزيكـو في الأراضي الألمانيـة"، قـال جـواداني، مُندهشًـا. هـزَّ جلـوك رأسـه برفـق مؤكِّـدًا. أشرق وجـه جـواداني بغتـةً. ابتسـمَ إليَّ. "لكـن هـذا شيء اسـتثنائي. منـذ متـى وأنـت في فيينـا؟".

"وصلتُ اليوم".

"اليوم!".

بـدأ جـواداني في الضحـك، وكانـت ضحكتـه بنفـس قـوة أغنيَّتـه. سرعـان مـا انغمـس جميـع مَـن في القاعـة في الضحـك معـه عـلى هـذا الموزيكـو العجيـب الـذي لا يتحـدَّث الإيطاليـة؛ القـادم مـن أرضٍ لا يوجـد فيهـا نوعـه. بـدا بوريـس وكأنـه رأى هـذا فرصـةً جيـدة لإخراجـي خِلسـةً، لكـن هـذه المـرَّة جذبـتُ نفـسي بنفـسي بعيـدًا.

لكـن جـواداني رفـع يـدًا فحسـب. تجمَّـدتُ أنـا وبوريـس، وخمـدَ الجمهـور عـلى الفـور. جالـت عينـا جـواداني المُترفِّعـة عـلى كل واحـدٍ مـن ضيوفـه، وكأنـه يبحـث عـن قلـبٍ نبيـل واحـد بـين هـذه الصقـور. "أنـا، مثـل هـذا الموزيكـو البائـس"، قـال، "لم يكـن لـديَّ أيّ كونسرفاتـوار (*conservatorio*) ليجعلنـي مـا أنـا عليـه اليـوم. علَّمـتُ نفـسي بنفـسي. ولـن أتخـلَّى عنـه".

"غـدًا"، قـال لي، "سـتأتي إلى مـسرح بـيرج. سـتكون تلميـذ جايتانـو جـواداني".

(5)

"زائـر إلى المدينـة، سـيدي، ألسـت كذلـك؟ أيُّ خدمـة في مقـدوري؟" كان الصبـي قـد قـال بعـد أن اسـتيقظتُ في الصبـاح التـالي مـن فـراشي القـاسي عـلى الرصيـف وتقلَّبـتُ ثـلاث اسـتدارات كاملـة، بسـؤال واحـد في رأسي لا غير .

«في الواقع»، قلت، «بمقدورك. هل أنت من أبناء هذه النواحي؟».

"ابـن خالـة عمِّـي هـو الملـك عمليًـا"، قـال بفخـر، مُـبرزًا صـدره، الـذي كان في غايـة النحـول لدرجـة أنـه كان باسـتطاعتي إحاطتـه بيديَّ. تسـاءلتُ متـى تنـاول طعامًـا آخـر مـرَّة.

"هـذا جيـد"، قلـت. "أنـا في حاجـة إلى اتِّجاهـات. هـل يمكنك مسـاعدتي في الوصـول إلى ذلـك المـسرح، الـذي يُسـمَّى مـسرح بيرج".

"مسرح القياصرة والملوك في القلعة (*Die Kaiserliches und Königliches Theater an der Burg*)"، سردَ الاسم بإيماءة. "إلى ساحة ميخائيل (*Michaelerplatz*). دعْ لوثر يكن مُرشدك".

وهكذا فعلتُ. سرتُ وراءه عبر المدينة النائمة بعد الفجر مباشرةً، صاعدين التّلّ المُنبسط، بتلك الكنيسة السوداء تطل علينا من اليسار عبر ضباب الصباح، ولطخات الرَّوَث الرطب تتناثر في كل مكان بين أحجار الشوارع. لم نستدر يسارًا أو يمينًا قطُّ. كانت القصور تزداد حجمًا وأبّهةً.

بعد ما لا يزيد عن عشر دقائق، دلفنا إلى ميدانٍ. "ساحة ميخائيل"، قال لوثر، وانحنى.

فغرتُ فاهي. على مسافة ليست بعيدة، كانت خطوط الأسقف البارزة لأضخم أبنيةً رأيتُها في حياتي تشقُّ بحدّةٍ السماء الساطعة. في الميدان نفسه: كان هناك قصر مُبهرج بقبابٍ وتماثيل بيضاء لمحاربين ينتصب عاليًا فوقنا.

"يا إلهي"، قلتُ لمُرشدي، مُشيرًا إلى الصرح العجائبي. "هل هذا هو المسرح؟".

"لا"، أجابني. "هذه المدرسة الشتوية لتعليم ركوب الخيل، للأميرات وخيولهن الصغيرة. هذا هو مسرحك". تتبّعتُ إصبعه الممدودة إلى الحافّة الحادة لمدرسة تعليم ركوب الخيل هذه -التي بدت وكأنها تنتهي بغتةً، وكأنها مشقوقةٌ بسكّينٍ من السماء- منكمشةً إلى مكعّب حجري بلا نوافذ في إحدى الزوايا. في سانت غال كان ليُلفت النظر، لكن هنا، كان...

"صغير بعض الشيء، أليس كذلك؟" قلت.

نظـرَ لوثـر إليَّ بعبـوس. "أعظـم مـسرح في الإمبراطوريـة. يسـع ألفًـا وأربعمائـة إنسـان".

"لا يبدو كمسرح". كانت الواجهة بلا نوافذ، وبلا أبواب.

"كان دارَ رقص فيما مضى".

"مرقص؟".

"سـاحة للرقـص. حتَّـى يسـتطيع الأمـراء اللعـب والتراقـص. الآن هـو مـسرح. وليكـن بوابـة إلى الشـيطان فـلا أبـالي. لا يُسـمح لي أبـدًا بالدخـول".

تقدَّمتُ إلى الميدان. لاحت القصور وراء مسرحي أكبر وأكبر.

"راضٍ؟" سألني لوثر. "راضٍ عن خدماتي؟".

أؤمأتُ بشرود.

"اثنان كروزر"، قال.

"ماذا؟" استفهمت.

"أتعابي. تدين لي باثنين كروزر".

"مقابل ماذا؟".

"مقابل الخدمة".

"لكن هذا لا شيء. أيُّ أحمق بإمكانه إيجاد الطريق".

"أيُّ أحمق إلَّا أنت. اثنان كروزر".

"لكن...".

"اثنان كروزر". مدَّ يده وتقدَّمَ ناحيتي.

"لا أملك بنسًا حتَّى".

"سأعضُّ كاحلك". كشفَ عن أسنانه. صفراء، لكن حادَّة بما يكفي لإنجاز المهمَّة. تَراجَعتُ.

"لا شيء!". هتفت. "أنا فقير مثلك".

تطلَّع إليَّ من رأسي إلى قدمي وكأنه لاحظ للمرة الأولى كم تلائمني ملابسي بالكاد. امتعضَ من فقري. "أعطني حذاءك إذن"، قال.

"لا!".

غطسَ إلى الأرض من أجله ونجحَ في انتزاع فردة فيما أثبُ مُبتعدًا، لكنه سرعان ما جندلَني، رغم أنه لم يكن بنصف بحجمي، واختطفَ الفردة الأخرى أيضًا. لكنني نشبتُ إصبعين في كل فردة واستبسلتُ في استرداد حذائي، وتطوَّحتُ إلى الأمام فيما يخطو للوراء. جرَّني الوحش الصغير عبر الميدان.

كشَّرَ.

عضَّ يدي.

جأرتُ وتلوَّيتُ، لكن هذا لم يفعل سوى خلخلة الشيء الوحيد في جيبي، خابور مُدهَّن من جبن مُتعرِّق، آخر ما سرقتُه من طعام.

جحظتّ عيناه. أفلتَ الحذاء ووثبَ لانتزاع خابور الجبن. مزَّقه بأسنانه. حاولتُ مطاردة إفطاري بحماسة فاترة، لكنه فرَّ هاربًا.

نفضتُ الغبار عن ملابس بوريس واستعدتُ زرًّا من التراب. كان لوثر قد ترك رائحة الجبن في إثره، وقرقعت بطني. نظرتُ من حولي وقرأتُ العمارة جيدًا: ميدان ميخائيل ليس مكانًا مناسبًا للتسلل خلسةً ما لم يكن المرء مُغرمًا بالزنازين الإمبراطورية. لهذا استدرتُ عائدًا إلى المسرح بسيط الحال. كان شاذًّا عن الميدان كجدَّةٍ مُتغضِّنة الوجه وسط حفلة راقصة باذخة.

شعرتُ بالنبضات الأولى للوقوع في حبِّه تخفق في قلبي.

اقتربتُ. رغم أن الواجهة كانت خاوية، في زاويته كان ينتصب باب مزدوج عالٍ من خشب البلُّوط، الشيء الوحيد في هذا البناء الذي يبدو أنه يناسب أبَّهة لقب المسرح الأول لإمبراطورية. طرقتُ على هذا الباب المهيب لكن ضرباتي لم تُحدث سوى صوت مكتوم. لم يتطوَّح الباب مفتوحًا.

أخذتُ في السير لساعة كاملة على طول الجوانب الثلاثة للمسرح. كان هناك القليل جدًّا ليُسمع، الإمبراطورية تصطخب ليلًا. من وقتٍ آخر تمرُّ عربة عبر ميدان ميخائيل. يجاهد بغل أمامه عربته المُحمَّلة بالشمَّام. وراء المسرح، عبر بوابة، لمحتُ "ميدان القلعة" الخاوي، وفي كل مرة أتمهَّل لأقترب منها، مُفكِّرًا أنني قد أنسلُّ عبرها إلى الميدان، كان الحارس هناك يرفع حاجبيه: أودُّ أن تجرِّب. ثم أستدير على عقبَيَّ.

لكن في نهاية تلك الساعة، رأيتُ شيئًا غريبًا. كان هناك باب معدني مربَّع صغير للغاية في واجهة المسرح، بارتفاع خاصرتي. تطوَّحَ هذه الباب مُنفتحًا بغتةً. ظهرَت منه ذراعان. ثم تلاهما رأسٌ. امتدَّت الذراعان إلى الأرض، حيث تظاهرتا أنهما قدمَان. في تلك الأثناء، ظهرت القدمان من الباب، وأغلق عَقِبٌ -يشبه راحة يد- البابَ بإحكام. ثم استقامت هذه التشكيلة من الأيادي والأقدام إلى وضع إنسان منتصب مُعتدل، وفرَّت بعيدًا. كنتُ لأتيقَّن أنه ليس سوى صبي؛ ذلك أنه انتصبَ واقفًا ليس أطول من لوثر الماكر، لكن هذا العفريت كانت له لحية رجولية وكومة من الشَّعر.

فورَ أن غابَ عن نظري، تفحَّصتُ الباب الصغير، الذي تعرَّفتُ فيه الآن على مَزلَق مهجور للفحم. تحسَّستُه بأظافري. حاولتُ أن أزيحه لأعلى أو لأسفل أو إلى الجانب. لكنني لم أستطع فتحه. داومتُ على فعل هذا لبضع دقائق حتَّى سمعت صيحةً غاضبة.

"هاي أنت! لا تلمس ذلك الباب!".

استدرتُ ورأيتُ أن الرجل الملتحي الضئيل قد عاد. كان هناك شيءٌ يشبه القوارض في هيئته. شعره ولحيته كانا بلون كستنائي، وكذلك ذؤابات الشَّعر التي تبرز من قميصه المفتوح. كان نحيلًا ومُعضَّلًا. كانت شفتاه مزمومتَيْن دومًا، وعيناه على شكل خرزتَيْن سوداوين، فيما رأسه بالكاد تبين وراء أذنيه. كان يحمل رغيف خبز في يدٍ وقطعة سجق في الأخرى. قطعة السجق سميكة كذراعيه؛ والخبز مستدير كهالة شعره.

"ذلك"، أشار بقطعة السجق، "هو باب الإمبراطورة". نشبَ أسنانه في اللحم بوحشية. "تريد أن تفقد رأسك؟".

أخبرته أنني لا أريد أن أفقد رأسي، لكنني أحتاج إلى الدخول إلى المسرح. أخبرته أنني تلميذ جايتانو جوادانِي الجديد.

نظرَ إليَّ من أعلى إلى أسفل.

"ليس لديك خصيتان؟".

تورَّد وجهي ولم أجب.

"كما تشاء"، قال. ناولَ الباب ضربةً هائلة، وانتثرَ مفتوحًا. وضعَ الخبز والسجق في المَزْلق. ثم، وكأنه ينحني فحسب لالتقاط عملة نحاسية، شقلبَ نفسه بحيث صارت قدماه فوق خصري بالضبط ويداه على الأرض. انثنت ركبتاه إلى الخلف واختفت قدماه في المَزلَق المُظلم، حيث أمسكتا بشيءٍ يشبه الدَّرج. ثم، شيئًا فشيئًا، أدخل جذعه إلى داخل التجويف. عندما لم تبقَ سوى رأسه وذراعيه، لامستُ كتفه.

"حسنًا"، قلتُ. "إنه كما قلتَ".

"هل تألَّمتَ عندما قطعوهما؟" سألني.

"نعم"، قلت. "تألَّمت".

برزت عيناه فيما يستلقي على ظهره هناك في نفقِه، وكأنه جُحر. بدت رأسه وكأنها مُثبَّتة مباشرة في كتفيه، دون الحاجة إلى عنُق. وذراعاه مشدودتَيْن كفروع شجرة. "هل تعرف ماذا كنتُ لأفعل لو حاولَ أحدهم قطع خصيتَيَّ؟".

لم أسأله.

"سأخبر الإمبراطورة، وستشنقه".

"ولماذا قد تحميك الإمبراطورة؟" سألتُه.

"إنها ربّة عملي. أعمل لحساب الإمبراطورة".

"كيف تبدو؟" سألته.

"لديها ستة عشر طفلًا. أسمت البنات جميعًا باسم ماريا، على اسمها".

أومأتُ. "هل قابلتَها قطُّ؟".

"أراها طوال الوقت. تأتي إلى المسرح".

"هل صافحتها؟".

"لا تكن أبلهَ"، قال.

بدأ في الانزلاق أكثر ببطء إلى داخل المَزلق. "اسمي تاسو". قالَ فيما يوشك رأسه على الاختفاء. "تريد بعض الإفطار؟".

أردتُ حقًّا.

"فقط تأكَّد من إدخال قدمَيْكَ أولًا"، صاحَ من موضعٍ ما في الجُحر. كان صوته مكتومًا.

تفكَّرتُ قليلًا كيف يمكنني أداء هذه الحركات الأكروباتيّة البارعة، ثم استسلمت ودلفتُ برأسي أولًا. كان الكهف رَحبًا بما يكفي لأزحف

داخلـه بِمرفقـيَّ، وفي البدايـة لم يكـن مائـلًا بشـدَّة، لكـن فـورَ أن دخلـتُ بكامـل جسـدي إليـه، بالـكاد اسـتطعتُ منـع نفـسي مـن الانـزلاق. ثـم فقـدتُ السيطرة تمامًـا. فيـما أنزلـق عـبر المَزلَـق المُظلـم، صرخـتُ ومـدَدتُ يـدَيَّ أمامـي. اصطدمـتُ بالأرضيـة وسرعـان مـا تكوَّمـتُ عـلى نفـسي كقطعـة سـجق محشـورة في جـرَّة. رفعـتُ بـصري إلى مـا وراء ركبتَـيَّ لأرى ضـوءًا خافتًـا وظـلَّ الرجـل الضئيـل يهـزُّ رأسـه بكآبـة.

ارتعبتُ، وتأوَّهتُ وتلوَّيت. "النجدة!" صحت.

"توقَّـفْ عـن التَّلـوِّي!" هتـفَ تاسـو مـن أعـلى. ربـطَ حبـلًا حـول كاحـليَّ. سـمعتُ طقطقـة بكـرات ثـم رفعنـي لأعـلى مـن خـارج الجُحـر، بالحبـل يُمـزِّق في جلـدي. في النهايـة، هويـتُ خارجًـا مـن الفتحـة إلى أرضيـة سـاحة الرقـص القديمـة.

اسـتلقيتُ في قاعـة ذات سـقف واطـئ بشـدَّة. كان بمقـدور تاسـو ملامسـته بأصابعـه بالـكاد عندمـا يقـف بذراعيـه مرفوعَتـيْن. اضطـررتُ للجثـوم في وضـع القرفصـاء حتـى لا يصطـدم رأسي بالسـقف. هـزَّ الرجـل الضئيـل إصبعًـا في وجهـي. "القدمـان أوَّلًا في مزالـق الفحـم"، قـال. "دائمًـا. مـن حظِّـك الطيـب أننـي هنـا".

انتصـب قائمًـا وجلـب مقعـده المُنمنـم، ثـم منحنـي نصـف رغيـف الخبـز ونصـف مـا تبقَّـى مـن السـجق تقريبًـا.

"كيف تبول؟" سألني فور أن قَبِلت عطيَّته.

أخبرتـه أن التَّبـوُّل لا يُسـبِّب لي أيَّ مشـاكل، وأننـي لسـت مُهتـمًّا بـأيِّ أسـئلة أخـرى مـن ناحيتـه. مـع ذلـك التهمـتُ طعامـه بشراهـة فيـما أتطلَّـع في أنحـاء كهفـه. كانـت شـمعة وحيـدة هـي مصـدر الضـوء الوحيـد. كان هنـاك موقـد صغـير غـير مُشـعَل، وبجـواره فِـراش مُتنقِّـل مُغطَّـى بالدُّثُـر بعنايـة. كان يحتـلُّ زاويـة صغـيرة فحسـب مـن المسـاحة الهائلـة. ومـا تبقَّـى منهـا يمتلـئ بظـلالٍ مشـؤومة، تشـبه أدوات تعذيـب

في زنزانـة. أفقيًـا بارتفـاع خِـصر تاسـو، كانـت تمتـدُّ عارضـة خشـبية عـلى طـول القاعـة -مـن مَزلـق الفحـم حتـى منتصـف قاعـة الرقـص- كصـاري سـفينة موضـوع أفقيًـا. في منتصـف العارضـة، تـبرز رافعـة بعجلـة مـن الأوتـاد، منهـا تنطلـق حبـالٌ، تَلـجُ في بكـرات في حـواف القاعـة، وتختفـي عـبر السـقف. في الطـرف البعيـد مـن القاعـة كان رأسٌ رحـويٌّ بحجـم تاسـو بمزيـدٍ مـن البكـرات ومزيـدٍ مـن الحبال التـي تمـضي في كل اتجـاه. كانـت هنـاك أيضًـا ثمانيـة أجهـزة تبـدو كمراقـد تعذيـب مـن أحجـام مختلفـة، كل منهـا بحبـال وبكـرات كثـيرة حولهـا. تـردَّدَ صـدى مَضغِنـا للطعـام في الزوايـا المُظلمـة، وكأننـا فـئران تختبـئ وسـط الآلات.

"ما هذا المكان؟" سألتُ تاسو عندما انتهينا من طعامنا.

"انظـر بنفسـك". انتفـضَ واقفًـا وخطـا مُتعـثِّرًا إلى العارضـة الرئيسـية. سـارَ عـلى يديـه للحظـة، ودسَّ قدمًـا في حلقـة مـن الحبـال، وجذبهـا للأسـفل. فيـما تهبـط قدمـه وترتفـع رأسـه، انفتحـت بوابـة صغـيرة (كمبوشـة) في السـقف فـوق أكـبر مراقـد التعذيـب الخشـبية. رأيـتُ مُربَّعًا مـن سـماء سـوداء.

"اجلـس"، قـال. تسـلَّقتُ فـوق العارضـة وعـبر شـبكة الحبـال وجلسـت عـلى المرقـد، الـذي كان يتـدلَّى بحريـة. أسرعَ تاسـو عـبر القاعـة جاذبًـا حبـلًا بقـوَّة. راقبـتُ الحبـل يشـتدُّ عـبر مجموعـة مـن البكـرات. صحـتُ فيـما المَرقـد ينتـتر لأعـلى بغتـةً، ثـم أظلـم كل شيء.

جاهـدتُ لأقـف في الظـلام الحالـك، ملوِّحًـا بعـماء بيـدَيَّ أمـام وجهـي. لا شيء هنـا. طرقـتُ بقدمـي عـلى الأرضيـة الخشـبية. تـردَّد صـدى الطرقـة في الظـلام. سـمعتُ أننـي في تجويـف هائـل.

لم أستطع أن أقاوم. غنَّيتُ لحنًا مُتسارعًا في الظلام.

* * *

إلى المهندسين: لا تشيِّدوا قاعات احتفالات للمُستمعين، بحيث يكونوا مُرتاحين، بحيث يمكنهم رؤية خشبة المسرح، بحيث يشعروا بالتبجيل في مقاعدهم. قاعات كهذه ينبغي أن تُحرَق وتسوَّى بالأرض عقابًا على جُرم الوثنية. المعابد الوحيدة التي ينبغي أن تظل قائمة هي معابد تأليه الأغنية.

في هندسة الأغنية، الزمن هو الاعتبار الجوهري. في تلك المعابد المُشيَّدة لأصنام أخرى -نوتردام، سان بطرس، أو حتَّى كنيسة شتاوداخ- ربما تُجلجل أغنيةٌ في سماوات ذلك الفضاء لعشر ثوانٍ على الأكثر. ربما يمنح هذا الجمهور خوفًا من الرب وحبًّا له ولكنيسته، لكن في هذه الثواني العشر، تشيخ الأغنية وتتكدَّر، كتفاحة طرية بلا مذاق. على النقيض، عند الغناء في بهو منزلك أو غرفة طعام، تظهر المشكلة المقابلة: تصطدم الأغنية بالحوائط والبُسُط وأطباق العشاء سريعًا جدًّا، لحدٍّ أنها لا تجد وقتًا لتنضج قبل أن تموت.

الآن لنُفكِّر في القاعة الكبرى، هذه التي تظهر الآن في حكايتنا والتي أراها للمرة الأولى في حياتي. هنا تُحبَس دورة حياة الصوت بشكل مثالي بحيث لا يوجد نُضجٌ قبل الآن، ولا موت تراچيدي، ولا شيخوخة؛ صوت يعيش لثلاث ثوانٍ مثالية. ثلاث ثوانٍ من الشباب الزاهي.

هذا المسرح على القلعة ربما يكون قُدس أقداس معابدنا؛ ذلك أن الشكل الهندسي للعبة الكفِّ (Jeu de Paume)[1] مثاليٌّ للأغنية. على نحو فريد، شُيِّد طابقاه من المقصورات والشُّرُفات في الأعلى من الخشب بالكامل، بلا أحجار على الإطلاق، وحتَّى مع ستمائة فرد يجلسون داخله، فهو يحاكي الجسد الخشبي الرَّنَّان لآلة موسيقية.

---

(1) () لعبة رياضية ظهرت في زمن الثورة الفرنسية ومنها تطورت لعبة التنس التي نعرفها. كانت تُلعَب في ساحة طويلة وضيقة بمقصورات خشبية على جانبيها لجلوس الجمهور. (المترجم)

القاعة في المسرح طويلة وضيقة -ليست مستديرة كما هو الحال في قاعات الأوبرات العظيمة الأخرى-؛ ولهذا فإن الأغنية، مثل كرة لعبة الكف (Jeu de Paume) تتطوَّح من أميرة إلى ابنة عمتها، تنتقل على طول القاعة حتَّى ترتدَّ من الحواف الرقيقة للمقصورات.

لم أدرك أيًّا من هذا حينها؛ لكنني سمعتُه فحسب. لكن فيما أخطو بحذر قُدمًا نحو حافة المسرح، هرعَ تاسو ورائي بفتيلة مشتعلة في يده. صعدَ السلالم المغروسة بسرعة مُوقدًا مصابيح ألواح الإضاءة الجانبية. بدأ المسرح في التَّوهُّج.

أطلقت الشُّرَّافات الرنين في أرجاء المسرح على ثلاث جوانب تحت السقف المطليّ بالزخارف مباشرةً. تحتها كان طابقان من مقصورات ضئيلة، كزنازين سجن بحائط واحد مفتوح، كلٌّ منها يمكن الوصول إليه عبر باب مُفرد. على أرض المسرح، في الخلفية، انتصبت صفوف كثيرة من مقاعد طويلة بلا ظهر، وأمام هذه، صفَّان من اثني عشر مقعدًا مخمليًّا.

"أين تجلس الإمبراطورة؟" سألتُه.

"هناك". أشارَ بإبهامه إلى أكبر المقصورات على يساري. "حتَّى يمكنها الدخول من القصر؟".

"ومَن يجلس هنا؟" سألت، مُشيرًا إلى صفِّ المقاعد تحتي على الأرض.

"ذوو الأصوات المُزعجة"، أجابني الرجل الضئيل. أمسكَ بُسلَّم يعلوني مرَّتين فوق خشبة المسرح. "المستعرضون. نُسمِّي هذا الجزء حظيرة الثيران. يتحدَّثون في هذه المقاعد أعلى من الممثلين على خشبة المسرح".

"وماذا عن تلك النُّضُد القريبة من السقف؟ هل يمكنك رؤية أيِّ شيء من هناك؟ أشرتُ عاليًا إلى الشُّرافات البعيدة.

"لا تستطيع رؤية نصف خشبة المسرح"، أجابني تاسو. "يُسمُّونها الجنَّة (Le Paradis)؛ ربما لأنها أقرب إلى السماء منها إلى خشبة المسرح".

"لكن لماذا يحبسون الناس في هذه الكبائن الصغيرة؟" قلت. "حتَّى لا يتحدَّثوا؟".

نخرَ. "مقصورات (*Loges*)"، صحَّح لي. "وأبوابها ليس لحبس الأغنياء في الداخل؛ بل لمنع الفقراء من الدخول. مُستعد؟".

"مُستعدٌّ لماذا؟" سألت، واستدرتُ فيما الضوء يخبو من الذهبي إلى الأحمر.

* * *

وجدتُ نفسي في جحيمٍ متأجِّج. كان كهفًا جحيميًّا. ألسنة نار مُتجمِّدة. أعمدة من حجارةٍ مُغضَّنة. نفق يؤدي إلى فتحة ساطعةٍ ما، بعيدة بُعد النجوم.

ظهرَ رأس تاسو عبر واحدة من الكمبوشات، سنجابٌ يُطلُّ من جحره. رفعت بصري إلى المصابيح الحمراء. "زجاج مصبوغ"، فسَّر. "مُستعد لما هو قادم؟" سألَ. اختفى رأسه قبل أن أُومئ بالموافقة.

سمعتُ طقطقة خطواته وأنين العارضة تحت قدمَيَّ. بغتةً -سريعًا بما يكفي للسهو عنه لو كنتُ رمشتُ- غادرنا الكهف الموحش إلى حقول جنَّة عدن. كانت الأشجار تنحني على نبَعٍ. أغواني حقلٌ من العشب الناعم بالنوم. فور أن شرعَ جواداني بالغناء، ملأ الأمل قلبي. في مكانٍ كهذا سنكون أنا وأماليا معًا ذات يوم.

برزَ رأس تاسو من تجويفٍ آخر. "ترى؟" كان كل ما قاله.

"فعلتَ كل هذا؟" سألتُ، مشيرًا إلى ستارة المسرح الخلفية.

"أوه!" قال. "احتاج الأمر جيشًا لإتمامه. نسبوا الفضل لكواليو. لا أحد يذكر تاسو. يجذب الحبال فحسب".

"ما هو شعور أن تشاهد أوبرا؟" سألتُه.

"لا أعرف"، قال. "لا أرى شيئًا من هنا في الأسفل".

"ألم تشاهد أوبرا من قبل قطُّ؟".

هزَّ رأسه. "لا أكترث".

"لا تكترث!" قلتُ. "يومًا ما سأغنّي أمامك عن الحب. وحينها ستُغيِّر رأيك".

طرفَ بعينيه. "الحب؟" قال.

"نعم"، قلت، بأكبر ما في مقدوري من زهوٍ. "الحب".

نخرَ. "لديَّ طرق أفضل لقتل الوقت". ثم اختفى في أخدوده.

(6)

في التاسـعة، وصـلَ ثلاثـة عُـمَّال مـسرح ذوو وجـوه كالحـة. بعـد ذلـك، لم يغـادر تاسـو كهفـه قـطُّ. أطـلَّ برأسـه مـن كمبوشـة وصـاح، "شـحِّموا كل ثلـمٍ وكأن الإمبراطـورة سـتأتي. دوراتسـو سـيكون في غضـون ثلاثـة سـاعات مع المايسـترو! أقـل صريـر وسـيطالب برؤوسـكم!" انسـلَّ الرجـال الثلاثـة خلسـةً في كتلـة واحـدة، وكأنهـم مُقيَّـدون معًّـا بأغـلالٍ في كواحلهـم. في الحاديـة عـشرة، ظهـرت فرقـة المـسرح الألمانيـة. أجـرَوا بروفـات لسـاعة، وطـوال عشريـن دقيقـة سُـمِحَ لي بالجلـوس في "حظـيرة الثـيران" ومشـاهدتهم، لكـن المشـاهد أصابتنـي بنوبـات شـديدة مـن الضحـك الدامـع لدرجـة أن المخـرج العابـس هتـفَ بغتـةً، "اخـرج ولا تَعُـد حتَّـى تسـتطيع احتـواء ضجيجـك".

في الثانيـة عـشرة اقتحمـت الفرقـة الفرنسـية المـسرح، مقاطِعـةً البروفـة بأصواتهـا العاليـة. بـدا تمثيلهـم مُمـلًّا في نظـري، وأتوقَّـع أننـي كنـتُ لأجده كذلـك حتَّـى لـو فهمـتُ الفرنسـية. في الواحـدة، اسـتولت فرقـة باليـه

أنجيوليني على خشبة المسرح، كانت رائعة بلمحات خاطفة، ووددتُ لو بقيتُ أشاهدهم للأبد لولا أن أنجيوليني كان يُوقف راقصيه بين كل خطوة وأخرى ليُطلق فيهم السباب بإيطاليّته المُبهجة.

لا أثر لتاسو، لكن عندما هتفوا، «أضواء!» ارتفع مصعد أضواء المسرح كالشمس على المُمثلين. «ستارة!»- وانغلقت الستارة كما لو بفعل السحر. لم أرَ وجه صديقي الجديد ثانيةً حتّى وصلَ رجال مسرح ڤيينا العظماء في الثالثة، ولاحَ رأس تاسو من كمبوشة في أرضية المسرح للإيماء إلى سادتِه، الذين تعرَّفتُ عليهم من الأمسية السابقة. ثم اختفى تاسو، ولم أعُد أسمع سوى الأسطر شديدة الخفوت من تحت خشبة المسرح، فيما دوراتسو وجلوك وكالزابيجي يومئون ويفركون ذقونهم عندما يصرخ كواليو، «حسنًا، والآن امنحونا اليونان». «الكهوف، الكهوف! الحقول! أسرع يا رجل. لا تجعل هؤلاء الرجال ينتظرونك كثيرًا!». تبدَّلت المشاهد بسلاسة، بلا صرير. تأمَّلَ هؤلاء الرجال المُهمُّون في كل مظهر خلفي بتقطيبةٍ؛ بأباهيمهم تضغط على حزٍّ أبيض في ذقونهم. وجدَ كلٌّ منهم تفصيلةً أثارت استياءه. وعدهم كواليو بإحداث تغييرات.

أخيرًا، في الرابعة، وصل جواداني. هببتُ واقفًا لتحيَّته، لكنه خطا متجاوزني أنا والرجال الآخرين؛ لم يرَ سوى خشبة المسرح.

"نعم"، غمغمَ، عندما رفع تاسو المصابيح الحمراء فوق الكهوف. "همم. نعم". ثم أغلق عينيه وراقبنا جميعًا فيما يتطوَّح جيئةً وذهابًا في الممر الأوسط، وكأنه يستدعي في عقله رؤيا لمستقبل هذه الأوبرا. فتحَ عينَيْه وأومأ، وأجابه الرجال الآخرون بإيماءةٍ. ثم ارتقى خشبة المسرح وخطا في عدة دوائر. لوَّح بيده على لحنٍ في رأسه، وطنطنَ الرجال الأربعة العجائز في رضا. "الآن امنحني الحقول"، أمرَ جواداني الهواء. سمعتُ تاسو يهرع بأسرع ما يستطيع تحت خشبة

المسرح. سقَطَ الستار الخلفي، انزلقت الأُطر الجانبية الجديدة في موضعها، تحوَّلَ الوهج المتَّقد إلى شمس الغروب. استدار جواداني ببطء، ثم هزَّ رأسه. "لا"، قال. "لا".

"ما المشكلة؟" سأله كواليو، كخادم مطيع لأميره.

"(إنها) المشكلة"، قال جواداني. لوَّحَ بيده واستدار مُبتعدًا عن الرسومات البديعة، وكأنه لا يطيق النظر إليها.

"كيف ذلك؟" توسَّلَ كواليو، فيما يخطو تجاه خشبة المسرح، لكن جواداني نزلَ بسرعة وتخطَّى كواليو في الممر الأوسط. نادى رسَّام المشاهد في إثر المُغنِّي، "ما هي المشكلة بالضبط؟".

توقَّف جواداني، لكنه لم يستدر. هزَّ رأسه. "أنا أغنِّي"، قال بهدوء. تطلَّع من فوق كتفه في اتِّجاه كواليو دون أن ينظر إليه على الأخص. "وأنت ترسم".

خطا جواداني ناحية المخرج. نادى جلوك في إثره، "لكن لا تريد أن ترى الرسومات الأخرى... اليونان، المعبد؟".

تابعَ جواداني. "ليس اليوم"، أعلنَ بشكل قاطع. "ليس اليوم".

"لكن متى؟"، ازداد صوت جلوك يأسًا. "الوقت اللازم للتغييرات ينفد بسرعة!".

لكن لم يَبدُ أن جواداني قد سمع السؤال. اتَّجه إلى بهو المدخل. خرجتُ من الظلال وخطوتُ لأسير جانبه. "ألن تغنِّي؟" سألته. لم يتوقَّف مع ذلك؛ ولهذا اضطررتُ للتراجع مُتعثِّرًا لأتجنَّب الاصطدام به، لكني اصطدمتُ بالمقاعد ثم ارتطمتُ بالباب. للحظةٍ انهصرَ فيها قلبي، خشيتُ أن عرضه في الليلة الفائتة لم يكن سوى دعابة قاسية.

حملقَ جواداني في وجهي، مُنزعجًا من المقاطعة. "آها!" قال أخيرًا، وأطفأت ابتسامته المفاجئة مخاوفي. "موزيكا(نا) السويسري!" أمسكَ

بذراعي وجذبني برفق بعيدًا عن الباب حتَّى يستطيع فتحه. "أغنِّي؟ الليلة؟" تنشَّقَ. "لا، ليس الليلة. ليس غدًا. ليس الأسبوع القادم. أواخر سبتمبر ربما. ربما ليس قبل أكتوبر". أشارَ بمكرٍ إلى الرجال خلفه الذين ما زالوا يحدِّقون فاغري الأفواه في اتِّجاهه. "درسي الأول لك: أبدًا لا تمنحهم كل ما يريدون وإلَّا سيلتهمونك وكأنك فطيرة زلابيا (*Knödel*). أبدًا لا تجعلهم يظنُّون أنهم روَّضوك يا شقيقي (*mio fratello*). أبدًا". جذبني برفقٍ إلى ردهة الدخول الصغيرة وقرصني في ذراعي. "كلب الصيد الشجاع، فور أن يُجرح، يستلقي بهدوء في الزاوية. للأسف (*Purtroppo*)، هذا ما صارَ إليه كثيرٌ منَّا: نُدغدغ أميرةً قبل العشاء بغنائنا حتَّى نجعلها تحتسي النبيذ؛ ندغدغها بعد العشاء بأصابعنا حتَّى نتشارك فراشها من الريش".

هزَّ جواداني رأسه ورفعَ إصبعًا أمام وجهي. "أنا مختلف. عندما تطلب مني دوقةٌ أن أغنِّي لها، أخبرها أن لا وقت لديَّ. عندما يطلب ذلك أميرٌ، أنا مريض. هذا جزء من عملية الصيد. ولِمَن لا يستطيع القتل، يصبح الصيد كلَّ شيء. تعال".

قادني إلى المخرج. عبر الباب السميك كان بمقدوري تبيُّن أصوات حشدٍ جائع: أصابع تكشط في الخشب، نساء يتداخلن في بعضهنَّ البعض، أصواتٌ تنادي، "جايتانو، أوه، جايتانو!" وقفَ أربعة جنود من حرس الإمبراطورية جاهزين لحمايتنا من الغوغاء.

"دعهم يلمسونك"، نصحني جواداني. "لكن أبدًا لا تدعهم يمسكونك". أومأ، فانفتح الباب.

لم يكن الرجال والنساء الذي ينتظرون في الخارج من الفلّاحين الذي كنتُ تَشارَكتُ معهم فراشي على رصيف الميناء. كانت النساء يرتدين أزياءً بديعة. بذهبٍ ومجوهرات فخيمة تسطع على أعناقهن. وراء

الحشد كان يقف صفٌ من العربات التي كانت تطلُّ منها سيدات الطبقة الأعلى عبر ستائر من الدانتلا.

خطا جواداني إلى وسطهم. أحاطَ بنا الجنود ودفعوا الحشد بعيدًا بما يكفي فحسب حتّى تتمكّن الأيادي الممدودة عن آخرها من مَسّ الموزيكو العظيم برفق. بدا جُواداني وكأنه يرى كل يدٍ -حتى تلك التي وراءه- ويُمسِّد كل يد. تناول بعض الأصابع بين أصابعه لوهلة. لكن لم تحاول أيُّ يد الإمساك به -أو امتلاكه- أيٌّ من هذه لم تجد مُستقرًا لها. ألقت قبضات مضمومة بقصاصات أوراق، بأشعار حُبٍّ مخربشة على كلٍ منها.

قرصتني أصابع.

نتَفَت شعري.

مزّقوا ملابسي حتّى يعتصروا مَزقات معطف بوريس على شفاههم؛ فقط لأنني كنتُ أخطو بجانب الطواشيِّ العظيم. أفواهٌ جائعة بدت وكأنها تكتم ألسنةً هائجة فيما يمدُّون أيديهم إلينا كفلّاحين يندفعون طلبًا للخبز وسط مجاعة. معظم الوجوه كانت لنساء، لكن بين لحظةٍ وأخرى كان رجلٌ يناضل بين الحشد؛ كان بعضهم يرتدي أقنعة احتفالية لإخفاء وجوههم. عرضَ رجلٌ من المُقنَّعين خاتمًا من الياقوت. قبَّل جواداني الجوهرة ووضعها في جيبه. كانت السيدات يصرخن بصوتٍ حادٍّ فيما الآخرون يدفعونهن إلى الخلف. مدامٌ متكالبة تجذب شعر أخرى. محاور عربات تَصرُّ فيما قوافل من الشقيقات يتقاطرن خارجاتٍ من أبوابها.

اختارَ جواداني عربةً واحدة من المعمعمة. وراء الباب، أرسلت له امرأةٌ إشارةً تخلو من إلحاح الأخريات، وكأنها تنادي نادِلًا فحسب. انحنى جواداني وقبّل يدها. لم تبدُ حتّى أنها شعرت بلمسته، لكنها تطلَّعت إلى ما وراء رأسه المُنحني لكل هؤلاء المُتعبِّدين الذي

يحسدونها على امتيازها. كانت امرأة جميلة؛ رداؤها من حرير أخضر أملس، حِلْيَتها تلتمع على عنقها، بلا أيِّ جزء في وجهها يشي بنقيصة واحدة، لكن جلدها الأبيض منحني الانطباع أنه بارد، وتيقَّنت أن لمسةً واحدة من أصابعها على عنقي ستبعث القشعريرة في أوصالي. لم تكن شابَّةً، لكنَّ وجهها وجبينها الأملسَيْن، عديمَيْ التعابير، جعلاها دائمة الشباب.

"ستأتين وتسمعين غنائي لأورفيوس الجديد؟" سألها جواداني.

"بالطبع"، أجابته المرأة. "مقصورتنا تمتلئ دائمًا عندما يغنِّي جواداني".

انحنى مُجدَّدًا.

"مَن هذا؟" سألَت وتطلَّعت إليَّ. دفعَ الحُرَّاس الحشد بعيدًا، لكن فتاة جائعة كانت ما تزال تجذب في قميصي المُرتخي.

"هذا، سيدتي الكونتيسة"، أجابها جواداني، وكأنه يكشف النقاب عن كنز، "هذا تلميذي الجديد".

هل كانت تلك غمزةً من مُعلِّمي إلى تلك المرأة؟ لم أحب ابتسامتها. استدارَ جواداني إليَّ. "يُشرِّفني أن أقدِّم الكونتيسة ريشر، أكثر نساء ڤيينا سحرًا".

كنتُ بدأتُ في الانحناء، لكن رأسي انتترَ لأعلى عندما سمعتُ الاسم. تأمَّلتُ في وجهها. بدت عيناها الخضراوان الباردتان وكأنهما تقبضان على تحديقتي داخلهما.

"آمل أنه يغنِّي أفضل من تلميذك السابق"، قالت بابتسامة عريضة.

أنصتُّ إلى ظلام عربَتها. هل كانت هناك أنفاس؟

منحها جـواداني نظـرةً وهـزَّ كتفيـه اسـتهانةً. "لا يتحـدَّث الإيطاليـة *Non parla italiano*".

هزَّت الكونتيسة رأسها ومنحت جواداني نظرةً مُستاءة.

"إذن"، قالت لي بالألمانية، "كيف تشعر وأنت لديكَ مُعلِّم مشهور؟".

هـل ابنهـا لديـه هاتـان العينـان الخـضراوان أيضًـا؟ وهاتـان اليـدان المضمومتـان أمامهـا- هـل لامَسَـت محبوبتـي اليـوم؟

"هل يتحدَّث أيَّ لغة؟" سألَت جواداني.

"يبدو أنه مفتونٌ بجمالك، سيدتي الكونتيسة".

هــزَّت رأســها ومنحتنــي ابتســامةً مُبتهجــةً. اســتدارت مُجــدَّدًا إلى جــواداني. "لا بُــدَّ أن أســمعك تُغنِّــي"، قالــت. "ســأقيم حفلــةً صغــيرة".

"أنا مشغول بشدَّة، سيدتي".

"بعـد ثلاثـة أسـابيع"، قالـت. ثـم ناولـت جـواداني قصاصـة مـن الـورق. فضَّهـا، ورأيـتُ أنهـا لم تكـن تحـوي سـوى رقـم. فكَّـرتُ أننـي لمحـتُ ومضـة اندهـاش تعـبر وجـه المُغنِّـي.

"معظم الناس يكتبون إليَّ بقصائد حب"، قال، "للتَّزلُّف إليَّ".

هـزَّت كتفيهـا اسـتهانةً. "لتكـن هـذه شـهادةً عـلى مشـاعري إذن، تلـك التـي تـسري عميقًـا جـدًّا". تحدَّثَـت بـلا انفعـال.

"سـأفكِّر في الأمـر"، قـال جـواداني. وضـعَ قصاصـة الـورق في جيبـه. مـدَّت يدهـا إلى جـواداني لتقبيلهـا مُجـدَّدًا. أبقـى عينَيْـه عـلى عينيهـا فيـما ينحنـي للأمـام.

ابتسَـمَت إليَّ مُجـدَّدًا؛ ومـضَ لسـانٌ عـبر شـفتَيْها الرقيقتَـيْن. "بالطبـع، إذا حـضرتَ، اصطَحِـبْ معـك تلميـذك السـاحر". ثـم تراجَعَـت واختفـت داخـل عربتهـا، وفيـما تبتعـد، ابتلعنـا الحشـد مُجـدَّدًا. هـذه المـرَّة، كنـتُ

في غايـة الذهـول عـلى أن أتحـاشى الأيـادي. تمـزَّق قميـصي مـن تحـت معطفـي فيـما أنصـتُ إلى كل صـوتٍ مـن أصـوات كبيرة آل ريشر: تكتكة بـاب العربـة المُغلِـق، توجيهاتهـا المُقتضبـة لسـائقها، فرقعـة السـوط، طقطقـة العجـلات عـلى أحجـار الشـارع.

راقبهـا جـواداني فيـما ترحـل. "إنهـا شـنيعة"، قـال بهـدوء، فيـما يدفـع بخشـونةٍ الأيـادي مـن حولنـا. "لكنهـا ثريـة جـدًا، في غايـة الـثراء. أعتقـد أننـي لا بُـدَّ أن أبـارك حفلتهـا بصـوتي".

* * *

كان أكـثر مـا شـغلَ بـال جـواداني عنـد مغـادرة مـسرح بـيرج هـو أن أرتـدي ملابـس تليـق بتلميـذ للطـواشيِّ العظيـم. فصَّـلَ لي خيَّاطُـه الإيطـالي عـدَّة معاطـف ملسـاء، طويلـة، مُوشَّـاة، تتـماشى مـع زيِّ الطـواشي. في المـرآة، تأمَّلـتُ نفـسي فيـما الخيـاط يعمـل بالخيـوط الذهبيـة- سرعـان مـا تراقَصَـت القـرود عـلى صـدري.

"مُتقـن"، قـال جـواداني عندمـا تزيَّنـتُ كـما ينبغـي بالذهبـيِّ والمخمـلي، بحـذاء مُسـتدق. "بديع".

في نفـس تلـك الأمسـية الأولى، فيـما نمـضي في عربتنـا عائديـن إلى منزلـه البـاذخ، الـذي كان بمثابـة بيتـي أنـا أيضًـا في ڤيينـا. سـألته متـى سـيبدأ في تعليمـي الإيطاليـة حتَّـى أسـتطيع غنـاء أوبراتـه. كتـمَ ضحكـةً وأشـاح بنظـره إلى خـارج العربـة. "كُـن صبـورًا"، قـال. "كُـن صبـورًا. سـيكون عليـك تعلُّـم الكثـير. الغنـاء سـيأتي لاحقًـا. تـرى، قبـل أن يسـمحوا لـك بالصعـود عـلى خشـبات مسـارحهم، قبـل أن ينصتـوا إلى غنائـك حتَّـى، لا بُـدَّ أن يؤمنـوا بـك". تفحَّصنـي بتمعُّـن، مـن رأسي إلى قدمـي، وبهـذه الكلمـة الأخـيرة، تمـاوجَ منخـراه. "عليـك أن تكـون موزيكـو قبـل أن تتمكَّـن مـن الغنـاء كموزيكـو".

وصلنا إلى منزله.

"لكنني كذلك"، همستُ بخجل، "أنا موزيكو".

"لا"، قال بقسوة، وطقطقَ بلسانه. "أنت طواشيٌّ". تحدَّتني تحديقته على أن أشكِّكَ في هذه الحقيقة. فتح بوريس الباب للعربة. "وأنا موزيكو".

"إذا علَّمتني الإيطالية ربما يكون بمقدوري...".

رفعَ إصبعًا لمُقاطعتي. "سأعلِّمك ما يجب أن تعرفه". قال، ثم تقدَّمَ وأنا في إثره إلى منزله.

* * *

كنتُ ظلَّه. تمامًا كما لم يكن يذهب قطُّ إلى أيِّ مكان دون ملابسه الأنيقة، وعربته الفخيمة، والابتسامة المُتكلِّفة المُبتهجة على وجهه، لم يكن يخطو إلى أيِّ مكان بدوني أسيرٌ في أعقابه، كتلك الكلاب (*chiens*) منفوشة الوبر التي تسحبها السيدات الفرنسيات وراءهن بالرَّسَن.

طوال أسبوعين لم يؤدِّ أيَّ غناء، وكان درسه الوحيد لي أنه أعظم مخلوق على هذه الأرض. كنتُ في منزله، أتناول العشاء معه، أتبعه في أنحاء ڤيينا متى أحبَّ؛ يرسلني بعيدًا عندما يتطلَّبُ صيده الحميمية والخصوصية. أحمل معطفه عندما يكون الجوُّ دافئًا، أفتح الأبواب حين لا يتوفَّر بوَّاب. أدلف إلى الحفلات الساهرة عند مِرفقه، حتَّى تُفرِّقنا حشود المُعجبين.

في حفلتنا الساهرة الأولى، بعد أن أزاحني المُعجبون إلى زاوية مُقفرة، ظهرَ بغتةً مُمسكًا بذراعَيْ شقيقتَيْن؛ ابنتَيْن حمقاوين لدوقٍ ما. بدا أنفاهما التوأم الخشنان وكأنهما يتهدَّلان فيما يُمرِّرهما إليَّ، لكن فور أن اختفى مُجدَّدًا في الزحام، استدارتا إليَّ بابتسامتَيْن مُتطابقتَيْن وقالتا، اجعلنا مِلكك.

"ما اسمك *Comment t'appelles-tu*؟" قالت الفتاة الأقل بشاعةً بقَدْر طفيف من شقيقتها.

ضيَّقتُ عينَيَّ تجاهها، ساعيًا أن تُشرِّح أذناي هذا السؤال البسيط الذي قد يكون مفتاحَ هروبي. لكن هذا كان بلا فائدة.

"آها"، جرَّبت. "هممم". تضاحكت الشقيقتان والتصقتا بصدري بدفءٍ أكبر. حاولتُ التراجع، لكن سرعان ما وجدتُ نفسي مُثبَّتًا على الجدار. لمحتُ سيدي في الحشد. غمزَ لي.

أغلقتُ عينَيَّ وتظاهرت أنني جرسٌ يتدلَّى بصمتٍ في الزاوية. عندما فتحت عينَيَّ مُجدَّدًا، كانت الحفلة الساهرة قد فَرَغت بالكاد ووجدت الشقيقتان فريسةً أخرى أكثر انصياعًا.

* * *

ولا لثانية واحدة غابَ هدفي عن ناظريَّ. عبر مُعلِّمي الجديد كنت سأجد فرصة للدخول إلى سجن أماليا(تي)، لكن ثلاثة أسابيع بدت كانتظارٍ أبديٍّ؛ لهذا لم أتخلَّ عن فكرة النجاح بطرقٍ أخرى. في الصباح، عندما ينام جوداني أو يرسلني بعيدًا، كنتُ أتسكَّع في الشارع المُواجه لقصر ريشر، على أمل أن أراها بشكلٍ خاطف في واحدة من العربات التي تغادر البوابة. تخيَّلتُ الركض بجوارها فيما أُغنِّي رسالةً سرِّيَّة. "أوقفوا العربة!" ستصيح هي، ثم تهبط وتعانقني في الشارع، ثم يُهلِّل كل بائس مسكين آخر في ڤيينا لاتِّحادنا مُجدَّدًا.

وا أسفاه، لم يكن هذا ليحدث أبدًا. كانت ستائر العربات مُسدلة دائمًا، وأبدًا لم تُطلَّ عينان زرقاوان متألِّقتان من بينها. أحيانًا في الليل كنتُ أتسلَّل إلى القصر وأتفحَّص الواجهة الخارجية لإيجاد طريقة جديدة ما للدخول خلسةً. لكنني وجدتها محكمة الإغلاق أفضل من أيِّ منزل في سانت غال. ذات ليلة حاولتُ تسلُّق الحوائط لمعرفة ما

إذا كان من الممكن اقتحام نافذة علوية ما. عندما وصلتُ إلى ضعف طولي من عن الأرض خذلتني أصابعي. في الصباح ازرقَّ كاحلي وتورَّم.

كل يوم، في الظهيرة، لساعتين مُباركتَيْن، كان سيدي يُغنِّي. كان يتمرَّن في الأغلب على مسرحية أورفيوس الجديدة التي كتبها جلوك، مُكرِّرًا الألحان والإلقاءات المُنغَّمة مرَّةً تلو الأخرى حتَّى يصل إلى تلك الدقة التي اشتهرَ بها. أحيانًا ما كان يختار ألحان آريا أخرى (من مقطوعات هاندل غالبًا) يرغب في إبقائها مشحوذةً حتَّى يجدها عندما يحتاج إلى سلاحٍ في صيده. كنتُ أستلقي على أريكتي وأنصت لتشكيلِه الموسيقيِّ الاستثنائي يتردَّد عبر المنزل. أستظهر الموسيقى فيما بوريس المُطيع يجلب لي الشاي والكعك. "نعم يا سيدي"، يقول عندما أطلب كأسًا أخرى. و"لا يا سيدي"، عندما أطلب منه الجلوس واحتساء الشاي معي. في بضعة أيام فحسب، تحوَّلتُ من فلاح بائس أدنى منه بكثير إلى سيدٍ ثانٍ يعلوه بمسافات. الرِّفقة، تقول كل نظرةٍ عابرة من وجهه، هذا ما لن نجده معًا أبدًا.

مَسَّني غناء جواداني في أعماقي، لكن سرعان ما استحوَذَت عليَّ الألحان في الشكل الذي كان ينبغي أن تتَّخذه -أو كان لها أن تتَّخذه- لو غنَّيتُها أنا. أدركت أذناي المُدرَّبتان نقائص جواداني، والتي كانت كثيرة في الحقيقة؛ ولهذا كان ما وصلَ إلى سمعي في النهاية خليطٌ ضبابي من أغنيَّته والأغنيَّة التي في خيالي. كنتُ لأغنِّيها بنفسي، ربما كنتُ لأتهوَّر بما يكفي لأثبت لجواداني أنني قادر على الغناء، لكن مع اقتناص أذنَيَّ للأصوات، كان انتقالها إلى شفتَيَّ ولساني سيستغرق وقتًا. كان عليَّ أن أتعلَّم الإيطالية، أن أقرأها بحيث أستطيع إدراك أشكالها ومعانيها. لكن مُعلِّمي يحول بيني وبين ذلك. عليَّ أن أجد مُعلِّمًا آخر.

ثم وجدتُه ذات يومٍ: ذئبٌ عابسٌ، محصورٌ في زاوية.

(7)

كنتُ أسير في قلب المدينة، ضائعًا في تلك الشوارع التي تشبه المتاهة، بعدما ترصّدتُ خارج قصر ريشر حتّى الظهيرة، وقرّرتُ تجربة مسار أكثر مباشرةً إلى المنزل. كنتُ تائهًا الآن، وبالتأكيد فوّتُّ موعدي مع سيدي، لتناول العشاء مع أميرةٍ وشقيقتها. بحثتُ عن علامةٍ مألوفة، أو حتّى لوثر مُتخابث، لكن الشارع كان خاويًا، أو خاويًا تقريبًا؛ ذلك أن رجلًا واحدًا كان ينتظر عند مدخل منزل بكتابٍ قريبٍ من وجهه. لم أتمكّن من رؤية شيء من جلده سوى يديه المُشعِرتَيْن. كان يرتدي ملابس مُهندمة، لولا أنها كانت مُتغضّنة حول فخذَيْه وكأنها شوال مشدود على خصره. لم ألقِ له بالًا، حتّى مررتُ به، وحينها أبدى سعلةً مُنظِّفةً للحلق واجترع الهواء كأنه سائل.

ذلك الصوت!

ملأني ببهجة، وكأنه الشمس تخترق السحب في شتاء بارد. انتزعتُ الكتاب عن وجهه ووثبتُ ناحيته. ظنَّ أنني قاطع طريق وحاول ضربي. لكنني ثبَّتُّه في مكانه.

"ريموس!" هتفت. "هذا أنت حقًّا!".

كان صديقي! تلك التقطيبة البشعة! ذلك الشَّعر المُشعَّث! ذلك الأنف المعوجُّ! ناديتُ اسمه ثانيةً في بهجة. ذلك الاسم، الذي لم يخاطبه به قطُّ سوى شخصين فحسب، كان كالتعويذة. ذابت التقطيبة. صار ذلك الوجه، الذي لم يكن قطُّ سعيدًا وحزينًا؛ سعيدًا وحزينًا في آنٍ. ضغطَ بوجهه في ياقتي، وانتحبتُ في شعره المُلَبد وكأنني أستقي دموعي من بحيرةٍ.

"موسى! أنت هنا!".

"وأنت كذلك!" قلت. "في ڤيينا!".

"رفضوا استقبالنا في مِيلك. لا بُدَّ أن شتاوداخ قد أرسل بخطاب. حاولنا أن نرسل بخطابات إليك، لكن أخشى أنها اعتُرِضَت".

"لقد اعتُرِضَت". قلت.

"حمدًا للرَّبِّ أنني وجدتك الآن! العالم شاسع جدًّا".

"هناك الكثير لأحكيه لك!" قلت.

"انظر إلى ملابسك"، هتفَ، دافعًا إيَّاي حتَّى يتمكَّن من إلقاء نظرة على معطفي الموشَّى، ثم عانقني بقوَّة مُجدَّدًا. تقدَّم في العمر -بشعره الرمادي، لم يكن هناك شكٌّ في ذلك- لكنني كنتُ على ثقة أنه لم يَبدُ بخيرٍ هكذا قطُّ. لوهلة تخضَّب وجهه.

"ونيكولاي! أين نيكولاي؟" تطلَّعت من حولي آملًا، وكأنني أتوقَّع أن يظهر بغتةً من أحد الأبواب مُنشدًا أغنية راقصة مَرِحة.

تصلَّبَت ابتسامة ريموس. أومأ بتجهُّم. "إنه هنا"، قال.

أجفلتني نبرته. "ريموس، ما الأمر؟".

أجالَ ريموس بصره عبر الشارع، كان ريموس العجوز، الذي لم يكن لينظر في عيني، قد عاد. "نيكولاي تغيَّرَ كثيراً. إنه مريض".

"مريض"، قلتُ، عاجزًا عن تصديق أن الدُّبَّ قد يصاب بأيِّ مرض. "لكن هل سيتحسَّن قريبًا؟".

هزَّ رأسه وأشاحَ بنظره. استغرق في الصمت.

"أخبِرني يا ريموس. أنا صديقه".

أومأ. "أعِدُكَ بأن أخبرك بكل شيء. لكن أولًا، من الأفضل أن تراه. احكم بنفس. رؤيتك سترفع من معنوياته حقًّا".

"إذن فلم ينسَني؟".

"ينساك؟" ضحك ريموس، ضحكةً قاسية وحزينة للغاية -لم أتذكَّر أنني سمعتُه يضحك قطُّ- لحدٍّ أنها أجفلتني. وضع يدًا على ذراعي، وأدارني إلى الشارع. "لا، لم يَنسَك. تعال، أنا في انتظار تلميذي ليفتح الباب، لكنه كان يشرب طوال الليل ولن يستيقظ ليتعلَّم درس اللاتينية. لن يخبر أباه، وبالتالي سيدفعون لي أجري. لا أحد يخسر، باستثناء القديس أوغسطين".

كانت الأعوام الخمسة هذه قد غيَّرت ريموس. كانت خطواته سريعة، ولم يتردَّد فيما يقودني يسارًا ويمينًا عبر الشوارع الحلزونية. "هذا مملوك للأمير لاينبيرج"، قال، مُشيرًا لقصرٍ ذي نوافذ مُغبرَّة. "وذلك المسخ الهائل"، هزَّ رأسه تجاه قصر جديد بأحصنة رخامية تنتصب خارجةً من كل زاوية، "مملوك للكونت كيرسكي. وذلك، للأمير بارهايني؛ وذلك، للكونت ڤون بام".

"كيـف يمكــن أن يوجــد أمــراء وكونتــات كثــيرون هكــذا في مدينــة واحــدة فحســب؟" ســألته.

ضحــكَ. "لا، يــا مــوسى. ليســت مدينــة واحــدة. بــل إمبراطوريــة واحــدة. وحتــى مــع هــذا فهنــاك الكثــير جــدًّا منهــم. البعــض يحكــم أراضي بعيــدة؛ البعــض لا يفعــل ســوى زيــارة ڤيينــا مــن وقــت لآخــر. آخــرون لا يســتطيعون إيجــاد ضَيْعاتهــم عــلى خريطــة. وآخــرون لا يملكــون أراضي عــلى الإطــلاق، بــل مجــرَّد لقــب. النــاس عــلى اســتعداد لفعــل الكثــير لينالــوا لقــب "كونــت". وهكــذا، عندمــا تحتــاج الإمبراطــورة إلى أمــوال مــن أجــل حروبهــا، تغــصُّ هــذه المدينــة بالنُّبــلاء".

قــادني عــبر الميادين الخـضراء للمـرة الأولى منــذ وصــولي إلى المدينــة. تركنــا القصــور الحجريــة لقلــب المدينــة وراءنــا مُتَّجهــين إلى منــازل ضواحــي المدينــة نصــف الخشــبية. هنــا كانــت الشــوارع أضيــق؛ والأصــوات البشريــة أقــل رُقيًّــا: الأطفــال تتراكــض بــلا أحذيــة فيــما أمَّهاتهــم يُعنِّفنهــم مــن نوافــذ مفتوحــة؛ رجــال يبصقــون في الشــارع بــدلًا مــن المبصَقــة؛ الأبقــار ترتــع في أكــوام المُخلَّفــات في الشــارع بــدلًا مــن ربطهــا في حظــيرة.

ثــم وصلنــا إلى جــزءٍ مــن المدينــة كان بمقــدوري التَّعــرُّف عليــه بأصواتــه المُخزيــة: إلحاحــات الغانيــات مــن أبــواب ونوافــذ الحانــات المتهالكــة التــي تصطــفُّ عــلى طــول الشــارع الرئيــسي في الحــي. رآني ريمــوس أحــدِّق في ذهــول في كل سيدة مُلوِّحــة. "مرحبًــا في سبتلبيرج"، قــال. "موطننــا للثلاثــة أعــوام الفائتــة. في الحقيقــة، لا يوجــد مــكان أفضــل لنــا؛ ذلــك أنــه لا يوجــد مــكان أكــثر بُعــدًا عــن ديــر شــتاوداخ". لــوَّح بيــده إلى الشــارع كدليــل عــلى مــا يقولــه. كانــت النســوة يلقــين بأســطال المــاء القــذر في طريقنــا مباشرة. والرجــال يدفعــون بعربــات يــد مُحمَّلــة بثــمار كُرنــب حامضــة الرائحــة. إلى ذلــك كلــه، كانــت الشــوارع تغــصُّ بالأطفــال؛ يفيضــون مــن المنــازل، يصرخــون مــن النوافــذ المفتوحــة، ينغــزون العصيــان في الفضــلات المُتعفِّنــة

على طول الشارع. في دفء أواخر الصيف، قليلون كانوا يرتدون القمصان ولا أحد يرتدي أحذيةً. فتاة صغيرة تجلس فوق أخرى وتدغدغها؛ شقيقتها الصغرى لا بُدَّ؛ ذلك أن كلتيهما كانتا بشعرٍ مُحمَرٍّ متوهِّج. أربعة صبيان يقفون على ركام حانة مُهدَّمة ويتصايحون بقواعد لعبة لم أفهمها. "تمَّ اختياره"، صاح أحدهم. "ثلاثة أحجار! ثلاثة".

لامَسَت يد ريموس مِرفقي، ليُعيدني إليه. "لم يكن الأمر هكذا دائمًا. قبل مائة عام، كان التُّجَّار من الجنوب والشرق يتوقَّفون هنا عندما يزورون المدينة الإمبراطورية. هذا الشارع الموحل كان مرصوفًا بالحجارة. هذه الحانات الرمادية الكابية كانت زاهية وبرَّاقة. كانت العربات تتزاحم في كل فناء. لكن الجيش التركي حاصرَ هذه المنطقة، لثمانية أشهر في عام 1683. استولوا على كل شيء ذي قيمة، ودمَّروا كل ما ليس له قيمة". أومأ ريموس إلى حانة مهجورة. لم يتبقَّ منها شيء سوى الواجهة الباهتة. على الجانب الآخر من النوافذ الخاوية كانت بضعة صبيان مُغبَّرين يسحقون الركام إلى تراب. "ابقَ بعيدًا عن الأزِقَّة في الليل"، تابع ريموس. "وإذا كنتَ تحمل أيَّة نقود، راقِبْ جيوبك".

وصلنا إلى عدَّة أزقَّة تؤدِّي صعودًا إلى تلٍّ، وفي زاوية واحدٍ منها توقَّفنا أمام منزلٍ من طابقين. كان في حالٍ أفضل من كثيرٍ من المنازل في الحيِّ، رغم أنه يميل إلى الجانب قليلًا. كان الطابق الأرضي يشبه حانة صغيرة، بكلمة واحدة مكتوبة على الباب: *Kaffee*.

"هنا"، قال ريموس. كانت القاعة الوحيدة مزدحمة برجالٍ على مقاعد طويلة. جميعهم يحتسي نفس السائل المُتبخِّر، ذي الرائحة اللاذعة، الفظَّة. بدا وأنه شراب مُتخمِّر سحري؛ ذلك أنهم كانوا جميعًا أسرى لنفس الحيوية مُتَّسعة الأعين. كانوا يخبطون على المناضد

ويبصقـون بأحاديـث ذاتيـة مُلحَّـة في آذان بعضهـم البعـض. في الخلفيـة مـن كل هـذا، كان رجـل بشـعرٍ كشـعر الغربـان يلعـب دور المشـعوذ؛ يطحـن حبـوب فاصوليـا، سـوداء كالمـوت، إلى مسـحوق ناعـم قبـل خلطهـا مـع مـاء مغـلي مـن سـيماور.

تَبِعـتُ ريمـوس إلى دَرَجٍ في الخلفيـة. توقَّـف صديقـي ووضـع يـدًا عـلى كتفـي. "لا تفـزع"، قـال، مُفزِعًـا إيَّـاي. "هنـاك أيـامٌ سِـمان وأيـامٌ عجـاف".

ارتقينـا الدرجـات الضيقـة، المُلتفَّـة. فتـح ريمـوس البـاب ودعـاني للدخـول إلى مسـكنهم المكـوَّن مـن ثـلاث غـرف: ردهـة اسـتقبال، وغرفـة نـوم منفصلـة لـكل رجـل وكل هـذا معًـا، كان أصغـر مـن صومعـة نيكـولاي في الديـر. في ردهـة الاسـتقبال كان السـقف يرتفـع مسـتندًا عـلى عـوارض مائلـة. قبالـة واحـدٍ مـن الجـدارن كانت مدفـأة خاوية. والسـتائر السـميكة تغطِّـي النوافـذ الصغـيرة الثلاثـة؛ لذلـك لم يكـن هنـاك سـوى وهـج خافـت، غـير مبـاشر، ينـير المـكان. أكـداس مـن الكتـب كانـت مكوَّمـةً عـلى المناضـد وعـلى الأرض عـلى طـول الحوائـط، والهـواء خانـق برائحـة التبن المُتيبِّـس.

كان أحدهـم يجلـس في مقعـد ذي مسـندَيْن، ظهـره ناحيتنـا، لكنـه كان رجـلًا في غايـة الضخامـة لحـدٍّ أنـه حتَّـى في الظـلام كان بإمـكاني تبيُّن أنـه صديقـي.

"نيكـولاي!" هتفـتُ وقـد اختفـى كل التوجُّـس مـن صـوتي. خطـوت حـول المقعـد حتَّـى أتفحَّـص وجهـه.

* * *

لسـنوات طويلـة بعدهـا، رأيـتُ ذلـك الوجـه البشـع في النـواصي المظلمـة لمـدنٍ كثيرة: اسـتدارته المتورِّمـة؛ آثـار القـروح التـي شُـفِيَت منـذ زمـن طويـل وتحوَّلـت إلى نـدوب؛ الأنـف الناعـم، المشـوَّه، وكأن الـدود قـد

التهم غضروفه. كان ما يزال رجلًا ضخمًا، لكن الآن كان مستديرًا فيما كان رِبعةً من قبل. كان شعره ولحيته رماديَّيْن، وجلده شاحبًا.

"مَن هناك؟" سأل. اتَّجهت عيناه ناحيتي، لكن رفرفة جفنَيْه وشت بإخفاقهما. لا بُدَّ أنني بدوتُ ظلًّا بالنسبة له.

"سأفتح الستائر حتى ترى بنفسك"، قلت، محاولًا أن أبقي صوتي هادئًا وثابتًا.

"لا!" هتفَ بينما أمدُّ يدي نحو الستائر. هزَّ ريموس رأسه وهمسَ بأن عينَيْ نيكولاي لا تحتملان الضوء.

فما كان منِّي إلَّا أن ركعتُ بجوار صديقي القديم، أمسكت بذراعه، واقتربت بوجهي من وجهه حتَّى أتبيَّن الشحوب الإسفنجي لهذه الصمغات السِّفلسيَّة تحت جلده. جاهَدَت عيناه للتركيز على وجهي. شهقَ بغتةً. رفعَ يدًا مُرتعشةً ليُلامس خدِّي.

"هل هذا حقيقي يا ريموس؟ قل لي إنه حقيقي!".

"نيكولاي، إنه هو حقًّا. لقد جاء موسى إلى ڤيينا".

"ليباركنا الرب!" هتفَ نيكولاي وتناولَ يدي في كلتا يديه المتورِّمتَيْن وقرَّبني من صدره. انتحب على شعري، وبكيتُ على صدره، ثم رفع وجهه حتَّى ينظر إليَّ مُجدَّدًا. تمعَّن في كل تفصيلة بهاتين العينين الغائمتين حتَّى حفظها في ذاكرته.

"لقد كبرتَ جميلًا كما شِختُ أنا قبيحًا"، قال.

لم أعرف ماذا أقول؛ ذلك أنه حقًّا لم يكن ليمضي في الشارع دون أن يحدِّق فيه الناس وكأنه وحش مريع. لكنني لم أشعر بأيِّ نفور، أخبرته بهذا.

"أستحقُّ كلَّ هذا وأكثر"، قال.

"هراء"، قلت. "هذا هراء".

تطلَّع نيكولاي إلى ريموس ثم إليَّ. "ليس لديَّ شيء أفعله طوال اليوم سوى الجلوس هنا والتفكير في كيف خذلتُ الصديقَيْن الوحيدَيْن في حياتي".

"نيكولاي"، قال ريموس بحدَّة، "لا تَخُض في هذا الآن. ليس بعد. لنَكُن سعداء اليوم. لقد عاد موسى إلينا أخيرًا".

"وأبدًا لم أتُق إلى شيءٍ أكثر من هذا"، قال نيكولاي، والدموع تلوح في عينيه، "حتَّى أخبره كم أنا نادم على ما فعلتُه. على ما فشلتُ في فعله".

"فشَلت؟" قلت. "نيكولاي، كنتَ أبًا لي. أنقذت حياتي! أبدًا لم ألُمْك على أيِّ شيء".

هزَّ رأسه. "لم يكن ينبغي أبدًا أن أتركك مع ذلك الرجل. كان علينا أن نغادر الدير قبلها بسنوات. كان العالم مفتوحًا أمامنا، وضيَّعنا فرصتنا".

"نيكولاي"، ترجَّاه ريموس، "ليس الآن. ستَـ...".

"كان علينا أن نرحل!" جأرَ نيكولاي في صديقه ثم غطَّى عينيه بيديه المرتختين، المتورِّمتَيْن. أحنى ريموس رأسه.

سرعان ما تحرَّكت يدا نيكولاي من وجهه إلى صدغيه، وسمعتُ أنفاسه تضيق فيما يستولي عليه الصداع، وتلك التورُّمات الطرية داخل دماغه تحتقن بالدماء. انبعثَ أنينٌ أسيان من حلقه المشدود، كأنفاسٍ متثاقلة لرجلٍ يختنق.

تناولتُ ذراعه وحاولت تهدئته. "نيكولاي، هل هناك شيء بمقدوري فعله؟".

لكـن ريمـوس كان يعـرف العـلاج الوحيـد، وخطـا ليجلب صبغـة الأفيون التـي صـارت خَـلاصَ نيكـولاي الوحيـد مـن الآلام. لم تكن لمسـتي قـد فعلت أيَّ شيء سـوى أنهـا فتَحَـت عينَـيْ نيكـولاي مُجـدَّدًا. غـادرت إحـدى يديـه صدغـه وقبَضَـت عـلى رسـغي بشـدَّة، لحـدٍّ أنني خشـيتُ أن يحطِّمـه.

"اغفر لي أرجوك"، قال.

"لا يوجد شيء لأغفره".

ثـم عـاد ريمـوس، وصـبَّ الصبغـة في فمـه. لعَقهـا نيكـولاي بشراهـة. سرعـان مـا ذَوت عينـاه أكـثر، ثـم انغلقتـا. تراخـى في مقعـده.

وقفنـا أنـا وريمـوس وجهًـا لوجـه بجـوار صديقنـا لبضـع دقائـق، ثـم رفـع ريمـوس وسـادة وأسـند رأس نيكـولاي المُتهـدِّل. تلـكَّأت يـده عـلى خـدِّ صديقـه، كإيمـاءة حُـبٍّ لم أرَ مثلهـا مـن الرجـل قـطُّ.

ابتسم ريموس بحزن. "من الجيِّد أنك هنا يا موسى"، قال.

عانقتـه. كان جسـده مُتشـنِّجًا، غـير متجـاوب مـع لمسـتي، لكـن يـده عـلى ذراعـي لم تُفلتنـي لبضـع ثـواني. فيـما يفعـل، مسـحَ دموعًـا مـن عينيـه وأشـاح بنظـره، وكأنـه يشـعر بالعـار. قدتُـه إلى المنضـدة الصغـيرة المتهالكـة. جلـس عـلى مقعـدٍ وأخـذتُ الآخـر.

لدقائق طويلة لم يتحدَّث كلانا.

"خمسـة وأربعـون عامًـا"، بـدأ ريمـوس في الحديـث بغتـةً. "يَصعُـب تخيُّـل ذلـك بالـكاد. قـضى أكـثر مـن خمسـةٍ وأربعين عامًـا في ذلـك الديـر، وطـوال كل تلـك الأعـوام تقريبًـا كان يتحـدَّث عـن الرحيـل. كانـت معجـزة أنهـم قَبلـوه حتَّـى- ذلـك الطفـل الـذي تُـركَ أمـام كنيسـتهم ذات ليلـة. أبـدًا لم يكـن الديـر ملجـأ أيتـام، ومـع ذلـك، مـن أجـل نيكـولاي، وضعـوا اسـتثناءً.

عندمـا قابلتُـه أوّلَ مـرّة كان عمـلاقَ الهيئـة بالفعـل. كان الراهـب المُبتـدئ الوحيـد الـذي لم يرفـض التَّحـدُّث معـي. وجـدتُ تشـوُّقه للعالَـم الأوسـع لا يُقـاوَم، لا بُـدَّ أننـا تحدَّثنـا عـن رؤيـة ذلـك العالَـم كل يـوم تقريبًـا طـوال ثلاثـين عامًـا. ثلاثـين عامًـا! ودائمًـا، في النهايـة، كنـا نبقـى بسـببي: كتُبـي وحاجتـي للهـدوء. أبـدًا لم نغـادر المدينـة. وعندمـا غادرنـا أخـيرًا، وذهبنـا إلى رومـا، كل يـوم، مـن أول يـوم، أردتُ دومًـا أن نعـود، رغـم أننـي أحببـت كل دقيقـة هنـاك. يـا اللـه، كنـتُ في غايـة السـعادة في الڤاتيـكان! لكننـي كنـت أقـول لـه كل يـوم، 'نيكـولاي، لا بُـدَّ أن نعـود للوطـن'، كنـت أقـول. 'أريـد أن نعـود إلى الوطـن!'".

وضع ريموس يدًا أمام فمه. أخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع.

"تـرى، أبـدًا لم أسـتوعب وضعنـا. كنـتُ في غايـة الحماقـة. فقـط عندمـا رفضـوا اسـتقبالنا في مِيلـك كان أن أدركـتُ الأمـر بغتـةً: لقـد بقينـا في ذلـك الديـر مـن أجلـه، ليـس مـن أجـلي. ذلـك اليـوم، فيـما نسـير هابطـين إلى الدانـوب بعـد أن رفضـوا اسـتقبالنا، اسـتولى عـليَّ الرعـب. 'نيكـولاي، لا بُـدَّ أن نعـود!' هتفـت. 'لِنَعُـد إلى الجبـال. ديـرٌ مـا سـيقبلنا!' كنـتُ عـلى اسـتعداد للذهـاب إلى أيِّ مـكان، إلى أيِّ مـكان مُتعفِّـن يدعـو نفسـه ديـرًا. بـلا كتـب؟ لم أبـالِ. كنـتُ لأعيـش معـه في كهـفٍ منعـزل. 'سـنجد ديـرًا آخـر'، قلـت. 'لا يسـتطيع شـتاوداخ أن يكتـب إلى كل الأديـرة'. 'هـراء'، أجابنـي. 'ألا تـرى؟ لقـد أرسـلنا الـرَّبُّ إلى ڤيينـا! نحـن أحـرار! أحـرار أخـيرًا!' مـوسى، هـذه الكلـمات كانـت كاللعنـة بالنسـبة لي، كعقوبـة مُنزلـة".

اسـتغرقَ ريمـوس في الصمـت لبضـع ثـوانٍ. نظـرَ إليَّ في عينَـيَّ. ربمـا كانـت المـرة الأولى في حيـاتي التـي أتطلَّـعُ فيهـا بعمـقٍ هكـذا إلى عينيـه. بـدت الدمـوع غريبـةً للغايـة عـلى ذلـك الوجـه المُتجهِّـم. "جعلنـي أخـسر إيمـاني بالـرَّبِّ يـا مـوسى"، همـسَ، مُنحنيًـا أقـرب. "تلـك القداسـة ذاتهـا التـي عبدتُـه مـن أجلهـا منـذ اليـوم الأول للقائنـا، عندمـا كنـتُ في الخامسـة

عـشرة -ودفـع أبي أمـوالًا ليُحبَـس ابنـه ناقـص النُّمـوِّ بقيَّـة عمـره في الديـر- ثـم اسـتدعَت تلـك القداسـة ذاتهـا الشـيطانَ إلى هـذه المدينـة. قتـلَ رجـلًا. لا تخـبره. لـن يتذكّـر. رجـلًا كان قـد نعـتَ عاهـرةً بالعاهـرة، ثـم بصـقَ في وجهها. طـرحَ نيكـولاي هـذا الرجـل في الشـارع. ركلـة واحـدة كان كل مـا يحتاجـه لكسر عنقـه. هلّـلَ الجميـع وجلبـوا لـه الـشراب فيـما جـررتُ أنـا الجثّـة إلى النهـر.

"لقـد أحبُّـوه. احتـسى شـمبانيا الدوقـات وشـنابس الفلاحـين. لم نحتَـج إلى أمـوال. كانـت لديـه ابتسـامته وضحكتـه. 'القديـس بيندكـت وذئبـه!' كانـوا يهتفـون مـن نوافـذ القصـور، ومهـما كان الوقـت متأخـرًا، كنـا نضطـرُّ للتوقـف لاحتسـاء الـشراب. كثيرًا مـا كنَّـا نبيـت ليلتنـا مـن أجـل أغنيـة. الرجـال والنسـاء. الأمـراء والعاهـرات. لَقـيَ حُبًّـا منهـم جميعًـا.

عندمـا ظهـرت القـروح، صـارَ ميّتًـا في أعينهـم بغتـةً. أرسـلَ إليـه واحـدٌ مـن المريديـن بطبيـب، مـلأ جسـده بالزئبـق حتّـى لم يَعُـد قـادرًا عـلى الأكل لشـهر. نسـيه الباقـون، حتّـى عندمـا طـرقَ عـلى أبوابهـم. في النهايـة، أقـامَ هنـا فحسـب، ولم يخـرج قـطُّ. يُحـدِّق في كل قرحـة جديـدة لسـاعاتٍ ويراقبهـا تظهـر. يراقـب جمالهـا يخبـو، يحـدِّق في مرآتـه لسـاعات كل يـوم.

ثـم ذات يـوم، بعـد عـامٍ مـن هـذا، اختفـت القـروح. ورغـم أنـه صـارَ قبيـح الوجـه، انطلـق يـصرخ في الشـوارع، ويقتحـم الحفـلات ويصيـح، 'لقد شُـفيت!' لكنـه لم يُشـفَ. بـدأت عينـاه في الإعتـام وازدادتـا حساسـيةً تجـاه أوهـى ضـوء. ثـم ظهـرت التَّـورُّمـات -عـلى ذراعيـه وعـلى عنقـه- ومعهـا جـاءت الآلام. أسـتيقظ ليـلًا لأسـمعه يـئنُّ. بـدأت أنفـه في التَّهـدُّل، بَـدَت عظامهـا وكأنهـا تتحلّـل، وكأن بمقـدوره أن يحملهـا في أصابعـه".

اسـتدارَ ريمـوس، وتطلّـع كلانـا إلى صديقنـا النائـم. بـدا المقعـد الكبير ذو المسـندَيْن وكأنـه مقعـد أطفـال؛ انسـدلَت ذراعـا العمـلاق عـلى المسـندَيْن، وتفلطَحـت ركبتـاه. كانـت الوسـادة قـد انزاحـت، وسـقطَ رأسـه للأمام.

"وكنتَ أنت وحيدًا تمامًا"، قلت.

أومــأ ريمــوس. "لكــن أليــس هــذا مــا تُقــتُ إليــه دومًــا؟ أنــا وهــو وحدنــا؟ في كهفنــا الوحيــد؟ ربمــا نلنــا مــا نســتحقُّه حقًّــا".

(8)

عندما يصفو الجو ولا يَعود لجواداني أيُّ تسلية أخرى، كان يأمرني بالدخول إلى عربته ويأمر حوذيّه بأخذنا إلى غابات براتر أو إلى مُتنزَّهٍ ملكي آخر كان مسموحًا له بدخوله، ثم نقود لساعات على طول الطُّرق التي شيَّدها الإمبراطور لرحلات صيده. كنت أمقت تلك الأيام؛ ذلك أنها كانت تحرمني فرصة التَّسكُّع في الشوارع المحيطة بقصر ريشر. فيما نمضي بالعربة، دائمًا ما كنت أخشى أنه في هذا اليوم بالذات، من بين كل الأيام، ستختار محبوبتي اتِّخاذ بضعة خطوات في الشارع.

لكن في واحدة من تلك الظهائر، عميقًا في غابات براتر، بتسليتي الوحيدة متمثِّلةً في نداءات الطيور على الأشجار وعجلات العربة على الحصى، قرَّرتُ أن أثبت لسيدي أنني أيضًا، لديَّ عقل. أنني، أيضًا، لديَّ قلبٌ مُتَّقد. سأثير مسألةً في غاية الأهمية لكلينا. سألتُ جواداني، "سنيور، مَن أخصاك؟".

حبستُ أنفاسي، منتظرًا ردَّة فعله. أغلق عينيه وهزَّ رأسه ببطء.

"شقيقي *Mio fratello*"، قال، "هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ألّا تسأله أبدًا لموزيكو".

اعتذرتُ وأغلقت فمي.

لكنه ابتسمَ بعدها. "أنا آسف. كيف لك أن تعرف قواعد كهذه؟ أنتَ، من بين كل الناس، تستحقُّ إجابة. وسأمنحك إيَّاها: أخصتني إيطاليا".

تخيَّلتُ جيشًا من الرابوتشيين يزحف عبر الأراضي الإيطالية تحت قيادة ملك شيطاني ما بتاجٍ على رأسه. لكن لم يكن هذا ما يعنيه سيِّدي. رفع إصبعًا.

"شقيقي *Mio fratello*، المخصيُّون قدماء قِدَم السكاكين التي تشقُّهم -لا توجد ثقافة تخلو من هذه البربرية- وأمثالنا أنا وأنت من طبقةٍ فريدة بين المخصيِّين. تفكَّر: في مصر القديمة، واليونان وروما، في الهند، وفي الأراضي الإسلامية، طالما كان شَقُّ الإخصاء إهانةً. أن تُشقَّ يعني أن تنحدر من طبقة الرجال إلى شيءٍ أقل، شيءٍ بسيط، شيءٍ مُروَّض".

"في لندن"، تابع، "روى لي رجلٌ ذات مرة حكاية عن الطواشيِّين الصينيين، الذي يتألَّفون من طبقةٍ من الخَدَم في تلك الأراضي. بعد انتهاء العملية، يتلقَّى هؤلاء الصبيان أعضاءهم منقوعةً في الخلِّ في جَرَّةٍ من الفخَّار. يحتفظون بهذه الجرَّة معهم دائمًا. يضعونها على رفٍّ. يدعونها *Pao* عندما يتوقون إلى ترقية، أو تغييرًا في الوظيفة، يجلبون هذه الـ *Pao* معهم إلى ربِّ عملهم الجديد، الذي يرفع الغطاء ويفحص ما فقده الرجل، وكأنه دليل على شخصيته".

ابتلعتُ ريقي، شددتُ ياقتي. ضحك جواداني. "هل يصيبك هذا بالاشمئزاز؟" سأل. "لماذا قد يصيبك بالاشمئزاز؟".

"هل يجب عليهم... أن يحتفظوا به"، همست. "في جرّة؟".

"نعم"، قال. "في شراب روحي. أعتقد أنهم يغيّرون السائل مرّةً كل عام حتى لا يغيم. يُفترض أن يُرى الشيء بوضوح".

"أرجوك لا تتحدّث عن هذا".

ضحك بخفوت. "حسنًا"، قال. "لا مزيد من الـ *Pao* المُخلَّلة. سأخبرك بدلًا من ذلك عن اليونان وروما، هاتان الحضارتان الشهيرتان. هناك كانوا يشقُّون الصبيان كتشذيب الشجيرات؛ خمسون صبيًا -أو أكثر- كل مرّة، رغم أن عشرين من كل دفعة يموتون بسبب جروحهم. 'شقٌّ حتى البطن' كان يسمُّون العملية؛ لا يبقى سوى ثقبٌ صغير. كان هذا التشويه يروِّضهم، هكذا فكَّروا؛ ولهذا كانوا النوع الأكثر رواجًا من العبيد. لا يعملون في حفر الحُفَر أو غسل الأرضيات. يرتدون ملابس مُذهَّبة، وتُصقل أجسادهم بالزيت، يطعمون سادتهم، يصبُّون النبيذ، ويدلِّكون الظهور الهَرمة. كانت أجسادهم أوعيةً يستمتع بها سادتهم. ربما كان نيرون السيد الأكثر بشاعةً من بينهم. كان لديه صبيٌّ عبد، سبوروس، أحبَّه أكثر من بقية العبيد. طفل بريء، جميل. أمرَ الجرَّاح بأن يقطع كل أثرٍ لعضو سبوروس الرجولي، وبعدما شُفيَ الصبي، ألبسه نيرون وشاحًا عرائسيًا وتزوَّجَ الطواشيِّ الصغير. ثم أفقده عذريته على الفراش الإمبراطوري".

الآن كنتُ أتنفَّس بالكاد. كنت أدرك أن صبيانًا كثيرين عانوا مصيرًا بشعًا كمصيري، لكني أدركت الآن أن كثيرين عانوا مصيرًا أسوأ... أسوأ بكثير جدًّا.

"هلّا توقَّفنا لوهلة"، سألت بضعف. "أودُّ أن أتمشَّى قليلًا".

"لكن هذا لا شيء"، استمرَّ سيدي في حديثه الساحج، صوته الثابت وكأنه يُمسمرني في المقعد. "نيرون وسبوروس(ـه). مسألة لطيفة للغاية في الحقيقة، عندما يتأمل المرء في الأمثلة الأخرى. اقرأ إنجيل متّى. هذا

الحـواريُّ يُبجِّـل النبـلاء مـن 'الخصيـان الذيـن خصـوا أنفسـهم'[1]. يـا إلهي! يختلـف الأمـر كثـيرًا بـين أن تجعـل آخـر يقـوم بالشَّـقِّ، عـلى أن تقـوم بـه بنفسـك. وكـم مـن أنـاسٍ شرَّحـوا أنفسـهم بالخناجـر اقتـداءً بحكمـة متَّـى؟ الآلاف. أحبـارٌ، متصوِّفـون، حمقـى. قـرأتُ ذات مـرة عـن طقـسٍ انتشـائي: في (يـوم الـدَّم)، يحتشـد الرجـال عـلى جبـل، ومعًـا، مقيمـين صلواتهـم لإلـهٍ عطـوفٍ حنـونٍ مـا، يشـوِّهون أنفسـهم بشـظايا آنيـة فخَّاريـة مكسـورة".

فتحـتُ البـاب ليدخـل بعـض الهـواء، رغـم أن العربـة مـا زالـت تتقافـز قُدمًـا. نقـرَ مطـرٌ خفيـف عـلى حـذائي، لكـن الهـواء كان كقماشـة بـاردة، رطبـة عـلى جبينـي المُتَّقـد.

ضحـكَ جـواداني وجـذبَ خصلـةً مـن شـعري، وكأنـه شـقيقٌ أكـبر. "شـقيقي *Mio fratello*، لا تفكِّـر في الأمـر كثـيرًا، ألا تـرى؟ هـؤلاء البانسـون المُحطَّمـون لا علاقـة لهـم بنـا. نحـن طبقـة مختلفـة؛ مـا جعلهـم عبيـدًا مهانـين جعلنـا آلهـة مُبجلَّـين. حتَّـى أنـت، وإن لم تكـن ثريًـا، أو معروفًـا لأيِّ أحـد. أبـدًا لـن يُجـبرك أحـد عـلى إظهـار مـا فقدتَـه. أبـدًا لـن تفقـد احترامـك أمـام ربِّ عملـك. أبـدًا لـن يأمـرك أحـد بالاسـتلقاء عـلى وجهـك عـلى فـراشٍ. لقـد اختفـى ألمـك منـذ سـنين، لـن تمـوت بسـبب جَرحـكَ".

تنـاول يـدي في يـده ورفعهـا عاليًـا في الضـوء. "انظـر يـا شـقيقي *mio fratello*، انظـر إلى مـا منحـكَ هـذا الشَّـقُّ. لا يوجـد رجـل بهاتـين اليديـن الجميلتـين. وهـذه الأصابـع البديعـة! وانظـر إلى هـذا". لامـسَ خـدَّه ذاتـه، المطـلي بشـكل خفيـف لزيـادة توهُّجـه الطبيعـي. "لا يوجـد رجـل لـه جلـدٌ رائـق كهـذا؛ البثـور هـي محنـة غـير المخصيِّـين وحدهـم. وإلى ذلـك كلـه، انظـر كـم هـم قصـار القامـة وكـم ننتصـب نحـن عاليًـا". وضـع يديـه

(1) الآيـة كاملـةً: «لأنـه يوجـد خصيـان وُلِـدوا هكـذا مـن بطـون أمهاتهـم ويوجـد خصيـان خصاهـم النـاس ويوجـد خصيـان خصـوا أنفسـهم لأجـل ملكـوت السـماوات مَـن اسـتطاع أن يقبـل فليقبـل»، إنجيـل متَّـى (19:12). (المترجـم)

على صدره، المنتفخ تحت المعطف الموشَّى. "هل يوجد رجل له صدرٌ كهذا؟ رئتاي بضعف حجم أفضل مُغنٍّ غير مخصيٍّ في العالم. عليَّ أن أشكر الشقَّ القاسي على هذا أيضًا. كان سحر الشَّقِّ هو ما جعل أضلاعنا تنمو طويلًا هكذا. وهناك المزيد: أعظم كنوزنا يستلقي مختفيًا حتَّى نغنِّي". رفع إصبعًا وحدَّق إليَّ، وكأنه يتحدَّاني على تخمين إلى أين يشير. ثم أشار أخيرًا إلى منتصف عنقه. "لديهم ذلك الشيء الناتئ القبيح، تفاحة آدم *la pomme d'Adam*، يبرز من حلوقهم. ومُجرَّد أن تفكِّر أن صوتهم يبدأ من ذلك البروز الأعوج! غير صالح للغناء كآلة كمان بعنقٍ مُتشظٍّ". دلَّكَ عنقه وكأنه يُدلِّك ظَهْر قطَّة. "على النقيض من ذلك، تظلُّ عُلب أصواتنا مُعلَّقةً، تتدلَّى حيث وضعها الرَّبُّ".

"ألا ترى!" هتفَ. قبضَ على ذراعي. "غناؤنا يجعلنا مختلفين للغاية عن أولئك المخصيِّين في العصور الأخرى. تعرَّضوا للشَّقِّ لأنهم كانوا فقراء، أو جميلين، أو تعيسي الحظ. شقُّوني، في صباي؛ لأنني كنت أغنِّي كعندليب؛ ولهذا، فالآن، هنا في ڤيينا، يطلبون منِّي أن أكون أورفيوس(هم)! طالما غنَّيتُ أورلاندو، وسليمان ويوليوس قيصر. هؤلاء كالآلهة بين البشر! لستُ خادمهم. بل أنا بَطلهم. أنا ملاكهم. أنا الذي يحلمون به عندما يستغرقون في النوم في الليل. أوه، وكم يقعون في حُبِّي بمنتهى السهولة! الحب بين امرأة ورجل طبيعي مسألة مُملَّة في أفضل الأحوال، وقذرة ومُخزية في أسوئها. لكن عندما أكون بصحبتهم، تتحوَّل رغباتهم إلى شلَّالٍ دافق. لا يوجد خوف لكبتها؛ لن يُحبَل بأطفالٍ هذه الليلة، لن يحدث زواج بالإجبار، لا عارٌ دائم. يدركون أن ذكرى لذَّتهم ستكون نقيَّة في الصباح، بلا ندم. الرَّبُّ لا يرفض أن يشارك ملاكٌ في أحلامهم الشبقة. ولهذا لا أمثِّل أورفيوس فحسب، لكن باخوس (النشوة) أيضًا. أحيانًا ما يسخر أزواجهن الأغبياء منِّي -أسمعهم يقولون إن سيفي لا يستطيع الطعن- لكن هم الحمقى

حقًّا. فتلك النغزة المندفعة من تجويف أحواضهم، والتي يحسبونها أعظم مآثرهم، يمكن استبدالها، واستيلادها، وتجويدها".

ابتسمَ جوادانِي بتكلُّف، وكأنه تذكَّرَ مثالًا حديث العهد على مصدر افتخاره. حدَّقَ إلى خارج النافذة حتَّى تلاشت ابتسامته، ثم استدارَ إليَّ. "ماذا كان سؤالك؟ آها، نعم: مَن أخصاني. أخبرتك أن إيطاليا هي مَن جعلتني ما أنا عليه. لا أستطيع لوم أبي فحسب، ولا فرقة المُهرِّجين *buffo* التي باعني لها، ولا الحلَّاق الذي دفعوا له لشَقِّي. بالتأكيد، أتمنَّى أن يحترق كل هؤلاء في الجحيم، لكن ذلك لن يكون سوى تعويض لا يُذكر، سواءً لي، أو لك، أو للآلاف من الصبيان الآخرين الذي يُشَقُّون كل عام في الأراضي الإيطالية. شقيقي *Mio fratello*، لقد شُقِقْنا بسبب جمال أصواتنا. شُقِقْنا لأنه في كل ليلة في كل مدينة إيطالية، تغنِّي الملائكة على خشبة المسرح ويعود كل رجلٍ لديه ابن إلى بيته يُفكِّر، هل يستطيع ابني أن يكون ملاكًا أيضًا؟".

كان الهواء البارد قد أنعشني من خَدَري، ورفعتُ عينَيَّ مجدَّدًا إلى سيدي. كان هذا الوجه الأملس ثابت الجأش، كما هو دومًا على خشبة المسرح، لكنني كنت سمعتُ رعشةً خافتة في صوته. تطلَّعَ الآن إلى خارج النافذة وكأنه لم يَعُد يتحدَّث إليَّ، بل إلى نفسه. "كثيرًا ما أسأل نفسي"، قال، "فيما أنحني احترامًا للمُصفِّقين، كم صبيٌّ تسبَّبْتُ في إخصائه الليلةَ بصوتي؟".

(9)

عندما طلبتُ من ريموس تعليمي الإيطالية، استقبل طلبي بجدِّيَّة فاجأتني. بدأنا في الاستذكار لساعتين، في كل يوم أستطيع فيه التخلُّص من جوادانِي. كان ريموس مُعلِّم لغة أكثر تَطلُّبًا مما كان أولرتش في الغناء؛ كان يرى عبر الكلمات والجمل بنيةً أكثر غموضًا مما يستوعبه عقلي، فيها تتصل اللغات المختلفة ببساطةٍ رياضية. مع ذلك فإن التجميعات التي تبني اللغة ليست الكلمات، بل الأصوات، وهنا كانت موهبتي: كنتُ أتعرَّف على الأصوات الأساسية على الفور، ورغم أن دانتي كان ما يزال بعد أسبوعين يفتقد لأي معنى مترابط، بدأتُ، فيما أتلوه، في استيعاب تجميعات متناثرة من المعنى: ملكٌ يرقد في النفايات؛ ثور صِقليٌّ يخور؛ آلاف الوجوه الأرجوانية المُختنقة.

"إيطاليَّته صارت أفضل من إيطاليَّتك يا ريموس"، مازحنا نيكولاي من مقعده.

"لا فائدة من اللكنة"، أجابه ريموس، "إذا لم يعرف ماذا يقول".

"لا أفهم ما يقوله على الإطلاق أيضًا"، قال نيكولاي من الظلال؛ ذلك أننا أوقدنا شمعةً واحدة بسبب عينيه، "لكن ما يقرؤه جميل. شيءٌ ما عن الحب العميق؟".

"خلاعةٌ وشَبق"، قال ريموس بوضوح. "تأوُّهات، دموع، انتحابات. يتعذَّب هنا من ارتكب خطايا الجسد. بلا انقطاع في الألم ولا أمل في الاستراحة"[1]".

"كم نحن محظوظون بوجودك معنا يا ريموس"، أجاب نيكولاي. "وإلّا توهَّمنا جميعًا الحبَّ النقي في الشهوة الوضيعة".

"استَمِرَّ في القراءة يا موسى. لا تدعه يُشتِّتك".

"هل يوجد أيُّ حب صادق في هذا الكتاب العَفِن؟" سأله نيكولاي.

"بكل صوره وأشكاله"، أفحمه ريموس. "قلوبٌ مكسورة، عاطفةٌ لا ترتوي، توهُّمات مستحيلة".

"اجلبوا كتابًا آخر"، قال نيكولاي بازدراء. "أريد الحُبَّ هنا والآن. دانتي ميِّت. الجحيم بعيد للغاية. ألا يستطيع أحدكما إخباري بشيءٍ يمكنني تذوُّقه بالكاد؟".

"اقرأ يا موسى".

فتحتُ الكتاب مُجدَّدًا، لكن يداي كانتا ترتجفان. أخبرهما! الآن! احكِ لهما عنها! أردتُ بشدَّة أن أفعل ذلك، لكنني لم أستطع. سيسخران منِّي، أعرف، لكنني كنتُ خائفًا أيضًا من قراءة الذهول في أعينهم. أنت؟ واقع في الحب؟ أنت؟

لن يقولا ذلك صراحةً، لكن ستقوله أعينهما.

* * *

(1) تصرُّف في الأبيات (34-43) من الكوميديا الإلهية لدانتي، الجحيم، النشيد الخامس. (المترجم)

ذات مساء، عندما لم يكن لدى مسرح بيرج مسرحيات، أو أوبرات، أو باليه في برنامجه، أقنعت تاسو بمغادرة كهفه والانضمام إلينا في سبتلبيرج. أسرع ورائي عبر الشوارع، ماكثًا في الظلال، وكأنه يخشى أن ينقضَّ عليه صقرٌ من السماء ويختطفه.

عندما قدتُ الرجل الضئيل صاعدين الدَّرج ثم إلى ردهة الاستقبال المُعتمة، توقَّف على العتبة وتفحَّصَ الغرفة كرجل يحكم ما إذا كانت السفينة التي يوشك على الصعود إلى ظهرها ستغرق أم لا. حيَّانا ريموس وقدَّم يده لتاسو، لكن عامل المسرح لم يصافحها. حدَّقَ وراء ريموس في الشكل البشري الهائل القابع في المقعد.

"رجلان فحسب، "سأل تاسو، "وحدهما؟".

"لا يوجد سوانا نحن الاثنين"، أجابه ريموس.

"بلا نساء؟".

"كلا".

حملقَ تاسو في ريموس. اختلجت أنفه.

نادى نيكولاي دون أن يستدير. "موسى، هذا هو الرجل الضئيل الذي أخبرتنا أنك ستجلبه للقائنا ذات يوم؟".

"نعم"، قلتُ بارتباك. "هذا هو تاسو. من المسرح".

"ادخل"، هتف نيكولاي. "ادخل! هل حقيقي أنك تعرف الإمبراطورة؟ احكِ لنا عن بناتها!".

رفعَ تاسو بصره إلى ريموس، وأشارَ بإبهامه إلى نيكولاي. "ما خطب زوجك؟".

"إنه ليس زوجي"، قال ريموس بغضب. أبدًا لم أرَ وجهه يَحمرُّ هكذا. "إنه مريض".

"مريض في رأسه"، قال تاسو، ثم خطا متجاوزًا ريموس إلى الغرفة.

"موسى"، قال نيكولاي، "أحبُّ هذا الرجل الذي يشبه الفئران".

جلسَ تاسو بجوار نيكولاي، في مقعد ريموس.

"هـذا يسـتحق احتفـالًا!" قـال نيكـولاي. "مـوسى، غـنِّ لنـا! لا، لا، انتظـر... شـيئًا مـا لتهيئـة المـزاج أولًا. ريمـوس، اذهـب إلى الأسـفل وأخـبر السـيد كوسـت أننـا نريـد بعضًـا مـن ذلـك الـشيء حالـك السـواد".

ظهـرَ ريمـوس مُجـدَّدًا بعـد بضـع دقائـق وهـو يحمـل بحـذرٍ أربعـة أكـواب مـن سـائل أسـود، يتصاعـد منـه البخـار، كبحـار القطـران في جحيـم دانتـي.

"سُكَّر"، أمرنا نيكولاي. "هذا هو السِّرُّ لتستطيع ابتلاعه".

أذبنـا بضعـة مكعبـات في كل كـوب. حبـسَ تاسـو أنفـه وهـو يحتسـيه. لم أتمكَّـن مـن ابتلاعـه إلَّا بعـد مضاعفـة السُّـكَّر؛ بمـا يكفـي لتحويلـه إلى كُـدارةٍ حلـوة. بعـد هضمـه، لم يسـتغرق الأمـر سـوى دقيقـة ليظهـر تأثـير السـحر. صـارت الغرفـة المعتمـة تنبـض الآن. ظننـتُ أننـي لـن أحتـاج إلى النـوم مُجـدَّدًا أبـدًا. ضحـكَ تاسـو خلسـةً.

أخذ نيكولاي في هزِّ رأسه وكأن نحلة طنانة تئزُّ داخله.

"غـنِّ لنـا يـا مـوسى"، قـال ريمـوس. ابتسـمتُ؛ ذلـك أنـه لم يطلـب منـي قـطُّ في كل الأعـوام التـي عرفتـه فيهـا، لم يطلـب أن أغنِّـي، لكـن الآن، بهـذا الـشراب ينبـض في أوردتي، تقـتُ بشـدة إلى إخـراج الجلجـلات.

وقفـتُ أمامهـم وأمطـرتُ أصدقـائي الثلاثـة بالأغنيـات. اضطجـعَ نيكـولاي وأغلـق عينيـه. أخـذَ تاسـو في أرجحـة قدميـه، المتدليتَـيْن بعيـدًا عـن الأرض. اسـتندَ ريمـوس عـلى الحائـط، مؤرجحًـا قدمًـا مـع الموسـيقى، بدمـوعٍ نشـوانةٍ في عينيـه.

(10)

حلَّ سبتمبر أخيرًا، وحلَّت معه ليلة حَفْل الكونتيسة ريشر. ألبسني جواداني رداءً بقطيفة حمراء وأسود ذهبية تزأر على صدري.

«لماذا أنت متوتِّر هكذا؟» سألني مُعلِّمي فيما نُقعقع عبر ليل ڤيينا في عربته. «لن يطلبوا منك الغناء». كان وجهه هادئًا، وملابسه مضبوطة.

«لستُ متوتِّرًا»، قلت. أدرتُ زرًا في معطفي. انتثرَ خارجًا من مكانه في يدي.

هزَّ رأسه. «فقط حاوِل ألَّا تكون مُمِلًّا»، قال. «الصيد، يا شقيقي *mio fratello*، الصيد هو كل شيء".

عبرنا البوابة إلى الفناء الخارجي، وفتحَ غول آل ريشر ذاته -الذي كان، منذ شهرين لا أكثر، قد رماني في الشارع، ووعدني بتحطيم وجهي إن رآني مُجدَّدًا- الباب لعربتنا. كنتُ في غاية الخوف منه لحدٍّ أنني

تعثَّرتُ على الدَّرج وسقطتُ. أمسكني بيديه ذواتَيْ القفَّازين الأبيضين. رفعني، واقترب وجهانا بشدَّة كوجوه العشَّاق. الإدراك. الصدمة. كتمَ كل ذلك. "سيدي"، كان كل ما قاله، ثم أوقفني على قدمَيَّ مُجدَّدًا.

قادني جواداني إلى داخل القصر، الذي كان منزل آل دوفت في سانت غال بالمقارنة به كمسكَن لإنسان الكهف: أرضيات من خشب الجوز، حوائط مُغطَّاة بالحرير الأحمر، كل إطار باب ومنضدة بزخارف ذهبية. في بهو الاستقبال، يقود دَرَجٌ مهول إلى الطوابق العليا من المنزل. تلكَّأتُ هناك، مُتسمِّعًا إلى الأصوات التي أتوق إلى سماعها، لكن جواداني جذبني من كُمِّي.

دلفتُ إلى قاعة الرقص. اصطدمتُ به عندما توقَّف للانحناء. "يا أحمق"، هسهسَ عبر ابتسامته فيما الجميع يستدير ليرانا. ابتسمتُ وانحنيت قليلًا حتى الخَصر، وكأنني أعاني من ألم في المعدة. ثم بدأ هو رقصته؛ النساء يتضاحكن فيما يُقبِّل أياديهن، والرجال يتورَّدون خجلًا ويزدردون ريقهم عندما يغمز لهم.

انطلقتُ مُتعثِّرًا عبر القاعة، مُتدافعًا ومنعطفًا ككلبٍ يغرق في نبعٍ. جاهدتُ لسماع كل شيء. كعوب الرجال تُطقطق على الأرض الخشبية الصلبة. المُقدِّمات البيضاء لأحذية النساء تُحفحف على الحشايا المُكشكشة لأرديتهم. "لا أطيق زيارة ضيعتي"، قال واحد من الأمراء. "بعيدة كل البُعد عن ما يهمُّ حقًّا". "الفحم يتحوَّل إلى بخار"، قال آخر شارحًا. "أم البخار إلى فحم؟" تعثَّرتُ إلى دائرة من الوجوه المُتغضِّنة، نخروا وأسلموني إلى مجموعات من السيدات ذوات وجوه مطليَّة. "لا أفهم"، قالت إحداهن. "في الريف لديهم الحقول والمنازل والمياه لتنظيف أطفالهم، لكنهم يصرُّون جميعًا على العيش هنا". ثم، على مبعدة، كانت بضعة فتيات يبدين إعجابهن برجل رُسِّمَ دوقًا حديثًا. "يقول أبي إن اللقب كلَّفه ثروةً"، همست إحداهن،

فيما لعقت الأخريات شفاههن. "أوه، كم أحبُّ أن أكون زوجة دوق".
لمحتُ الكونتيسة ريشر تنطلق عبر الزحام؛ نظراتٌ مُتحرِّقة تمضي في إثرها. رفع رجل بميداليات على صدره يده وخطا مُتخبِّطًا في إثرها. "أوه، سيدتي الكونتيسة"، قال. "هل لي بدقيقة من...".

توتَّرَت أذناي لسماع الصوت، أو الضحكة، أو التنهيدة التي تتماشى مع تلك المُخزَّنة في المُعتزَل العزيز من عقلي. لم أسمعها. اصطدمتُ بحائط مرتين، وظللت هناك كإنسان آليٍّ، حتَّى أخذتني فاتنةٌ ما من ذراعي وقادتني عائدةً بي إلى سيدي. ابتسمَ وشكرها، ثم تذمَّر في وجهي لأنصرف بعيدًا.

وحينها، كانت هناك.

واقع الأمر، وجَدَتها عيناي أولًا: شعرها مربوطٌ عل شكل تاج. حملقتُ عبر قاعة الرقص، عبر كل تلك الشعور الملساء والموسلين المُكشكش والمعاطف المُكدَّسة بالنياشين الذهبية التي منحتها الإمبراطورة، وكل هذا يُدوِّم كضباب شفاف، عديم الحياة. اشتدَّت أذناي لالتقاط أصواتها العزيزة، لكنها كانت تقف في صمت بين مجموعة من الرجال على رأس دَرَج، في رواقٍ يُطلُّ على قاعة الرقص.

قبَضَت يدٌ مرصَّعة بالمجوهرات على ذراعي. "أنت شاحب بعض الشيء"، قالت المرأة، ناغزةً أنفها في وجهي. "هل أنت مريض؟ تناول رشفةً من النبيذ". تركتُها تضع الكأس على شفتيّ واحتسيتُ النبيذ، ثم دفعتُ ذراعها بعيدًا واتَّخذتُ خطواتٍ مُتعثِّرةً نحو الدَّرج وكأنني أسير على الجليد.

كانت أماليا تضوي بين هؤلاء الرجال كقطعة فحم متوهِّجة مدفونٌ نصفها في رماد منطفئ. كانوا يتجادلون، يلوِّحون بأيديهم، يُومئون بعنف، ورغم أنها كانت تُحدِّق فيما وراءهم، غير مبالية، كانت هي مَن يتحدَّثون إليها، كانت هي مَن يتوقون للوصول

إليهـا بكلماتهـم. "أوه، تعـالي"، قـال رجـل بديـن. "تعـالي. لا بُـدَّ أن تـأتي". أومـأ آخـر وكأن هـذه أعظـم حكمـة سـمعها في حياتنـا. يوجـد بيننـا أحـدٌ حـيٌ! قالـت تحديقاتهـم الجائعـة. كانـت هـي تبتسـم بتـأدُّب، بكتفيهـا متراجعَتـيْن، وكأنهـا تقـف لتُرسَـم في بورتريـه. ورداؤهـا الأبيـض، مربوطًـا أسـفل الصـدر بعقـدة بنفسـجية، يخفـي كل انحناءتهـا. كانـت هـي حقًـا، ومـع ذلـك شيءٌ مـا في غايـة الاختـلاف. لم أسـتطع تبيُّنـه. تحـدَّثي! صلَّيـتُ، دعينـي أسـمعك تضحكـين!

انسـللتُ صاعـدًا الـدَّرج، مخفيًـا أصـواتي كـما كنـت أفعـل وأنـا أتسـلَّل إلى منـازل سـانت غـال في أواخـر الليـل. كان عنقهـا طويـلًا للغايـة. تلـك اللطخـة تحـت أذنيهـا، حيـث ينتهـي شـعرها المشـبوك في سـهمٍ مـن الزغـب الفـضي، الناعـم، كانـت أكـثر مـا أحـبُّ وضـع أذني عليـه.

درتُ مـن خلفهـا، ولوهلـة وقفـتُ عـلى بُعـد إنشـات فحسـب منهـا. سـمعتُ أنفاسـها: الانسـحاب عميقًـا داخـل أنفهـا، انفـراج شـفتيها، الزفـير الدافـئ عـبر فمهـا، الـرداء الناعـم عـلى جلدهـا فيـما كتفاهـا تصعـدان وتهبطـان.

ثـم خَطَـت هـي ورجـل شـاب مـن المجموعـة هابطـين الـدَّرَج. وضـع يـدًا عـبر ظهرهـا لتوجيههـا: أنطـون ريـشر، أدركـتُ، ووجـدتُ نفـسي أعجـب بحاجبيـه المُشـذَّبَين، ببيـاض أسـنانه. كان رجـلًا بالضبـط قَـدْرَ مـا أخـشى: متأنِّقًـا وطويـلًا. أضفـى عليـه جبينـه النافـر وعينـاه الغائرتـان وسـامةً، لكنـه كان ناعسًـا بعـض الـشيء، وكأن خطواتـه المتهاديـة تتَّجـه بـه نحـو الفـراش. لبضـع دقائـق تعقَّبتهـما خلسـةً، وتوالفـت أذنـاي عـلى كل صـوتٍ يصدرانـه. عندمـا يقابـل أنطـون ضيفًـا، كان يمـدُّ يـده وكأنـه يبحـث عـن مـكان لإراحتهـا فحسـب. عندمـا يتحـدَّث إليـه أحـد، كان يُبـدي إيمـاءات متتابعـة تجعلـه ينحنـي أقـرب وأقـرب إلى فـم المتحـدِّث حتـى يبـدو عـلى اسـتعداد للارتمـاء بـين ذراعيـه. ثـم يعتـدل مُجـدَّدا، فقـط

عندمـا يكـون مسـتعدًا للتَّحـدُّث بـدوره، وهـو مـا يفعلـه ببـطء، بنـبرة أرسـتقراطية. "لقـد سـمعتُ الكثـير عنـك مـن أمِّـي. كـم هـو لطيـف أن أتعـرَّف إليـك أخـيراً"، قـال لأحـد الضبـاط. "مُدهـش مـا تقولـه"، لرجـل أعـمال. "حسـب مـا أفهـم، فبينـا تحتـاج إلى مزيـدٍ مـن الرجـال أمثالـك".

كان يهمـس أحيانًـا في أذن أماليـا. "لا يوجـد رجـل في هـذه القاعـة يحظـى بزوجـةٍ تفوقـك جـمالًا"، قـال. "تعرفـين، الجميـع يقولـون هـذا". "هـل أقـام أيُّ أحـد مـن قبـل حفلـة كهـذا؟ مـن أجلـكِ أنـتِ فحسـب"، قـال بعـد برهـة، "ومـن أجـلي أيضًـا، بالطبـع". ترَكَـت نفسـها تُقـاد بيـده وكأنهـا مُسَرنَمَـةٌ. ورغـم مجاهـدتي لسـماع صوتهـا، لم تتحـدَّث أماليـا قـطُّ؛ عندمـا تقابـل ضيفًـا جديـدًا، كانـت ثنايـا وجههـا تلـين بشـكل طفيـف، ثـم تعـود بسرعـة إلى بورتريـه الصـبر الخَمـول.

تناولـتُ كأس شـمبانيا ورفعتُـه أمامـي؛ شـجيرة رفيعـة لأختبـئ خلفهـا. خطـوتُ إلى بضـع خطـوات منهـا. لوَّحـتُ بالـكأس جيئـةً وذهابًـا أمامـي وثبَّـتُّ عينَـيَّ عليهـا. كان زوجهـا مسـتغرقًا في الحديـث؛ لهـذا لم ينظـر في اتِّجاهـي، لكننـي نجحـتُ أخـيراً في جـذب انتباههـا. تلاقـت أعيننـا للمـرة الأولى منـذ كنَّـا أطفـالًا. اشـتعلت الدمـاء في عروقـي.

كانت عيناها خاويتَيْن. لم تتعرَّف إليَّ. مجرَّد غريب يقف أمامها.

لكـن هـذا أنـا! أوشـكتُ عـلى الـصراخ. حبيبـكِ لليـالٍ كثـيرة! لكـن لـو كنـتُ فعلـت هـذا لخسرتهـا مُجـدَّدًا. عوضًـا عـن هـذا، ابتسـمتُ. لوَّحـتُ بيـدي. أومـأتُ بـرأسي. تـورَّد وجههـا واسـتدارت مُبتعـدةً.

"ليسـت هـذه يـا أحمـق". كان مُعلِّمـي بجـواري بغتـةً، هامسًـا في أذني. "هـذه محجـوزة لسـادةِ الصيـد. أولًا، لا أمـل لديـك. امـرأة كهـذه لـن تتحـدَّث معـك حتَّـى. ثانيًـا"، غمغـم، "إذا لمحـت امـرأة ريـشر كيـف تنظـر عينـاك إلى جواهرهـا، سـتنتزعهما مـن محجريهـما".

رجوتُ من سيدي أن يُقدِّمني إليها على الأقل، لكنه هزَّ رأسه وطقطقَ بلسانه. "لا بُدَّ أن أقول، على أقل تقدير، عيناك جميلتان. وهي حقًّا أبهى فريسة في القاعة. لكن انسَ الأمر. ليست لك". ابتسم جواداني مُجدَّدًا إلى أماليا. "رغم أنه ربما، عندما يحين الوقت، سأريك كيف تُنجز الأمر. لكن ليس الآن. الآن هو وقت الضرب في مكان آخر".

خطا مُندفعًا عبر القاعة، وكان انسلاله ثابتُ العزم كافيًا للإعلان عن نيَّته أمام الحاضرين. سكتوا جميعًا واحتشدوا حول البيانو القيثاري في نهاية قاعة الرقص. ظهرَ جلوك بنفسه وجلس إلى لوحة المفاتيح.

امتلأت قاعة الرقص بأصوات تبديل الأقدام، وحفيف الأردية فيما يتكاثف الجمهور، بهتافات خافتة تقول "جواداني! سيغنِّي!". أغلقتُ عينيَّ لوهلة؛ لحجب كل ذلك عن أذني. بالنسبة لي، لم يكن هناك سوى إنسانة واحدة في قاعة الرقص تلك، وكانت صامتة.

فيما يبدأ جواداني أغنية (أرميدا التي لا ترحم *Armida dispietata!*) من أوبرا *Rinaldo*، غادرتُ الدَّرج وانضممتُ إلى الحشد. اندفعتُ عبرهم. ضغطتُ بمرفقيَّ على ظهور السيدات، وقفتُ أمام الچنرالات المتقوِّسين، جذبتُ الأكمام. كان هؤلاء البشر بالنسبة لي كالأشجار في الغابة.

ثم صرتُ وراءها مُجدَّدًا، قريبًا منها للغاية لدرجة أنه كان بمقدوري تقبيل أسفل عنقها. وقفَ زوجها -الذي كان بنفس طولي تقريبًا- بجوارها، لكنهما لم يتلامسا. أغلقتُ عينَيَّ. في عنقها، في التجاويف الناعمة تحت فكِّها، سمعتُ الصدى الهامس لغناء جواداني. احتجتُ إلى كامل تركيزي لأقبض على الصوت، ثم تشبَّثتُ به، من أجلها.

* * *

لكـن حينهـا لم أسـتطع منـع نفـسي. كان صـوت جـواداني في غايـة الضَّعْـف. تلاعـبَ بذلـك الجسـد بخـرَق؛ ولهـذا فتحـت حلقـي مقـدار شَـعرة؛ أفلـتَ أوهـى صـوت، لم يسـمعه أحـدٌ وسـط الموسيقى. لكـن ذلـك الصـوت الخافـت احتواهـا. لامـسَ العضـلات الطويلـة، الضيقـة عـلى ظَهْـر ذراعيهـا، تحـرّك ذراعاهـا برفـقٍ إلى الخـارج، كجناحَيْن يسـتيقظان. تنهَّـدَت. للمـرة الأولى تلـك الليلـة، تعمَّقـت أنفاسـها، وسـمعتُ أنهـا كانـت قـد استيقظت عـلى أغنيـة جـواداني. أفلتُّهـا لتسـمعها. جلجـلَ جسـدها.

وحينهـا، بـدأت في البـكاء. أفلَتَـت جهشـةٌ مـع زفيرهـا. رغـم أنهـا ضغَطَـت بإبهامهـا عـلى شـفتيها، لم تسـتطع كتـم الأنَّـة الخافتـة، التـي قبضـت عـلى قلبـي وخنقتـه. تحـرَّر الحـزن المُختـزَن داخلهـا -انتثر جسـدها قليـلًا- بفعـل الموسـيقى التـي تـرنُّ عـبر جسـدينا. ثـم لم تسـتطع تحمُّـل المزيـد. اندفعـت عـبر الحشـد وانطلقـت خارجـةً مـن القاعـة، وقـد بـانَ عرجهُـا الآن.

تطلَّعـتُ إلى جـواداني. رآهـا الطـواشيُّ العظيـم تهـرع، وابتسـمَ فيـما يغنِّـي؛ ذلـك أنـه كان جعـلَ ألـف امـرأة أخـرى تبـكي أيضًـا، وهـا هـو، فكَّـرَ، قـد امتلـكَ روحًـا جديـدة.

شـاهدَ أنطـون أيضًـا زوجتـه ترحـل، وبعـد أن اختفـت، اسـتدارَ وحطَّـت تحديقتـه عـلى وجهـي. ربمـا بـدوتُ مذعـورًا؛ لأنـه ابتسـم بحنـوٍّ، وكأنـه يقـول، أوه حسـنًا، هنـاك حـزن بحـقٍّ في هـذا العـالم. لكنـك وأنـا، عـلى الأقـل، راضيـان.

انتهزتُ الفرصة. تراجعتُ، واندفعت عبر الزحام.

تبعتُها.

(11)

كنـتُ ذلـك الشـبح المُـدرَّب جيـدًا. أنفـاسي تيَّـارات هادئـة مـن الهـواء. أنصـتُّ إلى الأقـدام المندفعـة، لكـن المنـزل كان خاويًـا؛ حتَّـى الخـدَم كانـوا ينصتـون إلى جـواداني يغنِّـي. وصلـتُ إلى بهـو المدخـل، رفعـتُ بـصري إلى الـدَّرج المهيـب. سـمعتُ خطواتهـا غـير المسـتوية بعيـدًا في الأعـلى، فبـدأتُ في ارتقـاء الـدَّرج. كتـمَ السـجاد السـميك كل خطـوةٍ. لم يـصرَّ الدرابزيـن. حـولي، هسهسـت المصابيـح. عنـد الطابـق الأول، توقَّفـتُ. كانـت هنـاك غـرف كثـيرة للغايـة في المنـزل، تكفـي لجيـش مـن آل ريـشر. بورتريهـات عتيقـة كانـت تتـدلَّى عـلى كل حائـط، وشـعرتُ بأعـين آل ريـشر الأمـوات تراقبنـي.

في الطابـق العلـوي أغلقـتُ عينـيَّ. سـمعتُ نحيبًـا مكتومًـا على يسـاري. بعـد بضـع خطـوات، انعطـفَ الـرواق. رأيـتُ جناحًـا طويـلًا، وأدركـتُ أنـه لا بُـدَّ كان حيـث يعيـش أنطـون وأماليـا.

كان البـاب الأخـير مواربًـا، واندفعـت ناحيتـه كرجـل ظـمآن ناحيـة نبـعٍ. سـأحتويها في ذراعـيَّ! لكننـي أجـبرتُ نفـسي عـلى إبطـاء الخطـوات؛ كان الخـدم يصعـدون الـدَّرج بالفعـل خابطـين بأقدامهـم؛ انتهـت المعزوفـة القصـيرة. ألجمنـي التعقُّـل: لا أسـتطيع إجفالهـا؛ صرخـة واحـدة سـتدمِّر كل خططـي. انسـللتُ بخفَّـة إلى غرفتهـا.

كانـت مسـتلقية عـلى فراشـها، بيدهـا عـلى وجههـا، ورداؤهـا مسـفوح عـبر جسـدها.

توقَّفـتُ عنـد العتبـة. أدركـتُ عـلى الفـور مـا الـذي تغـيَّر فيهـا: شـكل جسـدها. كان رداء الموسـلين الرقيـق يسـتلقي منبسـطًا عليهـا الآن، ورأيـتُ أن بطنهـا كانـت متكـوِّرةً، حيـث كانـت مسـتوية فيـما مـضى.

اسـتولت عـليَّ حـرارةٌ مباغتـة؛ ذلـك أنـه كان هنـاك الكثـير جـدًّا لأسـتوعبه في لحظـة واحـدة: الطفـل الـذي ينمـو في داخلهـا، الفعـل الـذي كان خلَقَـه، ومـا يُمثِّلـه مـن أسرة مسـتقبلية. جسـدك لـن يسـمح لـك أن تكـون أبًـا، قـالَ رئيـس الديـر قبـل سـنواتٍ طويلـة، وهنـا والآن، يتجسَّـد الدليـل عـلى عجـزي أمامـي، بمـا لا يـدع مجـالًا للشـك. لثـوانٍ طويلـة لم أسـتطع التنفـس. كانـت تبـكي بعنـف في يديهـا، والحـزن يفيـض منهـا، وشـيئًا فشـيئًا انتـصرت أذنـاي عـلى عينَـيَّ. تذكَّـرتُ تلـك المـرأة الصامتـة في قاعـة الرقـص، لا مباليـة كجـرسٍ مكتـوم. هـذه الدمـوع كانـت مـن أجـلي! دفعنـي هـذا لأتَّخـذ خطـوةً أخـرى إلى داخـل الغرفـة. فتحـت ذراعـيَّ. لكننـي حـيٌّ! كنـت سـأهتف.

لكننـي كنـتُ تأخَّـرتُ كثـيرًا. سـمعتُ خطـوات أنطـون البطيئـة يصعـد الـدَّرج. كان يصفِّـر لحنًـا لهانـدل بإيقـاع نشـاز. لا ينبغـي أن يجـدني هنـا. تراجعـتُ بسرعـة إلى الـرُّواق وانسـللتُ عـبر البـاب التـالي، بالضبـط فيـما صفـيره ينعطـف عنـد الزاويـة.

* * *

لم يـؤدِّ البـاب إلى مَخـرج، بـل إلى غرفـةٍ أخـرى. كانـت مظلمـة، لكننـي استطعتُ تبيُّنُ أنني في غرفـة أطفـال. بحثـتُ باهتيـاج عـن مخـرجٍ آخـر، بمعـدتي تَزبُـد، لكننـي لاحظـتُ أن البـاب الآخـر الوحيـد يتصـل بغرفـة أماليا.

"يـا لـه مـن مُغـنٍّ!" سـمعتُ أنطـون يهتـف مـن الجانـب الآخـر مـن البـاب. "صـوتٌ كشـعاع الشـمس في الصيـف!".

سـمعتُ حفيـفَ تقلُّبهـا عـلى الفـراش، وتيقَّنـتُ أنهـا كانـت تمسـح الدمـوع عـن ذلـك الوجـه الجميـل.

"تشعرين بتوعُّك مُجدَّدًا، أليس كذلك؟" قال.

"لا حاجة بك إلى أن تقلق".

"الموسيقى؟" سألها مُتشكِّكًا. "هل يمكن أن تكون الموسيقى حقًّا؟".

"أخبرتكَ... لا حاجة بك أن تقلق".

خطـوتُ ببـطء إلى البـاب وتلصَّصـتُ عـبر ثقـب المفتـاح. كان أنطـون يقـف في منتصـف الغرفـة، وكأن أمامـه خطًّـا لا يُسـمح لـه بتجـاوزه: هـوَّةٌ. هـزَّ رأسـه. "حقًّـا، هـذا أمـرٌ عليـكِ أن تتجاوزيـه".

"لن أتجاوزه"، قال، بانفعال. "أخبرتك بذلك من قبل".

"أماليـا، لا تكـوني حمقـاء"، قـال موبِّخًـا. "لا أحـد يكـره الموسـيقى الجميلـة".

"لا يمكنك تغييري".

تصلَّبَـت عينـاه، وومضـت ابتسـامةٌ عـبر وجهـه. أوه، بـدا أنـه يقـول، أنـالُ كل مـا أُريـده. سـترَين.

"حسنًا"، قال. "لن أحاول تغيير الأمر. اكرهي أيَّ صوتٍ تسمعينه إذا شئتِ. لكن أماليا، حقًّا، عليكِ أن تكون عقلانية. لا يمكن للمرء أن يستمتع بحياته دائمًا. هناك مسؤوليات".

سمعتُ صوت تزحزحها على الفراش. هل تجلس مُعتدلة الظهر الآن؟ "أنطون، عندما انتزعتَني من منزل أبي"، قالت، "هل تتذكَّر ماذا قلتَ؟ 'أيَّ شيء تريدينه. في ڤيينا ستكونين حرَّة'".

"وأنتِ حُرَّة حقًّا"، قال، مُبتسمًا ما يزال، لكن غضبه لم يكن بعيدًا عن السطح. "هل أمنع عنكِ أيَّ شيء؟".

"تحرمني حرية التَّسكُّع في المدينة. أن أستقلَّ عربةً بمفردي".

"أماليا، حقًّا! أنتِ سيدة راقية من آل ريشر. لستِ في قرية جبلية في سويسرا. انظري حولك! أمنحك كل ما تتوقين إليه. تلك العربة التي تتذمَّرين منها لا تقلُّ فَخامةً عن عربة أيِّ أميرة. هذا المنزل، هذه الملابس! جايتانو جواداني يغنِّي من أجلك. وأكثر من هذا. في ذلك العرض الافتتاحي ستجلسين أمامهم جميعًا، فيما هم...".

"عن ماذا تتحدَّث؟ أيُّ عرض افتتاحي؟".

جفلَ أنطون. لقد أخطأ في الحديث.

"أجبني". طقطقَ الفراش فيما تقف.

"أورفيوس الجديد، بالطبع". قال مُرثرًا. "بالتأكيد سمعتِ عنه شيئًا".

"لكننا لا نستطيع الذهاب". كانت صوتها فاترًا، خائفًا.

"ولِمَ لا؟". ابتسامة رقيقة، بريئة.

"لأننا سنرحل".



هزَّ أنطون رأسه، وابتسامته المتعالية تتَّسع أكثر وأكثر. "أماليا"، قال.

"وعدتَني أننا سنرحل عن ڤيينا!" هتفت بعنفٍ مفاجئ. اتَّخَذَت بضع خطوات ناحيته، دالفةً إلى مجال رؤيتي. كانت عيناها ما تزالان حمراوين من الدموع، لكن الغضب كان الانفعالَ المسيطر الآن.

تراجعَ خطوةً صغيرة للخلف. "لستِ في حالة تسمح بالسفر".

"أنطون! لهذا أردتُ السفر قبل شهر!" قبَضَت يداها على ردائها وكأنها تريد تمزيقه.

"على أيٍّ، فات الأوان الآن". حاولَ أن يتناول يديها، لكنها دفعته بعيدًا.

"لم يَفُت!" لوهلةٍ توتَّر وجهها وقاومت الدموع. "لا بُدَّ أن أخرج من هذه المدينة قبل أن يأتي الطفل". أشارت بإصبعٍ اتِّهاميَّةٍ في وجهه. "وعدتَني أننا سنقضي الشتاء في الريف".

"لكن أمي...".

"اللعنة على أمِّكَ!".

"أماليا!" قبضَ على ذراعها وهزَّها بعنف. رفع يده الأخرى إلى أذنه، وكأنه على وشك أن يضربها.

أمسكتُ بمقبض الباب. إذا جرؤ، فكَّرتُ.

لكنها نظرت فحسب إلى يده المنتصبة. كانت عيناها جليدًا.

ارتجفَ جسده من الغضب. أفلتَها. لكنها لم تتراجع، بل ظلَّت تُحدِّق في عينيه.

"لا يمكن أن نرحل فحسب بعدُ"، قال بأقصى ما يستطيع من هدوء. "ترغب أمِّي في بقائنا معها لبضعة أسابيع أخرى...".

تلفَّظَـت أماليـا بـكل كلمـة بوضـوح. "لـن أكـون بقرَتَهـا السـمينة لأشـارك في...".

"أماليـا، لم تعـودي في سـانت غـال"، قـال مُوبِّخًـا. "هـذه ڤيينـا. أنـتِ واحـدة مـن آل ريـشر. لا بُـدَّ أن تسـتوعبي وضعـك. عائلـة ريـشر سـيكون لهـا وريـث. هـذا شيء جـليٌّ للغايـة في جسـدك، وفي العـرض الافتتاحـي ستجلس الإمبراطـورة قُبالـة مقصورتنـا. لا يمكنـك لـوم أمـي عـلى القَـدَرِ الـذي اخترتِـه بالفعـل".

بـدت هـذه الكلـمات وكأنهـا تضربهـا بقسـوة. ذابَ الجليـد في عينيهـا إلى دمـوع.

"لا"، قالـت بهـدوء، فيـما تهـزُّ رأسـها بحـزن، وتعـضُّ عـلى شـفتها. "لا، لا أسـتطيع. ليـس أمامـي سـوى الـرَّبِّ لألومـه عـلى ذلـك".

"إذا كنـتِ تعيسـةً يـا أماليـا"، قـال باسـتياء، "فابحثـي داخـل قلبـك عـن السـبب".

"أعـرف تمامًـا لمـاذا أنـا تعيسـة"، قالـت، وأدارت كتفهـا إليـه، وظهرهـا إليَّ. راقبهـا بامتعـاض. لكـن حينهـا سـيطر عـلى نفسـه، وتنـاول يدهـا.

"وعدتُ أمي أننا سنحضر العرض الافتتاحي بعد ثلاثة أسابيع".

انتزعـت يدهـا. "لم يكـن ينبغـي أن تعدهـا. تعـرف أن هـذا عـذاب بالنسـبة لي. لـن أذهـب".

"لا بُـدَّ أن تذهبـي"، قـال. "إذا أغضبتِهـا، فلـن تسـمح لنـا بالرحيـل أبـدًا".

اسـتدارت إليـه، ببعـض الرعـب في عينيهـا الآن. "تسـمح لنـا بالرحيـل؟ هـل تتحكَّـم في حياتنـا؟".

"أظهـري بعـض الاحـترام!" اسـتمرّا في التحديـق لبعضهـما البعـض، ومُجـدَّدًا، كان هـو مَـن أرخـى تحديقتـه. حدَّق بغضبٍ في الحائـط. تمعَّنَت فيـه. أخـيرًا، هـزّت رأسـها برفـقٍ مـن جانـب إلى آخـر.

"إذا وافقـتُ عـلى الذهـاب"، قالـت بحـذر، "يمكننـا الرحيـل في اليـوم التـالي مبـاشرةً؟".

"نعم، بالطبع"، قال بسرعة.

"إذا حُزِمَـت أغراضنـا"، قالـت، "وتهيـأ كل شيء للرحيـل، سـأذهب إلى العـرض الافتتاحـي، رغـم أننـي سـأكره كل لحظـة. لكـن إذا شـعرتُ أننـي لا أسـتطيع الثقـة في وعـدك، سأشـتكي مـن التقلُّصـات". خطـت ناحيـة فراشـها، عارجـةً. عندمـا حدَّقـت عينـاه في فخذَيْهـا المنبعجَـيْن، رأيـتُ مجـدَّدًا ذلـك الاشـمئزاز عـلى وجهـه.

"حسـنًا"، قـال بفتـور. "آمـل أنـك تدركـين الآن أنـه لم يكـن هنـاك سـبب للتَّحـدُّث معـي بهـذه النـبرة العنيفة".

سمعتُها تهمس حينها، "أتمنَّى جدًّا ألَّا يكون أبو طفلي نعجةً".

"ماذا كان هذا؟".

"لا شيء. يمكنك المغادرة الآن". لوَّحت بيدها لإبعاده.

"مغادرتـك؟ لقـد جئـتُ لإحضـاركِ. انتهـت الحفلـة الموسـيقية. يمكنـك العـودة". لم يكـن هنـاك أثـر لتلـك الابتسـامة المُتعاليـة عـلى وجهـه.

"لا أريد أن أعود"، قالت.

"لا بُدَّ لك".

اسـتدارت للحملقـة فيـه مُجـدَّدًا، لكنهـا بـدت مُتعبـة الآن. "سـألحق بـك سريعًـا"، قالـت.

"سأنتظر".

وقد انتظر حقًّا، حتَّى نظَّفَت وجهها من الدموع والغضب. تناول ذراعها برفق في ذراعه وقادها للخروج من الباب، وكأنها عمياء وكأنه عيناها.

عندما عدتُ إلى الطابق السفلي، قبضَ جواداني على ذراعي فور أن دلفتُ إلى قاعة الرقص. "أين كنت؟ هناك سيدتان تنتظران في العربة"، همسَ في أذني. "سأعلِّمكَ الكثير الليلة". جذبني إلى الهواء في الخارج.

لكن فور أن أصبحنا في العربة، وضعني على المقعد المقابل له، بحيث أتمكَّن من رؤيته بين السيدتين المُشرقتَين. حملقت واحدة من المرأتين بعينين جائعتين فيما يُمسِّد على فخذ الأخرى. قبَّل المرأة الجائعة على خدِّها لتهدئتها؛ مما أثار الأخرى وجعلها تتسلَّق حِجره. دفعها لإنزالها. "الصبر"، ألحَّ. "هل هذا يليق بأميرة؟".

عندما وصلنا إلى منزله، انحنى للأمام وهمسَ في أذني، "هاتان الاثنتان ستتعاركان كالقطط الليلة. تسكَّع بالعربة قليلًا. عُد عندما يطلع النهار".

* * *

طوال ساعةٍ قادَ بي الحوذيُّ عبر المدينة، وتفكَّرتُ في إخفاقي. هل ستتاح لي فرصةٌ أخرى أبدًا؟ لعنتُ نفسي على بُطئي في التَّصرُّف. وعاهدتُ نفسي أنني أبدًا لن أشكَّ في حبِّ أماليا مُجدَّدًا.

لكن حتَّى فيما أزداد وهنًا ويأسًا تجاه فرصة استعادتها، كان هناك لهيبٌ ما يتصاعد شيئًا فشيئًا داخلي، حتَّى وجدتُ نفسي أبتسم.

طفل! سيكون لديها طفل!

في البداية شعرتُ تجاه هذا بوخزٍ في أعماقِ عاري، لكن، مع تراجُع ذلك الوخز، بدت هذه الحياة القادمة كباشرة أمل.

أتمنَّى ألَّا يكون أبو طفلي نعجة، قالت حينها.

في النهايـة، أمـرتُ الحـوذي أن يأخـذني إلى سـبيتلبرج. أقلّنـي حتـى بيرجاسـه، قبـل أن يقـول إنـه لا يريـد كسـر عجـلات العربـة عـلى الشـارع المـليء بالحفـر. ترجّلـتُ وبـدأت في السـير مـن هنـاك.

في الصبـاح الباكـر، كانـت السـماء مـا تـزال رماديـة. والشـوارع القـذرة صامتـة كـما سـمعتُها دومًـا. لم تكـن هنـاك سـيداتٌ يُغويـن مـن نوافـذ الحانـات المتداعيـة. في مقهـاه، اسـتغرق السـيد كوسـت في النـوم عـلى مقعـد طويـل. لم أوقظـه فيـما أنسـلُ صاعـدًا الـدَّرج.

نزيـل واحـد في سـبيتلبرج كان مسـتيقظًا: نيكـولاي جالسًـا في مقعـده أمـام نافـذة مفتوحـة. جلسـتُ بجـواره، وحدَّقنـا معًـا في بيرجاسـه وعـبر المدينـة. كانـت أحجـار الشـارع القليلـة المُتبقِّيـة تـبرز مـن الأرض كأسـنان قديمـة، ملتويـة. في الحانـات، حفنـة مصابيـح مـا زالـت موقـدة، وعـلى نوافذهـا يتراكـم السِّـناج كالجليـد.

"أحـبُ أن أجلـس هنـا وأتنفَّـس الهـواء"، قـال نيكـولاي، "قبـل أن تطلـع الشـمس وتـؤذي عينـيّ. لم تتبـقَّ سـوى بضـع دقائـق أخـرى. ثـم سـأغلق السـتائر طـوال النهـار".

لم أقُـل أيَّ شيء؛ لذلـك سـألني مُتحقِّقًـا، "هـل كنـتَ في الخـارج حتّـى وقـت متأخـر أم أنـك اسـتيقظت مبكّـرًا؟".

"في الخارج حتّى وقت متأخر".

"جواداني يأخذك إلى حفلاته؟".

أومـأتُ. خـرج كلبـان مـن الظـلال وأخـذا ينغـزان في جُـزرِ المخلّفـات المُتعفِّنـة في الشـارع. جلسـنا لبضعـة دقائـق أخـرى قبـل أن أجـد الشـجاعة للتحـدُّث.

"نيكولاي، هل تتذكَّر عندما أخبرتني أن الحبَّ هو التقاء نصفَيْن؟".

هـزَّ نيكـولاي كتفَيْـه اسـتهانةً. أضفـى الضـوء الرقيـق للشـمس الصاعدة عـلى وجهـه المنتفـخ مزيـدًا مـن الرخـاوة، وكأنـه قالـبٌ مـن شـمعٍ دافـئ. "هـل قلـتُ ذلـك؟ أعتقـد أنـه بمقـدوري. ربمـا قلـتُ أشـياء أكـثر حماقـةً طـوال هـذه السـنين"، قـال للنافـذة المفتوحـة. "عـلى أيِّ حـال، سـيكون بديعًـا لـو كان حقيقيًـا. الحـب مثـل التقـاء القفـل والمفتـاح! لا يـا مـوسى. أيُّ رجـل يقـول هـذا ليـس سـوى أحمـق. وجـدتُ نصفـي الآخـر قبـل عقـود، وانظـر كيـف آلمتُـه. كان ينبغـي أن أتركـه وحيـدًا".

فتحَ أحدهـم بابًـا في واحـدة مـن الحانـات وترنَّـح مُتَّجهًـا إلى المدينـة. كانـت في السـماء الرماديـة الآن لطخـاتٌ مـن الـورديِّ عـلى طـول سـطحها، كلمعـان الزيـت عـلى بِركـة مـن الوحـل.

"نيكولاي"، قلتُ. "أنا واقع في الحب".

عندمـا نظـرَ إليَّ، بعينيـه الكابيتَـيْن تضيقـان في محاولـةٍ لرؤيـة وجهـي، كان هنـاك ذلـك الاندهـاش الـذي خشـيتُ أن أراه عـلى وجهـه. منّـي أنـا، لم يتوقَّـع قـطُّ اعترافًـا كهـذا. لكـن ذلـك الاندهـاش لم يؤلمنـي كـما توقَّعـتُ، لأنـه مـع المفاجـأة كانـت البهجـة الصافيـة أيضًـا.

"واقعٌ في الحبِّ!" قال.

وهكـذا أخبرتـه بـكل شيء: عـن تلـك الفتـاة كريمـة النَّسَـب وأمهـا المحتـضرة، عـن المـرأة الشـابة التـي تسـلَّلَت إلى الديـر، عـن ليالينـا في غرفـة العِلِّيَّـة. أخبرتـه أنهـا لم تعـرف وجهـي، بـل صـوتي فحسـب، أنهـا دعتنـي أورفيوس(هـا). حكيـتُ لـه أيضًـا عـن الأحمـق الـذي كنتُـه، وكيـف أننـي أضعـتُ فرصتـي، وكيـف تزوَّجَـت مـن أنطـون ريـشر العظيـم مـن ڤيينـا. كيـف سـتلد طفـلًا قريبًـا. أخبرتـه كيـف تظـنُّ أننـي ميِّـت، وكيـف تحبُّنـي مـا تـزال.

"لكـن أمامـك الآن فرصـة أخـرى!" قـال، وكان أملـه في غايـة الاتِّقـاد، لحـدِّ أنـه ألهـبَ أمـلي. "بمقـدور أورفيـوس إنقـاذ يوريديس(تـه)!".

بوجهٍ يعلوه العار، أخبرته عن إخفاقي في الحفلة، وكيف أنني خشيتُ ألّا أستطيع اقتحام ذلك السجن الذي يُدعى منزلًا مُجدَدًا، حيث يحبسونها. وكيف أنها، قريبًا، سترحل إلى الريف.

"إذن فعلينا ألّا نضيّع لحظةً أخرى. سندلف إلى ذلك المنزل حتّى لو اضطررنا إلى هدم جدرانه!".

شكرته على تشجيعه، رغم أنني كنت أعرف أنهم وحدهم الحمقى سيحاولون تجربة ما يقوله. لكن واتتني فكرة أخيرة. "ستكون في العرض الافتتاحي للأوبرا بعد ثلاثة أسابيع. إذا استطعتُ أن أتحايل بطريقةٍ ما لإيصال رسالة إليها، بمقدوري إخبارها أن تتسلّل إلى الخارج. ربما نستطيع أن نهرب". ارتعش صوتي فيما أخبر صديقي بآمالي. هل سيراها حمقاء؟

"ستسرقها في الأوبرا!" هتفَ، ونظرَ بتمعُّن شديد في الفجر وكأنه رأى رؤيةً لنا نحن الاثنين في التدويمات الوردية للسماء.

تعاظَمَت الاستثارة داخلي، كقرع طبول يتزايد شيئًا فشيئًا. سأكون أورفيوس(ها) وأختطفها خفيةً! لكنني قمعتُ قلبي. "نيكولاي"، قلت. "الحذر ذو أهمية قصوى. إذا راوَدَت الكونتيسة ريشر شكوك حيال أيِّ شيء، فربما لا أراها مُجدَّدًا أبدًا".

"الحذر؟" قال. تفكَّرَ قليلًا. "ربما علينا أن نطلب نصيحة ريموس".

ساعدتُ نيكولاي في شَقِّ طريقه إلى غرفة ريموس. فراشٌ ضيِّق كان يشغل معظم المساحة، فيما تشغل أكوامٌ من الكتب ما تبقّى. تعثَّر نيكولاي فوقها، وأوشكَ على السقوط فوق الفراش، وعند صرِّ إطار الفراش، جفلَ ريموس مستيقظًا في اللحظة المناسبة بالكاد لتجنُّب الانسحاق تحت نيكولاي، الذي رفرفَ كسمكةٍ هائلة تحاول الانقلاب عائدةً إلى النَبع. عندما تموضعَ أخيرًا على الفراش، تحسَّسَ بحثًا عن

قميص ريموس. هزَّ الرجل الأصغر حجمًا. "ريموس، استيقِظْ! موسى واقع في الحب! في الحب! استيقظ!".

"أنا مستيقظ"، قال ريموس، دافعًا يدَيْ نيكولاي بعيدًا عن حلقه. "تولَّيتَ ذلك".

"إذن فانهض وارقص! إنه حقيقي؛ وهي واقعةٌ في حبِّه أيضًا! داوَمَا طوال سنين على التلاقي سرًّا في غرفة عِلِّيَّة وكان يغنِّي لها حتى تبكي. إنها جميلة كأميرة، وأفضل ما في الأمر أنها هنا، في ڤيينا! متزوِّجة برجل أثيم. علينا أن ننقذها ونلمَّ شملهما". كاد أن يُغمى على نيكولاي من الانتشاء.

"إنه... ليس أثيمًا بالضبط"، غمغمتُ.

"أوه، وكدتُ أنسى الجزء الأكثر رومانسيةً"، أضاف نيكولاي. كانت يداه قد تركتا ريموس المبهوت ما يزال، وامتدَّتا إلى الفراغ من حوله، في محاولة لاقتناص شمسٍ بعيدة ما. "إنها لا تعرف وجهه".

"لا تعرف وجهه؟" سألَ ريموس.

"كانت ترتدي عِصابة على عينيها".

"عِصابة؟ لماذا؟" استدارَ ريموس إليَّ، واحمرَّ عنقي.

"لا يهم لماذا"، قال نيكولاي. "المهم أنها تعرف صوته، تعرفه أفضل ممَّا يعرف العُشَّاق وجوه عُشَّاقهم. كل ما يحتاجه هو أن يتحدَّث... أو يُغنِّي! وحينها سيستعيدها وسيمكنهما الهروب!".

لوَّحَ نيكولاي بذراعه وحاولَ أن يشير إلى هروبنا البعيد. أسقطَ مصباح ريموس المُطفأ. تهشَّم الزجاج على الأرض.

"هلّا توقَّفت عن الحركة!" هتفَ ريموس.

"كيف لي أن...".

"وكُن هادئًا! أريد أن أتحدَّث إلى موسى". تطلَّعَ إليَّ ريموس بتجهُّم. "هل ما يقوله صحيح؟".

"ليس رجلًا أثيمًا، أنطون ذاك". قلتُ. "الباقي حقيقيٌّ في مُعظمه. إنها لا تحبُّه. هذا ما أعرفه".

"وأنت متيقِّن أنها تحبُّك؟" سألني. "موسى، هذه مسألة خطيرة. هل ستخون زوجها وعائلتها حقًّا؟".

انتظرَ كلاهما إجابتي. لحظة كانت كل ما أحتاجه لأراجع تاريخ حبِّنا بالأصوات. "أنا مُتيقِّن"، قلت. صفَّق نيكولاي بيديه، وريموس نفسه ابتسم.

"إذن فسأكتب رسالة"، قال.

"رسالة؟" سألَ نيكولاي. "لكن ريموس، كتابتك رتيبة للغاية".

"هذا لا يهم"، قال. "الأمر بسيط. ستنقل الرسالة الحقائق فحسب. موسى حيٌّ. وهو، أيضًا، سيحضر الأوبرا. عليها أن تتسلَّل خارجةً في لحظة بعينها".

"عندما يتطلَّع أورفيوس في عينَيْ يوريديس!" همسَ نيكولاي.

"أو في أيِّ لحظة أخرى"، قال ريموس. "لن يُحدِثَ ذلك فرقًا".

"لن يُحدث فرقًا!"، وبَّخه نيكولاي. "ريموس، ضيَّعت وقتك على كل هذه الكتب التي قرأتها". وابتسمَ نيكولاي مع المزحة. لكنَّ وجهه أظلمَ بغتةً. "لكن ريموس، هناك مشكلة في خُطَّتك. شيئًا أغفلتَه. كيف ستصل الرسالة إليها؟".

أومأ ريموس إليَّ إيماءة العارف.

"سيضعها موسى في يديها بنفسه".

"أنا؟".

"نعـم"، قـال ريمـوس. "أنـتَ تلميـذ جـواداني، رسـوله. أنـتَ وحـدك يمكنــه الولــوج إلى أيِّ مقصــورة في الأوبــرا. يمكنــك تســليم خطــاب إلى الإمبراطـورة. سـتُخبر أيَّ شـخص يسـألك أنـك تحمـل خطابًـا إلى السـيدة مـن الفنـان المُبـدع ذاتـه. سـيظنون أنهـا أثـارت إعجابـه فيـما يقـف عـلى خشـبة المـسرح".

"ريموس"، قال نيكولاي، "هذا عبقري!".

ابتسمَ ريموس بزهوٍ.

وهكــذا رُســمَت خُطتنــا، ولم يتبــقَّ أمامــي ســوى انتظــار العــرض الافتتاحــي.

(12)

قابلتُ إلهة الحبِّ لأول مرة ذات ظهيرة فيما تاسو وجلوك يحاولان تعليمها الطيران. فيما ندلف أنا ومُعلِّمي إلى المسرح، كانت لوسيا كلافارو البدينة تقف في منتصف خشبة المسرح بجناحين مُنمنمَيْن مُثبَّتَين في ظهرها. «يا إلهي»، غمغمَ جوادانى. «ألا يدركون أن الدُّبَّ بجناحين يظل دبًّا؟».

"لكنك ضئيل جدًّا"، قالت لتاسو، بعد أن رَبَطها في حبال الرفع، "ستُسقِ...".

أطلقت صرخة سوبرانو مُجلجلة فيما تاسو يُحرِّر الوزن لرفعها إلى السماء. تأرجَحَت عبر خشبة المسرح.

"لا تتلَوي!" هتفَ تاسو.

"أنزِلْني!" صرَخَت.

جـذبَ تاسـو حبـلًا آخـر وتقوَّسَـت هـي، صارخـةً وخابطـةً بقدميهـا، عائـدةً عـبر خشـبة المـسرح.

"أنزِلْهـا"، قـال جلـوك لتاسـو. "تبـدو كحـشرة أكـثر مـن كونهـا إلهـة للحـب. سـنضعها عـلى قاعـدة".

كانـت عـروس أورفيـوس، ماريانـا بيانتـشي، هزيلـة وشـاحبة، بصـوتٍ بديـع سُرعـان مـا أفـاضَ الدمـوع في عينَـيَّ. طـوال حيـاتي نـادرًا للغايـة مـا سـمعتُ امـرأةً تُغنِّـي، وتيقَّنـتُ بغتـةً أن أمِّـي كانـت لتُغنِّـي هكـذا. أثنـاء البروفـات كل ظهـيرة، كنـتُ أجلـس مـع تاسـو، أو في جانـب المـسرح في انتظـار حضـور مُعلِّمـي. كانـت إيطاليَّتـي جيـدة الآن بمـا يكفـي، وإيطاليَّـة كالزابيجـي بسـيطة بمـا يكفـي، لدرجـة أنـه بعـد الأسـبوع الأول مـن البروفـات لم أعـد أفهـم القصـة فحسـب، بـل صـار بمقـدوري الغنـاء بجـوار جـواداني بصـوتٍ خافـت. تبيَّنـتُ الجَـمالَ والنواقـص في صوتـه.

"سـيدي"، قلـتُ بحـذرٍ شـديد ذات أمسـية في طريقنـا للعـودة إلى منزلـه، "يـا لـه مـن شرفٍ أن أسـمعك تُغنِّـي".

انحنى بلا مبالاة من مقعده.

"أتساءل إن كان بمقدوري، ربما، أن أسألك سؤالًا".

رفعَ جبينه.

"كان الفصـلان الأولان رائعَـيْن بحـقٍّ، ألا تظـنُّ أن الفصـل الثالـث كان... كان... أكـثر مـمَّا ينبغـي؟".

"كان (ماذا) أكثر ممَّا ينبغي؟" قال باندفاع.

بحثـتُ عـن الكلمـة المناسـبة لوصـف مـا أعنيـه. "عاليًـا... أكـثر مـمَّا ينبغـي؟".

"عاليًـا أكـثر مـمَّا ينبغـي؟" اسـتدارَ، وجعلنـي الوميـض المهتـاج في عينيـه أتراجـع لألتصـق بالباب.

"ليـس عاليًـا أكـثر مـمَّا ينبغـي، عـلى وجـه الدقـة"، تراجعـتُ. "لكـن... لكـن عاليًـا فحسـب. لديـكَ أجمـل صـوت سـمعتُ قـطُّ يـا سـيدي، لكـن، حسـنًا، ربمـا إذا كبحـتَ لجـام صوتـك في مواضـع بعينهـا، فـإن جهـارة صوتـك المحـدودة سـتكون أكـثر إقناعًـا".

"جهـارة صـوت محـدودة؟" حملـقَ جـواداني إليَّ وكأنـه يَشـهد دودة مُقـزِّزة تزحـف خارجـةً مـن أنفـي.

"حسنًا، وفير جدًّا. لكن...".

انحنـى للأمـام. أدركـتُ أنـه كان يرتعـش مـن أعماقـه. "كيـف تجـرؤ! أنـت!" هتـف. "أنـت لا تفقـه شـيئًا! لا تفقـه شـيئًا!".

"أنـا آسـف"، لوَّحـتُ بيـدَيَّ، عـلى أمـل صـدِّ هجومـه. "لم يكـن ينبغـي أن...".

رفعـه غضبـه عـن مقعـده بحيـث صـار يعلـوني بجسـده. "لا تعـرف عـن الأوبـرا أكـثر مـن الأمـراء الحمقـى في تلـك الحفـلات. أنـت مجـرَّد مُغنِّـي جوقـة شُـقَّ مـن أجـل متعـة منحرفـة لأحدهـم. طـواشيٌّ مُدلَّـل لأحدهـم فـرَّ هاربًـا". أخـذَ بضعـة أنفـاس عميقـة. عندمـا تحـدَّث، كان صوتـه المخمـلي يتـماوج مـن الغضـب. "أبـدًا"، اقـترب وجهـه مـن وجهـي بشـدَّة، لدرجـة أننـي ظننـتُ أنـه سـيعضُّني- "أبـدًا لا تخـبرني مُجـدَّدًا بمـا تـراه".

* * *

لم أفعـل قـطُّ، لكـن لاحقًـا، كثـيرون جـدًّا سـيفعلون. سـيعود إلى لنـدن، ورغـم أنهـم في البدايـة سـيحتفون بـه كابـنٍ منتـصر وقـد عـاد، إلَّا أن صوتـه سيفشـل في أن يكـون ذلـك الصـوت الـذي طالمـا حَلُمـوا بـه. فـرَّ إلى "بـادوا" وإلى العزلـة، حيـث مـات مُعدَمًـا، بعـد أن تفرَّقـت ثروتـه بـين المَخصيِّـين البائسـين الذيـن أحاطـوا بـه كتلاميـذ. كانـت بهجتـه الوحيـدة،

في أعوامـه الأخيرة، تقديـم عـرض عرائـس منفـرد بشـكل منتظـم لأوبـرا جلـوك العظيمـة، سـيتذكَّره النـاس ذلـك العـرض لاحقًـا كمُنجـزه الأفضـل.

حتـمًا قـرأتَ الكثـير عـن العـرض الافتتاحـي لهـذه الأوبـرا. في غضـون أسـابيع فحسـب صـارت أوروبـا كلهـا تتحـدَّث عـن نجـاح جـواداني وجلـوك. لكـن علـيَّ أخيِّـب أملـك: لم يكـن شيءٌ مـن هـذا حقيقيًّـا. لم تكـن كل الحكايـات زائفـة فحسـب -لأنـه في تلـك الليلـة الشـهيرة في أكتوبـر 1762 تتابعـت الأحـداث عـلى خـلاف الراويـة الرسـمية- بـل كانـت زائفـة بشـكل مُضاعَـف؛ لأن تلـك الليلـة لم تكـن -في واقـع الأمـر- عرضًـا افتتاحيًّـا عـلى الإطـلاق. انعقـدَ العـرض الافتتاحـي الحقيقـي قبلهـا بعـدة أيـام. لم تكـن الإمبراطـورة حـاضرةً، ولا حتَّـى المؤلـف الموسـيقي. في واقـع الأمـر، كان المـكان الـذي انعقـدَ فيـه العـرض ردهـةً ضيقـةً في سـبيتلبرج. لم يضـمَّ الجمهـور الرسـمي سـوى ثلاثـة: عامـل مـسرح قـزم لا يعـرف أيَّ إيطاليَّـةً، كان يظـنُّ، قبـل شـهرين فحسـب، أن أورفيـوس نـوع مـن الأزهـار؛ وراهـب سـابق مُصـاب بالزُّهـري؛ وذئـب مولـع بالكتـب يعـرف اثنتـي عـشرة نسـخة مـن حكايـة أورفيـوس، وبمقـدوره سرد أعـمال أوفيـد وڤيرچيـل بـأيِّ لغـة تشـاء.

جلبـتُ أربعـة أكـواب مـن السـحر الأسـود. أدرتُ مقعد نيكـولاي ناحية خشـبة المـسرح المُرتجلـة التـي صنعتهـا عـلى المدفـأة الفارغـة. طلبـتُ مـن ريمـوس إغـلاق كتابـه، ثـم أخـبرتُ تاسـو أن أورفيـوس كان أعظـم موسـيقيٍّ عرفتـه البشريـة، وأنـه عـاشَ منـذ زمـن طويل جـدًّا، جـدًّا، لكنني سـأعيده إلى الحيـاة تلـك الليلـة. شرحـتُ لـه أن زوجتـي المحبوبـة، يوريديـس، ميِّتـة.

"إذن ما المغزى؟" قال تاسو. "لماذا لا تُغنِّي عن شيءٍ آخر؟".

هزَّ نيكولاي رأسه. بدأتُ الغناء.

لم يكـن أعظـم أداء في حيـاتي. لم تعـزف الأوركسـترا ولم تُـردِّد الجوقـة إلَّا في رأسي، وبالتـالي سـمعَ جمهـوري لحظـات طويلـة مـن الصمـت. عندمـا

بـدأت، في الحقيقـة، رفعـتُ قبضتَـيَّ أمـام قلبـي ولم أتحـرَّك -كـما كنـتُ أرى جـوادانِي يفعـل عـلى خشـبة مسرحـة- طـوال الدقائـق الأربـع مـن افتتاحيـة الجوقـة. لم يسـمع جمهـوري سـوى صيحـاتي الثلاثـة *Euridice!* التـي غنَّيُتهـا، كـما كان جلـوك قـد أرشـدَ جـوادانِي، "وكأن أحدهـم يقطـع بمنشـار عـبر عظامـك". تخشَّـب نيكـولاي مـع كل صيحـة، واتَّسـعت عينـا تاسـو عـن آخرهـما.

كانـت ليلـةً دافئـة، والنوافـذ مفتوحـة. عـبر الهـواء تسرَّبَـت إلينـا هتافـات أطفـال مُتقطِّعـة، سـباب سـكارى، إغـواءات عذبـة، وآهـات لـذَّة، لتُذكِّـرني أنـه في ذلـك المـكان لا يحتـاج أحـدٌ إلى إخفـاء أصواتـه. يتـوق صـوتي إلى أن يختلـط بـكل الأصـوات الأخـرى فحسـب. لكـن مَـن سـيكترث ليُنصـت؟

لكننـي كنـتُ مخطئًـا: فيـما أُغنِّـي للعمـلاق والذئـب والقـزم في ردهـة الاسـتقبال تلـك، مُناديًـا عـلى عـروسي الميِّتـة، ترَكَـت العائـلات مناضدهـا المُزدحمـة وخطـت نحـو نوافذهـا، في محاولـة للتَّعـرُّف عـلى هويـة ذلـك النائـح. توقَّـفَ الأطفـال في الشـوارع عـن لَعِبهـم. أنـزل الرجـال جعُتهـم ورفعـوا أبصارهـم إلى السـماء. أيقظَـت هـذه الصيحـات عـلى محبوبتـي كل قلـبٍ في ذلـك الحـيِّ.

لم أدرك حينهـا أن أحـدًا يسـمعني خـارج المسـكَن. في مـسرح عقـلي، غـادَرَت الجوقـة خشـبة المـسرح، وصرتُ أنـا، أورفيـوس، أقـف هنـاك وحيـدًا. كانـت يوريديـس قـد انتُزِعَـت منِّـي بقسـوةٍ إلى مـوتٍ بـلا يقظـة. غنَّيـتُ عاليًـا مـن أجلهـا. ثـم، مـع تصاعُـد موسـيقى الأوركسـترا، شـعرتُ بحـزني يتحـوَّل إلى غضـبٍ أنقـى مـمَّا عرفـتُ قـطُّ. أبغضـتُ تلـك الآلهـة الجشـعة لِـما سرَقَتـه منِّـي.

تخـدَّرَت يـداي فيـما أغنِّـي. عندمـا فتحـتُ عينَـيَّ مُجـدَّدًا، كان تاسـو ينكمـش في مقعـده تحـت بطـش صـوتي. جلجَلَـت لعنـاتي الأكـواب الفارغـة

المستقرّة على المنضدة. في الطابق السُّفلي، في المقهى، كان الرجال قد توقّفوا عن السِّجالات.

انتهيتُ من غنائي، ولهثتُ طالبًا الهواء. صفّق نيكولاي بيديه المُنتفختين. هزّ ريموس رأسه في اندهاش. تطلّع تاسو من أحدهما إلى الآخر؛ ضمّ قبضتَيْه وفتحهما.

"لا أستطيع أن أغنّي الثنائيات بمفردي"، قلتُ. ضاقَ جبين تاسو وكأنه يشتَمُّ خديعةً. "لكنني سأخبركم بما تغفلون عنه"، تابعتُ. "حزني كبير للغاية لحدٍّ أن چوبيتر (كبير الآلهة) قد أشفقَ عليّ. أرسل بآمور، إلهة الحب، لتخبرني أنني إذا استطعتُ استرضاء ربّات الانتقام (*Furies*) في العالم السفلي بغنائي، فربما أستطيع استعادة يوريديس(ي) مُجدّدًا".

ضغطَ تاسو براحتَيْه معًا وتطلّع إلى ريموس، الذي كان خبيرًا في هذه الأشياء. عندما أومأ ريموس بتأكيد، نخرَ تاسو.

"كنت أعرف أنها ليست ميّتة حقًّا!" قال.

"إنها كذلك"، قلت. "لكن بمقدوري إنقاذها!".

"حسنًا"، قال. "أنا مُستعدٌّ". قبضَ على ذراعَيْ مقعده وكأنه يخشى أن أيًّا ما سيأتي سيطرحه عن مقعده.

"لكن هناك شرط"، قلت.

تجمّد وجه تاسو. "شرط؟" كرّر.

"نعم، تقول آمور إنه فور أن أستعيدها، لا أستطيع النظر إليها حتّى نغادر الكهوف بعد نهر ستيكس (الجحيمي)".

"لكن لماذا؟".

"هذه مشيئة الآلهة".

"لكن هذا ليس عدلًا!".

"الآلهة ليست عادلة".

"لكنك ستستعيدها، أليس كذلك؟".

"عليكَ أن تُنصت".

"إذن فلنبدأ على الفور!" قالَ مُزمجرًا.

غنَّيتُ. وفي عقلي، هبطتُ إلى الكهوف الجحيمية. تراقصت ربَّات انتقام أنجيوليني (Angiolini) حولي. رَجَوتُها أن تعطف عليَّ، لكنها تكاثرت وتصايحت لإبعادي. لم تستطع إخافتي؛ ذلك أن جحيمها لم يكن شيئًا بالمقارنة بجحيم الوحدة داخل قلبي. غنَّيتُ من أجلها: لن تكُنَّ بهذه القسوة فقط لو علمتُنَّ أعماق حبي.

كان وجه نيكولاي مُخضَّبًا. مسحَ الدموع بظهر يده المتكوِّرة. في الخارج، كان الشارع هادئًا أيضًا؛ حشدٌ قد تجمَّع حول نافذتنا. تصايح الحوذيون لأن عرباتهم لا تستطيع المُضيّ، وتدافع الرجال للاقتراب من النافذة. أخيرًا، على خشبة المسرح، توقَّفَت ربَّات الانتقام عن رقصاتها. تراجَعَ الشياطين، مذهولين من وجود حُبٍّ كهذا في الجحيم. سمحوا لي بالعبور.

انحسرت بوابات العالم السفلي مفتوحةً.

توقَّفت. كان هناك صمتٌ في الردهة. ابتلعَ ريموس ريقه، ومسحَ نيكولاي جبينه بكمِّه. مضغ تاسو شفته. لم أدعهم ينتظرون. بدأتُ في تلك الأغنية التي كانت أغوتني إلى مرقص جوداني قبل شهرين. غادرتُ الكهوف المظلمة، الملتهبة إلى الحقول الفردوسية الدافئة، الساطعة. كانت السماء صافية، وملأ الأمل قلبي، وفي عقلي، سمعتُ النغمات المُنعشة لمزمار جلوك.

كانت أغنيتي دثارًا دافئًا أضعه على أصدقائي. أردتُ طمأنتَهم كما طمأنَتْني الموسيقى. أردتُهم أن يشعروا بالأمل الذي كان في قلبي. زمَّ تاسو شفتيه، وأغلقَ نيكولاي عينيه وكأنه يتنعَّم في دفء صوتي. انبسطَ جبين ريموس، وارتخت عيناه. أبدًا لم أره وسيمًا هكذا.

في الخارج كان الليل صامتًا. ستُغيِّر هذه الأغنية من حال الشارع؛ لن أستطيع السير فيه أبدًا دون تحديق الناس، دون همساتهم. إنه مَن غنَّى في تلك الليلة الخريفية. جعلنا نتوقَّف ونُنصت. بثَّ فينا الرعشة. جعلَ أمِّي تبتسم. جعلَ أبي السقيم يغادر فراشه وينصت عند النافذة. إنه أورفيوس(نا)! كم كان جلوك ليبغضني، بعد أن أرقتُ عبقريته على آذانٍ ساذجة كهذه.

ثم هناك كانت هي، في عقلي، ظلُّ شكلها البشري. مددَتُ ذراعي، لكن فور أن خطَت إلى الضوء -قبل أن أرى وجهها- استدرتُ مبتعدًا؛ ذلك أنني لم أستطع النظر إليها، وإلَّا ستموت مُجدَّدًا.

عندما انتهيتُ من الأغنية، صارت أنفاس نيكولاي أمواجًا لطيفة؛ ظلَّت عيناه مُغلقَتيْن. ربما كان نائمًا. مالَ تاسو مُقتربًا. "هل عادت؟" همسَ. لم يرغب في تعكير صفو الليل.

"نعم"، قلتُ. رفعتُ يدي. "أحملها هنا. إنها حيَّةٌ مُجدَّدًا، لكنني لا أستطيع النظر إليها، وإلَّا ستموت".

تنشَّق تاسو بحدَّة.

"إنها لا تفهم"، قلت. "تظنُّ أنني لم أعد أحبُّها. هذا مؤلم جدًّا. تغنِّي وتقول أنها تُفضِّل الموت على أن تعيش دون حبِّي. إنه كالخنجر في قلبي. أودُّ لو أخبرها أن الآلهة تمنعني من النظر إلى عينيها. لا يوجد موضعٌ آخر أودُّ أن أنظر إليه. لكنني لا أستطيع قول كلمة واحدة حول عهدي، وإلَّا سيُنكَث، وستموت هي مُجدَّدًا".

"غنِّ ما تبقَّى بالألمانية"، قال تاسو. "لا أطيق انتظار الترجمة".

"تاسو"، قلتُ برفق. "لن تُلائم الموسيقى".

أشارَ ريموس إلى تاسو ليجلس على ذراع مقعده. قال إنه سيهمس بالترجمة في أذنه.

أغلقتُ عينَيّ. لعقَت ألسنة النار الجُدران. أمسكتُ بيدها في يدي، لكنها ما زالت نائيةً عنّي. أسرعي! أسرعي! كان علينا أن نهرب من هذه الكهوف الشنيعة، لنعود إلى النور، حتّى أستطيع رؤية وجهها. سيقتلنا هذا المكان. لكن الحزن كان قد أصابها بالوهن. انهارت على ركبتيها وتوسَّلَت إليَّ أن أنظر في عينيها.

طقطَقَت حواسي. سأجنُّ إذا لم ينتهِ هذا العذاب! توتَّر صوتي من الرعب. شعرتُ بأوتار عضلاتي تنتفخ في عنقي.

فتحتُ عينَيّ. في ردهة الاستقبال، همَسَت شفتا ريموس في أذن تاسو. اتَّسَعَت عينا نيكولاي وثَبَتَتا على وجهي. لم يكن أمامي خيار! لم أعد أتحمَّل وطأة آلامها!

نقضتُ وعدي. نظرتُ في عينيها، وللحظة واحدة أدركت يوريديس أنني أحبُّها. لكن عندها تحقَّقت مشيئة چوبيتر: ماتت.

حدَّقَ تاسو عند قدميَّ، حيث رأى يوريديس، ميِّتة على الأرض. رفع بصره إلى وجهي في ذهول، عيناه الصغيرتان جوهرتان لامعتان، مصقولتان بدموعه. سكَنَت المدينة في الخارج، لكنني صرتُ واعيًا الآن بالأنفاس الكثيرة. أدركتُ أن هناك أعينًا تُحملق وراء النافذة، يحدوها الأمل أن الأغنية لم تنتهِ بعد.

بدأت وتريات جلوك في العزف مُجدَّدًا في رأسي؛ أبدًا لم أشعر بالأنغام الأولى للمقطع (ماذا أفعل بدونكِ يا يوريديس *Che farò senza Euridice*؟) بكل هذا الحزن.

جلجلتُ. كنتُ جرسًا مصبوبًا من الجليد.

انحنى تاسو للأمام من مقعده، بعد أن لم يَعُد مباليًا بسماع ترجمة ريموس. بكى نيكولاي في يديه. جلسَ ريموس مُنتصبًا، بعينيه مُغلقتَيْن. في الشوارع كان هناك الكثير من البكاء. تشبَّثَ الأطفال بأمهاتهم. مالت العاهرات على عتبات نوافذهن، مُجاهدات ليرين وجهي؛ ذلك أنه كان هناك أمل في هذه الأغنية. وإذا استطاع أورفيوس، في حزنه، أن يستدعي هذا الأمل، فهم أيضًا سيقدرون. وفيما أغنِّي، ضمُّوا قبضاتهم وانخرطوا في البكاء.

عندما انتهيت، استندتُ إلى الحائط.

"هل انتهت؟" همسَ تاسو.

هززتُ رأسي، لكنني لم أستطع التحدُّث. بالطبع لم تنتهِ، وددتُ أن أقول. لكن هذا كان كثيرًا جدًّا. تذكَّرتُ أن يوريديس(تي) نائمة ليس بعيدًا عنِّي. لم أستطع التَّنفُّس. بدأت رأسي في الدوران. وحينها سقطتُ على ركبتَيَّ. كان آخر ما رأيته نيكولاي، عملاقًا، بعينَيْن مُغلقتَيْن، وابتسامة هادئة على وجهه، وكأنه رأى ملاكًا لتوِّه.

ثم تركتُ نفسي تهوي في الظلام.

* * *

كان تاسو بطلي المُنقِذ. اندفعَ من مقعد ريموس وأمسكَ بي قبل أن يصطدم صدغي بالمدفأة. وضعَ رأسي برفقٍ في حجره ومسَّدَ جبيني.

فيما أستفيق، سمعتُه يسأل ريموس، "هل هذا كل شيء؟ هل انتهى الأمر؟".

"نعم"، قال ريموس. "فقَدَ أورفيوس يوريديس مُجدَّدًا وللأبد. بحسب ڤيرچيل، سينوح لشهورٍ طويلة، شاديًا بمراثٍ بديعة، لدرجة أن كل حيوانات الغابة ستهرع لسماعه. لكن هذا سيُغضب نساء أزمرا،

اللـواتي لا يؤمـنَّ بحـبٍّ كهـذا. سـيمزِّقنه إلى شـظايا. وفيـما يطفـو رأسـه المقطـوع عـبر نهـر هيـبروس، سـيهتف باسـم يوريديـس".

تنهَّدَ تاسو. "لكن كيف لهذا أن يحدث؟" سأل. "لقد أحبَّها بشدَّة".

"لا يهم"، قال ريموس. "الآلهة ليست في غاية الرحمة".

"هذا غير حقيقي!" لهثتُ. "لقد سُمِعَ حبُّه!".

ثبَّتني تاسـو، خشـية أن أغشى مُجـدَّدًا، لكنـه ابتسـمَ ابتسـامةً عريضـة لريمـوس. "أنـا عـلى يقـين أن الأمـر لـن ينتهـي هكـذا!".

هـزَّ ريمـوس كتفيـه اسـتهانةً. "لكـن هكـذا ينتهـي الأمـر"، قـال. "بالطبع هنـاك روايـات أخـرى. في روايـة أوفيـد، كانـت نسـاء تراقيـا مَـن مزَّقـن جسـده".

"لا"، قلـتُ. جاهـدتُ للوقـوف عـلى يـد تاسـو المُعترضـة. "أنـا عـلى يقـين. يحـاول أورفيـوس قتـل نفسـه، لكـن آمـور تتدخـل، بتأثـيرٍ مـن مرثيـة أورفيـوس، ثـم تُعيـد آمـور يوريديـس إلى الحيـاة وتأخذهـما إلى معبـد الحـبِّ، حيـث تنتهـي القصَّـة! برقصـة باليـه".

تألَّقـت عينـا تاسـو. "نعـم، المعبـد!"، قـال. "سـتارة المـسرح الأخـيرة! هـذا حقيقـي. لقـد رأيتهـا!".

هزَّ ريموس كتفيه. "إذن فقد غيَّر كالزابيجي وجلوك القصة"، قال.

"ومـا المشـكلة في ذلـك؟" سـألَ تاسـو. نفـخَ غاضبًـا، وبقيـت شـفته السـفلى متدلِّيـة في تحـدٍّ للرجـل المُتعلِّـم.

"القصـة عمرهـا أكـثر مـن ألفـي عـام"، قـال ريمـوس. "واحـدة مـن أقـدم الأسـاطير. لا معنـى لهـا إذا داوَمَـت الآلهـة عـلى منـح أورفيـوس فرصـةً بعـد أخـرى. وإلَّا سـتصير رحيمـة إلى حـدِّ العبـث".

كان وجـه تاسـو غاضبًا. "أنـت لا تؤمـن بالحـبّ فحسـب". غـرزَ إصبعًـا قصـيرةً في ريمـوس.

ابتسـمَ ريمـوس بحنـوٍّ. هـزَّ كتفيـه وكان عـلى وشـك الإجابـة، لكنـه لم يجـد الفرصـة؛ لأنـه في تلـك اللحظـة تحـدَّث نيكـولاي. "أؤمـن بالحـبّ"، قـال. ظننـتُ أن العمـلاق كان غافيًـا، لكنـه استقام في مقعـده، باديًـا أقـوى ممَّا رأيتُـه قـطُّ منـذ وصـولي إلى ڤيينـا. "ولأثبـت ذلـك..."، تابـع، "سـأحضر العـرض الافتتاحـي".

بدا لهيب الشمعة وكأنه يتوهَّج وينير ابتسامته.

"العرض الافتتاحي؟" غمغمَ ريموس. "ماذا تقصد بالـ..".

"نعـم!" قلـتُ ونهضـتُ واقفًـا، دائخًـا مـا زلـتُ مـن نوبـة إغـمائي، وخطـوتُ إلى مقعـد نيكـولاي. "لا بُـدَّ أن تكـون -أنـتَ- مـن بـين كل البـشر تسـتحقُّ أن تكـون في ذلـك الحشـد". "سـتـ.."، لكننـي توقَّفتُ بغتـةً، مُدركًا حينهـا فقـط العقبـات الكثـيرة. لم تتـلاشَ ابتسـامة نيكـولاي. "لكـن... لكـن كيـف سـتحتمل عينـاك الضـوء؟".

"سـتضع شـوالًا عـلى رأسي وتقـودني مسـتعرضًا إيَّـاي عـبر الشـوارع كالخاطـئ الـذي كنتُـه"، قـال. "لكـن في المـسرح، حيـث سـأجلس، سـيكون ظلامًـا".

هـزَّ ريمـوس رأسـه. "لا. الضـوء ينتشر في أرجـاء المـسرح"، قـال. "حتـى نـرى جميعنـا الإمبراطـورة".

"لا يوجـد ضـوء في كل مـكان"، قـال نيكـولاي. "ليـس تحـت خشـبة المـسرح".

نهَـضَ تاسـو مُندفعًـا. "لا"، قـال. "لا، لا يُسـمَح بهـذا". لـوَّحَ بيديـه، نابشًـا في الهـواء. "سـتقطع الإمبراطـورة رأسي".

"لا تقلـق بشـأن رأسـك"، قـال نيكـولاي بابتسـامة. "إنـه قلبـك مـا نريـد!".

اندفعـت تحديقـة تاسـو مـن نيكـولاي، إلى ريمـوس، ثـم إليَّ. تطلَّـع إلى البـاب؛ مَهرَبـه. عـضَّ شـفته، ثـم تطلَّـعَ مُجـدَّدًا إلى البقعـة حيـث كنـتُ أغنِّـي، وأشرقَ وجهـه.

"لكن عليكم أن تعدوني ألَّا تلمسوا شيئًا"، حذَّرهم.

"يمكنـك ربـط يـدَيَّ خلـف ظهـري"، قـال نيكـولاي. "لا أحتـاج إلى شيء سـوى أذنَيَّ. هـذا، عزيـزي تاسـو، مـا أعـدك بـه".

(13)

وقعَ الأمر في الخامس من أكتوبر، 1762، قبل أربعين سنة تقريبًا من الآن إذا أحصينا دورات الشمس، لكن أطول من ذلك بكثير على أيّ مقياس آخر. كان نابليون الضئيل ما يزال يحتاج إلى سبعة أعوام حتّى يتهيّأ ليُولد، وثلاثين عامًا أخرى ليغزو فرنسا. في تلك السنة كان روبسبيار وإرهابه يبكيان في مهدهما في كاليه فريديك العظيم كان فريدريك فحسب. أمريكا كانت مكانًا بعيدًا ينمو فيه القطن، لكن بلا أمّة تُسبِّب الحَرَج لچورچ الثالث بالثورات. باخ وڤيڤالدي كانا ما يزالان أبطالنا. أبدًا لم يكن أحدٌ قد سمعَ عن بيتهوفن؛ لم يكن حيًّا بعد. موتسارت الصغير كان في السادسة؛ يُسرع، في تلك الليلة على بُعد عشرة أميال فحسب من حيث تتكشّف هذه القصة، نحو المدينة الإمبراطورية ليعزف على كمانه الصغير أمام الإمبراطورة. اليوم، أماديوس ميّت منذ خمسة عشر عامًا بالفعل، رغم أنه سيفوقنا عمرًا جميعًا.

كان العـام 1762 عامًـا يغـصُّ بالحالمـين رغـم أيِّ شيء. وواحـد مـن أكـثر الحالمـين إخلاصًـا كان يحمـل شـوالًا عـلى رأسـه في تلـك الأمسـية مـن أكتوبـر. كان يُحشَر بقدميـه أولًا في مزلـق فحـم، الـذي لم يكـن، رغـم أنـه كان ربمـا أوسـع مَزلـق فحـم في الإمبراطوريـة، عريضًـا بمـا يكفـي لهـذا الحـالم، الضخـم كـدُبٍّ. دفعـه صديقـاه بعنـفٍ دفـعَ الكثـير مـن المـارَّة المُتأنقـين للتَّوقُّـف في ذعـر. ثـم كان هنـاك تمـزُّق في الملابـس وفرقعـة قويـة، وانزلـقَ حالمنـا إلى المزلَـق.

* * *

تركـتُ صديقَـيَّ في كهـف تاسـو وهرعـتُ عائـدًا إلى المـسرح. كان سـيدي قـد أرسـلني لجلـب النبيـذ وسـيوبِّخني إذا تلـكَّأتُ أكـثر. كان البهـو الصغـير ممتلئًـا عـن آخـره، لحـدٍّ أن الأصـوات المُدمدمـة كان تهـزُّ الأرض. انقسـمَ المدخـل. عـلى جانـب يتدافـع عامـة الشـعب. يلوِّحـون بتذاكرهـم كالأعـلام؛ ذلـك أن تلـك التذاكـر -التـي تسـمح لهـم فحسـب بالتحديـق من الشُرَّافـات العاليـة أو الجلـوس عـلى المقاعـد الطويلـة القاسـية في المؤخِّـرة- تمنحهـم فرصـة أن يتنفَّسـوا نفـس الهـواء الـذي تتنفَّسـه الإمبراطـورة، وأن يُشـاهَدوا معهـا، وأن يُشـاهَدوا مـع مَـن شُـوهِد معهـا. انتظـرَ هـؤلاء الرجـال، بصحبـة زوجاتهـم، مـن المحامـين، والكَتبـة، والأطبـاء، والحرفيـين البسـطاء، بفـارغ الصـبر، فيـما عـلى الجانـب الآخـر، يتهـادى تيَّـارٌ مـن النبـلاء، وجوههـم معروفـة للجميـع، عـبر المدخـل.

كنـتُ أعرفهـم جيـدًا الآن. كان هنـاك صاحـب السـعادة الـدوق هيبرسـتين وبناتـه الثـماني، جميعهـن حمقـى، بسـيطات العقـل، ويسـعى الكثـيرون للـزواج منهـن. وراءهـم، كان السـفير الإسـباني، الـدوق أجيليـار، في مـزاج نَكِـد بوضـوح؛ ذلـك أنـه وافـقَ عـل مشـاركة مقصورتـه مـع أمـير جالزيـن المُضجِـر مـن روسـيا. الجـنرال بـراون كان في بروسـيا يحتـضر مـن الغنغرينـا، لكـن زوجتـه كانـت هنـا، بابتسـامةٍ عـلى وجههـا. فيـما

الـدوق جرونداكـير شـتاريمبيرج العجـوز في انتظـار ابـنٍ أو حفيـد ليقـوده إلى مقصورتـه؛ ذلـك أنـه لم يَعُـد يسـتطيع الوصـول إليهـا بمفـرده. رغـم أن الدوقـة هاتسـفيلدا وصلـت في واحـدة مـن أفخـم العربـات، إنهـا لم تتمكَّن مـن دفـع الأربعمائـة جولـدن لمقصورتهـا هـذا الموسـم، ولهـذا دلَفَـت وراء الأمـيرة لوبكوفيتـز، الـذي أخذتهـا الشـفقة وتـركَ الدوقـة البدينـة تجلـس وراء أطـول أبنائهـا. بـين مسـيرة الموسـلين الخوخـيِّ والبـاروكات المُغـبرَّة كان أيضًـا أولئـك، أمثـال الهـير بوتـون بعروسـه الطفلـة فائقـة الجـمال، الذيـن لا يحملـون أيَّ ألقـاب؛ لم يكـترث بوتـون قـطُّ بـشراء لقـب.

اندفعـتُ عـبر البهـو حامـلًا نبيـذ جـواداني أمامـي في يـدٍ، ويـدي الأخرى تصـدُّ الأمـيرات بعيـدًا. كانـت هنـاك دانتـلا، وأهـداب، والتماعـات كثـيرٍ من النياشـين. شـعرتُ بالغثيـان مـع تمايُـل كل ذلـك. أغلقـتُ عينَـيّ للحظـة واحـدة فحسـب. شـعرتُ بالنبيـذ يتناثـر عـلى رِسـغي.

تلـكَّأت الحشـود في الأروقـة خـارج مقصوراتهـم، يثرثـرون، ويتفاركـون بـين بعضهـم البعـض في المسـاحة الضيقـة. التصقـتُ بالحائـط، محـاولًا ألَّا ألامـس الأرديـة الواسـعة بركبتـي الخرقـاء. مزيـدٌ مـن النبيـذ انسـكب عـبر الحافـة، أو يـا إلهـي، لطخـة داميـة عـلى مؤخـرة أرملـة! أخـيرًا، اجتـزتُ المقصـورة الأخـيرة ووصلـتُ إلى بـاب خشـبة المـسرح.

هنـا، وجـدتُ مزيـدًا مـن الاسـتثارة. في نهايـة ملعـب الكـرة السـابق كانـت هنـاك مسـاحة صغـيرة لـكل أشـكال الماكينـات السرِّيَّـة التـي تعمـل وراء خشـبة المـسرح. اندفـعَ الموسـيقيون بآلاتهـم محمولـةً عـلى أكتافهـم، كجنـودٍ يحملـون البنـادق. مـلأ عـمال المـسرح التابعـون لتاسـو المصابيـح بالزيـت، وزيَّتـوا أخاديـد الجنـاح. كنسـوا خشـبة المـسرح لمـرَّة أخـيرة؛ لأنـه إذا تعـثَّرَ جـواداني وسـقط، فحتـمًا سـيُطعمهم للدِّببـة في حديقـة حيـوان الإمبراطـورة. لطَّخَـت (ربَّـات الانتقـام) وجوههـن بالمكيـاج الأسـود. أخـرجَ

تاسو رأسه عاليًا عبر الكمبوشة وصاح، "إذا لمَسَ أيٌّ منكم مشاهد كواليو، فسأقضم أصابعكم القذرة!".

جلجَلَت سنيورا كلافارو بالنغمات المُتسارعة في حجرة ملابسها المزدحمة، وفي حجرة سنيورا بيانشتي، رأيتُ عبر الباب ذي الشقوق، يوريديس تتلطَّخ بطلاء أبيض حتَّى تبدو ميِّتة كما ينبغي في المشهد الأول من الأوبرا. كنتُ سكبتُ نصف النبيذ حينها، ودافعت عمَّا تبقَّى كما كنتُ لأدافع عن دمائي.

كانت لدى جواداني الحجرة الوحيدة الأكبر من خزانة ملابس. طرقتُ الباب ودلفتُ، رغم أنه لم يُجب. كان أيُّ إنسان يجرؤ على الدخول عُرضةً للسباب، لكنه أرادني هنا؛ الطريقة التي تطلَّع بها إليَّ أنبأتني بهذا. جلسَ بظهره إليَّ ونظر إليَّ في مرآته. صُعِقتُ من الانعكاس، جفناه مُلتفَّان برفق، وتجاعيده مُنعَّمة بالدهان، ولأنه بدا أصغر بعشر سنوات. لوهلة، ظننتُ أنني أتطلَّع إلى نفسي في المرآة.

لكنه تحدَّثَ، ولم يكن صوتي. "هل نضبَ النبيذ من الإمبراطورية؟".

هززتُ رأسي وناولته الكأس. أخذَ رشفةً ووضعه جانبًا. نظرَ إلى المرآة. كان جلوك قد مضى في خططه؛ لم يكن هناك ريش طاووس، ولا دانتلا من الذهب، ولا باروكات. ارتدى أورفيوس مجرد غلالة بيضاء بسيطة، مفتوحةً عند صدره المنتفخ.

وقفتُ بجواره. حدَّق في نفسه فيما يتنشَّق عبر منخريه المُتَّقدَيْن، ثم أغلقَ عينيه وشكَّلَ فمه على شكل دائرة ضيقة، زافرًا وكأنه ينفخ برفق لإطفاء شمعه. عليه أن يدع حزنه يتعاظم، أخبرني، إذا أرادَ أن يجعلنا ندرك القصة عبر صوته.

وخزتني أصابع أقدامي داخل حذائي.

"سـنيور"، سـألتُ أخـيرًا، عاجـزًا عـن الوقـوف لحظـةً أخـرى. "هــل تحتــاج إليّ؟".

"هل لديك مكان آخر لتذهب إليه؟".

"لا"، قلـت. "لا أرغـب في إزعاجـك، هـذا كل مـا في الأمـر. هـل أنتظـر في الخـارج؟".

لم يُجب، لكننـي كنـتُ أدرك أنـه أبـدًا لـن يعـترف بحاجتـه إليّ بجـواره. "حسـنًا جـدًّا"، قـال.

خطـوتُ إلى الخـارج وأوشـكتُ عـلى الاصطـدام بحامـلي نعـش جنـازة يوريديـس الأربعـة. تفاديتهـم وقبضــتُ عـلى صبــي مهـزول -بـدا أنـه يهـرع مـن مـكانٍ لآخـر بـلا شيء يفعلـه- وأمرتـه بـأن يقـف خـارج بـاب جـواداني ويصيـح في كهـف تاسـو إذا نـادى المُغنِّـي في طلبـي.

"ولمـاذا قـد أفعـل ذلـك؟" قـال الصبـي. رغـم أننـي أعلـوه طـولًا، رفـعَ إليّ بـصره شـزرًا وكأننــي أقـصر منـه.

فتَّشـتُ في جيـوبي. فارغـة. وعدتُـه بعشريـن قرشًـا. أومـأ واتَّخـذَ موقعه، وغطسـتُ أنـا في كمبوشـة مفتوحة.

تحــت خشــبة المـسرح، في كهـف تاسـو، كان نيكـولاي يضطجـع عـلى فـراش تاسـو النقَّـال. ابتسـمتُ لأنـه بـدا مسـتريحًا عليـه، رغـم أنـه سـحقَه إلى اثنتـي عـشرة قطعـة. وريمـوس يجلـس بجـواره عـلى الأرض، مُسـتندًا عــلى الموقـد الحديـدي البـارد. انزلـقَ تاسـو في أرجـاء غرفتــه المُظلمـة، فاحصًـا الحبـال، ومُزيِّتًـا كُتَـل البكـرات. ثـم نهـضَ مندفعًـا ورفـعَ رأسـه عـبر كمبوشــة ليصيـح في العـمال الكسـالى ليضيئـوا المصابيـح، ثـم تـدلَّى مـن هنـاك، جسـدًا بـلا رأس، مُنتفضًـا في رعـب فيـما يوشـكون عـلى إحـراق السـتارة. لم يَبـدُ عـلى نيكـولاي أنـه لاحـظَ انشـغال الرجـل الضئيـل؛ أرادَ أن يعـرف كل حبـل، وكل كمبوشـة.

"ومـاذا عـن بكـرة السَّـحب في المقدمـة؟" سـأل. "هـل ترفـع رداء الإمبراطـورة، حتَّـى نـرى جميعنـا تنُّورتهـا؟".

"هـذه رافعـة مصابيـح المـسرح!" زمجـرَ تاسـو، ممُتعضًـا مـن جهـل نيكـولاي.

"وذلـك الحبـل؟" قـال نيكـولاي، مُضيِّقًـا عينيـه في ضـوء المصبـاح الخافـت.

"يُشغِّل الكمبوشة الوسطى!".

"مُدهشةٌ"، قال نيكولاي لريموس، "معلوماته".

نظرَ ريمـوس إلى نيكـولاي بارتيـاب. "لا تلمـس شـيئًا!" همـسَ، حتَّـى لا يسـمع تاسـو.

رفـعَ نيكـولاي يدَيـه. لم يُـصرَّ تاسـو، في نهايـة الأمـر، عـلى ربطهـما. "أنـا بـريء بـراءة الإمبراطـورة".

كنـتُ في غايـة السـعادة لرؤيـة نيكـولاي يتألَّـق. احتضنتـه فيـما أزحـف مُتخطِّيًـا إيَّاه.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل.

"لأرى"، قلت من فوق كتفي. "لأرى!".

قبـل بضعـة أيَّـام، اكتشـفتُ شـقًّا صغـيرًا كان تاسـو يسـتخدمه للتلصُّص عـلى جلـوك. زحفـتُ إليـه وحدَّقـتُ مـن خلالـه. أبـدًا لم أرَ حشـدًا بديعًـا هكـذا. في "حظـيرة الثـيران"، حشـدٌ مـن أرقـى الرجـال في العـالم يتبادلـون الحديـث بصـوتٍ عـالٍ. لا بُـدَّ أن الجالسـين في المقصـورات سـمعوا كل كلمـة، وهـو مـا كان، بالطبـع، الغايـة مـن الصخـب. فوقهـم، طنطنـت الثُّريَّـا المُثقلـة بالشـموع برنـين أصـواتٍ كثـيرة جـدًّا.

على يساري كانت المقصورة الملكية، وراء الأوركسترا مباشرة. كانت مميَّزة تلك الليلة بمظلَّة قرمزية، وكأنهم يتوقَّعون سقوط رذاذ من المطر في المسرح. في المنتصف، ناهدة ومتورِّدة، كان تجلس المرأة العظيمة، الإمبراطورة والأمُّ لستَّة عشر طفلًا. التمعَ خدَّاها وكأن أحدهم قد صفعهما لتوِّه. بجوارها، كان الإمبراطور-بأنفه منتفخًا، وفمه رفيعًا وضيِّقًا- شكلًا بشريًّا شاحبًا، كابيًا. أحاطت بهما هالةٌ من أطفالهما.

لكنني لم أكن عند هذا الشقِّ لأنظر إلى الإمبراطورة.

مئات الأعين كانت تحملق إلى الأسفل من مقصورة *Le Paradis* المزدوجة، وكأنها تُفكِّر في القفز. ربما كانوا ليخاطروا بالإصابة، لكن السقوط على دوقة كان يعني نفيًا أبديًّا من المسرح.

بحثَ أذناي في جميع أصوات المسرح. لا بُدَّ أنها هنا، لا بُدَّ.

بدأت الأوركسترا في موالفة الآلات بفوضى نشاز. كانت المقصورات تمتلئ شيئًا فشيئًا. في معظمها يجلس ستَّة: ثلاثة على الحاجز، وثلاثة خلفهم (كان التنسيق ضروريًّا لرؤية خشبة المسرح من الصف الثاني!) وقفَ الأبناء والبنات من الفائضين وراء أشقَّائهم الأكبر سنًّا. كان هناك مصباح يشتعل في كل تجويف؛ لذلك بدت كل مقصورة وكأنه خشبة مسرح في حدِّ ذاتها.

ثمَّ، قُبالة الإمبراطورة على الطابق الثاني، دلفا. كانا قريبَيْن للغاية لحدِّ أنني تبيَّنتُ الأوتار المُرهفة في عنق الكونتيسة ريشر فيما تقود الكونت ريشر إلى الداخل. ثم دلفت أماليا قبل أنطون؛ وحلَّقَ قلبي عاليًا! إنها هنا! تبعهما أربعة آخرون من سلالة ريشر، لكنَّ عينيَّ لم تريا سوى أماليا، غضَّة ومتوهِّجة، أجمل مثال كان بمقدور الكونتيسة ريشر استعراضه، مهما أنجَبَت من أطفال هي نفسها. مُنحت أماليا شرف الجلوس في المقعد الثالث في الصف الأمامي من مقصورة العائلة.

جلسَ أنطوان وراءها. وضع يدًا على كتفها وابتسم كأنه يقول، ترين؟ ترين أنني على حق؟

كنتُ متيقِّنًا أنها ستكون مِلكي مُجدَّدًا قريبًا. عندما ينظر أورفيوس في عينَيْ يوريديس، ستكون آمور رحيمةً بنا كما هي رحيمة مع هذين العَشيقَيْن الأسطوريَّيْن على خشبة المسرح.

* * *

ثم صاحَ القنفذ -الذي طلبتُ منه الوقوف والمراقبة خارج باب سيِّدي- في الكهف، "جوداني ينادي على صبيِّه!" كان البائس الضئيل يقف أعلى الكمبوشة، بيده ممدودةً لتلقِّي مكافأته. ابتسمتُ وأخبرته أنني سأدفع له غدًا. تجهَّمَ وجندلني فيما أمرُّ به.

تقدَّمتُ متعثِّرًا إلى باب جوداني فورَ أن فتحَه. كان يرتدي معطفه على كتفيه، ووجهه هادئ. "أنا جاهز"، قال.

أومأتُ، لكنني لم أكن متأكدًا ممَّا ينبغي فعله. استدرتُ إلى حشد العُمَّال الواقفين في إعجابٍ ذاهل بالمُغنِّي. "إنه جاهز"، قلت.

للمرَّة الأولى في حياتي، انصاعَ العالَم لكلماتي على الفور. ثم خبَت الحماسة. اندفعت "ربَّات الانتقام"، وكأنَّهن خفافيش عملاقة، للاختباء في الاستراحات على الجناحين. اتَّخذَ العُمَّال مواضعهم وسَكَنوا تمامًا. هرَعَت الجوقة إلى خشبة المسرح. تسلَّقَت يوريديس نعشها وصارت ميِّتة. وراء ستارة المسرح، كان كل شيء صامتًا فيما يخطو جايتانو جوداني إلى خشبة المسرح.

تبعتُه. شعرتُ بخطواتي ثقيلة للغاية، لحدٍّ أنني تأكَّدتُ أن الإمبراطورة نفسها ستسمعها. كان لغط الجمهور وراء الستار كجيشٍ غازٍ ينتظر وراء بوابة المدينة- رجاءً، انتظروا حتَّى أهرب! وقفَ

جـواداني في منتصـف خشـبة المـسرح. صالـبَ قبضتَيْـه عـلى صـدره. كان الحـزن مرسـومًا عـلى وجهـه.

أومأ إليّ.

مـاذا ينبغـي أن أفعـل؟ تطلَّعـتُ إلى يسـاري، إلى يمـين. حملـقَ فيَّ كل عامـل وكل مُغنِّـي جوقـة، لكـن تحديقاتهـم الخاويـة لم تساعدني في شيء. افعلهـا، قالـت التحديقـات. الجميـع ينتظـر أن تقـوم بمَهمّتـك.

مـاذا أفعـل؟ أغـادر؟ أختلـس النظـر عـبر السـتارة وأخـبر جلـوك أن الجميـع مُسـتعد؟ لم يخبرني أحـدٌ بـأي شيء! أبـدًا لم أحـضر أوبـرا مـن قبـل!

ثـم أدركـتُ الأمـر: معطفـه. كان ذلـك معطـف جـواداني وليـس أورفيـوس. أخذتـه وكأننـي أزيـل دثـارًا عـن رضيـعٍ نائـم.

هرعـتُ خارجًـا مـن خشـبة المـسرح عندمـا بـدأ التصفيـق. نقـرَ جلـوك مرّتـين لجـذب الانتبـاه ثـم بـدأت الافتتاحيـة. لكـن جـواداني لم يتحـرك. كانـت رأسـه منحنيـة. كانـت المصابيـح عـلى حافـة خشـبة المـسرح قـد ارتفعـت قليـلًا لتَوِّهـا، وأضـاءت وجهـه بإعتـام. وراءه، كانـت جوقـة النائحـين سـاكنةً كلوحـة لجنـازة.

انتهت الافتتاحية. افترقت ستارة المسرح.

تحوَّلـت موسـيقى جلـوك إلى لحـنٍ جنائـزي حزيـن. بجـواري، رفـع الحَملَـة نعـش يوريديـس وتقدَّمـوا إلى الأمـام ببـطء. ظـلَّ جـواداني مُنحنيًـا حتّـى بـدأت الجوقـة غناءهـا. ثـم ارتفعـت رأسـه حتّـى صـارت عينـاه في مسـتوى حُبِّـه، ميّتًـا أمامـه.

غنَّى باسمها.

كنـتُ أيقظـتُ سـبيتلبرج بذلـك النـداء. فيـما يمـلأ صوتـه فـراغ المـسرح، أيقـظَ جـواداني ألفًـا وأربعمائـة قلـب. لوهلـة جلجـلَ صـداه مـن كل ركـنٍ.

غنّى مُجدّدًا، بصوته أكثر حسرةً، ورنّت المقصورات الخشبية والثُّريّات الكريستالية باسمها، مُخمدةً الأقدام المتبدِّلة والأيادي المُتململة.

رأيتُ هذا مرّات كثيرة في البروفات، لكنه الآن صار طقسًا سحريًّا؛ هذا الحشد المُجتمِع، بعطورهم من الورد والياسمين؛ هذه المرأة الميّتة المُمدّدة على نعشها؛ الحرارة الخانقة للمصابيح وألف وأربعمائة جسد؛ صوت جواداني أكثر إشراقًا ممّا سمعته من قبل قطُّ- كل هذا استحضرَ العاشقَيْن الخالدَيْن إلى الحياة. التمعت الدموع على وجهي ووجوه أخرى كثيرة فيما أورفيوس يُغنّي مرثيّته، فيما چوبيتر يسمع نداءه ويرسل بآمور إليه. سرعان ما اختلطت أصوات جواداني وكلافارو في قعر المسرح. تماوجَ قلبي. سيستعيدها! سيُنقذ يوريديس من الموت.

عندما انغلقَ الستار، هرعتُ إلى جواداني بالمعطف، لكن هزَّ رأسه. انفجرَ المسرح بالتصفيق. أربع مرّات خطا جواداني عبر الستار لينحني بالتحية لجمهوره. استمرُّوا في التصفيق، لكنه خطا عائدًا إلى حجرة ملابسه.

أطلَّ رأس تاسو من إحدى الكمبوشات، وعندما انغلق باب المُغنّي، وثبَ عامل المسرح إلى العمل. سمعتُ التفاف كُتَل البكرات، وصرير دوران المحور، وشدَّ الحبال، وكأنه بفعل السحر، انزلقت أطُر الجناح إلى مسارتها. سقطَت الستارة الخلفية. تحرّكَ الزجاج المصبوغ بالأحمر أمام المصابيح، مُحوِّلًا خشبة المسرح إلى أحمر مُرتعش. كان ذلك هو الكهف وراء نهر ستيكس، حيث سيروِّض أورفيوس "ربّات الانتقام".

شرعَ جلوك في الفصل الثاني.

رقَصَت "ربّات الانتقام" سوداوات الوجوه. طقطقت كواحلهن فيما ينتفضن ويتلوّين. ثم تجمّدن بفعل قيثار؛ ذلك أن الأمل والحب كانا مُحرَّمين في كهفهنّ. أطلقن اللعنات والسباب على الرجل الذي

جـرؤَ عـلى جلـب الجَـمال إلى العـالم السـفلي. غنَّـينَ أعـلى ليهزمـن قيثـار أروفيـوس. انفتـحَ بـاب جـواداني فيـما يصـدح القيثـار مُجـدَّدًا. هـزَّ كتفيـه لطـرح المعطـف، دون أن يلمحنـي حتَّـى، وتقـدَّمَ إلى خشـبة المـسرح. حاولـتُ أن ألتقـط المعطـف، لكنـه سـقطَ عـلى الأرض.

رقصت "ربَّات الانتقام" حول أورفيوس، مُحاولاتٍ إخافته وإبعاده.

لكنـه وقـفَ بهـدوء: شـجرةٌ راسـخة وسـط عاصفـةٍ مـن فـروعٍ خافقـة. لا يعـرف حبُّـه مـا هـو الخـوف، وصوتـه الغـارق في الوحـدة أقـوى مـن الجوقـة. تكاثـفَ الهـواء في المـسرح عندمـا صـدحَ، وأدرك الجمهـور أنـه لا فرصـة لتلـك الشـياطين أمـام عنفـوان أورفيـوس. ازدادت أصـوات الرَّبَّـات ضعفًـا، ورقصاتهـن هـدوءًا. سـمحن لـه بالمـرور، وراقبنـه مُتهيِّبـاتٍ فيـما يختفـي في الظـلال.

غادرَ جواداني خشبة المسرح، وكنتُ هناك لاستقباله.

* * *

انغلقـت السـتائر للحظـة فحسـب. لـفَّ تاسـو بكرتـه وأرخـى السـتارة الخلفيـة. اختفـت أُطُـر الجنـاح الحمـراء القاتمـة، وحلَّـت محلهـا سـماء في غايـة الزُّرقـة. ارتـدَّ الزجـاج المصبـوغ بالأحمـر. عندمـا افترقـت سـتارة المـسرح مُجـدَّدًا، كان تاسـو قـد جلـب الجنَّـة إلى الإمبراطوريـة.

أبهـجَ باليـه أنچيولينـي أعـين الجمهـور. وقـفَ جـواداني بجـواري في الجنـاح، برأسـه مُنحـنٍ وكأنـه نائـم. ارتفـعَ كتفـاه العريضتـان وانخفضتـا. انتهـى الباليـه، واحتشـدت الجوقـة لرؤيـة دخـول البطـل.

عندمـا مـلأت أنغـام المزمـار الأولى المـسرح كشـعاع مـن الشـمس، تهـادى جايتانـو جـواداني عائـدًا إلى خشـبة المـسرح. توقَّـفَ أورفيـوس بالضبـط في نفـس البقعـة عـلى الخشـبة حيـث كان بـدأَ أوبـرا مأسـاته.

صار يتضخَّم الآن مع كل نَفَس. أدركَ الجمهور أن شيئًا كان يحتشد داخله. جلسوا مائلين للأمام، توَّاقين لمشاركة بهجته.

انسابَت أغنية الآريا من حلقِه النفيس، تخدِّر جسدي بدفئها. تناميتُ، للأعلى وللخارج، فيما يملؤني التَّرقُّب، لكنني كنتُ حذرًا ألَّا أُصدر أيَّ صوتٍ فيما أهبط إلى كهف تاسو. كان الرجال الثلاثة مستلقين بجوار بعضهم البعض على الأرض، مُحملقين في السقف وكأنهم قادرون، عبر الخشب القاتم، على رؤية التدويمات الذهبية لصوت جوَاداني تتفشَّى عبر خشبة المسرح. حقًّا، كان صوت سيدي -ضعيفًا للغاية على الانفعالات المُتفجِّرة- مناسبًا لسَكِينة هذه الأغنية.

زحفتُ تحت شبكة الحبال إلى شقِّ التَّلصُّص. التمعَ وجه جلوك بالعرق فيما يتجلَّى في إبداعه. وراءه، في "حظيرة الثيران"، كانوا يحملقون في أورفيوس بوجوهٍ مُسترخية، دون أن تطرف أعينهم. جلسَت العائلة الملكية بسكونٍ شديد، لحدِّ أنني ربما كنتُ أنظر إلى بورتريه. لم يكن هناك أيُّ نَفَس أو حركة من *Le Paradis*، لا شيء سوى وميض الأعين النَّديَّة.

أماليا! قبَضَت على الحاجز أمامها وجلست مُعتدلةً، مشدودةً. آلَمتْها الموسيقى. عضَّت شفتها، ذلك أن ألف وجه سيستدير حتمًا لو فقدت كِنَّة الكونتيسة ريشر هدوءها. مسحت دمعةً بيدٍ ذات قفَّاز أبيض، ثم ضغطت بمفصل إصبع على ذقنها المُرتعش.

وضعَ أنطون يدًا على كتف زوجته. تخشَّبَت. تنشَّقَت بضعة أنفاس. أخَذَت أصابعه في أصابعها، لكن فقط طويلًا بما يكفي ليرفع يده على كتفها ويُفلته. سحبَ أنطون ذراعه وانصبَّ بتركيزه مُجددًا على خشبة المسرح.

أبـدت الكونتيسـة ريـشر نظـرةً مسـتاءة، لكـن بـدا أن أماليـا لم تلاحظها. كانـت تنظـر بخـواء إلى المقصـورات عـبر المـسرح، بأنفـاسٍ قصـيرة وثابتـة حتّـى انتهـى جـواداني مـن غنائـه.

قريبًـا سـتُحبِّين الموسـيقى مـن جديـد، همسـتُ، وزحفـتُ مبتعـدًا عـن شـقِّ التَّلصُّـص.

* * *

انحنــى جــواداني تحيّــةً للجمهــور وخطــا إلى حجـرة ملابســه. حــان وقـت تسـليم الرسـالة، لكـن المُغنّـي كان قـد تـركَ البـاب مواربًـا خلفـه. بـتردُّدٍ كبـير تَبعتُـه.

"سـنيورا كلافـارو تُغنّـي كبقـرة"، قـال. لم تكـن هنـاك أيُّ حقيقـة في عبارتـه هـذه؛ لأنهـا غنَّـت بشـكل بديـع. لكننـي أومـأت. ارتشـفَ رشـفةً مـن النبيـذ.

اندفـع جلـوك مُقتحـمًا الغرفـة. ابتسـم المؤلـف الموسـيقي إليَّ وبـدا وكأنـه يـودُّ معانقتـي، ثـم أدرك أننـي لسـتُ مَـن يبحـث عنـه. دفعنـي جانبًـا ليخطـو إلى جـواداني.

"يا له من نجاح!" هتف جلوك.

أومأ جواداني.

"انتظـر حتَّـى يسـمعوا الفصـل الثالـث! سـيحيا أورفيـوس مـن جديـد!" لمَحَـت عينـا جلـوك كأس جـواداني. "هـل تسـمح؟" سـألَ، ودون انتظـار إجابـة، اجـترعَ مـا تبقَّـى مـن نبيـذ جـواداني. صلَّيـتُ ألَّا يرسـلني لجلـب المزيـد. "سـأذهب إلى مقصـورة الكونـت"، قـال المؤلـف الموسـيقي.

"أرسِلْ بتحياتي إلى جلالتها"، أجابَ جواداني.

اختفى جلوك ليتحدَّث مع الكونت دوراتسو، الذي كانت مقصورته متاخِمةً لمقصورة الإمبراطورة. انسللتُ ناحية الباب. "سأكون في الخارج"، قلتُ. "إذا احتجتَ إليّ".

"لا"، قال. "ابقَ. أغلِقْ الباب".

فعلتُ، مُتمنِّيًا لو كنتُ على الجانب الآخر، ثم عدتُ للوقوف بجوار سيدي. تمعَّن في المرآة.

مدَّ يده بغتةً ووضعها على كتفي. أدركتُ أنه يقصد أن أضع يدي على كتفه. ضغطتُ بيدي على كتفه.

"من الخيرِ أننا وجدنا بعضنا البعض"، قال. "هذا العالم ليس مكانًا عطوفًا، وعلى الأخصّ علينا".

علينا؟ فكَّرتُ. لكننا لسنا متساويَيْن.

"شقيقي *Mio fratello*"، تابعَ. "أنا آسف إذا كنتُ آذيتك تلك الليلة. كان اندفاعًا من جانبي. في جهلك، ظننتَ أن بمقدورك مساعدتي. أنا واثق أنك لن ترتكب ذلك الخطأ مُجدَّدًا. أُدرك ذلك الآن؛ ولهذا أنا نادم على كلماتي. ترى، عرفتُ تلاميذَ كُثرًا في الماضي. في النهاية، غادروني، أو أبعدتهم بنفسي. أبدًا لم أجد تلميذًا واحدًا بمقدوري الثقة فيه بالكامل. حتَّى وجدتُك. أنت مختلف".

كانت يدي تتعرَّق. دعني أغادر!

"عاجلًا أم آجلًا، جميعهم تحوَّلوا إلى ذئاب. أرادوا ما لديَّ. أنت مختلف. لا تريد شيئًا سوى سماعي أُغنِّي. أليس كذلك؟ هل هناك أيُّ شيء آخر تتوقُ إليه؟ أخبرني فحسب وسأمنحك إيَّاه".

"لا شيء"، قلت. لن تراني مُجدَّدًا أبدًا بعد الليلة.

ابتسمَ واعتصرَ يدي برفق. "هذا ما ظننتُه. تُدرك أن بمقدورك الوثوق بي أيضًا. لن أهجرك أبدًا. عندما أرحل عن ڤيينا، سترافقني. سنظلُّ المُعلِّم والتلميذ للأبد".

غمغمتُ بتشكُّراتي، وابتسم بلُطف. "والآن غادرني". قال. "لا بُدَّ أن أعود إلى أورفيوس. قبل أن ينتهي هذا الفصل الختامي، ستعرف ڤيينا أن أورفيوس صار حيًّا مُجدَّدًا".

خطوتُ متراجعًا بهدوء، كمُربِّيةٍ عن طفلٍ نائم خشيةَ إيقاظه، لكن عندما أغلقتُ بابه، اندفعتُ إلى أقرب كمبوشة. "الرسالة!" صحتُ في الظلام. "الرسالة!".

كان نيكولاي قد أصرَّ على حملها، قائلًا إنه يرغب في إبهاج قلبه مُجدَّدًا بحبٍّ حرون كحبِّنا. عندما صحتُ تحت خشبة المسرح، استردَّ ريموس قصاصة الورق ومرَّرها إلى الأعلى. لم تَعُد ذات مَظهَرٍ مَلَكيٍّ الآن، بعد أن تغضَّنت عند إحدى الزوايا، وبدا أن قبضة نيكولاي المُتعرِّقة قد لطَّخت الختم الشمعي، الذي وضعه ريموس قبل عدة ساعات. لكن هذا لم يهمَّ. طرتُ خارجًا إلى الرواق ولم ألق بالًا لشكوكي.

بدا أن نصف ڤيينا يحتشد في الأروقة. أربعة دوقات وأمير واحد على الأقل سبُّوني لمُدافعتهم بمرفقي في أحشائهم الوافرة قبل أن أصل حتَّى إلى الدَّرج. سمعتُ اجتراعات النبيذ وكأن الألسنة تتدلَّى في أذني. نجحتُ أخيرًا في الوصول إلى مقصورة آل ريشر. كان الباب مفتوحًا، ورجال كثيرون يتقاتلون لإقحام رؤوسهم إلى الداخل، في محاولة لمشاركة الحفل مع واحدة من أعظم عائلات ڤيينا.

"معذرةً"، قلت، مُزيحًا رَجُلًا كانت رأسه يتدلَّى قُرب مِرفقي. قاومني الرجل التالي، حتَّى عندما دستُ على قدمه. جذبتُ ذيل معطفه. وعندما استدارَ ليواجهني، انسللتُ من جانبه.

"رسالة إلى أماليا" -كتمتُ اسمها السابق- "ريشر".

كان هنـاك صمـتٌ مُحـرِج، وأدركـتُ أننـي صرخـتُ بذلـك بصـوت عـالٍ بعـض الـشيء. تـورّد وجهـي. اسـتدارت الـرؤوس ليـس في المقصـورة فحسـب، لكـن حتـى في الجانـب الآخـر مـن المسرح. انقـضَّ عـليَّ القمـر البـارد لوجـه الكونتيسـة ريـشر. اسـتدارت أماليـا أيضًـا، وتسـارعَ قلبـي. حملقـت إليَّ؛ فهـذا الصـوت ذكّرهـا بصـوتٍ تعرفـه.

"مـن جايتانـو جـواداني"، قلـت، بأهـدأ مـا أسـتطيع. اسـتقرّت عينـا أماليـا عـليَّ للحظـة أخـرى، لكـن تحديقتهـا المتوسِّـلة ازدادت قتامـةً؛ خدعتهـا عيناهـا. أشـاحت بنظرهـا فيـما يـدٌ تمسـح دمعـةً.

تجهّمت الكونتيسة ريشر، وكذلك كل إنسان داخل مدى السمع.

"أعطِها لي"، قالـت الأم الكبـيرة. مـدّت ثـلاث أصابـع بيضـاء، مشـدودةً كمخالـب طـير.

"طُلِـبَ مِنّـي أن أضعهـا في يـد السـيدة وحدهـا"، قلـت، كـما أرشـدني ريمـوس.

غمغمَ أحدهم بشيءٍ ما عن وقاحة الطواشيّ.

"دعيهـا تسـتلمها"، قـال الكونـت ريـشر المهيـب، دون أن ينظـر إليَّ. "إنـه إعجـابٌ غـير مـؤذٍ. أيًّـا كان، فالرجـل جنـدي بـلا سـيف".

أثـارَ هـذا الضحـك في أرجـاء المقصورة. حتّى الكونتيسـة ريشر ابتسـمت بتحفُّـظ. تطلّعـوا جميعهـم إلى أماليـا، التـي ظلّـت يداهـا في حِجرهـا. كان ظهرهـا ناحيتـي مـا يـزال، ورأسـها قـد اسـتدار نصـف اسـتدارة فحسـب.

"عزيـزتي"، همـسَ أنطـون في أذنهـا، "لا يمكنـكِ رفضهـا. تقبّـلي الأمـر كتشريـفٍ. أثـرتِ إعجابـه مـن عـلى خشـبة المـسرح".

هزّت رأسها. "لا أريدها"، قالت.

قبـل أن أتمكّـن مـن الاعـتراض، قبـض أنطـون عـلى الرسـالة. عبـثَ بالختـم ومزّقـه، وبـدأ في فـضّ الورقـة.

"لا"، قلتُ بلا جدوى من الباب. رؤيا خاطفة: أَثبُ عليه وأُمزِّق...

لكنها استدارت واختطفت الرسالة. "ليس من حقِّك أن تقرأها"، قالت. أثار هذا ضحكةً مكبوتةً أخرى من الكونت ريشر، ثمَّ من المحيطين به بحذر.

فتحت أماليا الخطاب وبدأت في القراءة بصمت. كنتُ قرأتُه عشرات المرات ذلك اليوم وأعرف كلمة فيه:

عزيزتي أماليا،

من المهم للغاية ألّا تُبدي أيَّ دهشة ممّا ستقرئينه الآن. أنا حيٌّ. موسا(كِ). ما زلتُ أحبُّك، وقد جئتُ لآخذك بعيدًا، إذا كنتِ ما تزالين تحملين حبًّا لي. عندما ينظر أورفيوس في عينَيْ يوريديس، اختلقي أيَّ عذر وتسلَّلي خارجةً، سأكون في انتظارك خارج المسرح.

أخبريهم أنك تجدين هذا الخطاب مثيرًا للاشمئزاز. أعيديه إليَّ.

موسى

راقبتُ عينيها تتفحَّصان الورقة. كان أداؤها مُذهلًا. ذلك النسيج الذي طالما أخفق في إخفاء المشاعر المضطربة تحته لم يُظهر الآن سوى الارتباك، ثم ومضة من الازدراء. ثم الضيق. نظرت بغضبٍ إليَّ.

"ما معنى هذا؟" سألَت. لم أكن ممثلًا قديرًا مثلها، لكنني نجحتُ في هزِّ كتفيَّ استهانةً.

ثم، لرعبي الشديد، أبعدت الخطاب وأظهرته لجميع مَن في المقصورة.

كانت الورقة فارغة. تناولَ أنطون الخطاب من يديها وتفحَّصَ جانبيها. لم يكن هناك شيء مختبئ على سطحها المُدهَّن.

"فسِّر هذا"، أمرني الكونت ريشر.

"انظـروا إلى وجهـه"، قـال أنطـون. "أبيـض كالحليـب. طـواشيٌّ جـواداني مصـدوم مثلنـا".

لمحـتُ حرجًـا غاضبًـا عـلى وجـه أماليـا قبـل أن تشـيح بوجهها. ربَّـت زوجهـا عـلى كتفهـا.

"اخـرج"، أمرتنـي الكونتيسـة ريـشر. ثـم دُفعـتُ بعيـدًا بأيادٍ متحمِّسـة، فاقـد الحيـاة كدُميـةٍ مـن ورق.

(14)

غطستُ تحت خشبة المسرح فورَ أن اتَّخذ جلوك مكانه للفصل الثالث. كان ريموس في انتظار الأخبار، لكن عندما رأى وجهي الشاحب، أدركَ أن الأمر لم ينجح.

«كانت فارغة»، قلت. «مُسحت الكلمات».

"ماذا؟" هتف ريموس، خابطًا جبينه بقبضته. أخبرته بما حدثَ بالضبط، معجزة الورقة الفارغة.

"لكن هذا مستحيل"، همسَ ريموس، فيما تبدأ الأوركسترا عزفها.

"لا بدَّ أنك استخدمتَ حبرًا سحريًّا"، وبَّخه نيكولاي.

"استخدمتُ نفس الحبر الذي أستخدمه دائمًا"، قال ريموس. "كيف حدثَ هذا؟".

"ابـقَ في الأسـفل"، أخـبرني نيكـولاي. تنـاولَ يـدي. "سـنفكّر في خطّـةٍ أخـرى. مـا زال لدينـا وقـت. في أسـوأ الأحـوال، مـع انتهـاء الأوبـرا، سنرسـل بريمـوس لتوصيـل رسـالة أخـرى".

اتّسعت عينا ريموس في رعب.

"اهـدؤوا"، قـال نيكـولاي لنـا. "سـتخبرنا الموسـيقى بمـا يتوجّـب علينـا فعلـه".

* * *

في الفصـل الثالـث، كان العاشـقان بمفردهـما في كهـوف سـتيكس. يدهـا في يـده؛ عينـاه تتفاديـان خطـر وجههـا. لم تكـن هنـاك "ربّـات انتقـام"، ولا جوقـة، ولا راقصـات. الكَرْمـات تتشـابك مـن أجـل العاشِـقَيْن. الصخـور متناثـرة في الأنحـاء. أضـواء المـسرح المُعتمـة والمومضـة تُلقـي بظـلالٍ متنافـرة. الجمهـور ينصـت ويُصـلّي أن يجـد أورفيـوس القـوة ليهـرب مـن مصـيره.

أنـا، أيضًـا، صلّيـتُ لمصـيري. وتسـاءلتُ، هـل سـيكون حقًّـا الفَقْـد والإخفـاق فحسـب؟ هـا هـي انسـلّت مـن يـدَيّ مُجـدَّدًا، وإذا لم أجـد طريقـةً لأكشـف عـن نفسـي، سـترحل غـدًا. هـل أمـضي في إثرهـا؟ بالطبـع سـأفعل. سـأمضي في إثرهـا حتـى لـو كان هـذا يعنـي مُطاردتهـا للأبـد، كحـاجٍّ يُطـارد الأفـق.

وقـفَ العاشـقان عـلى خشـبة المـسرح فوقنـا. سـطَعَت الشـقوق في ألـواح الأرضيـة بشـظايا ذهبيـة، وشـدا أورفيـوس بـأن عـلى يوريديـس أن تـسرع. سـألَته لمـاذا لا يُعانقهـا. إلى مـاذا صـارَ جمالهـا السـاحر؟ مـاذا حـدثَ لُحبّهـما.

لكـن أورفيـوس لم يسـتطع الإجابـة، حتـى مـع معرفـة الجمهـور أنـه عـلى اسـتعداد لاقتحـام ألـف جحيـمٍ لإنقاذهـا.

جلسَ تاسو على مقعده كتمثال، متأمِّلًا في لهيب المصباح المُنمنم. كانت الحبال كشبكة العنكبوت حول رأسه. لا يرفع بصره إلّا عندما يمرُّ أورفيوس ويوريديس فوقه، وكأنه رجلٌ سمعَ فأرًا في سقف منزله.

أغلقتُ عينَيَّ. رنَّت أجساد الكمان مع صوت يوريديس، الذي كان رائقًا وقويًّا، رغم أنها تفتقد الرغبة لرفع قدمها حتَّى. وبين الجمهور، توالَفَت أجسادٌ كثيرة مع صوت جوّاداني، وهكذا، رغم أنه يغنِّي دوره فقط، كان الانطباع السائد أن كثيرين يهمهمون معه. لو كانت لجلوك أذنان ليسمع هذا، كان ليُعلِّق جمهوره كالأجراس من السقف، حتَّى يستولي جمال موسيقاه على كل خليَّةٍ في أجسادهم.

على المسرح، كانت يوريديس تتوسَّل إلى أورفيوس لينظر إليها، ولو للحظة واحدة. كان غناؤها متعاليًا وثاقبًا؛ شعرتُ به في الجلد الناعم وراء أذنيَّ، كدغدغة ريشة. لأورفيوس، كانت هذه الصيحات كخناجر حادة تطعن في ظهره. عزيمته تتصدَّع. رأيتُهم يتدرَّبون على هذا مرّات كثيرة؛ لهذا كنت أدرك أن يوريديس تقف وراءه مباشرةً، واجهَ الجمهور، بعينين مُغلقتَيْن.

فيما العاشقان يُغنِّيان -هي تتوسَّل إليه، وهو يهتف في الآلهة- بدأ صوت جوّاداني يفقد مثاليته. لم يَعُد قادرًا على دفع مزيدٍ من الألم في هذه الأنغام. حاولَ أن يُغنِّي أعلى، لكنه لم يستطع، وهكذا سمعتُ صوته وقد بدأ يفقد تعاظُماته وانحساراته المُنسابَة. لم يَعُد يملك سوى تعاظُمٍ مُصطنَع. سمعتُ خبطةً بالقرب من مقدمة المسرح. سقَطَت يوريديس على ركبتَيْها. لم تَعُد قادرة على اتِّخاذ خطوة أخرى. إذا لم يكن يحبُّها، فعليه أن يتركها وراءه في هذا الكهف المُريع.

لم يَعُد قادرًا على تحمُّل امتناعه عنها. كيف أمكنَ للآلهة أن تطلب شيئًا بهذه القسوة؟ لكنه سينظر في عينيها.

استدرتُ إلى نيكولاي، متوقعًا أن أراه يبكي من الموسيقى، لكن لدهشتي، لم يكن هناك حزنٌ في عينيه. كان مستندًا على مِرفق واحد ويُحدِّق بتمعُّن تحت خشبة المسرح. ظننتُ أنني رأيت ومضة ابتسامة على وجهه. كانت عيناه غائمتَيْن، لكنه كان مُستغرقًا في الموسيقى، وكأنه يجاهد ليفهم كل كلمةٍ يشدو بها العاشقان.

نادى أورفيوس على زوجته الحبيبة حتَّى يتمكَّن من معانقتها ربما، وحينها بالضبط تحطَّمت إرادته أخيرًا.

نهضَ نيكولاي. تأوَّهَ من المجهود، واستدارَ ريموس، قلِقًا. لكن نيكولاي لم يكن متألِّمًا. مدَّ يده إلى معطفه وسحب ورقةً مطويَّة. كانت مطابقة تقريبًا للرسالة التي منحني إيَّاها من قبل. ناولها لي. "موسى"، قال. "أنا آسف. لقد خدعتك".

كانت هذه الرسالة مطويَّة بعناية، وختمها الأزرق مستدير بشكل متقن؛ تمامًا كما صنعه ريموس. فضضتُها. هنا كان الخطاب الذي انتويت إيصاله. رفعتُ بصري إلى عينَيْ نيكولاي الضبابيَّتَيْن. لماذا خانني صديقي؟ كانت هناك ابتسامة غريبة على وجهه.

"موسى"، همسَ. "ألا ترى؟ حُبٌّ مثل حبِّك لا يليق بالورق. ليس مع بهاء صوتك".

ارتعشتُ. لم أدرك ما يعنيه. ابتسمَ. فوقنا كانت ألواح الأرضية تصرُّ فيما يوريديس تخطو لتُعانق حبيبها. بدأ أورفيوس في إدارة رأسه. خطا العاشقان إلى بعضهما البعض.

شرعَ نيكولاي في الزحف عبر الكهف.

"نيكولاي!" همسَ ريموس. لكن لم يَبدُ أن نيكولاي سمعه.

تعانقَ أورفيوس ويوريديس. رأت في عينيه أنه يحبُّها. ذاقا النعيم للحظة واحدة، ثم ماتت بين ذراعيه.

غـرقَ المـسرح في الصمـت، بعـد أن قتـل أورفيـوس يوريديس(تـه). لم يتنفَّـس أحـد. لم يتحـرَّك أحـد. لم هنـاك شيءٌ يبعـث عـلى الأمـل.

* * *

لكـن تحـت خشـبة المـسرح، في وهـج المصبـاح الخافـت، كان نيكـولاي يزحـف عـبر كهـف تاسـو، ناخـرًا عنـد كل حركـة. تَبعـه ريمـوس، محـاولًا الإمسـاك بقدميـه، محـاولًا إيقـاف "الأمـل" قبـل أن يُفسـد هـذه الأمسية، قبـل أن يُغضِـب الإمبراطـورة، قبـل أن يُـودي بهـم إلى الطـرد مـن هـذه المدينـة تمامًـا كـما طردهـم "الغضـب" مـن سـانت غـال. أدركَ تاسـو، أيضًـا، أن شـيئًا ليـس عـلى مـا يـرام. اهتـزَّت يـداه أمـام صـدره. هـرعَ إلى جانـب العمـلاق وهسـهسَ، "توقَّـف!".

لم أستطع التحرُّك. كنتُ ذاهلًا. أيَّ مصير كان نيكولاي يحلم به لي؟

وضـعَ أروفيـوس زوجتـه الميِّتـة عـلى خشـبة المـسرح ووقـف فوقهـا. لم تعـزف الأوركسـترا. كانـت تنتظـر حتَّـى يغنـي القائـد.

حملـقَ نيكـولاي لأعـلى في خشـبة المـسرح. ناظـرًا، مُنصتًـا. طقطقـة. كان جـواداني يخطـو للخلـف، بعيـدًا عـن جثمان عروسـه الميِّتـة. زحـف نيكـولاي معـه، بوجهـه عـلى بُعـد إنشـات أسـفل خطوات جـواداني. تنشَّـقَ نيكـولاي. أمسـكَ ريمـوس بقـدم نيكـولاي بكلتـا يديـه، وضغـطَ تاسـو عـلى كتفَـيْ نيكـولاي. لكـن نيكـولاي، بوجهـه مرفوعًـا إلى الخطـوات المُطقطقـة فوقـه، كان أقـوى منهـما مُجتمعَـيْن.

توقَّـفَ جـواداني عـن تراجعـه في منتصـف خشـبة المـسرح، ليبـدأ أعظـم أغنيـة في هـذه الأوبـرا...

ثـم وثـبَ نيكـولاي، سـاحبًا ريمـوس وتاسـو معـه وكأنهـما وشـاحَان مربوطـان بعنقـه. امتـدَّت يـده ناحيـة حبـلٍ. قبضـت أصابعـه عليـه. جذبـه.

انفتحت الكمبوشة تحت قدم أورفيوس.

سقطَ جايتانو جوادانِي بعنف إلى ما تحت خشبة المسرح، وسرعان ما جثمَ نيكولاي فوقه قبل أن يتمكَّن المُغنِّي من الصراخ. ثبّته جوادانِي على الأرض، ووضع يدًا ضخمة على فمه. ثم استدارَ إليَّ. اختلجت رأسه لأعلى؛ ناحية التجويف المربَّع في السماء فوقه، الذي كان ضوء المسرح المُغبَّر ينساب عبره.

ضيَّق عينيه المعطوبتَيْن؛ ذلك أن الضوء قد آذاهما، وقال، "أرجوك، يا موسى. أرجوك. اتلُ رسالتك".

(15)

لم أستطع التَّحرُّك.

أين؟ فكَّرتُ. هناك في الأعلى؟

ثـم تطلَّـع ريمـوس إلى صديقـه العمـلاق -رفيقـه لثلاثـين عامًـا- وهـزَّ رأسـه. أبـدى اسـتهانةً. كان الأمـر قـد تجـاوز الحـدَّ بالفعـل. لم يعـد هنـاك وقـتٌ لتغيـير أيِّ شيء.

كان ذئبًـا ضاريًـا. اندفـع ناحيتـي وانتـزع معطفـي وياقتـي. مـزَّق قميـصي مـن مُقدِّمتـه حتـى صـار يشـبه غلالـة أورفيـوس. لم أجـد وقتًـا للتفكـير فيـما يرفعنـي ناحيـة الكمبوشـة.

"أطفـئ المصابيـح"، همـسَ لتاسـو. وثـبَ تاسـو، الـذي لم يتحـرَّك منـذ سـقوط الطـواشيِّ العظيـم، إلى عمـود السـحب عنـد سـماع الأمـر، كبحَّـارٍ في عاصفـة ينصـاع لأوامـر قبطانـه.

أقعيتُ تحت الكمبوشة. شابكَ ريموس بين يديه عند خصره. ابتسمَ نيكولاي، بالدموع تملأ عينيه، وراحته ما تزال تُغطِّي وجه جوادني المرتعب. أومأ ريموس. "أسرع يا موسى"، همسَ.

بدا أنني لا أحتاج سوى إلى خطوة صغيرة لأضع قدمي على يدَيْ ريموس، وهكذا فعلت. أمسكت بحافة أرضية المسرح. فكَّرت، ما زال بإمكاني العودة. لكن ريموس... يا لها من قوةٍ لديك!

زمجرَ، ورفعني. سقطَ المسرح من حولي. اتَّخذتُ خطوة.

كنتُ على خشبة المسرح.

عند قدميَّ، جثمان حبيبة إنسان آخر. أمامي، ألف وأربعمائة زوجٍ من الأعين. تمايلتُ برفق من جانبٍ إلى آخر. استغرقَ المسرح في الصمت.

هل لاحظوا؟ هل رأوا بطلَهم يسقط؟ هل أدركوا أنه عاد إليهم أطول، وأكثر شبابًا، وأكثر استغراقًا في الحبّ؟ كان تاسو قد أخفضَ مصابيح الأرضية، وبهذا أصبحتُ مُضاءً من الجانب فقط. عندما تطلَّعت إلى بحر الأعين أمامي، لم يكن هناك شكٌّ أو غضب. بل حدَّقوا بأعين طفولية مُنتشية. كانت الأعين تقول، أورفيوس! غنِّ لنا! غنِّ!

ألقيت نظرةً خاطفة على الإمبراطورة. كانت تُحدِّق وكأنها تعرفني جيدًا. ضيَّقَ جلوك عينيه، غير مُتيقِّن ممَّا يراه، ومع ذلك كانت يداه المرفوعتان في موضعهما؛ جاهزتَيْن لقيادة الأوركسترا في اللحظة التي يبدأ فيها أورفيوس في الغناء.

ثم وجدتُ أماليا. نظرنا إلى عينَيْ بعضنا البعض، لكنها لم تتعرَّف عليَّ. لم تَبدُ أنها تتنفَّس. كانت تمثالًا.

شكَّلتُ شفتَيَّ كدائرة ضيِّقة وزفرت. في أذنيَّ، كان الصوت كالإعصار في المسرح الصامت. نفختُ حتَّى تهدَّلَت كتفاي فوق رئتَيَّ. ثم ارتدَّت

أضلاعـي العملاقـة. فتحـتُ فمـي عـلى اتِّسـاعه وانسـابَ الهـواء عـبر حلقـي. ازددتُ طـولًا وعرضًـا. اندفـعَ الهـواء إلى رئتَـيَّ، ممزِّقًـا العضـلات بـين ضلوعـي.

غنَّيت.

»Ahimè! Dove trascorsi! Ove mi spinse un delirio d'amor!"

«واحسرتاه! ماذا فعلت؟ إلى أين قادني جنون الحبِّ!».

بـدا ذلـك كهمـسٍ بالـكاد، لكـن صـوتي فـاضَ عـلى المـسرح. تنشَّـقَ جلـوك وباعـدَ مُختلِجًـا بـين يديـه المُرتفعتَـيْن. عـلى وجهـه، حلَّـت الصدمـة محـل الشـكِّ. انفرجـت شـفتا الإمبراطـورة المزمومتـان. بـدَّلَ كلُّ مَـن في المـسرح مـن وضعـه قليـلًا في اندهـاش. البعـض اعتـدلَ في جلسـته. آخـرون ارتخـوا، وكأن دعامـةً قـد أزيلـت. قبضـت أيـادٍ عـلى الحواجـز. كشـطت كعـوبٌ الأرضيـة. في *Le Paradis*، تطـاولَ أربعمائـة عنـق ليقـترب مـن السـقف.

تركـت يـدا أماليـا الحاجـز وأمسـكت بخدَّيهـا. داخلهـا، هبَّـت عاصفـة مُباغتـة. كانـت الإنسـان الوحيـد في ذلـك الجمهـور الـذي سـمع ذلـك الصـوت مـن قبـل. مـع الأنغـام الأولى، قالـت لنفسـها إنهـا لا بُـدَّ خُدعـةٌ قاسـية، مـن خيالهـا الأحمـق، المُترقِّـب، لكـن كل تلـك الجـدران ارتجَّـت. طرَفَـت بعينيهـا لطـرد الدمـوع، وعندمـا تطلَّعَـت إليَّ مُجـدَّدًا بعينـين صافيتـين، وحدَّقـتُ إليهـا بـدوري، أدرَكَـت أن هـذا الموزيكـو الماثـل عـلى خشـبة المـسرح كان موسـا (هـا) - واسـتوعبت كل شيء.

كان جلـوك تـردَّد لوهلـة، بيديـه مرفوعتـين مـا تـزالان. حملـقَ إليَّ. اتَّسَعَت عينـاه؛ ذلـك أن شـبحًا كان يقـف أمامـه. سـمعَ جلـوك الموسـيقى التـي كتبهـا، تُغنَّـى كـما في أحلامـه.

* * *

في لحظةٍ عادَ جلوك مُجدِّدًا المايسترو العظيم. يداه تشُقّان الهواء. الأوركسترا تنصاع، وأقواس الكمانات تضرب على أوتارها. شعرتُ بصوتها في صدري. عندما غنّيتُ الآن كان صوتي عملاقًا. يرتدُّ عن الجدران ويعود من كل ركنٍ. يتمايل جلوك للخلف وكأن رياحًا تهبُّ. عيناه مُغلقتَان.

ثم كانت هناك استراح... صمت. بدت يدا جلوك المرتفعتان وكأنهما تتحكّمان ليست فقط في الأوركسترا، لكن في كل شخص في المسرح. إبهاماه، يضغطان على سبّابتَيْه، يمسكان بكل نفس. عندما يبسط أصابعه مفترقةً، تتهدّل ألف وأربعمائة كتف. وحين يشبُّ على قدميه ويرفع يدَيْه عاليًا قَدْر ما يستطيع، يتّسع ألف وأربعمائة زوجٍ من الرئات. ذراعا جلوك تشقّان الهواء.

أشعرُ أنني عارٍ على خشبة المسرح، لكنني أريد أن ترى أماليا كل ثنيّة في وجهي. شفتا الإمبراطورة ما تزالان مُنفرجتَيْن، وكأنها عطشى. أبدأ في مرثيّة أورفيوس العظيمة كما كان ليُغنّيها جوادانى؛ كل نغمةٍ مشقوقة بسكّينٍ حاد.

أعينٌ كثيرة تنغلق. أجسادٌ تتلوّى برفق. عطشى لحزن أورفيوس النقي. بدت الإمبراطورة عاجزة عن التنفُّس. فمها مفتوح على اتّساعه. الدموع تحتشد في عينيها. تتعاظم موسيقاي، ويتراجع كثيرون برؤوسهم فيما يتمايلون ليشعروا بأغنيتي عبر أجسادهم. عينا جلوك منغلقتان. ذراعاه تهويان كالأجنحة. لكنه لم يفقد السيطرة. حركاته دقيقة. موسيقيّوه يستجيبون لكل حركة منه بتركيزٍ شديد وكأنه مشعوذ يُخضِعهم بسحره. أنا، أيضًا، تركتُ نفسي أنقاد لإيقاع حركاته. إنه سيِّد هذه الموسيقى.

أُغنّي.

يـدا أماليـا تقبضـان عـلى الحاجـز. تنحنـي للأمـام وتضغـط ببطنهـا المتكـوِّرة عـلى الخشـب، الـذي يـرنُّ بصـوتي.

ثـم ينتهـي كل شيء. تتفـشَّى همهمـةٌ في المـسرح؛ صـوتي يهمـس في كل صـدرٍ مـا يـزال. تتوقَّـف الأوركسـترا عـن العـزف. يفتـح جلـوك عينيـه وينظـر بـإشراق مُجـدَّدًا إلى الشـبح الـذي اسـتدعاه إلى الحيـاة.

أخطو متراجعًا وأسقط.

(16)

في الكهف، كان نيكولاي يحمل جواداني المصدوم كالرضيع في ذراعيه. وضعهُ على الرافعة وهمسَ بإيطالية مُتكسِّرة أنه حان وقت الغناء مُجدَّدًا، لم يلاحظ أحدٌ شيئًا، ولهذا بمقدور جواداني أن يسترخي؛ ما يزال بطل الليلة. ثم منحَه نيكولاي صفعتَيْن قاسيتَيْن.

«كل شيء على ما يرام *Tutto bene!*" قال نيكولاي. جذبَ تاسو حبلًا، وارتفعت الرافعة. صعدَ جايتانو جواداني عائدًا إلى خشبة المسرح.

* * *

انزلقتُ خارجًا من مزلق الفحم وهرعتُ إلى مدخل المسرح. هذه المرة، لن أفقدها. أمسكتُ بالباب الثقيل وفي عقلي رؤيا جميلة لأماليا تنتظرني هناك في بهو المدخل، بذراعيها مفرودَتَيْن لمُعانقتي...

لكن الباب تطوَّح مفتوحًا واصطدمَ بوجهي.

أسـقطني أرضًـا عـلى الـدَّرج القصـير. اسـتلقيتُ في الشـارع، مُحدِّقًـا في سـماء الليـل.

كانـت لتُلقـي بنفسـها عـليّ، لكـن حالتهـا تمنعهـا، ولهـذا ارتَقَـت الـدَّرج بصعوبـة حتـى تتمكَّـن مـن الجثـوم بجـواري. ثـم قبَّلتنـي وتطلَّعَـت، أخـيرًا، عميقًـا في عينَـيّ.

ساعدتني على الوقوف. لوهلة تشبَّثنا ببعضنا البعض.

"أنت حيّ!" قالت.

"نعم!".

"أنـت حـيٌّ!" قالـت مُجـدَّدًا، وددنـا لـو نسـتمرُّ هكـذا فحسـب، بيديهـا تُربِّـت عـلى كل إنـشٍ في جسـدي تسـتطيع الوصول إليـه، وذراعـاي يقبضان عـلى جسـدها الدافـئ قريبًـا مـن جسـدي، وكأننـا ضفـيرة مجدولة.

"أنت حيٌّ!" قالت ثالثةً، ودموعها تلوِّث قميصي بخطوطٍ شفَّافة.

"أنـا آسـف..." بـدأتُ القـول، لكنهـا هـزَّت رأسـها ووضعـت إصبعًـا عـلى شفتَيَّ.

"مـوسى"، قالـت. "لا وقـت لدينـا علينـا أن نـسرع. إنهـم... إنهـا..." تناولـت يـدي وجذبتنـي إلى الميـدان، عيناهـا تبحثـان عـن عربـة للاختبـاء فيهـا. تركـتُ نفسـي أُسـحَب فيـما ألقـي نظـرة واحـدة أخـيرة مـن فـوق كتفـي عـلى ذلـك المـسرح.

سمعتُ صوتًا من الداخل، كاندفاعة نهر.

كانـوا يصفِّقـون. الإمبراطـورة والإمبراطـور، الدوقـات، الأمـراء، وكل مَـن في المقصـورات، كانـوا يهلِّلـون لصـوتي. مـع انحناءاتـه لتحيـة الجمهـور، كان جايتانـو جـواداني يحصـد الثنـاء عـليّ. تسـلَّلَت ابتسـامة إلى وجهـي فيـما أخطـو بعـماءٍ في إثـر أماليـا. صـاح صـوتٌ مـدوٍّ، "عاشـت السِّـكِّين! السِّـكِّين

المباركة!" *(Evviva il coltello! Il Benedetto coltello)* وتعاظم الصخب، وقد اجتمعت الهتافات الآن مع هزيم التصفيق.

سمعته أماليا أيضًا. توقَّفنا.

واقفًا وحدي معها في ذلك الميدان الخاوي، انحنيتُ أول انحناءة في مسيرتي احترامًا للجمهور فيما تضحك هي وتُصفِّق لي. داخل المسرح، لم ينقطع التصفيق؛ ولهذا انحنيتُ مرَّةً تلو الأخرى، لأعلى ولأسفل، كلعبةٍ تتدلَّى من خيط. ثم تناوَلت يدي مُجدَّدًا. تعال! وأطلقنا سيقاننا للرياح.

* * *

ارتقينا عربةً وأسرعنا إلى قصر ريشر. فيما يختفي أورفيوس ويوريديس في معبد الحب على خشبة المسرح، ويغادر أنطون مقصورته ليبحث عن زوجته (التي همست له أنها تشعر بتوعُّكٍ وتودُّ التَّمشِّي في الأروقة قليلًا)، أخبرتني أماليا، "أخفِ وجهك". مررنا بالغول إلى داخل فناء آل ريشر.

"لكن لماذا هنا؟" سألتها. "أرجوكِ، أيَّ مكان إلَّا هنا".

"سترى"، أجابتني.

غادَرَت العربة وخَطَت إلى المنزل وكأن كل شيء على ما يرام. فتحَ واحد من الحرَّاس الباب لها ونظرَ إلى الخارج. سحبتُ الستارة مُجدَّدًا لإخفاء وجهي. لكن متأخرًا جدًّا؟ هل لمحَ وجهي؟

سمعتُ ضوضاء، اختلستُ نظرةً من النافذة الأخرى لأرى الغول نفسه يتمعَّن في عربتنا. يا إلهي، فكَّرت. إذا رأى وجهي سيضيع كل شيء. ستطاردنا (الكونتيسة) حتى تمسك بنا.

"هل يوجد أحد في الداخل؟" سأل الغول الحوذيَّ.

"نعم"، غمغمَ الحوذيّ. "چنتلمان".

"چنتلمان؟" هل أنت متأكِّد؟".

"هل أنا متأكد؟ ألا أعرف مَن يستقلُّ عربتي؟".

"مَن هو؟".

"لم أرَه. الظلام حالك".

اقتربَ الغول من الباب. تمعَّن فيه. تنفَّسَ خمس مرات، وكل زفير كثورٍ على وشك الاندفاع. ثم طرقَ مرتين، كل ضربةٍ كمطرقة.

"مَن هناك؟" سأل.

أوصدتُ الباب، بأهدأ ما أستطيع.

"افتح هذا الباب!" انثنى الباب فيما يجذبه.

"احذر! هذا بابي!" قال الحوذيُّ.

"سأحطم نافذتك إذا لم يفتح الباب على الفور".

انكمشتُ في الزاوية. انثنى الباب مُجدَّدًا، أنَّتْ المفصلات.

"ماذا تفعل؟" صاحت أماليا من بعيد.

"سيدتي"، قال الغول بصرامة، "أودُّ أن أعرف مَن يوجد داخل هذه العربة. أين السيد أنطون ريشر؟".

سمعتُ خطواتها تعبر الفناء ببطء. عندما اختلستُ نظرة بين الستائر، كانت تقف قريبةً جدًّا منه، لحدِّ أن بطنها المتكوِّر لامَسَ فخذيه. كانت ترتدي الآن عباءة ثقيلة على كتفيها.

"أنت أيُّها البهيمة عديمة الاحترام"، قالت. نغزته في صدره، وتراجع خطوتين. "في هذه العربة يجلس رجل عجوز فاضل شوَّهته الحرب؛ بالطبع لن يُري وجهه لفلاح ساذج مثلك. وأين أنطون؟ سأخبرك

بذلك. إنه ينتظرنا في منزل الكونت ناداستي، يزداد غضبًا في كل دقيقة تُبقينا فيها متأخِّرين".

رفعتُ مغلاق الباب فورَ أن مدَّت يدها لفتح الباب. جلسنا ساكنَيْن كجُثث حتَّى أفلت بنا الحوذيُّ من البوابة. ثم زفرَ كلانا أنفاسه.

"أتمنَّى أن تحرق كل فستان اشترته لي"، قالت أماليا. "ثم تطلق اللعنات على اسمي".

وضَعَت صندوقًا صغيرًا، مزخرفًا في حِجري؛ ربما يحوي إنجيلًا صغيرًا. فتحته.

عشرة أكوام، كلٌّ منها يحوي عشرين عملة ذهبية من فئة العشرة جولدن، بمجموع ألفي جولدن. فغرتُ فاهي. أبدًا لم أمسك بجولدن واحد حتَّى في يدي.

"في يومي الأخير في سانت غال"، قالت. "دلفَ أبي إلى غرفتي. ظننتُ أنه في غاية السعادة لزواجي، لكنه أخذَ يخطو بعصبية جيئةً وذهابًا. عندما سألتُه ما الأمر، وضع هذا في يدي. "تحسُّبًا"، قال، "ليومٍ ما تودِّين فيه العودة إلى الوطن"، ثم أضاف، بدافع من اللباقة، "أعني لزيارتنا". ألفا جولدن من أجل زيارة!".

أغلقتُ الصندوق.

"هذا يكفي"، قالت، "لأيِّ مكان نتمنَّى الهروب إليه. لكن علينا أن نسرع. عندما تعود (الكونتيسة) وتسمع أنني لستُ هناك، لن يصدِّقوا أنني تُهت أو خُطِفتُ. لن يبحثوا عن زوجةٍ وابنة. سيتعقَّبون خائنةً".

انطلقنا عبر ڤيينا طوال ساعتين، مُتفكِّرين في خيارتنا للهروب. غيَّرنا العربات مرَّتين؛ حتَّى نتأكد أنه لا يمكن تعقُّبنا.

"الطـرق المؤديـة مـن فيينـا لـن تكـون آمنـة"، قلـت. "الكونـت ريـشر لديـه جواسـيس في كل اتِّجـاه. مـن الأفضـل أن نختبـئ لبعـض الوقـت ونُجهِّـز بعـض وسـائل التَّنكُّـر".

وافقتُهـا. سـيكون مـن الصعـب عـلى سـيدة حامـل -مثـيرة للأنظـار كأماليـا- أن تتنكَّـر في نُـزُل البلـدات المحيطـة، ولا تسـتطيع النـوم في عربـة. إذا حاولنـا الهـرب مـن المدينـة، لـن يسـتغرق الأمـر سـوى يـوم واحـد حتَّـى نقـع في يـد ذلـك الغـول.

أخبرتها أنني أعرف أين بمقدورنا أن نختبئ.

* * *

"إنـه صغـير جـدًّا"، قلـت فيـما عربتنـا تجـوب أكـوام المخلَّفـات في شـارع بيرجاسـه في سـبيتلبرج. "والهـواء قـد يكـون خانقًـا بعـض الـشيء. إنـه صاخـب. لكـن الحوائـط مُصمتـة. الأثـاث بـالٍ، لكنـه مريـح".

"أوه، موسى"، قالت، "قلت لك، لا أبالي".

"لـن يكـون الأمـر كـما اعتـدتِ"، قلـتُ، مُتفكِّـرًا في ثـروات قـصر ريـشر وآل دوفـت.

"مـا أنـا معتـادة عليـه هـو سـاحرةٌ تراقبنـي ليـلًا ونهـارًا. مـا أنـا معتـادة عليـه هـو زوجٌ بـلا إرادة. السـبب الوحيـد لحمـلي هـو أنهـا طلبـت ذلـك".

تقافَـزَت العربـة فيـما تدهـس حجـارة شـارع مُخلخلـة، أو كلـب ربمـا. عندمـا قـال الحـوذيُّ إنـه لـن يمـضي أكـثر مـن هـذا، عرضـتُ عليـه دفـع الضعـف. جلبنـا إلى بـاب المقهـى.

"هـا هـو"، قلـتُ، شـاعرًا بالهـوان عندمـا رأيـت كيـف يبـدو المبنـى ضئيـلًا الآن. كان لـه أن يكـون قطعـة ديكـور عـلى خشـبة مـسرح تاسـو. أخفضـت أماليـا قلنسـوة عباءتهـا عـلى جبينهـا. حملـتُ صنـدوق النقـود في يـدٍ فيـما أسـاعدها بالأخـرى عـلى الخـروج مـن العربـة. كانـت قويـة،

لكن ظهرها كان مُتقرِّحًا من ساعات الجلوس على المقاعد القاسية في المقصورة والعربة، وصارَ عرَجها أكثر وضوحًا فيما نعبر الشارع المليء بالحُفَر إلى الباب.

كان الوقت قد تجاوزَ منتصف الليل الآن -ساعةُ المحرَّمات في هذا الحي- ولهذا حدَّق المارَّة في الأرض بدلًا من التَّطلُّع إلى وجوهنا. كان المقهى فارغًا تقريبًا. أربعة رجال، متورِّدين من الشراب، يحتسون دواءهم المُرَّ، القاتم، يحدِّقون في أماليا وكأنها رؤيا فانتازية استحضرها شرابهم. نظرَ السيد كوست المُوسوس في حذائه، واثقًا أنه لا يفترض به رؤية هذه السيدة الأنيقة تدخل مقهاه.

ارتقينا الدَّرج إلى مسكن صديقَيّ. اندفع ريموس ناهضًا من مقعده. جاهدَ نيكولاي للوقوف على قدميه. نظرتُ إليهما بإشراق، وملأ الارتياح وجهَيْهما.

"حمدًا للربِّ"، قال ريموس، كأمٍّ قتلها الخوف. ضمَّ يديه أمام صدره عندما ظهرتُ على عتبة الباب، رغم أن ابتسامته تلاشت إلى إيماءة تحيَّةٍ عصبية فيما تدلف أماليا ورائي وتُنزل قلنسوتها.

لكن ابتسامة نيكولاي تعاظمت عندما تبيَّنت عيناه الضعيفتان ظلًّا أنثويًّا. "مرحبًا في معبد الحب!" هتفَ. شحبَ وجه ريموس بظلٍّ آخر، فيما احمرَّ وجهي في حَرج. وحدها أماليا ابتسمت. ثم نظرت بتمعُّن في ريموس.

"يا إلهي!" قالت. "إنه ذلك الراهب الذئبيُّ!".

"مرحبًا، آنسة دوفت". انحنى.

"في الحقيقة، يدعونني السيدة ريشر الآن"، قالت. "لكن الليلة أودُّ أن أدعى بدوفت مُجدَّدًا".

"في هـذا المنـزل يمكنـكِ اختيـار أيٍّ اسـم تحبينـه"، قـال نيكـولاي، وتناول يدهـا في يديـه الضخمتـين، وكأنـه يريـد تدفئتها.

"أصدقائي"، قلتُ. "هل لنا أن نبقى هنا لبعض الوقت؟".

رفع نيكولاي يد أماليا إلى خدّه. "قَدْرَ ما تحبّان!" هتفَ.

"شـكرًا"، قالـت وابتسـمت. تطلّعـت في أرجـاء الغرفـة الباليـة. لارتياحي، لم يَبـدُ عـلى وجههـا أيُّ امتعاض.

"لمـاذا لا تأخـذان غرفـة ريمـوس"، قـال نيكـولاي بفروسـية. "يمكنـه الانـزواء هنـا مـع كتبـه".

"لا أريد أن أكون عبئًا عليكم"، قالت أماليا.

"لستِ عبئًا بأيِّ شكل"، قال ريموس.

"لن يستمرَّ الأمر طويلًا"، قلت.

"أُصلِّي للرَّبِّ أن يستمرَّ طويلًا!" قال نيكولاي.

"سنذهب إلى ڤينيسيا!" قلتُ بغتة.

"إلى ڤينيسيا؟" قال نيكولاي، واتّسعت عيناه.

"سيغنِّي موسى في الأوبرا"، قالت أماليا.

"نعم!" هتف نيكولاي. "في تياترو سان بينديتو!".

"وأنتما الاثنان أيضًا"، قلت. "لا بُدَّ أن تأتيا معنا!".

ضـمَّ نيكـولاي يديـه المتورِّمتـين تحـت ذقنـه. تدفَّقَـت الدمـوع في عينيـه. "ڤينيسـيا! حلمـي يتحقَّـق! بالطبـع سـنصحبكما!".

لم يتحـدَّث ريمـوس لوهلـة. كان وجهـه كسـحابةٍ تحجـب شـعاع شـمس مُسـتقبلنا. "ريمـوس"، قـال نيكـولاي، "لا تكـن مُضجـرًا هكـذا".

"نيكولاي لا يستطيع السفر إلى ڤينيسيا"، قال ريموس لأماليا. "إنه مريض".

"ذهبتُ إلى المسرح الليلة!" كانت ابتسامة نيكولاي مُكابِرَةً وعنيدة. "يمكنك وضع شوال على رأسي بحيث أتجنَّب الشمس".

"نيكولاي، ڤينيسيا على بعد أربعمائة ميل من هنا، عبر جبال الألب. لا يمكنكَ امتطاء حصان. على أيِّ حال، لا نملك أيَّة أموال لرحلةٍ كهذه".

"نعم، لدينا!" قلتُ. أخذتُ الصندوق من تحت ذراعي وفتحتُ الغطاء. التمعَ الذهب في ضوء الشمعة.

"يا إلهي"، همسَ ريموس.

"ما هذا؟" سألَ نيكولاي، محاولًا تثبيت عينيه على الذهب. "هل هو حريق؟".

"موسى وأماليا لديهما ثروةٌ"، أخبره ريموس. "مالٌ أكثر مما لمستَ طوال حياتك".

شهقَ نيكولاي.

"سنشتري عربة"، قلت. "سنشيِّد لنيكولاي فراشًا داخلها".

"ترى، نحن في حاجةٍ إليكما"، أوضحت أماليا. "هنا في النمسا، أنتما الستار الذي يخفينا. وفي إيطاليا، لن يصدق أحد أن موسى زوجي".

"سأكون زوجك!" قال نيكولاي.

تورَّد وجه أماليا.

"نُفكِّر"، قلت، "أن يكون ريموس أباها. وزوجُها، سنقول، بعيدٌ في الحرب".

"بمقدوري أن أكون عمَّها إذن".

"فكَّرنا أنك قد تكون مريضًا"، قالت أماليا. ثم نظرت إلى ريموس. "مريض يرعاه أبي".

"مريض ثري، إذن"، قال نيكولاي.

"مريض ثري"، أكَّدتُ.

ثم سمعنا صوت خطوات على الدَّرج. نظرَ ريموس ناحية الباب، وانسحبت الدماء من وجهه. مدَّ نيكولاي ذراعًا طويلة وقادني أنا وأماليا إلى خلف ظهره، ليواجه الخطر الصاعد على الدَّرج بنفسه.

لكنني ابتسمتُ فحسب: سَمِعَت أذناي أكثر ممَّا سمعت آذانهم. عندما انفتح الباب أخيرًا، وتخشَّب نيكولاي للأمام في وضعية الهجوم، لم يكن الغازي يصل إلَّا إلى خصره بالكاد.

كان وجه تاسو مُحمرًّا وغارقًا في العرق من الركض عبر المدينة. فركَ كفَّيه في ارتياح عندما رآني.

"جواداني يبحث عنك!" قال تاسو بين أنفاسه اللاهثة. "وثبَ من بين الظلال فيما أكنس المسرح. أمسك بي من حلقي. قال إن دوراتسو سيطردني من المسرح!".

"ماذا ستفعل؟" سألتُ.

ابتسمَ الرجل الضئيل وهزَّ رأسه. "ركلته في قصبة ساقه وسخرت من تهديداته"، قال متباهيًا. "سمعتُ دوراتسو نفسه يهنِّئ جواداني. وقال الناظر إن ما غنَّيتَه كان أعظم أغنية غُنِّيت على الإطلاق في مسرح الإمبراطورة. يظنُّون أنه مَن كان يُغنِّي؛ لهذا لا يستطيع جواداني أن ينطلق بكلمة! لكنه سألني أين تختبئ. أجبته أنك تلميذه؛ ينبغي أن يعرف أين أنت".

"أشكرك"، قلت.

"وسأركله مُجدَّدًا غدًا"، تفاخرَ تاسو.

أخـذت أماليـا ذراعـي وخطـت خارجـة مـن خلـف نيكـولاي. جفـلَ تاسـو. "لكـن هـذا يعنـي أن كِلَيْنـا ينبغـي أن يظـلَّ مُختبئًـا حتـى نتمكَّـن مـن مغـادرة المدينـة"، قالـت لي.

"تاسو"، قلتُ. "هذه أماليا".

تطلَّـعَ إليهـا الرجـل الضئيـل مـن رأسـها إلى قدميهـا. عندمـا سـقطت عينـاه عـلى بطنهـا المتكـوِّر أطلـقَ صفـيرًا مـع نفحـة مـن الهـواء. لم نكـن أخبرنـاه بـشيءٍ عـن خطتنـا، وصـارَ الآن يسـتدير ناحيـة كل واحـدٍ منَّـا بنظـرة غضـب لم أرهـا قـطُّ عـلى وجهـه الصغـير. خشـيتُ لوهلـة أن ينطلـق بنفسـه ليبحـث عـن جـواداني والكونتيسـة ريـشر.

طـوَّح بالبـاب لإغلاقـه وراءه؛ قعقـعَ عـلى إطـاره المتهالـك. هـزَّ تاسـو رأسـه ناحيـة كلٍّ مـن أصدقائـه ثـم خطـا إلى جانـب أماليـا وأمسـك برسـغها. كان رأسـه يصـل إلى مِرفقهـا بالـكاد. رفـع ذراعهـا، ممُسـكًا بهـا في كلتـا يديـه فـوق رأسـه -كنـادل يحمـل صحفـة- وقادهـا أولًا ناحيـة البـاب، ثـم التـفَّ حـول نيكـولاي، ومـرَّ بكومـة كتـب، بـين كأسَيْ قهـوة مقلوبَـيْن، وحـول بقعـة داكنـة عـلى السـجَّادة، حتَّـى وصـل بهـا إلى أمـام نيكـولاي. ثـم اسـتدارَ إليهـا. لم نتحـرَّك. تجهَّـم. "تعـالَ إلى هنـا"، قـالَ مُشاكسًـا. "الآن حـالًا". أشـارَ إلى الأرضيـة بجوارهـا. عندمـا خطـوتُ إليـه، سـاعدني عـلى إجلاسـها ببـطء، بحـذرٍ، لترتـاح في المقعـد. نـزعَ حذاءهـا وأمـرني، "دلِّـك قدميهـا".

* * *

أومـأ تاسـو فيـما أُقـدِّم لـه موجـزًا وأسـبابًا لـكل مـا كان قادنـا إلى وضعنـا الحـالي ولـكل مـا سـيأتي. انخفـضَ رأس الرجـل الضئيـل فيـما نتحـدَّث؛ ولهـذا عندمـا انتهينـا، بـدا كأنـه كان نائمًـا. اسـتغرقنا في الصمـت لوهلـة، ذاهلـين.

كانت أماليا مَن أدركَ الأمر."تاسو، هل ستأتي أيضًا؟".

رفع بصره إليها. "ربما"، قال.

"لكن تاسو"، قلت، "لن تترك المسرح بالطبع!".

أبدى استهانةً. "هناك مسارح أخرى".

"هنـاك حقًّـا!" قـال نيكـولاي، فـاردًا ذراعيـه. طأطـأ ريمـوس عندمـا لامســت أصابـع نيكـولاي أذنـه. "وسـنحتاج إلى شخصٍ ما لقيـادة عربتنـا! تاسـو، هـل تسـتطيع الـضرب بالسـوط؟".

"الأحصنة عنيفة، بهائم غبية"، قال. "لكنني أعرف كيف أسيِّسُها".

وهكـذا اتفقنـا. سـنبقى في سـبيتلبرج لشـهر أو شـهرين -بمـا يكفـي فحسـب ليولـد الرضيـع- ثـم نتنكّـر كمريـضٍ وحاشـيته، سنسـافر معًـا عـبر جبـال الألـب إلى ڤينيسـيا. نظّفنـا غرفـة ريمـوس الصندوقيـة مـن الكتـب والغبـار؛ حتّـى تجـد أماليـا الراحـة فيهـا. كان الفجـر قـد حـلَّ تقريبًـا عندمـا اسـتلقيتُ بجوارهـا عـلى الفـراش وأخذنـا في التحديـق في عينَـيْ بعضنـا البعـض.

"أنــت حــيٌّ"، همَسَــت للمـرة المائـة تلـك الليلـة. أَجْـرَت يدهـا عـبر شـعري وتمعَّنـت في كل ثنيَّـة في وجهـي. "عندمـا أحلـم بـك، كنـتُ أضطـرُّ إلى الحُلـم بذلـك الصبـي الضئيـل، أو حتّـى بظلّـه. مـن حقّـي أن أغضـب: كذبـتَ عـليَّ لسـنوات، أنـتَ أيُّهـا الأحمـق".

"لكننـي..." أوشـكتُ عـلى القـول، ورغـم أنها منحتنـي الوقـت للتَّحدُّث، عجـزتُ عـن إيجـاد الكلـمات المناسـبة لتسـمية عُـذري، أو القـوة للنُّطـق بـه. عندمـا أشـحت بعينَـيَّ أخـيرًا شـاعرًا بالإحـراج، ابتسَـمَت وجذبـت وجهـي إلى وجههـا.

اسـتغرقنا في النـوم أخـيرًا. نمـتُ بجوارهـا في الفـراش الضَّيِّـق حتّـى تقلّبـتُ سـاقطًا إلى الأرض، حيـث كان دثـارٌ في انتظـاري. هكـذا كان الأمـر

كل ليلـة. لم يكـن في الغرفـة أيّـة زخرفـة باسـتثناء نافـذة واحـدة صغـيرة؛ لذلـك في اليـوم التـالي علّـقَ نيكـولاي صليبًـا أعـلى الفـراش، وظهـرَ تاسـو بسـتائر حريريـة، كان صنعهـا مـن بقايـا الأزيـاء التـي أخذهـا مـن المـسرح. كان ريمـوس ينـام عـلى الأريكـة، بشـخيره يبقينـا جميعًـا مسـتيقظين، لكننـا لا نعـترض؛ لأنـه فيـما نسـتلقي مسـتيقظين، كنَّـا نحلـم بمسـتقبلنا الڤينيـسيِّ السـعيد: النـوارس تتصايـح فـوق القنـوات، والجناديـل تصطـدم بالأرصفـة، وصـدى الأوبـرا يمـلأ الهـواء.

(17)

وجدَ ريموس وتاسو حنطورًا باليًا مُتعفِّنًا وراء واحدة من حانات سبتلبيرج المُتهدِّمة. ذهبتُ معهما لمعاينته، وأصابني إحباطٌ شديد من حالته البائسة: عجلة واحدة فقط كانت مستديرة، لطخات من الطلاء المُتقشِّر، بلا زجاج في النوافذ.

«سنحتاج إلى الذهب حتَّى نصل إلى ڤينيسيا فقط»، أشارَ ريموس. «بعدها سيغنِّي موسى. لماذا لا نشتري شيئًا... سليمًا أكثر؟».

«شيئًا أحدث؟» اقترحت.

رفع تاسو بصره إليَّ، ثم إلى ريموس. هزَّ رأسه. ثم أخذَ في تطويح الباب جيئةً وذهابًا على مفصلته الوحيدة المُتبقِّية. عوى كمُغنِّي سوبرانو مخمور. «لا»، قال. «سنأخذ هذه العربة»، قال. «اذهب وادفع الثمن».

كان تاسو عبقريًّا. لم نكن أنا وريموس سوى مُساعديه الحمقى فيما يُشيِّد على الهيكل، الثابت بعض الشيء، أكثر عربة طبيب إقناعًا شُيِّدَت قطُّ. عندما انتهينا، كانت هائلة ومظلمة، بنوافذ صغيرة عليها ستائر رمادية. في الداخل، ركَّبنا فراشًا كبيرًا على نوابض من أجل نيكولاي، وفراشًا بستائر لأماليا ورضيعها، وستة خطاطيف للأراجيح، في حال لم نجد حانةً في أيِّ ليلة على طول رحلتنا. ثبَّت تاسو موقدًا صغيرا في الأرض وحفر ثقبًا في السقف لوضع مدخنة. رغم كتلة العربة الكبيرة، كانت الركوبة على نوابضها الرفيعة الجديدة سَلِسَة وكأنها على فراشٍ بريش. طليتُ العجلات الكبيرة بالأسود والذهبي.

عندما امتطى تاسو موقعه، ألمحَ ريموس إلى توهُّمٍ عجيب: ظهرَ الرجل الضئيل بالحجم الطبيعي وبَدَت العربة العجيبة أكبر بمقدار الضعف من أعظم عربة لدى الإمبراطورة.

اشترينا أكبر أربعة خيول رمادية مُروَّضة استطعنا إيجادها، ووضعناها في الحانة مع العربة إلى أن نتهيَّأ للرحيل. مُعتصرًا عينيه في مقعده، رسمَ نيكولاي لافتةً تقول: «الدكتور: ريموس مونش: احذروا من الأمراض الرهيبة». علَّقنا اللافتة على باب العربة.

اشترينا ملابس فلَّاحين لأماليا: ولوَّثناها بالفحم؛ حتى لا تثير الشكوك. في الصباحات الباكرة، عندما لا نخشى كثيرًا أن يرانا أحد، كانت أماليا ترتدي عباءتها ثم نمشي في الأنحاء لنتنفَّس الهواء المتَجدِّد. كنتُ أقودها عبر أكوام الكرنب المُتعفِّن. ونتحدَّث عن مستقبلنا: عن إيطاليا ومُدنها؛ عن باريس وإنجلترا البعيدة؛ عن أعظم دور الأوبرا في العالم، التي كنا ننطق أسماءها فيما بيننا كتعاويذ سحرية: تياترو سان كارلو، تياترو ديلا بيرجولا، تياترو سان بينديتو، تياترو كابرانيكا، تياترو كمونالي، تياترو ريجيو، كونفنت جاردن، دي هوفوبر. كان الأطفال رفقتنا الوحيدة في الشارع. وفور أن تطلع الشمس كانوا

يتسلَّقون نوافذ المنازل المهجورة، يتقافزون عبر الأزقة، تهشُّهم أمهاتهم بعيدًا عن الأبواب. كان الأطفال الأكبر يقطرون بسلاسل أشقائهم الأصغر ورائهم. فيما يتسابق الأطفال حولنا، كنتُ أجد نفسي أتفحَّص كل وجه مبتسم. هل سيكون طفلنا مثله؟ أم مثلها؟

أخبرتني أماليا ذات يوم أنها تودُّ الانطلاق في رحلة قصيرة إلى المدينة لشراء هدية لنيكولاي. في اليوم السابق، كانت اقترضت شريط من الكتان المُرقَّم الذي يستخدمه تاسو لقياس الأطوال وربطته حول رأس نيكولاي، مُخربشةً بالأرقام على قصاصة ورق. حزمَت شَعرها للخلف بوشاح ولطَّخت وجهها بالرماد حتى صارت تبدو كخادمة مُشعَّثة، ومررنا عبر بوابة السور إلى سوق السمك حيث أخبرتني أن أنتظر في العربة.

اختفت في متجر، بلافتة تقول «عدسات Linsen". هبَّت رائحة السمك العفنة في الهواء البارد وأصابتني بالغثيان. تطلَّعت عبر الشارع يمينًا ويسارًا بحثًا عن غول الكونتيسة ريشر أو جاسوس آخر ما ربما يسرق مني حبِّي مُجددًا. دفعَ رجل عجوز بعربةٍ تصرُّ مُحمَّلة بأكوامٍ من الصابون المُدهَّن، فيما صبيٌّ مُتَّسخ يحمل صحفًا مُتهدِّلة في يده ويصيح، "الهزيمة في سيليسا! الحرب ستنتهي حتمًا!" دلفت امرأةٌ أخرى إلى متجر العدسات بعباءة سميكة حول أذنيها، واقتنعتُ بغتةً أنها الكونتيسة ريشر نفسها. لكن فور أن استجمعت شجاعتي لمواجهتها، خَطَت أماليا خارجةً، بخدَّيها الورديَّيْن باديَيْ الرضا والفرح. كانت تحمل علبة صغيرة تحت ذراعيها.

في تلك الظهيرة كشفت عن هديتها: زوج من العدسات المستديرة المُصفرَّة مُعلَّقة على إطارات من الأسلاك.

"لا تتحرَّك"، قالت لنيكولاي فيما يحاول مدَّ يده وتحسُّس الأداء الغريبة بيديه الخرقاوين. "دعني أضعها على وجهك".

أصبحت عيناه شكلَيْن بيضاويَّيْن، بشرائط من الجلد الأسود حولهما لحجب الضوء. أبدى نيكولاي اندهاشةً، رغم أنه لم يستطع رؤية شيءٍ في ضوء الردهة المُعتم. نهض واقفًا. فتحت أماليا الستارة. انساب ضوء أواخر ما بعد الظهيرة إلى الداخل، وللمرة الأولى في سنوات طويلة، لم يجفل نيكولاي.

شهقَ من البهجة ولوَّح بيده أمام وجهه، وكأن العدسات تجعله يُبصر أرواحًا غير مرئية لنا تطير في الهواء. خطا إلى النافذة ووقف هناك كخيال ظلٍّ مهيب، بذراعيه ممدودَتيْن لمعانقة الشمس الدافقة. "إنها معجزة!" هتف.

لم تكن معجزة، بل مجرد هديَّة أخرى من العِلم، ولم تكن الحل المثالي كذلك. عندما يرتدي العوينات، كان بمقدوره الإبصار جيدًا فقط في الظهائر المشمسة كما يُبصر الآخرون في منتصف الليل. "لا، لا"، أجاب على تأكيدات ريموس بأنه يخدعنا. "أستطيع الإبصار بأفضل ما استطعتُ قطُّ. مثل خفَّاش".

هزَّت أماليا كتفيها استهانةً وهمست لي، "إنها زجاج مُغبَّش فحسب. لكن لماذا نخبره؟".

تواثبَ نيكولاي في أرجاء المسكن وكأنه يرى كل كومة كتب لريموس، كل منضدة، وكل كأس قهوة أو نبيذ، وهكذا عندما يقلبها، وهو ما فعله كثيرًا، كان يهتف، "أوه، أخرق للغاية. ينبغي لي أن أكون حذرًا مع قدمي السمينة في المستقبل". طلبَ من ريموس أن يرافقه فيما يتنزَّه في الحيِّ. "حتَّى الوحوش البشعة"، قال، "لا تخيف أحدًا مع صحبة الأطباء باهظي التكلفة".

عندما يتحرك رضيعها، كانت أماليا تضع يدي على جسدها حتَّى أشعر بالحركة أنا أيضًا. وعندما يطول صمت الرضيع، وأراها تنغز برفقٍ، على أمل إيقاظ علامةٍ ما على الحياة، كنت أجذب يدها بعيدًا

وأضغط بأذني على بطنها. أنصتُ إلى القلب المُنمنم الذي يخفق أسرع من قلب أمِّه مقدار الضِّعف. ذات يوم، فيما أغنِّي لها صدى القلب، لوب-دوب- لوب-دوب لوب-دوب، أخذت يدي في يديها وجذبتني إلى وجهها حتى تَلامَس أنفانا. "موسى"، قالت. "سيدعوكَ (أبي)".

تورَّد وجهي وأشحتُ بنظري، لكن الفكرة سحَرتني خلسةً. أبي، كرَّرتها لنفسي فور أن صرتُ بمفردي. أبي.

منذ ذلك الحين، كل يوم عندما أغنِّي لأماليا كنتُ أغنِّي كذلك لطفلنا في رحِمِها. تمنَّيتُ في أعماقي أن يخترق صوتي أذنيه المنمنمتين كما اخترق صوتُ أجراس أمي أذنيَّ. هل سأقدر أن أكون أبًا لهذا الطفل كما كانت الأجراس لي؟

ذات ليلة، بعد أن تهيَّأنا للنوم، وقفتُ أمام أماليا في غرفتنا الضيقة. أخذت تتمعَّن فيَّ في ضوء الشمعة: ذراعاي الطويلتان وصدري البارز. في الهواء البارد، اشتدَّت معدتي الملساء إلى ما يشبه قشرة بيض. استقرَّت عيناها للحظة على اللفافة التي أرتديها دائمًا حول وسطي، ثم رمشتا بسرعة على وجهي. لكنني لمحتُ تلك النظرة المُختلِسة، وعندما تلاقت عينانا، تورَّد وجهها.

فككتُ اللفافة. اقشعرَّ الجلد الرطب تحتها بفعل الهواء البارد. لم أستطع أن أُخفض بصري؛ وإلَّا فلن أحتمل عاري. لكن أماليا لم تحوِّل بصرها. مدَّت يدها، وعاريًا، بارتياحٍ هائل، ارتقيتُ تحت دثارها. استكانت بين ذراعيَّ.

"أماليا"، قلتُ بغتةً بعد بضعة دقائق.

"ما الأمر يا موسى؟" سمعتُ في حيرتها أنها كانت نائمة.

"لن أدع هذا يحدث له".

"عن ماذا تتحدَّث؟".

"إذا كان صبيًّا... ابننا. لن أدع هذا يحدث له كما حدثَ لي".

"أوه موسى. لا تكن أحمقَ. بالطبع لن يحدث".

سرعـان مـا سـمعتُ في أنفاسـها المتطاولـة أنهـا عـادت إلى النـوم، لكننـي بقيـتُ مسـتيقظًا لدقائـق طويلة.

سـأحميه -أو أحميهـا، ابننـا أو ابنتنـا، أيًّـا كان- سـأحمي ذلـك الطفل من الـشَّرِّ الـذي حـلَّ بي ومـن كل الـشرور الأخـرى التـي تتربَّـص بـه في العـالم. لكننـي أبـدًا لـن أذكـر ذلـك الـشيء مُجـدَّدًا، ولا حتَّـى لأماليـا: سـيكون ميثاقـي الـسِّرِّي: إذا اسـتطعتُ أن أفعلهـا -أن أكـون أبًـا لهـذا الطفـل الـذي يكـبر في بطنهـا- فـإن عـاري بشـأن نقيصتـي سـيتلاشى أخـيرًا إلى العـدم. ورغـم أننـي لـن أسـتطيع أبـدًا أن أصـل مـا انقطـع، فسـأتوقَّف تمامًـا عـن النـواح عـلى كل مـا فقدتُـه.

وهكـذا حـلَّ نوڤمـبر البـارد. بـدت أيَّامُنـا هيِّنـةً ومشرقـة؛ نسـينا بالـكاد أن هنـاك أيَّ إنسـان أو شيء في العـالم قـد نخافـه. نسـينا أننا نتشـارك مدينةً مـع أنـاس يمقتوننـا بشـدَّة؛ ذلـك أن سـبيتلبرج كانـت ملاذنـا، والرجـال والنسـاء الذيـن يقطنـون هـذه الشـوارع كانـوا بعيديـن عـن حفـلات آل ريـشر السـاهرة وغنـاء جـواداني بُعـد الـترابِ عـن السـماء.

(18)

«شيءٌ ما مختلف يا موسى»، قالت أماليا ذات صباح. كانت قد ازدادت تكوُّرًا، وأخمدَ قوامها المنتفخ من رنين جسدها. كان عرجها باديًا حتَّى عندما تُبدِّل قدمَيْها على الأرض ببطء. صارت الآن تقف، ومنامتها الرقيقة تنسدل على بطنها كشلالٍ على صخور. لاحظتُ أن بروز طفلها قد ارتخى.

«هل يؤلم؟» سألتها.

"لا"، قال. وضعت يديها بمحاذاة بطنها. "لا يؤلم على الإطلاق".

لكن تلك الظهيرة، بدأ الألم؛ ألم زاحف، متثاقل. سمعتُه في حدَّة أنفاسها وهي تتحرك. "أنا بخير"، داوَمَت على إخبارنا عندما نُحدِّق في رعبٍ أخرس. جلسنا أنا وريموس ونيكولاي أمامها في الردهة. سألتها إذا كانت ترغب في بعض الشاي، أو التفاح من تاجر الفواكه، أو أن

يقـرأ ريمـوس عليهـا مـن كتبـه بصـوتٍ عـالٍ، أو أن يحـكي لهـا نيكـولاي مُجـدَّدًا كيـف كانـت حياتـه في إيطاليـا، أو...

"أمسـك يـدي فحسـب ولا تسـألني أيَّـة أسـئلة أخـرى"، قالـت. لكـن حينهـا امتعـض وجههـا وكأن أحدهـم يهـرس بيـده في أحشـائها. سـندت نفسـها عـلى المقعـد بذراعـين ممدودتـين ورفعـت بطنهـا، وكأنهـا تحـاول رفـع رضيعهـا ناحيـة السـقف.

حاولتها مساعدتها في رفعه.

"أفلِتني!" صرخت بين شهقاتها.

اندفـع ريمـوس ناهضًـا وخطـا ناحيـة البـاب. "مـن الأفضـل أن أجلـب تاسـو"، غمغـمَ، واندفـعَ إلى الخـارج بسرعـةٍ لم أره يتحـرَّك بمثلهـا قـطُّ.

عندمـا وصـلَ تاسـو، ركـضَ عامـل المـسرح صاعـدًا الـدَّرج، تـاركًا ريمـوس بعيـدًا وراءه. كان الرجـل الضئيـل الأكـبر مـن بـين ثلاثـة عشر طفـلًا؛ والولادة عـادةٌ في أسرتـه وكأنهـا صـوم الأربعـين. دلَّـكَ يـدا أماليـا بكفَّيـه وأخبرهـا أن أمامهـا سـاعات كثـيرة قبـل أن تضـع مولودهـا، وأن علينـا أن ننتظـر قبـل أن نرسـل في طلـب القابِلَـة (*Hebamme*). "قِـف بجوارهـا"، أمـرني، "أمسِـكْ يدهـا". فعلـتُ كـما قـال. بـدأت الغرفـة في الـدوران مـن حـولي.

"بحـقِّ الـرَّبِّ يـا مـوسى"، قـال ريمـوس، "عليـك أن تتنفَّـس، وإلَّا سـتفقد وعيك".

فركـت أماليـا ظهـر يـدي عـلى خدِّهـا الحـار. "مـوسى"، قالـت، "لا ينبغـي أن تقلـق. سـأكون بخـير".

لكننـي كنـتُ خائفًـا حقًّـا. رفضَـت أضلاعـي التَّمـدُّد، ولم أسـتطع التنفُّـس سـوى برفـع كتفَـيَّ. عضضـتُ شـفتي حتـى دَمِيَـت. تراخـت إحـدى رُكبتـيَّ؛ أسـندني ريمـوس إلى مقعـد. ثـم كانـت أماليـا تفـرك يـدي.

"هل كل مَن على شاكلته بهذه الهشاشة؟" سمعتُ تاسو يهمس لنيكولاي.

"لا، لا"، أجابه نيكولاي مُغمغمًا. "إنه دائمًا هكذا. حتّى قبل أن... حسنًا، تعرف. أعتقد أنها طفولته في الجبال ربما... العيش قريبًا جدًا من الشمس".

تمعّن إليّ تاسو وأومأ.

* * *

بعد بضع ساعات، ازدادت آلام أماليا قوة. "أعتقد"، قالت، لاهثةً، وعاصرةً عينيها لإغلاقهما، "أنني أودُّ الاستلقاء على الفراش".

اندفعنا جميعًا ناهضين، لكن تاسو أومأ لي. "أنت فحسب". ساعدتها على الاستلقاء على الفراش فيما يهبط تاسو الدّرج مُسرعًا إلى الشارع ليجلب القابلة.

"غنِّ لي يا موسى"، قالت أماليا. ركعتُ بجوارها واخترتُ واحدة من الأغاني المُقدَّسة التي غنَّيتُها لأمِّها فيما مضى، وصار بمقدوري التنفُّس مُجدَّدًا بغتةً. أغلَقَت عينيها، وتحرّكت أصابع قدميها جيئة وذهابًا فيما تُعمِل صوتي عبر ساقيها المتورّمتين. تنهّدَتْ فيما يهتزُّ الصوت عبر ظهرها ويُرخي أحشاءها. تباطأت أنفاسها، وفتحت عينيها مُجدَّدًا وابتسمت. هذا كل ما أردتُه في حياتي، قالت نظرتها لي، وفيما أركع هناك في تلك الغرفة الضيقة وكأنني أغنّي صلاةً، مع قعقعة أكواب القهوة عبر الأرضية البالية والمذاق اللاذع لدخان الخشب على لساني، أدركتُ أيّ هبةٍ تلقّيتُ. ليأتِ المستقبل! فكّرت، مزهوًّا، يملؤني الأمل كما كنتُ دومًا.

ثم، وكأنها رأت شبحًا متربّصًا وراء رأسي، اتّسعت عيناها وتقلّصَ وجهها. فقدَ جسدها صوتي، مثل يدٍ تُسكتِ أوتارَ كمان. مدَّت يدها تحت انحناءة بطنها ولهثت.

في ثلاثين ثانية انتهى الأمر، لكن التماعات الفتاة الجَزعة التي قابلتها قبل أعوامٍ طويلة كانت أقرب إلى السطح الآن. "أوه، موسى"، قالت، "هذا سيؤلم". وضعتُ منشفة باردة على جبينها، وبحثتُ عن الكلمات لتعزيتها، لكنني كنتُ ضائعًا.

تناوَلت يدي. "أخشى كثيرًا أن يحمل وجه أنطون"، قالت. "أريد لطفلنا أن يكبر على شاكلتك".

كان هذه المرَّة الأولى التي تُلمِّح فيها لمخاوف كهذه. تناوَلتُ يدها وقبّلتها. "لديّ سرٌّ"، أخبرتها. "كان عندي أب. كان أشنعَ رجُلٍ عرفتُه في حياتي. كان قبيحًا. ووضيعًا جدًّا. وهكذا، إذا لم ترَيْ ذلك الرجل الشنيع في وجهي، فلا تخافي على هذا الرضيع. لا أستطيع القول إلى ماذا سيصير هذا الطفل، لكنني أعِدُكِ، أنه لن يكون مثل أبيه".

اعتصَرَت يدي، وكنتُ سعيدًا أن أرى أن هذا قد منحها العزاء، حتَّى وإن جعلتها نوبة الألم التالية تُغلق عينيها بقوَّة وبطء. عندما انتهت تلك النوبة، انفتحَ الباب ودلفَ تاسو بصحبة القابلة. كانت طويلة ونحيلة، بشعر رمادي سلكيٍّ. تجهَّمَت عندما رأت الغرفة المزدحمة. لكن هذا كان كل شيء. قابلاتٌ كثيرات (*Hebamme*) من إنينشتادت كُنَّ ليندهشن ويهربن من هذا المشهد: امرأة بمفردها مع أربعة رجال، أيٌّ منهم ليس الأب! لكن هذه المرأة -المتمرِّسة في شوارع المواخير، والأمهات الأطفال، والنساء المستعدَّات لقتل الرضيع داخل أرحامهن- لم تطرح أيَّ أسئلة.

ألقت نظرة خاطفةً عليَّ، ولا بُدَّ أنها قرأت رعبي بوضوح. أمرت تاسو أن يغلي الماء، ويجلب الملاءات والمناشف، وأن يوفِّر لها منضدة لتضع أدواتها عليها. ثم أصدرت أمرًا أخيرًا. "خُذ هذا الرجل"، أومأت في اتِّجاهي، "إلى خارج هذه الغرفة، ولا تسمح له بالعودة حتى يظهر الطفل".

جاهـدت أماليـا للاعتـدال عـلى الفـراش، لكـن القابلـة أبقتهـا مُسـتلقيةً بالقـوة. التقـت عينانـا. أبـدًا لم أرَ خوفًـا كهـذا عـلى وجهها.

"موسى!" قالت.

"سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام"، قلـت. بحلقـي مشـدودًا للغايـة لدرجـة أنـه كان همسًـا. "سـأكون في الخـارج بجـوارك".

وكزني تاسو إلى خارج الغرفة.

أودعنـي في مقعـدٍ، وجلسـنا جميعًـا في الردهـة، مُرتعشـين في صمـت الغرفـة المُعتمـة: خَبْـطٌ بـاب المقهـى بـين لحظـةٍ وأخـرى، الـصراخ الحـاد المتكـرر لطفـلٍ في الشـارع، صرخـات الألم المنتظمـة تخـترق البـاب المُهـترئ.

"الآن لنجلـس وننـــ.." أوشـك ريمـوس عـلى القـول، لكنـه توقَّـف لأننـي نهضـتُ مـن مقعـدي بغتـةً.

سـمعتُ وقـع الخطـوات البطيئـة تصعـد الـدَّرج قبـل أن يسـمعها الآخـرون بلحظـة. أبـدًا لم نسـتقبل زائـرًا مـن قبـل. لا أرغـب في زوَّار الآن.

"مَن هذا؟" غمغمَ تاسو.

"سأصرفهم"، قال ريموس، ناهضًا باندفاع. "لا بُدَّ ألَّا...".

لم يجـد وقتًـا. أُديـرَ المقبـض، وانفتـحَ البـاب. خطـا شـكلٌ بـشري طويـل مُغطًّـى بقلنسـوة إلى الداخـل وأغلـق البـاب وراءه ببطء. ثـم، وكأنـه عـلى خشـبة مـسرح، ببـطء شـديد، مـدَّ جايتانـو جـواداني يديـه المثاليتـين لأعـلى وأنـزل عباءتـه. تأمَّـل جمهـوره الصغـيرة. عندمـا رآني، ابتسـم، كـما لـو بارتيـاح كبـير.

"*Mio fratello*"، قال.

(19)

أبـدًا لم تَبـدُ الرَّدهـة صغـيرةً هكـذا. أخـذت عينـا جـواداني البرّاقتـان تتأمَّـل السـتائر المُهترئـة، والكتـب المُغـبرَّة المُكدَّسـة عـلى طـول الحوائـط، وقطـع الأثـاث غـير المتناسـقة، وكأن كل جسـم يهمـس لـه بـالأسرار حـول الرجـال القاطنـين في هـذا المسـكن. اسـتدارَ ناحيتـي أخـيرًا.

"تُخفـي نفسـك جيـدًا"، قـال. "مـن حُسـن حظّـي أنـك تحيـط نفسـك" -أشـار بيـده في أنحـاء الغرفـة- "بأشـخاص لافتـين للنظـر، كانـوا في غايـة النشـاط اليـوم". ابتسـمَ إلى تاسـو. "مَـن هـي تلـك المـرأة التـي رافقتَهـا إلى هنـا لتـوِّك، هـل لي أن أسـأل؟" عقـدَ الرجـل الضئيـل ذراعيـه وحـدَّق في الأرض.

كان هنـاك أنـينٌ عـالٍ قـادم مـن غرفـة أماليـا؛ يجيبـه الصـوت الثابـت، العميـق للقابلـة.

وحده جواداني استدارَ لينظر إلى باب الغرفة. «سيذهب موسى ليراك»، قال ريموس، «في وقتٍ آخر. أو ربما تزوره أنت. لكننا اليوم لسنا مستعدِّين لأي زيارة».

«لا، لا»، قال جواداني شارد الذهن، مراقبًا ما يزال غرفة النوم. «زيارة أخرى ليست ضرورية. لن أطيل. أودُّ فقط أن أقول وداعًا لتلميذي. ثم سأرحل».

«وداعًا»، قلت.

ابتسمَ جواداني إليَّ وهزَّ رأسه لسذاجتي. خطا للأمام، حتى وقف داخل دائرتنا. نيكولاي على يساره، ريموس وتاسو على يمينه، وأنا جالس أمامه. «بالطبع، لا أريد أن أغادر»، قال، «دون أن أناقش ما حدث بيننا. أنا على يقين أن عامل المسرح قد أخبرك أن الأغنية التي سرقتها قد تركت تأثيرًا هائلًا».

«موسى يُغنِّي أفضل منك بكثير»، قال نيكولاي بغتة. لم يَبدُ أن جواداني قد تأثَّر بهذه الاندفاعة، لكنه تمعَّن في نيكولاي، وكأنه يلاحظ تشوُّهاته لأول مرة. رفعَ حاجبيه.

«موسى»، قال، مُتأمِّلًا في اسمي هذه المرة الأولى التي يرد على شفتيه، «قبل أن أغادر، قبل أن أدع رجلًا كهذا» -أشارَ براحته إلى نيكولاي- «يُضخِّم من طموحاتك، أودُّ أن أمنحك بعض النصائح. أغنِّي الأوبرات منذ كنتُ في العاشرة. غنَّيتُ على خشبات مسارح مُتعفِّنة في قرى إيطاليَّةٍ نائية. غنَّيتُ في كوفنت جاردن. لستَ أول تلميذ يترك كنفي مُعتقدًا أنه أعظم من المُعلِّم. وإلى ماذا صاروا؟ لا أعرف. أبدًا لم أسمع اسم واحد منهم مُجدَّدًا». هزَّ كتفيه استهانةً وتطلَّع مُجدَّدًا ناحية باب أماليا. «أعتقد أنهم يغنُّون في مكان ما. جوقات كنائس قروية، أو يسافرون مع فرق أوبرات الـ *buffa* التهريجية. أعرف كيف يعيشون؛ ذلك أنني عشتُ مثل ذلك يومًا. يغنُّون على مسارح

صغيرة في الخلاء، ويبتهج الناس لأصواتهم. يجعلون الرجال يبكون. ثم ينتهي الحفل. يغادر الجمهور، وفيما يمشون عائدين إلى بيوتهم عبر الشوارع، يضع الرجال، من الجمهور الذي ضحكَ وبكى على غنائهم، أيديهم على أعضائهم" -نظرَ بتركيزٍ إلى حقويَّ، ثم أعاد عينيه إلى وجهي- "ويتظاهرون بالغناء كفتيات صغيرات".

هزَّ نيكولاي رأسه بتحدٍّ من مقعده، لكن جواداني لم يكن ينظر إلا إليَّ.

تطلَّعتُ في قدمَيْ المُغنّي.

"موسى"، تابع، "هل تظنُّ أن هؤلاء المُغنِّين البائسين لا يتمتَّعون بأيِّ موهبة؟ هل لهذا يتعفَّنون في قرى بلا اسم؟ موسى"، نطقَ باسمي بخفوتٍ ورفعتُ بصري. هزَّ رأسه بحزن. "أوه نعم، لديهم موهبة! لديهم أصواتٌ عظيمة، مثل صوتك وصوتي. بمقدورهم جعل الإمبراطورة تبكي، كما فعلتَ أنتَ، فقط لو جعلوها تؤمن بهم". ازداد وجهه قتامةً. "لكن لا تظن أنه من قبيل الصدفة أنهم ينامون في العربات فيما أنام أنا في واحدٍ من أرقى منازل فيينا. ليست صُدفةً".

بدأت أماليا في الأنين مُجدَّدًا، وتوقَّفَ جواداني، مُحملقًا في الباب وكأن مُعاناتها مُجرَّد سعال قطعَ غناءه على المسرح.

"ليست صُدفةً على الإطلاق"، تابع، باهتياجٍ أكبر الآن. "الغناء ليس سوى بوابة الدخول إلى حرفتنا. موسى، أوضحتُ لك كل هذا من قبل، لكنك لم تنصت. لم تكن لترتكب حماقةً كتلك لو كنتَ فهمت...". توقَّفَ عن الحديث، حتَّى يسيطر على الغضب المُتنامي في صوته، لكنَّ أذنيَّ قالتا لي أكثر من ذلك؛ كان أيضًا خائفًا من شيءٍ ما في هذه الغرفة. بيدٍ مرتجفة، ربَّت على جيب عباءته. أخذَ نفسًا بطيئًا، عميقًا.

"إنهم لا يمنحوننا الحُبَّ من أجل غنائنا"، بدأ مُجدَّدًا. اتَّخذ خطوةً أخرى للأمام. "لديك صوتٌ بديع يا موسى...".

"لديه أجمل صوت سمعتُه في حياتي"، قاطعه نيكولاي، ملوِّحًا بإصبعٍ تكفي لإيقاف جوداني في مشيه.

"صوتٌ بديع"، قال جوداني. أومأ باحترام. "أيُّ فرقة أوبرا تهريجية سيسعدها ضمُّك. شيءٌ طيب"، تطلَّع في أرجاء الغرفة، "أنك تبدو مُتكيِّفًا للغاية مع ظروف حياتك هذه".

"ارحل أرجوك"، قلت.

"لكن كنتُ سأعلِّمك كيف تكون موزيكو!" أجفلتني القوَّةُ المباغتة لكلماته، وكأنه قصدَ ضربي. عندما رفعتُ بصري، رأيتُ أنه يرتجف من الغضب.

بهدوءٍ شديد قلت، "لكن لم تُعلِّمني أيَّ شيء".

"حان وقت رحيلك"، قال ريموس.

استدارَ جوداني بسرعة. "سأغادر عندما يناسبني ذلك!" أغلق عينيه لوهلة. ثم استدارَ ناحيتي وأشارَ بإصبع مُرتجفة. "يظنُّون أنهم سمعوني أغنِّي. لو عرفوا أنه كان أنت، لانفجروا من الضحك. ولطردَك جنود الإمبراطورة من المسرح. كان صوتك، لكنه كان أنا مَن هتفوا له".

"هراء"، غمغمَ نيكولاي.

طوَّح جوداني بذراعه وصفع نيكولاي بظهر يده. تركت أصابعه الطويلة أربعة خطوط بيضاء على خدِّ نيكولاي وصدغه. تطايَرَت عدسات نيكولاي الجديدة عن وجهه وتحطَّمت على الأرض.

"أنـا مَـن خلقـتُ أورفيـوس"، زمجـرَ جـواداني، وارتجَفَـت الرَّدهـة الصغيرة بفعـل صوتـه. "أعـدتُ روحـه إلى الحيـاة! ثـم جـاء هـذا الصبـي، هـذا الهـاوي، وسرق صوتـه منِّـي!".

ضيَّـقَ نيكـولاي عينيـه، لكنـه لم يجفـل مـن الضـوء. ببـطء، شرعَ في محاولـة النهـوض مـن مقعـده بصعوبـة. ارتفـعَ فـوق المُغنِّـي. تعـثَّر جـواداني للـوراء حتـى اصطـدم بالحائـط ثـم أخـذَ في تحسُّـس عباءتـه. فيـما يقـترب نيكـولاي منـه، أخـرج مُسدَّسًـا وصوَّبـه ناحيـة العمـلاق.

ضحـك نيكـولاي وشـبَّ لأقصى طـولٍ لـه. "هيـا"، قـال. "تأكَّـد ألَّا تخطئ هدفك".

جذبَ ريموس ذراع نيكولاي. "نيكولاي، اجلس".

ارتعـشَ المُسـدَّس. أبقـاه جـواداني موجَّهًـا إلى نيكـولاي لكنـه اسـتدارَ إليَّ. "أنـا أكـثر مـن مُجـرَّد صـوت بكثـير، ولسـتَ سـوى لـصٍّ لا غـير".

لوهلـة عابـرة، شـعرتُ بالتعاطـف ناحيتـه. كان عـلى حـقٍّ: لقـد سرقتـه. اختلسـتُ منـه مـا يحتاجـه كل عبقـري: الإيمـان أن لا أحد في العـالم بإمكانه أن يتفـوَّق عليـه. أمسـكَ بالمُسـدَّس بارتخـاء، بخـرَق. لـن يُطلقـه؛ يُريدنـا أن ننصـت إليه فحسـب.

"هل هذا كل ما جئتُ لتقوله؟" سألتُ بحذر.

"جئتُ لأخبرك أن ترحل عن هذه المدينة. لا أريدك هنا".

حينهـا، انبعثـت التَّأوُّهـات مُجـدَّدًا. غـرزتُ أصابعـي في فخـذيَّ. اندفـعَ تاسـو ناهضًـا مـن مقعـده. ثـم سـكنت أماليـا مُجـدَّدًا، وارتعـش المُسـدَّس بعنـفٍ أكـبر في يـد جـواداني. تقافـزت عينـاه مـن كل رجـلٍ في الغرفـة إلى الـذي يليـه. اسـتوعبَ أخـيراً بشـكل بـاتٍّ معنـى هـذه الصرخـات. كان يبحـث عـن الأب.

"سنرحل عن ڤيينا"، قلت. محاولًا التحدُّث رغمًا عنِّي لتشتيته، لكن صوتي كان همسًا ذاويًا.

"متى؟" قال.

"قريبًا جدًّا".

أومأ، لكنه كان ذاهلًا. انسحبت الدماء من وجهه. "يا إلهي"، همسَ. "لا يمكن أن يكون".

"اخرج!" صرخَ نيكولاي، مُجاهدًا للإفلات من قبضة ريموس ناحية المُسدَّس، الذي كان يرتعش الآن أكثر وأكثر.

تراجعَ جواداني. "هل هذا حقيقي؟" غمغم. "هل هي فتاة ريشر؟".

لم يُجب أيٌّ منّا. تجمَّدَ نيكولاي في انقضاضته.

"هرَبَت معك؟" سألني. كانت شفتاه المُحمرَّتان وعيناه الثاقبتان هي اللون الوحيد في وجهه.

وحينها صرخت أماليا. كان هناك ألمٌ مريع في صوتها لدرجة أنني نهضتُ مندفعًا وهرعتُ نحو الباب، لكن ريموس أمسك بذراعي وأوقفني.

عندما خَبت صرختها، كان جواداني يقف عند الباب المؤدي إلى الدَّرج. "ملعونون جميعكم"، قال، ثم فرَّ هاربًا.

وحده نيكولاي أبدى ردَّة فعل. لكنه لم يَعُد الرجل الذي هرعَ عبر الدير نحو غرفة أولرتش قبل أعوام طويلة. قعقعَ هابطًا الدَّرج. خطونا أنا وريموس وتاسو إلى النافذة. رأينا المُغنِّي ينطلق إلى الشارع ويختفي وسط الزحام. استغرقَ الأمر بضعة ثوانٍ قبل أن يتبعه نيكولاي، وعندما اندفعَ إلى أشعة شمس الظهيرة، دون عدساته، صرخَ وغرزَ أصابعه في عينيه. بجواري، لهثَ ريموس فيما نراقب نيكولاي يقبض على رأسه ويسقط على ركبتَيْه في الشارع من تحتنا.

(20)

وقفتُ عند باب أماليا فيما الآخرون يساعدون نيكولاي لصعود الدَّرج، وضعوه في مقعده. "لا!" هتفَ، ضاغطًا بكعبَيْ راحتَيْه على صدغيه. "لا، لا، لا!". جلبَ ريموس نبيذه المخلوط بصبغة الأفيون، لكن نيكولاي ضربَ الكأس بعنفٍ، وتحطَّم إلى شظايا على الأرض.

"هل سيخبرها؟ هل ستأتي امرأة ريشر؟" همسَ تاسو لريموس، معتقدًا أنني لا أسمعهم.

"أعتقد أنها ستأتي".

"لماذا؟" سأل. "إنه ليس طفلها".

"إذا كان صبيًّا، فسيكون أكبر ابن لأكبر أبنائها: كونت ريشر ذات يوم. وسيكون وريثَ آل دوفت كذلك. ستحاول انتزاعه".

"لكننا لن نسمح لها"، قال تاسو.

لم يُجب ريموس. خطا إليّ، وواضعًا يديه على كتفيّ، قادني إلى مقعدٍ. كان نيكولاي يُطلق أنفاسًا منتظمة، في محاولة لإخراج الألم من رأسه.

"ريموس"، قلت. "ماذا سنفعل؟".

"لا أعرف".

"إذا حاولَت انتزاع الطفل"، قال نيكولاي، "سأقتلها".

* * *

وقد جاءت حقًّا، بعد ساعة، ولم تأتِ بمفردها.

كان الظلام يزداد حلكةً في الخارج. جاءت في عربتها بصحبة أربعة جنود. «تنحَّ!» هتفوا. «تنحَّ، أيُّها الخسيس!» خبطوا بهراواتهم على راحاتهم ولوَّحوا بها في الهواء ناحية أيِّ شخص يُبطئ في إفساح الطريق لجيادهم. راقبهم تاسو من النافذة. طقطَقَت نوابض العربة فيما تجاهد في السير على الحُفر وأكوام المخلفات في الشارع. ثم حلَّ الصمت، باستثناء نخير الجياد الفحول الأربعة.

«انفتحَ باب العربة»، همسَ تاسو. «أحدهم يخرج منها».

سمعتُ وَقْع حذائها على الدرجات الضَّيِّقة لعربتها وحفيف ردائها فيما ترفعه عن الشارع القذر. تقدَّمتها الخطوات الثقيلة لجندي، فاتحًا باب المقهى. «إلى الخارج يا خنازير»، صرخَ. «سيدة تودُّ الدخول». صرَّت المقاعد الطويلة بالأرضية. ارتدى زبائن معاطفهم بصعوبة. تحطَّمت ثلاثة أكواب قهوة على أحجار الأرضية. أسرع الرجال خارجين إلى الشارع.

سمعنا جميعًا وقع الخطوات: الأحذية الثقيلة لاثنين من الجنود، طقطقة كعبَيْ الكونتيسة ريشر، وخطوات مُتخبِّطة أخرى لم أتعرَّف عليها. ارتقوا الدَّرج. ارتدَّ الباب مفتوحًا ليصطدم بالحائط. أحصى

واحـد مـن الجنـود، بيـده عـلى سـيفه، الموجوديـن في الغرفـة بسرعـة، لكنـه سرعـان مـا رأى فينـا عـدوًّا مثـيرًا للشـفقة. وازنَ نيكـولاي رأسـه بـين إصبعـين. وقـفَ تاسـو مهزومًـا بجـوار النافـذة. تطلَّـع ريمـوس إلى يديـه في حِجـره.

عندمـا خطـت الكونتيسـة ريـشر إلى الغرفـة، بحفيـف عباءتها وردائها السـاطِعَين حـول بابنـا المائـل، ونقـرات أصابـع قدمهـا عـلى أرضنـا الصّـارّة، وكل شـعرة في رأسـها مربوطـة بنظـام مُحكَـم؛ أدركنـا حقًّـا كـما كنّـا حمقى. وراءهـا دلـفَ الجنـدي الثالـث، ثـم امـرأة بدينـة، شـاحبة -مُمرِّضـة- كانـت مطأطئـة الـرأس ككلـب صيـدٍ خنـوع يُجَـرُّ بحبـل.

حملقـت الكونتيسـة ريـشر إليَّ بعينـين هائجتـين. «هـل مـا يقولـه الطـواشيُّ صحيـح؟» سـألتني. «هـل هـي هنـا؟» خطـت للأمـام، وانسـحقت شـظايا عدسـات نيكـولاي تحـت حذائهـا.

«أجِبني»، قالت.

هـززتُ رأسي، لكـن في تلـك اللحظـة سـمعنا أنينًـا، تحـوَّل إلى صرخـةٍ، وكأن أحدهـم يغـرز سـكينًا في بطـن محبوبتـي. اتَّسـعت عينـا المُمرِّضـة، وتجمَّـدتُ، بالصـوت يمـزِّق داخـل رأسي.

كانـت تعبـيرات وجـه الكونتيسـة ريـشر خاويـة. انتظـرت حتّـى يخمـد الـصراخ. «حسـنًا جـدًّا»، قالـت. «سـأرى بنفـسي أيَّ مخلـوق بائـس يُطلـق هـذا الضجيـج». خطـت حـول نيكـولاي مُتَّجهـةً إلى بـاب أماليا.

حـالَ ريمـوس دونهـا. كان أطـولَ منهـا، وفي تلـك اللحظـة بَـدَت أكـثر هشاشـةً بمرَّتـين. «لا»، قـال. رفـعَ يديـه عاليًـا.

"تنحَّ"، قالت.

"لا حاجـة بـكِ للدخـول إلى الغرفـة. تعرفـين أنهـا مَـن تبحثـين عنهـا، لكنهـا لا تحتمـل ارتياعًـا أكـثر مـمّا هـي فيـه الآن".

تفحّصَت وجهه، لكنها لم تمضِ في طريقها. عرضَ عليها مقعدًا. لوَّحت لإبعاده. "سأقف حتَّى يولد. حينها سأستطيع مغادرة هذا المكان القذر".

"لن نسمح لكِ بأخذه". زمجرَ صوت نيكولاي العميق، وراحتاه ما زالتا تضغطان على صدغيه. كانت عيناه مُغلقتَيْن.

استدارت الكونتيسة ريشر لمواجهة نيكولاي في مقعده "لن تسمحوا لي؟".

لم يَقُل نيكولاي شيئًا، لكنني كنتُ خائفًا أن تُحطِّم يداه المرتعشتان رأسه.

تجهَّمت الكونتيسة ريشر، نظرت في أرجاء الغرفة. هزَّت رأسها وتنشَّقت. "باستطاعتي إلقاء القبض عليكم في التَّوِّ واللحظة. أربعتَكم جميعًا". ابتسمت ببرود. "لا أحتاج إلى أسمائكم حتَّى. باستطاعتي إرسالكم إلى حبل المشنقة على اختطافكم لها، قبل أن تشرق الشمس غد". حدَّقت في تاسو، ورغم أنه أجابها بتحديقة مماثلة، إلَّا أنه كان يرتعش. "هل جميعكم بهذه الحماقة؟ هل كان في نيَّتكم حقًّا سرقة هذا الطفل وتربيته هنا، في هذا الكوخ؟ لماذا؟ لأن" -أشارت إلى باب غرفة النوم وأطلقت كلماتها باهتياج- "تلك الفتاة الماجنة أخبرتكم أنها تريد هذا؟".

لا بُدَّ أن جوداني قد أخبرها أن توجِّه غضبها إليَّ؛ ذلك أنها كانت تنظر لي باهتياج. تمنَّيتُ لو كنتُ أحمل سكِّينًا. كنت لأقتلها.

تابَعَت: "لا حقَّ لها في أن تختار ما سيحدث لذلك الطفل. سيكون واحدًا من آل ريشر". تطلَّعت إليَّ من رأسي إلى قدمَيَّ. هزَّت رأسها.

أمرت الجنود أن يحرسا باب غرفة أماليا. "اجلس"، أمرت ريموس.

انصاعَ لأمرها.

افترست كلُّ واحدٍ منّا بنظراتها على التناوب: أطراف تاسو المُتقزِّمة، وجه نيكولاي المشوَّه، ريموس القبيح. ثم أنا. "طواشي"، هسهَسَت. "من أجلكَ هجَرَت منزلنا؟ هجَرَت ابني؟" ابتسَمَت بقسوة. "أوه، آمل أن يكون لديك صوت جميل حقًّا. بعد عشرين عامًا، عندما تصير هي بائسة ووحيدة، آمل أن تمنحها ذكرى صوتك الباهتة بعض العزاء".

لم أُجِب. شعرتُ بتحديقتها كإصبعٍ باردة على وجهي، يتحسَّس بحثًا عن كل علامة على عجزي.

"سأمنحك خيارًا إذن"، تابَعَت. استدارت ولوَّحت بيدها بازدراء. "سننتظر حتّى يولد الرضيع. سآخذه. ستعتني به مُربِّيتي بالشكل اللائق لمكانته. سأرسل بعربة للأم. ثم سأرسلها إلى حيث أحبُّ. سيُعتنى بها، لكنها ستكون بعيدة جدًّا عن أيِّ مكان يمكنها فيه الإضرار بمستقبل حفيدي بسلوكها المُخزي. وأنتم، أربعتكم، سترحلون عن ڤيينا. لا أرغب أن يعرف أحد أن وريثي قد وُلِدَ في..." تطلَّعت في أرجاء الغرفة، وكأنها تبحث عن أبشع الكلمات المُمكنة، لكنها تنهَّدت أخيرًا وقالت، "سبيتلبرج". تابعت. "إذا رفعتم يدًا لإيقافي، أو إذا سمعتُ مُجدَّدًا عنكم في هذه المدينة، فلن يكون أمامي خيار. ستموتون".

لم نتحدَّث، لكن فيما الصرخات من غرفة أماليا تنطلق مُجدَّدًا، صرخت قلوبنا أيضًا. نظرتُ إلى أصدقائي. أومأ لي نيكولاي بما أعرفه بالفعل: أنه على استعداد ليموت على أن يترك هذه المرأة تفعل ما تريده. تاسو أيضًا، واقفًا ما يزال في الركن، بدا مُستعدًّا لعضِّها وخربشتها. حتّى عنق ريموس كان متورِّدًا.

ارتعشت يداي على جانبيَّ. صلَّيتُ أن تصمد ركبتاي. "لا يمكنكِ انتزاع هذا الطفل من أمه"، قلت. كان همسًا. "لن نسمح لكِ".

حدَّقت إليّ وكأنها تظنُّ أنني في غاية الوهن لدرجة أنها لا تحتاج سوى إلى تحديقة لطرحي أرضًا. "من الرجال"، قالت أخيرًا، "أتوقَّع الحماقة. كنتُ آمل أنهم انتزعوها منك مع رجولتك".

ثم انفتحَ باب غرفة أماليا. أطلَّت القابلة برأسها. اختفت تعبيرات وجهها الهادئة. تشابكَ شَعرها، ورغم أنها أخفت يديها وراء إطار الباب، إلَّا أن شريط الدم عبر جبينها أنبأ عن السبب. تطلَّعَت إلى الغرفة المُزدحمة.

"لا بُدَّ أن تُحضر طبيبًا"، قالت اعتباطًا للَّا أحد.

نهضَ تاسو، لكن الكونتيسة ريشر رفعت يدها. "ستحصل على أفضل طبيب في ڤيينا". خطت إلى النافذة وصرخت بالأوامر إلى حوذيِّها في الأسفل لجلب طبيب آل ريشر.

(21)

عندما وصلَ الطبيب، كان الليل قد حلَّ. أوقدَ ريموس شمعةً، وأعطى القابلة مصباحًا. كان الطبيب رجلًا ضئيلًا، عُصابيًّا، ودلفَ إلى الغرفة كفأرٍ خائف، عيناه تتواثبان بحثًا عن علامات الخطر. كان يُمسك بحقيبة سوداء وكأنها درع. حدَّد مكان الكونتيسة ريشر في الضوء المُعتم -وكأنه اكتشفَ مُعتزلًا يمكنه الاختباء فيه- وانحنى قليلًا، مُتقدِّمًا بتعثُّرٍ ليقف بجوارها، مُتيقِّنًا أن قذارة هذه الغرفة لن تتجمَّع كثيرًا حول شخصها.

تشاورَ قليلًا مع القابلة، وسمعتُ الكونتيسة ريشر تهمس له، «أنقذ الطفل يا دكتور. بأيِّ ثمن». جفلَ للحظة تجاه هذه النصيحة الخطيرة، لكنه أومأَ بثبات، وخطا إلى باب أماليا، رافعًا يديه وكأنه سيطرق الباب، ثم راجعَ نفسه وخطا إلى الداخل. تبعته القابلة وأغلقت الباب.

* * *

يمنحها شيئًا لتهدئتها. تتلاشى صرخاتها، وأتساءل إن كانت تصرخ داخل رأسها كما فعلتُ تحت مشرط الجرّاح قبل عشرة أعوام. "ثبّتيها إلى الفراش"، يُرشد الطبيب القابِلَة.

تاسو متقوقع في الركن، يُحدِّق في الأرض. عينا نيكولاي مغلقتان، لكنني أعرف أنه ليس نائمًا. ريموس يضع مِرفقه في يدٍ، والأخرى على وجهه، وكأنه غارق في التفكير. أنا على يقين أننا جميعًا نُفكِّر، لقد فشلنا. الكونتيسة ريشر تعقد ذراعيها المُرصَّعَتين بالمجوهرات على صدرها. ينقضي ما يبدو أنه ساعات ولا تتحرّك هي. لا تنفعل بتاتًا عندما تتأوّه أماليا.

سأموت قبل أن ينتزعوا ذلك الطفل من أمه.

الطبيب يصيح باستعجال مُلحٍّ، ونرفع جميعًا أبصارنا، حتى الكونتيسة ريشر، تبدو وقد جفلت حقًّا للمرة الأولى. نحاول أن نرى عبر خشب الباب.

كان الهواء خانقًا للغاية على أن نتنفَّس.

* * *

ثمَّ، نعيب غُراب. الآخرون عاجزون عن التفريق بين الصوت القادم من تأوُّهات أماليا وأوامر الطبيب، لكنني أسمع كل نغمة. إنه صوت رئتَيْن منمنمتين تنبسطان. تجترعان هواء ودماء ومياه الرحم. يحبسان أول نفس، ليستا واثقتين ماذا تفعلان به، وثم، أول عواء: أغنية الحياة. يرفع أصدقائي الثلاثة أبصارهم. الرضيع.

وأسمع الآن، بلا شك، أنه صبيٌّ. ابننا.

نقف.

يذوي عواؤه. ينتهي بثلاث شهقات آه! آه! آه! ثم يبكي مُجدَّدًا. يا له من رعب بارد هذا العالم! أذناي تبتهجان بكل صرخةٍ يبديها

كهاويـة تنفتـح في مركـز عالمنـا -أنصـت! أنصـت!- فهنـاك مزيـدٌ مـن الأصـوات أتـوق إليهـا، ومـا زالـت غائبـة.

عاجـز عـن الـكلام. عاجـز عـن الحركـة. يسـتمرُّ العـالم في الـدوران بـدوني. كتفـا تاسـو مُنحنيتـان للأمـام، ومرفقـاه للخـارج. كل شَـعرة عـلى عنقـه المُشـعِر منتصبـة. في عينَـيْ ريمـوس هنـاك غضـب. نيكـولاي يُضيِّـق عينيـه. يرمـش. ترتفـع قبضتـاه.

الرضيع يبكي طلبًا لأمه.

أحدِثْ ضجيجًا حتّى أسمعه!

عاجـزٌ عـن التَّنفُّـس. أترنَّـح. يمـرُّ بي ظـلٌّ: ريمـوس. يتشـاجر مـع الكونتيسـة ريـشر، والجنـود يقبضـون عـلى سـيوفهم. يُصفِّـر أحدهـم، والآخـران، اللـذان يحرسـان بـاب المقهـى الأمامـي، يخبطـان بأقدامهـم صاعديـن الـدَّرج. يُربِّتـون عـلى الهـراوات الناعمـة في أيديهـم.

"لسنا خائفين منكم!" يجأر نيكولاي.

لا! حاولتُ أن أقول. لا! ألا تسمعون؟ لقد فشلنا بالفعل!

يقـف الطبيـب عنـد بـاب أماليـا. شـعره ووجهـه مُزيَّتـان بالعـرق. ياقتـه محلولـة. الدمـاء متناثـرة عـلى وجهـه، وعـلى صـدره، تُغطِّـي ذراعيـه حتّـى مِرفقيـه، وكأنـه أغطسـهما في نهـرٍ دامٍ. يحمـل ذلـك الطفـل الصـارخ. القابلـة تُضيء مصباحًـا فـوق كتـف الطبيـب. الطفـل المُبتـلُّ يلتمـع، باكيًـا، ثـم يتجمَّـد في اختنـاقٍ صامـت طلبًـا للهـواء، مُحدِّقًـا في السـقف. تمتـدُّ يـداه ويرتعـش، يعـاود البـكاء.

"أنقذتُ الصبي"، يقول الطبيب. "لكنني لم أستطع إنقاذ الأم".

* * *

كانـت أذنـاي قـد سـمعتا هـذه الحقيقـة بالفعـل، وصـارت تخـترق جسـدي الآن بـكل قـوة. يُمسـك بي ريمـوس فيـما أترنَّـح. لا أسـتطيع جـذب الهـواء لرئتَـيَّ. أغـرق في الهـواء. عاجـز عـن التَّحـرُّك، لكـن العـالم لا يتوقَّـف معــي. نيكـولاي يـصرخ، والجنـود يضربونــه بهراواتهـم، ثـم يركلونــه بأحذيتهـم الثقيلـة.

الرضيـع يبـكي! الكونتيسـة ريـشر قُبالتـي، الطفـل بيننـا، لكنهـا تُشـيح بوجههـا بعيـدًا، مُشـمئزةً مـن الدمـاء. المُمرِّضـة تَلـفُّ الطفـل الصـارخ في قطعـة قـماش وتضمُّـه إلى صدرهـا. ثـم انتهـى الأمـر؛ رحلـوا.

تاسـو يركـع بجـوار نيكـولاي. العمـلاق يـئنُّ مـن الألم. القابلـة مـا تـزال تحمـل المصبـاح كتمثـال، فيـما ريمـوس يخطـو معـي إلى فراشـها.

أماليـا مُغطـاة بمـلاءة. النصـف العلـوي منهـا أبيـض، والأسـفل يلتمـع بالأحمـر. ريمـوس يجذبـه لأسـفل حتَّـى نـرى وجهها. كان مثاليًّـا، بـلا دمـاء عـلى الإطـلاق. قـد يظنُّهـا الناظـر أنهـا نائمـة، لكننـي أسـمع أنهـا ليسـت كذلـك؛ لأنهـا لا تتنفَّـس، وهـذا الصمـت هـو حقًّـا أصـدحُ صـوت سـمعتُه في حيـاتي. يَهـزُّ كل جـزءٍ منِّـي، وأوشِـكُ عـلى التشـظِّي إلى ألـف قطعـةٍ لـو لم يمسـكني ريمـوس بقـوَّةٍ ويعانقنـي كابـنٍ.

(22)

عندمـا ماتـت أمُّهـا، امتـلأت تلـك الكنيسـة المثاليـة بألـفِ نَفْـسٍ. غنَّـت جوقـة كاملـة. رنَّـت حجـارة الكنيسـة مـن أجلهـا. أزهـار كثيرة جـدًّا وُضِعَـت أمـام قبرهـا حتـى بـدا أنـه يسـتقر عـلى فـراشٍ مـن الأزهـار.

دُفنـت أماليـا في المقـبرة المزدحمـة بالأمـوات وراء كنيسـة القديـس ميخائيـل في سـبيتلبرج. الحشـائش تنمـو بـدلًا مـن الأزهـار. المُعترشـات تخنـق أشـجار السـنديان المُغضَّنـة. شـواهد القبـور تسـتقرُّ مقلوبـةً عـلى القبـور، كـما لـو أنهـا تمنـع الجثـث مـن الهـروب إلى مـكانٍ أفضـل.

في اليـوم الـذي دفنَّاهـا فيـه، تسـاقطَ المطـر البـارد بشـدَّة لدرجـة أن تابوتهـا الخشـبي البسـيط طفـا في القـبر إلى أن ألقينـا عليـه الـتراب لتثبيتـه. تـلا القـسُّ الشـاب تبريكاتـه عـلى عجَـل واسـتدارَ ليرحـل، وكان الأمـر لينتهـي عنـد هـذا، لـولا أن بـدأ نيكـولاي في إنشـاد (حَمَـل الـرَّبِّ *Agnus Dei*).

كانـت المـرَّة الأولى التـي أسـمعه فيهـا يُغنِّـي منـذ سـنوات. ارتفـع صوتـه الرَّنَّـان ليغطِّـي عـلى صـوت المطـر الخافـت. أحنيـتُ رأسي حتَّـى تتسـاقط القطـرات عـلى عنقـي وتنسـاب عـبر ظهـري في أنهـارٍ جليديـة. اختلـطَ المطـر بدموعـي. غرقـت أقـدام تاسـو وريمـوس ببـطءٍ في الوحـل، لكنهـما لم يُحرِّراهـا حتَّـى انتهـى نيكـولاي مـن الابتهـال.

أسـقمني المطـر البـارد، المختلـط بحـزني. حلَّـت بي الحُمَّـى، ولعـشرة أيـام اسـتلقيتُ في فـراش مـوت أماليـا. كان ريمـوس قـد نظَّـفَ الغرفـة مـن الدمـاء، فـركَ الحوائـط والأرضيـات وأعمـدة الفـراش بـلا كَلَـلٍ، لكنهـا ظلَّـت رغـم ذلـك في الشـقوق بـين ألـواح الأرضيـة، تغـزوني في أحلامـي. تمامًـا كـما كان فعـل أولرتـش الأعمـى، نظَّـفَ ريمـوس مـرارًا وتكـرارًا، ومـا زلـت أسـمع أنفاسـها. سـمعتُها تهمـس بكلـمات الحـب. عندمـا حاولـوا نقـلي إلى غرفـة نيكـولاي، صرخـتُ.

جلبـوا لي طبيبًـا. أنزفَنـي وسـقاني أعشـابًا مُـرَّة المـذاق، لكننـي لم أتحسَّـن. ظـنَّ أصدقـائي أنهـم عـلى وشـك دفنـي أيضًـا. لكـن بعـد بضعـة أسـابيع اختفـت الحمـى واختفـت معهـا رائحـة الدمـاء مـن الغرفـة. مـا زالـت أصواتهـا مُخزَّنـة عميقًـا في ذاكـرتي، أحملهـا في أذني كمُـدلَّاة مـن الفضـة بصورتهـا محفـورة داخلهـا.

اسـتيقظتُ ذات ليلـةٍ عـلى صراخ طفـلٍ. نهضـتُ مـن الفـراش عـلى الفـور، واندفعـتُ إلى الردهـة، مـارًّا بريمـوس النائـم وهابطًـا الـدَّرج. كنـتُ في الشـارع الجليـدي، حـافي القدمـين، بملابـس مُهلهلـة، قبـل أن أسـتيقظ وتعـود إليَّ حـواسي. كان البـكاء قادمًـا مـن منـزل بعيـد. رأيـتُ نافـذةً مضـاءة، وأمًّـا تخطـو بـصُرَّةٍ عـلى كتفهـا. لم يكـن الاختـلاج النابـض في قدمَـيَّ شـيئًا بالمقارنـة بـالألم في قلبـي.

أمسـياتٍ كثـيرة جلسـنا صامتـين في الردهـة؛ يتراكـم الجليـد عـلى ألـواح النوافـذ ويمحـو الليـل. حتَّـى ريمـوس لم يقـرأ كتابًـا.

"لا بُدَّ أن نستردَّه عنوةً!" هتف نيكولاي بغتةً ذات ليلةٍ بغضب. عندما لم نُجب أنا وريموس، تابعَ، بهدوءٍ أكبر، "كُنَّا لنحبَّه حقًّا، أكثر ممَّا تستطيع الكونتيسة".

"اهدأ يا نيكولاي"، حذَّره ريموس. نظرَ إليَّ وكأنه يخشى أن حديثًا كهذا سيجلب الحُمَّى عليَّ مُجدَّدًا.

"لن أهدأ! لن أهدأ حتَّى نفعل ما ينبغي فعله. سأنشئ جيشًا. هؤلاء الناس في الشوارع سيساعدوننا. مائة رجل كل ما نحتاجه".

"نيكولاي!".

"ريموس!" هتفَ بدوره. "هل تنقصك الشجاعة؟".

"توقَّف أرجوك"، قلتُ لصديقي. "أشكرك على شجاعتك يا نيكولاي، لكن لا جدوى من الأمر. تعرف أنني أفكِّر مثلك، لكن ذلك المنزل قلعة؛ سيهرع جنود الإمبراطورة لنجدتها. ستكون المخاطرة عالية جدًّا، علينا وعلى الطفل".

"لكن لا بُدَّ أن نحاول"، أصرَّ.

"لا"، قلتُ بحسم. "لا بُدَّ أن نُصلِّي من أجل أن نكون سعداء في المصير الذي اختاره الرَّبُّ لنا، ولننسَ الطفل".

أطلقَ نيكولاي أنفاسه كُدبٍّ غاضب، لكنه لم يتكلَّم.

"عليكَ أن تقسم لي أنك لن تتحدَّث عن الأمر مُجدَّدًا أبدًا".

احتشدت الدموع في عينيه. ارتجفت شفتاه.

بذلَ لي قَسمَه.

* * *

مضينا وأنا أصدقائي مُتعثِّرين في الحياة كمُمثِّلين منبوذين محرومين من أيِّ نَصٍّ مسرحي. ثم، ذات يوم، استقبلنا زائرَيْن. ارتقى الرجلان،

كلاهـما بحجـم نيكـولاي تقريبًـا، الـدَّرَج واندفعـا ناحيـة الردهـة. لم أنهـض مـن الفـراش، لكننـي سـمعتُ كل كلمـة. أُرسِلا، قـالا لريمـوس، مـن جانـب ربِّ عملهـما، لتذكـير "الطـواشيّ السـويسري" بتعهُّـده بمغـادرة ڤيينـا. سـمعتُ طقطقـة مقعـد نيكـولاي فيـما ينهـض لمواجهتهـما، لكـن ريمـوس خطـا بسرعـة حائـلًا بينهـم. قـال إنـه سـيوصل الرسـالة. "أمامـه حتّـى العام الجديـد"، قـال واحـد مـن الرجلـين. "ثـم سـنضطر إلى ترحيلـه بأنفسـنا". بعـد مغادرتهـما، دلـفَ ريمـوس إلى غرفتـي وكـرَّرَ رسـالة جـواداني. "ربمـا حـان الوقـت لنرحـل"، قـال لي. "لنبـدأ مـن جديـد".

"ماذا تقصد؟" سألته.

"العربة تنتظرنا"، قال. "يمكننا الرحيل إلى ڤينيسيا في أيِّ يومٍ نريده".

"نرحـل إلى ڤينيسـيا؟" قلـت، مصدومًـا. "لقـد جهَّزنـا تلـك العربـة مـن أجلهـا!".

"موسى، كانت لتحثَّنا على الرحيل".

"لا أبـالي"، قلـت. "إنهـا ميِّتـة ومدفونـة هنـا، ولـن أفقدهـا مُجـدَّدًا. لـن أرحـل عـن ڤيينـا".

انقـضى أسـبوعٌ آخـر. أثنـاء النهـار، كُنّـا أنـا ونيكـولاي نجلـس في الغرفـة المُعتمـة. وأحيانًـا، في السـاعات الأولى مـن الصبـاح عندمـا يعجـز كلانـا عـن النـوم، نجلـس معًـا عنـد النافـذة المفتوحـة، بالدُّثُـر عـلى أكتافنـا لاتّقـاء بواكـير الشـتاء القـارص، ونُحـدِّق في الشـارع الخـاوي ناحيـة المدينـة.

كان صديقـي يحـاول رفـع معنوياتي بحـكي القصـص. "أخـبرني راهـب"، قـال ذات مـرة، "أنـه في النرويـج، ينـام النـاس طـوال الشـتاء كالدِّبَبة. شـهورًا متواصلـة". في صبـاحٍ آخـر: "يـدور القمـر بسرعـة كبـيرة جـدًا حـول الأرض، لدرجـة أننـا إذا وقفنـا عليـه، سـنندفع بعيـدًا ونحـترق في الشـمس". أو: "قابلـت رجـلًا، هنـا في هـذا الشـارع، يصنـع الفسـاتين للإمبراطـورة. كل رداء

يستغرق منه عامًا لصنعه، وترتديه هي مرة واحدة فقط". أحيانًا ما أنجح في الابتسام بحزن له، لكنني نادرًا ما أتحدَّث. نجلس في الصمت لساعات. مُجرَّد وجودِه كان عزاءً لي.

باكرًا ذات صباح، تحدَّثَ نيكولاي بغتة. "موسى، اليوم هو الكريسماس". كانت الليالي طويلة في ذلك الوقت من العام، وهكذا، رغم أن المدينة تستيقظ ببطء، كانت السماء رمادية قاتمة ما تزال. أخفَت الجليد على حواف النافذ من وهج المصابيح. كان الثلج قد تساقط قبل أسبوع، وعلى سبيل التغيير لم يكن هواء سبيتلبرج ينضح برائحة البول والعفن.

لم أستطع تحديد إذا كان على صواب أو خطأ بشأن التاريخ. لم تكن هناك مظاهر احتفال في الشارع. "طالما كان اليوم المفضَّل لي في السنة"، قال حينها. "يا لها من قُدَّاسات بديعة كنَّا نُغنِّيها!" ضحكَ بحزن. تبلَّلَت عيناه. "خمسة وأربعين عامًا يا موسى! خمسة وأربعين عامًا قضيتُ كُلَّ صباح منها في كنيسة. والآن، لخمس سنوات كاملة، لم أنطق بصلاة واحدة".

تطلَّعتُ إليه، لكنه هزَّ رأسه.

"لا"، قال. "ولا صلاة واحدة".

كان صديقي مغمورًا تحت الدُّثُر. لم أتبيَّن أين ينتهي جسده وأين يبدأ. هزَّ كتفيه استهانةً وارتفَعَت الكتلة بأكملها وهبطت.

"أريد أن أصلِّي حقًّا"، قال. "ليس الأمر أنني تخلَّيتُ عن الرب. لستُ أيوب، لا أشتكي. أستحقُّ كل ما حدثَ لي وأكثر. بالطبع هناك أشياء بالتأكيد أودُّ أن أطلبها من الرب". هزَّ كتفيه استهانةً مُجدَّدًا. "لكن إذا كنتُ أتوق لأطلب من الرَّبِّ أيَّ شيء، فهناك أشياء كثيرة عليَّ أن أخبره بها أولًا. من أين أبدأ؟ وهكذا فإن كل كريسماس يحدث

نفس الشيء. أقول لنفسي إنه من الأفضل أن أنتظر أكثر قليلًا، وأن أصلي في عيد الفصح".

"سأذهب إلى الكنيسة معك اليوم"، همستُ، "إذا أردتَ".

نظرَ بحميميةٍ إليّ، سعيدًا بسماعي أتحدَّث، وأكثر سعادةً أنني أهتم بشأنه. لكنه هزَّ رأسه. "لا يا موسى. هذه هي المشكلة. لا أحبُّ. ربما السبب الحاسم، بين أسباب كثيرة، هو أنني عندما أجلس على كرسي الاعتراف وأسمع ذلك الصوت يسألني إن كنتُ أذنبت، ينتابني الخوف من وجه شتاوداخ على الجانب الآخر".

اهتاجت الكراهية داخلي عندما سمعت الاسم. كان وقتٌ طويل قد انقضى منذ فكَّرتُ في رئيس الدير. لكنني أدركتُ في تلك اللحظة أنني لم أعُد أخشى سلطته، التي كان من الواضح أن نيكولاي لم يتخلَّص منها تمامًا. "ربما لستَ مستعدًّا لنَيْل الغفران بعد"، ألمحت.

"ربما"، شرعَ في القول. "لكن لو كنتُ مستعدًّا، فهل أتوق إليه كثيرًا؟ يقول ريموس...".

لكنني رفعتُ يدي؛ ذلك أنني سمعتُ شيئًا. همسًا في الليل.

"ما الأمر؟" سألني.

"أنصِتْ"، قلت. انحنيتُ للأمام، وجاءنا الهمس مُجدَّدًا، أعلى بخمسين ضِعفًا. كل أذن في المدينة تسمع الجلجلة الآن.

* * *

نادتني إلى ڤيينا فيما مضى، والآن تناديني مُجدَّدًا. قُرعَ ذلك الجرس العظيم عبر المدينة واستدعى المؤمنين إلى قُدَّاسِ الكريسماس. من مسافةٍ كهذه، كان الصوت هائلًا. غطَّى نيكولاي أذنيه، رغم أنه ابتسمَ بابتهاج على وقع الاهتزاز المارِّ عبر جسده.

صدحَ ذلك الجرس العملاق بمليون نغمة، وتداخَلَت تلك مع مليون نغمة أخرى. مثل قوس قزح، وهو الضوء مُخلَخلًا إلى كل ألوان العالم، كانت تلك كل أصوات العالم. سمعتُ أجراس أمّي وتنهُّدات بهجة أماليا، وهزّتني وتلاشت في طين الأرض المُتجمِّد، ثم صارت معي مُجدَّدًا، محفوظةً للأبد في تلك الجلجلة. وجدتُ نفسي أبكي بين يدَيَّ. بكيتُ على رحيلها، وبكيتُ على الأحلام التي فقدتُها، وعلى الصبي الذي كان ليصير ابني.

حتمًا سمعَ الجلجلة هو أيضًا، في قصره تحت الجرس مباشرة. تمنّيتُ أن يستطيع سماعها كما فعلت، لكن الأغلب أن هذا الصوت كان مُرعبًا له كالرعد. مَن هناك ليُطمئنه؟ مَن يحمي أذنيه ويُضمُّه إلى صدره؟ ليس أباه، ليست جدَّته؛ كانت تلك المُربِّية كل ما لديه. تخيّلتُ تلك المرأة الضئيلة التي كانت مُنكمشةً وراء الكونتيسة ريشر هنا في ردهتنا. كيف ستُغطّي أذنيها وتحمي أذنَيْ صبيٍّ في نفس الوقت؟

استدعى هذا رؤيا في عقلي: أحمله، أضغط بإحدى أذنيه على صدري، أحمي الأخرى براحتي. أضمُّه بشدّة وأُهدهده. أغنّي بخفوت، ورغم أنه لا يستطيع سماع صوتي مع تلك الجلجلة، إلّا أن غنائي يُهدِّئ أطرافه المشدودة. كانت هذه الرؤيا حقيقة للغاية، لدرجة أنني وجدتُ نفسي أضمُّ الدثار بذراعيَّ. شعرتُ بدفء جسده. شعرتُ بتضخُّم أنفاسه.

ثم أخفضتُ بصري ورأيتُ أن ذراعيَّ خاويتان. ملأني الندم بحدّةٍ، لدرجة أنني نهضت واقفًا ونظرت إلى خارج النافذة، نحو الصباح الأسود، المُجلجِل.

أدركتُ أيَّ سعادةٍ فقَدتُ، وفي تلك اللحظة، أدركتُ أن بمقدوري استعادة جزءٍ منها مُجدَّدًا.

(23)

كان المؤلـف الموسـيقي تشـيڤالير كريسـتوف ڤيليبالـد جلـوك نائمًـا عندمـا تسـلَّلَ الشـبح إلى غرفـة نومـه. خطـا ببـطء إلى جانـب فراشـه وسـعلَ. لم يسـتيقظ المايسـترو. "هاللـو!" قـال الشـبح. "اسـتيقِظْ!" لم يتحرك جلـوك أيضًـا؛ ولهـذا هـزَّ الشـبح ذراعـه.

انفتحت عينا جلوك بغتةً. جفلَ في فزع. "مَن هناك؟" سألَ.

"أوقِدْ شمعةً".

مـالَ جلـوك إلى المنضـدة بجـوار فراشـه وفعـلَ كـما قيـل لـه. أُضيءَ وجـه الشـبح، شـهقَ.

"أورفيوس!" قال.

أومأ أورفيوس ببطء.

"هل ستُغنِّي مُجدَّدًا؟" سألَ. "هل ستغنِّي من أجلي مُجدَّدًا؟".

بـدا أورفيـوس وكأنـه يتفكَّـر في هـذا لوهلـة. "لا يمكننـي القـول"، قـال. "لسـتُ أنـا مَـن يُقـرِّر".

"مَـن يُقـرِّر إذن؟" أزاحَ جلـوك الغطـاء ونهـضَ خارجًـا مـن الفـراش. "مَـن يُقـرِّر؟" خطـا الشـبح للخلـف فيـما يتقـدَّم جلـوك.

"الـ... الموسيقى"، أجابه الشبح. "الموسيقى هي مَن تُقرِّر".

أومـأ جلـوك. "نعـم"، قـال. "نعـم، بالطبـع". تنـاولَ المؤلف الموسـيقي يد أورفيـوس في يديـه. لبرهـة ضغـطَ بهـا عـلى جبينـه في ابتهـال. "أورفيـوس"، همـسَ، "لكـن لمـاذا جئـتَ إليّ الليلـة؟".

"الموسـيقى"، قـال الشـبح، وكأنـه يتلـو رسـالةً محفـورة في ذاكرتـه، "باركتْـكَ بنعمتهـا. والآن عليـك أن تفعـل شـيئًا في المقابـل". وحينهـا أخـبرَ أورفيـوس جلـوك بمـا عليـه أن يفعلـه، ثـم اسـتيقظ واضـع الألحـان مـن أحلامـه عـلى وقـع جـرسٍ رنَّـان.

* * *

اسـتغرقَ منِّـي الأمـر سـبعة أيـام لترتيـب كل شيء. أخـبرتُ أصدقـائي بالـدور الـذي عليهـم أن يلعبـوه، وبالخطـر الـذي ينتظرهـم. "ربمـا تقطـع الإمبراطـورة رؤوسـنا"، قـال نيكـولاي. شـحبَ تاسـو عندمـا سـمع كلـمات نيكـولاي، فخبطـه العمـلاقُ عـلى ظهـره، مُدحرجًـا إيَّـاه بضـع خطـوات عـلى الأرض. ودَّعنـا السـيد كوسـت وأخبرنـاه أن بمقـدوره البحـث عـن مسـتأجرين آخريـن. كان ريمـوس قـد اسـتبدل عدسـات نيكـولاي التـي تشـظَّت. اشـتريتُ سـكِّينًا قصيرًا، قـال الحـدَّاد إنهـا أمـضى سـكِّين يمكننـي إيجادهـا في ڤيينـا، ووضعتهـا في حزامـي، وقطعـةً كبـيرة مـن شـمع النحـل النـاعـم، وبطانـة مـن الصـوف، ويـاردةً مـن قـماش الموسـلين، قطَّعتُهـا إلى أشرطـة.

جلـبَ لي تاسـو الموقـد الحديـدي الصغـير الـذي كان يسـتخدمه في الليـالي البـاردة تحـت خشـبة المـسرح. جمـعَ كلَّ مُتعلَّقاتـه في صرَّة، ثـم عـادَ مـن أجـل أمسـية أخـيرة في المـسرح- كان جـواداني يُغنِّـي أورفيـوس مُجـدَّدًا.

في أواخـر تلـك الليلـة، سـمعنا تاسـو يهـرع صاعـدًا الـدَّرج. اندفـع إلى الردهـة، مُبتسـمًا بخبـث. "الآن لا أسـتطيع العـودة أبـدًا!" أغلـق البـاب بعنـف وراءه. عندمـا سـألتُه مـاذا يقصـد، أسرعَ أولًا إلى المدفـأة؛ خشـبة المـسرح التـي غنَّيـتُ عليهـا حفلتـي قبـل شـهور. زحـفَ جيئـة وذهابًـا كلـصٍّ منـازل. حملـقَ في السـقف. "راقبـتُ قدمَيْـه عـبر الشـقوق فوقـي"، حـكى في همـسٍ ماكـر، "لكننـي أنصـتُّ أيضًـا. انتظـرتُ حتَّـى صـار يُغنِّـي عاليًـا وصادحًـا، وحينهـا" -جـذبَ تاسـو خطًّـا وهميًّـا- "جذبـتُ الحبـل. تحـوَّلَ غنـاؤه إلى صرخـات. سـقطَ!".

"لكـن حينهـا"، اكتسـبَ وجـه تاسـو شـحوبًا وتجهُّـمًا، "كـدتُ أن أمـوت". أومـأ ثـلاث مـرَّات: إيمـاءة لـكلٍّ منَّـا. "تـرى، جـواداني كان يتوقَّـع هـذا. لا بُـدَّ أنـه حَلُـمَ بـه كل ليلـة. كانـت صرختـه كهتـاف المعـارك! هبـطَ عـلى الأرض كقـطٍّ. سـحبَ سـكِّينًا مـن قميصـه، وحتَّـى قبـل أن يتمكَّـن مـن رؤيتـي في الظـلام طعـنَ الهـواء". وخـزَ تاسـو مـا عـلى يسـاره، ويمينـه، قاتـلًا نصـف دزينـة مـن الرجـال. "كان ليقتلنـا جميعًـا!".

هـزَّ كتفيـه اسـتهانةً. "لكننـي كنـتُ سريعًـا جـدًّا عـلى أن يمسـك بي. أمسـكتُ بحبـل، وحـرَّرتُ ثقـلًا مُوازِنًـا، سـقط وراء رأسـه مباشرةً. ركلـتُ السِّـكِّين مـن يـده. ابتسـمتُ ولوَّحـت لـه مـن المزلـق. "لـن تنجـو بحياتـك هـذه الليلـة"، زمجـرَ، وحـاولَ أن يتسـلَّق عائـدًا إلى خشـبة المـسرح، لكنـه لم يسـتطع، تخبَّـط هنـاك كفـأرٍ يغـرق ويتشـبَّث بجـذاذة خشـب طافيـة، حتـى جـاء عامـلان ورفعـاه لأعـلى. ضحـكا عليـه! ضحـكَ المـسرح بأكملـه عـلى جـواداني!".

ضحكنا نحن أيضًا وهتفنا للبطل تاسو، لكن ريموس أوقفنا وأوضح لنا أن جواداني ربما كان جادًا في تهديده. "من الأفضل أن تُخفوا العربة حتَّى نستعد"، نصحنا. "سيأتي للبحث عن تاسو هنا". اتَّسعت عينا تاسو في رعبٍ. اختفى كالفأر.

كما اقترحَ علينا ريموس، قضى تاسو هذين اليومين الأخيرين في تجهيز عربتنا وقافلة الخيول. حاولَ أن يُعلِّمنا قيادتها، لكنني وجدتُ هذا بصعوبة الشعوذة. عندما قدَّرتُ أخيرًا أننا مُستعدُّون، ملأتُ بيتنا الجديد بأغراضنا. في النهاية، بمساعدة نيكولاي، رفعنا موقد تاسو إلى سطح العربة، وأحكمتُ ربطه.

غادرنا مسكننا للمرة الأخيرة في منتصف الليل، في الثلاثين من ديسمبر، عام 1762، قبل الموعد الذي حدَّده جواداني بيومٍ واحد. استغرقَ منَّا الأمر ساعة تقريبًا للنزول بالعربة على الشارع الجليدي، المليء بالحفر. جلسَ تاسو في موقعه وسايسَ الخيول ببطء، مُحاذرًا بشدَّة ألَّا تنفلق العجلات. وصلنا إلى منحدر خفيف ورأينا قمرًا مكتملًا يسطع على الجليد الشاسع. قعقعت هذه الطبقة من الجليد فيما نمرُّ فوقها، وكأن الطين من تحتها يهتاج في نومه. قُدنا عبر بوابة السور ثم إلى المدينة. كانت الشواع خاوية، والنوافذ مظلمة، المدينة نائمة، تمامًا كما خطَّطت.

توجَّه تاسو بالعربة إلى قصر ريشر، وعندما وصلت، انحنيتُ إلى خارج باب العربة وهمستُ إليه بأين سنقف بالضبط.

استدرتُ إلى صديقيَّ. "مُستعدَّان؟" أومأ، وانطلقنا.

سرنا عائدين نحو كاتدرائية القديس ستيفن، وبرجها الأسود السامق في السماء. أمسكنا أنا وريموس بذراعَيْ نيكولاي حتَّى لا يسقط على ركامات الجليد. سرعان ما وصلنا إلى الكاتدرائية وانسللنا إلى الداخل. توقَّفنا عند المدخل. كان صحن الكنيسة الكهفيُّ مضاءً بوهج الشموع

التـي كان ضوؤهـا بالـكاد يُدفّئ الأعمـدة المُتشـعِّبة للسـقف. لم نـرَ أحـدًا، لكننـي سـمعتُ صريـر مقعـد في الكنيسـة، ووقـع خطـوات خافتـة عـلى الحَجـر، وأدركـتُ أننـا لسـنا وحدنـا. ضيَّـق نيكـولاي عينيـه ناحيـة المذبـح وكأن شـيئًا شـيطانيًا يختبـئ وراءه.

همسـتُ لتاسـو أن يتبعنـي. أريتـه أيَّ بـاب أودُّ فتحـه. أسرعَ الرجـل الضئيـل إليـه عـبر الظـلال. أنصـتُّ إلى طقطقـة المعـدن فيـما يعبـث في القُفـل. ثـم سـمعتُ الصريـر المُبهـج للمفصـلات.

ارتقينـا الـدَّرج ببـطء. زحـفَ نيكـولاي عـلى أربـع في المُقدِّمـة، وفـور أن أدركنـا أننـا خـارج مـدى سـمع القابعـين في صحـن الكنيسـة، قـال بـين أنفاسـه المتثاقلـة، "أشـعر بوطـأة... ذنـوبي... تتخفَّـف مـع كل درجـة". صلّيـتُ في سرِّي ألَّا يتدحـرج لأسـفل ويقتلنـا جميعًـا.

وصلنـا أخـيرًا إلى آخـر الـدَّرج، واسـترحنا لبضـع دقائـق. أوقـدتُ شـمعةً. مسـحَ نيكـولاي جبينـه بكـمِّ معطفـه المُهـترئ. ضيَّـقَ عينيـه إلى حبـال الأجـراس السـتة عـشر المُتدلِّيـة مـن سـت عـشرة فتحـةً في السـقف.

"إذا كان هـذا الجـرس يحتـاج لسـتة عـشر رجـلًا لقرعـه، كيـف سـنفعل ذلـك نحـن الثلاثـة؟ تُبالـغ في تقديـر مقـاس خـصري إذا كُنـت تظـنُّ أننـي أسـاوي أربعـة عـشر رجـلًا".

"لا"، قلـت، منتصبًـا وسـائرًا إلى واحـد مـن الحبـال. "ليـس بالـضرورة سـتة عـشر. إنهـا مسـألة توقيـت فحسـب. ولا حتَّـى سـتة عـشر رجـلًا يمكنهـم رفعـه، لكـن ثلاثـة بمقدورهـم هـزُّه. يمكننـا جعلـه يتأرجـح".

أمسـكتُ بواحـد مـن الحبـل بيـدٍ واحـدة وجذبـتُ بقـوة. لا بُـدَّ أن الحبـل معقـوف بالسـقف لأننـي لم أشـعر سـوى أننـي زحزحتُـه قليـلًا. لكننـي أنصـتُّ. هـذه الحبـال السـتة عـشر تمـرُّ عـبر سـت عـشرة فتحـة في السـقف، ثـم عـبر سـت عـشرة بكـرة، ثـم إلى جديلـة واحـدة، تلتـفُّ حـول عجلـة الجـرس. أصـدرت تلـك البكـرات أوهـى صريـر ممكـن. تأرجحَ

البوميريـن بمقـدار شـعرة. أنصـتُّ الآن لصريـر ثـانٍ -العلامـة بـأن حركـة الجـرس قـد تعاظمـت وانعكسـت- وعندمـا سـمعتُه، جذبـتُ مُجـدَّدًا. كان الصريـر أعـلى هـذه المـرة. كـرَّرتُ العمليـة -ثـم مُجـدَّدًا، ومُجـدَّدًا ومُجـدَّدًا- مانحًـا الحبـل جَذْبـات حـادة ومتناسـقة زمنيًـا، وشـيئًا فشـيئًا شـعرتُ بالعطيَّـة.

"إنها تتحرك!" قال تاسو. أشارَ إلى الحبال.

كانـت تتحـرك حقًّـا. كل الحبـال السـتة عـشر أحنـت ذيولهـا برفـق عـلى الأرض في تناسُـق تـام.

"سيسـتغرق بعـض الوقـت"، قلـت، "قبـل أن يتأرجـح بتثاقـلٍ يكفـي لقرعـه. لكـن هـذا حسـن. أمامـي الكثـير لأفعلـه".

وضـعَ ريمـوس يـده عـلى حبـلٍ آخـر. عندمـا شـعر بـه يسـقط في يـده، جذبـه ناحيتـه. "أسـتطيع الشـعور بـه"، قـال. أجـرى إبهامـه عـلى طـول الأنسـجة المُهترئـة وكأن الحبـل مخلـوق غرائبـي لم يقـرأ عنـه قـطُّ في أيٍّ مـن كتبـه.

"استمرَّ في جذبه"، قلت، وتركتُ حبلي.

أخرجـتُ شـمع النحـل والصـوف والموسـلين مـن الجِـراب، وبـدأتُ بأذنَيْ نيكـولاي. مـلأتُ التجاويـف بالشـمع الطـري، ثـم غطَّيتُها بالصـوف. لففـتُ الموسـلين حـول رأسـه عـدة مـرات لتثبيـت غطـاء الصـوف في مكانـه. سرعـان مـا بـدا كجنـدي شـوَّهته الحـرب، هاربًـا مـن عمليـة جراحيـة.

"هل تستطيع سماعي؟" سألته.

"هـل بـدأ قـرع الأجـراس؟" صـاح عاليًـا لحـدِّ أن ريمـوس جفـل. شـكرتُ الـرَّبَّ أننـا معزولـون في أعـلى بـرجٍ في المدينـة؛ لم يكـن لأحـدٍ أن يسـمع صياحنـا.

"تاسو، أنت التالي!" قلت. نهضَ نيكولاي واقفًا وأمسك بأقرب الحبال إليه. جذبه بكل قوته، لكن بتوقيت خاطئ.

"لا!" صرخ ريموس. "الآن!".

سرعان ما أصبحا يجذبان بتناغُم، وتراقصت حبال الجرس. انتهيتُ من أذنَيْ تاسو وشرعتُ في أذنَيْ ريموس.

"ثم سأتعامل مع أذنيك"، قال ريموس.

"ليس ضروريًّا"، أجبته.

"ماذا تعني؟" سأل. "ستُصاب بالصَّمَم!".

لم يكن لديَّ وقتٌ للشرح. "أمِّي"، قلت، "كانت جرسًا". بدا مرتبكًا، ثم سددتُ أذنه الثانية، ولم يَعُد بمقدورنا التحدُّث. فيما يأخذ ريموس موضعه، خطرَ لي أنه ربما ينبغي مراجعة خُطَّتي معهم لمرة أخيرة. لكن الآن، كانت أرجَحةُ الجرس كافية لرفع تاسو عن الأرض. كان ريموس يجلس مع كل جذبة ثم ينهض عندما ينعكس الجرس ويسحبه لأعلى. كان نيكولاي يجذب الحبل من فوق رأسه إلى خصره.

كم من الوقت قبل أن يصدح الجرس؟ وإلى ذلك، كم أمامنا من وقتٍ قبل أن يصل أحدهم لإيقافنا؟ لا بُدَّ أن يكون التوقيت مضبوطًا. لكن قبل أن أغادر، بقيَ شيء واحد: شيءٌ أقسمتُ على إنجازه.

هرعتُ صاعدًا الدَّرج، اقتحمتُ الظلام. تحَسّستُ طريقي حتَّى وصلت إلى برج الجرس. كان القمر يسطع على الجوانب المفتوحة، مُلقيًا بظلالٍ حادَّة على حوافِّ الجرس فيما يتأرجح، ثم زحفت تحته. أطلق اهتزازه الخافت الساكن برياحٍ باردة على وجهي. قدَّرتُ عشر دقائق قبل أن يضرب.

تناولتُ السِّكِّين من حزامي وقطعتُ اللفافة الجلدية حول المِدقَّة، التي يضعونها لإخفات الرنين المهول. انتزعتُ جذاذات الجلد ولفائف

البطانة الصوفية. كان مجهودًا بطيئًا، لكن بعد بضع دقائق نجحتُ في إزالتها بالكامل. الليلة سيصدح الجرس كما خُلقَ ليصدح.

* * *

أسرعتُ نازلًا الدَّرج. "استَمِرُّوا في الجذب!" صحتُ فيما أندفع مارًّا بأصدقائي، كلٌّ منهم يعلو ويهبط برفق، لكنهم لم يسمعوني. هبطتُ دَرَج البرج في دوَّامات، ولحُسن الحظ وصلتُ إلى صحن الكنيسة قبل أن يُغشى عليَّ. أطفأتُ شمعتي. انسللتُ عبر الكنيسة وهربتُ إلى الليل.

عندما وصلتُ إلى منتصف الميدان، سمعتُ طنطنةً في غاية الخفوت، لكنها ملأتني ببهجةٍ عارمةٍ لدرجة أنني توقَّفت. أغلقتُ عينَيَّ. خفقَ الليل بالدَّويِّ. تركتُه يهزُّني من رأسي إلى أصابع قدمي. تلاشى معه كل خوفٍ باقٍ.

"نعم!" صحتُ عاليًا لأصدقائي. "ها أنتم تفعلونها!".

كانوا يفعلونها حقًّا! كانوا يقرعون أكبر وأصخب جرس في الإمبراطورية، ذلك الجرس الذي يدقُّ الآن كخطوات أقدام على السماء. بوم! بوم! بوم! ملأت الجلجلة حتَّى الصمت بين كل ضربةٍ وأخرى، وكل أذن في ڤيينا لا بُدَّ سمعته الآن. نهضَ الجنود في فُرُشهم فَزِعين، مُعتقدين أن الجيش البروسي يتقدَّم ناحية ڤيينا. استيقظت الإمبراطورة واستدعت وزيرها. صرخَ الأطفال في كل منزل، مستيقظين بذعرٍ من أحلامهم. نبحَت الكلاب في اتِّجاه السماء. خلخلت الارتعاشات الجليدَ والثلج من على الأسقف. شرخَ الرَّنينُ النوافذ في قلب المدينة، وبعيدًا حتَّى القصر الإمبراطوري. الجميع كان يعرف هذا الصوت، لكنه بالتأكيد، فكَّروا، لم يُجلجل بهذا الصخب منذ خمسين عامًا.

ركضتُ خارجًا من الميدان.

مـع ارتقـائي العربـة، فككـتُ أربطـة الموقـد في الأعـلى. جاهـدتُ لرفعـه عـلى كتفـي. ومَضَـت بضـع نوافـذ في قـصر ريـشر، لكـن النافـذة الأقـرب للعربـة مـا زالـت مظلمـة. أدَّيـتُ صـلاة خاطفـةً للـرب. ترنَّحـت للخلـف، تعـثَّرت للأمـام، وألقيـت بالموقـد عـبر النافـذة.

صـوت تحطُّـم هـادر. خبـط الموقـد الهابـط الأرض ككـرة مدفـع، وصلصـلَ وجلجـل الزجـاج المُتحطِّـم عـبر الغرفـة المُظلمـة، ثـم صلَّيـتُ أن تكـون أذنـاي الأذنـين الوحيدتـين التـي كان بمقدورهـا تمييـز الأصـوات وسـط هـذا الـدَّويِّ.

مـن موقعـي عـلى سـقف العربـة، تطلَّعـتُ يمينًـا ويسـارًا عـبر الشـارع، وتأكـدتُ أن الغـول لم يُطـلَّ بوجهـه مـن بوابتـه، وحينهـا، وكأنهـا بـاب، خطـوتُ عـبر النافـذة.

اكتشـفتُ أن نقطـة سـقوطي كانـت أقـرب مـمَّا ينبغـي، وسرعـان مـا وجـدتُ نفـسي غارقًـا في الزجـاج المكسـور. لكـن بعـد لحظـة نهضـتُ مُجـدَّدًا، بـلا وقـت للتفكـير في الجـروح والخـدوش. نفضـتُ عنِّـي شـظيَّات الزجـاج ككلـبٍ ينفـض عنـه المـاء.

تـراءى لي أننـي هبطـتُ فيـما يشـبه المكتبـة. حـشرتُ الموقـد تحـت مكتـبٍ وانسـللتُ نحـو البـاب وأنصـتُّ. لكـن حينهـا فحسـب، نَضُـبَ حظِّـي. وسـط الـدَّويِّ الهائـل، تبيَّنـتُ وقـع خطـوات، ثـم في رعـب، لاحظـتُ اهتـزاز مقبـض البـاب وهـو يسـتدير. كانـت حسـاباتي كلهـا خاطئـة! لقـد سـمعني أحدهـم! بالـكاد كان لـديَّ وقـتٌ للاندفـاع إلى وراء البـاب عندمـا انفتـح وخطـت الكونتيسـة ريـشر نفسـها إلى الداخـل.

* * *



وضعت يدَيْها على أذنيها، فتجمّع كُمّا منامتها الحريرية حول كتفيها. اندهشتُ من بروز كوعيها. حدَّقت في النافذة المُحطَّمة. "ذلك الجرس الملعون"، غمغمت، واستدارت مُبتعدةً.

ربما لم تسمعني رغم كل شيء. بدا أنها تُفتِّش في واحد من الرفوف.

لم أتحرك.

وجَدَت ما تبحث عنها، وبحركة سريعة، أفلتت أذنًا، وتناولت شيئًا من الرَّفِّ، ووضعته في جمجمتها.

بالطبع! أدركتُ. إنها تعيش تحت الأجراس مباشرة. كانت فحسب من شاكلة البشر الذين يملكون وسيلةً ما لحجب الصوت. عندما استدارت عائدةً إلى الباب، كنتُ أقف هناك ما أزال، على أمل أن تظنَّ ظلِّي مجرد تمثال منسي أو ما شابه. لكنها، بالطبع، لم تكن من نوع النساء الذي ينسى أيَّ شيء. حملقت إليَّ في ضوء القمر المُعتم. مُجاهدةً لتبيُّن وجهي. تراجَعَت مُجفلةً.

اندفعتُ ناحيتها. صرخت، لكن حتّى وإن كان زوجها مستلقيًا في الجانب الآخر من الحائط، لم يكن بمقدوره سماعها.

اتَّسعت عيناها. "أنت!" قالت، رغم أنني أشكُّ أنها سمعَت نفسها وسط الضجيج.

"أنتِ!" هتفتُ بدوري. فردتُ ذراعيَّ الطويلتين ورفعتهما ناحيتها.

انقضَّت عليَّ.

خمشت عنقي وحاوَلَت انتزاع عينَيَّ بخناجر أظافرها المطلية. عويتُ وحاولتُ إبعادها، لكنها كانت لبؤةً؛ لا شيء سوى مخالب وزئير.

مـع كل جلجلـة للجـرس ضاعَفَـت مـن ضراوتهـا. ثـم شـدَّت شـعري بيـدٍ وحاولـت بالأخـرى تحطيـم عنقـي. لم أسـتطع التنفـس. لم تسـتطع سـماعي وأنـا أئـزُّ، لكننـي سـمعتها تهـدر في أذني.

أخرجـتُ سـكِّيني ولوَّحـتُ بهـا في وجههـا. أخطأتُهـا، لكنهـا لمحَـت النصـل يلتمـع في ضـوء القمـر وتراجَعَـت، مُفلتـةً عنقـي. التصقـت بالحائـط. أشرتُ بالسّـكِّين المرتعشـة إلى صدرهـا ولهثـتُ طالبًـا الهـواء.

كنـتُ اشـتريتُ السّـكِّين مـن أجـل الجـرس فحسـب. لم أرغـب في تلويث معدنهـا بدمائها الشـيطانية.

كان هنـاك صنـدوقٌ عـلى الأرض بـدا وكأنـه رافـقَ جـنرالًا مـن النبـلاء في حملـةٍ عسـكرية ذات أهميـة. فكَّـرتُ أنـه مناسـب لإخفـاء الكونتيسـة حتَّـى يهـدأ الجـرس وأختفـي. أشرتُ لهـا بالسِّـكِّين أن تخطـو إلى داخلـه، وهـو مـا فعلتـه، لكـن مـع نظرتهـا الخاطفـة الأخـيرة، شـعرتُ برجفـة؛ ذلـك أن عينيهـا أخبرتـاني أننـي لـن أحيـا حتـى اللقـاء القـادم. أوصـدتُ قفـل الصنـدوق، وانطلقـتُ لإكـمال مَهمَّتـي.

كان القـصر يغـصُّ بالحيـاة. لحسـن الحـظ، احتـاج الجميـع إلى كلتـا يديـه لحمايـة أذنيـه، ولهـذا لم يكـن آل ريـشر وخدَمهـم سـوى ظـلال خرقـاء في الأروقـة المُعتِمـة. بـدا وكأن الـدَّويَّ قـد ازداد صخبًـا في الحقيقـة. تخيَّلـتُ أصدقـائي الثلاثـة يتواثبـون إلى السـقف ويهبطـون برفـق مُجـدَّدًا. توخَّـزَت قدمـاي فيـما المنـزل يرتعـش تحتهـما.

سـمعت أذنـاي كل خطـوةٍ، وكل صـوتٍ يلعـن الجـرس المشـؤوم، وأخـيرًا كان هنـاك الصـوت الـذي جئـتُ مـن أجلـه: بـكاء رضيـع. انسـللتُ مـارًّا بالظـلال البشريـة فيـما أرتقـي الـدَّرج، نحـو البـكاء، عـبر الـرواق الـذي يـؤدي إلى جنـاح أنطـون. هنـاك أوشـكتُ عـلى الاصطـدام بظـلٍّ آخـر، وعندمـا دمـدمَ، "ذلـك الجـرس اللعـين!" سـمعتُ أنـه كان أنطـون ريـشر نفسـه.

لكنه كان أصمَّ على أن يسمع ابنه الباكي، رغم أن الصرخات تأتي من باب لا يبعد عنه عشر خطوات. هرعَ مارًّا عبر الرواق ناحية الدَّرج، باحثًا بلا شكٍّ عن أمِّه. افترشتُ الحائط فيما الخطوات تختفي عبر الدَّرج. ثم أسرعتُ عبر الرواق واندفعتُ إلى غرفة نوم الطفل.

(24)

تلـك المُربِّيـة الشـفوق، والرضيـع: أربـع آذان تحتـاج إلى حمايـة، ويـدان فقــط تعرفــان كيــف تفعــل ذلــك. انفطــرَ قلبــي مــن المشــهد. كانــت المـرأة تسـتلقي عـلى الأرض الخشـبية العاريـة، مُلتفَّـةً حـول نفسـها وكأنهـا سـقطت عـبر الـدَّرَج. مـن النافـذة الوحيـدة، كان نصـلٌ مـن ضـوء القمـر يفصـل بينهـما. الرضيـع يسـتلقي عـلى صـدر المُربِّيـة، بـأذنٍ تضغـطُ عـلى صدرهـا. كانـت تضـع يدهـا اليمنـى عـلى أذن الطفـل الخارجيـة، ولم تتبـقَّ لهـا سـوى يدهـا اليـسرى. رأسـها منحـنٍ عـلى كتفهـا اليـسرى، وذراعهـا اليـسرى مُلتفَّـة حـول رأسـها لتصـل إلى أذنهـا اليمنـى.

ربمـا كان هـذا لينجـح، لكـن الطفـل تلـوَّى في يديهـا، بجسـده مُحطَّـمًا بفعـل الصرخـات. اندفعـتُ ناحيتهـما واختطفـتُ الطفـل، وضَمَمتُـه إلى صـدري. بيـدٍ حميـتُ أذنـه المكشـوفة، وبالأخـرى، سـحبتُ قطعـة مـن الشـمع مـن جيبـي. سـددتُ أذنًـا ثـم الأخـرى فيـما يهتـاج في ذراعـيَّ. احمـرَّ وجهـه وتوقَّـف بـكاؤه فقـط عندمـا لم يتبـقَّ لـه هـواءٌ ليـصرخ.

ضممتـهُ أكـثر إلى صـدري الـذي يشـبه صـدور الطيـور -ذلـك الـذي خُلقَ ليُغنِّي وليس ليحتضـن طفـلًا- وأمسـكتُ رأسـه براحتي، بأصابعـي الطويلـة، الرقيقـة، تُربِّـتُ عـلى جبينـه. مـا زال الجـرس يهـزُّ المدينـة. بـدأت بالغنـاء للطفـل -ابنـي!- شـعرتُ بصـوتي داخلـه. منحـه غنـائي السـكينة تمامًـا كـما منـح جدَّتـه في فـراش مرضهـا، وأمَّـه في ولادتـه. سرعـان مـا توقَّـفَ بـكاؤه، ثـم نظـرَ في عينَـيَّ.

أعـرف هـذه الوجـه. عينـا أمِّـه ترنـوان إليَّ. وحينهـا، فيـما أغنِّـي، رفرفت هاتـان العينـان. اسـتغرقَ في النوم.

كانـت المُربِّيـة عـلى الأرض ترتعـش، تضغـط عـلى أذنيهـا مـا تـزال بـكل قوتهـا. رفَعَـت بصرهـا بامتنـان، مُحاولـةً أن تتبـيَّن مَـن هـرعَ إلى نجدتهـا مـن خَـدَمِ القـصر. عندمـا خطـوتُ مُتقدِّمًـا إلى ضـوء القمـر، لم تَبـدُ متفاجئـة أكـثر مـن دهشـة جلـوك عندمـا رأى أورفيـوس في غرفتـه. ربمـا حَلُمـت بي هـي أيضًـا.

"أخـشى أننـي مضطـرٌّ إلى حبسـك في تلـك الخزانـة"، قلـتُ لهـا، وأشرتُ بوجهـي. تمغَّنَـت في حركـة شـفتَيَّ. "لا أريدهـم أن يلقـوا باللـوم عليـكِ. أخبريهـم أنـكِ قاومـتِ لصًّـا". لا، لم تفهـم كلمـة، لكنهـا تركتنـي أقودهـا إلى خزانـة الملابـس، وخَطَـت إلى داخلهـا وكأننـي أسـاعدها لركـوب عربـة في انتظارهـا. أوصـدتُ القفـل عليهـا. لم تـصرخ طلبًـا للنجـدة.

وعندهـا أصبحـتُ وحيـدًا مـع ابنـي. هـذا الوجـه الجميـل النائـم! ملاكٌ بـين ذراعـيَّ! لكـن فيـما أحنـي رأسي للخلـف وللأمـام، أدركـتُ أن الضَّجَّـة الطَّنَّانـة قـد تراجَعَـت. أنصـتُّ: كل ارتطـام هـادر كان أخفـتَ مـن سـابقه. كان هنـاك تفسـير واحـد فقـط: أحدهـم ارتقـى ذلـك الـدَّرج وقبـضَ عـلى أصدقـائي. مـا زال الجـرس يـرنُّ بفعـل قوَّتـه الدافعـة؛ مـا يعنـي أنـه لم يَعُـد أمامـي سـوى بضـع دقائـق قبـل أن يخمـد تمامًـا، ومـا زال أمامـي الكثـير لأفعله.

لفَفتُ الطفل في بعض الدُّثُر من مهده واندفعت عبر الرواق. كان المنزل قد هدأ بشكلٍ ما؛ وجدَ الجميع موضعًا للجلوس بهدوء والإمساك بآذانهم حتى يتوقَّف الدَّويُّ. لكنني سمعتُ شخصًا فيما أقترب من آخر الدَّرج. كان أنطون يقف أمام الباب المؤدي إلى مكتبة الكونتيسة ريشر: الباب إلى مهربي.

"أمِّي!" هتفَ، وخطا داخلًا إلى الغرفة. رأى النافذة المكسورة. "أمِّي!" هتف مُجدَّدًا. بأذنيه المسدودتين، لا بدَّ أنه سمع صوته وكأنه قادم من نفقٍ الطويل.

"أمِّي؟"، صرخَ مرَّةً أخرى، ليس بعيدًا بأكثر من ثلاث خطوات عن الصندوق، الذي تنبعث منه الآن خبطاتٌ مُتقطِّعة. ثم هزَّ كفتيه استهانةً وأغلق الباب. استدارَ ناحية الدَّرَج -فقط لو رفعَ بصره لرآني أُطلُّ عليه من أعلى- لكنه اختارَ الاستمرار في البحث عن أمِّه في الطابق الأدنى. اختفى هابطًا الدُّرج.

في لحظة، كنتُ في المكتبة، انغلق الباب ورائي. وضعتُ قدمًا على حافة النافذة عندما ألقيت نظرة على ذلك الصندوق. في عجلتي كنتُ أغلقت الإبزيم فحسب، لكنني تركتُ القفل مفتوحًا. صحَّحتُ الخطأ وألقيت المفتاح في الشارع المُتجمِّد.

ستنقضي ساعات قبل أن يُخرجوا المرأة من الصندوق.

* * *

خطوتُ بحذر إلى العربة في الخارج وارتقيتُ إلى مقعد تاسو، الذي كان الرجل الضئيل قد كيَّفه لنفسه، وليس لموزيكو أطول منه بضعفين. أحكمتُ مسكتي على اللفيفة الثمينة بذراعٍ، وتناولت اللجام بالذراع الآخر. بحذر، قلت لنفسي، مع الأحصنة أنت أحمق. أدرتُ

البهائـم وكأنهـا فريـقٌ مـن العجائـز المُصابـات بالروماتيـزم. "ببطء"، قلـتُ للخيـول العليلـة. "لا حاجـة إلى الإسراع. أمامنـا أربعمائـة ميـل لنقطعهـا".

اصطدمنـا ببـاب كاتدرائيـة القديـس سـتيفن. فيـما أُوقِـف العربـة، سـمعتُ البوميريـن يـضرب بالمدقَّـة العاريـة للمـرة الأخـيرة. مـا تـزال جلجلتـه تتـدلّى في الهـواء، لكنهـا لم تَعُـد تـؤذي آذان فينـا. هبطـتُ، بوريـث ريـشر مضمومًـا بأمـان إلى صـدري، وخطـوتُ إلى الكنيسـة.

* * *

كان الأمـر كـما خشـيتُ بالضبـط. اختبـأتُ وراء عمـود واختلسـتُ النظـر لأرى أصدقـائي في الأغـلال. يحرسـهم سـتة جنـود، فيـما رجـل آخـر، شـمّاس (*Kirschner*)، يصيـح في وجوههـم. كانـوا قـد أزالـوا اللفافـات مـن رؤوسـهم، رغـم أن موسـلين نيكـولاي كان مـا يـزال مربوطًـا حـول عنقـه كوشـاح. كان الرجـال الثلاثـة ينتفـون الشـمع مـن وقـتٍ لآخـر مـن آذانهم.

"هـل تدركـون مـاذا فعلتـم؟" زمجـرَ الشـمّاس. "هـذا جـرسٌ مُقـدَّس! لقـد أيقظتـم كل روحٍ في هـذه المدينـة. الإمبراطـورة نفسـها! لا بُـدَّ أنهـا تظـنُّ أننـا تحـت الحصـار!".

ضيَّقَ نيكولاي عينيه وحاولَ تبيُّن ملامح الرجل.

"ستنالون عقابكم!".

"عـلى اسـتعداد لأفعلهـا ألـف مـرة!" قـال نيكـولاي. رفـعَ يديـه فـوق رأسـه وكأنـه سـيمُزِّق أغلالـه. "لـن يحوينـي سـجنٌ أبـدًا!".

أخـبر ريمـوس صديقـه أن يهـدأ. "الآن هـو الوقـت المناسـب للمهادنـة"، غمغـمَ. "أودُّ أن نُبقـي وقتنـا في سجن الإمبراطـورة إلى الحـد الأدنى".

"سـنين!" هتـف الشـمّاس. "هـذا مـا يوجـد أمامكـم. انظـروا لمـا فعلتم!" أشـارَ إلى أرضيـة الكنيسـة، حيـث تتناثـر الشـظايا الصغيرة للزجـاج المصبوغ كمليـون ياقوتة.

"يمكن إصلاحها"، قال نيكولاي. "بمقدور تاسو إصلاحها في يوم".

"هل يستطيع إصلاح كل نافذة في ڤيينا؟" صرخ الشمَّاس.

"أفضل ممَّا يستطيع جيشٌ من حمقاكم...".

"نيكولاي!" هتفَ ريموس.

أصدرَ الشمَّاس أوامره للجنود بأخذهم إلى أبشع سجون الإمبراطورة. دفعَ جنديَّان نيكولاي نحو الباب، واصطحب جنديٌّ واحد كلًّا من تاسو وريموس. سار جنديان آخران في إثرهم. تسلَّلتُ من وراء العمود حتّى لا يقبضوا عليَّ أيضًا.

أسرِع! صلَّيت.

وحينها على الفور، كإجابة لصلاتي، اندفعَ باب الكنيسة مفتوحًا وهرعَ رجلٌ عبره. من تحت معطف طويل، داكن، أطلَّ رداؤه الأبيض. تطلَّع إلى الجنود وأسراهم. "توقَّفوا!" صرح. رفعَ كلتا يديه كقائد أوركسترا يطلب الانتباه.

أطاعت العُصبة أمره القوي. حملقَ الشمَّاس فيه. شهقَ. "تشيڤالير!".

"أطلِق سراح هؤلاء الرجال!" زأرَ جلوك وكأنه يتحدَّث إلى المذبح البعيد. خطا إلى نيكولاي. "أعطِني المفتاح!" أمرَ أقرب الجنود إليه. أطاعه الرجل، وبدأ جلوك في فكِّ الأصفاد.

"لكن تشيڤالير!" قال الشمَّاس. "ألم تسمع؟ كان هؤلاء مَن قرعَ الجرس!".

"بالطبع كانوا هم!" هتف جلوك، وكأنه لا يزال يتحدَّث إلى جمهورٍ بعيد. "أنا مَن أمرت بهذا!".

تحرَّر نيكولاي. فركَ رسغيه وحدَّق مُتهيِّبًا في المؤلف الموسيقي.

"أنت؟" شهق الشمّاس.

"هو؟" غمغمَ نيكولاي.

"أنـا!" جـأرَ جلـوك إلى السـماء. شرعَ في العمـل عـلى أصفـاد ريمـوس. فيما لم يكـن أحدٌ ينظـر، أزلـق تاسـو يـده عـبر أصفـاده ووضعها بصمـت عـلى الأرض. أسرعَ إلى وراء عمـود.

"لكن لماذا؟" سأل الشمّاس. "لماذا؟".

توقّـف جلـوك عـن عملـه. تـراءى لي أنـه يُمسـك بيـدَيْ ريمـوس في يديـه، كـما ينبغـي لعشـيق. تطلّـعَ إلى الشـمّاس. "أليـس لديـك آذان؟ أليـس لديـك قلـب؟".

"بل... بل لديّ"، تلعثَم الشمّاس.

"إذن يـا سـيدي"، قـال جلـوك بنـبرة توبيخيـة، "في المـرة القادمـة التـي تسـمع فيهـا الجَمّال ينـادي في الليـل، فأنصحـك بـأن تُنصـت".

(25)

خرجَ بنا تاسو من هذه المدينة وكأن كل شياطين ماضيَّ تطاردنا وتوشك على اللحاق بنا. تقافزَ تُجّار الصباح الباكر من طريقنا فيما نهرع غربًا لنمضي في طريق سالزبيرج. لكننا لم نصل سوى إلى هوتيلدورف قبل أن تواجهنا مشكلة. كان الطفل قد بدأ في الصراخ. لم ينفع الغناء هذه المرة. أخبرني تاسو أن أضع إصبعي الصغير في فمه، وهو ما نجح مؤقتًا، لكن ريموس كان أكثر معرفةً؛ الرُّضَّع يأكلون ما هو أكثر من الأصابع. أمرَ تاسو أن يُوقف العربة. كُنَّا في مكانٍ كئيب. الحانات والمتاجر على طول الطريق الواسع معقولة، لكن المنازل داخل الأزقّة كانت مُتهدِّلة وكأنها مُثقلة بالمياه. كانت الشمس تُشرق. سريعًا سيمضي آل ريشر في إثرنا.

"لكننا لا نستطيع التوقُّف!" ألححت.

"لا مفرٌ من هذا"، قال ريموس. "تذكَّر، أيٌّ مَن يطاردنا سيبحث عن أربعة رجال مُفتقرِين وطفل. لا بُدَّ أن نتصرّف بالثراء الذي نحن

عليه، وأن نُخفي الطفل قَدْر استطاعتنا. صرخاته، وعَجلَتنا، لن تفعل سوى جذب الانتباه إلينا". مدَّ ريموس يده إلى صندوق ذهب السيد دوفت، الذي كان ما يزال ممتلئًا عن آخره تقريبًا. أخرجَ قطعة معدنية واحدة، هبطَ من العربة، واختفى في واحدٍ من الأزقة الكئيبة. انقَضَت ثلاثون دقيقة، وبدأ الرضيع في الارتياب في إصبعي. صرخَ حتى احمرَّ وجهه. صرخَ حتى فرَغَت رئتاه. انسابت الدموع على خدَّيه. راقبتُه بعجزٍ وملأني الخوف أنني ارتكبتُ خطأً شنيعًا.

ثم أشارَ تاسو إلى خارج النافذة. كان ريموس يمشي بتثاقل عبر الزقاق. وراءه كان يقعقع شكلٌ بشري مُترهِّل بذراعين طويلتين تتدلَّيان حتَّى ركبتيه تقريبًا. غول الكونتيسة ريشر؟

بدا ريموس مبتهجًا، وعندما اقتربا، رأيتُ أن هذه الغوريلا كانت امرأةً؛ أغرب عيِّنة بشرية رأيتُها في حياتي. كانت طويلة للغاية، ومتكوِّرة في كل المواضع الصحيحة، وفي كثيرٍ من المواضع الخاطئة أيضًا، بخدَّيْن يتدلَّيان في لفائف من الدُّهن لأسفل إلى صدرها البارز، وبطنٍ متساقط ناحية ركبتَيْها.

فتحَ ريموس الباب وأطلَّت بوجهها المربوع إلى داخل العربة. كان ذقنها أكثرَ ذكوريةً من ذقني؛ ولها شعرٌ أسود في مواضع لا ينمو لي فيها شعر. تطلَّعَت إلى نيكولاي، وريموس، ثم إليَّ. استأنفَ الرضيع صراخه، واحمرَّ وجهه، لكن لم يَبدُ عليها أنها رأت أو سمعت شيئًا منه. وزَنَت عملة السيد دوفت الذهبية في يدها وتمعَّنت فينا مُجدَّدًا، وكأنها تحاول تقرير أيٌّ منَّا أثقل.

"ونفس الشيء بعد ثلاثة أشهر؟" سألت ريموس من فوق كتفها.

"نفس الشيء. لكن رجاء أسرعي. لا وقت لدينا".

"لا بُدَّ أن أجهِّز أدواتي".

"سنشتري أيًّا ما تريدين في الطريق".

أبـدت ابتسـامة خبيثـة عـلى هـذه العـرض، ومالَـت العربـة فيـما تنحـشر بصعوبـة عـبر البـاب. مالـت فوقنـا، هائلـةً. كانـت يداهـا ضخمتَـين ومُتشـقِّقتَين: يـدا جـزّار.

"هل أنت الأب؟" هتَفَت للتغطية على صرخات الرضيع.

"إنه صبيٌّ شقيقته"، تطوَّع ريموس بالقول.

"لكنه سيدعوني أبي"، قلتُ مندفعًا.

"يمكنـه مناداتـك بابـا"، قالـت، "مـا دمـتَ سـتدفع لي حينـما يُسـتحقُّ السـداد".

أومأتُ أننا سأفعل.

"ناوِلنـي إيّـاه". مـدَّت ذراعيهـا. رفـسَ وضربَ بذراعيـه فيـما أرفعـه برفـق. اختطَفَتـه ورفعتـه إليهـا لتفحصـه. بـكى في وجههـا.

"صبي جميل الوجه"، قالت. "ماذا ستسمِّيه؟".

في خِضَـمِّ استثارة معاركنـا، لم يخطـر هـذا السـؤال عـلى بـالي قـطُّ. كان الجميـع ينظـر إليَّ الآن. اسـتدارَ الصبـي وبـكى ناحيتـي أيضًـا.

«اسمه نيكولاي»، قلتُ.

صفَّقَ نيكولاي الكبير بيديه مُبتهجًا.

«حسـنًا نيكـولاي»، قالـت في وجـه الرضيـع. «أعتقـد أنـك ترغـب في إفطـارك».

هشَّـت تاسـو عـن المقعـد بنقـرةٍ مـن يدهـا. أنَّـت نوابـض العربـة فيـما تنطـرح بجسـدها الضخـم. ثـم صعقتنـا جميعًـا؛ فرقعَـت إصبـعٌ بارعـة زِرَّيـن في قميصهـا، الـذي تحـرَّر مُرفرفًـا. بغتـةً، صرنـا جميعًـا نُحـدِّق في صـدرٍ منتفـخ، وحلمـةٍ سـميكة كالإصبـع.

«أغلقوا أفواهكم»، قالت المربِّية المُخضَّلة آمِرةً، دافعةً رأس نيكولاي الصغير إلى تلك الرابية الطرية، لكن فكوكنا كانت في غاية الثِّقل. هزَّت رأسها. «حسنًا، لكن لا تتوقَّعوا منِّي إخفاء أدوات صَنْعتي».

* * *

كان اسم الغوريلا الآنسة شميك. سرعان ما أحكمت سيطرتها على مُستقرِّنا، بيدٍ تضغط بنيكولاي الصغير على صدرها، والأخرى تفرك الزيت في صدغَيْ نيكولاي الكبير (كان بمقدور يدها الضخمة تغطية وجهه بأكمله)، كل هذا فيما تصيح بالأوامر إلى تاسو الذي يقود العربة، وتشرح تفاصيل طلباتها لريموس ولي بشأن ما يتوجَّب علينا شراؤه في المدينة التالية. بحلول ظهيرة ذلك اليوم الأول، صرنا جميعًا نتفكَّر في صمتٍ ما إذا كانت هناك طريقة لطردها من عربتنا. لكن بعد يوم، مع رضيعٍ سعيد، ونيكولاي يشعر بصحَّةٍ أفضل ممَّا عرفَ في سنوات، وهدوءٍ يكفي ريموس لقراءة كتبه، وأميالٍ كثيرة بيننا وبين فيينا، تخلَّينا عن كل فكرة بشأن الإطاحة بمليكتنا الجديدة. لم تكن سيِّدةً راقية، لكن فور أن أدركت أن ثروتنا لا حدود لها، قرَّرَت أن تعيش كسيدة راقية. اشترت دهانات وعطورًا. في سالزبرج، طلبت أزياءً وفساتين. ولا بُدَّ أن يتنعَّم الرضيع بأردية حريرية وقطنية، أصرَّت، وكل أشكال الأقمطة التي تتناسب مع السوائل والجوامد المتنوعة التي يُطلقها. كانت تأمرنا وكأننا مُعاونون مستأجَرون، وننصاع نحن لكل أمر.

في الواقع، كانت تحكم بيتنا -عربةً كانت أم فيلًا- منذ عشية العام الجديد تلك، ولسبع سنواتٍ، حتَّى عام 1769، جعلتنا نشتري لها كوخًا يُطلُّ على خليج نابولي. أعتقد أنها ما زالت تعيش هناك، تهرس حبَّات العنب بقبضتَيْها الهائلتين لتحوِّل عُصارتها إلى نبيذ.

* * *

وهكذا كانت جماعتنا تتكوَّن من ستة أشخاص ونحن نعبر الألب ذلك الشتاء. أسرعنا عبر سالزبرج وإنسبروك ووصلنا إلى معبر برينر الواطئ مع بدء ذوبان الجليد المُبكِّر بالضبط. وبحلول الربيع، سمعتُ إيطاليَّةً على ألسنة مزارعين بلا أسنان وبناتهم ذوات الشَّعر الأسود والأعين البرَّاقة. تردَّدت اللغة التي ظننتُ ذات مرَّة أنها خُلقت للأوبرا فقط كشدو الطيور فيما نعبر بساتين الكستناء. بدَّلنا الأحصنة مرارًا وتكرارًا، وازدادت الشمس دفئًا كل يومٍ. كنَّا نجلس على سقف العربة فيما تاسو يقود بنا عبر السهل الفينيسيِّ، وريموس مُنبطحٌ بكتابٍ. ينادينا نيكولاي للنظر إلى العجائب التي يزعم أنه يراها بعدساته: حبَّات عنب منتفخة تنضج في مارس، شذرات ذهب متناثرة على الطريق، طيور بضعف حجم الإنسان تطير أمام الشمس.

أشدو بالأغنيات التي سمعتُ جوادانِي يتدرَّب عليها في منزله، ويتوقَّف المزارعون عن حلب أبقارهم لينصتوا فيما نمرُّ بهم. يطاردنا الأطفال في انشداهٍ. وفي وسط كل ذلك، على رأس تلك العربة الهائلة، تجلس الآنسة شميك متصالبة الساقين، كإلهة للخصوبة، بثدي متكوِّر واحد يجفُّ في الشمس، والآخر يحتضنه طفل مُسمَّن، مُنغمسًا في اجترار الحليب.

* * *

أتذكَّر يومًا، قبل تلك الرحلة عبر جبال الألب بأعوام كثيرة جدًّا، في نيبلمات، وأنا جالسٌ على حافة برج أجراس كنيستنا وأمِّي تقرع الأجراس. أتطلَّع إلى التفافات طريق أوري بعيدًا في الأسفل، عبرها يتقدَّم رتلٌ من الجنود ببطء. كان اليوم ساكنًا لدرجة أنه بمقدوري سماع قعقعة السيوف وهتافات سائقي العربات. لا بُدَّ أنني تطاوَلتُ بعنقي ومِلتُ للأمام قليلًا، غير واعٍ بالحافة، توَّاقًا لاستكشاف تلك الكائنات الغرائبية التي تحتشد أمام مُستقرِّي. لا أعتقد أنني كنتُ

لأسـقط، لكـن أمّـي، رغـم اسـتغراقها في أجـراس، جفلَـت بغتـةً بانحنـائي البسـيط. ترَكَـت مطارقهـا وقبَضَـت عـلى كلتـا ذراعـيّ، وسـحبتني بعيـدًا عـن الحافـة. احتضنتنـي بقـوّة. بـدا وجههـا مُرتاعًـا لحـدٍّ أننـي أشرتُ إلى الرتـل عـلى الطريـق وكأننـي أقـول، أمّـي، كنـتُ أنظـر إلى الجنـود فحسـب. لم تسـمع شـيئًا بالطبـع، لكنهـا ضيّقَـت عينيهـا ورأت المعـدن المتلألـئ: الثعبـان البـشري ينزلـق عـبر الطريـق. ثـم عـلا الحـزن وجههـا. نظـرت إلى الجنـود ثـم إليّ، وكأنهـا تقـول، أوه بُنـيّ، أنـا في غايـة الأسـف.

لم تكن لديّ أي فكرة ماذا كانت تعني حينها.

لكـن بعـد سـنوات، جالسًـا في تلـك العربـة، بصحبـة أصدقـائي وابنـي، وإيطاليـا تنفتـح أمامنـا، أدركـتُ أخـيرًا: أنـا في غايـة الآسـف أننـي جعلـتُ عالَمـك صغـيراً هكـذا، أرادت أن تقـول لي هـذا. وحينهـا ابتسـمتُ عـلى سـطح عربتِنـا، لأننـي أدركـتُ أنهـا كانـت تتمنّـى لي كل هـذا.

نيكـولاي، بُنـيّ، هـل عوّضتُـك عـن كل مـا سرقتُـه منـك؟ هـل يكفـي الحـبُّ بديـلًا للـثروة والحظـوة التـي كانـت تنتظـرك؟ إرثـكَ المُضاعـف؟ عُدْ بذاكرتـك إلى كل ماضيـك: حياتنـا في لنـدن، نحـن الاثنـان فحسـب. مجـدٌ عـالٍ لدرجـة أن الحشـود تتآلـب عـلى عربتنـا. ربمـا تتذكّـر أنـه كان لـديّ غرامیـاتٌ أخـرى، رغـم أنهـا في قلبـي لم تكـن سـوى صـدى لغرامـي الأول. ألا تُذكّـرك رائحـة روث الأحصنـة بأسـفارنا عـبر الأراضي الإيطاليـة في عربتنـا السـوداء العظيمـة؟ في ذلـك الوقـت، كانـت لعربتنـا سـتائر مـن السـاتان ومفـارش مـن أفخـم الأنـواع، وعمـلاتُ الذهـب والفضـة -ثمـرة نجاحـي- تتسـاقط عـلى الأرض في كل مـرة تنفـض فيهـا الآنسـة شـميك دُثُرنـا.

بالتأكيـد تتذكّـر شـيئًا مـا مـن أعـوام نابـولي. كان لديـك حينهـا ثلاثـة حجـور لتجلـس عليهـا، بالإضافـة إلى حِجـر أبيـك. كان لديـك مُربّيـة، أحببتَهـا كجـدّة. كان لديـك تاسـو الضئيـل، الـذي سـتفوقه طـولًا قريبًـا. كان لديـك ريمـوس، تناديـه بالعَـمّ، و تـسرق كتبـه وتُخفيهـا تحـت فراشـك.

لكـنَّ الرابـع، نيكـولاي، سَـمِيِّك، أنـا عـلى ثقـة أنـك نسـيتَه. اضطررنـا إلى تركـه وراءنـا في ڤينيسـيا. دفنّـاه تحـت حجـارة رَصْـفٍ في شـارع ضيـق، كـما جـرت العـادةَ في المدينـة، بـلا علامـة مـن أيِّ نـوع. كنّـا قضينـا سـتة أشـهر فحسـب بعـد أن وصلنـا إلى تلـك المدينـة التـي طالما حَلُـمَ بزيارتهـا. وجـده ريمـوس ميْتًـا ذات صبـاح، بعـد أن سـقطَ عـلى وجهـه في صلاتـه الراكعـة الليلـة الفائتـة.

أمّـا عـن حياتنـا في ڤينيسـيا، فحتّـى وإن لم تتذكّـر الكثـير، فأنـت تعرفهـا جيـدًا، مـن ناحيـة لأننـا تحدَّثنـا عنهـا سـويًا ومـن ناحيـة لأنهـا تُشـكِّل جوهـر الأسـطورة. يسـجِّل التاريـخ وَقْـع خطـوات أبطالهـا، وفي أواخـر عـام 1763، في ليلـة ظهـوري الأول عـلى تياتـرو سـان بينديتـو، صرتُ بطـلًا. كل سِـجلٍّ لصـوتي يحـكي كيـف أذهلـتُ الجمهـور في ڤينيسـيا، فيـما تحـكي المُجلَّـدات الأضخـم عنـكَ أيضًـا في ذراعـيَّ فيـما النسـاء الجميـلات يُمطِرننـا ببتـلات الأزهـار مـن مقصوراتهـن. منـذ ذلـك الربيـع، سُـجِّلَت حيـاتي مـن قِبـل كثيريـن آخريـن وهـي سِـجِلات ليـس لي أن أحكيهـا.

لكنني احتفظتُ بسرٍّ واحد أخير.

في ذلـك الربيـع بعـد فِرارنـا مـن ڤيينـا، انطلـقَ تاسـو بعربتنـا حتّـى أوشـكنا، لـو لـوَّحَ بسـوطه مـرّةً واحـدة أخـرى، عـلى السـقوط في البحـر. ثـم هبطنـا جميعًـا مـن مجاثمنـا: تاسـو الضئيـل، نيكـولاي العمـلاق، ريمـوس القبيـح، المُربِّيـة الغوريـلا، الموزيكـو، ورضيعـه. لم يخطـر عـلى بـال أحـد أن يخـبرني أن ڤينيسـيا جزيـرة، وهـو مـا كان سـببًا كافيًـا لي لأختـار وجهـةً أخـرى. ارتجفـتُ وقلـت إنني لـن أضـع قدمـي عـلى المعدِّيَـة. أمسـكني نيكـولاي والآنسـة شـميك أرضًـا فيـما وضـعَ ريمـوس عصابـة عـلى عينَـيَّ. ورغـم ذلـك، فيـما أسـتلقي عـلى ظهـر المركـب، تمنيْـتُ لـو كان لـديَّ شـوال مـن الحنطـة لأعانقـه.

وحينها وصلنا. أذهلتنا القصور الغارقة في البحر. أمسكَ ريموس بمِرفق نيكولاي حتَّى لا يتعثَّر ويسقط في الماء المُنتن. تهادينا عبر الأزِقَّة الضيقة واشترينا للآنسة شميك كل ما تاقت إليه من ملابس وعطور وحُليٍّ. في بياتزا سان ماركو عويتَ في بهجةٍ عندما رأيتَ السفن في قناة دي سان ماركو. حدَّقَ نيكولاي عاليًا في ظلِّ كاتدرائية سان ماركو البازيليكا. أومأَ لي ثم خطا إلى الكاتدرائية كجندي مُستعدٍّ لمواجهة عدوٍّ يفوقه عُدَّةً وعتادًا. احتشدَ الباعة الجائلون حول الآنسة شميك. ربَّتت وشمَّت وتذوَّقت كل شيء عرضوه عليها. أنفقَت الكثير من ذهبنا. شردَ تاسو إلى المياه وحدَّقَ بعيدًا إلى السُّفن في البحر. وحده ريموس بقيَ معنا. كان يبتسمُ إليَّ.

"هل ستنتظرنا هنا بالضبط؟" سألته.

"بالطبع"، أجابني.

ثم صرنا أنا وأنت بمفردنا. حملتُكَ عبر أزقَّةٍ ضيقة لم ترَ الشمس قطُّ، على جسورٍ توقَّفنا عليها حتَّى تُحدِّقَ في الجندولات تنساب من تحتنا. سألتُ كل مَن صادفتُه، أين المسرح (*Dov' è il teatro*)؟ ثم أشاروا لي، وسرنا إلى حيث أشاروا، لكن عندما شهقتَ وقبضتَ بيدك على عمود من ضوء الشمس يتلألأ على نوافذ قصرٍ وفي ذا جراند كنال، أخذنا ذلك الاتِّجاه. ضعنا مرارًا وتكرارًا، لكن كل عابر ساعدنا للمُضي قدمًا، حتى وصلنا أخيرًا إلى المسرح المنشود، تياترو سان بينيدتو، الذي طالما همستُ به أنا وأمُّك لبعضنا البعض. كان الوقت في أوائل الظهيرة، والميدان الصغير خاوٍ، رغم أنني سمعتُ البروفات تأتي من داخل المسرح. كان للمبنى واجهة عظيمة بأعمدة نصف غارقة في الجدار وثلاثة أبواب مزدوجة من البلوط المصقول. جلستُ على الدَّرج ووضعتك على ركبتي.

"نيكولاي"، قلت. "نحن هنا".

تطلَّعتَ إلى فمي وتقافزتَ على ركبتي.

"أتمنَّى لو كانت معنا هنا، لكنها ليست معنا. سأفعل ما قالت إنني ينبغي أن أفعله. سأطرق على تلك الأبواب حتى تفتح ويسمحوا لي بالغناء. سيجعلوننا أثرياء، وسيعرف الجميع اسمي. هذا ما قالت إنه سيحدث، وأنا على يقين أنها مُحِقَّة. نيكولاي، لا يمكن أن نتحدَّث عنها مُجدَّدًا أبدًا. كل ما حدثَ يجب أن يظلَّ سرًّا. لا يمكن أن نسمح لأحد أن يربط بين ذلك الطواشيِّ البائس في فيينا بالموزيكو الذي سأصيره. لا ينبغي أن يعرف أحدٌ أنك ابنٌ مسروق. لا أريدهم أن ينتزعوك منِّي.

تطلَّعتَ من شفتيَّ إلى عينَيَّ، المُمتلئتَيْن بالدموع. لم تفهم كلمةً ممَّا قُلتُ. لكنكَ أدركتَ أنني حزين، وبدأت شفتك السفلى تنثني.

نهضتُ، وخطونا جيئةً وذهابًا عبر الميدان الفارغ. وضعتُكَ على كتفي. عانقتك بقوَّة، وتركتُ العالم ينتظر صوتي عشر دقائق أخرى؛ ذلك أنه، في تلك اللحظة، غنَّيتُ لك وحدكَ يا بُنيَّ.

تنويه المؤلّف

في البدايـة، ألهمتنـي أصـواتٌ حقيقيـة: زوجتـي تشـدو بأغنيـة مـن أروفيـوس جلـوك؛ دويٌ حـادٌ، رنّـان، مـن بـرج كنيسـةٍ ألبيّـة صغـيرة؛ قعقعة أجـراس أبقـار سـويسرية، سِـجلٌ لأناشـيد قروسـطيةٌ حبيسـة ديـر سـانت غـال. مـع البحـث الـذي تـلا ذلـك، انطلقـتُ في وضـع سـياق تاريخـي دقيـق لأطلـق فيـه شـخصياتي الخياليـة.

تـم حـلُّ ديـر سـانت غـال، بإيعـازٍ مـن نابليـون، في عـام 1805؛ مـمّا جعـل رئيـس الديـر كويلسـتن جاجـر ڤـون شـتاوداخ (1701-1767) رئيـس الديـر الثالـث قبـل الأخـير. أشرفَ رئيـس الديـر كويلسـتن عـلى التطويـرات الباروكيـة المذهلـة لهـذا الديـر الـذي يبلـغ عمـره الألـف عـام، واشـتملَ هـذا عـلى إنشـاء كنيسـة سـانت غـال، المُدرجـة الآن في مواقـع اليونيسـكو للـتراث العالمـي.

للتَّحقُّـق مـن جغرافيـا ڤيينـا في القـرن الثامـن عـشر، اعتمـدتُ عـلى كتـاب «خريطـة لقلـب مدينـة ڤيينـا *Vogeschauplan der Wiener*

"*Innenstadt*" (1785) لجوزيـف دانيـل ڤـون هوبـر. مـع بدايـة القـرن التاسـع عـشر، هُدِمَـت حانـات سـبيتلبرج المتهالكـة سـيئة السـمعة في معظمها، لكـن مـا أتصـوَّر الآن أنـه كان منـزل نيكـولاي وريمـوس في شـارع بورجاسـه مـا زال موجـودًا حتَّـى يومنـا هـذا، والطابـق الأرضي مـا يـزال مقهًـى بديعًـا حقًّـا. يسـتند قـصر آل ريـشر عـلى قصر فورسـت ڤـون كليري؛ ومنـزل جـواداني، عـلى بنـاء أكـثر تواضعًـا قـرب البوابـة الاسـكتلندية- لا يوجـد أيٌّ منهـما اليـوم. الكثـير مـن أوبـرات جلـوك وموتسـارت وبيتهوڤـن عُرضـت لأول مـرة في مـسرح بـيرج قبـل هدمـه في 1888. تسـتند تفاصيـل آليـات المـسرح وخشـبة المـسرح السـفلية لتاسـو عـلى المـسرح البـاروكي المُرمَّـم بشـكل مُذهـل في شيسـكي كروملـوف.

عُرِضَـت "أورفيـوس ويوريديـس *Orfeo ed Euridice*" لأول مـرة في 5 أكتوبـر، 1762، والأحـداث التـي أدَّت إليهـا، بمـا في ذلـك العـرض التمهيـدي في 6 أغسـطس، 1762 (الـذي قُـدِّم في منـزل كالزابيجـي وليـس في منـزل جـواداني)، سُـجِّلَت في اليوميـات الدقيقـة للكونـت كارل كينزينـدورف. لا يوجـد سـوى مُراجعتَـيْن، هزيلتَـيْن للغايـة، للعـرض الافتتاحـي، في عـدَدَيْ "يوميـات ڤيينـا *Wienerisches Diarium*" اللذيـن نُـشرا بعـد العـرض، بتاريخَـيْ 6 و13 أكتوبـر. لم تذكـر أيٌّ مـن المُراجعتَـيْن أسـماء المؤدِّيـن. وضعـتُ قائمـة "مـوسى" للنُّبـلاء الذيـن حـضروا العـرض الافتتاحـي مـن سـجلات اشـتراك مـسرح بـيرج.

رحـلَ جلـوك نفسـه عـن ڤيينـا إلى باريـس عـام 1774، وهنـاك أعـاد كتابـة مسرحيتـه "أورفيـوس"، مُغـيِّرًا البطـل مـن مـؤدٍّ طـواشيٍّ، ميتـزو-سـوبرانو، إلى صـوت تينـور. عـادَ جايتانـو جـواداني إلى لنـدن في 1767، لكنه أخفـقَ في الحفـاظ عـلى مسـتواه المعـروف، فرحـلَ بعـد سـنتين بعـد أن خـسر شـعبيته. انتهـى بـه الأمـر في بـادوا، حيـث عُـرف بغنائـه عـروض العرائـس السـولو المقتبسـة مـن "أورفيـوس" جلـوك. مـاتَ مُفلسًـا في 1792، بعـد أن تخـلَّى عـن ثروتـه لتلاميـذه الكثيريـن.

تـمَّ صـبُّ جـرس البوميريـن في عـام 1705 مـن 208 مدافـع تركيّـة، وبقـيَ حتَّـى عـام 1944، عندمـا دُمِّـر في حريـق أشـعله ناهبـو الحـروب. ثـم أُذيـبَ، وأعيـد صبُّـه وتعليقـه في عـام 1957. يُقـرَع كل عـام للاحتفـال بالعـام الجديـد. ويشـاهد النمسـاويون الجـرس المتأرجـح عـلى التلفزيـون الوطنـي.

في وقـتٍ مـا مـن عـام 1750، جلـبَ الكونـت كارل إيوجـين طبيبَـيْن إيطاليَّـين إلى شـتوتغارت لغـرض إخصـاء الصبيـان؛ وبهـذا فـإن بـلاط الـدوق كان المـكانَ المعـروفَ الوحيـد للإخصـاء المُنظَّـم شـمال الألـب. في إيطاليـا، اسـتمرَّ إخصـاء الصبيـان لـدور أوبـرا أوربـا طـوال القـرن التاسـع عـشر، رغـم أن العـصر الذهبـي للموزيكـو انقـضى مـع تزايُـد تفضيـل الأوبـرات الرومانسـية لصـوت التينـور. غنَّـى الموزيكـو الأخـير، أليسـاندرو موريـشي، في الجوقـة الباباويـة حتَّـى عـام 1913.

في مواضـع قليلـة للغايـة، عندمـا تتعـارض قصتـي مـع التاريـخ، تنتـصر القصـة الخياليـة. لم تنتـهِ معظـم أعـمال كنيسـة شـتاوداخ الرهيبـة إلَّا في عـام 1766، متأخِّـرًا جـدًّا عـلى إخصـاء مـوسى مـن أجـل أوبـرا جلـوك. بـدا لي تحريـك الإنشـاءات بضـع سـنوات للـوراء ذنبًـا هيِّنًـا، في مقابـل فرصـة مزامَنَـة البنـاء البديـع مـع أوبـرا جلـوك المُذهلـة، وكلاهـما، بعـد مُـضيِّ أكـثر مـن مائتـي عـام، مـا يـزالان رمـوزًا خالـدة عـلى ذلـك العـصر.



شكر وعرفان

أنا في غاية الامتنان لألكسندرا مينديس-ديس على الساعات الطويلة التي قضتها في القراءة والتعليقات، على بُعد محيط وستِّ مناطق زمنية. أَدينُ لبريدچيت توماس لإضافاتها وتحسيناتها القيِّمة جدًّا في اللغة والأسلوب. والشكر للكُتَّاب في ڤين رافت، بازل، على تشجيعهم لسنوات.

إلى دان لازار في رايرتس هاوس، أشكرك على منحكَ الرواية حياةً جديدة، وعلى جعلها أفضل كثيرًا. الشُّكر أيضًا لستيڤن بار على آرائه العظيمة. في سارة نايت، وجدتُ مُحرِّرةً مذهلة، أبقاني حماسها الذي بلا حدود ماضيًا قُدمًا. ممتنٌ لشاي أريهارت، كيرا والتون، كارين شولز، ليندا كابلان، أنسلي روسنر، سارة بريفوجل، هيثر لازار، باتي بيرج، كاتي واينرايت، راشيل بيركوفيتس، چيل فلاكسمان، وكريستين كوبراش؛ على دعمهم وعملهم الدؤوب. أشكركم دومنيكو سبوزاتو

وزمـلائي الآخريـن في مينفـيرا شـولين بـازل، وفرانـس جشـتيتر، وإرنسـت زوشـلنج، والقساوسـة في كاتدرائيـة القديـس سـتيڤن.

أمـي وأبي، بالطبـع لم يكـن لي أن أبـدأ حتَّـى دون دعمكـم وإرشـادكم. ريبيـكا وسـام، أشـكركما عـلى حبِّكـم. وأخـيرًا، بالطبـع، محيـط مـن التَّشـكُّرات لدومينيـك؛ بدونـكِ لم يكـن الكتـاب ليوجـد.

نبذة عن المؤلف

ولـدَ ريتشـارد هارڤـل في نيـو هامبشـاير، في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ودرسَ الأدب الإنجليـزي في جامعـة دورتمـاوث. يعيـش الآن في بـازل، سـويسرا، مـع زوجتـه وابنيـه. "الأجـراس" هـي روايتـه الأولى، وتُرجِمَـت إلى أكـثر مـن 15 لغـة.



مكتبة
تليجرام
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب

نبذة عن المترجم

عماد منصور، 1983 -

مُتَرجِم وروائي من مواليد القاهرة، حاصل على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية من جامعة القاهرة، ترجمَ العديد من المقالات النقديَّة والسينمائيَّة في دوريَّاتٍ مثل: مجلة "عالم الكتاب"، و"مجلة الفيلم". صدَرَت له رواية "تحت السَّمع والبَصَر" عام 2014، وترجمة "يوميَّات كافكا" عام 2019، وعن دار المحروسة صدَرَت له ترجماتٌ مثل: "ألواح موسى" لتوماس مان، والترجمة العربية الأولى لرواية "ماتيلدا" لماري شيلي، و"الرجل الذي كان الخميس" لچي كيه تشستيرتون، و"طفل فيلا" لدالين ماتي، و"ليليث" لچورج ماكدونالد، نابليون في نوتنج هيل لچي كيه تشستيرتون.

الأجراس

في آخر أضواء المساء الوردية، رأيتُ زوجة الرسّام في البورتريه، كان يستلقي ساكنًا على الأرض حيث كانت أماليا قد ألقته في غضبها، احتضنتُ قماشة الرسم إلى صدري وتذكّرت حينها أن الرسّام في حزنه، قد رسمَ بورتريهًا لها بدمائه. فقط لو أستطيع سكب دمائي في أغنية!

بين العاطفة والشجاعة، الموهبة والكفاح، الحب والغيرة، تتدفق بعذوبة حكاية رائعة عن مغني الأوبرا الشهير موسى فروبن الذي يمتلك على نحو فريد موهبة في أذنيه وجمالًا في صوته ومأساة في حكايته.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف: عثمان ستو و كريم هشام

المحروسة



